

661

روائع أندلسية إسلامية

ترجمة
و تقديم : صبرى التهامى





يقدم هذا الكتاب مجموعة مقالات ودراسات موثقة لكبار المتخصصين الإسبان والأجانب للعديد من الموضوعات المهمة التى تناولت مجالات شتى. وقد بدأ الكتاب بترجمة لكيفية تكوين وتشكيل شبه الجزيرة الإيبرية من الناحيتين الجيولوجية والجغرافية، ثم تتوالى موضوعات الكتاب التى تتطرق للشاعر الأندلسى الكبير ابن الجياب، وإلى وصف أو نقش شعرى لمدرسة غرناطة القديمة، وينتقل إلى الأندلس وعملاتها فى مختلف عصورها.

وقد أبدع كاتبو المقالات فى تقديم المادة العلمية وتوثيقها بدقة، وقد شفعوا ذلك بالاستشهادات من أهم المصادر والمراجع. وقد أبرز هؤلاء الكتاب مدى براعتهم فى عرض شامل للمصوغات غير الذهبية فى الأندلس، وكذلك فن الطهى، فضلا عن العلاقة بين المغرب والأندلس فى العصور الوسطى.

الغلاف : هبة حلمى

المشروع القومى للترجمة

روائع
أندلسية إسلامية

ترجمة وتقديم
صبرى التهامى



٢٠٠٤

المشروع القومى للترجمة

إشراف : د . جابر عصفور

- العدد : ٦٦١
- روائع أندلسية إسلامية
- صبرى التهامى
- الطبعة الأولى ٢٠٠٤

هذه ترجمة عن الإسبانية
لروائع أندلسية إسلامية
(عدة مقالات نُشرت فى عدة
مجلاَّت أدبية وعلمية متخصِّصة)

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة .

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 Fax : 7358084.

تهدف إصدارات المشروع القومى للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

إهداء المترجم

إلى روح والدى الطَّاهرة ،

طيَّبَ الله ثراه ، وأسكنه فسيح

جنَّاته جزاء كفاحه من أجل تعليمنا

الفهرس

مقدمـــــة

لقد قـمت – بعون الله و حمده – بتـرجمة هذه المقالات التخصـصيـة المتنوعة : الجغرافية و الجيولوجية و الأدبية و الفنية و الأثرية ... إلخ، واخترتها لتكون مادة هذا الكتاب الذى بين أيدينا . و قد يرى القارئ الكريم عدم ترابط الموضوعات التى تناولها الكتـاب، و هو مُحقٌ فى ذلك كل الحق ويعـضـد من وجـهـة نظر القـارئ أن المقـالات متتنوعة التخـصص متباينة المقـصد، إلا أنَّ التَّأنى و التَّريث فى الحكـم على الكتاب وفصوله المتعددة سيجعل القارئ يقتنع رويداً رويداً بأنَّ هناك خيوطًا خفيةً و نبضاتٍ حيةً وومضاتٍ متلاحقةً تربط بين موضوعاته.

فـالفصل الأول – على سـبيل المثـال – يتناول تضـاريس و شكل شبـه الجـزيرة الأيبيرية من الناحيتين الجيولوجية و الجغرافية، و تبرز منها فى المقام الأوَّل : إيبيريا السليكية و الجيرية و الطينية و البنية الصخرية و القطاعات الانكسـارية فيها و التتابع المناخى و تنوع و اختلاف السطح و مختلف السلاسل الجبلية الداخلية و الخارجية بها و المنخفضـات، و كل هذا يمدنا بمعلومات قيـمة و حيوية عن شبه الجزيرة الأيبـيرية جيولوجيًا و جغرافيًا .

و يأتى الفصل الثانى بعنوان " وصف أو نقش شعرى لمدرسة أو لجامعة غرناطة العربية " التى تأسست فى عهد يوسف الأوَّل أبى الحجاج (١٣٣٣ – ١٣٥٢) بناءً على مبادرة من الحاجب أبو نسيم الذى يرجع إليه الفضل فى تشييد سور ضاحية البائسين و توصيل المياه إلى حى أو ضاحية الـ MORO (المسلم) هذا فضلاً عن تشييده لحصون الحدود الغرناطية، حيث أمر ببناء ما يزيد على أربعين برجًا استخدمت كنقاط مراقبة لمداخل المدينة من بيرا (فى محافظة الميريا) حتى الضواحى الغربية . هذا

وقد شيدت المدرسة فى مواجهة المسجد الكبير بالمدينة، و الذى هدمه المسيحيون عقب إستردادهم لها لإنشاء الكاتدرائية و المحراب أو المصلى الملكى مكانه .

أمَّا الفصل الثالث و هو من أهم فصول الكتاب؛ لأنه يتناول حياة الشاعر ابن الجيَّاب . و ينقسم إلى جزأين : الأول مقدمة و الكتب و المراجع التى تعرضت للسيرة الحياتية للشاعر . و الثانى و قد تناول الحديث عن ابن الجيَّاب الإنسان فى شبابه و كهولته و شيخوخته و المناصب المهمة التى تولاها و مؤلفاته و أستاذيته لابن الخطيب كما تحدث أيضًا عن نجلى ابن الجيَّاب ثم مراجع هذا الفصل .

و فيما يتعلق بالفصل الرابع بعنوان " الأندلس و عملاتها " فهو يمثل انتقالاً من الأدب و السيرة الحياتية لابن الجيَّاب إلى الحديث عن العملات الأندلسية، و كيف أنَّ تلك العملات تم تطويرها خلال العصر الإسلامى . و لا ترجع أهميتها فحسب لكونها أداة اقتصادية فى غاية الحيوية بل أيضًا للمعلومات الوفيرة و الغزيرة التى تزودنا بها ، وتوضح لنا هذه العملات دار سك النقود التى أصدرتها و تاريخ ذلك بدقة بالغة ، وإلى جانب ذلك فقد تمَّ نقش أسماء الخلفاء و رؤساء الوزراء و الموظفين إلى غير ذلك من كبار الشخصيات بالدولة على هذه العملات بشكل تدريجى .

وبالنسبة للفصل الخامس " المصوغات غير الذهبية بالأندلس "، و هو فصل أعدَّهُ خمسة من كبار المتخصصين، و ذلك لأهمية الجواهر و مكانتها لدى الشعوب فى الماضى السحيق و القريب و عصرنا الحاضر . و قد استخدم المسلمون - بطبيعة الحال - المصوغات غير الذهبية كما استخدموا الذهبية أيضًا و الحلى من الأحجار الكريمة و شبه الكريمة .

و فى الفصل السادس " فن الطهى فى الأندلس " حيث استعرض كاتب المقال مناخ السلام و الطمأنينة الذى ساد العلاقات بين العرب والإسبان خلال القرن الثامن و إن كان كل شعب قد عاش منغلقًا على نفسه ، ثم تغير الحال فى القرن التاسع حيث تصاهر المسلمون مع أبناء البلد الأصليين حتى انصهر الوافدون مع أهالى البلاد لدرجة أنَّ أولئك شعروا بأن هذه الأرض وطنهم . وقد تناول الكاتب أهم الوجبات و الأطعمة الشهية كما يشير إلى ذلك كتاب الحُسْبَة .

وفيما يخص الفصل السابع " الأندلس و المغرب فى العصر الوسيط " (من القرن الحادى عشر حتى القرن الخامس عشر) فقد استعرض فيه فرانثيسكو بيدال كاسترو العلاقات و الروابط فى مختلف المجالات بين إسبانيا الإسلامية و المغرب و كيف كانت متصلة و مستمرة ثرية و متميزة ، و يرجع سبب ذلك إلى مدى التجانس بين الغرب الإسلامى فى العصور الوسطى، و هذا لا يمنع – بأية حال من الأحوال – من وجود كثير من نواحى الاختلاف والتميز و يقدم الكاتب فى هذا المقال بعض الأمثلة للعلاقات بين الأندلس والمغرب مثل أوجه الاتصال المشتركة والتأثيرات المتبادلة و عمليات التبادل بين الجانبين و ذلك من خلال متابعة أو تتبع لتاريخيهما إبَّان تلك الفترة .

وأمَّا عن الفصل الثامن بعنوان " الاقتراب من بعض المظاهر الاجتماعية للأسواق الأندلسية " نجد أنَّ مارجريتا لوبيث جوميث استعرضت فيه عدة جوانب منها ثقافة السوق و العنصر البشرى فى مختلف مجالات التجارة : مثل تجار المنسوجات والأقمشة و الحرير والخزف و الدباغة ... إلخ، ورأى ابن خلدون فيما يتعلق بأسعار السلع و البضائع فى المدن الآهلة بالسكان فى العالم الإسلامى ، ثم تطرقت فى نهايته إلى المهن و الحرف التى احترفها و توارثها خلفهم .

و بالنسبة للفصل التاسع " العهد المظلم للحمراء " فقد تحدَّث فيه فرناندو بالديس عن الاهتمام البالغ الذى أولته الدراسات فى المقام الأوَّل للقصور المشيدة فوق تل الحمراء وإغفالها بدرجة كبيرة لحصون وقلاع الحمراء على اعتبار أنَّ هذه ليست إلا مجرد إطار معمارى يحيط بهذه القصور ، ثم انتقل إلى الحديث عن الفتح العربى والمؤشرات الأولى للتعمير فى العصور الوسطى وكيف أن اسم الحمراء عندما ظهر لأول مرة لم يكن يحتوى على حرف B كما فى الكتابة الإسبانية ALHAMBRA وتحدَّث أيضًا عن جسر القاضى وباب الضفاف وكيفية إعدادهما ومهامهما ، كما أشار إلى التحسينات التى أدخلها عبد الله على التحصينات الدفاعية فى غرناطة ، واختتم الباحث حديثه فى نهاية بحثه قائلاً : إنه استطاع أن يقدم لنا موجزًا لتاريخ تل الحمراء اعتبارًا من مملكة القوط الغربيين فى طليطلة فى القرن السادس الميلادى حتى منتصف القرن الحادى عشر فى عهد الزيريين .

أمَّا الفصل العاشر " ملاحظات على الخزف النصرى : الشكل والمضمون " حيث تطرَّق فيه جيرمو روسيو بوردوى إلى أهمية الخزف الأندلسى شكلاً و مضمونًا؛ لأن هذا سيجعلنا نتعرف على المجتمع الذى استخدم هذه الأوانى الخزفية و ما كان يُقَدَّم فيها من طعام و شراب هذا من ناحية والمادة التى صنع منها والتقنية المستخدمة فى صناعتها و زخرفتها من ناحية أُخرى .

وفيما يخص الفصل الحادى عشر و هو بعنوان " دراسة منهجية وتصنيفية لخزف مدينة إلبيرا " من إعداد كارلوس كانو بييدرا؛ حيث ذكر فى بدايته أنَّ ليوبولدو توريِّس بالباس نشر مقالاً عام ١٩٣٩ بمجلة الأندلس عن الخزف الإسبانى الإسلامى الذى كان و لا يزال بمثابة دعوة لإعداد دراسات كاملة و متكاملة منظمة و منهجية عن الموضوع، و خاصة فى عهد الخلافة نظرًا لنُدرة المعلومات عن هذا الموضوع . و قد انتقد فيه جهابذة العلم من الإسبان لإغفالهم إنتاج الخزف الإسبانى خلال عصرين فى غاية الأهمية : عصر الخلافة القرطبية و العصر النصرى ، ثم استعرض ما قام به المتخصصون اعتبارًا من حقبة الأربعينات ، ثم تطرَّق بعد ذلك إلى علم الأنماط أو نظرية الأنماط بالنسبة للأشكال ، و تناول أيضًا فى دراسته القطع والأوانى الخزفية المفتوحة و المغلقة و تقنيات الزخرفة و التكسية أو التلبيس والعناصر الزخرفية بكافة أنواعها .

وفيما يتعلق بالفصل الثانى عشر " الملابس وأطقم المجوهرات والتزين والتبرج " ويتحدث مؤلفه عن مدى التزام النسَّاجين بالقوانين الفنية المعمول بها آنذاك، و كيف أنَّهم كانوا يسلمون الأقمشة مصنوعة وممشطة ومقصوصة وجافة وكان وزنها إلى جانب سقط الخياطة والقصاصة ينبغى أن يكون مساويًا لوزن الخيط المُسلَّم آنفًا ، ثم تحدَّث عن الملابس الملكية المزركشة الفاخرة . وتجدر الإشارة هنا إلى أنَّ هذه الأقمشة كانت مستوردة أو من غنائم الحرب و كان أكبر مركز لتجارة الأقمشة فى شبه الجزيرة الأيبيرية فى أيدى المسلمين . وأشار الفصل الثانى أيضًا إلى سهولة التمييز بين الفارق الاجتماعى على أساس شكل الملابس أو نوعية الأقمشة من حيث الجودة والرداءة والألوان و الزخارف المستخدمة فيها . وفى النهاية تحدث مؤلفا المقال عن ملابس الرجال و أصنافها .

وبالنسبة للفصل الثالث عشر "المياه و تعمير الحمراء بغرناطة " فقد تناول فيه أنطونيو مالبيكاكويو أهمية توفير المياه لمدينة تتألف من عدة قصور فوق ربوة جبلية في مكان تندر فيه المياه، و كيف أنَّ الدراسات كانت محدودة للغاية في هذا المجال ومقتصرة على قصر الحمراء أو المنطقة التي كانت تربط بين قصرين من تلك القصور . وقد أغفلت الدراسات كيفية تغذية المدينة بالمياه و تقنيات رفعها و توصيلها و توزيعها على كافة أرجائها ، و نظراً للتقنية العبقرية الفذة التي قام بها العرب آنذاك بتوصيل المياه و رفعها إلى الحمراء فإننا سنترك للقارئ الكريم يتلمس، و يعرف بنفسه هذه التقنية الفريدة في هذا الفصل المهم .

أمَّا في الفصل الرابع عشر " حكومة غرناطة عقب الاسترداد : الأوامر الصادرة عن قصر الحمراء عام ١٤٩٢ " تحدَّث فيه كاتبه عن تلك الأوامر التي أصدرها الملوك الكاثوليك لتحصين دفاعات المدينة و حمايتها عقب تسليمها من جانب المسلمين للمسيحيين ، ثم تطرق إلى التعليمات التي صدرت بشأن محاكمة المسلمين على أيدي قضاة من بني دينهم وفقًا لأحكام شريعتهم إذا كان النزاع بين مسلمين . أمَّا إذا نشب نزاع بين مسلم و مسيحي فسيتم النظر فيه بحضور قاضيين أحدهما مسلم و الآخر مسيحي . ومع ذلك فقد كانت هذه التعليمات شكلية ؛ لأن هناك أسبابًا عديدة للبرهنة على عزم الملوك الكاثوليك في القضاء على الإسلام في مملكة غرناطة ، من بينها الضغوط الشديدة التي مارسها هؤلاء على أبي عبد الله لكي يغادر المدينة و إلغاء الامتيازات التي مُنحت طوال الحرب للقادة المسلمين المتعاونين مع المسيحيين أو إنشاء بلدية إسلامية كانت مجرد سراب يحسبه الظمآن ماءً فلم يكن لها أية سلطات حقيقية وقد ألغيت عام ١٤٩٧ . و تجدر الإشارة هنا إلى أنَّ مدينة غرناطة كان بها ١٠٠,٠٠٠ مسلم عند تسليمها للمسيحيين .

الفصل الخامس عشر " اقتراح لمتحف قصر الحمراء " يقول مؤلفه ماثيو ريبيا أوثيدا : بعد انفصال المتحف الإسباني الإسلامي عن مجموعة قصر الحمراء بإدارة مستقلة عاد مرَّة أُخرى للإنضمام إليه . إنَّ أصل و تاريخ هذا المتحف و تطوره مرتبط تمامًا بالمجموعة النصرية ، وقد تمَّ اعتبار المتحف أثرًا وطنيًا عام ١٨٧٠ ، كما تناول الباحث أيضًا في مقاله عملية البحث عن مقر لهذا المتحف في قصر الإمبراطور

كارلوس الخامس و كيف توالت النداءات لإنشاء متحف وطنى عربى إسبانى ، و قد بدأت الفكرة تتبلور فى حقبة الأربعينات على الرغم من احتجاجات العالم الغرناطى الفذ بيادار استناداً إلى عدم وجود آثار كافية لإقامة متحف . وطالب بضمه إلى متاحف أُخرى وإن كان لم يعترض على استخدام قصر الإمبراطور كارلوس الخامس مقراً للمتحف . وقد تم اختيار ٢٥٥ قطعة لكى تكون نواة لإقامة هذا المتحف ثم أُضيفت إليها ٣. قطعة من متحف آثار غرناطة .

ويأتى الفصل السادس عشر بعنوان " مجموعة قصر الحمراء " و هو من إعداد بوريفيكاثيون مارتينيتو سانشيث حيث أشارت إلى أنَّ متحف الحمراء تم تكوينه بشكل طبيعى، و هذا أمر نادر الحدوث فى المتاحف الأثرية بإسبانيا ، و أضافت بأنَّ مجموعة مهمة من هذا المتحف تم تصنيفها و تجميعها فى القرن التاسع عشر وأخذت الطابع المتحفى منذ ذلك الحين ، وقد ضمَّ هذا المتحف قطعًا إسلامية نادرة إلى جانب قطع أُخرى من الشرق إلى جانب كثير من المقتنيات ، وجدير بالذكر أنه أُجريت عمليات الترميم لكثير من هذه القطع .

لقد كانت هذه عجالة سريعة و مقتضبة لما يتضمنه هذا الكتاب لنترك للقارئ العزيز الحرية الكاملة لكى يتجول بين صفحاته يطويها طيًا ليتعرف بنفسه على الكثير من المعلومات القيمة : الأدبية و الفنية و التاريخية.

والله ولى التوفيق .

د. صبرى محمدى التهامى زيدان

مصر الجديدة فى ١/١/٢٠٠٥

الفصل الأول

شبه الجزيرة الأيبيرية

الشكل والتضاريس :

يتميز شكل وتضاريس شبه الجزيرة الأيبيرية بكونه فى غاية التعقيد، ولذلك فإنّ مهمتنا ستكمن فى شرح الأحداث بوضوح تام؛ حيث سندرس فى المقام الأوّل العوامل التى أسهمت فى تكوين شكل وتضاريس شبه الجزيرة الأيبيرية(١) ، وفى المقام الثانى الوحدات الرئيسية التى يكمن إبرازها فى تضاريسها .

١- تشكيل التضاريس

إنّ المظاهر الثلاثة الكبيرة التى سنتحدث عنها فيما بعد تختص بالبنية أو التركيبة الحجرية والبنية أو التركيبة الصخرية والنظم التشكيلية الوراثية.

المواد الجيولوجية :

وفى محاولة للإيجاز فإن المواد المتنوعة التى تتشكل منها أرض شبه الجزيرة الأيبيرية يمكن توزيعها فى ثلاثة أقسام كبيرة استناداً إلى المعيار الذى استخدمه " إى إيرنانديث باتشيكو فى قسم حجرى معروف بالأراضى الإسبانية . ويمكن التمييز فعلاً بين أيبيريا سليكية وأخرى جيرية (من الحجر الجيرى) وثالثة طينية ٠ وفى الواقع

لا نشير فقط بهذه التسميات إلى وصف الصخور بل أيضًا إلى تاريخها وزمنها وإلى طبيعتها الوراثية كما سنرى على الفور .

أيبيريا السليكية :

وندرج تحت هذه التسمية كل المناطق الكائنة بشبه الجزيرة الأيبيرية؛ حيث يكثر المرمر (السليك اللامائى) . وتسود فيها التكوينات البركانية، وخاصة الجرانيت والتكوينات التحولية المتغيرة (مثل الإردواز الغرانيتى ومعدن الكوارتزيت والإردواز والرخام أو المرمر) والمواد الترسيبية (التكوينات الرملية التى تتكون من أجزاء الصخور والتكوينات الرملية فقط والإردواز) والتى لها قيمة معقولة . وبالإضافة إلى ذلك فإنَّ هذه هى أيبيريا القديمة التى تكونت فقط من المواد المتكونة فى الدهر القديم وما قبله أحيانًا .

والخلاصة أنَّ الأمر يتعلق بجزء من شبه الجزيرة الأيبيرية؛ حيث مازالت تكثُر المرتفعات منذ الانكسار الأرضى فى الدهر القديم والتى لم يحدث لها تغيير أو بتلك الأجزاء التى انهارت أو غُطيت ثانية بمناسبة الانكسار بجبال الألب أو بعد هذا الانكسار ؛ ففى الحالة الأولى نجد نتوء الهضبة وفى طرفها الشمالى الغربى، والذى يُطلق عليه مرتفع الجالايكو والذى يمتد من جاليثيا حتى وادي الدوٌيرو، ومجمل الأمر أنَّ هذه المواد تظهر فى قطاع عريض فى غرب شبه الجزيرة الأيبيرية بحيث يغطى منطقة جاليثيا تقريبًا وثلثى البرتغال والقطاع الغربى من الهضبة الشمالية وقطاع عريض من الهضبة الجنوبية وكذلك فى الهضبة الوسطى وجبال طليطلة . ومن جانب آخر فإنَّ أيبيريا السليكية تتألف من بقاع غير متصلة ترجع إلى التكوينات الترسيبية والأجزاء البارزة من المرتفعات التى اختفت تمامًا ، ومثال ذلك محور جبال البرانس – بقية المرتفع البرانسى وفقًا لآراء بعض المؤلفين – وبعض البؤرات الجبلية لسلسلة الجبال الساحلية فى كتالونيا – وأذكر المرتفع الكتالانى الباليارى – وسلسلة جبال النهر الكبير – والتى موادها قادمة من المرتفع المجاور.

وتُشكل جانبًا أيضًا من أيبيريا السليكية بعض القطاعات الصغيرة التى تأثرت بالبراكين الحديثة نسبيًا مثل النيوجينى (الجينى الحديث) والدهر الجيولوجى الرابع ولهذا فالأمر يتعلق فقط بشيوع هذه الصخور المكونة من مواد حديثة متولدة عن البراكين وخاصة المسكوبة أو المسفوكة ، وهذه البراكين تبدو بالنسبة لخطوط الصدوع الخارجية عمومًا التى تؤثر فى النتوءات القديمة ، وهى تنقسم إلى خمس مجموعات رئيسية :

(١) مجموعة أولوت (فى كتالونيا) .

(٢) القطاع الكائن بين ثينتور ولشبونة.

(٣) مجموعة جبل كالاترابا .

(٤) مجموعة الهضبة الجنوبية {هضبة مونشيكى فى الجاربى.

(٥) المجموعة الجنوبية الشرقية من الوادى الوسيط لنهر السيجورا عند نهاية جاتا .

أيبيريا الجيرية :

إنَّ المواد التى تتكون منها ما نستطيع تسميتها بأيبيريا الجيرية متعددة ومتنوعة عن تلك التى درسناها حتى الآن . إنَّها عبارة عن تكوينات رسوبية وترسيبية فقط وهى فى معظمها من أصل بحرى، والتى كانت قد أُودعت فى أعماق القنوات التى كانت تفصل بين المرتفعات البارزة وفى مياه البحر السابق على البحر الأبيض المتوسط إبَّان الدهر الجيولوجى الثانى (تيتيس) أو بحر الأطلسى الشرقى . ومن بين هذه المواد التى تمتد من العصر الجيولوجى الترياسى والفجرى؛ حيث تكثر الأحجار الجيرية ولكن مع وجود تكوينات ترسيبية أو رسوبية أُخرى (رملية ، طَفْل جيرى ، والمتكورة) التى فى بعض الأحيان هى السائدة فى هذه المرتفعات .

وتتمثل أيبيريا الجيرية فى ثلاثة أقواس أحدها يمثل ما قبل جبال البرانس ، الجبال الباسكية والجزء الشرقى من سلسلة جبال كانتبريا . وثانيها فى الاتجاه الشمالى الغربى إلى الجنوب الشرقى ويتألف من معظم المناطق الجبلية من سلسلة جبال أيبيريا ، أمَّا ثالثها فإنه يتمثل فى سلسلة الجبال المتاخمة للنهر الكبير . وفى البرتغال يظهر قطاع ضيق نسبى ولكنه متصل فى اكستريمادور البرتغالية . وهناك قوس آخر صغير يظهر فى الجاربى، ونلاحظ أنَّ الأحداث المذكورة أو المشار إليها يمكننا أنْ نستنبط منها منطقة جبلية فاصلة بين القطاع الغربى والشرقى من شبه الجزيرة الأيبيرية ، ومعظم المنطقة الغربية ينتمى إلى أيبيريا السليكية أمَّا الثانية فتنتسب على وجه الخصوص إلى أيبيريا الكلسية أو الجيرية .

فوجود الحجر الجيرى أو الكلسى يحدد بكثرة وجود مناطق كارسكية من كارست أو كارسو المنطقة اليوغسلافية التى تكوَّنت بشكل جوفى أو فى باطن الأرض (قمم جبال وكهوف) وسطحية (الجرافيت ، المنخفضات المستديرة ، منخفضات كبيرة متعددة السطوح).

أيبيريا الطينية :

ونشير الآن إلى القسم الثالث ذى التكوين الحجرى فى شبه الجزيرة الأيبيرية المتكونة من مواد رسوبية أو ترسيبية، ولكن بمميزات جبلية وزمنية أو تاريخية تختلف تمامًا عن القسم الثانى .

إنها عبارة عن تكوينات من أصل قارى أو بحرى التى تغطى أو تكسو أعمال مختلف الأحواض أو التى تكون حماية أو تغطية للنتوءات فى المرتفعات القديمة . وتسود المواد الرقيقة الهشة التى تُكَوِّنُ مزيجًا من الطَّفْل الجيرى والطينى وفى بعض الأحيان قوتها عشرات ومئات الأمتار حيث تبدو فيها آفاق مِلْحية متشابكة (الجص ، والملح العادى وأملاح البوتاسيوم) . وخصوصًا عندما يكون الغطاء الخضرى أقل كثافة فإنَّ هذه المواد تعانى من التآكل الشديد مما يؤدى إلى وجود منحدرات ذات

خنادق وحفرات وجبال سامقة مما يتكون معه سطح متميز الشكل يشبه المسمى بالأراضى الرديئة فى أمريكا الشمالية وهى أراضى شبه قاحلة .

كما أنَّه توجد صخور رسوبية أخرى مثل الجيرية أو الكلسية والرملية والكتلية – ومجمل الأمر أنَّ كل هذه التكوينات التى أشرنا إليها مؤخرًا قد أودعت إبَّان العصر الجينى الجديد فى المياه البحرية كما هو الحال فى القناة الخاصة بالنهر الكبير فى جنوب سلسلة جبال سييراً مورينا الحالية وعلى أطراف المحيط الأطلسى أو البحيرية كما هى الحال فى سطح الهضاب أو فى منخفض نهر إيبرو . ويرجع أصلها فى الغالب إلى ما بعد عصر الانكسار الأرضى، وبالتالى لم يبدُ عليها أنها تأثرت بأى تشكيل صخرى أو حركة صخرية ، وندرج رواسب العصر فى إطار أيبيريا الطينية وخاصة الغرينية أو الطميية منها .

وتظهر خمس مناطق كبيرة فى شبه الجزيرة الأيبيرية مغطاة بالمواد التى أسلفناها أخيراً[٢] . اثنان منها تكون غطاءً ترسيبيًا حول البروز الهضبى فى وسط وشرق من الهضبة الشمالية وفى الجهة الشرقية للهضبة الجنوبية . أما المناطق الأخرى فإنها تلتقى مع المنخفضات الثلاثة الخارجية المذكورة آنفًا أى : منخفض الأيبرو ومنخفض الوادى الكبير ومنخفض وادى التاخوو السادو .

٢- البنية الصخرية

إنَّ جميع التكوينات التى تحدثنا عنها أخيراً كان لكل منها رد فعل مختلف للاندفاعات الجبلية وفقًا لخصائصها وعمرها . إنَّ الانكسار الهيرثينيانى أدى إلى ظهور البروزات أو النتوءات الجديدة الكاملة للعديد من المرتفعات وتكوين قطاعات من سطح الأرض والتى محاورها تتجه من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى التى تُعْرَفُ باسم الرملية أو الإردوازية .

إنَّ مختلف مراحل الانكسار الألبى (نسبة إلى جبال الألب فى أوروبا) سيكون لها نتائج متنوعة وذات أهمية قصوى فيما يتعلق بالسطح الحالى لكونها عبارة عن

تحركات حديثة نسبيًا . وسيُفْهَمُ هذا التنوع والاختلاف فى النتائج إذا أُخذ فى الاعتبار القوى الجبلية فى جبال الألب سيكون لها تأثير مكثف على مواد مختلفة تمامًا مثل المرتفعات الصلبة ولكنها هشةً، والتى ستكون عُرضة للانكسار والمركَّبات الرسوبية أو الترسيبى التى تكَّونت طوال العصر الجيولجى الثانى وأوائل العصر الجيولوجى الثالث، وهى عامة سهلة الطَّرْقِ وبلاستيكية، وبالتالى فهى عُرضة للطى والانثناء الإجبارى .

قطاعات الانكسار:

إنَّ المرتفعات قد اختلف ردود أفعالها للاندفاعات الجبلية ؛ فقد انطمر البعض وانهار تمامًا كما هو الحال فى مرتفع نهر الأيبرو أمًّا الباقية فقد تركت فقط بعض الكتل الرسوبية أو الترسيبية كما حدث فى المرتفع الكتالانى الباليارى والمرتفع المجاور للنهر الكبير وفى بعض الأحيان تجمَّعت بسبب عمليات الطى الجديدة لسطح الأرض وفى النهاية المرتفع الكبير بالوسط بطرفه الجاليثى قد تصدَّى لعمليات دفع القوى الملموسة، ولكنه نظرًا لعجزه على الانثناء فقد تفتت داخليًا .

وقد نجم عن ذلك بالقطاعات الضعيفة الهشة بالمرتفعات المذكورة قطاعات انكسارية؛ حيث تمخضت عن وجود بعض الكتل المرتفعة المنفردة وأخرى غائرة أو مطمورة . ونجد أنفسنا أمام ظهور بعض النتوءات البارزة أو عند ظهور سلسلة من جبال من الكتل أى الطراز الصخرى المُسمى بالجرمانى . وهذه القطاعات الانكسارية نجدها طبقًا للصدوع الرئيسية التى تُحددها فى الاتجاه الشمالى الشرقى إلى الجنوبى الغربى بشكل عادى فى الاتجاه السائد للاندفاعات الصخرية القادمة من الجنوب والجنوب الشرقى .

وأكبر قطاع من الانكسار يبدو فى المنطقة الداخلية للنتوء الهضبى حيث يشكل السلسلة والتى نظرًا لموقعها بين الهضبة وشبه الجزيرة الأيبيرية أُطلق عليها سلسلة الجبال الوسطى . أمًّا المجموعة الجبلية الأخرى والتى تتمثل فى جبال طليطلة فإنَّها

أيضًا من أصل صخرى مُشابه . أمَّا فى القطاع الجنوبى من المرتفع الجاليثى فقد تَكَوَّنَ حقلاً حقيقيًا من الصدوع والتشققات الذى يشمل العديد من الكتل الصخرية المنفردة البارزة أو الغائرة، والتى أدَّت بدورها إلى تكوين تضاريس مُعقدة ، والاتجاه السائد أو الغالب فى هذه الحالة للكتل الصخرية غالبًا ما يكون من الشمال إلى الجنوب ، وهى تركيبات أو تكوينات مشابهة تمتد فى أراضى جاليثيا . ومن ناحية أُخرى فإن خطوطًا كبيرة من الصدوع والانشقاقات أو التشققات تُحدد الحدود المستقبلية لمرتفع الوسط بشبه الجزيرة الأيبيرية . ويظهر هذا جليًا واضحًا عند الحافة الجنوبية بمجموعة من الانكسارات والانثناءات والتى تُعرف باسم صدوع أو تشققات نهر الوادى الكبير وفى الجزء الأوسط من الحافة الغربية فى الأراضى البرتغالية .

أقواس الطَّى أو الانثناء :

فهى على العكس حيث إنَّ المواد الترسيبية أو الرسوبية المخزونة منذ أوائل العصر الجيولوجى الثانى فى الفجوات والقنوات البحرية القريبة من المنطقة الخالية لشبه الجزيرة الأيبيرية نجد أنها تنتمى إلى الانكسارات الألبية والتى طويت بدرجة كبيرة أو صغيرة وفقًا لتنوع مرونة المواد واختلاف شدَّة القوى الجبلية . وعلى أيَّة حال بدأت فى التكوين بشكل خاص منذ أواخر العصر الفجرى الجيولوجى (المرحلة الجبلية المسماة بالبرانسية) حتى منتصف العصر الميوسينى (المرحلة الأستيرية) سلسلة من الأقواس المطوية أو المنثنية سيكون لها أهمية كبيرة فى الهندسة المعمارية لشبه الجزيرة الأيبيرية .

و جدير بالذكر أنَّ عددًا كبيرًا من هذه الأقواس بدأ فى الظهور عند أطراف المرتفع الأوسط الذى يمثل مداخل الدولة والذى أدَّى إلى تكوين مُعظم ما نسميها بالسلاسل الخارجية . وفى أحيان أُخرى يمكن أنْ تقوم بنفس الدور مرتفعات أُخرى قد تورَّطت فى عمليات الطى أو الانثناء كما يحدث ربما فى الحالة البرانسية ، ووفقًا للوضع النهائى للمواد فإنَّه من اللائق التمييز على الأقل بين طرازين رئيسيين . عمومًا

تسود بنـية أو تركيـبة صـخرية فى طيات أو طبـقات ناعـمة ومتناسـقة (الطراز الجوراسى) وله أمثلة عديدة تبدأ من الجـبال الباسـكية حتى سـلسلة جـبال النهر الكبـيـر بالأندلس وتمـتـد أيضًـا من سـلاسـل مـا قـبل جـبـال البـرانس حـتى اكسـتريمادورا البرتغـالية ، وأحـيانًا أُخـرى عـلى العكس من ذلك نجد أنَّ الطيَّات أو الطبقات تبدو راقدة وحتى متداخلة متراكبة بعضها فوق البعض الآخر مكونة طرازًا يمكن أن يُسَمَّى برانس حـيث إنه توجـد على وجـه التـحـديد أمـثلة ممتـازة فى جـبال البرانس .

طرازان صخريان معقَّدان :

وتظـهر حتى الآن بنية أو تركيـبة صـخـرية تَنُـمُّ عن وجـود قوى جبـلية قوية من ناحية وكذلك طبـقات رسـوبية أو ترسـيبية تـقـوم بدور التلطيف والتشـحيم من جـهة أُخرى . وبهـذا الشكل يتم تكـوين أغطـية لانـهيالات الأرض (الطراز الألبى المشـار إليه آنفًا) والذى توجد منه عدة نماذج هامة فى شبه جزيرتنا الأيبيرية . ومن جـهة أُخرى يمكن أن يحدث هذا أحيانًا فى سلسلة جبال واحدة : أى بنية ذات انكسارات وكُتَل إلى جوار بنية أو تركيبة صخرية من الطيَّات أو الانثناءات .

وعقب عشرات من التحليلات الصخرية فى هذه الاتجاهات يبدو مما لا شك فيه أنَّ الطراز الألبى مـوجود فى الأرض الأيبيـرية فقط فى قطاع يشمل جزءًا كبـيرًا من سلسلة جبال النهر الكبير بالأندلس . وهناك أمثلة أو نماذج أُخرى مثل التى تظهر فى سلسلة الجبال المجاورة للنهر الكبير وفى جزر الباليار ولها أهمية محدودة وتنحصر فى بعض انهيارات الأرض الطويلة قليلاً . إن تعقيد هذا الطراز وصعوبات تفسيره أدتا إلى أن أخصائىّ الصخور كَرَّسَوا جُلَّ اهتمامهم فى شبه الجزيرة على تحليل سلسلة جبال النهر الكبير .

وفى نهاية الأمر وعند أطراف المرتفعات فقط يمكن أنْ يوجد طرازٌ جرمانى يمكن أنْ يؤثر على نتوء العصر الحجرى القديم بينما نجد أَنَّ غطاء المواد الثانوية يبدو مقطبًا

تقريبًا نظرًا لعمل أو لنشاط القوى الجبلية . ويتعلق الأمر ببنية هى فى نفس الوقت انثنائية وانكسارية أى من الطراز المُسَمَّى بالساكسونيكى ، وأفضل النماذج على ذلك تبدو فى شبه الجزيرة الأيبيرية عند الحافة الشمالية الشرقية للهضبة وفى بعض البؤرات أو الأماكن الجبلية لسلسلة الجبال الأيبيرية ، ولكن تتكرر حالات أُخرى متشابهة فى سلاسل جبلية انثنائية أو طيية خارجية أو بمواد تنتمى إلى العصر الحجرى القديم فى الأساس أو فى الطبقات السُفلية كما يحدث فى السلسلة الجبلية المجاورة للنهر الكبير وفى اكستريمادورا البرتغالية .

الحركات الأخيرة :

وإبَّان الحقب الأخيرة تم التعرف على أهمية الحركات الصخرية الأخيرة المتزامنة أو اللاحقة للمرحلة الأخيرة - المُسمَّاة بالرودانيكا - فى أواخر العصر الميوسينى وأوائل العصر البوليوسينو - من الانكسار الألبى ، وبالفعل فإن بعض عمليات الدفع هذه كانت لها أهمية نهائية فى بلورة الخصائص والمزايا التى تظهر باتساعها وحجمها بالوحدات الحالية للتضاريس، وعلى العكس من ذلك نجد أنَّ تحركات أُخرى مثل التى حدثت فى العصر الرابع، والتى كان لها صدى إقليميًا محضًا .

وطوال العصر الجيولوجى المُسمَّى بالنيوجينى حدثت ثلاثة تحركات كان منها اثنتان حاسمتان لتشكيل الوضع الحالى للمرتفع الأوسط أو المركزى وغطائه : فمن ناحية تقوَّست أو انحنت الطبقة السطحية للهضبة تحت تأثير تجمع هوائى كبير واسع مداه الانحنائى مما أدى إلى تشويه وانحناء وعدم استواء السهول الموجودة، ومن ناحية أُخرى وكنتيجة لعمليات الدفع المتكررة القادمة من الشرق فإن النتوء أو البروز الهضبى فى مُجمله قد تأرجح قليلاً مما أدى إلى ارتفاع الطرف الشرقى وأدى إلى انحنائه قليلاً فى اتجاه المحيط الأطلسى . وهناك تحرك آخر مشابه أدى إلى حدوث ارتفاع إجمالى لبعض الأماكن الجبلية الناتجة عن الانكسارات أو الانحناءات الألبية وفى هذه الحالة وكما حدث فى كثيرمن القطاعات البرانسية فإنَّ الارتفاعات الكبيرة التى نجمت عن

المواد المتأثرة من الانكسارات فى العصر الجيولوجى الثالث، والتى ترجع فى المقام الأوَّل إلى الانثناءات الناتجة، وكذلك إلى التحرك اللاحق لكافة الكتلة المطوية أو المنثنية .

فالأحداث ذات الأهمية الكبرى التى وقعت إبَّان العصر الجيولوجى الرابع كانت من المرجح وراء التحركات الأويستاتيكاس لمستوى المياه البحرية مما أدى إلى تكوين الشواطئ المعلقة فى محيط شبه الجزيرة الأيبيرية، والتى سنُشير إليها بإيجاز عند الحديث عن السواحل الأيبيرية . وهناك تحركات حدثت فى العصر الجيولوجى الرابع وهى أكثر تحديداً فى مظاهرها : فقطاعات الزلازل الشائعة حاليًا لها علاقة بالمناطق التى تأثرت بالانكسارات الهامة كما حدث فى صدع الوادى الكبير، ومن ناحية أُخرى فقد كانت هناك بلا شك تحركات أو هزَّات سطحية مثل التى أثرت فى مواد بعض الشرفات النهرية الأمر الذى أصبح لا شك فيه حاليًا بعد أن دُرِسَ إبَّان السنوات الأخيرة .

شبه الجزيرة الأيبيرية

٣ - النُظم الشكلية الوراثية :

كما هو معروف فإن النُظمَ الشكلية الوراثية التى ستؤدى إلى نحت وتشكيل الأشكال النهائية للتراكيب أو البنيات الجيولوجية التى درسناها حتى الآن لها علاقة وشيجة الصلة بخصائص ومميزات المناخ السائد ، ولذلك فقبل الإشارة إلى بعض النتائج للنظم الرئيسية الشكلية الوراثية فى سطح الجزيرة الأيبيرية سندرس باقتضاب التطور المناخى عبر الزمن والتوزيع المكانى فى وقت محدد للمناخ فى شبه الجزيرة الأيبيرية .

التتابع المناخى :

يوجد فى زمن العصر الجيولوجى الرابع تتابع للمراحل المناخية، وبالتالى للنظم الشكلية الوراثية المتنوعة .و لازال المجال مفتوحًا لقبول مرحلة جليدية رابعة على الرغم

من أنَّه لم يتم سوى البرهنة على ثلاث فقط فى شبه الجزيرة الأيبيرية تفصلها عصور ما بين المراحل الجليدية ، فالتناقض معروف فيما يتعلق بدرجات الحرارة والأمطار الهامة بين كل مرحلة وأخرى .

ومن جهة أخرى فمن الملائم أنْ نأخذ فى أذهاننا أنَّه حتى بين المراحل نفسها أو العصور الجليدية توجد خلافات فى مدة كل عصر أو مرحلة ذات دلالات مناخية . وفى هذا الصدد فإنَّ أهم مرحلة أو عصر جليدى يُسمَّى فى إطار المصطلحات الجيولوجية الألبية بعصر الرِّيس . وإبَّان هذا العصر وعلى الأقل فى بعض الأماكن الجبلية كما يحدث فى جبال ليون توجد أنهار جليدية على شكل قبعة . وربما يرجع ذلك إلى وجود تضاريس مكتملة أدت إلى تكوين هذه التراكمات الجليدية . وعلى العكس من ذلك فإنه خلال عصر الويريم ذى الأهمية القصوى الشكلية فى السطح الحالى لكونه الأخير؛ فقد ثبتت السيطرة للأنهار الجليدية بالوادى من النمط الألبى . ومن الضرورى أيضًا الإشارة إلى أنَّ كل مرحلة أو عصر مناخى ينقسم إلى عدة مراحل مختلفة مما يؤكد ويبرز تعقيد هذه المظاهر الجيولوجية أو التى يُشكل تنظيمها أو تصنيفها مشكلة شائكة فى دراسة تضاريس شبه الجزيرة الأيبيرية .

وتكمن آخر خاصية أساسية أو جوهرية فى أنَّ التطور المناخى لم يقتصر فى شبه الجزيرة الأيبيرية على مجرد تتابع عصرين جليديين وما بين الجليديين . توجد مناطق أو مساحات يمكننا أن نعزيها إلى الرياح الشرقية والجنوبية التى تجنح فى غالبية الأحيان إلى التسبب فى درجات الحرارة المرتفعة . وفى ظلِّ هذه الظروف المناخية لم يحدث على وجه التحديد ثبات فى القطاعات المستوية أو السهلية والوديانية من هذه القطاعات الحارة نسبيًا، وبالتالى لم تشهد هذه المساحات مناخًا جليديًا أو شبه جليدى . وإذا حدث تساقط أمطار بغزارة فإنَّها لم تحدث على شكل جليد بل على شكل أمطار . وبالتالى فإنَّه فى هذه الحالة يجب أنْ نضع فى الاعتبار بأنَّ التتابع المناخى الكائن هو فى الواقع قد تمَّ فى فترات ممطرة وما بين هذه الفترات المطيرة . ومن جديد يتضح من هذه الحالة أن خاصية التتابع أو الانتقال التى شهدتها شبه الجزيرة بين المناخات المتعددة المعتدلة والحارة ما بين المدارية .

تنوع السَّطح واختلافه :

إنَّ وجود حدود مناخية بين أو داخل عصر محدد تفصل بين عصرين كبيرين يجبرنا أو يضطرنا للحديث عن دلالة المناخ على سطح شبه الجزيرة الأيبيرية فى وقت محدد ؛ لأنَّه إذا لم يكن الحديث صحيحًا على سبيل المثال عن العصر الجليدى فى إحدى دول أوروبا الوسطى ، بمعنى أنَّ الحركة الجليدية أثَّرت بشكل موحد فى كل المنطقة فإنَّه من الخطأ الجسيم حينئذ الحديث عن فكرة مشابهة فيما يتعلق بشبه جزيرتنا الأيبيرية؛ لأنَّه فى كل لحظة تظهر قطاعات واسعة وشاسعة بعيدة تمامًا عن تأثير المناخ الجليدى . ومن الملائم التمييز خلال عصر محدد بين قطاعات جليدية وشبه جليدية ومطيرة وفى عصر آخر بين شبه الجليدية والمطيرة والقاحلة أو الجافة .

فالدراسات التى أُجريت حتى الآن يبدو أنَّها تعضد فكرة التطابق الزمنى بين العصور الجليدية والعصور المطيرة ، ولكن التنوع المكافئ كبير بلا أدنى شك . ومن جهة ثانية فإنَّ سيطرة المناخ الجليدى فإنَّ هذا التأثير الجليدى سيقتصر على مساحات جبلية قليلة تتعلق بالسلاسل الجبلية الشمالية والوسطى . أمَّا فى بقية المناطق المذكورة فإنه يسود – فى الواقع – مناخ شبه جليدى يمكن ملاحظة تأثيراته وآثاره حتى فى أسفل الجبال والهضاب الداخلية أى حتى ارتفاع ٥٠٠ – ٦٠٠ متر . وفى بقية أرجاء الجزيرة الأيبيرية أى فى السهول الجانبية وشبه الجانبية للجبهتين الشرقية والجنوبية بحيث تشمل الجزء الأكبر من منخفض الوادى الكبير، وقد رسَّخ فى هذه المنطقة مناخ مطير .

ويجب أنْ نضع فى اعتبارنا بالإضافة إلى ذلك أنَّ بين المنطقة الجليدية والممطرة توجد منطقة انتقالية تتباين فى ارتفاعها وعرضها فى مختلف العصور بما فى ذلك أثناء كل عصر على حدة وفقًا لمختلف المراحل المناخية والتغييرات الفصلية .

وفى العصور ما بين الجليدية فإن الوضع يختلف تمامًا ؛ فالتأثير الجليدى يتقلص بشكل ملحوظ إلى أن يتلاشى تمامًا أما شبه الجليدى فإنَّه يقتصر فقط على الجبال العالية وفى الشتاء على الجبال متوسطة الارتفاع . وفى الواقع فإنَّ مناخًا

مطيراً قد رسَّخ على معظم المناطق الجليدية القديمة وكذلك شبه الجليدية أو المحيطة بالجليدية . أمَّا فى بقية أنحاء شبه الجزيرة الأيبيرية – المناخ المطير المسيطر قديماً – فإنَّ مناخاً حاراً وجافاً سيسود وسيغلب عليه بعض الملامح اليابسة .

الشَّكل الوراثى للنظَّام الجليدى :

سنشير بإيجاز إلى بعض الخصائص والنتائج لكل واحد من الشكل الوراثى للنظم الجليدية فى شبه الجزيرة الأيبيرية ؛ حيث إننا أشرنا إلى أهميتها زمانياً ومكانياً . ففى العصور الجليدية فإنَّ الجليد استقر وتركَّز فى الأجزاء الأكثر ارتفاعاً من سلاسل الجبال الأيبيرية ، والتى بلغت ارتفاعات قممها ١٥٠٠ متر كمتوسط فى سلسلة جبال كانتبريا ، وبلغ الارتفاع ١٨٠٠ متر فى جبال البرانس ، و٢٠٠٠ متراً فى سلسلة الجبال الوسطى ، وحتى ٢٤٠٠ متر فى سلسلة جبال سييرا نيفادا ، وكما هو منطقى فإنَّ متوسط الارتفاع لابد أن يتزايد لكى يكون به جليد مستمر، ويحدث هذا كلما اتجهنا جنوباً .

واعتباراً من هذه الأغطية كثيرة الثلوج فإنَّ الألسنة الجليدية كانت تتجه نحو أسفل الجبل أو قاعدته حتى بلغت فى منحناها ٨٠٠ متر كأقصى حد فى أراضى سلاسل الجبال الشمالية ، و١٤٠٠ متر فى الجبال بالمنطقة الوسطى ، أمَّا فى المنطقة الجنوبية فإنَّ الأنهار الجليدية بالوديان كانت تهبط مالا يقل عن ١٨٠٠متر ارتفاعاً . وبهذا الشكل ظلَّ متأثراً بالجليد جزء كبير من جبال البرانس وقمم جبال أوروبا والمرتفعات المجاورة فى سلسلة جبال كانتبرا وسلسلة جبال سيجونديرا فى جبال ليون وبؤرتين جبليتين فى سلسلة جبال أيبيريا (ديمندا أوربيون ومونكايو) وأربعة جبال بالمنطقة الوسطى (سوموسييرا ، جوادراما ، جريدوس واستريا) وسييرا نيفادا فى سلسلة جبال النهر الكبير . ونتيجة للنشاط الجليدى فقد ظلَّ فى هذه المرتفعات والتضاريس البارزة مجموعة من أشكال التعرية (التآكل) مدرجات طبيعية ووديان ...إلخ ومستودعات للطين وركام الأنهار الجليدية ، والتى سنشير إليها فى الحالات الأكثر أهمية عند الحديث عن وحدات التضاريس .

النّظام شبه الجليدى :

إنّ عمل وردود فعل هذا النظام لم تدرس حتى الآن إلا قليلاً فى شبه الجزيرة الأيبيرية ، ومع ذلك فلا يوجد مجال للشك فى أنّه إبّان عصور محددة قد أثّر هذا النظام على أماكن ومساحات جبلية ، ومن المرجح أن يكون تأثيره قد عَمّ معظم الهضبة وكذلك منخفض نهر ايبرو. وقد أُشير مؤخراً إلى أنّ تأثيره قد امتد حتى وصل فى بعض الأحيان إلى نفس الساحل الشرقى . وعلى الرغم من أنّ النتائج الشكلية للنظام شبه الجليدى يتم ترجمتها بشىء من التفصيل فإنه من الواضح أنّ هذا النظام كان عاملاً مهمًا فى تشكيل وتكوين مواد فُتَاتية أو فضلاتية وكذلك فى تكوين منحدرات الجبال ؛ ففى العملية الأولى تشترك ظاهرة تفتت الصخور نتيجة الضغوط الناجمة عن تجمد المياه الموجودة بداخلها مما أدى إلى وجود كتلة مهمه من الحصيات والزلط ذات أركان وزوايا مكونة مستودعًا فى أسفل المنحدر . ومن جهة ثانية فإنّ ظواهر انتقال المواد شبه الجليدية كان لها دورٌ فعال فى تشكيل وتكوين منحدرات الجبال المتوسطة والمرتفعة .

وتقول دراسات حديثة بأنّ هذا النظام تتعدى أهميته الأماكن والمساحات الجبلية ؛ فالمنحدرات الناجمة عن التعرية التى تظهر فى بعض المناطق ما بين الجبال أو فى محيطها الخارجى كما هى الحال فى بعض المناطق السابقة على جبال البرانس فإن أصلها يرجع إلى النظام شبه الجليدى . وفى الهضبة ومنخفض نهر الأيبرو نجد أنّ الزلط أو الحصى الناجم عن تفتت الصخور نتيجة ضغوط الماء الذى تجمد بداخلها فضلاً عن بعض المواد اللينة قد لعبت دورًا حاسمًا ، وقد ألحت دراسات عديدة مؤخراً على أنّ كثيراً من المنحدرات الجبلية الناجمة عن التعرية فى هذه الوحدات التضاريسية يرجع الفضل فى تكوينها إلى العصور شبه الجليدية وليس إلى النظام القاحل أو اليابس كما كان يشاع فى الماضى .

النّظام القاحل أو اليابس :

فالفترات التى تخللت العصور المطيرة فى أواخر عصر البوليثينو والعصر الجيولوجى الرابع سواء الفترات الحارة أو الجافة فإنها تُمثِلُ مناطق متعددة من شبه الجزيرة الأيبيرية .

١- الهضبة والسَّلاسل الجبلية

نتوء وغطاء الهضبة :

تغطى الهضبة مساحة ٢١٠٠٠٠ كم٢ تقريبًا ، وسلسلة الجبال الوسطى بمتانتها ، والتى تمر بالهضبة كلها فى الاتجاه الشمالى الشرقى والجنوبى الغربى ، ببساطة من الشرق إلى الغرب تؤدى إلى تقسيم الهضبة إلى هضبتين عاليتين منفصلتين تمامًا ؛ فالهضبة الشمالية يتراوح متوسط ارتفاعها ما بين ٧٠٠ و٨٠٠ متر ، بينما يتراوح ارتفاع الهضبة الجنوبية ما بين ٦٠٠ و٧٠٠ متر فى قطاعها الداخلى . ويجب أنْ نأخذ فى الاعتبار أنه فيما يتعلق بالقسم الثانى فإنَّ نتيجة تأرجح الكتلة الهضبية الذى سبق أن أشرنا إليها آنفًا ، بينما نجد أنَّ الطرف أو الحافة الشرقية فى ألباثيتى يبلغ بل يتجاوز ٨٠٠ متر ، أمَّا الجهة الغربية التى تقع فى أراضى إكستريمادورا الإسبانية والميتخو لا يتجاوز متوسط ارتفاعها سوى ٢٠٠ متر وفى القطاعين الأخيرين فإنَّه إلى جانب ذلك يوجد خلل وتشوه فى مستوى متوسط الارتفاع بالهضبة، والذى يقل تدريجيًا وبشكل ملحوظ كلما اقتربنا من المحيط الأطلسى .

فالنتوء الهضبى يتكون من مواد توائم جبلاً فريداً فى شخصيته الجيولوجية سواء بسبب امتداده ووضعه المركزى أو لعدم تلاشيه عند حدوث الانكسارات الألبية على عكس ما حدث وأشرنا إليه آنفًا بالنسبة لحالات أُخرى ؛ ففى هذه القاعدة الواسعة تسود أحجار الجرانيت والأردواز والكواتزيت أو المرمر ، وبوضوح فإنَّ الأمر يتعلق بالتكوينات القديمة التى تكوَّنت أو التى انطمرت قبل الانكسار الهرثينيانى الجيولوجى والذى اتجاهه الأرموريكانى الأصلى واضح تمامًا فى قطاعات كثيرة ، وأفضل مثال لهذا الحدث الأخير نلحظه فى الحواجز المرمرية بوسط إكستريمادورا الإسبانية ، وفى قطاع ينتمى إلى منطقة مرتفعة جداً ويتطور مورفولوجى متميز أى أنَّه تحت تأثير عوامل التعرية الحالية بدأت فى الظهور الحالة الصخرية القديمة ، ومؤخراً ساد التمسك بأنَّ بعض المواد المعينة للقاعدة الهضبية طاعنة فى القِدَم لوجود على ما يبدو تكوينات بلا شك قديمة .

وفى الوقت الحالى فإنَّ النتوء الذى ينتمى للدهر القديم وما قبل الكامبريكو يكثر فقط فى الجزء الغربى من مساحة الهضبة . أمَّا فيما يتعلق بالجزء الشمالى فإنَّ هذا النتوء لا يبرز حتى نقترب من وادى نهر إيلسا ويمتد فى القطاع الجبلى بتراس أوس مونتيس . وبالنسبة للهضبة الجنوبية على العكس من ذلك نجد أنَّ المواد القديمة تظهر بكثرة فى المنطقة الوسطى وفى كل منطقة أو إقليم إكستريمادورا الإسبانية وفى جزء كبير من الميتيخو .

أمَّا بقية الهضبة الوسطى العليا فعلى العكس من ذلك حيث تظهر مكسوَّة بمواد نيوجينية أو من العصر الجينى الجديد ، وخاصة فى العصر الميوسينى والموجودة فى قاع حوضين واسعين تكونا عقب الانكسار الألبى بالهضبة الشمالية والجنوبية . ويتعلق الأمر بمجمع للمواد الطينية الأفقية وشبه الأفقية أو تحت الأفقية ، والتى تسببت فى تكوين شكل سطحى أو لوحى . وهذا هو ما يميز المنظر القشتالى بشكل عام وأرض كامبوس بالهضبة الشمالية أو ديلامنشا فى الهضبة الجنوبية . وأشكال التضاريس تكاد تكون واحدة ؛ ففى هذا الأفق الواسع تبرز هضبة وحيدة أكثر ارتفاعًا (بارامو) وهى محمية عمومًا بطبقة من الحجر الجيرى وكذلك بالمنحدر الذى عانى كثيرًا من جرَّاء التآكل نتيجة عوامل التعرية على شكل أراضى وَعِرة .

وفى وحدة السطح لم تؤثر فقط العوامل الصخرية والحجرية البنية ، وفى المنطقة التى يظهر فيها نتوء الدهر القديم تظهر هناك عدة مساحات أو أسطح ناجمة عن التعرية وأقدمها السطح الذى يسبق ترياسيكا والناجم عقب الانكسار فى العصر إيرثينيانو ، ولكن أهم سطح التعرية هو الذى يطلق عليه اسم الرئيسى والذى تمكن من تكوين شبه سهل حقيقى . ومن المتعذر حتى الآن تثبيت زمن أو تاريخ صحيح أو دقيق وعصر تكوين شبه السهل هذا ، ووفقًا لما يراه شوينزنير فقد تمَّ ذلك فى وسط العصر الميوسينى ومع ذلك فإنَّه من المرجح أنْ يكون تشكيل شبه الوادى أو السهل قد تمَّ فى فترات طويلة طوال جزء كبير من العصر الجيولوجى الثانى حتى عصر الباليوجينى الجيولوجى ، وفى بعض الأحيان إلى بدايات أو أوائل العصر الميوسينى .

وبعد مراحل الانكسار الألبى تكوَّن فى أواخر العصر الميوسينى الجيولوجى ما يُسَمَّى بشبه السهل الذى أثَّر فى قطاعات معينة بالجزء العلوى من السطح وكذلك فى المواد الثانوية المتراكمة فى المحيط الخارجى للهضبة (كما فى سولى سابريس) . ومن ناحية أخرى ظهرت انهيارات حديثة ذات قيمة محلية فى أسفل منحدرات سلاسل الجبال فى أواخر عصر البليوثينو الجيولوجى وأوائل العصر الجيولوجى الرابع وخاصة فى منطقة بيافرانكيا .

وإلى جانب المجارى النهرية الكبيرة ، وخاصة فى الجزء الأوسط توجد ثلاث شرفات نهرية ، أعلاها يبلغ ارتفاعها ٨٠ متراً بالنسبة لمجرى النهر الحالى . ويتعلق الأمر إذن بمستودع طميى أو غرينى لاحق من المحتمل أنْ يكون قد تمَّ تكوينه خلال الفترة قبل الأخيرة أو ما قبل قبل الأخيرة من العصر الجليدى . وجدير بالذكر أنَّ الشرفات أو المشارف النهرية اعتادت الاتصال بمنحدرات التعرية التى تكوَّنت فى العصر الجيولوجى الرابع ، والتى أثَّرت على المواد اللينة للطبقة السطحية المكوَّنة فى العصر الجيولوجى الثالث .

الدَّور الرَّئيسى للهضبة :

إنَّ وجود هذه الهضبة الكبيرة المرتفعة له أهمية كبيرة فى مجموعة التضاريس الأيبيرية وعلى وجه الخصوص فى إسبانيا . ولنأخذ فى الاعتبار أن إسبانيا هى الدولة الثانية فى أوروبا التى يبلغ متوسط ارتفاع جبالها ٦٦٠ متراً بعد سويسرا التى تحتل المرتبة الأولى فى القارة الأوروبية .

ومن اللائق إبراز أنَّ هذا الارتفاع الشاهق لا يتعلق بكونها شبه جزيرة جبلية على الرغم من ظهور أقواس جبلية قوية ومتينة كما فى جبال البرانس وجبال النهر الكبير والجبال الأيبيرية بل يرجع ذلك إلى وجود الهضبة الوسطى ذات المساحة الشاسعة والمرتفعة (كما فى شكل ٢ ، ٣) وبالفعل فإنَّه بالنسبة لإسبانيا فإنَّ متوسط الارتفاع فيها يتراوح ما بين ٤٠٠ و١٠٠٠ متر ، وهى تشمل أكثر من نصف المساحة

الكلية وعلى وجه التحديد ٥٦,١٪ من الأراضى الإسبانية بشبه الجزيرة الأيبيرية ، بينما نجد أنّ الأراضى الأكثر ارتفاعًا أقل بكثير ؛ ففى إسبانيا نجد أنّ الأراضى التى يزيد ارتفاعها عن ١٢٠٠ مترًا لا تمثل إلا ٨,٤٪ فقط من أرض شبه الجزيرة أمّا فى البرتغال حيث يغلب على أراضيها الوديان والسهول فإنّ المساحة الجبلية المرتفعة لا تُمثل سوى ٠,٥٪ فقط .

كما أنّ الهضبة تحدد أيضًا الشكل الموحد تقريبًا وهو السمة العامة تقريبًا فى داخل شبه الجزيرة الأيبيرية فقمم الهضاب التى تتعاقب دون انقطاع وتغطى الأفق باستثناء بعض الصحارى حتى عندما نقترب من المنحدرات الجبلية يمكن أن يحدث أنّ بعض الأشكال الأفقية أو شبه الأفقية تستمرحتى تصل إلى منحدرات تعرية ملساء أو بعض الكتل المرتفعة أو المنهارة فى الجزء العلوى أو المنتهية بركائز أو منصات بنائية ينجم عنها محيط مرتفع الأسطح المنبسطة تقريبًا (أراضى مقفرة) ، وهذا المنظر العام فريد داخل شبه الجزر الأوروبية الكائنة بحوض البحر المتوسط ، ولكى نجد شيئًا مشابهًا يجب أنْ نفكر فى الهضاب الجزائرية أو فى هضاب أناتوليا كأفضل مثال .

السلاسل الداخلية :

إنّ الهضبة الأيبيرية المرتفعة تقطعها سلسلة الجبال الوسطى ذات التكوين الجبلى من الكتل . وتظهر من الشرق إلى الغرب أربع مساحات كبيرة تتجاوز ثلاث منها ٢٠٠٠ متر فى الارتفاع وهى : جريدوس وسوموسييرًا وجوادارّاما (ويبلغ ارتفاع قمة المنصور ٢٥٩٢ مترًا) أما السلسلة الرابعة فهى جاتا . وفى البرتغال تبرز سلسلة إيستريا (وارتفاعها ١٩٩١ مترًا وهى أعلى قمة بالدولة البرتغالية) ، والتى إلى جانب لوساوأزور وجواردونا تشكل الجانب الغربى من النظام الجبلى فى البرتغال .

وعمومًا فإنّ الأسطح المرتفعة التى تؤثر على الوجه العلوى لبعض الكتل يمكن اعتبارها بقايا انهيارات تنتمى إلى شبه السهل الرئيسى الكائن بالهضبة . وفى السلاسل البارزة (جوادارّاما وجريدوس) نجد آثار العصر الجليدى واضحة جلية

وتمثل أهمية كبيرة فى مرتفعات ايستريا فى البرتغال حيث كانت الأمطار الجليدية - بلا شك - غزيرة . أمَّا منحدرات التعرية التى أثرت على المواد الترسيبية أو الرسوبية القريبة من الجبل فقد امتدت صوبها وقد اشتبكت مع قاعدة مختلف هذه المساحات أو السلاسل الجبلية .

وجبال طليطلة فى وسط الهضبة الجنوبية تشكل نسخة طبق الأصل لما هو فى سلسلة الجبال الوسطى فى الجنوب ؛ فالكتل الأولى المرتفعة لا تظهر حتى قرب المدينة ومنها أخذت تسميتها جبال طليطلة ؛

وعلى أية حال فإنَّ الارتفاع ملحوظ حيث يبلغ فى هذه الجبال ١٥٠٠ متر أمَّا فى إكستريمادورا الإسبانية فإن الارتفاع فى بيور كاس يصل إلى ١٦٠١ متر وكذلك فى سلسلة جبال ألتاميرا وفى البرتغال نجد سلسلة جبال القديس ماميد . وجدير بالذكر أنَّ الأمطار المائية أو الجليدية كانت أقل أهمية نسبيًا . وعلى العكس من ذلك فإنَّ تأثير النظم اليابسة أو الجافة مما أدى إلى تكوين صخور كبيرة ، وكذلك إلى تكوين جبال منفصلة فضلاً عن وجود مستودعات للحصى تغطى مساحات واسعة .

٢- وحدات خارجية

لقد أشار بدقة بالغة كاتب إسبانى معاصر إلى " أنَّ قشتالة لا ترى البحر" ، والآن لن نضيف فقط فى هذا التحليل المقتضب للتضاريس إلى كون الهضبة بعيدة عن البحر المتوسط أو عن المحيط الأطلسى بل أيضًا إلى أنَّ حواف جبلية بارزة تقريبًا على طول المحيط الخارجي تفصل بين الهضبة الوسطى والأراضى الساحلية . والهضبة بحزامها الجبلى ظلَّت كقارة صغيرة داخلية فى شبه الجزيرة المرتفعة المسمَّاة بالأيبيرية ، وتبدو الهضبة الشمالية وهى محاطة تمامًا بسلاسل جبالها الخارجية من كافة الجهات وكأنها حوض أفريقى (كما يقول ب . بيروت) .

الحافة الشمالية الغربية :

يبدأ الحزام الجبلى فى الغرب والشمال الغربى بسلاسل الجبال البرتغالية شمالاً وجبال ليون الإسبانية ، وتتكون الأولى منها من كتل مرتفعة تتجه من الشمال إلى الجنوب . ومن أهم هذه المناطق نجد خيريث ولاروكو (ويبلغ ارتفاعها ١٥٢٥ مترًا) وفى أقصى الجنوب نجد بيدريلا وماراو ومونتمورو . وفى الشرق نجد أن بين هذه السلاسل الجبلية والحافة الغربية توجد منطقة قاحلة عريضة وهى تراس أوس مونتيس .

وفى جبال ليون فإنَّ الطبقة الصخرية لها أهمية كبيرة نظرًا لغلبة المواد التى تنتسب إلى الدهر الجيولوجى القديم وهى مواد أقل صلابة وخاصة الأردواز ، وهناك العديد من المناطق الجبلية المرتفعة مثل سلاسل جبال خيسستريدو وسيجونديرا وتيلينو التى يبلغ ارتفاعها (٢١٨٨ مترًا) وجبال أكيليانوس التى تتجاوز ٢٠٠٠ متر ارتفاعًا . أمَّا أسطح القمم الجبلية فقد تأثَّرت بالعصر الجليدى فى مرحلة ريسو تقريبًا ؛ حيث تكونت قبعات جليدية مما أدى إلى ظهور أشكال هضبية كما حدث فى منطقة جبال الألب الإسكندنافية خلال عصر الوُرْم سادت الأنهار الجليدية فى الوديان . إنَّ جميع الأشكال والمستودعات الناتجة عن ذلك تبدو بوضوح بالقرب من جبل تربينكا فى سلسلة جبال سيجونديرا .

سلسلة جبال كانتبريا :

هى عبارة عن مجموعة من الكتل الجبلية المرتفعة والمتصلة ، وهى تمثل الحافة الشمالية للهضبة . وعلى الطرف الآخر توجد سهول ساحلية ضيقة وشبه ساحلية عندما لا تصل المنحدرات الجبلية إلى بحر كانتبريا مباشرة . والمناطق الأكثر ارتفاعًا تظهر فى القطاع الغربى ، وهى مكونة من مواد ترجع إلى العصر الجيولوجى القديم ومن أبرزها قمم أوروبا التى يصل ارتفاع فى ثيريدو ٢٦٤٨ مترًا ، وفى هذه القمم

تظهر بوضوح آثار العصر الجليدى . إنَّ أهمية هذا المرتفع ترجع فى إعاقته للاتصالات مع الساحل، ومن هنا كان لزامًا إعداد ممرات جبلية وخاصة فى بخاريس .

فالقطاع الجنوبى الذى يمتد فى الجبال الباسكية يتكون من مواد ثانوية فى معظمها أحجار جيرية ، أمَّا الثنايا فقد كانت أقل عنفًا بصفة عامة ، ولهذا توجد أمثلة ممتازة للطراز الصخرى الذى ينتسب إلى العصر الجوراسى الجيولوجى . وفوق هذه المواد الجيرية تكون شكل كارسى الذى أثَّر على الأحجار الجيرية التى ترجع إلى العصر الجيولوجى القديم بالقطاع الغربى الذى يوجد به كثير من القمم والكهوف والمغارات؛ حيث عاش فيها الإنسان فى العصر الحجرى القديم (كما فى التميرا وكاستيلو ...إلخ) ومنخفضات سطحية (كما فى حوض سانتيانا على سبيل المثال) .

السلسلة الأيبيرية :

إنَّها تفصل الهضبة عن منخفض الأيبرو، ويرجع تعقيد هذه السلسلة إلى تكوينها الحجرى والصخرى . وبالفعل تكثر فى بعض القطاعات المواد الأولية كما فى سلسلتى ديماندا وأوربيون بينما فى الباقى تغلب عليها المواد الثانوية ، ولكن هذه المواد تأثَّرت كثيراً بانكسارات النتوء الذى ينتسب إلى العصر القديم مما يؤدى فى بعض الأحيان إلى طراز ساكسونى واضح ، ويبدو استمرار شبه السهل الرئيسى للهضبة نجم عنه تكوين امتداد مرتفع ومشوه لهذا السطح المنهار أو المتهدم . إنَّ بقايا العصر الجليدى أثَّرت بوضوح على بعض الأماكن وعلى وجه الخصوص سلاسل جبال أوربيون ومونكايو .

وجدير بالذكر أنَّ جزءًا من السلسلة الأيبيرية يمكننا حصره فى محور جبلى حيث تظهر به أعلى الارتفاعات مثلما هو الحال فى سلاسل جبال ديماندا وأوربيون ومونكايو (٢٣١٣ متراً) . واعتباراً من وادى نهر خيلوكا توجد جبهتان : الأولى قريبة من منخفض الأيبرو مع سلاسل جبال جودار وخبلامبرى وتنتهى بالقرب من البحر المتوسط ، أمَّا الثانية فتبدأ بسلسلة جبال البرَّاثين وتنتهى بالحافة القطبية .

وبين الجبهتين نجد السهل الصخرى لقلعة أيوب - ترويل . وجملة الأمر أن الجبهتين تشكلان أحد الأقواس الجبلية الأكثر صلابة ومتانة والأكثر اتساعًا فى شبه الجزيرة الأيبيرية بأسرها .

سلسلة جبال سيًّرامورينا :

تُظهر الهضبة من الجانب الجنوبى انقطاعًا واضحًا من أصل صخرى ، وهناك مجموعة من الانكسارات يمكن أن تنحصر فقط فى صدع أو شق واحد كبير المُسمى بصدع الوادى الكبير، والذى يتجه من الشمال الشرقى إلى الشرق والجنوب الغربى إلى الغرب ويؤثر بوضوح على البروز أو النتوء الهضبى . أما المقصورة المنهارة فإنها تنسب بجلاء إلى القاعدة المغطاة تمامًا أو المتحجرة بمواد لاحقة للمنخفض الحالى للوادى الكبير .

وبهذا الشكل فإنّ سلسلة جبال سيًّرا مورينا تنحصر فى الحافة الجنوبية للنتوء الهضبى المجزأ أو المقسم وبه بعض الكتل المرتفعة . أمًّا المواد المكونة له فهى تنتسب تمامًا إلى نفس المواد التى تتكون منها القاعدة الهضبية ، ومن الصعب القول بأنّ سلسلة الجبال فى مجموعها بدأت اعتبارًا من صدع حدث هناك ، أو بعبارة أخرى نتيجة انثناء . وعلى أية حال فإنّ التآكل اللاحق اعتبارًا من المسارات الجنوبية كانت حاسمة فى عملية الانفصال ؛ ولهذه الأسباب فإنّ سلسلة جبال سيًّرامورينا تظهر من خلال الهضبة كجبهة أقل بروزًا أو ارتفاعًا حيث يتراوح متوسط ارتفاعها ما بين ٤٠٠ و ٥٠٠ متر فوق مستوى السطح الهضبى . ولنأخذ فى الحُسبان أنّ أعلى قمة فى سلسلة جبال مادرونا وهى قمة بانيويلا يبلغ ارتفاعها ١٣٢٣ مترًا ، وعلى العكس من ذلك فإنّ فى قاع منخفض النهر الكبير توجد سلسلة جبال سيًّرامورينا كحائط جبلى هائل مع اختلال مطرد فى مستوى ارتفاعه فى المنحدرات الجبلية المتفتتة من جرًاء التعرية .

٣- وحدات التضاريس الخارجية :

وندخل الآن فى دراسة وحدات التضاريس الكائنة بين الهضاب ، ونميز بين المنخفضات الأقواس الجبلية وما يمكن أنْ نسميه على وجه الخصوص بالجبهات الساحلية .

١- المنخفضات :

وأول خاصية نلمحها عند ملاحظة وحدات التضاريس الخارجية هى وجود ثلاثة سهول كبيرة تقوم بتوسيع أراضى شبه الجزيرة الأيبيرية فى المنطقة الشمالية الشرقية والجنوبية والغربية . ونحن نشير إلى منخفضات نهر الأيبرو والوادى الكبير والتاخورسادو. وجدير بالذكر أنَّ المنخفضات الثلاثه لها مميزات وخصائص مشتركة لكونها متكونة نتيجة تتابع الأراضى السهلية المنبسطة والمنخفضة نسبيًا ولكونها أيضًا مغطاة بمواد لينة أُودعت فى آن واحد أو فى وقت لاحق لمراحل الانكسار الألبى ، كما أنَّ المنخفضات الثلاثه تُكَوِّن ُ إلى جانب الأماكن الرسوبية بالهضبة ما نسميه أو ما نطلق عليه اسم أيبيريا الطينية . وفيما يتعلق بأشكال التضاريس فإن شكلاً سطحيًا يحاط بمواد صلبة لحماية هذا السطح المستو (مثل الأحجار الجيرية والرمال) وكذلك شكلاً يمثل المناطق القاحلة فى المنحدرات التى يغلب عليها الطَّفْل الجيرى أو الكلسى .

منخفض الأيبرو :

و لكن الخصائص المشتركة تنتهى هنا .فالتحليل لكل وحدة على حدة يبرز اختلافات عميقة بينها فيما يتعلق باتجاهها وتكوينها وتطورها المورفولوجطى . فمنخفض الأيبرو أو ايبيريكا يبدو متجهًا صوب البحر المتوسط ولكن تفصله عنه سلاسل جبال كتالونيا الساحلية ومن ناحية أخرى فإنَّ جبهتين جبليتين كسلسلتى جبال البرانس والأيبيرية تحدان المنخفض من الجهتين الأخريين ؛ فمنذ العصر

الأوليجوثينو بدأت عملية ترسيب قارية استمرت طوال عصر الميوثينو الجيولوجي وقد أُودعت بالمنطقة أملاح الصوديوم والبوتاسيوم – تسببا في ظواهر مهمة مثل انتقال الصخور إلى المناطق العليا وقيام هذه الأملاح بتفتيت الطبقات الصخرية الكائنة بالمنطقة التى استقرت بها – وجدير بالذكر أنّ هذه الأملاح كانت موجودة بين الطُّفْل الجيرى أو الكلسى . وفوق هذه الصخور تكونت منحدرات تعرية مرتفعة فى المحيط الخارجي ومستمرة فى التضاريس العالية المستوية تقريباً وهى أقل ارتفاعًا فى أسفل أو فى عمق الوادى وتتصل بأعلى المشارف النهرية ، وتبدو هذه المشارف النهرية منفصلة ويبلغ عددها أربعة مشارف أو خمسة وذلك فى وادى الأيبرو الوسيط وكذلك الوادى المنخفض لروافده الرئيسية .

منخفض الوادى الكبير :

إنّ المنخفضين الآخرين يختلفان عن منخفض الأيبرو يتجهان صوب المحيط الأطلسى إلى جانب كونها معرضة لتأثيراته لأنها تنتهى بمسطحات أفقية مائلة قليلاً تتصل بالشواطئ والخط الساحلى ، وأفضل خاصية يتميز بها منخفض الوادى الكبير أو منخفض جنوب الأندلس المطل على خليج قادش بالقرب بما يُسمى ببحر جبل طارق . ومن الجانبين الآخرين نجد أنّ المنخفض تَحُدُّه سلسلة جبال سيَّراموربنا فى الشمال وبالقوس الصلب لسلسلة جبال جنوب الأندلس أو النهر الكبير شرقًا وجنوبًا . أمَّا خلفية المنخفض فهى مرتفعه قليلاً ولنأخذ فى اعتبارنا أنّ نصفه تقريبًا لا يتجاوز ١٠٠ مترٍ ارتفاعًا .

وبالإضافة إلى هذا التناقض فى الاتجاه والشكل توجد اختلافات ملحوظة بالنسبة لمنخفض الإيبرو ؛ فالمواد فى مجملها حديثة ومن أصل بحرى وتكوينها أقل سمكًا وبالتالى فإنّ عوامل التعرية ذات تأثير ضئيل والسطح عبارة عن تتابع لتلال مرتفعة قليلاً . أمَّا الطمى أو الغرين فقد قام بحشو الجبهة الأطلسية الواسعة التى يبلغ عرضها ٢٠٠ كم عند مدخل المنخفض المذكور آنفًا ، ولكن فى الواقع فإنّ السهل الساحلى يمتد صَوْبَ الغرب عبر الأراضى المنخفضة فى أوليبا والغرب .

منخفض تاخو - سادو :

تفقد الهضبة من جرّاء عوامل التعرية والإنكسارات والانثناءات ارتفاعها شيئًا فشيئًا، وخاصة عند حافتها الغربية حتى يتلاشى هذا الارتفاع تحت مواد أكبر حوض رسوبى بالبرتغال . ويجتاز هذا المنخفض من قطاعه الشمالى نهر التاخو وكذلك بالمسارات التى تتجه صوب واديه المنخفض نهر ريبا تيخو - ويحر لاباخا . أمّا القطاع الجنوبى فإنّه ينتمى تقريبًا إلى الحوض المائى لنهر السادو وبعض الوديان حيث تتجه إلى مصبه وخليج سيتوبال .

إنّ المواد التى تكسو منخفض تاخو - سادو تسجل عمليات المد للمحيط الأطلسى فى هذا الخليج القديم ! أحجار جيرية ترجع إلى العصر الميوسينو من أصل بحرى طين وأحجار جيرية قارية من عصر الميوسينو الأوّل ومواد متنوعة تنسب إلى العصر البليوثينو الجيولوجى من أصل بحرى من جديد، وعلى الضفة اليسرى العريضة والمنبسطة - على العكس تمامًا من الضفة اليمنى الضيقة جدًا لقربها من الجبال التابعة لسلسلة إكستريمادورا البرتغالية - فقد تراكمت وتجمعت كميات هائلة من الطمى أو الغرين التى تنتمى إلى العصر الجيولوجى الرابع مما أدى إلى تكوين العديد من المستويات فى المشارف النهرية .

دور السهول أو الوديان :

إنّ دراسة هذه المنخفضات الكبيرة الثلاثة يضطرنا إلى تحليل قيمة المناطق المنخفضة والمستوية ودورها فى تضاريس شبه الجزيرة الأيبيرية ، وتستضيف إلى ذلك وجود بعض السهول الساحلية التى سنتحدث عنها فيما بعد . وجملة الأمر أنّهُ ثبت بكل وضوح أنّ الأراضى المنبسطة أو السهلية تلعب دورًا قليلاً أو هامشيًا . ولنأخذ فى حسباننا أيضًا أنّه فى بعض الحالات أنّها عبارة عن مناطق ارتفاعها ملحوظ كما فى منخفض الإيبرو حيث تتجاوز خلفيته ٢٠٠ متر ارتفاعًا ، وهذا بالإضافة إلى وجود

مواد مشابهة ذات تطور شكلى وتكوينى متشابهين مما جعل بعض المؤلفين يعتبر منخفض الإيبرو والأغطية التى تنتسب العصر الجيولوجى الثالث وحدة تضاريسية هضبية .

إنَّ أهمية المناطق السهلية هامشية فيما يتعلق بإسبانيا حيث إنَّ ٩,١٠٪ فقط فى أراضى شبه الجزيرة الأيبيرية يقل ارتفاعها عن ٢٠٠ متر. أمَّا فى البرتغال فإنَّ الاتساع النسبى لمنخفض تاخو سادو وقلة ارتفاع الميتيخوا السفلى والعرض الذى يبلغ فى بعض الحالات بالسهل الساحلى فإنَّ الأراضى لا يبلغ ارتفاعها ٢٠٠ متر، ومع ذلك فإن الأراضى السهلية تمثل ٤٣,١٪ من المساحة الكلية .

ولكن الهضبة فى شبه الجزيرة الأيبيرية تلعب دورًا مهمًا وبارزًا كما أسلفنا فى تضاريس المنطقة . وبخاصية أُخرى تعضد هذا الأمر . فإنَّ الهضبة تبدو وكأنَّها كلٌ متصل ومتناسق . أمَّا المنخفضات المتنوعة والسهول بشبه الجزيرة الأيبيرية فهى بوضوح غير متصلة ومجزأة كوحدات منعزلة فى مجمل أرض شبه الجزيرة ، ولا يوجد فى شبه الجزيرة الأيبيرية وحدة تضاريس تشبه هذا السهل الواسع فى أوروبا المطلة على المحيط الأطلسى وأوروبا الوسطى التى تتسع بشكل تدريجى كلما اتجهنا شرقًا . والمنخفضات تبدو متفرقة ومنغلقة على نفسها لكونها محدودة بجبهات جبلية مما يصعب الاتصال بينها فى معظم الأحيان .

٢- سلاسل الجبال

إنَّ عدد وتنوع واختلاف الوحدات التضاريسية يتضاعف كلما اقتربنا من المحيط الخارجى لشبه الجزيرة الأيبيرية ، ويبرز هناك قوسان جبليان كبيران هما جبال البرانس وجبال الوادى الكبير أو جبال جنوب الأندلس، والتى تمثل المناطق الأكثر ارتفاعًا بمختلف شبه الجزيرة الأيبيرية ، ولكن تظهر بالإضافة إلى ذلك بعض الجبهات الجبلية صغيرة المساحة وسندرسها على حدة .

جبال البرانس :

من وجهة النظر الحجرية – على وجه الخصوص – لزامًا علينا أن نقسم جبال البرانس إلى قطاعين مختلفى الخصائص ، هذا فضلاً عن الجبهات الجبلية البرانسية الفرنسية الكائنة بالشمال؛ ففى الوسط ترتفع وحدة تضاريسية تؤلف محور سلسلة الجبال . ولهذا فقد أطلق عليها البرانس المحورية · وقبل الوصول إلى هذه الأماكن الداخلية تظهر جبهات جبلية أخرى بمواد مختلفة أقل ارتفاعًا بشكل عام وهى التى يطلق عليها اسم ما قبل جبال البرانس ·

ففى جبال البرانس المحورية تظهر تكوينات تنتسب إلى الدهر الجيولوجى القديم مكونة بهذا الشكل جزءًا من أيبيريا السليكية، ويمكن افتراض أنَّ الأمر يتعلق بمواد ترسيبية لجبل طويل وقديم جبل البرانس الذى كان بمثابة مدخل للدولة فى الانكسارات الألبية التى تجزَّأت إلا أنَّها بقيت متماسكة بالثنايا أو الطيَّات إلى أنْ ارتفعت من جديد بعض كتلها نتيجة التحركات الأخيرة التى أشرنا إليها سابقًا · وحديثًا فإنَّ بعض المؤلفين قد انتقدوا وجود هذا الجبل البرانسى إبَّان العصر الجيولوجى الثانى ، ويعتقدون أنَّ المواد المحورية قادمة من القاعدة الحجرية القديمة تنتمى إلى العصر الجيولوجى القعيرى · وليكن ما يكون فإنَّ جبل البرانس الداخلى يمثل الأماكن الجبلية البارزة فى كل السلسلة الجبلية وخاصة فى الجزء الأوسط : يوستيس ولاراندانا أو قمة نوستيس (٣٣٧٥ متر) لامالاديتا مع أنيتو (٣٤٠٤ متر) واستنادًا إلى هذا الارتفاع فإن الأمطار الجليدية كانت غزيرة إبَّان العصور الجليدية وقد بقيت كثير من الآثار بهذا الشكل المورفولوجى : مدرجات طبيعية معلَّقة ، منحدرات منبسطة حيث توجد بها بحيرات (مثل ايبونيس فى أراجون) ، ووديان جليدية وأقواس ، وقد كان العصر شبه الجليدى مهمًا أيضًا ، وقد أثَّر فى قاعدة كثير من المنحدرات وأساسها ·

سلسلة جبال الوادى الكبير أو جبال جنوب الأندلس :

إننا مضطرون لاستخدام صيغة الجمع ؛ فالأمر يتعلق بقوس جبلى طويل وعريض يشمل المنطقة من مضيق جبل طارق حتى نهاية ناو ، ومن الساحل حتى منخفض الوادى الكبير أو حتى الحافة الجنوبية الشرقية للهضبة – وهو قوس معقد تماماً – كما فى حالة البرانس يبدو هذا تناقضاً داخلياً طبقًا للمواد الحجرية المختلفة ، ولكنّ المشكلة الحقيقية تظهر عند تحليل البنية أو التركيبة الصخرية المتنوعة والصعبة التفسير أو الشرح هذا بالإضافة إلى قرب البؤرة التى خرجت منها الاندفاعات الملموسة والخاصية الشحمية لبعض المواد ، وسنتعرف على وحدتين كبيرتين طبقًا للتسمية التى أطلقها الجغرافيُّون الإسبان عليها : سلسلة الجبال المجاورة للوادى الكبير بجوار الساحل بالقرب من جبل طارق وحتى نهاية بالوس وسلسلة جبال الوادى الكبير المنخفضة فى الداخل .

سلسلة الجبال المجاورة للوادى الكبير :

وهى جبال صخرية نظراً لغلبة الصخور فى تكوينها وتتألف من تكوينات تنتسب إلى الدهر الجيولوجى القديم ، وتنتمى إلى القوس الداخلى للانكسار أو الانثناء بمواد أصلية وشبه أصلية (كما هى الحال فى سلسلة جبال سيًرانيبادا) وجبال البوخاراً من جنوب سيًرانيبادا ومالقة ؛ وأفضل وأدق شرح صخرى مازال يثير الكثير من المشاكل يجب أنْ ندرجها فى إطار التطور الذى حدث للمناطق الخارجية لغرب البحر المتوسط ؛ فأكبر المرتفعات بسلسلة جبال الوادى الكبير أو جنوب الأندلس تظهر فى هذه الوحدة فى البؤرة الكبيرة بسيًرانيبادا؛ حيث يوجد بها أقصى ارتفاع بشبه الجزيرة الأيبيرية بأسرها قمة مولاى حسن التى يبلغ ارتفاعها ٣٤٧٨ متراً .

سلسلة جبال الوادى الكبير السفلية :

وهى لا تنتسب فقط إلى السيطرة الصخرية فى بنيتها بل إلى ما قبل الوادى الكبير وربما " بينيبتيكو " مما يثير مشكلة فى التسمية يمكن أنْ تنطوى على خطأ،

والمعروف أنَّ هذه السلسلة تنتمى إلى القوس الخارجى للانثناء أو للانكسار. وتنتسب مواد هذه السلسلة إلى العصر الجيولوجى الثانى والعصر الفجرى الجيولوجى ؛ حيث تسود الجيريات والجصيات والطفلية أو الكلسية ، ولاتوجد - فيما يبدو - انهيارات أرضية مهمة ، ولكن تراكمات محلية أثرت بشكل خاص على السلسلة السفلية للوادى الكبير . ويظهر أيضاً مكان جبلى بارز فى الجزء الأوسط فى سلسلة كاثورلا وسيجورا وساجرا (٢٣٨١ متر) بحيث تؤلف مركز المنخفض المائى حيث تنبع الأنهار الجنوبية مثل الوادى الكبير وسيجورا .

وجدير بالذكر أن الأهمية الهامشية للعصر الجليدى أدت إلى تحديد سطح القمم كما حدث فى سيًرانيبادا مما أدى إلى وجود سطح موحد رتيب وممل يتناقض تماماً مع سلسلة الجبال المسننة فى شكلها وهى جبال البرانس . وفى المواد الكلسية تظهر أمثلة ممتازة لقطاعات كارسكية فى المنخفضات المستديرة فى أنتيكيرا أو فى الأماكن الجيرية فى سلسلة مرتفعات سيجورا.

وحدات خارجية أخرى :

إنَّ محيط شبه الجزيرة الأيبيرية محاط بعدد كبير من الجبهات الجبلية إلى جانب تلك التى أسلفنا الحديث عنها مما يضفى عليها كثيراً من التنوع ، ويتعلق الأمر بوحدات متسعة قليلاً إذا ما قورنت بالتى دُرِسَت حتى الآن ولكن معقدة للغاية؛ فبالنسبة لأكستريمادورا البرتغالية التى وصفت بحق على أنَّها متحف مورفولوجى حقيقى (على حد قول دارين) ويمكن أنْ ينطبق هذا الوصف على سلاسل الجبال الساحلية الكتالانية .

إنَّ الزاوية الشمالية الغربية يظهر بها المجمع التضاريسى الجاليثى الذى تكون من مواد الجبل القديم التى تكسرت بشكل جيد ؛ ففى الوسط والجنوب - على وجه الخصوص - توجد كتل واسعة مرتفعة تتناقض تماماً مع مختلف الحفرات الصخرية التى يبرز من بينها بيرثو ومونفورتى ورأس مانثينيدا فى سلسلة جبال كيخا ، والتى يبلغ طولها ١٧٧٨ متر .

أمًا الثانية فإنّها تمثل جبهتين متوازيتين عند الساحل يفصلها منخفض من أصل صخرى ، وهى مكوّنة من مواد مختلفة من البقايا الجيولوجية القديمة للجبل الكتالانى البالياري (مونتسيني وارتفاعه ١٧١٢ متر) وكذلك من القاعدة - المتراكمة فى مونتسيرات من الحوض الرسوبى فى الأيبرو .

وفى أراضى البرتغال يظهر مثالان من المسماة أيبيريا الجيرية ، وهى عبارة عن مواد تنتسب إلى العصر الجيولوجى الثانى ، وهى مودعة فى الحافة الغربية للجبل الأوسط الكبير التى انطوت فيما بعد ، وعند الجنوب حيث يطل على السهل الساحلى فى الجاربى تظهر جبهة مونشيكى التى يبلغ ارتفاعها (٩٠٢ متر) وكالديراو . بالإضافة إلى ذلك نجد قوساً جبليًا أكثر اتساعًا وتعقيدًا فى أكستريمادور البرتغالية وتتمثل فى سلسلة جبال مونتيخونتو (ويصل ارتفاعها إلى ٦٦٤ متر) وكانديروس .

٣- سواحل شبه الجزيرة الأيبيرية ومجموعة جزر البالبار:

إنّ المحيط الساحلى لشبه الجزيرة الأيبيرية متنوع جدًا ؛ فأحيانًا نجد أن السهول تضيق بشكل ملحوظ وتصل إلى درجة التلاشى عندما تصل المنحدرات الجبلية إلى الساحل ، وأحيانًا أُخرى نجدها واسعة وعلى وجه الخصوص عندما تلامس المنخفضات الخارجية . وخلاصة الأمر تُظهر بوضوح الخاصية الجبلية للسواحل الأيبيرية المزودة ببعض النتوءات البارزة ، وهذه هى خاصية أدت إلى المساهمة فى الشكل الحالى لشبه الجزيرة الأيبيرية كما أسلفنا سابقًا .

جبهة المحيط الأطلسى :

ففى الساحل الشمالى نجد أنّ سلسلة جبال كانتبريا تصل كثيرًا إلى البحر مما أدى إلى ظهور ساحل مرتفع ملىء بالجروف الصخرية . إنّ التحركات الأيوستاتيكوس

تسببت فى تكوين منصات متنوعة (وهى منبسطة) عند المنحدرات الساحلية ، هذه المنصات المنبسطة تبدو وقد غلبت عليها الأسطح الناجمة عن عوامل التعرية التى يرجع أصلها إلى أصل قارى التى سوت أو بسطت بعض سلاسل الجبال مما أدى إلى إطلاق تسميات ذات مغزى عليها مثل " السلاسل المستوية أو المنبسطة " بالقرب من الساحل . ويتوغل البحر عن طريق أخاديد أو خنادق عميقة عمودية على الساحل وهى غالبًا من أصل صخرى ، وتبدو المنطقة الجاليثية متأثرة فى جبهتها الساحلية بالعديد من الأنهار الصغيرة المكتظة بالجروف الصخرية وخاصة عند المحيط الأطلسى .

إنَّ السهل الساحلى يتسع بشكل ملحوظ فى البرتغال ، وخاصة بجانب المنطقة المستوية أو المنبسطة التى تحيط بالبحيرة الساحلية التى يطلق عليها اسم أيبرو وأمام منخفض تاخو- سادو . وفى الجروف الصخرية لشبه جزيرتى ثينترا وارًابيدا ، والتى يبقى بينها مصب بحر لا باخا إلى جانب قَرْنَى دوكا وإيسبيتشيل حيث توجد بعض المنصات البحرية بينما نجد أنَّ المنصات العلوية مشوهة .

وتسود الأراضى المنخفضة فى القوس الجنوبى الغربى الكبير ؛ ففى الجاربى نجد أنَّ السهل الساحلى يقتصر على قطاع أو شريط طويل ضيق ، ولكن كلما اتجهنا شرقًا يتسع السهل الساحلى تدريجيًا حيث منخفض الوادى الكبير. وقد أشرنا سلفًا إلى أنَّ الطمى أو الغرين ملأ مناطق المستنقعات للقطاعات المنخفضة كما يحدث فى لاس ماريسماس بأشبيلية وعلى نفس الساحل تظهر شرائط وأسهم رملية كمثال عظيم وممتاز فى شواطئ أريناس جورداس .

جبهة البحر المتوسط :

إنَّ منحدرات سلسلة جبال جنوب الأندلس توجد فى معظم الساحل الجنوبى للبحر المتوسط ، والساحل غالبًا ما يكون ملئ بالجروف الصخرية ، والشكل الأفقى فى مجمله جبلى ، وجدير بالذكر أنَّ أجزاء ساحلية مشابهة تتناوب بكثرة على الجبهة الساحلية للبحر المتوسط من قرن جاتا على قرن بالوس بسبب منحدرات سلسلة الجبال

المجاورة للوادى الكبير . ومما يذكر أن بروز قرن ناو فى سلسلة جبال الوادى الكبير وحتى قرب ساحل بالينثيا تصل سلاسل جبلية فرعية من سلسلة جبال أيبيريا ، وسلسلة الجبال الساحلية التى تمتد بالساحل الكتالانى من الجروف الجيرية فى جاراًف إلى الجرانيتية فى كوستابرابا بخيرونا، فالخنادق أو الأخاديد الساحلية محدودة وقليلة العمق بسبب التعرية التفاضلية أو الانتقائية ، وتظهر أيضاً أمثلة هامة كما فى كوبى (محافظة مورثيا) وإفاك (محافظة اليكانتى) وبينيسكولا (فى كاستيون).

وتناقض مع القطاعات التى درسناها حتى الآن حيث تسودها السهول الساحلية . وأحياناً تكون واجهات ضيقة حيث تراكمت المواد الحديثة كما يحدث فى لامارينا فى محافظة اليكانتى وفى لاماريسما باقليم كتالونيا ، وفى بعض الأحيان تتسع السهول كما يحدث فى عمق خليج بالينثيا ، ويمكن أنْ تظهر حينئذ بحيرات ساحلية أو البحيرات المالحة القريبة من البحر فى حالة مختلفة من النمو : وأكبر مثال لذلك بحيرات أليكانتى وإيلشى ، والإنسان ومن ناحية أخرى - تعود بشكل حاسم إلى التقلص التدريجى لبحيرة بالينثيا بينما نجد أنَّ البحر المُسَمَّى بالبحر الأصغر مازال يُكوِّن مثالاً ممتازاً من بحيرات هذا النوع ، والقطاعات الدلتية التى تكثر على ساحل البحر المتوسط أدت إلى وجود سطح متميز . إنَّ هذه الدلتات تُكَوِّنُ مخروطات من الطفح البركانى سواء فى منحدره أو لسمك مواده التى يتكون منها ، وأكبر الدلتات اتساعاً ونمواً تظهر عند مصب نهر إيبرو .

جزر الباليار:

على الرغم من أننا أشرنا بإيجاز لبعض ملامح وخصائص مجموعة جزر الباليار التى تتكون أساساً من جزيرة إيبيثا ومايوركا ومينوركا (وتبلغ مساحة كل هذه الجزر (٥٠١٤ كيلو متر مربع) ، وفى كافة الاتجاهات نجد أنَّ جزر الباليار تعتبر فعلاً امتداداً لأراضى شبه الجزيرة الأيبيرية ، وبهذا الشكل تتداخل بعمق اعتباراً من قرن ناو صوب الشمال الشرقى فى حوض غرب البحر المتوسط .

وهذا الأمر لا شك فيه فيما يتعلق بالطابع الجيولوجي فجزيرة إيبيثا يفصلها ٩٠ كيلو متراً فقط عن قرن ناو ، وتمثل مايوركا امتداداً لهذه الأراضي سواء لبنيتها الحجرية أو الصخرية ذات القوس الكبير بسلاسل الجبال المجاورة للوادي الكبير ، والجزيرة الأولى (إيبيثا) هي ذات سهول محدودة وتلال كثيرة ، وتنتمي هذه إلى العديد من القشرات المتحركة وهي قليلة الارتفاع ؛ فهي لا تتجاوز بأية حال من الأحوال (٤٧٥ متراً في اطلايسا) ، وتعتبر تضاريس جزيرة مايوركا مختلفة فالقاعدة المركزية تتكون من مواد تنتمي إلى العصر الميوثيني الجيولوجي والعصر الجيولوجي الرابع وهذه المواد أفقية ويحدها خليجان كبيران ، خليج بالما وخليج ألكوديا ، وكذا السلاسل الجبلية الشمالية (مثل بويج ماجوري سون توريبس ويبلغ ارتفاعها ١٤٤٥ متراً وسلاسل ليبانتي الجبلية ذات التركيب أو التكوين الصخري وأمثلة مهمة من المورفولوجي الكاريسكي .

أمَّا جزيرة مينوركا فهي فريدة في تضاريسها ، لكونها موحدة حيث تسودها الأشكال السطحية ، وتظهر بالجزيرة مواد تنتمي إلى العصر الجيولوجي القديم ، وهي عبارة عن بقايا كتل الجبل الكتالاني الباليارى القديم أو القاع المطمور للعصر الجيولوجي القعيرى بالبحر المتوسط .

مضيق جبل طارق :

تُمثل سلسلة جبال الأندلس أو جبال الوادي الكبير وخاصة عند طرفها الجنوبي الغربي بروزاً في اتجاه ميديوديا كلما اقتربنا إلى الأراضي الأفريقية ، وبهذا الشكل فإنَّ قارتي أوروبا وأفريقيا تصبحان قريبتان نسبياً ؛ حيث يفصلهما فقط مضيق جبل طارق والذي يبلغ طوله من تريس ايرماناس إلى تيريس ١٤ كم فقط ، ويتزايد العمق صوب القاع الشرقي حيث يتجاوز في قطاع ضيق ٨٥٠ متراً .

ولقد أشرنا آنفاً إلى أنَّ المضيق وحَّد بين أراضي قارتي أفريقيا وأوروبا أكثر من فصله بينهما ، ومن ناحية أخرى فإنَّ المواد الحجرية متصلة على الجهة الأخرى

أو الساحل الآخر للبحر المتوسط ، فجبال الريف المكونة من مواد تنتمى إلى الدهر الجيولوجى القديم يمكن اعتبارها امتداداً لسلسلة الجبال المجاورة للوادى الكبير، وفى نهاية الأمر فإنها تتعلق بمواد مطمورة حتى الآن ، ولكنها صخرية متينة تنتمى إلى الجبل القديم بإقليم الأندلس .

ونظراً لوضع وموقع مضيق جبل طارق اللذين يتمتعان بأهمية استراتيجية فريدة لا يمكن أن نغفلها أو نمر عليها مرَّ الكرام ، ولنأخذ فى الحسبان أنَّه - بالفعل - القناة الطبيعية الوحيدة بالبحر المتوسط والوحيدة التى تربط أيضاً هذا البحر بالمحيط الأطلسى الواسع ، وباقتضاب يعتبر المضيق البوابة الغربية الكبرى للبحر المتوسط ، ومنها تنتقل كميات هائلة من المياه البحرية . وعلى الصعيد البشرى ، ولكى نشير إلى واقعة ليس بوسعنا الإسهاب فيها وهى أن مضيق جبل طارق يعتبر أهم مكان للمرور والملاحة العالمية وكذلك للاتصالات والنقل البحرى حيث يفوق فى ذلك قناتى السويس وبنما . وفى عام ١٩٦٧، وعلى الرغم من أنَّ المضيق مرَّ بأزمة ما ، فقد استطاعت أكثر من ٥٠٦٠٠ سفينة عبور المضيق وهى تحمل على متنها ٤٧٥ مليون طن من البضائع والمنقولات ، أمَّا فى عام ١٩٦٦ فقد عبرت المضيق٦٢ ٧٣٠ سفينة ، بينما عبرت قناة السويس ٢٠٠٠٠ سفينة فقط ، وقناة بنما ١١٨٠٠ سفينة فقط .

الهوامش

١- الجغرافية الطبيعية لشبه الجزيرة الأيبيرية - انظر الأعمال المذكورة ضمن مراجع الفصل الأول . ويهمنا إبراز كتابين وهما يمثلان المحاولة الأولى لتقديم صورة كاملة للملامح والخصائص الطبيعية لشبه الجزيرة الأيبيرية أو لمعظمها وخاصة تضاريسها الأول : غ. دانتين : موجز فسيولوجي لشبه الجزيرة الأيبيرية ، مدريد ، ١٩١٢، وكذلك ١٩٤٨ ، والثاني إي .ايرنانديث باتشيكو موجز جغرافي طبيعي وفسيولوجي وجيولوجي لإسبانيا ، مدريد ١٩٣٢ .

٢ - دراسات عامة عن تضاريس شبه الجزيرة الأيبيرية - وأكبر مرجع لهذا الموضوع نجده في الجزء أو المجلد الأول من جغرافية إسبانيا والبرتغال (تحت إشراف م. تيران) وسولية سباريس ، ن لوبيث التضاريس ، برشلونة ، ١٩٥٢، حيث توجد به مراجع كثيرة بكل فصل على حدة . دراسات تخصصية ذات موضوع واحد - وسنشير فيما يلي إلى بعض المراجع والأعمال ذات الأهمية المورفولوجية ، والتي نُشرت عقب الكتاب الذي ذكرناه . فبالنسبة للواجهة الغربية نجد كتاب ب . بيروت ول . سولية سباريس : أبحاث مورفولوجية للشمال الغربي لشبه الجزيرة الأيبيرية ، باريس ، ١٩٥٢ ، ج. سبيثويسكي العصر الجيولوجي الرابع والبرتغال : صحيفة الجيولوجيا البرتغالية العدد الثالث عشر (لشبونة ، ١٩٥٨) هـ .نون مناطق جاليثيا دراسة شكلية وجيولوجية ستراسبورج ، ١٩٦٦ ، وفيما يتعلق بالسلاسل الجبلية الداخلية والخارجية للهضبة نجد كتاب ب. بيروت ول.سولية سباريس : أبحاث عن مورفولوجي سلسلة الجبال الوسطى بإسبانيا ، مدريد ، ١٩٥٤ ، ب. بومير : مظاهر مورفولوجية لقلعة أيوب وداروكا وأطرافهما صحيفة جمعية الجغرافيين الفرنسيين رقم ٢٦١-٢٦٢ ، باريس ، ١٩٥٦ أو . ريبا : دراسة جيولوجية لسلسلة جبال البِّراثين ، مدريد ، ١٩٥٩ ، أو فرانزلي العصور الجليدية والبرتغال ، بون ، ١٩٥٩، وما زالت تصدر دراسات عديدة بما فيها رسائل دكتوراه عن الوحدات الخارجية وسنبرز بعض هذه الدراسات والأعمال ب.بيروت ول. سولية سباريس ، أبحاث عن مورفولوجي للجنوب الشرقي بإسبانيا ، مجلة جغرافية البرانس والجنوب الغربي العدد الثلاثون (تولوز ١٩٥٩) ، ب. رات دراسات نقدية لجبال الباسك وكنتبريا ، ديخون ، ١٩٥٩ ، غ. هازيرا التكوينات شبه القاحلة في إسبانيا جريدة جمعية الجغرافيين الفرنسيين رقم ٢٨٢-٢٨٣ (باريس مارس أبريل ١٩٥٩) س. مينسوا التركيبات الجليدية في وادي الأيبرو وتطوره المورفولوجي اللاحق : الإسهام الإسباني للمؤتمر الدولي العشرين سرقسطة ١٩٦٤ ، ل.م.فروتوس اعتبارات بشأن الجغرافيا المورفولوجية للجص في وادي الأيبرو الوسيط الأستاذ لاكارا سرقسطة ١٩٦٨ . وفيما يتعلق بالجبل الأوسط الأيبيري والهضبة نجد كتاب غ. سويتشنيزنر : مورفولوجي للهضبة الوسطى وجبالها مجلة الجغرافيين العدد الثالث : ١٠ شتوتجارت ١٩٣٦ ومن اللائق أيضًا الإطلاع على ه.لاوتنشاس واي . ماير : الهضبة الأيبيرية مجلة الجغرافيا ، ١٩٦١ ، توجد ترجمة برتغالية جريدة مركز الدراسات الجغرافية ، لشبونة ١٩٦٢ ول. سولية سباريس : مفهوم الهضبة الإسبانية واكتشافها تكريم للأستاذ ميلون سرقسطة ١٩٦٦ ".

التطور المورفولوجي الحديث - للتركيز الحديث على بعض المشاكل المورفولوجية المتعلقة بالعصر الجيولوجي الرابع (التتابع الزمني للمناخ وعمل الأنظمة الشكلية الوراثية ، تطور السواحل ... الخ .

الفصل الثانى

وصفٌ أو نقش شعرى
لمدرسة غرناطة القديمة

تأليف : داريو كبانياس

إهداء : إلى السيد / دافيد جونثالو مايسو

صديقى ورفيقى طوال سنوات كثيرة

من المعروف أنَّ مدرسة أو جامعة غرناطة العربية أُسِسَت فى عهد يوسف الأوَّل أبو الحجاج (١٣٣٣-١٣٥٣) بناءً على مبادرة من الحاجب أبى نسيم رضوان الذى يُعْزَى إليه أيضًا توصيل المياه إلى حى أو ضاحية مورور ،كذلك تشييد سور ضاحية البائسين والذى يُسمَّى حاليًا بسور السيد / جونثالو ، هذا فضلاً عن تشييد حصون الحدود الغرناطية حيث أمر ببناء ما يزيد عن أربعين برجًا تم استخدامها كنقاط مراقبة لداخل المدينة من بيرا (فى محافظة الميريا) حتى الضواحى الغربية .[1]

هذا وقد شُيِدَتْ المدرسة فى مواجهة المسجد الكبير بالمدينة ، هذا المسجد الذى هُدِمَ عقب استرداد المسيحيين لها وذلك لإقامة الكاتدرائية والمحراب أو المصلى الملكى ، وموقعها الحالى هو نفسه كما كان فى العصر العربى بالميدان الذى سُمِّىَ فيما بعد بالكابيلدو دى بيسابون ودى لالونخا فى نهاية شارع لوس أوفيسيوس (شارع المِهَن).

إنَّ تأسيس المدرسة التى كانت تتمتع بحياة نسبية أطول فى كل من الشرق وشمال أفريقيا لم تُعرف فى الأندلس حتى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى حيث كان التعليم العالى يتم بالمساجد [٢] ، وهذا الظهور المتأخر للمدرسة فى إسبانيا الإسلامية يؤكده ضمنيًا ابن الخطيب عندما يتحدث فى السيرة الذاتية لرضوان وإن كان يُشير إلى عاصمة المملكة النَّاصرِيَّة ، يقول ابن الخطيب : " أسس مدرسة غرناطة حيث لم يوجد بها مدرسة قط قبل ذلك " ، ويشير ابن الخطيب أيضًا إلى تأسيس المدرسة الغرناطية عند التطرق إلى يوسف الأوَّل ، وأضاف أنه خصص عوائد للمدرسة إلا أنه لم يذكر تاريخًا لذلك ، وإن كان هذا يظهر فى النقش التأسيسى كما سنرى فيما بعد. [٣]

وعلى الرغم من أنَّ المدرسة الغرناطية تبدو دون شك أهم مدرسة خلال قرن ونصف قرن من بقاء الإسلام فى الأندلس ، رغم اختفائه من بقية إسبانيا لا يمكن أنْ يقال إنَّها الأقدم فى الإمارة الناصرية ؛ لأنَّ ابن الخطيب نفسه عندما جَمعَ فى ديوان واحد شعر أستاذه ابن الجيَّاب (١٢٧٤- ١٣٤٨) ، يقول فى عبارة التقديم لواحدة من القصائد التى جاء فيها : " لتهنئة الصوفى أبو عبد الله السهيلى لتشييده مدرسة مالقة أول عمل من هذا النوع فى الأندلس ". ولكن هذه المدرسة المالقية التى تحدَّث عنها ابن الخطيب ويضيف عنها الكثير فى عمله " إحاطة " لم تكن لها الصيغة الرسمية أسوة بالمدارس الشرقية أو حتى الغرناطية وفيما يبدو أنَّها احتفظت بتوجهها أو طابعها الصوفى وهذا ربما يشرح اختفائها تمامًا فيما بعد دون أن تترك أثرًا ما سواء فى تاريخ أو فى أسماء الأماكن فى مالقة .[٤]

والجدير بالذكر أنَّ مبنى المدرسة الغرناطية ظلَّ محتفظًا برونقه تمامًا حتى استرداد غرناطة ؛ حيث قام الملوك الكاثوليك بمنحه عام ١٥٠٠ ليكون مقرًا لمجمع المجلس البلدى وحينئذ أُدخلت عليه الكثير من التعديلات والإصلاحات لكى يتلاءم مع غايته الجديدة . وفى عام ١٥٠١ ضُم إليه منزل مجاور كان ملكًا للأمير السيد / فرناندو دى غرناطة نجل مولاى حسن وثُريَّا ؛ حيث أُقيمت قاعة اجتماعات المجلس البلدى بسقفها الخشبى الهائل ثُمانى الأضلاع وبربط خشبيتين ، وقد نُقِشَ السقف على (النمط البلاتيرسكو) ، وهو أسلوب معمارى إسبانى مُقَلِّدٌ لأشغال الصياغة

بواسطة الفنان فرانثيسكو فرنانديث عام ١٥١٣ ، وقد دُوِّنَت بالسقف عبارة تُشير إلى استرداد الملوك الكاثوليك لمدينة غرناطة.

هذا وقد أُجريت إصلاحات جديدة خلال الأعوام ١٥٥٤، ١٥٥٥ ، ١٥٥٦ ولكن في القرن الثامن عشر تمَّ تجديد المبنى الأوَّل تجديداً تامًا على وجه التقريب ، وهو المبنى الذي نراه حاليًا حيث تم التجديد في الفترة من ١٧٢٢ إلى ١٧٢٩ حيث زُوِّد بسلم وقبة باروكية (أسلوب معماري إسباني) وكذلك الواجهة التي نُقشَت في الأعوام التالية ويظهر عليها وعلى وجه التحديد في رُكنها الأيمن درعٌ للملوك الكاثوليك يرجع إلى مرحلة إعادة البناء في القرن السادس عشر .

ونظرًا لضيق المبنى فيما يتعلق بالاحتياجات البلدية فإنَّ البلدية قد انتقلت في عام ١٨٥١ إلى العقار الذي تشغله حتى يومنا هذا بعد أن باعت المبنى السابق لأحد الأشخاص الذي جعل منه مخزنًا للأقمشة . وقد قامت البلدية بإصلاح التلفيات والأضرار التي لحقت به عام ١٩٣٩ . وبناءً على اقتراح المجلس البلدي والجامعة سويًا قامت الدولة بشرائه عام ١٩٤٢ ، وذلك لكي يقام عليه " معهد الملوك الكاثوليك " . وبعد ترميمه الأخير عام ١٩٧٦ توجد به بعض الملحقات الخاصة بالمجلس الأعلى للبحث العلمي ولجامعة غرناطة (٥) .

فالجزء الوحيد من المدرسة العربية الذي عرفناه هو مسجدها الصغير الكائن في مواجهة مَدْخَل الفناء ، والذي يبلغ طول أحد جوانبه ٦,٨٤ أمتار . أمَّا زخرفته فقد اختفت تمامًا عقب تحويله إلى مصلى مسيحي بعد أنْ تمَّ تجصيص جدرانه في العصر المسيحي ، وفي القرن التاسع عشر شَبَّ حريق في سقفه المزخرف بعناقيد من المقرنصات العربية – لم ينج منه سوى جزء من أفاريزه . هذا وقد تمَّ ترميمه عام ١٨٩٣ ، واليوم يتمتع بشكل مهيب بعد أعمال الإصلاحات التي انتهت في ١٩٧٦ .

ومع ذلك فإنَّ بقاء هذا الجزء الصغير فقط من المبنى الأصلي يدل على أنَّ المدرسة كانت أحد الآثار المهمة في غرناطة الناصرية بسبب زخرفته الرائعة وواجهته الرخامية ناصعة البياض ونقوشه القرآنية وعتبة عليا ذات زخرفة مشابهة . وفي الجزء العلوي يوجد حجران كبيران من الرخام على كل منهما نقوش زخرفية وكتابية ، وقد كان

الحجران يمثلان جزءًا من فناء المدرسة حتى أصبح ملكًا للسيد / فاكدندوريانو ثم بعد ذلك نُقلا إلى متحف الآثار الإقليمى بغرناطة الكائن فى منزل كاستريل بشارع الدارُّو .

وعلى الرغم من أنَّ المبنى العربى ظلَّ كاملاً حتى القرن السادس عشر ، فإن المعلومات التى وصلت إلينا كانت فى كرَّاسة دُوِّن فيها النص وترجمة نقوشه وفقًا لترجمة مترجمى المجلس الغرناطى الذين قاموا بنقل المخطوطات فى عامى ١٥٥٦ - ١٥٥٧ ليست الموجودة فقط فى قصر الحمراء ، ولكن الموجودة أيضًا فى الآثار الأُخرى بالمدينة . وقد حُفظَ هذا المخطوط فى أرشيفات بلدية غرناطة حتى زمن القس خوان دى إيتشاباريا [٦] الذى استطاع أن ينسخ منه نسخة استخدمها فيما بعد سيمون أرجوتى ثم وقعت فى حوزة ليوبولدو أجيلاس فيما بعد - والذى قدمها لأنطونيو كارديناس الذى أفاد منها لأقصى درجة ، وذلك لكتابة مؤلفه " مذكرات أثرية عن المدرسة أو الجامعة العربية فى غرناطة . [٧]

ونظرًا لأننا سنتطرق فى موضوع آخر لنسخ هؤلاء المترجمين الأوائل وترجمتهم ومدى تأثيرهم فى أعمال لاحقة ؛ فقد أبرزت الاختفاء الغامض للمخطوط من بلدية غرناطة فى زمن القس إيتشاباريا الذى اهتم بالموضوع دون أدنى شك للحفاظ على شهرته كدارس متخصص فى الدراسات العربية .[٨]

وطبقًا لترجمة المترجمين الأوائل حيث اتبع فيها وضع النص أولاً ثم ترجمته فى المقام الثانى ووفقًا لنسخة القس إيتشاباريا فإنَّ ألماجرو كارديناس يُقدِّم لنا الكتابة والنقوش العربية بصورة نثرية عن المدرسة الأولى ، وذلك فى إيجاز مُخِلٍ دون أنْ يوضح لنا مكان هذه النقوش والكتابات ، ولم يكلف نفسه مع ذلك بإجراء مقارنة بين هذه النصوص المذكورة والأجزاء المودعة فى متحف الآثار الأمر الذى كان سيسمح له بالإشارة إلى تلك الكتابات الباقية حتى الآن فى هذه الأجزاء سالفة الذكر.[٩]

و يمكن القول بأنَّ ترجمة بعض النقوش الكبيرة التى جمعها القس إيتشاباريا [١٠] ، والتى نسخها ألماجرو قد نقلت إلى دليل غرناطة - مثل التى أشرنا إليها لجوميث - مورينو وجايجو بورين إلى جانب نقوش أخرى - وكذلك إلى بعض

كتب الأسفار وإلى بعض المجموعات الأثرية ، وفي كل هذه الأعمال يُلاحظ وجود تغيرات طفيفة تؤثر فقط على الأسلوب دون التأثير على المضمون بأى شكل ؛ لأنَّها لم تعتمد على النص العربى الذى قدَّمه ألماجرو.

إنَّ مجموعة كافة النقوش والكتابات الخاصة بالمدرسة معظمها مأخوذ من القرآن أو تمَّ تكوينها من جمل متكررة بكثرة فى قصر الحمراء وفى مبانى أُخرى بالمدينة ، وتستحق الإبراز من بين هذه الكتابات والنقوش تلك الخاصة بالتأسيس الموجود فى إحدى لوحتى الواجهة ، والتى كتب عليها أنَّ التشييد تمَّ تنفيذًا لأمر أبى الحجاج يوسف الأوَّل نجل أبى وليد إسماعيل بن فرج بن نصر ، وقد انتهى البناء فى شهر مُحَرَّم عام ٧٥٠ هـ الموافق (٢٢ مارس - ٢٠ ابريل ١٣٤٩) .(١١)

وطبقًا لما جاء فى عنوان هذا الكتاب ليست هذه الكتابات والنقوش النثرية التى تهمنا حاليًا بل يوجد نصان شعريَّان مَوْجودان فى المدرسة القديمة ، اللذان لا نعرف عنهما شيئًا اليوم كما لا يوجد أىُّ جزء منهما فى متحف الآثار .

ويقدم لنا ألماجرو ترجمة للقصيدتين دون أنْ يقدم لنا نصهما العربى ، وقال عن الأول إنه برز بين الزخرفة الرائعة بأحد جانبى الفناء عبارة عن شكل درع ، ونأسف من عميق قلوبنا أن مخطوطنا (كراسة المترجمين الأوائل المنسوخة بواسطة القس ايتشباريا) لا يتضمن النص الأصلى لجزء فى غاية الأهمية ؛ لأنه فى هذه الحالة فقط يمكننا تقدير واعتبار وأهمية بكل تأكيد . إن هذا المخطوط يقدم لنا ترجمة شعرية فقط والتى من أُسلوبها فإننا نجنح إلى الشك فى كونه قصيدة شعرية . وقد أدرج القس ايتشباريا ترجمة أعدَّها هو فى مؤلفه " التجول فى غرناطة "، ولكن دون أنْ يذكر عمَّا إذا كان النص الأول شعريًا أم نثريًا . وقد نبهنا إلى الخطأ الذى وقع فيه هذا العالم الجليل عند الحديث عن الموضوع يقول : إنَّ الكتابة كانت موجودة على دِرْعٍ حديدى كبير وقد صُهِرَ لأنه كان به بروز ، وليس من المستغرب أنْ يقع هذا الأثرى الجليل فى ذاك الخطأ البسيط ربما لقرائته النص الأصلى دون تريث الذى يقول : فى ممرات التنزه بالفناء يوجد درع من الجبس مكتوب عليه حروف عربية ، ونحن من جانبنا نعتقد

أنَّ ترجمة كاهن غرناطة الشهير هى الأفضل ؛ لأنَّ الخبرة أكدَّت لنا أنَّه أكثر المستشرقين ثقافة بل يفوق مؤلفى المخطوط نفسه ، وسوف ندرجها فوراً [١٢] .

و يعلق ألماجرو بعد ترجمة القس إيتشباريا قائلاً : " من الترجمة السابقة يمكن أنْ يكون للقرَّاء بعض الأفكار عن جدارة النص الأصلى " ، ومع ذلك فإنَّ الثناء الذى تتضمنه هذه الكلمات التى قالها ألماجرو فى شأن القس إيتشباريا سنرى أنَّ الترجمة الغامضة والخيالية تشبه قليلاً النص الأصلى ، ومع ذلك فإنَّ ترجمة القصيدة الثانية أقل تشابهًا مع النص الأصلى ، والتى أشار إليها ألماجرو والقس إيتشباريا دون أنْ يساورهما مجرد الشك فى أنَّها أبيات شعرية : " ونواصل وصفنا قائلين شيئًا ما عن باب السُّلَّم – كان شكله مستطيلاً والجانب العلوى للمستطيل كان على هيئة صليب أُعدَّ بدقة بالغة . وتستحق اهتمامنا صورة وشكل هذا الباب ؛ لأنه كان يماثل غيره فى المبانى الأخرى التى ترجع إلى ذلك العصر كما فى برج أبو الحشاش (ويشير بذلك إلى البرج المُسَمَّى اليوم بغرفة تسريح الملكة) وفى الجزء العلوى لهذا الباب وُجِدَت كتابة عربية أيضًا أغفلها مترجمو البلدية ، ويترجمها القس إيتشباريا على النحوالتالى : [١٣]

إنَّ النص العربى للقصيدتين غير معروف حتى الآن قد نَقَلَهُ إلينا المسلم الأندلسى ألونسوديل كاستيو فى ركن خفى بيوميات عمله (مذكراته) ، والتى يتضمنها المخطوط رقم ٧٤٥٣ بالمكتبة الوطنية بمدريد – وقبل ذلك ٢٥٧ - T و قد وُصِفَ من جانب فرانثيسكو جيين روبليس تحت رقم ٥٩٨ .N [١٤] و فى المقال الذى خصصته لهذه الشخصية العجيبة منذ بضع سنوات قدمت وصفًا تفصيليًا للمخطوط [١٥] الذى تضمن إلى جانب الوظائف التى شغلها مترجمًا رسميًا لبلاط فيليب الثانى، وكذلك نسخ كتابات الحمراء وترجمتها التى تمت فى عام ١٥٦٤ بتكليف من بلدية غرناطة . [١٦]

وفى المقال الذى أشرت إليه مؤخرًا ألْمَحْتُ بسرعة إلى بحث ألونسو ديل كاستيو وقد وعدت بالعودة إلى الاثنى عشر بيتًا عن المدرسة القديمة ، والتى جمعها ديل كاستيو وأيضًا لشرح بعض نواحى الشذوذ التى لاحظتها فى الصفحات الأخيرة لبحثه عن كتابات قصر الحمراء . [١٧]

وبالفعل فإن مخطوط ديل كاستيو يفتقر أحيانًا إلى ترقيم الصفحات ، وعندما يوجد ترقيم فإن هناك شكوكًا بشأن التسلسل العادى للنصوص العربية – من اليمين لليسار كما هى عادة العرب فى كتاباتهم – والاتجاه المعاكس أو العكسى للترجمات الإسبانية – من اليسار إلى اليمين – والجزء المخصص لكتابات ونقوش قصر الحمراء خال من الترقيم فى المخطوط ، وفى هذا المقال المذكور قمت بتخصيص ترقيم خاص – سأحافظ عليه هنا من ١ إلى ٣٧ .

و مع ذلك فإنَّ الشكوك المشار إليها فيما يتعلق بتسلسل النصوص العربية وترجماتها تدل على أنَّ عمل ديل كاستيو يسير بشكل طبيعى حتى الورق ٣١ ، والتى تظهر فيها الكتابة التأسيسية للمدرسة مسبوقة بعبارة باللغة العربية وترجمتها كما يلى :(١٨)

أنقل الكتابة التاريخية الموجودة على باب مدرسة غرناطة ، والتى تُسمى حاليًا " بمقر مجلس البلدية " على حجرين من الرُّخام إلى جانب قصيدة منحوتة على الخشب وها هنا كلا النصين .

ولكن بدلاً من أنْ يُقَدِّمْ لنا على التوالى نص كتابة التأسيس الذى أُعلن عنه مسبقًا فى هذه العبارة يقول بحروف وبخط سيئ : " وعلى الباب يوجد التاريخ فى هذه الكتابة (السطور) التالية " ، ولكن هذه السطور لم تظهر بل تحت سطر أفقى يضيفُ " هنا توجد السطور التى تحتها بعض الأبيات الشعرية التى تقول " وبعد ذلك يأتى بالنص العربى المكون من ثلاثة أبيات ويضيف قائلاً : وتحتها توجد ٩ أبيات تقول (١٩).

و بالفعل فإنَّ النص العربى لهذه الأبيات التسعة يظهر ، ولكن ليس بالصفحة التالية ٣١ (فى) ولكن فى الجزء الأسفل من الورقة ٣٢ (و) ، وقد نُسِخَت فى تلك الورقة وفى جزئها العلوى سِلْسِلَةٌ من الكلمات العربية لا تمت بأدنى صلة إلى الموضوع وقد تبعها شرحٌ لها باللغة العربية أيضًا ونوع الكتابة المستخدم فى هذه الألفاظ أو فى هذه الأشعار يجعلنا نميل إلى التفكير إلى أنَّ ذلك ما هو إلا مُسَوَّدةٌ ، وهذا الأمر يتأكد تدريجيًا بواسطة تفاصيل أُخرى مشابهة .

وبالإصغاء إلى ما اعتاد عمله ألونسو ديل كاستيو بصفة عامة فى بقية بحثه كان من المنتظر بعد عرض النص العربى للأبيات الشعرية المشار إليها أن يقدم لنا ترجمة له بالإسبانية ولكن بعيداً عنه وفى الورقة ٣٢ (فى) ينسخ النص العربى للقصيدة المحفورة بالطّنُف فى القوس الثلاثى الذى يؤدى إلى داخل قصر جنة العريف من الباب الكبير لحديقة الساقية [٢٠] ، ومع ذلك فإنه من العجيب ظهور نص نثرى عربى فى الورقة ٣٢(ر) والذى ينتهى بعد عدة سطور مشطوبة فى ص ٣٣(فى) مسبوقًا بالعنوان التالى بالعربية نص من كتاب تيسفون ابن العطار حول الجوهر الموقر [٢١] .

وفى النهاية يقدم لنا ألونسو ديل كاستيو ترجمته للأبيات الاثنى عشر المشار إليها آنفًا ، ولكن ليس بالترتيب كما فى التسلسل العربى بل فى نهاية بحثه أى فى الورقة ٣٦(فى) [٢٢] ولكن قبل ذلك يقدم لنا الترجمة التالية : [٢٣]

الورقة ٣٦ (فى) فى قاعات مجلس البلدية بمدينة غرناطة فى دائرة أفاريز أسفل الجدران [٢٤] بالفناء والصهريج وكذلك على الرصيفين الذى تَحُدُّ أَعْمِدَتَهُ الرُّخامية . وهناك أربعة قوالب مُرَبعة من الجص كُتِبَ عليها بحروف متشابكة تسعة أبيات من الشعر العربى لمدح جمال هذه المنازل التى بناها الملك يوسف أبو الهاجر (يوسف أبو الحجاج)[٢٥] أحد ملوك غرناطة ، ويرجع ذلك إلى عام ٧٥٠ للهروب العربى (التاريخ الهجرى) طبقًا لما يبدو من التاريخ المدون بأسفل فهرس قائمة هذه المنازل ، والذى يوافق عام ١٢٥٧ من التاريخ الميلادى [٢٦] ، وذلك بالورقة رقم ٣٦(ر) وقد دُوِّن عليها باللغة العربية وكذلك باللغة الإسبانية .

وطبقًا للتسلسل المتبع فى هذه المقدمة الوجيزة فإنَّ ألونسو ديل كاستيو يقدم لنا أولاً الترجمة للأبيات التسعة وفيما بعد ترجمة الأبيات الثلاثة الباقية ، ومع ذلك فإنَّهُ عند نسخ النص العربى ، والذى يُكْتَب من اليمين إلى اليسار كما أشرنا آنفًا يبدو هذا التسلسل الأخير ؛ لأنَّ الأبيات الثلاثة كانت مكتوبة على الباب الرئيسى للمدرسة ، بينما الأبيات التسعة الأُخرى كانت مُدَوَّنةً فى الممر الداخلى للفناء .[٢٧]

وها هنا النص العربى للأبيات الثلاثة الأولى : [٢٨]

١ - انظر إلى روض عـجـيب المنظر قد راق حسنًا لامحًا فى المحجر
٢ - وتأمَّل البـاب النسيج صناعته تبدى الجلال بوضعه المتخبر
٣ - وأدخل عليه للصلاة مبادرًا لتفوز أنعامًا بيوم المعشر

إنَّ هذه الأبيات مترجمة إلى اللغة الإسبانية وقد اتبع كلٌ من الماجرو وجوميث مورينو وجاييجو وبورين ترجمة القس إيتشيباريا ، ولكن بإدخال بعض التعديلات الطفيفة على الأسلوب . [٢٩]

ويقدم لنا ألونسو ديل كاستيو ترجمته التى تتميز هى الأُخرى بكثرة التحويرات اللغوية ، ولكنها مُطابقة إلى حدٍ ما مع النص العربى : وهاهى كالتالى :

ترجمة ألونسو ثم ترجمة المؤلف .[٣٠]

أمَّا نص الأبيات التسعة التى وُجِدَت فى فناء المدرسة فهو الآتى :[٣١]

١ - ألا هكذا تبنى المدارس للعلم وتبقى عهود المجد ثابتة الحكم
٢ - ويقصد وجه الله بالعمل الرضا وتجنى ثمار العزّ من شجر العزم
٣ - تفاخر منى حضرة الملك كلما تقدّم خصم فى الفخار إلى خصمَ
٤ - فأجدى إذا جَنَّ الغمام من الحيا وأهدى إذا جنَّ الظلام من النجم
٥ - فيا طالبًا يبغى إلى العلم وجهه كفئت اعتراض البيد أو حجم الليم
٦ - ببابى أخط الرحل لا تنور رحلة فقد فزت فى طول الإقامة بالغنم
٧ - فكم من شهاب فى سمائى ثاقب ومن هالة دارت على قمر تمَّ
٨ - يبيضون من ندرة مبن إلى هدى ومن ذكة تجلو القلوب إلى حكم
٩ - جزى الله عنى يوسف خير ما جزا ملوك بنى نصر عن الدين والعلم

و ها هنا ترجمة القس إيتشباريا التى سلك منهجها كثير من المؤلفين [٣٢] ، ولقد ذكرت آنفًا عند الإشادة بكلمات المدح التى أطراها ألماجرو بأنَّ هذه الترجمة تشبه قليلاً النص العربى ، والذى أُخذت منه بعض المفردات على حِدَةٍ ، وقد أُعِدَّت تحويرات لغوية خيالية وغامضة ومسهبة وفى بعض الأحيان خاطئة وغير معقولة .

ولنر الآن ترجمة ديل كاستيو التى نَأَتْ جزئيًا عن العيوب المشار إليها والتزمت بما فيه الكفاية بالنص العربى وإن كانت رغبة منه فى تحقيق مزيدٍ من الإيضاح قد أسهب فى ترجمته .[٣٣]

ترجمة ديل كاستيو إلى الإسبانية :

و بعد ذلك وعقب ترجمة الأبيات الثلاثة التى أشرنا إليها آنفًا يضيف ديل كاستيو (الورقة ٣٥ر) لقد أبرزت هذه الأبيات الثلاثة فى غرناطة امتثالاً لأمر مادة محكمة التفتيش هذا إلى جانب الموضوعات الأخرى التى كلفونى بترجمتها فى أى مكان وجدت به كتابات عربية ولافتات عربية . الأبيات الأصلية فى نهاية الورقات الثلاث اللاحقة مكتوبة من اليسار إلى اليمين . [٣٤]

ثم يقدم المؤلف ترجمته لهذه الأبيات .

و ليس من الضرورى إبراز أنَّ أبيات الواجهة ، وكذلك أبيات الفناء الداخلى قد أُلِفَت لهذه الأماكن كما يتضح ذلك من فحواها ، وهو جانب أساسى لترجمة مثل هذا النوع من الكتابات والنقوش .

ولكن من هو مؤلف هذه الأبيات ؟ ربما أنَّ الأمر يتعلق بهيئة بالغة الأهمية مثل المدرسة يمكن التفكير بأنَّ الأبيات موضوع الدراسة قد أَلَّفها رئيس ديوان الإنشاء (السكرتارى الملكية على وجه التقريب) ومن بين هؤلاء الذين تولَّوا هذا المنصب فى ذلك العهد نجد فى المقام الأوَّل ابن الجيَّاب خطيب وشاعر الأمراء مُحمَّد الثانى ومحمد الثالث ونصر وإسماعيل الأوَّل ومُحمَّد الرابع ويوسف الأوَّل ورئيس ديوان الإنشاء طوال ٣٠ عامًا، ولكن ابن الجيَّاب تُوُفِّىَ فى عام ١٣٤٨ عقب إصابته بالطاعون قبل افتتاح المدرسة الغرناطية بشهرين بعد أن كان قد أَلَّف قصيدته الأخيرة التى أهداها ليوسف الأوَّل عام ١٣٣٤ .[٣٥]

وقد حلَّ مَحْل ابن الجيَّاب تلميذه ابن الخطيب عام ١٣٤٩ ، ومع ذلك لم تظهر هذه الأبيات في ديوانه الذى نُشرَ منذ سنوات قليلة .[٣٦]

و أخيراً فليس من المحتمل أنْ يكون مؤلف هذه الأشعار هو ابن زَمْرُق المولود عام ١٣٣٧ ؛ لأنه كان في السادسة عشرة من عمره عندما أُفتُتِحَت المدرسة وإنْ كان قد التحق فيما بعد " بديوان الإنشاء " كخطيب وفى عام ١٣٧١ شغل منصب الوزير الكبير ورئيس الديوان سالف الذكر خلفًا لأستاذه ابن الخطيب عندما فرَّ هذا إلى أراضى شمال أفريقيا لكى يلتحق فى تريمسين بالسلطان عبد العزيز خائنًا بذلك الأمير مُحَمَّد الخامس .[٣٧]

وقد كان من بين كُتَّاب ديوان الإنشاء ابن صابرين وابن صفوان وإن كانا لم يرأسا الديوان قط .وقد توفى الأوَّل عام ١٣٤٦ قبيل افتتاح المدرسة بثلاثة أعوام وفيما يتعلق بالثانى فقد امْتَدَّ به العمر إلى عام ١٣٦١ ، ومع ذلك فإننا نفتقر إلى معلومات يمكن بواسطتها إسناد تأليف هذه الأبيات إليه .[٣٨]

ولعل ظهور نصوص جديدة يمكننا من إيضاح هذا اللغز يومًا ما لنعرف من هو الشاعر الذى ألَّف أبيات الواجهة والبهو أو الفناء الداخلى للمدرسة الغرناطية التى كانت بلا ريب أهم المراكز التعليمية فى الغرب الإسلامى ، والتى استمرت فى نشر التعليم على مدى قرن ونصف قرن من الزمان ، حيث لم يُدَرِّسْ بها علماء الأندلس فقط ولكن أيضًا من شمال أفريقيا الذين عبروا المضيق بعد أن جذبتهم وبهرتهم هذه البؤرة الثقافية الجديدة .

وفيما يتعلق بهذا ، وعند الانتهاء من تصحيح الصفحات السابقة على لوحات المطبعة ، سنحت لىَّ الفرصة للإطلاع على رسالة دكتوراة ماريا خيسوس روبيرا وعنوانها " ديوان ابن الخطيب الشاعر الآخر للحمراء " دراسة وطبعة نقدية ، الرسالة لم تنشر بعد ، وإن كانت دار التراث بغرناطة مهتمة بنشرها .

ومن بين الـ ٢١٩ قصيدة التى جمعت فى الديوان نجد أنَّ بعضها ، ولكن هناك قصيدة مكونة من أربعة أبيات ومسبوقة بالعبارة التالية : (ص٣١ من رسالة الدكتوراه

القصيدة ٣٢) وقال (ابن الخطيب) من بين ما كُتِبَ على باب مدرسة غرناطة وعند البرهنة على أنَّ هذه الأبيات ليست هى التى جمعها المترجمون الأوائل بمجلس بلدية غرناطة عام ١٥٥٦ ، والتى نُسِخَت بعد ذلك بدقة بالغة بواسطة المسلم الغرناطى ألونسو ديل كاستيو عام ١٥٦٤ طلبت إذنًا من ماريا خيسوس روبيرا - والتى أُقدم لها خالص شكرى حقيقة - لكى أُدرج هنا هذه الأبيات الأربعة وترجمتى لها والإشارة إلى المشكلة التى تطرحها .

ها هنا النص العربى (بحر البسيط والقافية الألف)

١ -	يا طالب العلم هذا بابه فُتِحا	فأدخل تشاهد سناه لاح شمس ضحى
٢ -	وأشكر مجريك من حلّ ومرتحل	قد قرب الله من مرماك ما نزحا
٣ -	وشرَفت حضرة الإسلام مدرسة	بها سبيل الهدى والعلم قد وضحا
٤ -	أعمال يوسف مولانا ونيته	قد طرزت صحفًا ميزانها رجحا

ثم ترجمة المؤلف .

والمشكلة التى تطرحها هذه الأبيات هى التالية : لِمَ لَمْ يتم إعادة نسخها - على حد علمنا - على باب المدرسة ، ومع ذلك تظهر مجموعة بواسطة ابن الخطيب فى ديوان أستاذه ؟ وربما تفسير ما حدث يرجع إلى اختفاء ابن الجيَّاب الذى توفى عام ٧٤٩ فى شهر شوال (الموافق يناير عام ١٣٤٩ ميلادية) والانتهاء من تشييد المدرسة لن يتم - وفقًا للكتابة التأسيسية (شاهد التأسيس) المشار إليه آنفًا - حتى شهر مُحَرَّمْ عام ٧٥٠ (الموافق ٢٢ أو ٢٠ أبريل عام ١٣٤٩) وهذه الظاهرة لا تجب أن تكون شائعة فى زمن ابن الجيَّاب حتى وصل الأمر إلى أن يحل اسم خليفة العاهل أو الحاكم محل هذا فى الكتابات المنقوشة أو تبديل أبيات شاعر بغيرها لشاعر آخر عقب وفاة الأول أو عند وقوعه فى محنة . ولدينا من الحالتين ما يبرهن على ذلك من كتابات الحمراء ، ومن بينها لابن الخطيب عندما حلَّ محله فى منصبه ومهامه تلميذة ابن زمْرَق .

ومع ذلك فمن المدهش أنّ ابن الخطيب لم يوضح لنا لماذا أبيات ابن الجيَّاب الموجودة بالديوان لم يتم إعادة نسخها بالمدرسة ، ولكن قد يرجع هذا ربما إلى تجميع ابن الخطيب للديوان قبل الانتهاء من تشييد المدرسة وحتى فى حياة أستاذه - أمران غير معروفين حتى الآن - الذى كان يشغل منصب رئيس ديوان " الإنشاء " كان قد أعدّها مسبقًا نظرًا لأهمية هذا المبنى والدور - الذى لا جدال فيه - المنوط به فى المستقبل فى الحياة الثقافية بغرناطة الناصرية .

وإذا لم تكن أبيات المدرسة لابن الجيَّاب فيبدو عاديًا أن تكون لتلميذه وخليفته بالمنصب ابن الخطيب ، ومع ذلك فلا توجد ضمن ديوانه - كما قلت آنفًا - لكى يستمر السر حول أبوة هذه الأشعار التى زينت وازدانت بها الواجهة عند المدخل والفناء الداخلى للتى يمكن اعتبارها - فى الحقيقة - الجامعة العربية الوحيدة فى أراضى الأندلس وإنْ كان تأسيسها متأخرًا مقارنة بنظيراتها فى الشرق وشمال أفريقيا عندما كان الإسلام فى الأندلس يبث آخر إشعاعاته بالمملكة النصرية فى غرناطة .

الهوامش

(١) فيما يتعلق بشخصية الحاجب رضوان وحكمه الممتاز . إنّه من أصل مسيحى وقد حظى بثقة ثلاثة من ملوك غرناطة (محمد الرابع ، ويوسف الأوّل ، ومحمد الخامس) ندوة لـ لويس سيكو دى لوثينا باريديس بعنوان " الحاجب رضوان ، مدرسة غرناطة ، وأسرار و قلاع البانسين ، الأندلس : ٢١ - ١٩٥٦ ص ٢٨٥- ٢٩٦ .

(٢) يضيف ابن سيد بعد أن أبرز الاهتمام البالغ للأندلسيين بالعلوم والأدب والاحترام الفائق الذى كان العلماء يحظون به سواء من جانب الحكام أو من الشعب ، يضيف بأنه على الرغم من ذلك فإنّ أهل الأندلس لم تكن لديهم المدارس التى تسهل لهم عملية البحث عن العلم حيث إنّ مختلف أنواع التعليم كان يتم بالمساجد محاضرة بعنوان " نفح الطِّيب . طبعة د. إحسان عبّاس (بيروت ١٣٣٨/١٩٦٨ ص ٢٢) انظر أيضاً خوليان ريبيرا " التعليم بين المسلمين الإسبان " الطبعة الثالثة (قرطبة ١٩٢٥) ص ٢٤ والمُجَمَّعة فى Diserta ciones y opy scúlos مدريد ١٩٢٨) الجزء الأوّل ص ٢٤٧ .

(٣) إحاطة طبعة عنان الجزء الأوّل (القاهرة ١٩٥٥) ٦١٥ ، وقد جاءت هذه السيرة الذاتية فى الصفحات من ٥١٤ إلى ٥٢١ اللامة البدرية طبعة القاهرة ١٣٤٧ - ١٩٢٨ ص ٩٦ .

(٤) محاضرة لماريا خيسوس روبيرا بعنوان " معلومات حول مدرسة فى مالقة قبل المدرسة الغرناطية " الأندلس " العدد ٣٥ (١٩٧٠) ص ٢٢٣ - ٢٢٦ .

(٥) فيما يتعلق بالأضرار التى لحقت بمبنى المدرسة عقب استرداد المسيحيين للمدينة يمكن مراجعة مؤلفات متشابهة على وجه التقريب منها مرشد أو دليل غرناطة لمانويل جوميث مورينو غرناطة ١٨٩٢ من ٣٠٨ إلى ٣١٢ وأنطونيو جايجو بورين " غرناطة " مدريد ١٩٦١ من ص ٣١٦ إلى ٣٢٠ .

(٦) عضو جمعية كنسية لرجال الدين الصغار ، وقد تم تأسيسها فى أوائل القرن السابع عشر بواسطة السيد / فرانثيسكو كراكثيولو المولود فى غرناطة فى مطلع القرن الثامن عشر وقد درس الفلسفة وعلم اللاهوت فى مدرسة ساكرامونتى ومات بمسقط رأسه عام ١٨٠٤ .

(٧) وقد نُشِرت هذه المذكرات كملحق لمؤلفه المعنون " دراسة عن الكتابات العربية فى غرناطة " (غرناطة ١٨٧٩) ص ١٩٧ - ٢٢٢ .

(٨) محاضرة لداريو كبانيلاس " المسلم الغرناطى ألونسو ديل كستيو " (غرناطة - ١٩٦٥) ٢٥ - ٢٧ - ٣٧ - ٣٩ - ٤٦ - ٥٠ .

(٩) وقد أُعيد نسخ هذه الأجزاء من قبَل ليفى بروفينثال " نقوش عربية فى إسبانيا (ليدى - باريس ١٩٣١) العدد ٣٧ ، ٣٨ الجزء .B.C.D.Y.E

(١٠) يمكن التجول فى غرناطة وضواحيها " الطبعة الثانية الجزء الثانى (غرناطة ١٨١٤) ص ٣٥ ، ٣٦ .

(١١) محاضرة لألماجرو كارديناس دراسة ٢٠٥ (النص العربى) ٢٠٦ (الترجمة) . وجدير بالذكر أنّ الترجمة التى استخدمها جوميث مورينو دليل (٣١٠) أشار بحروف مائلة متعرجة إلى جزء النص العربى الموجود فى متحف الآثار الأمر الذى تغاضى عنه ألماجرو سواء فى هذه الكتابة أو فى غيرها . وينشر ويترجم رودريجو أمادور دى لوس ريوس وفيلاثا فى " مذكرة عن بعض الكتابات العربية فى إسبانيا والبرتغال (مدريد ١٨٨٣) ص ١٩٥ ، ١٩٩ ينشر ويترجم فقط بعض أجزاء هذه الكتابات الموجودة بالواجهة والتى انتقلت إلى متحف غرناطة الإقليمى . أما ليفى بروفينثال الذى يقدِّم لنا النُّص العربى كاملاً وترجمته الفرنسية (كتابات عربية فى إسبانيا رقم ١٧٢ ص ١٥٨ ، ١٦٠) يبرز فى هذا الجزء الموجود اليوم ولكنه أضاف ست كلمات على ترجمة جوميث مورينو كلمات مبتورة فى السطر الأول من هذا الجزء .

(١٢) محاضرة لألماجرو دراسة ٢١٤ ، ٢١٦ . بالفعل فإنّ ترجمة القس أو الكاهن إيتشباريا المنسوخة بواسطة ألماجرو توجد فى مؤلفه " التجول فى غرناطة " الطبعة المذكورة ص ٤٦ .

(١٣) محاضرة لألماجرو دراسة ٢١٦ ترجمة القس إيتشباريا المنسوخة أيضًا بواسطة ألماجرو موجودة فى مؤلف الكاهن " التجول فى غرناطة " الطبعة السالفة الذكر ص ٤٧ ، والتى سأعود إليها فى موضع لاحق .

(١٤) كتالوج المخطوطات العربية الموجودة بالمكتبة الوطنية بمدريد (مدريد ١٨٨٩) رقم ٢١٣ ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

(١٥) المسلم الأندلسى ألونسو ديل كاستيو ص ١ - ٤ .

(١٦) على الرغم من أن البحث المذكور عن ألونسو ديل كاستيو خصصت له فصلاً بعنوان " كتابات قصر الحمراء " ص ٢٥ - ٥٥ ز قد عدت إلى الموضوع بتوسع وتفصيل فى المقال المعنون " كتابات قصر الحمراء " طبقًا لما أورده المسلم الأندلسى ألونسو ديل كاستيو فى مجلة الدراسات العربية والعبرية العدد ٢٥ (١٩٧٦) الملزمة الأولى ص ٧ - ٢٦ مع ست صور .

(١٧) انظر المقال المذكور فى الملحوظة السابقة " الدراسات العربية والعبرية الملزمة الأولى ص ٣١ والملحوظة ٣٩ .

(١٨) لمراجعة نصها العربى انظر مجلة الدراسات العربية والعبرية المعروفة باسم ميثلانيا -Miscelan ea العدد ٢٥ الملزمة الأولى ص ٣٠ .

(١٩) هذه الملاحظة تشير بوضوح إلى التسلسل الذى قدمه ديل كاستيو لكلا القصيدتين فى مُسَوَّدة ترجمته ؛ لأنّ وجود القصيدتين فى مبنى المدرسة يقدمه لنا بكل جلاء فى النص الذى سأنسخه فيما بعد .

(٢٠) يمكن مراجعة النص العربى وعبارته التقديمية ، وكذلك أشعاره فى المجلة المذكورة فى الملحوظة ١٨ نفس العدد : ٢٥ الملزمة الأولى ص ٣١ ، ٣٢ .

(٢١) من السهل استنتاج أنه كتابٌ من كتب سكرامونتى الشهيرة ، والذى نسخة يحاول أن يُقدمهُ لنا ألونسو ديل كاستيو على شكل مُسَوَّدة . وفيما يتعلق بالأصل وَ بِنْيَته ورقمه ومضمونه والجدل الذى أثير بشأن

هذه الكتب يمكن أن يُرى ذلك فى بحثى تحت عنوان " المسلم الغرناطى ألونسو ديل كاستيو " وخاصة فى الصفحات من ١٩٧ إلى ٢٣٢ بالسيرة الذاتية المُشار إليها هناك .

(٢٢) فى الواقع أنَّ الورقة الأخيرة هى ٣٧ (ر) ولكن فى كتاب ألونسو ديل كاستيو يقدم لنا النسخ فى البداية بأحرف لاتينية لكتابة عربية - والتى سأتطرق إليها فى مناسبة أُخرى - مسبوقة بالكلمات الآتية " فى حوض البركة الكائنة فى منزل صديقى لورينثو إيرنانديث شابيث يوجد هذا الوصف للمؤلف الذى يقول بعد هذا النسخ - بالعربية - فإن ستة من الألفاظ التى تظهر فى مجموعة الأبيات التسعة للمدرسة الغرناطية قد سبقت الإشارة إليها .

(٢٣) وبما أنَّ النص يتعلق بالأدب الموريسكى (إسلامى) فإنَّ أهميته تكمن فى عدة مظاهر كما أفعل ذلك مع نصوص أخرى مشابهة بدون تحديث للكتابة ، ولكننى سأضع بين علامات تنصيص بعض الألفاظ أو المصطلحات وسأضيف بعض علامات الترقيم . كما يجب أنْ أضيف إلى صديقى العزيز السيد / إيلاديو دى لا بريسا مولينا الإيضاح الكتابى لبعض الألفاظ الغامضة من جرَّاء التعديلات الكثيرة التى أدخلها ألونسو ديل كاستيو فى الأوراق الأخيرة لبحثه ، والتى نوهت بها سابقًا بأنَّها مجرد مُسَوَّدة .

(٢٤) Alizaro Alicer هو الإفريز من القيشانى - الخزف - الذى تزدان به الأجزاء السفلية من الحوائط الداخلية .

(٢٥) ولكى يشرح ألونسو ديل كاستيو اشتقاق كلمة المدرسة ومدلولها فإنَّه استعان بمصطلحات لاتينية لكى يبين لنا أنَّه فى المدرسة لابد من قَدْحَ العقل لكى يقدِّم لنا الأفكار .

(٢٦) هنا أخطأ ألونسو ديل كاستيو عندما أراد أنْ يجد التاريخ الموافق لعام ٧٥٠ هجرية بالتاريخ الميلادى فالعام هو ١٣٤٩ م وليس ١٢٥٧ كما ذكر ديل كاستيو.

(٢٧) التسلسل الأوَّل هو الذى تبنَّاه القس اينتشباريا وكذلك ألماجرو وجايجو وبورين ... إلخ ، بينما نجد أنَّ جوميث مورينو يعكس هذا التسلسل وإن كان يتفق مع ترجمة هؤلاء .

(٢٨) بحر الكامل القافية رى وعلى الرغم من أنَّ ديل كاستيو قد قرأ النص بصورة صحيحة ، فإنه عند نَسْخه فى مذكراته اليومية وقع فى بعض الأخطاء الطفيفة التى يَسْهُل تصحيحها عن طريق فن العروض فى الكلمات الثلاث التالية : الرياض بدلاً من روض ، والمنسوج بدلاً من النسيج ، وفى بدلاً من فى الشطر الثانى من البيت الثانى .

(٢٩) إيتشيباريا " التجول فى غرناطة " ص ٤٧ ألماجرو " دراسة " ص ٢١٦ جوميث - مورينو الدليل جاييجو وبورين غرناطة ص ٣١٨ . والنقطة الخيرة التى أبرزتها فى النص ليست لها أدنى صلة بالأبيات الثلاثة الأمر الذى لم ينتبه له القس إيتشباريا ولا الذين اتبعوه ، وبالتأكيد فإنَّه يتعلق بسطر عربى كان مكتوبًا عقب الأبيات مباشرة أعاد نسخه ديل كاستيو ويقول : والصلاة والسلام على النبى محمد مادامت الشمس تجوب عنان السماء .

(٣٠) يعنى يوم الحشر أو القيامة .

(٣١) بحر الطويل قافية ميمية مكسورة . يبدو أنَّ ديل كاستيو قد قرأ النص صحيحًا للأبيات التسعة إلا بعض الأشياء الطفيفة التى يمكن أنْ تُعزى إلى أخطاء مطبعية يمكن تصحيحها عن طريق العروض ، وعلى

هذا فالكلمة الأولى بالبيت الرابع هى الجمع "البيد" وليس المفرد "البيداء" ، والكلمة الخامسة بالشطر الأول من البيت السادس هي تنوى وليست تنوِ أما الرابعة فى شطره الثانى فهى طول وليست طل ، أما الكلمة الثالثة فى البيت الثامن فهى نُدْرَة وليست نادرة والكلمة الأولى بالبيت التاسع هى جزى وليست جازى.

(٣٢) إيتشيباريا " التجول فى غرناطة " ص ٤٦ ألماجرو " دراسة " ص ٢١٥ - ٢١٦ جوميث - مورينو الدليل ص ٣١١ جاييجو وبورين غرناطة ص ٣١٨ إلخ .. .

(٣٣) لقد أشرت فى ترجمة ديل كاستيو بشرطة مائلة للفصل بين البيت والذى يليه وإذا كان هذا فى غاية الصعوبة لخلو نص المؤلف ديل كاستيو من علامات الترقيم تماماً . وهذا دليل آخر على كون الجزء الأخير من عمله مُجرد مُسَوَّدة كما أشرت إلى ذلك مُسبقًا ؛ لأنَّه قدَّم لنا ترجمة أُخرى لنفس الأبيات (الورقة ٣٤ فى و٣٤ ر) أقل وضوحًا وتعديلات جَمَّة .

(٣٤) وبهذه الكلمات يحاول تفسير الترتيب العادى الإسبانى متخذًا ترتيبًا عكسيًا فى الورقات الثلاث الأخيرة من عمله عما التزم به سابقًا فى بقية النصوص العربية وفى عرضه لترجماته .

(٣٥) محاضرة لخيسوس روبيرا ماتا " قصائد النقوش لابن الجيَّاب بقصر الحمراء " مجلة الأندلس العدد ٣٥ (١٩٧٠) ص ٤٥٤ - ٤٥٥ .

(٣٦) ابن الخطيب (لسان الدين) ديوان دراسة وطبعة نقدية للدكتور م . شريف القاهرة - الجزائر ١٩٧٣ .

(٣٧) إيميليو جارثيا جوميث " ابن زَمْرَك شاعر الحمراء " غرناطة - (١٩٧٥) ص ٥٠ .

(٣٨) عن ابن صابرين وابن صفوان راجع محاضرة م. خيسوس روبيرا المذكورة آنفًا، مجلة الأندلس - العدد ٣٥ ص ٢٥٤ بالمصادر المشار إليها فى الملحوظتين ١٠ ، ١١ على التوالى .

الفصل الثّالث

ابن الجيّاب (الشّاعر الأندلسى)

مقّدمـــة

إنَّ ابن الجيَّاب هو الشاَّعر الآخر للحمراء ؛ لأنه يوجد شاعر للحمراء يُدعى ابن زَمْرَك الذى كتب أشعاره فى أجمل أماكن قصر الحمراء ، هذا فضلاً عن كونه سعيد الحظ ؛ لأنَّ السيد إيميليو جارثيا جوميث قد خصَّصَ له بعض صفحاته الجميلة ، وقد خطف ابن زَمْرَك الأضواء ، وكان نجم شعراء النقوش أو الكتابة ، وقد زَوَى رفاقه الآخرين على الهامش ، هؤلاء الذين اشتركوا معه فى مهمة زخرفة قصر الحمراء بأشعارهم وقصائدهم .

وهناك مخطوط قديم موجود بمكتبة القاهرة هو الذى أفصح عن تصحيح هذا الوضع المتميز ؛ حيث كشف لنا أنَّ قصائد أُخرى بقصر الحمراء لها مؤلف مُعترفٌ به هو ابن الجيَّاب الذى كان حتى ذلك الحين أحد شعراء البلاط المغمورين بغرناطة النَّصرية فى النصف الأول من القرن الرابع عشر .

وقد وصل المخطوط إلى ليس من قبيل الصدفة بل لأننى انغمست فى دراسة هذا العصر الذى أصبح موضوع رسالتى للدكتوراه ، ولكن من قبيل الحظ عَثرتُ على القصائد - بين صفحاته التالفة - التى ما زالت موجودة على جدران جنة العريف أو فى برج لاكاوتيبا (الأسيرة) وقد كان بلا شك صندوقًا من المفاجئات ، حيث أخرجت منه كل المعلومات غير المتوقعة على الإطلاق عن النصف الأوَّل من القرن الرابع عشر

الذى بدأت تتبلور فيه غرناطة النَّصرية التى ستؤدى على حد قول السيد / إيميليو جارثيا جوميث آخر نقطة وألذها للإسلام فى إسبانيا .

فديوان ابن الجيَّاب وفقًا للمخطوط أشار إلى أنَّ ابن الجيَّاب فضلاً عن كونه شاعرًا وموظفًا مرموقًا فى السلالة النصرية حيث إنَّ ستة من أمرائهم ومن خلالهم عالم غرناطة المؤثر الذين جعلوا من قلعة قديمة قصر الحمراء العجيب .

وهذه الدراسة هى ثمرة بحث طويل لم ينته عند تقديمنا لرسالة الدكتوراه عن ابن الجيَّاب بجامعة كمبلوتنسى بمدريد (جامعة مدريد المركزية) عام ١٩٧٢ كما لن ينتهى عبر هذه الصفحات ، وفيه توجد سيرة ذاتية لابن الجيَّاب والتى حاولنا أن تشمل كافة جوانب شخصيته ودراسة عن شعره وصداه فى نفس الشخصية . لقد ترك غرناطة النصرية بسياستها المضطربة وقصورها الجميلة .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن عدة ظروف منعتنا من تقديم طبعة كاملة فى نفس الوقت للديوان من بينها أنَّ المخطوط الذى يتضمنها هوالوحيد من نوعه فضلاً عن تعدد الثغرات به وطولها ، وبالتالى ستكون الطبعة غير كاملة ؛ ولذلك فقد فضلنا تقديم طبعة جزئية ما هى إلا مختارات من الديوان مقترنة بفهرس تحليلى لكل المادة التى يحتوى عليها المخطوط .

و إعداد هذا العمل كان الطريق ممهدًا أمامى ؛ لأننى اقتديت بدراسة السيد / إيميليو جارثيا جوميث تحت عنوان ابن زَمْرَك : شاعر الحمراء ، والتى كانت خطبته للالتحاق بالأكاديمية الملكية للتاريخ كعضو عام ١٩٤٣، وبالتالى فشكرى للسيد / إيميليو جارثيا جوميث على أنه أرشدنى فى خطواتى الأولى - دون أن يعرف - بغرناطة النصرية ، وكذلك لتكرمه بالتقديم لهذه الصفحات.

وأتوجه بالشكر أيضًا إلى لفيف كبير من الأساتذة ومتخصصى اللغة والدراسات العربية الذين ساعدونى بنصائحهم وإرشاداتهم وتوجيهاتهم الدءوبة وخاصة السيد / الياس تريس الذى أشرف على رسالتى للدكتوراه وهى لب هذا العمل

وجوهره وإلى السيد / فرناندو لاجرانخا والسيد / خواكين بالبية بمساعداتهم الثاقبة والدائمة على مدى سنوات وإلى السيدة / سوليداد خيبرت التى حثتنى على دراسة مملكة غرناطة والموقر القس السيد / داريو كبانياس يا لَهُ من متخصص عظيم فى كتابات ونقوش الحمراء الذى أمدنى بالإيحاءات والإيعازات المضيئة والنافعة .

المراجع

إن الكاتب الرئيسى للسيرة الذاتية لابن الجيَّاب هو أيضًا الذى جمع شعره وهو تلميذه ابن الخطيب ، وذلك لأنَّ بقية المؤلفين الذين تطرقوا لشخصيتنا اقتصروا على إعادة نسخ المعلومات التى أوردها ابن الخطيب على مدى إنتاجه الضخم التاريخى - الأدبى .[1]

١- الإحاطة فى أخبار غرناطة

توجد السيرة الذاتية لابن الجيَّاب فى المخطوط رقم ١٦٨٣ [2] بمكتبة الإسكوريال ص ٣١٥- ٣٢٤ ومن ص ١٢٥ إلى ١٥٢ بطبعة عنان الجزء الرابع (القاهرة عام ١٩٧٧).

و كما فى معظم السير الذاتية التى يخصصها إلى معاصريه فإن ابن الجيَّاب يستخدم كمصدر أعمال أخرى له سابقة على هذا العمل فمقطع من عمله عيد السلا [3] الذى كتبه فى شبابه كاستكمال مزعوم لعمل ابن الزبير . هذا النص هو سَرْدٌ لمعلومات صاحب السيرة الذاتية تحت رداء من البلاغة والإنشاء إلى جانب وصف لشخصيته .

و عنصر آخر للسيرة الذاتية هو جزء من " التاج المُبَلَّى فى مشكلات الكذب المُعَلَّى " والذى أراد به ابن الخطيب استمرار أو استكمال " اختصار الكذب المُعَلَّى فى التاريخ المُبَلَّى " [4] لابن سعيد المغربى ، ولا يزال التاج محفوظًا فى مخطوط بالأسكوريال [5] أما مقطع ابن الجيَّاب الذى أُعيد نسخه فى الإحاطة فما هو إلا إنشائى للتقريظ والمدح .

أمَّا بقية السيرة الذاتية فإنها تتضمن قائمة بأسماء أساتذته وقد نُسخت من مذكرة من سيرة ذاتية أعدَّها ابن الجيَّاب نفسه ، وهى عبارة عن نقاط موجزة عن سيرته بها تاريخ ومحل ميلاده ووفاته كتبها ابن الخطيب وعبد الله بك جزاى .

والإحاطة تقدم خارج هذه السيرة الذاتية بعض المعلومات المتناثرة فى سيَرٍ ذاتية أُخرى لشخصيات مُرتبطة بابن الجيَّاب مثل سيَرِ السلاطين الناصريين وهى نفس النصوص التى ظهرت فى اللمحة العمل الذى سنُحلله فيما يلى : إبَّان حكم محمد الثالث ونصر وإسماعيل ومحمد الرابع ويوسف الأوَّل .

٢- اللَّمْحَةُ الْبَدْرِيَّة [٦]

وهذا العمل عن تاريخ السلالة الملكية النصرية حتى محمد الخامس ، وهى تزودنا بمعلومات عن الدور السياسى لابن الجيَّاب وعلى الرغم من الطابع التاريخى لكتاب اللمحة إلا أنَّه يبدو مصدراً غير مألوف للعمل الأدبى لابن الجيَّاب ؛ لأنه يتضمن بعض قصائده المكتوبة أو المنقوشة بصورة صحيحة على شواهد قبور السلاطين وإن كنت هذه القصائد تبدو أنها مجهولة الأصل والمؤلف .

٣- الكاتبة الكامنة [٧]

فى هذه المختارة الشعرية يهدى ابن الخطيب إلى أستاذه السيرة الذاتية رقم ٦٢ مُنزلاً إيَّاهُ مَنْزِلة الكتاب [٨] والنص الذى يقدم المختارة الشعرية ما هو إلا النتاج المذكور آنفًا ، والذى أُعيد نسخه فى الإحاطة .

٤- ديوان ابن الجيَّاب [٩]

ويخبرنا ابن الخطيب نفسه [١٠] بأنَّه جمع شعر ابن الجيَّاب فى ديوان واحد ، وهو المرجع أو المصدر الرئيسى للأعمال الشعرية لشخصيتنا ، ولكنه مصدر تاريخى غير مألوف عن الإمارة النصرية وعن حياة ابن الجيَّاب .

وديوان ابن الجيَّاب محفوظ بدار الكتب المصرية بالقاهرة والمقيد بكتالوج المكتبة السالفة الذكر عام ١٩٢٦ ومكتوب بخط مغربى قديم بلا رأس - ممزق ومتآكل عند أطرافه .

وفى عام ١٩٦٨ عندما طلبنا السؤال عن حال هذا المخطوط المصنف برقم ٢٤٢٤ أدب أخبرونا بأنه أصبح لا يُقرأ تمامًا ، وأصبح لبابة مُشَوَّهة لا شكل لها ، ولكن دار الكتب أيضًا أمرت بنسخ المخطوط فى عام ١٩١٧ عندما كان يمكن قراءته والمخطوط الجديد أو العدد الجديد محفوظ بالمكتبة المصرية برقم ٢٦٧٨ أدب ، وقد قام الخطاط محمد حمزة بإعداد نسخة هائلة للمخطوط بالخط النسخ الواضح جداً، وقد شمل النص الأصلى كما توضح المصادر الأخرى لشعر ابن الجيَّاب التى ما زالت موجودة وتسمح لنا بقراءة نقدية أو أسماء الأماكن والأعلام الغرناطية التى استطاع أن ينسخها بدقة بالغة . ولكن فى عام ١٩١٧ فإن المخطوط الأصلى كانت به بعض الثغرات الكبيرة ، والتى أشار إليها النسَّاخ فى موضعها ، والتى يمكن أن نضيف أنَّه ترك أماكن الكلمات التى لم يفهمها خالية .

ومن مجموع ذلك فإنَّ ديوان ابن الجيَّاب يقدم لنا عدداً ممتازًا من الصفحات - ٢٧٠ صفحة فى كل منها ٢٠ سطرًا - و٢١٩ قصيدة مما يمثل إحدى المجموعات الشعرية القيِّمة لأديب أندلسى .

وابن الخطيب الذى جَمَع الديوان رتبه ترتيبًا أبجديًا ؛ حيث جَمَّع جميع القصائد التى تتفق فى قافية واحدة مع الحرف الهجائى الذى يناسبها ، وانطلاقًا من الافتراض الذى يقول بأن ابن الجيَّاب ألَّف معشرة وتخميسًا لكل حرف من حروف الهجاء ، وأن كل فصل يبدأ بمعشرة إلى جانب ملاحظات النسَّاخ ، فإننا يمكننا تقديم تحليل للحالة النقدية للنسخة بالنسبة لما يتضمنه الديوان فى الأصل .

حــــــرف الألف : لا يوجد على الإطلاق .

حـــرف البـــاء : القصـائد من الأولى إلى الرابعة عشـرة ، لا توجـد بداية لقصائد هذه الاتفاقية .

حـــرف التّـــاء : قصائد من ١٥ إلى ١٨ وبها ثغرة مهمة بين ١٧ و ١٨،

حـــرف الثّـــاء : قصائد من ١٩ إلى ٢٠ ، وهى كاملة وإن كانت لها معشرة وتخميس .

حـــرف الجـــيم : القصـائد من ٢١ إلى ٢٧ ، ونعتـقد أن هذا الحـرف كـامل أيضًا .

حـــرف الحـــاء : القصـائد من ٢٨ إلى ٣٢ ، ونعتـقد أن هناك جزءًا ناقـصًا على الأقل التخميس للمعشرة .

حـــرف الخـــاء : غير موجود على الإطلاق ، ولكننا نعتقد أن هذا يرجع إلى تلف المخطوط ؛ حـيث إن من المـفـتـرض أن يكون ابن الجياب قد أعدّ على الأقل معشرة إلى تخميسها كما فى حرف الثاء .

حـــــــرف الدّال : قصائد من ٣٣ إلى ٥٣ ، وهى ناقصة أيضًا وبدون تخميس فى المعشـرة ، وقد أعقبـها بشكل فـجائى ودون تمهيد الحرف التالى .

حـــــــرف الذّال : غير موجود على الإطلاق وينطبق عليه ما ذكرناه فى حرف الخاء .

حـــــــرف الرّاء : القصائد من ٥٤ إلى ٧٨ ، إلا أن بداية المعشرة غير موجودة ، كما أنّ القصيدة الأولى تبدأ من المنتصف .

حـــــــرف الزّاء : القـصـــائد من ٧٩ إلى ٨٠ ، وهو كـامل على الرغم من احتوائها على معشرة واحدة وتخميس واحد .

حـــــرف السّين : القصائد من ٨١ إلى ٨٣ تبدو كاملة دون ثغرات .

حـــرف الشّين : القصائد من ٨٤ إلى ٨٧ تبدو كاملة دون ثغرات .

حـــرف الطّاء : القصائد من ٨٨ إلى ٨٩ تبدو كاملة ، ولكنها ليست بها سوى معشرة واحدة وتخميس واحد .

حـــرف الظّاء : غير موجود على الإطلاق ، وينطبق عليه ما ذكرناه فى حرف الخاء .

حـــرف الصّاد : غير موجود على الإطلاق ، وينطبق عليه ما ذكرناه فى حرف الخاء .

حـــرف الضّاد : القصائد من ٩٠ إلى ٩٤ وتبدو كاملة .

حـــرف العين : القصائد من ٩٥ إلى ١٠٤ وتبدو كاملة .

حـــرف الغين : القصائد من ١٠٥ إلى ١٠٦ وتبدو كاملة على الرغم من احتوائها على معشرة واحدة وتخميسها .

حـــرف الفاء : القصائد من ١٠٧ إلى ١١٧ وتبدو كاملة .

حـــرف القاف : القصائد من ١١٨ إلى ١٢٧ وتبدو كاملة .

حـــرف الكاف : القصائد من ١٢٨ إلى ١٢٩ ، وينقصها قصائد فى النهاية (التخميس) وقد بدأ الحرف التالى فجأة بدون تمهيد .

حـــرف اللام : القصائد من ١٣٠ إلى ١٥٩ البداية غير موجودة كما توجد ثغرات فى بداية القصيدتين ١٣٢ و ١٣٥ .

حـــرف الميم : القصائد من ١٦٠ إلى ١٨١ ، وتوجد ثغرة بين القصائد رقم ١٧٧ و ١٧٨ وفى النهاية ، كما أن الحرف التالى قد بدأ فجائيًا دون تمهيد .

حـــرف النّون : القصائد من ١٨٢ إلى ٢٠٦ ، البداية غير موجودة كما توجد ثغرات بين القصائد رقم ١٩٦ و ١٩٧ وبين رقم ٢٠٠ و ٢٠١

حـــرف الهاء : القصائد من ٢٠٧ إلى ٢٠٩ وتبدو كاملة .

: القصائد من ٢١٠ إلى ٢١٢ وتبدو كاملة .

حـــــــــرف الواو : القصائد من ٢١٣ إلى ٢١٦ غير موجود تخميس المعشرة .

حـــــرف لام ألف : القصائد من ٢١٧ إلى ٢١٩ ، ونعتقد أن بعض القصائد فى النهاية غير موجودة .

ومـع كل الظروف السابقة فإن طبع الديوان ستحتوى على جوانب متعددة من القصور، والتى لا يمكن التغلب عليها إلا بظهور مخطوط جديد . إنَّ أهمية الديوان من وجهة النظر التاريخية والأدبية وحتى الأثرية – ولنتذكر القصائد الكتابية المنقوشة بقصر الحمراء – جعلتنا نقوم بإعداد طبعة لبعض المختارات من الديوان نفســه إلى جانب فهرس تحليلى لجميع قصـائد الديوان المُرَقَّمـة بالأرقـام الرومـانية (أرقام اللغة اللاتينية) ، والتى قدمنا فيه نبذة عن مضمونها وتاريخها المحتمل ، ونعنى تاريخ تأليفها .

٥ – ديوان ابن الخطيب

قـام السـيـد / مـحـمـد الشـريف قـاهر بطبع ديوان ابن الخطيب عـام ١٩٧٣ بالجزائر .

و من بين قصائد ابن الخطيب نجد أن بعضها تشير إلى ابن الجيَّاب : القصيدة رقم ١٦٠ (١١) . قصيدة طويلة جاءت ردًا على قصيدة لأستاذه ، وهى بالتأكيد قصيدة ابن الجيَّاب التى وضعنا لها الرقم ٨ ؛ لأن القصيدتين تتفقان فى البحر والقافية ، وهى مُهداة إلى ابن الخطيب ، كما أن القصيدة رقم ١٧ (١٢) يطلب فيها ابن الخطيب مساعدة أستاذه ضد أعدائه فى البلاط الملكى ، والقصيدة ٣٣٠ (١٣) قد كُتِبَت تقليدًا لبيت شعرى لابن الجيَّاب عن غارة مسيحية (أو هجوم مسيحى) على لافيجا دى غرناطة (أى مروج غرناطة) عام ٧٤١هـ (١٣٤٠م) والقصيدة رقم ٣٤٤ ما هى إلاَّ تَوْرِيَةٌ بسبب سفر ابن الجيَّاب إلى شمال أفريقيا (١٤) .

مصادر أخرى :

ابن فَرْحُون (المخطوط عام ١٣٩٧/٧٩٩) [١٥]

ففى الديباج [١٦] يذكر ابن الجيَّاب (وإن كان قد أطلق عليه اسم الجْيَّاب) مشيراً إلى مولده ووفاته فقط ٠

ابن الأحمر (المخطوط عام ١٤٠٤/٨٠٧)

هذا الأمير الناصرى شاعرٌ وأديب أدرج فى عمله المُسَمَّى نظير......... الجُمَّان فى نظم فحول الزمان [١٧] فصلاً عن ابن الجيَّاب وقد ركز اهتمامه على مناصب ابن الجيَّاب السياسية وعلى كونه شاعراً من شعراء القصور والبلاط الملكى للأسرة النصرية وقد مَجَّدَ بنى قومه ، وهذا كان جلُّ اهتمامه ؛ لهذا السبب استشهد بمقطوعات متعددة من قصيدة السلطانية ٠

ابن القاضى (مخطوط عام ١٦١٦/١٠٢٥) [١٨]

اقتصر فى عمله " دُرَّةُ الحجال " [١٩] على إعادة نسخ السيرة الذاتية لابن الجيَّاب الكائنة فى الإحاطة ، ولكن بإيجاز مُفْرِطٍ ٠

المقَّرى (مخطوط عام ١٦٣٢/١٠٤١)

١- أزهار الرياض [٢٠] إشارة صغيرة إلى السيرة الذاتية وقصيدة هجائية ٠

٢- نفحُ الطِّيب [٢١] . إن عمل المقَّرى فى التجميع مفيدٌ للغاية ، وفيما يتعلق بابن الجيَّاب يُعتَقَدُ أنه استخدم السيرة الذاتية الكاملة الأصلية بالإحاطة [٢٢] ، فضلاً عن المعلومات الموجودة فى تلخيص الإحاطة ، بالإضافة إلى عدد كبير من القصائد أكثر من هذا النص ونموذج نثرى لابن الجيَّاب لم تظهر فى أى مصدر آخر ٠

وفى السيرة الذاتية المُعَاصِرةِ توجد بعض الإشارات إلى ابن الجيَّاب بصفة عامة فيما يتعلق بعلاقته مع تلميذه الخطيب ، وعلى سبيل المثال السيرة الذاتية المختصرة التى أدرجها بونس بويجيس [٢٣] فى السيرة الذاتية الخاصة بتلميذه ابن الخطيب .

وفى عمل المصرى مُـحَمَّد كمال شبانة"يوسف الأوَّل بن الأحمر" توجد سيرة ذاتية مُوجزة جداً [٢٤] ، وتضم بين الوثائق إعادة نَسْخٍ لنص السيرة الذاتية الكائنة بالإحاطة .[٢٥]

ابن الجَيَّابِ : الإنسان

مرحلة الشباب والإعداد :

نَسَبهُ : هو أبو الحسن على بن مُحَمَّد بن على بن سليمان بن حسن الناصرى والمعروف بابن الجيَّاب . وُلِدَ فى غرناطة إبَّان شهر جمادى الأولى عام ٦٧٣ الموافق (نوفمبر - ديسمبر عام ١٢٧٤) . (٢٦)

وكانت أسرته من أهل مدينة غرناطة ؛ حيث لم يَبْرَعْ أجداده فى أى جانب من الجوانب حيث إنَّ ابن الخطيب لم يذكر شجرة نسبه على غير المألوف وربما تنتسب أسرته إلى الحرف اليدوية كما يشير لقب الأسرة فى الظاهر(٢٧) . ومع ذلك فابن الجيَّاب يوضح لنا فى إحدى قصائده (٢٨) بأن أجداده كانوا منهمكين فى الدراسة والدين كالفقهاء ، ويحدثنا عن طفولته ، وهو أمر غير معهود فى الشعر العربى . ومن خلال أشعاره نكتشف أنَّ والده علَّمَهُ القرآن .

" نشأتُ تحت رعاية أو فى كنف رجل الشهامة والمروءة الذى هو والدى محاطًا بالمجد والفخار والعزَّة بين العلم والكرم .

وكان أوَّلُ شئ قُدِّمَ إلىَّ فى طفولتى دراسة إجبارية لكتاب الله ، ولم أدخر وسعًا للاجتهاد فيه دون أن أشعر بالإجهاد أو الملل " .

وكما نرى فإنَّ الخطوة الثانية فى حياة الشاب على كانت دراسة العلوم القرآنية ؛ فالتحول الثقافى لغرناطة تحت رعاية أسرة محمد الثانى المُلَقَّبِ بحقٍ بالفقيه الذى قدَّم لجيل ابن الجيَّاب جمعًا فاضلاً من كبار الأساتذة فى كَنَف الأمير صديق الآداب والعلوم على طرف نقيض تمامًا لوالده محمد الأوَّل ؛ فهو ملك جاويش كان ينتهر أبناءه عندما يجدهم يدرُسون .(٢٩)

ولهذا فإن قائمة معارف ابن الجيّاب [٣٠] تشمل كل العلوم التى تندرج فى التعليم الإسلامى العالى مثل : علم القراءات أو علم القراءات القرآنية ، تفسير القرآن ، علم الحديث أو السنن ، الفقه وعلم الفرائض أو الميراث ، وكل هذا يسمح لنا أن نَصِفَهُ بالفقيه ٠

وإلى جانب هذه العلوم الإسلامية أضاف معارف وعلومًا دنيوية مثل : علم الأدب بشقيه الشعر والنثر ، والذى وصل به إلى درجة الرَّاوِيَّة ٠ علمَ اللغة وعِلْمَ العربية أى معرفة اللغة العربية وعِلْمَ البلاغة العلم الذى لا غنى عنه لأىٍّ شاعر ٠ وإلى جانب كل هذه العلوم والمعارف يجب أن نضيف عِلْمًا ليس كلاسيكيًا وهو التَّصوف ، وهو علم نال تقدير ابن الجيَّاب ، وكان إحدى ثمار ذلك العصر ٠ وقد استطاع ابن الجيَّاب تحصيل هذه العلوم طوال مرحلة كبيرة كما كان مُتَّبعًا بين الدَّارسين العرب ٠ وسنحاول التدرج فى هذه المرحلة الطويلة من خلال علم التأريخ الزمنى لأساتذته بالقدر الذى يمكننا التحقق منهم أو التعرف عليهم ووضعهم فى مرحلة محددة فى حياة ابن الجيَّاب ٠

و كان من بين الأساتذة الذين تردد عليهم ابن الجياب ورفاقه من طلاب العلم ابن الزبير الذى كان يلقى دروسه التعليمية فى مسجد غرناطة الكبير [٣١]. وهذا الفقيه المُرْعِبُ الملقب من قبل ماسيجنون بأنه صائد الساحرات ٠ وكان ابن الزبير أول أستاذ لابن الجيَّاب ، ويؤكد أنه تَرَعْرَعَ معه وذلك فى السيرة الذاتية التى أعدَّها لأساتذته فى الإحاطة [٣٢] ، والتى مُنِحَ على أثرها درجة الإجازة العالية [٣٣] .

والذى يمكننا به أن نفترض أنَّ ابن الجيَّاب اكتسب معارف قانونية ودينية لكى يصبح فقيهًا شهيرًا ، ولكن كآخرين من معاصريه استطاع أن يجمع بين الاستقامة الفقهية الأندلسية بميل عميق إلى التصوُّف الذى كان ظاهرة منتشرة بين كثير من شخصيات الإمارة النصرية الأمر الذى يستحق الدراسة بتعمق ؛ ولهذا فإنَّ من بين أساتذته أحد المتصوفين المشهورين ، وهو أبو الحسن فضل بن محمد بن على بن فضيلة (المتوفى عام ١٢٩٩/٦٩٩) [٣٤] المنتسب إلى المذهب الصوفى لبنى سيدى بونا[٣٥] ، والذى كان معسكره العام بحى البائسين ٠ إنَّ مما له مغزى أنَّهُ فى قائمة سيرته الذاتية لأساتذته أنَّ ابن الجيَّاب ذكر فى المقام الأول هذا المتصوف ، والذى كان

مذهبه أو طريقته قد اتبعها طوال حياته الروحية . وسنعود فيما بعد إلى هذا الجانب من شخصية ابن الجيَّاب .

وفى لحظة ما من شبابه انتقل ابن الجيَّاب وهو فى شبابه إلى مالقة عندما كان خطيبًا بديوان الإنشاء فى خدمة محمد الثانى ، وهناك استمر إعداده العلمى . وقد دَرَسَ ابن الجيَّاب القرآن مع الأستاذ أبى الحسن على بن أحمد بن محمد بن على بن أحمد البلوطى (المتوفى عام ٧٢٠ هجرية ١٣٠٢-١٣٠٣ م) والمولود فى منطقة بينتوميت [٣٦] وقد درس إلى جانب ذلك القراءات السبع للقرآن ، كما حضر دروس القاضى أبو عبد الله بن عيَّاش . وبعد مرور عدة أعوام تَخَلَّى ابن عيَّاش عن منصب القاضى بعد ممارسته لهذه المهنة ثلاثة أيام فقط [٣٧] ، كما أن هناك أستاذًا آخر شهيرًا لابن الجيَّاب هو : عبد الواحد بن محمد بن أبى السداد المعروف بالباهلى (المتوفى عام ٧٠٥/١٣٠٥) [٣٨] الذى كان يلقى دروسه فى مسجد مالقة الكبير .

وقائمة أساتذة ابن الجيَّاب لا تنتهى بأساتذته المالقيين ؛ لأنَّه كما كان شائعًا لأى دارس فى العصور الوسطى فقد استمر ابن الجيَّاب فى حضور ندوات ودروس لعدد من العلماء طوال معظم حياته . وبالإضافة إلى الذين لهم ثقلٌ فى ثقل ابن الجيَّاب والذين سنذكر فيما بعد نجد أنَّ سلسلة من الأسماء تظهر فى قائمة سيرته الذاتية يصعب ترتيبها زمنيًا ؛ لأنه فى مرحلة شبابه ونضوجه فإن أساتذة مغاربة وشرقيين منحوه الإجازة بالتأكيد دون أن يحضر دروسهم .

و سنبرز من بين هؤلاء الخطيب أبا جعفر أحمد بن على الكاحلى المتوفى عام ٦٩٢هـ ١٢٩٢ م ، إذا كان هذه هو الشخص الذى أشار إليه ابن القاضى [٣٩] ، وكذلك نجد محمد بن يحيى بن ربيعة الأشارى الذى ربما يكون القاضى محمد بن يحيى المعروف بابن أبى بكر[٤٠] ، مالك بن المُرَحَّل [٤١] بالتأكيد ، وأيضًا أبا العباس بن الجمزة قاضى الجماعة فى تونس .[٤٢]

(١) ديوان الإنشاء النَّصرى

لقد كان طموح معظم الأدباء الشبان بالإمارة النصرية بالتأكيد الحصول على منصب فى البلاط الملكى وخاصة كخطيب [٤٣] . إنَّ محمد الثانى هو صانع النَّهْضَة الثقافية فى غرناطة ، كما زوَّد الإمارة التى ورثها من والده بالهيئات الإدارية ، ومن بينها الوزارة وديوان الإنشاء أو هيئة التحرير .

و الوزير ، كَلَقَب ، وُجِدَ فى الأندلس منذ القِدَم ، ولكنه لم يكن يمثل هذا المنصب المتميز كما فى الشرق [٤٤] . إنَّ لقب الوزير عانى عَبْرَ الأزمنة من الاحتقار [٤٥] ؛ ففى إمارة النصرى محمد الأوَّل يواصل هذا التقليد بشأن غموض هذا المنصب ويعين وزارة لحكام بعض المدن [٤٦] دون أنْ يعنى هذا التعيين وظيفة مستقلة عن الوالى ، وقد ورثتْ اللقب ذرِّيَة هؤلاء الحكام أو الولاة . وكان محمد الثانى هو أوَّل من أنشأ منصب " وزير أوَّل " ، وهو وزير ذو مهام خاصة ومحددة . [٤٧]

ولكن من بين هذه المهام نعتقد أنَّها لم تَشْمل المراسلات الرَّسمية كما قيل مستندين إلى كلمات ابن خلدون [٤٨] " اليوم فى الأندلس لوزيرها مهامه المألوفة إلى جانب المراسلات . ويشير ابن خلدون إلى عصر محمد الخامس عندما كان ابن الخطيب وزيرًا ، ولكن ابن الخطيب كان يحمل لقب صاحب الوزارتين . وقد تمتع بهذا اللقب الأشخاص الذين جمعوا بين منصبى الوزير ورئيس ديوان الإنشاء مثل ابن الحكيم دى روندا مع مُحَمَّد الثالث [٤٩] ، وابن الجيَّاب نفسه كما سنرى [٥٠] ، وابن الخطيب مع يوسف الأوَّل ومحمد الخامس ؛ فوزير ابن خلدون كان يحمل المراسلات لأنَّه كان بالإضافة إلى ذلك خطيبًا ، والمهمة الوحيدة للوزير بالنسبة للمراسلات أو البريد كانت تكمن فى وضع علامة أو تصريح على الرسائل وهى توازى الخاتم الملكى والذى كان فى الإمارة النصرية " لا غالب إلاَّ الله " [٥١].

إنَّ " ديوان الإنشاء " كان مُكلفًا بكتابة المراسلات والوثائق الرَّسمية ، وقد ترك لنا ابن الخطيب نموذجًا لكليهما فى عمله « ريبنات الكُتَّاب » عبارة عن نموذج أو صيغة لكى يتبعها أمناء ديوان الإنشاء .[٥٢]

و نعتقد أنَّ من بين مهام كُتَّاب ديوان الإنشاء تأليف القصائد المدحية (قصائد المدح) القصائد السلطانية ، وبهذا يمكن البرهنة على النشاط الأدبى للشخصيات التى شغلت هذا المنصب وكرؤساء لديوان الإنشاء مثل ابن الجيَّاب وابن الخطيب وابن زَمْرَق أو كُتَّاب عاديين بنفس الديوان كابن صابرين [٥٣] أو ابن صَفْوان[٥٤].

فابن زمرق يعتبر أنَّه قدَّم خدمة جليلة لتأليفه ٧٧ قصيدة من هذه القصائد[٥٥] ، وهذا يعنى أنَّهم كانوا موظفين مهمتهم إلى جانب مهام أُخرى هى تأليف قصائد على شرف السلالة الملكية أو الأسرة المالكة ، وقد كانت المناسبات لإلقاء هذه القصائد الأعياد الرسمية وأعياد الفطر والأضحى التى كان يُحتفل بها بشكل جليل ومهيب برئاسة السلطان فى قاعة الاحتفالات .[٥٦] ، ومن بين الأعياد التى حظيت باهتمام كبير للاحتفال بها هو عيد المولد النبوى وإن كان قد دخل حديثًا بالأندلس .[٥٧]

وكانت القصائد السلطانية تشيدُ بالأحداث الأسرية للأمراء : أفراح الزواج والميلاد والأسفار والعروض العسكرية ، وكذلك العودة من الحروب منتصرين.

إنَّ قصائد الكُتَّاب كانت تتابع الأمراء النصريين حتى بعد الموت ، وذلك بقصائد الرثاء (الرثائيَّات) التى كانوا يودعونهم بها فى الجنائز ، وكذلك بشواهد القبور التى كانت ترافقهم فى قبورهم .

ولا يجب أن نستغرب كثيرًا أنَّ أشعار الكُتَّاب كانت تشارك أيضًا فى ديكور جدران القصور النصرية وبما نعرفه حتى الآن فإنَّ القصائد المنقوشة بقصر الحمراء هى من تأليف الكبار الثلاث لديوان الإنشاء : ابن الجيَّاب وابن الخطيب وابن زَمْرَق .

لقد انضم على بن الجيَّاب إلى ديوان الإنشاء وهو فى سن المراهقة ، وقد تعرَّف على رئيسه آنذاك محمد بن على بن العبيد [٥٨] ، والذى توفى عام ٦٩٠/١٢٩٥ وقد عُزِلَ من منصبه من جراَّء إدمانه للمسكرات قُبيل هذا التاريخ ، وأسباب هذا الانضمام المبكر لابن الجيَّاب يجب ألا نبحث عنها فى نضج سابق لأوانه واستثنائى لشاعرنا وأديبنا ، بل يجب أن نبحث عن ذلك فى بِنْيَة ديوان الإنشاء نفسها .

ونحن نعتقد بأنَّ الديوان كان أشبه بورشة ؛ حيث كان الكُتَّاب يعملون فنانين يقرضون الشعر والسَّجْعَ ، وكانوا يعملون فى مادة اللغة العربية تحت إشراف رئيس الديوان الذى كان يقوم بتصحيح وتهذيب قصائدهم التى من المُقرَّر أن تُنشَد فى اللحظات المهيبة والمناسبات الجليلة .

وابن الجيَّاب بوصفه تلميذًا أو صبيًا بديوان الإنشاء كان رئيسه ابن الحكيم دى روندا (٥٩) الذى خلف ابن العُبَيْد ، وعندما يتولى ابن الجيَّاب رئاسة الديوان سيقوم بتعليم الصبية الجدد ، أو التلاميذ الجدد والذى سيجد من بينهم تلميذًا فذًا هو ابن الخطيب ؛ حيث سيقدم له كل خبايا وأسرار هذه المهنة ، وفى هذا التسلسل الفنى سيتولى ابن الخطيب رئاسة ديوان الإنشاء ، وسيختار من بين تلاميذه العباقرة خطيبًا جديدًا واعدًا هو ابن زَمْرَق (٦٠) .

و قد أشرنا فى مكان سابق (٦١) إلى أن هذا هو سبب للهوية المُدهشَة لأسلوب القصائد المنقوشة بقصر الحمراء ، وهى قصائد مُتتَالية لابن الجيَّاب وابن الخطيب وابن زَمْرَق .

(٢) الموظف الشَّاعر

لقد بدأ ابن الجيَّاب مبكرًا فى وظيفته بوصفه شاعرًا ملكيًا ، وقد كانت قصيدته الأولى السلطانية مُهداة إلى محمد الثانى (٦٢) بمناسبة الغارات التى شنَّها هذا الملك على أراضى جيان ، والتى يمكن تأريخها ما بين ١٢٩٥ و١٣٠٠ م.(٦٣) ومن ذلك الحين وابن الجيَّاب يقوم بشرح وتفسير أحداث الأسرة النصرية المالكة بصِيَغ نَمَطِيَّة حتى آخر قصائده التى أهداها إلى يوسف الأوَّل عام ١٣٤٥(٦٤) . وخلال خمسين عامًا كان ابن الجيَّاب خطيبًا وشاعرًا موظفًا وفى الوقت نفسه شاهدًا فريدًا وحكيمًا للسياسة الغرناطية المضطربة إبَّان النصف الأوَّل من القرن الرابع عشر.

إنَّ مهارة ابن الجيَّاب الشعرية كانت عظيمة ؛ لأنَّه قبل توليه رئاسة ديوان الإنشاء تم تكليفه بتأليف قصيدة الرثاء الرسمية عند وفاة محمد الثانى (٦٥) التى حدثت

عام ١٣٠١ م ، وكذلك شاهد القبر الشعرى للأمير نفسه [٦٦] ، وقد كانت هذه هى المرَّة الأولى التى كُتِبَ فيها الخلود لأبياته الشعرية ، وذلك بكتابتها على القبر .

و ربما يكون الرئيس ابن الحكيم دى روندا الذى كان يفتخر باتساع ثقافته ومُسَامرة شعرية راقية قد ازدرى بعض الشىء عمل الشاعر الموظف وتركه فى أيدى تابعيه . والحقيقة أيضًا أنَّ ابن الجيَّاب هو الذى احتفل باشعاره فى الأحْدَاث الأولى لحكم محمد الثالث : حفل الجلوس على العرش للأمير الجديد [٦٧] وبعدها مباشرة فتح بيدمار[٦٨] ، وفى الوقت نفسه هنَّأ رئيسه ابن الحكيم [٦٩] ، بثلاث قصائد عندما عُيِّنَ وزيرًا . وبعد انهماك ابن الحكيم فى السياسة قام بإسناد مهامه - بوصفه شاعرًا ملكيًا - إلى تلميذه الذى يستطيع أنْ يشرح فى قصائده متعددة الآثار التى أنشأها الأمير محمد الثالث [٧٠].

وأصاب العمى الأمير - أعمى فى غرناطة - ويجب أن يهجر السياسة التى أحبَّ ممارستها ، ولن يرى بعد القصور الجميلة التى كان قد شيَّدها ، ولم يقرأ الكتب التى كان يلتهم بها ليالى الأرق .[٧١]

إنَّ عمى السلطان كان بمثابة لحظة المجد لابن الحكيم الذى تولَّى حينذاك سلطات الأمير ، وإذا لم نعرف ذلك من خلال المصادر التاريخية لعرفناه من قصائد ابن الجيَّاب . وكبقية الغرناطيين نَسِيَ ابن الجيَّاب السلطان المُخْتَبِئ فى أحد أركان قصر الحمراء [٧٢] ، وأهدى إلى ابن الحكيم قصائده الملكية . وأشعارُ ابن الجيَّاب تشرح كل حدث للوزير الأول المهيمن على كل شىء : سفارته بالمغرب لإبرام التحالف الغرناطى مع الميرنيين [٧٣] وتحالفه مع قشتالة الذى يقطع العلاقات التى أبرمتها السفارة السابقة [٧٤] ، سفره إلى سبته لتهدئة النفوس بعد الفتح (٧٠٥ هـ - ١٣٠٥ م) [٧٥] ، أو عندما يشغل مكان السلطان فى الاحتفال بأعياد الفطر وكذلك بأعياد الأضحى [٧٦] . وعلى صعيد أقل مهابة هنَّأ ابن الجيَّاب ابن الحكيم لشفائه من مرض كان قد ألمَّ به [٧٧] ، وكذلك لتسلمه هدية من تونس [٧٨] ، أو عندما يهنئ نفسه لجدارته بحمايته [٧٩] ، أو لكونه تلميذًا لابن الحكيم [٨٠].

هذا وقد بَرَعَت الإمارة النصرية تحت رعاية ابن الحكيم فى المجالين السياسى والثقافى ، فقد أصبحت غرناطة تَعِجُّ بالأدباء والشعراء ، كما أنَّ غزو سَبَتِه أدى إلى انتقال كثير من الأدباء والشعراء إلى العاصمة غرناطة وعلى رأس هؤلاء الأمراء الصافيين المثقفين . فسبته مرتبطة ثقافيًا بمنطقة الأندلس ، وقد استقبلت كثيرًا من المهاجرين القادمين من شبه الجزيرة ؛ حيث استقروا فيها على أمل العودة مرَّة أُخرى إلى الأندلس أو الهجرة إلى مكان آخر ، كما أنَّ ضم مدينة سبتة إلى الإمارة النصرية ردَّ أهل سبته إلى أرض أجدادهم ، وعلى هذا فإنَّ الشاعر محمد بن على بن هانئ السَّبتى (المتوفى عام ٧٣٣ هـ - ١٣٣٢ م) هو من أصل أشبيلى [٨١] ، والقاضى أبو بكر محمد بن صابرين [٨٢] الذى انضم إلى ديوان الإنشاء وظل بصفة نهائية فى غرناطة ، وابن خميس دى ترميسين [٨٣] شاعر قديم بقصر بنى يجموسارين ، وقد أصبح صديقًا ومادحًا لابن الحكيم [٨٤].

وتجدر الإشارة هنا إلى أنَّ ابن الجيَّاب حضر آنذاك دروس اثنين من هؤلاء المهاجرين : ابن رُشَيد الصديق الشخصى لابن الحكيم ، والذى كان قاضيًا للزواج (مأنونًا) وخطيبًا بالمسجد الكبير فى غرناطة حيث كان يلقى دروسه هناك ، وقاسم بن عبد الله بن محمد السَّط (المتوفى فى ١٣٢٣/٧٢٣) [٨٥].

(٣) المؤامرة

وقد انتهى عصر ابن الحكيم بشكل مأساوى ؛ فقد أعَدَّ القائد ابن المول [٨٦] مؤامرة مع أفراد من الأسرة النصرية - الذى كان ينتمى إليها - لاغتيال ابن الحكيم وتنصيب الأمير نصر ، شقيق السلطان الكفيف ، سلطانًا لغرناطة . وفى يوم عيد الفطر عام ٧٠٨ (١٤ مارس ١٣٠٩) وعندما كان الشعراء قد أعدُّوا قصائدهم على شرف ابن الحكيم [٨٧] ، قام المتآمرون باغتيال الوزير (ابن الحكيم) وأرغموا السلطان محمد الثالث على التنازل عن العرش لصالح شقيقه نصر .

وفى اليوم نفسه تم اضطهاد واغتيال أصدقاء ابن الحكيم ومع ذلك فإنَّ ابن الجيَّاب لم يصب بأدنى أذى على الرغم من امتداحه لأمجاد الوزير ابن الحكيم وهى كلمات فارغة من المضمون ، والجميع كان يعلم أنَّها ليست صادقة ، ولكن قالها الشاعر بحكم وظيفته . ولأننا لا نعتقد أن يكون ابن الجيَّاب قد اشترك فى المؤامرة ضد ابن الحكيم كما قيل فى الطبعة الأولى لمأساة ابن الخطيب - ابن زَمْرَق ؛ لأنه كان على علاقة وطيدة فيما بعد مع نجل ذى الوزارتين [٨٨] أبو بكر كاتب ديوان الإنشاء التابع لابن الجيَّاب وقد تبادل معه أشعاراً ودية [٨٩] ، ولنتذكر على العكس من ذلك القصيدة المعادية لنجل ابن الخطيب تجاه ابن زَمْرَق [٩٠] ، ونعتقد ببساطة أنَّ ابن الجيَّاب استطاع بمهارة فائقة تفادى العاصفة ، وهذا هو سر بقائه على قيد الحياة عقب المؤامرة طوال أكثر من خمسين عاماً ، ولكن هذه القدرة على المناورة لشاعرنا ابن الجيَّاب لم نعرف سوى أنَّهُ ظل صامتاً أمام الجُثمان المُمَزَّقَ لأستاذه وراعيه [٩١] ، وأن شاعرنا أصبح رئيساً لديوان الإنشاء فى عهد الأمير الجديد .

وعندما تولى هذا المنصب - أهم المناصب فى البلاط الملكى لغرناطة إلى جانب منصب الوزير - كان عمره يناهز الرابعة والثلاثين ولديه خبرة طويلة ككاتب ، وحينئذ سكت قلمه مما يثير تناقضاً فى الظاهر ؛ لأنَّه كان من المنتظر أنْ يُكَثِّف كتاباته وقصائده ، إلا أنَّهُ لم يؤلف سوى قصيدة واحدة خلال حكم نصر ولم يُهدِ هذه القصيدة للأمير ولكن إلى سلفه ، وهى المنقوشة على شاهد قبر محمد الثالث السلطان المخلوع الذى لقىَّ حتفه غرقًا فى البركة [٩٢] . و سبب هذا الصمت يمكن أن يُعزى إلى رقابة ذاتية فرضها ابن الجيَّاب على نفسه أو من جامع الديوان ابن الخطيب اللذين حذفا كل ما يتعلق بالأمير نصر عدو إسماعيل الأوَّل مؤسس الأسرة التى خدمها كلاهما .

هذا وتجدر الإشارة هنا إلى أننا لم نعرف شيئًا عن ابن الجيَّاب خلال الخمس سنوات التى استمرت فيها إمارة نصر [٩٣] .

ويمكننا أن نفترض أن ابن الجيَّاب كان من بين كبار الشخصيات بالبلاط الغرناطى الذين تآمروا للإطاحة بالأمير نصر وإعادة الأمير محمد الثالث إلى العرش

من جديد وفيما بعد حرَّضوا الأمير النصرى أبو سعيد رئيس مالقة ونجله إسماعيل على التمرد[٩٤] ، وعندما تولَّى الأخير العرش فى غرناطة نجد أنَّ صمت ابن الجيَّاب قد انتهى . وسواء أكان شاعرنا أحد المتآمرين أم لا ، إلا أنَّه مرة أُخرى استطاع السير فى موكب المنتصرين وقد احتفل بقصيدة لقدوم العاهل الجديد .

و قد ثبَّت الأمير إسماعيل الأول الشاعر ابن الجيَّاب فى رئاسة ديوان الإنشاء على الرغم من أنَّهُ كان قد اتَّخذ خطيبًا آخر فى أثناء سنوات التمرد وهو ابن صفوان [٩٥] ، وإذا كان الأمير قد اختار بين كاتبين فإنَّ ابن الجيَّاب اختار بين أميرين ، وبالتالى فإن شخصيات شهيرة من بلاط غرناطة الملكى اتبعوا الأمير نصر فى مملكة جوادكش الصغيرة ، ومن بينهم مُرَبٍّ ومعلم شهير لأبناء رجال البلاط هو عبد الله محمد بن شكرال [٩٦].

أمَّا ابن الجيَّاب وآخرون من رجال الخاصة الغرناطية ومن ذوى الأعداد الفقهى الصارم فقد وجدوا فى الأمير إسماعيل الأوَّل العاهل الذى اقترب من أيدولوجيَّتهم وفكرهم ؛ فالأمير اعتبر أنَّ ركنى الدين اللذين لا غنى عنهما هما : وحدانية الله وسيفه [٩٧] ، وقد نفذ ذلك بصرامة كمجاهد محارب للمسيحيين أو كمُشرِّعٍ بإصدار قوانينه بشأن اليهود أو عن الأخلاقيات فى العادات والتقاليد [٩٨].

و الأسرة الثانية التى بدأها إسماعيل الأوَّل ستتميز بالصرامة فى الآداب والأخلاق والدين ، وهى بالتالى تفوق الأسرة الأولى فى هذه الجوانب ؛ فالسلاطين لن يكونوا شعراء وأدباء أو فلكيين ، ولكن الجميع سيرون إسماعيل الأول على رأس جنوده فى الساحات القتالية ، كما أن موتاهم سيكون لهم مدلولٌ آخر يختلف عمَّا كان عند سابقيهم أو سلفهم ، فعند وفاة محمد الثانى كان هناك سُمٌ ، وأمَّا محمد الثالث فقد غرق فى مياه البركة الهادئة ، أمَّا فى وفاة إسماعيل الأوَّل وأنجاله سيكون هناك دمٌ ودمٌ كثير ، هذا السائل الأحمر سيُبلِّلُ أيضًا قصائد ابن الجيَّاب التى ستصبح حربية قتالية وإن كان الدَّمُ فيما يبدو غير حقيقى كما فى قوله :

تَبْكى الرُّءوسُ مِنْ ابتسامات السِّيوف [99]

وفى قصائده يجب أنْ يكون المسلمون هم المنتصرون دائمًا ، ويتحقق له ذلك عندما يخفى فى قصائده الهزائم التى تلحق بالمسلمين ، وعلى سبيل المثال فشل إسماعيل الأوَّل فى حصار جوادكش [100] أو كارثة جواد أورتونا [101] ، ولكنه سيحتفى بحماس مُنقطع النظير بالانتصار الغرناطى على الأميرين السيد / خوان والسيد / بيدرو فى لابيجادى جرانادا (ريف غرناطة) [102] بقصيدتين[103] مليئتين بالغضب الجامع ضد العدو المهزوم ، وخلال السنوات التالية لهذه المعركة كان يتذكر هذا الانتصار كستار لإخفاء الكوارث مثل معركة سلادو . إنَّ مَوتَ الوصيَّين لألفونسو العاشر أبعد قشتاله عن حرب الحدود وكذلك عن حمايتها للنصر الذى ظلَّ على الرغم من ذلك فى جوادكش حتى وفاته عام (١٣٢٢/٧٢٢) ؛ حيث تمكَّن إسماعيل الأوَّل على أثر ذلك من الاستيلاء على المدينة دون مقاومة ، وقد تغنَّى ابن الجيَّاب بقصيدتين احتفالاً بهذا الحدث [104] .

وبعد هذا الانتصار قام إسماعيل الأوَّل بشَنِّ هجماته على العدو ، واستطاع أنْ يَفْتح كثيراً من المدن من بينها أويسكار ، وقد استخدم الجيش الغرناطى – وللمرة الأولى – مدفعًا الأمر الذى لفت نظر المؤرخ ابن الخطيب [105] ، ولم يجذب انتباه ابن الجيَّاب هذا المدفع ؛ حيث لم يشر إليه من قريب ولا من بعيد واقتصر على وصفه للمعركة بمجازاته وكناياته المعهودة [106].

ويزيِّن الأمير إسماعيل الأوَّل استراحته كمحارب بكثير من المنشآت والتشييدات الجميلة ، أمَّا شاعره الرسمى فعليه أن يُجَمِّلها بأشعاره : وها هو الرِّواق المُعَمَّد بجنة العريف الذى تُزَيِّنَ قصائد ابن الجيَّاب [107] كواته حتى الآن (الكوة هى التجويف غير النافذ فى الجدار فهى تشبه المحراب أو المشكاة) ، وعلى الرغم من ذلك فإنَّ قصائد أخرى لابن الجيَّاب قد تلاشت من مبانٍ أُخرى شيَّدها إسماعيل الأوَّل مثل المجلس أو الصالون [108] ، ربما تكون كوات أُخرى [109] ، وبعض الأشياء مثل رواقيد الزينة [110] (الرواقيد جمع راقود وهو الجرة الكبيرة التى توضع للزينة وهى تُزخرف من الخارج) .

هذا وفى عام ١٣٢٥ فتح إسماعيل الأول مارتوس [١١١] بعد قتال عنيف ، وبالتأكيد كان ابن الجيَّاب سيحتفل بهذا النصر المؤزر لقصيدة من قصائده ، ولكنه اضطر لتغيير أغانى وأشعار السرور والغبطة بالرثاء الحزين ؛ حيث إنَّ الأمير إسماعيل الأوَّل تَمَّ اغتياله بعد عودته من مارتوس بثلاثة أيام [١١٢].

وقد ألَّف ابن الجيَّاب الرثاء الرسمى للعاهل [١١٣] ، هذا إلى جانب قصيدة لشاهد قبره [١١٤] ، وبعد ذلك ببضعة أيام وَجَدَ نفسه مضطراً للعودة إلى القيثارة الجنائزية لموت الوزير ابن مسعود [١١٥] فى أعقاب مبايعة الأمير محمد النجل الأكبر لإسماعيل الأوَّل ، وكان عُمرُ الأمير الجديد حينذاك عشر سنوات فقط[١١٦].

وخلال مدة الحكم القصيرة للأمير محمد الرابع (١٣٢٥/١٣٣٣) [١١٧] لم يؤلف ابن الجيَّاب قصيدة سلطانية قط ، والسبب فى ذلك لا يمكن تبريره بصِغر سن الأمير؛ لأنَّ هذا الظرف تكرَّر قبل ذلك ، ولم يمنع رئيس الشعراء من تأليف قصائد كثيرة تكريمًا ليوسف الأوَّل عندما كان قاصراً ، وربما كان السبب هو نَبْذٌ ما لابن الجيَّاب إلى جانب آخرين من رجال البلاط فى محاولة تأثير آخر غير تأثيرهم ، وهذا السلوك اتَّبعه كل من مُرَبِّيه رضوان [١١٨] والوزير الأوَّل ابن محروق [١١٩] .

ولكن ابن الجيَّاب لم يظل خاملاً ، وواصل ممارسته لمهنته الثانية ككاتب ؛ فالرسالتان اللتان حُفظَتا كان قد خطهما بقلمه وتنتسبان لهذا العهد ، ففى الأولى [١٢٠] يشرح ابن الجيَّاب باسم محمد الرابع للسلطان الميرينى أبو سعيد الأسباب التى أدَّت إلى الاتفاق على هُدنة مع قشتالة والتى كانت تكمن فى ندرة الأغذية ، ويطلب من السلطان موافقته لتنفيذ هذه الهدنة مما سيسمح لهم بالحصول على قمح من قشتالة (١٣٣٠)[١٢١] . أمَّا الرسالة الثانية [١٢٢] فإنَّها رسالة عزاء فى وفاة أبى سعيد (ذو الحجة ٧٣١/ سبتمبر- أكتوبر ١٣٣١) [١٢٣] وفى الوقت نفسه تهنئة للسلطان الجديد أبى الحسن .

أمَّا محمد الرابع فقد اغتالوه عقب سن البلوغ مباشرة (٢٥ أغسطس عام ١٣٣٣) وهو فى طريق مالقة حيث كان متوجهًا إليها قادمًا من جبل طارق [١٢٤] الذى فُتِحَ مؤخراً ، وبعد المبايعة الاضطرارية للأمير الجديد يوسف شقيق محمد الرابع ، والتى

تمّت فى معسكر جبل طارق نفسه بويع يوسف من جديد فى احتفال مهيب بغرناطة حضره كبار رجال البلاط الملكى [١٢٥] ومن بينهم ابن الجيَّاب الذى استمر فى منصبه . إنَّ صمت ابن الجيَّاب - خلال حكم محمد الرابع الذى لم يُهدِ له قصيدة رثاء واحدة عند وفاته - سيتبدد وسيعود الشاعر إلى نشاطه المعهود مع يوسف الأوَّل ، وذلك فى الاحتفال بعيد الفطر عام ١٣٣٣[١٢٦].

و قد التف رجالُ البلاط الملكى الغرناطى حول الحاجب رضوان ، وبهذا استطاعوا عزل الوزير إبراهيم ابن فرج بن عبد البَرّ الذى كان قد عُيِّنَ فى اللحظات الحرجة عند اغتيال محمد الرابع [١٢٧] ، وكان الوزير تاجراً ثرياً للغاية يتحكم فى سعر القمح بسوق غرناطة ، وهو شخصية غريبة عجيبة وقد أصابه الجنون بعض الوقت كما أنَّ عاداته الفاجرة أدَّت إلى وفاته [١٢٨] ، تدخلت الخاصة الغرناطية من كبار الموظفين وأعادوا رضوان إلى منصبه كوزير [١٢٩].

وستظل الجيوش بالإمارة الغرناطية دون نشاط من جرَّاء الهدنة مع قشتالة ، هدنة قصيرة (من السادس عشر من أكتوبر إلى الخامس عشر من ديسمبر عام ١٩٣٣) وأخرى طويلة استغرقت أربع سنوات سيشترك فيها أيضًا الميرينيون (فى السادس والعشرين من فبراير ١٩٣٤) [١٣٠] .

وإبَّان سنوات السلم هذه كان ابن الجيَّاب يحتفل بأعياد الأمير مثل التهنئة بمبايعته (١٣٣٦/٧٣٤) ، عيد الفطر(١٣٣٥/٧٣٦) ، (١٣٣٦/٧٣٧) أو أعياد الأضحى (١٣٣٦/٧٣٧) ، (١٣٣٧/٧٣٧) وكذلك أفراح عُرسه (١٣٣٨/٧٣٩) أو بملاد نَجْله الأوَّل " محمد " (١٣٣٨/٧٣٩) (الذى سيلقب بمحمد الخامس فيما بعد)[١٣١].

وعندما انتهت الهدنة عبرت قوات الميرينيين البحر لمؤازرة القوات الموجودة فى جبل طارق والجزيرات بقيادة نجل السلطان الميرينى أبو مالك [١٣٢] ، هذا وقد تحرس الأندلسيون أيضًا سواء فى الجنوب - وكان الأمير مع رجال بلاطه فى مالقة للاحتفال بعيد الفطر (١٣٣٩/٧٤٠) [١٣٣] ، والتقى السلطان النَّصرى مع أبى الحسن عندما أنزل قواته عام (١٣٤٠/٧٤١) [١٣٤] ، أو فى الشمال حيث استطاع المسلمون

تحقيق الانتصار فى بعض المعارك مما جعل ابن الجيَّاب يحتفل بها ، وكأنها معارك كبيرة وعلى سبيل المثال معركة كاربوكى (٧٤٠) [١٣٥] وجواديانامينور [١٣٦] .

أمَّا الأحداث التى أعقبت ذلك فهى معروفة جيداً [١٣٧] ، وهى وفاة أبو مالك ، هزيمة جوفرى تينوريو وأخيراً معركة سلادو فى السابع من جُمادى الأولى عام ٧٤١ الموافق التاسع والعشرين من أكتوبر عام ١٣٤٠ [١٣٨] .

وقد رافق ابن الجيَّاب السلطان وجيوشه الغرناطية فى هذه الحملة ، وقد اشتكى الشاعر لطولها فقد استغرقت عشرين شهراً كما يتضح ذلك فى قصيدة أرسلها لصديقه الشريف الغرناطى [١٣٩] وأسباب هذه الشكوى فى المقام الأول أنَّ ابن الجيَّاب كان لزاماً عليه الاستمرار فى تأليف القصائد السلطانية للمناسبات والأعياد والمعارك إلخ ... وفى المقام الثانى أنَّ ابن الجيَّاب كآخرين من أصحاب المقام الرفيع ببلاط غرناطة الملكى كانوا متقدمين فى السن – حتى ولو كان رئيس ديوان الإنشاء – لم يرفضوا الذهاب إلى المعركة طلباً للاستشهاد فى سبيل الله ، ولهذا نعرف أنَّهُ قد قُتلَ فى معركة سلادو كلٌ من القاضى محمد بن يحيى بن أبى بكر المولود فى عام ١٢٧٥ [١٤٠] ، والطاعن فى السن عبد الله ابن سلمون المولود عام ١٢٧٠ [١٤١] ، أو والد ابن الخطيب المولود ١٢٨٣ [١٤٢] ، وعن الأوَّل من هؤلاء المسنين الشجعان ابن أبى بكر يُحكى [١٤٣] بعد أنْ خارت قواه نصحه بعض الذين رأوه فى هذا الوضع الحرج أن يمتطى بغلته ، ولكنَّهُ ردَّ عليهم قائلاً : " إنهُ سيرحل هذا اليوم تغمُرَهُ سعادة الشهداء كما جاء فى كلمات العلى القدير ."

ولكن ابن الجيَّاب لم يحظ بالاستشهاد ، وبقى على قيد الحياة لكى يشاهد بنفسه نتائج الكارثة وإن كان على الصعيد الرسمى قد تجاهل المعركة ، ولم يشر ابن الجيَّاب فى أية من قصائده السلطانية التى ألَّفها بعد عام ١٣٤٠ إلى هزيمة المسلمين بالمعركة ولكنَّه كان دائماً يتغنَّى بانتصارات قديمة مثل انتصار لابيجا دى غرناطة (ريف غرناطة) وهزيمة جوفرى تينوريو.

وعلى الصعيد الخاص ذكر رئيس ديوان الإنشاء الهزيمة فى قصيدة وجهها إلى ابن الخطيب [١٤٤].

والأندلس - بانتهاء الأمل الميرينى - تقوقعت على نفسها ، وانتهجت سياسة حكيمة شهدت بفضلها نموًا داخليًا فقد شُيِّدت بها كثيرٌ من المبانى مثل برج لاكاوتيبا بقصر الحمراء الذى تزينه أبيات ابن الجيَّاب [١٤٥] ، والمدرسة النصرية [١٤٦] التى أعد لها ابن الجيَّاب بعض الأشعار [١٤٧] التى لم تنقش بها جدران المدرسة ، هذا فضلاً عن نهضة ثقافية حقيقية .

وفى هذه اللحظة لا نعرف على وجه التحديد تاريخ تولى ابن الجيَّاب منصب الوزير أو الوزير الأوَّل .

لقد عُزِل الحاجب رضوان ثم سُجِن قبيل معركة تاريفا [١٤٨] ، وقد شغل منصبه القاضى أبو الحسن بن المول [١٤٩] ، ولكنه مكث زمنًا قصيرًا فى هذا المنصب ، وبعد عام من سجن رضوان تم إطلاق سراحه (١٣٤١) ، حيث عَرَض عليه الأمير يوسف الأوَّل الوزارة [١٥٠] ، ولكنَّ رضوان رفض . وفى هذا الوقت عُهِدَ بالوزارة لابن الجيَّاب ، ومنذ ذلك الحين أصبح ذى الوزارتين عندما جمع بين مَنْصبى الوزارة ورئاسة ديوان الإنشاء ، ويمكن أنْ تُعزى إليه السياسة الحكيمة التى انتهجتها الإمارة النَّصرية عقب معركة " سلادو" . لقد كان ابن الجيَّاب الشخص الملائم لتولى زمام الأمور إبَّان هذه السنوات الصعبة بحكم خبرته الشخصية طوال ما يربو على الأربعين عامًا فى السلطة العامة .

وعلى الرغم من هذا فإن نشاطه كشاعر بالقصر لم يفتُر بسبب تقدُّم سنّه أو لتوليه الوزارة وإن كان سيسند بعض مهامه ككاتب وشاعر ملكى إلى تلميذه ابن الخطيب [١٥١]. ويعد معركة سلادو ألَّف سلسلة من القصائد للاحتفال بالأعياد الإسلامية [١٥٢] ، أو بأحداث القصر الملكى مثل ميلاد الأميرين إسماعيل الأوَّل (١٣٤١/٧٤١) وأحمد (١٣٤٥/٧٤٣) [١٥٣] ، وآخر قصيدة مؤرخة لابن الجيَّاب ترجع إلى عام (٧٤٥-١٣٤٥) أى قبيل وفاته بأكثر من أربعة أعوام [١٥٤].

تُوفى ابن الجيَّاب عام ١٣٤٩ وهو لا يزال يشغل منصبى رئيس ديوان الإنشاء والوزير الأول أى بعد أن مكث أكثر من خمسين عامًا فى خدمة الأسرة النصرية ، وهو أمر غير مألوف فى البلاط الغرناطى حيث التآمر والخنجر والسم قد أجهزوا على كل السياسيين مهما كان بريقهم ، وبالإضافة إلى ذلك فإنَّ ابن الجيَّاب كان يتمتع بالعمل

طوال مشواره السياسى الطويل ، وعلى حد قول ابن الخطيب لقد كان ابن الجيَّاب موظفًا مُفرطًا فى غيرته على عمله . وكان دائمًا يقظًا لمهام البلاط الملكى ، كان طويل الأناة فى الخدمة ، ينفذ المراسم بحذافيرها كما أنه كان يستمتع وهو يشغل مهامه الإدارية ، ويمكن أن نضيف إلى ذلك استمتاعه بالأدب (١٥٥) على الرغم من آلاف الأشعار التى اضطُر لتأليفها فإن مما لا ريب فيه أن شخصيتنا كان أحد هؤلاء المحظوظين الذين نَعموا بالسعادة فى ممارستهم لمهنتهم (١٥٦) .

(٤) التَّصوُّف

وخلف شخصية الشاعر - الموظف ، الذى ألَّف آلاف الأشعار لا تختفى شخصية التابع لمذهب اللذة فى الفلسفة ، وهى الصورة التى رافقت الكثير من شعراء البلاط الملكى فى تاريخ الأندلس وخلف هذا نجد شخصية المتصوف الذى ينتمى لإحدى الطرق الصوفيَّة ، والتى لم يخالج الشك ابن الخطيب نفسه عندما وصفها بأنَّها طريقة متطرفة (١٥٧) ، وهذا الشريان الصوفى فى شخصية ابن الجيَّاب أمر مدهش حقًّا إذا وضعنا فى الاعتبار تكوينه وإعداده الفقهى ؛ حيث إنَّ الفقه المالكى والصوفية كانا عدوين لدودين فى الأندلس ، وهو بالتالى ليس بحالة منعزلة فى الإمارة النَّصرية ، وقد أشار السيد/ إيميليو جارثيا جوميث إلى هذا الازدواج فى أحد المعاصرين لمؤلفنا ونعنى بذلك ابن لويون دى الميريا (١٥٨) ، كما أنَّ شخصيات مرموقة وشهيرة بالإمارة كانت تفتخر بالتصوف ومن بينها : ابن صفوان (١٥٩) ، وهو من معاصرى ابن الجيَّاب وأحد زملائه ، وكذلك ابن الخطيب فيما بعد . وفى منتصف القرن الرابع عشر أصبحت الصوفية وكأنها موضة يُنظَرُ إليها بعين الارتياح بين رجال البلاط الملكى عندما كان ابن زَمْرَق يحضر دروس التصوف التى كان يلقيها السياسى المغربى المنفى ابن مرزوق (١٦٠) ، وذلك بالمسجد الكبير بغرناطة ، كما أنَّ الأمراء النصريين أنفسهم كانوا يرون بعين الرضا الصوفية أو التصوف ، ونعرف أن طائفة بنى سيدى بونا كان أفرادها يفدون إلى القصر بقصد التَّبرك (أى أنَّ الأمراء كانوا يستقبلون الطائفة بالقصر تيمنًا وتبرُّكًا بها)(١٦١).

هذا وقد جعل لهذه الرعاية الملكية صدًى فى قصيدة مهمة (١٦٢) مُهداة من يوسف الأوَّل والتى قدَّم له فيها جزيل شكره على رعايته وحمايته للفقهاء وتعاطفه تجاه الصوفيين (١٦٣) وتبدأ القصيدة بمدح الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) ثم أتبع ذلك بمدح السلطان الذى يعتبره ذى قلب صوفى على الرغم من كونه محارب فى وقت القتال .

ووفقًا لهذه القصيدة تتحقق الوحدة الكاملة بين الأسرة المالكة والصوفية والفقهية ، هذا المثلث كان بداخله خطر نشوب أى توتر أو شد سيؤدى حتمًا إلى قطع الحبل عند أضعف أجزائه أى الصوفية ، وفى وقت ما فإنَّ الصوفية يمكن أن تتحول إلى نقيصة أو إلى زندقة أو إلى كفر فى الوقت الذى تراه السياسة مناسبًا ، ونعتقد أنَّ هذا ما حدث مع ابن الخطيب عندما وقع فى محنة تذكُّر السلطان والفقهاء أنَّهُ ألَّف كتابًا دفاعًا عن الصوفية (١٦٤).

أما ابن الجيَّاب لم يأخذ تصوف أبى عبد الله السَّهيلى مأخذ الهزل بل شغل باله بتعمق(١٦٥) ، وقد حكى النادرة التالية لابن الخطيب : " ذهبت لرؤية أبى عبد الله فى خلوته وقلت له : يا سيدى ! يعتقد رفاقنا أنَّك ترى نبى الله هل تستطيع أنْ تقول لى كنه هذه الرؤية هى رؤية محسوسة أم فكرية ؟ (١٦٦) فكَّر أبو عبد الله برهة ثم قال لابن الجيَّاب : هل لديك شك فى أننى أرى الآن ابن الجيَّاب وأُكلمه ؟ فأجابه قائلاً : لا ، فردَّ عليه الصوفى :هكذا تكون الرؤية وقلت له" إن هذا أمر غريب" (١٦٧)، والصحيح أنَّ الرؤية كانت فكرية أو ذهنية ، ومع ذلك فإنَّ الطيف المبجل سيطر عليه حتى أصبح محسوسًا ؛ حيث إنَّ الرؤية المادية ليست من الممكن تحقيقها فى مكانين (١٦٨).

ولقد كان إيمان ابن الجيَّاب واضحًا، وحاول تبرير إجاباته المفرطة فى التبسيط بحجج فلسفية ؛ فابن الجيَّاب كان يعرف الفلسفة ، ولكنه كان يرفضها كما يتضح ذلك فى إحدى قصائده ، ثم ذكر المؤلف الأبيات التى تشير إلى ذلك (١٦٩).

ولما أدركت الوفاة أبا عبد الله عام (١٣٣٥/٧٣٥) خلفه كأستاذ للطريقة وخطيب بالمسجد الكبير بمالقة نجله أبو عبد الله السهيلى واسم شهرته هو المُعَمَّم (١٧٠) ، وفى ظل شهرة والده استطاع تجميع أموال كثيرة تمكن بها من تشييد مدرسة فى الجهة

الغربية من المسجد الكبير بمالقة هذا إلى جانب العديد من المساجد ، وقد احتفى ابن الجيَّاب بواحدة من قصائده لتشييد أوَّل مدرسة فى الأندلس وإن كانت ذات طابع مذهبى (١٧١).

ثم يضيف المؤلف بأنَّ القصيدة الصوفية الوحيدة التى ألَّفها ابن الجيَّاب ما هى إلا عبارات وألفاظ مجازية لا تكشف عن كنه هذه الطريقة الخفية (١٧٢).

فكل هذه العبارات الرنانة والمجازات والصور البلاغية جاءت فقط للتعبير عن النشوة والانجذاب بشرود العقل أو القلب ، وكذلك للتعبير عن الأمور الباطنية الخفية، ولم يفصح بالقصيدة سوى عن اسم رجل ذى شأن وهو الحلاج .

و تجدر الإشارة هنا إلى أنَّ ابن الجيَّاب ألَّف هذه القصيدة الصوفية بناءً على توجيه من يوسف الأوَّل طبقًا لما اعترف به شاعرنا ابن الجيَّاب :

" هذه الأبيات أُعجُوبة الكمال ألَّفْتُها تلبية لتوجيه سيدنا أبو الحجاج " (يقصد يوسف الأوَّل).

و هناك جانب آخر من جوانب روحانية ابن الجيَّاب ، وهو حبه الجم للرَّسول محمد صلى الله عليه وسلم ،وهذه الظاهرة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالصوفية وهى تناقض صحة المعتقد واستقامة الرأى الصارمة ، وقد اشتدت هذه الظاهرة فى القرن الثالث عشر الميلادى فى الإسلام الغربى (الإسلام بالغرب) ، وقد انعكس هذا فى الاحتفال بالمولد النبوى ، الأمر الذى انبثق عن البيئات الصوفية فى مصر ، وقد جلبه إلى الغرب أمراء بنو الزَّافى فى سبتة (١٧٣) ، ومن الغريب جدًا أن تخلو قصيدة من ذكر النَّبى محمد صلى الله عليه وسلم (كمنقذ وكونه السبيل الموصل إلى عبادة الله ، وعلى وجه الخصوص هناك قصائد قصيرة (١٧٤) ، لابن الجيَّاب عن الرسول صلى الله عليه وسلم كما أفرد قصيدة للمولد النبوى (١٧٥) ، وهذا فضلاً عن الموشَّحات التى سنتحدث عنها فى موضع لاحق . هذ وقد ذكر ابن الجيَّاب فى قصائده الدينية عن الإسلام أسماء سيدات : مثل القصيدة القصيرة التى خصصها لكل من السيدة عائشة وفاطمة الزَّهراء والبتول مريم (١٧٦) ، كما خصص شاعرنا ابن الجيَّاب قصيدة طويلة لعلى (كرَّم الله وجهه) (١٧٧) .

ويُمكن التساؤل عقب هذه النماذج ذات التدين الأدبى العميق هل كان ابن الجيَّاب صادقًا فى مشاعره الدينية أم أنَّهُ كان يُساير موضة التصوف التى تزايد الإقبال عليها فى البلاط الغرناطى ، وعلى الرغم من أن الجواب على هذا التساؤل سيكون افتراضيًا؛ لأنَّ هذا كامن فى خفايا النفس البشرية ، فإننا نميل إلى كونه متدينًا ومؤمنًا تقيًا وَرِعًا ليس فقط من جراَّء النادرتين اللتين ذكرناهما آنفًا وقصائده الدينية ، بل أيضًا لأنَّهُ لم يوجد فى الظاهر ازدواج بين أفكاره ومظهر حياته ، ويقول ابن الخطيب فى هذا الشأن : لقد كان ابن الجيَّاب يعيش عيشة مُتقشفة - (وليس لدينا أية معلومات عن أنهُ امتلك قصرًا ككاتب سيرته الذاتية) - ويضيف ابن الخطيب [١٧٨] قائلاً : إنَّ ابن الجيَّاب كان يفضل إقامة علاقات مع الأفراد الأتقياء ، وكان يحاول جاهدًا الابتعاد عمَّن لم تتوافر فيهم هذه الصفة .

أولاً وأخيرًا يمكننا القول بأن ابن الجيَّاب ترك عقب وفاته صورة طيبة تَنُمُّ عن كونه رجلاً شريفًا .

(٥) نجلا ابن الجيَّاب

نعرفُ القليل جدًا عن أسرة ابن الجيَّاب ، وكما أسلفنا فإنَّ لقبه لم يكن شائعًا ، كما أنَّ صمت ابن الخطيب عن أجداد ابن الجيَّاب يجعلنا نشك فى كونهم مرموقين ، كما نجهل من ناحية أُخرى أيَّة معلومة عن حياته العاطفية والروحية ؛ ففى إنتاجه الشعرى لا يوجد نسيب ولا مقدمات غزلية [١٧٩] وإنْ كان هذا يُعزى إلى مميزات وخصائص القصائد الكلاسيكية الجديدة والتى افتقد معظمها النسيب مع المتنبى [١٨٠].

نعرف من القصة أو النادرة التى سردناها عن زيارته إلى مالقة برفقة نجله الأصغر [١٨١] أنَّ ابن الجيَّاب رُزق بولدين على الأقل يُسمَّى كبيرهما أبو القاسم الذى وافته المنيَّة وهو فى ريعان الشباب كما سنعرف توًا ، أمَّا عن الابن الآخر أو الأبناء الآخرين لابن الجيَّاب إذا كان قد كُتب لهم البقاء على قيد الحياة (توجَّه الشاعر ابن الخطيب [١٨٢] بقصيدة رثاء إلى بنى الجيَّاب عند وفاة أستاذه وإنْ كان من الممكن أنْ

يكون الذين توجه إليهم ابن الخطيب هم أقرباء شاعرنا ابن الجيَّاب) فإنَّهم لم يسيروا على نهج والدهم كشاعر وكاتب وخطيب وهذا أمر غريب فى الإمارة النصرية ؛ لأننا وجدنا فى هذه الإمارة أن الأبناء يخلفون الآباء فى مناصبهم (١٨٣) .

كتب ابن الجيَّاب قصيدتين رثائتين أهداهما إلى نجله أبى القاسم عندما توفى الابن فى مُقتبل العمر ، وقد تمزق قلب والده حُزنًا عليه (١٨٤) . إن الألم الصادق لفقدان الابن يتناقض تمامًا مع ذلك المفتعل فى قصائد الرثاء الأُخرى المليئة بالمجازات الرنَّانة والعبارات الطنَّانة ، والتى كان شاعرنا قد رثى بها وفيَّات الأسرة الملكية (١٨٥).

و إذا لم يستطع أبناء ابن الجيَّاب من صُلبه السير على نهجه فإنَّ الشاعر وجد ابنًا روحيًا : أبو عبد الله محمد بن الخطيب وهو نجل أحد خطباء ديوان الإنشاء فى عهد إسماعيل الأوَّل (١٨٦) ، هذا هو سبب التحاق ابن الخطيب فى هذه الهيئة المهمة رغم حداثة سنه ؛ حيث إنَّ قصائده المهداة إلى محمد الرابع (١٨٧) يرجع تاريخ إحداها إلى عام ٧٣٢ عندما كان ابن الخطيب فى التاسعة عشرة من عمره ، هذا ولم يحترف ابن الجيَّاب مهنة التدريس قط بل سخر من المدرسين مثل محمد بن شكرال (١٨٨) ، حيث ذكَّره بالكتاب الذى ألفه الجاحظ عن المعلمين ، وقد أجابه ابن شكرال قائلاً : عن الجاحظ أعدَّ كتابًا عن الكتاب أيضًا (١٨٩) ، ولكن ابن الجيَّاب رئيس ديوان الإنشاء لم يجد مانعًا فى تعليم فنون وحيل وظيفة الأديب على مجموعة منتقاة من التلاميذ مثل ابن الخطيب أو عبد الله بن أبى القاسم بن يوزاعى (١٩٠) . ويقول الذى سيُلقب مستقبلاً بلسان الدين بن الخطيب إنَّه كان بين تلاميذ ابن الجيَّاب(١٩١) ، ولكن هذا لم يكن أوَّل أستاذ له بل على بن عمر بن إبراهيم بن عبد الله الكنانى القيجتانى (١٩٢) (المتوفى عام ١٣٢٩/٧٣٠) .

ونعتقد بأن الذى علَّمهُ إيَّاه ابن الجيَّاب هو إعداده لكى يكون كاتبًا أى لتأليف القصائد السلطانية ؛ حيث كان يُصحح له محاولاته الأدبية الأُولى كما سيفعل ذلك فيما بعد ابن الخطيب مع ابن زَمْرَق (١٩٣) ، كما أنَّه حكى له بعض أسرار القصر أو البلاط الملكى ، والتى كان ابن الجيَّاب شاهدًا فريدًا عليها ، وبالتالى سيصبح مرجعًا تاريخيًا لمؤرخ المستقبل (١٩٤) ، كما أنَّ المزايا الرائعة لابن الخطيب أيقظت الاهتمام فى

ابن الجيَّاب رئيس ديوان الإنشاء آنذاك مما جعله يشحذ همة ابن الخطيب ويشجعه بأبيات مدح تجاوز الحد فيها كما فى القصيدة التى جمع فيها فحول الشعراء العرب منذ العصر الجاهلى حتى المتنبى قائلاً إنَّ ابن الخطيب هو أفضلهم [١٩٥] . مرةٍ بدأ ابن الجيَّاب قصيدة عن غارات وهجمات ألفونسو الحادى عشر على لافيجا دى غرناطة عام ١٤٣٠ أمام جميع الكُتَّاب وبعد أن قرض البيت الأول :

العدو يبرهن على كونه مستبدًا وقاسيًا

إن نيـران الحـرب قـد اصطلت

قال على الفور لابن الخطيب ارتجل وأكمل القصيدة ، ولم يتوان التلميذ واستمر مرتجلاً أمام إعجاب الحاضرين [١٩٦] ، وكانت التجربة فى غاية الخطورة ؛ لأن ابن الخطيب قد يفشل ويصبح فى وضعٍ لا يُحسد عليه أمام زملائه ، ولكنه فاز ببغيته وتحقق له النجاح الأمر الذى كان ابن الجيَّاب متأكدًا منه لاعتقاده الراسخ فى قدرة وعبقرية تلميذه على نظم الشعر وقرضه ٠

ويجب أن تكون العلاقة قد تَعمَّقت وتوطَّدت بين الرجلين بعد وفاة النجل الأكبر لابن الجيَّاب ، وقد أشرنا إلى وفاته آنفًا وكذلك بعد موت والد ابن الخطيب فى معركة سلادو عام ١٣٤٠ بشكل جعل ابن الجيَّاب ؛ يتبنى ابن الخطيب كابن له ويتخذ ابن الخطيب من ابن الجيَّاب أبًا روحيًا له ٠ فيقول ابن الجيَّاب لابن الخطيب : " أنت تشغل مكان ابنى حبًا " [١٩٧] . أمَّا ابن الخطيب فيرد فى قصيدة مُهداة إلى أستاذه تتميزبالعبارات الطنَّانة والألفاظ الرنَّانة قائلاً : ألا يشغل مكان والدى ذاك الذى لجأت إليه ؟[١٩٨]

هذا وقد طلب ابن الخطيب – عندما عُيِّن كاتب سرٍ أو أميناً ليوسف الأوَّل وهو منصب ذو مسئولية جلب له على الفور كثيرًا من الأعداء – مساعدة ابن الجيَّاب للتصدى لمكايد الأعداء فى إحدى قصائده [١٩٩] ، ومما لا شك فيه أن الرئيس العجوز لديوان الإنشاء قد قدَّم هذه المساعدة لتلميذه ؛ لأنَّ العلاقات بين الاثنين استمرت ممتازة

بشكل جعل ابن الجيَّاب يُوَرِّثُ منصبه كرئيس لديوان الإنشاء وكوزير لابن الخطيب وفقًا لما أورده المقرِّى [٢٠٠].

لقد التزم ابن الخطيب بالاحترام والوقار تجاه أستاذه وراعيه ابن الجيَّاب ، وربما يكون هذا هو السبب فى أنَّهُ خصص له سيرة ذاتية طاهرة عطرة نقية لا تشوبها شائبة متغاضيًا عن أية زاوية غير أكيدة يمكن أن تلقى بظلالها المريبة فتنال من صورة ابن الجيَّاب ، ولسوء طالع ابن الخطيب أنَّ القصة لم تتكرر مع تلميذه ابن زَمْرَق .

(٦) ابن الجيَّاب الفكاهى المرح

لقد رأينا فيما سبق ابن الجيَّاب موظفًا غيورًا ، ورجل بلاط ماهرًا ، ومتصوفًا متحمسًا ، ووالدًا مُحبًا حنونًا ، وأستاذًا كريمًا ، ولم يبق لنا سوى جانب واحد من جوانب شخصيته وهو مرحه . لقد ذكر ابن الخطيب ما تميز به أستاذه من حدة الذكاء وولعه بالدعابات والنكات [٢٠١] ، ويوضح لنا إنتاجه الأدبى ميله إلى المزاح فى المفهوم وولعه بالتوريات والفوازير ، ويُحكى أنَّهُ وهو فى مرض موته كان قادرًا على تأليف النكات[٢٠٢] .

و فضلاً عن نكات ابن الجيَّاب فإن شاعرنا كانت لديه القدرة على السخرية حتى من نفسه ؛ ففى إخوانية كتبها إلى صديقه أبى القاسم بن أبى ألفية [٢٠٣] وصف نفسه بصورة تهكمية عند الحديث عن غرامياته - هل كانت حقيقية أم أدبية ؟ - مع أَمَةٍ طائشة عندما بلغ من العمر أرذله [٢٠٤].

(٧) وفاته

توفى ابن الجيَّاب فى شهر شوَّال عام ٧٤٩ هـ / يناير ١٣٤٩ م أى إبَّان وباء الطاعون ، وليس من الغريب أنْ يكون هذا الوباء المرعب قد أجهز على ابن الجيَّاب وهو فى السابعة والخمسين من العمر كما فعل ذلك مع كثير من شباب غرناطة وكهولهم.

ومع ذلك فإننا نعتقد أنَّ ابن الجيَّاب لم يمت بسبب الطاعون بل من جرَّاء مرض آخر (٢٠٥)؛ حيث يقول ابن الخطيب : إن أستاذه كان يعانى من مرضٍ عضال أفنى جسده ، ولكن لم ينل من مزاجه وشخصيته وإنْ كان هذا الوصف يتنافى إلى حدٍ ما مع الطاعون الرئوى الصاعق الذى حدث عام ١٣٤٨(٢٠٦).

ظلَّ ابن الجيَّاب معتدل المزاج قادرًا على سرد النكات حتى فى أثناء مرضه كما أسلفنا قادرًا على نظم الشعر حيث ألَّف قصيدة قصيرة – صلاة (٢٠٧) ، وربما لم يترك مزاولة مهام الحكومة ؛ حيث إنَّ ابن الخطيب لم يُعيَّن وزيرًا حتى وفاة ابن الجيَّاب .

(٨) وفاة ابن الجيَّاب

و كان دفن ابن الجيَّاب مظاهرة كبيرة من الحزن ، وقد حضر مراسم الدفن السلطان ، هذا وقد دُفِنَ ابن الجيَّاب بمقابر لابورتا دى البيرا (باب البيرا) ، وقد ألقى الكثير من الشَّخصيات المعروفة قصائدهم الرَّثائية لنعى وفاة ابن الجيَّاب ، ومن هذه الشخصيات أبو بكر بن الحكيم ، وأفراد من بنى جُزاعى وابن الخطيب (٢٠٨).

و قد كتب ابن الخطيب قصيدة أدبية للغاية ، كانت جديرة بقبول أستاذه ، ولكنها خالية من المشاعر (٢٠٩) .

ثم ساق المؤلف أبيات قصيدة ابن الخطيب التى أدرجها فى الملحوظة (٢١٠) .

المراجع

(١) عن عمل ابن الخطيب انظر م.م. أنطونيا العالم الضليع ابن الخطيب فى مكتبة الأسكوريال الملكية الأسكوريال ١٩٢٦ م. عبد الله عنان الإحاطة فى أخبار غرناطة من الأول إلى الرابع ، القاهرة ولسان الدين بن الخطيب وحياته القاهرة ١٩٨٦ محمد أبى بكر الطيطوانى ابن الخطيب من خلال كُتيبى طيطوان ١٩٥٤ ر. لسان الدين بن الخطيب ، عبود عاطى مؤتمر عن الدراسات العربية والإسلامية نابلس ١٩٦٧، ص ٦٩ - ٨١ جال ¨ الجزء الثانى ٢٦٠ - ٢٦٣ س الجزء الثانى ٢٧٢ الجزء الثانى ٨٥٩ - ٨٦٠ .

(٢) المخطوط ١٦٨٣ ؛ إذ إنه نسخة مختلفة عن الأخريات من نسخ الإحاطة . عنان : الإحاطة ، الجزء الأول، ص ١٩ - ٢٠ .

(٣) انظر عنان : ابن الخطيب مرجع مذكور ص ٢٥١ .

(٤) طبعة القاهرة ١٩٥٩ ص ٢٩٥٠ - ٢٩٥١ .

(٥) مخطوط ، الأسكوريال رقم ٤٥٥ أوراق ٨١ - ١٢٣ عنان : الإحاطة ص ٦٩ ، ابن الخطيب ص ٢٣٨ .

(٦) اللمحة البدرية فى الدولة النصرية ، طبعة القاهرة (١٣٤٧/ ١٩٢٨) كانت موضوع رسالة دكتوراة السيد / خوسيه ماريا كاسيارو بجامعة مدريد المركزية (كمبلوتنسى بمدريد ١٩٤٩) (وهى لم تنشر بعد) .

(٧) الكاتبة الكامنة فيمَنْ لَقِيناهُ بالأندلس طبعة ١ عبّاس بيروت .

(٨) ص ١٨٣ - ١٩٣ .

(٩) المخطوط رقم ٢٦٧٨ دار الكتب بالقاهرة .

(١٠) الإحاطة مخطوط بالأسكوريال ص ٣١٦ .

(١١) القافية بُ والديوان : بحر الكامل .

(١٢) البحر: الطويل : القافية : بِ .

(١٣) بحر : الرُّجز : القافية : جَ .

(١٤) بحر : الرُّجز : القافية : سِ .

(١٥) ٧٨٧ ، ٢

(١٦) الدُيباج المذهب فى مَعْرِفَة أعيان المذهب طبعة القاهرة (١٩٣٢/١٣٥١) ص ١٩٣ .

(١٧) نظير .... الجمان فى نظم فحول الزمان ، طبعة رضوان ألدّايا بيروت ١٩٦٧ ، السيرة الذاتية لابن الجيّاب ص ٢٣٩ - ٢٤٢ .

(١٨) المخطوط رقم ٢٨٨، ٢ .

(١٩) دُرَّةُ الحجال فى أسماء الرِّجال - الرباط ١٩٣٤ ص ٤٣٥ - ٤٣٦ .

(٢٠) أزهار ، لعدد ١ ص ١٩٢ و٣٠٨ .

(٢١) نَفْحُ الطِّيب من غصن الأندلس الرَّطب . طبعة عبَّاس - بيروت ١٩٦٨ الجزء الخامس - ٧٥ صفحات ٤٣٤ - ٤٦٥ - ٤٩٨ - ٥٥١ - الجزء السادس صفحات ١٢٤ - ١٢٦ - ٢٦٠ - ٢٦١ .

(٢٢) وَلْنُذَكِّرْ بأن جميع نسخ الإحاطة ليست صورة من الأصل بل مختصرات فيما عدا الجزء الموجود بمخطوط الأسكوريال رقم ١٦٧٤ م.م. أنطونيا العمل المذكور آنفًا .

(٢٣) ف . بونس بو يجيس مقال عن السيرة الذاتية والمراجع عن المؤرخين والجغرافيين العرب والإسبان - مدريد ١٨٩٨ ص ٣٣ .

(٢٤) ص ٤٤ - ٤٥ .

(٢٥) ص ٢٦٣ - ٢٨٣ . إن طبعة هذا العمل سيئة للغاية - القاهرة ١٩٦٩ - لدرجة أنَّهُ يُفَضَّلُ قراءة النص فى المخطوط نفسه .

(٢٦) الإحاطة - مخطوط الأسكوريال - ص ٣١٥ .

(٢٧) الجيَّاب فيما يبدو اسم لمهنة وفيما يتعلق بجيب فإنه يعنى الفتحة العليا فى الفستان كانت تستخدم كجيب والجيَّاب سيكون الذى يحيك أو يُطَرِّز أو يقُص هذه الفتحة وإن كان اللفظ لم يظهر فى القواميس العربية . إنَّ التفسير الذى قدمه كلٌ من ليرشوندى وسيمونيتى فى معجميهما عن المختارات العربية الإسبانية عند الإشارة بالتحديد إلى شخصيتنا .

(٢٨) الديوان ، رقم ١٥٧ .

(٢٩) وهذا ما فعله مع نجله فرج ، وهى نادرة أدرجها أ.بدر فى رسالته للدكتوراه تحت عنوان " بنو نصرٍ فى القرن السابع الهجرى " رسالة لم تنشر . قدمها الباحث لجامعة كمبلوتنسى بمدريد (جامعة مدريد المركزية) عام ١٩٦٣ ص ٤٥٧ .

(٣٠) الإحاطة . مخطوط الأسكوريال ص ٣١٥ ..

(٣١) ل . ماسيجنون . ابن سابين والمؤامرة حلاَّجين فى الأندلس والشرق فى القرن الثالث عشر . دراسات فى الأستشراق . مُهداة إلى ذكرى ليفى بروفينسال باريس - ١٩٦٢ ، ص ٦٦٤ .

(٣٢) ص ٣١٦ .

(٣٣) عن الإجازات انظر غ. ريبيرا " التعليم بين المسلمين الأسبان " محاضرات وكتيبات .

(٣٤) الإحاطة ، مخطوط الأسكوريال ص ٣٥٩ - ٣٦٠ .

(٣٥) الإحاطة ، مخطوط الأسكوريال ص ٣٥٤ طبعة عنان ص ٤٦٧ - ٤٦٩ ل . ماسيجنون المرجع السابق .

(٣٦) الإحاطة ، مخطوط الأسكوريال ص ٣٣٣ - ٣٣٤ .

(٣٧) النُّباحي - بيروت ص ١٣٨ .

(٣٨) الإحاطة ، مخطوط الأسكوريال ص ٢٥٥ - ٢٦٠ .

(٣٩) دُرَّة رقم ٣٤٥ .

(٤٠) النباحي ص ١٢١ - ١٢٣ .

(٤١) الإحاطة ، الطبعة الثالثة ، عنان ص ٣٠٢ - ٣٢٤ .

(٤٢) النباحي ص ١٢١ - ١٢٣ .

(٤٣) انظر ليفي بروفينسال مَسْنَدُ ابن مَرْزوق - هيسيرس - العدد الخامس عام ١٩٢٥ ص ٧٠ .

(٤٤) ليفي بروفينسال ، تاريخ إسبانيا ، مينينديث بيدال الجزء الخامس ص ١٢٠ .

(٤٥) ولنتذكر " وزارة " ابن قُزمان انظر جارثيا جوميث ابن قُزمان خمسة شعراء العمل السابق ص ١٤٨ .

(٤٦) وقد حمل هذا اللقب بنو أشكيلولا حكام مالقة وجواديقس، وكذلك بنو الحكيم حكام لاروندا وعبد الملك بن سنانيد حاكم خائين ومحمد بن الرُّمَيْمي حاكم الميريا .

(٤٧) وعن هذه المهام انظر خ.م. كاسيارو الوزارة فى الإمارة النصرية غرناطة 1947 .A.H.D.E العدد الثامن عشر ص ٢٣٤ .

(٤٨) كاسيارو المصدر السابق ص ٢٣٣ .

(٤٩) انظر الملحوظة رقم ٣٤ .

(٥٠) ابن الأحمر نطير ص ٢٣٩ .

(٥١) ليفي بروفينسال بعض الرسائل الرسمية للموحدين هيسبيريس ، العدد ٢٨ ١٩٤١، ص ١٨ - ١٩ .

(٥٢) ترجمها وطبعها جزئيًا م. جاسبار ريميرو تحت عنوان " مراسلات دبلوماسية بين غرناطة وفاس " (القرن الرابع عشر) 1912 .E.C.E.H.G الجزء الثانى ص ١٥١- ١٩٠ ، ٢٥٣ - ٢٦٥ ، ١٩١٣ الجزء الثالث ص ٥ - ٢٣ ، ٧٧ - ٩٦ ، ١٧٩ - ٢٠٠ ، ٢٤٨ - ٢٧٤ والجزء الرابع ص ١ - ١٣١ ، ٢٠٥ - ٢٥٢ ، ٢٨٢ - ٣٦٥ ، ١٩١٥ الجزء الخامس ص ١٣٧ - ١٨٣ ، ٢٤٣ - ٢٥٨ .

(٥٣) الإحاطة ، طبعة القاهرة ١٩٠٣ الجزء الثانى ص ١٧٤ - ١٨٢ التَّاج المصدر السابق الورقة ٧٧ - ٧٨ النباحى ص ١٥٣ المَقَّرى نفح الطيب الجزء الأول ص ٧٧ الجزء الخامس ص ٤٥٥ - ٥٤١ الجزء السادس ص ٢٥١ .

(٥٤) الإحاطة ، الطبعة الأولى عنان ص ٢٢٩ - ٢٤٠ .

(٥٥) ابن زَمْرَق ص ٢١٠ .

(٥٦) ل . توريُس بالباس المُصلَّى فى المدن الإسبانية الإسلامية - الأندلس - العدد الثالث عشر ١٩٤٨ ص ١٦٧ - ١٨٠ .

(٥٧) انظر فرناندو دى لاجرانخا أعياد مسيحية بالأندلس كتاب الدُّر(الأندلس - العدد ٣٤ ، ١٩٦٩ ص ١ - ٥٣).

(٥٨) الإحاطة - القاهرة ، الجزء الثانى ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

(٥٩) ابن الحكيم لم يظهر فى قائمة أساتذة ابن الجيُّاب ، ولكن ابن الجيُّاب ظهر فى قائمة تلاميذ ابن الحكيم ، الإحاطة ، القاهرة - الجزء الثانى ص ٢٨٥ وحول هذه الشخصية أنظر م.غ.روبيرا ماتا صاحب الوزارتين ابن الحكيم دى روندا - الأندلس، العدد ٣٤ ، ١٩٦٩ ص ١٠٥ - ١٢١ .

(٦٠) أنظر إيميليو جارثيا جوميث ابن زَمْرَق شاعر قصر الحمراء فى خمسة شعراء مسلمين . مدريد . ١٩٥٩ الطبعة الثانية ص ١٨٩ - ١٩٣ .

(٦١) م . خ . روبيرا ماتا القصائد المنقوشة لابن الجيُّاب فى قصر الحمراء ، الأندلس - العدد ٣٥ ، ١٩٧٠ ص ٣٤٣ - ٤٤٧ .

(٦٢) ديوان ، رقم ١٣٧ .

(٦٣) م.م. أنطونيا غزو كيسادو الكانديتى " الدين والثقافة " الأسكوريال ٧٥ عام ١٩٣٢ ص ٢٤٣ - ٢٤٦ .

(٦٤) ديوان رقم ١٦٢ .

(٦٥) اللمحة ص ٤٦ - ٤٧ .

(٦٦) ديوان ، رقم ٥٣ ، الإحاطة ، عنان الجزء الأول ص ٥٦٣ - ٥٦٥ .

(٦٧) ديوان ، رقم ٢٠٣ .

(٦٨) ديوان ، رقم ١٧٩ عن الغزو انظر م.خ. روبيرا ماتا ثلاثة أسماء أماكن لحدود غرناطية ، الأندلس ، عدد ٣٢ ، ١٩٦٧ ص ٢٠٧ - ٢١٩ .

(٦٩) ديوان ، القصائد رقم ٤٣ ، ٥٦ ، ١٢١ .

(٧٠) ديوان ، القصائد رقم ١٧٥ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ١٨٩ .

(٧١) صاحب الوزارتين ، مصدر سابق ص ١١١ .

(٧٢) الإحاطة ، الجزء الأول ، طبعة عنان ص ٥٥٢ .

(٧٣) قصيدة رقم ٣١ ، ابن خلدون البربر ، العدد الرابع ص ١٢٠ .

(٧٤) قصيدة رقم ١٩٩ .

(٧٥) قصيدة رقم ٢٠٢ .

(٧٦) القصائد رقم ٥٥ ، ٩٨ ، ٢١٨ .

(٧٧) القصيدة رقم ١٣١ .

(٧٨) قصيدة رقم ٥٧ عن العلاقات بين غرناطة وتونس ، انظر محمد طالبى " الاتصالات الثقافية بين شمال أفريقيا (١٢٣٠ - ١٥٦٩) والسلطنة النصرية فى إسبانيا (١٢٣٢ - ١٤٩٢) أعمال الحوار الثانى الإسبانى التونسى للدراسات التاريخية ، مدريد ١٩٧٣ ، ص ٦٣ - ٩٠ .

(٧٩) قصيدة رقم ١٧١ .

(٨٠) قصيدة رقم ١٣٠ .

(٨١) الإحاطة ، مخطوط الأسكوريال ص ١٢٥ - ١٢٩ .

(٨٢) الإحاطة ، القاهرة ، الجزء الثانى ص ١٧٤ - ١٨٢ .

(٨٣) انظر صاحب الوزارتين ص ١١٨ - ١٢١ .

(٨٤) E.L. الجزء الثانى ص ٩٣٣ .

(٨٥) الإحاطة - مخطوط الأسكوريال ص ٣٦٠ - ٣٦٢ كان هو الذى جمع برنامج أستاذه ابن أبى الربيع ، انظر بيدروشالميتا برنامج ابن أبى الربيع (أرابيكا) الجزء الخامس عشر - ١٩٦٨ ص ١٨٣ - ٢٠٨ .

(٨٦) الإحاطة - مخطوط الأسكوريال ص ٤٨ - طبعة القاهرة ، الجزء الثانى ص ٣٠١ - ٣٠٢ .

(٨٧) يوجد البيت الأول من قصيدة ابن خميس - أزهار العدد الثالث ص ٣٠٤ .

(٨٨) ذو الوزارتين (صاحب الوزارتين) ص ١١٤ .

(٨٩) الإحاطة ، القاهرة ، الجزء الثانى ص ١٩٩ - ٢٠٦ قصيدة رقم ١٧٣ .

(٩٠) ابن زَمْرَك المصدر السابق ص ١٨٩ - ١٩٠ .

(٩١) ابن صابرين ، خطيب أيضًا بديوان الإنشاء كان شجاعًا عندما ألف قصيدة رثاء تشريفًا لابن الحكيم ، الإحاطة ، مخطوط الأسكوريال ص ٤٨ - ٤٩ وطبعة القاهرة الجزء الثانى ص ٣٠٢ - ٣٠٣ .

(٩٢) قصيدة رقم ١٨٤ .

(٩٣) ر.أريه " إسبانيا المسلمة فى عصر النصريين " (١٢٣٢ - ١٤٩٢) باريس ١٩٧٣ ص ٨٩ - ٩٣ .

(٩٤) أنظر م . غ . روبيرا الرئيس أبو سعيد فرج بن إسماعيل بن نصر حاكم مالقة ، مؤسس الأسرة الثانية للناصريين . B.A.E.O 1975 ص ١٢٧ - ١٣٣ قصيدة رقم ١٢٤ .

(٩٥) الإحاطة ، الطبعة الأولى ، عنان ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .

(٩٦) الإحاطة ، مخطوط الأسكوريال ص ٨٩ .

(٩٧) اللمحة ، ص ٧١ .

(٩٨) المصدر السابق .

(٩٩) ديوان ، قصيدة رقم ١٣٦ . هذه الصورة البلاغية اسْتُخْدِمَتْ من قِبَلْ ابن الجيَّاب فى قصائد أخرى كثيرة مع بعض التغييرات الطفيفة . وبلا شك لقد كان مسرور لهذا الاكتشاف الشعرى .

(١٠٠) ابن الخطيب كتاب أمال الأعلام طبعة ليفى بروفينسال ، بيروت ١٩٩٥ ، ص ١٨٣ .

(١٠١) المصدر السابق .

(١٠٢) ا. خيمينيث سولير حملة الأميرين السيد / خوان والسيد / بيدرو عام ١٣١٩ RABM العدد الحادى عشر - ١٩٠٤ ص ٣٠٣ - ٣٦٠ .

(١٠٣) ديوان ، القصيدتان رقم ١٩٨ ، ١٤٧ .

(١٠٤) ديوان ، رقم ٣٤ ، ١٣٦ .

(١٠٥) الإحاطة ، طبعة عنان الجزء الأول ص ٣٩٨ .

(١٠٦) ديوان ، رقم ١١٩ .

(١٠٧) قصائد رقم ٤٥ ، ٧١ .

(١٠٨) قصيدة رقم ٤٥ .

(١٠٩) قصائد رقم ، ١٧٧ ، ١٠٣ .

(١١٠) قصيدة رقم ، ١٧٦ .

(١١١) الإحاطة ، الجزء الأول - عنان ص ٣٩٨ - ٣٩٩ اللمحة ص ٧٢ - ٧٣ .

(١١٢) الإحاطة ، الجزء الأول - عنان ص ٤٠٠ - ٤٠١ اللمحة ص ٧٤ ، كتاب الأمال ص ٢٩٥ .

(١١٣) الإحاطة ، الجزء الأول - عنان ص ٤٠٣ - ٤٠٤ ٣ .

(١١٤) قصيدة رقم ١٨٥ والإحاطة ، عنان ص ٤٠٢ .

(١١٥) الإحاطة ، مخطوط الأسكوريال ٢٩٧ ، ديوان ، قصيدة رقم ٤٩ .

(١١٦) كتاب الآمال ، ص ٢٩٥ .

(١١٧) انظر .إسبانيا الإسلامية المصدر السابق ص ٩٨ - ١٠١ .

(١١٨) ل . سيكو دى لوثينا . الحاجب رضوان . مدرسة غرناطة وقلاع البائسين ، الأندلس العدد ٢١ ، ١٩٥٦ ص ٢٨٧ .

(١١٩) الإحاطة ، طبعة القاهرة ، الجزء الثانى ص ٩٦ - ٩٧ .

(١٢٠) المَقَّرى ، نفح الطيب ، الجزء الخامس ص ٤٥٨ - ٤٥٩ .

(١٢١) تاريخ ألفونسو العاشر ، الجزء الحادى عشر ص ٢٢٧ .

(١٢٢) نفح الطيب ، الجزء الخامس ، ص ٤٥٩ - ٤٦٤ .

(١٢٣) ابن خلدون بيربيريس (البربر) العدد الرابع ، ص ٢٢١ .

(١٢٤) الإحاطة ، الجزء الأول ، عنان ص ٥٤٩ ، ابن خلدون بيربيريس (البربر) العدد الرابع ص ٤٧٥ ، كتاب الآمال ص ٢٩٨ ، الفونسو الحادى عشر ، العدد ١٢٧ ص ٢٥٨ .

(١٢٥) كتاب الآمال ص ٣٠٠ .

(١٢٦) قصيدة رقم ٩٧ .

(١٢٧) الإحاطة ، الجزء الأول ، عنان ، ص ٣٣٠ - ٣٣٢ .

(١٢٨) الإحاطة ، المصدر السابق .

(١٢٩) سيكو ، الحاجب ، ص ٢٩١ .

(١٣٠) سيكو ، نفس المصدر .

(١٣١) قصيدة رقم ١٠٩ ، ١٤١ ، ١٩١ ، ٥١ ، ٢٩ ، ١٤٢ ، ١٩٥ .

(١٣٢) ابن خلدون - بيربيريس (البربر) العدد الرابع ص ٢٢٩ .

(١٣٣) قصيدة رقم ٥١ .

(١٣٤) قصيدة رقم ٣٧ .

(١٣٥) قصيدة رقم ١٧ .

(١٣٦) قصيدة رقم ١٢٠ .

(١٣٧) أ. هويثى ميراندا ، المعارك الكبرى للاسترداد فى أثناء الغزوات الإسلامية ، مدريد ، ١٩٥٦ ، ص ٣٣١ والتالية لها .

(١٣٨) ل. سيكو دى لوثينا " تاريخ معركة سلادو " الأندلس ١٩٥٤ ، العدد ١٩ ص ٢٢٨ - ٢٣١ .

(١٣٩) ديوان ، رقم ٣ .

(١٤٠) الإحاطة ، طبعة القاهرة ، الجزء الثاني ص ١٢٥ - ١٢٩ .

(١٤١) الإحاطة ، مخطوط الأسكوريال ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

(١٤٢) شبانة ، يوسف الأوُل ، المصدر السابق ذكره ص ٥٦ - ٥٧ .

(١٤٣) أنظر الملحوظة رقم ١١١ .

(١٤٤) ديوان ، رقم ٤١ .

(١٤٥) قصائد رقم ٢٤ ، ٨٦ ، ١٠٢ ، ١١٤ .

(١٤٦) سيكو ، الحاجب ، المصدر السابق ذكره .

(١٤٧) قصيدة رقم ٣٢ .

(١٤٨) سيكو ، الحاجب ، ص ٢٩٢ .

(١٤٩) شبانة ، يوسف الأوُل ، ص ٥٣ .

(١٥٠) سيكو ، الحاجب ، ص ٢٩٣ .

(١٥١) شبانة ، يوسف الأوُل ، المصدر السابق ذكره ص ٦٠ - ٦١ .

(١٥٢) ديوان ، قصائد رقم ٣٨ ، ٢٢ ، كما توجد قصائد أخرى من هذا النوع ولكن بدون تاريخ : ٣٥ ، ٤٦ ، ٩٦ ، ١٩٠ .

(١٥٣) ديوان ، قصيدة رقم ٣٦ ، ١٠١ .

(١٥٤) ديوان ، قصيدة رقم ١٦٢ .

(١٥٥) الإحاطة ، مخطوط الأسكوريال ، ص ٣١٥ .

(١٥٦) الإحاطة ، نفس المصدر السابق .

(١٥٧) الإحاطة طبعة عنان ، الجزء الأول ، ص ١٧٣ .

(١٥٨) الأمثال المسجوعة لابن لويون دى الميريا (١٢٨٢ - ١٣٤٩) الأندلس ، العدد ١٧ ، ١٩٧٢ ، ص ١ - ٧٥ .

(١٥٩) الإحاطة ، طبعة عنان ، الجزء الأول ص ٢٢٩ - ٢٤٠ .

(١٦٠) ابن زَمْرَق ، المصدر السابق ذكره ص ١٩١ .

(١٦١) الإحاطة ، طبعة عنان ، الجزء الأول ص ١٦٧ .

(١٦٢) ديوان ، قصيدة رقم ١٤٣ .

(١٦٣) لابن الخطيب قصيدة بنفس المناسبة مُهداة إلى يوسف الأوَّل ، انظر ديوان ابن الخطيب ، المصدر السابق ذكره ، قصيدة رقم ١١٥ ص ٢٤٨ - ٢٥١ .

(١٦٤) ابن زَمْرَق ، المصدر السابق ذكره ص ٢٠٣ .

(١٦٥) انظر المصدر السابق .

(١٦٦) سيرة ذاتية في الإحاطة ، طبعة عنان ، الجزء الثالث ص ٢٣٩ - ٢٤١ ، انظر أيضًا م . غ . روبيرا ماتا ، معلومات عن مدرسة في مالقة سابقة على المدرسة النَّصريَّة في غرناطة ، الأندلس ، العدد ٣٥ ، ١٩٧٠ ص ٢٢٣ - ٢٢٦ .

(١٦٧) في السيرة الذاتية لأحمد بن قُنُب ، الإحاطة ، طبعة عنان ، الجزء الأول ص ١٧٢ - ١٧٤ .

(١٦٨) في السيرة الذاتية لأبي عبد الله السهيلي ، الإحاطة ، طبعة عنان ، الجزء الثالث ، ص ٢٤١ .

(١٦٩) ديوان ، قصيدة رقم ٦٣ .

(١٧٠) الإحاطة ، طبعة عنان ، الجزء الثالث ، ص ١٩١ .

(١٧١) ديوان ، قصيدة رقم ١٧٥ .

(١٧٢) ديوان ، قصيدة رقم ٢٣ ، نفح الطِّيب ، الجزء الخامس ، ص ٤٣٤ - ٤٣٦ .

(١٧٣) و. دي لاجرانخا " الأعياد المسيحية بالأندلس " ، الأندلس ، العدد ٢٤ ، ١٩٦٩ ، ص ١ - ٥٢ والعدد ٣٥ ، ١٩٧٠ ص ١١٩ - ١٤٢ .

(١٧٤) ديوان ، قصائد رقم ٤٧ ، ١٥٠ ، ١٦٧ ، ١٨٨ .

(١٧٥) ديوان ، قصيدة رقم ٩٧ .

(١٧٦) ديوان ، قصيدة رقم ٥ ، أنظر م . غ . روبيراماتا " المسلمات الثلاث من جديد " الأندلس - العدد ٣٧ ، ١٩٧٢ ، ص ١٣٣ - ١٤٣ .

(١٧٧) ديوان ، قصيدة رقم ٧٥ .

(١٧٨) الإحاطة ، مخطوط الأسكوريال ص ٣١٥ .

(١٧٩) هناك قصيدة سلطانية مُهداة إلى محمد الثالث وبها نسيب ولكنها ليست موجودة بالديوان بل بالإحاطة ، مخطوط الأسكوريال ص ٣١٨ ، نطير ، المصدر السابق ذكره ص ٢٣٩ - ٢٤٢ ز نفح الطيب ، الجزء الخامس ، ص ٤٣٦ - ٤٣٨ بحر الكامل ، قافية " ها " وفي الديوان توجد قصيدة مُهداة إلى فتاة تُدعى نجمة (رقم ٧٨) وأخرى أخوانية بها نسيب رقم ٣٤ .

(١٨٠) إيميليو جارثيا جوميث ، المتنبي : أكبر شعراء العرب في خمسة شعراء مسلمين ، مدريد ١٩٥٩ الطبعة الثانية ، ص ٣٧ .

(١٨١) انظر المصدر السابق ذكره .

(١٨٢) الإحاطة ، مخطوط الأسكوريال ص ٣٢٣ .

(١٨٣) يمكن أن يكونوا بنو الخطيب ، بنو الحكيم ، إلخ ... انظر أيضًا ل . سيكو دى لوثينا " بنو اسم مفكرون وسياسيون فى القرن الخامس عشر الميلادى ، .M.E.A.H العدد الثانى ، ١٩٥٣ ص ٥ – ١٤ وخ . بوش بيلا بنو سِمَاك بمالقة وغرناطة : أسرة من القضاة M.E.A.H العدد الحادى عشر ، ١٩٦٢ ، ص ٢١ – ٣٧ .

(١٨٤) ديوان ، القصيدتان رقم ١٠ ، ٨٢ .

(١٨٥) ديوان ، قصيدة رقم ٨٢ ، الإحاطة ، مخطوط الأسكوريال ص ٣١٨ – ٣١٩ ، نفح الطيب ، الجزء الخامس ، ص ٤٤٠ – ٤٤٢ .

(١٨٦) المصادر والمراجع عنابن الخطيب كثيرة ، انظر الملحوظة ١ (فى النص الأسبانى خطأ مطبعى حيث أوصى بالنظر إلى الملحوظة ٢ وهذا خطأ والصواب الملحوظة رقم (١) .

(١٨٧) ديوان ابن الخطيب ، المصدر السابق ذكره ، قصيدة رقم ١١٨ – ٨٣ .

(١٨٨) سيرة ذاتية ، الإحاطة ، مخطوط الأسكوريال ص ٨٩ .

(١٨٩) الإحاطة ، المصدر السابق .

(١٩٠) سيرة ذاتية ، نفح الطِّيب ، طبعة القاهرة ، ١٩٤٩ ، الجزء الثامن ص ٥٤ – ٥٥ .

(١٩١) نفح الطيب ، الجزء الخامس ، ص ٧٥ .

(١٩٢) سيرة ذاتية ، الإحاطة ، مخطوط الأسكوريال ص ٣٠٨ – ٣٠٩ .

(١٩٣) ابن زَمْرَق ، المصدر السابق ذكره ، ص ١٩٣ .

(١٩٤) ابن الجيَّاب يظهر كمرجع لابن الخطيب عدة مرات فى الإحاطة ، طبعة عنان ، الجزء الأول ، ص ١٧٣ ، ١٨٥ ، ١٩٩ .

(١٩٥) بالكبع أخذ ابن الخطيب هذه القصيدة وأدرجها فى عدة مواضع من أعماله ، ديوان ، قصيدة رقم ١٨٦ ، الإحاطة ، مخطوط الأسكوريال ص ٣٢١ ، كاتبه ، ص ١٨٨ ، مَقّرى أيضًا أعاد نسخها فى نفح الطيب ، العدد السادس ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

(١٩٦) أزهار الرياض ، الجزء الأول ، ص ١٩٢ وديوان ابن الخطيب ص ٦١٩ .

(١٩٧) قصيدة رقم ٤١ .

(١٩٨) ديوان ابن الخطيب ص ٢٥٤ .

(١٩٩) ديوان ابن الخطيب ، رقم ١٧ ، ص ٢٥٧ .

(٢٠٠) أزهار الرياض ، الجزء الأول ، ص ,١٩٢

(٢٠١) الإحاطة ، مخطوط الأسكوريال ، ص ٢١٥ .

(٢٠٢) الإحاطة ، مخطوط الأسكوريال نفس الصفحة .

(٢٠٣) سيرة ذاتية ، الإحاطة ، طبعة عنان ، الجزء الأول ، ص ٥٠٢ – ٥٠٨ ، الكاتبة ، ص ١١٧ ، التاج ص ٧٨ – ٧٩ ، المركبة ، ص ١٤٩ – ١٥٢ ، ابن فرحون ، ص ١١٥ .

(٢٠٤) ديوان ، قصيدة رقم ٣٩ .

(٢٠٥) الإحاطة ، مخطوط الأسكوريال ص ٣١٥ .

(٢٠٦) ر . أربية " إسبانيا الإسلامية " المصدر السابق ذكره ، ص ٣٩٧ – ٣٩٨ .

(٢٠٧) ديوان ، قصيدة رقم ١١٥ .

(٢٠٨) الإحاطة ، مخطوط الأسكوريال ص ٣٢٢ – ٣٢٤ .

(٢٠٩) بحر الكامل ، قافية " آكي " .

(٢١٠) طِبقًا لهذا البيت فإنَّ لون وثائق ديوان الإنشاء كان اللون الأحمر ، وكانه شِعَارُ الأسرة الملكية النَّصرية .

الفصل الرَّابع

الأَنْدَلُسُ وَ عُمْلاتُها

إعداد : ألبرتو كانتو

فى إطار المظاهر الفنية والثَّقافية والاقتصادية التى طوَّرها الإسلام فى الأندلس نجد أنَّ العملة تُعْتَبر أحد هذه المظاهر المهمة ليس لقيمتها فحسب كأداة اقتصادية بل للمعلومات الوفيرة والغزيرة التى تزودنا بها ، وهذه الميزة الجوهرية لدار سكِّ النُّقود وشكل العملة الإسلامية التى منذ أَنْ تَمَّ تثبيت نماذجها الشَّكلية نجد أنَّ هذه العملات قد احتوت على كتابات تشير لنا وتوضح بجلاء مكان سكِّها والتَّاريخ الدَّقيق والصحيح لهذا السَّك (بشكل سنوى) وبصورة تدريجية تم إدراج أسماء الخلفاء ورؤساء الوزراء (الوزراء الأوائل) والموظفين الذين تتفاوت أهميتهم إلى غير ذلك من كبار الشَّخصيات بالدَّولة .

ولهذا فإنَّ هذه الوثائق التَّاريخية تَمُدُّنا بمعلومات هائلة ووفيرة من الدَّرجة الأولى أو على جانب كبير من الأهمية فى الوقت الذى تنْدُر فيه الوثائق فى جوانب أخرى من الحياة بالأندلس الأمر الذى تميَّزت به العصور الوسطى .

وبالإضافة إلى ذلك فإنَّ وضع الأندلس مُلْفتٌ للنظر خصيصًا فى العالم الغربى الأوروبى ؛ حيث إنَّهُ ولأوَّل مرَّة قامت إحدى الممالك التى خلفت الإمبراطورية الرومانية (مملكة القوط الغربيين فى طليطلة) بمواصلة تقاليدها النَّقدية أو فى العملات ، إلا أنَّ هذه المملكة حَلَّ محلها حكم يتميَّز باختلاق بنيته الاقتصادية

والاجتماعية ، والذى سينتهج طوال عدة قرون تجربة أو بالأحرى محاولة لتكوين مجتمع إسلامى فى الغرب وهو المثال الوحيد والفريد الذى عُرِفَ فى القارة الأوروبية إبَّان هذا التَّاريخ المبكر .

ولذلك ومع أخذ أهمية وتأثير العملة الأندلسية الإسلامية فى الاعتبار فإنَّ هذه العملة سيكون لها تأثير على عملات بقية الممالك فى شبة الجزيرة الأيبيرية لا يمكن أنْ ينفصم عن باقى المظاهر النَّقدية فى إسبانيا ، وفى الوقت نفسه تُشَكِّلُ جزءً لا يتجزأ من هذه العملات ، ولم يحدث فى أى بلدٍ أوروبى آخر هذا التفاعل العميق بين العملات ، كما أنَّهُ لن يوجد هذا الاقتناع بأنَّ المجموعات النَّقدية المذكورة ستُشَكِّلُ جزءً لا يتجزأ من تاريخنا .

فالانتقال إلى النَّموذج النَّقدى الإسلامى فى الأندلس وثيقُ الصِّلَة بالأسرة الأموية المالكة فى دمشق ، والتى فى عهدها بدأت عملية فتح شبة الجزيرة الأيبيرية ، وقد كان أحد ممثلى هذه الأسرة هو المؤسس لدولة مستقلة فى الأندلس ، ولهذا فإنَّ التقاليد الأموية التى كانت فى طريقها للزوال فى أجزاء إسلامية أُخرى ستبقى وستُخَلَّدُ فى الأندلس ، كما أنَّها فى نفس الوقت مَهَّدت الطريق أمام تأثيرات شرقية أخرى وخاصة العباسية منها ، فى وقت لاحق النَّاجمة عن النَّشاط الفكرى والثَّقافى فى بغداد (بيدرو شالميتا ١٩٩٤) .

ومن الاعتبارات الأولى التى يجب مراعاتها فيما يتعلق بوجود العملة الإسلامية فى الأندلس ، نجد اختلافها الجذرى بالنِّسبة للعملات الأخرى التى كانت موجودة قبل ذلك بشبه الجزيرة الأيبيرية ، كما أنَّها رفضت تبنٍ أو اتخاذ النَّماذج المحلية فى التَّصميم والشَّكل خاصة البيزنطية المنتشرة فى شمال أفريقيا (بارثيلو ١٩٧٥) ، وهى عملية وسيطة ستفتح المجال أمام النَّماذج الأموية المُعَدَّلة والتى أقرَّها الخليفة عبد الملك فى دمشق (٦٥ - ٨٦ هجرية) (٦٨٥ - ٧٠٥ ميلادية) والمحددة بأنماط الكتابة بشأن أى مظهر شكلى ليست غريبة أو بعيدة عن سياسة التطرف الأيدولوجى الذى تنتهجه العملة البيزنطية (وريثة عملة الإمبراطورية الرومانية ونموذج العملة الانتقالية من العالم القديم إلى الوسيط) فى تلك السُّنوات فى صراع واضح مع السُّلطة المتزايدة لبنى أمية .

وأهم ميزة أساسية للعملة الإسبانية العربية فى تلك الفترة فيما يتعلق بالمعادن المستخدمة هى العودة النَّظرية إلى استخدام المعادن الثَّلاثة في إصدار عملات ؛ فعلى سبيل المثـال كان الذَّهب يستخدم لإصدار الدَّنانير والفَّضة للدَّراهم والنَّحاس للفلوس (جمع فِلْس) وهذا التَّنظيم المبدئى يوضح مدى الارتباط بين النَّماذج النَّقدية البيزنطية والسَّاسانية التى تشكل مصدر العملة الأموية ، وفى الوقت نفسه فإنَّ العملة الأموية تنطوى على اختلاف كبير مع النَّظام النَّقدى لعصر القوط الغربيين السَّارية المفعول فى إسبانيا .ومع ذلك وكما أشرنا آنفًا ؛ حيث قلنا إنَّها عودة نظرية ، لا نعرف جيدًا أنَّ الدِّينار لم يتم سكُّه وإصداره فى عهد الأمراء المستقلين فى قرطبة ، ولكن حدث ذلك فى عصور لاحقة .

وهذا الوضع سيقودنا إلى نقطة التَّحليل الرَّئيسية للعملة الأموية فى الأندلس : الفَّضة حيث سيكون الدِّرهم الوحدة الملكية والثابتة ؛ حيث يتم من خلاله تقنين كل العلاقات بين الدَّولة وشعبها . أمَّا الذَّهب فإنَّهُ تحت شكل الدِّينار سيُستخدم دائمًا كأداة للمحاسبات القانونية الإجبارية، وذلك بإصدار وتداول صغير ومحدود ، وهو أمر منطقى من ناحية أخرى ؛ لأنه يتعلق بمجتمع دينى أو متدين مثل الأندلسى الذى يتبع المذهب المالكى ذا الطَّابع السُنِّى التقليدى .

وهذا لم يمنع سَكَّ وإصدار الدِّينار فى عصور الخلافة (القرن العاشر الميلادى)، وملوك الطَّوائف (القرن الحادى عشر الميلادى) ، وذلك بكثرة لاستكمال النِّظام النَّقدى فى نفس الوقت وخلال العصر الأول من العصور التى أشرنا إليها نجد أنَّ الدِّينار قام بدور مهم يتناسب مع وقار وأهمية الوضع السياسى الجديد .

ومن جهة أخرى فإنَّ الفلس (وريث الفوليس البيزنطى ، والذى عرفه الأمويون الدمشقيون فى فلسطين ومصر وشمال أفريقيا) له مهمة تكميلية فى إطار النِّظام النَّقدى وبلا أدنى شك فإنَّ الفلس هو أحد عناصر النِّظام النَّقدى الذى يطرح أمامنا العديد من المشاكل عند دراسته وفهمه ؛ نظرًا لضآلة قيمته أو بمعنى أدق لانعدام قيمته الجوهرية ، ولذلك فقد عُثِرَ على بعض قليل منه أو عُثِرَ على أجزاء صغيرة من مجموعات ، والدِّراسات الإقليمية وحدها - التى تجمع مزيدًا من المعلومات عن العديد

من المستودعات أو الأماكن السُّكنية حيث يمكن جمع هذا النمط من العملة - ستفتح لنا الأبواب اللازمة لاستكمال البحث (دومينتش ١٩٩٤) .

و تنعكس هذه السِّياسة فى شكل وتطور الإصدارات النَّقدية الانتقالية وارتباطها بالإصدارات المشابهة فى شمال أفريقيا (بالاجير ١٩٧٦) ؛ فالمسكوكات الذَّهبية التى أصدرها موسى بن نُصير تُمَثِّل تحسنًا واضحًا دون أدنى شك بالنِّسبة لتدهور العملات القوطية الغربية إبَّان السَّنوات الأخيرة لملكة القوط الغربيين بطليطلة ، و مع ذلك فإنَّ رتم الإصدارات الجديدة لازال بطيئًا وغير منتظم فى صناعته مما يشير إلى الانعدام النِّسبى للرقابة على جودة هذه العملات ، واستخدام العملة المذكورة إبَّان فتح إسبانيا يبدو واضحًا وإنْ كانت هذه العملات غير منتظمة إلى حدٍ كبير ثم تلى ذلك إصدار عملات باللغتين العربية والإسبانية وقد جاء هذا فى إطار عملية إعادة تنظيم للعملية النَّقدية الذى تمَّ فى عهد الخليفة الأموى سليمان (٩٦ هـ ٩٨ هـ - ٧١٥ - ٧١٧ م) بغية زيادة وضمان وحدة الشَّكل وانتظام العملة (باتيس ١٩٩٠) .

وتُمَثِلُ هذه الإصدارات أيضًا الخطوات الأولى لعمليات سك النُّقود بالأندلس ، وذلك للابتعاد عن التَّعامل بالعملات الأفريقية وللاعتماد على عملات خاصة بالأندلس ، وجودة هذه العملات تفوق ما كانت عليه فى عهد القوط الغربيين ، ولكن بدون مستوى من الصَّفاء الخالص كما تشير إلى ذلك التَّحليلات التى جرت فى هذا الصَّدد ، والتى تحدد درجة الصَّفاء أو النَّقاء بشريحة تتراوح ما بين ٧٢ ٪ و٨٥ ٪ فى أفضل الحالات المعروفة ، كما أنَّ هذه الدَّرجة كانت تتفاوت بشكل ملحوظ بين بعض الإصدارات وبعضها الآخر .

وهناك مظهرٌ مهم ، وستكون مراجعته ضرورية لا غنى عنها ، وينطوى هذا المظهر على مشكلة هامة تتمثل فى عملية قياس ووزن الإصدارات الأولى للعملات الانتقالية من الذَّهب سواءً اللاتينية منها أو التى صدرت بلغتين ووزن هذه العملات سواء فى عملية الإصدارات الأفريقية أو فى الأندلسية يفوق وزن العملات المسكوكة فى دمشق وإنْ كانت هذه الزيادة لا تتجاوز نسبة ١ ٪ إلا أنَّها أدت إلى إمكانية تسريب الذَّهب الغربى صوب الشَّرق نظرًا للفائدة الكبرى التى يمكن أن تتحقق من جرَّاء ذلك (باتيس ١٩٩٠) .

أمَّا فيما يتعلق بالفِّضة (الدِّرهم) نجد أن الوضع أكثر تعقيداً ؛ لأنَّ إدخاله شمال أفريقيا والأندلس تم بشكل أكثر بطئًا مما حدث فى الجزء الشَّرقى من الإمبراطورية الأموية ، وهذا الوضع منطقى طالما أنَّ التَّقليد النَّقدى أو العُرف النَّقدى السَّاسانى كان يعتمد على معدن واحد فى إصدار عملاته وهو الفِّضة مما يبرر استبدالها بالعملات المعدلة التى أصدرها عبد الملك .وبعد عشرين عامًا من التَّأخير نجد أنَّ الدِّرهم المُحَسَّن أو المُعَدَّل بدأ يظهر فى الغرب ولكن سرعة ظهوره فى شمال أفريقيا فاقت بمراحل سرعة ظهوره فى الأندلس ومن المحتمل أيضًا أنْ يكون قد رافق ظهور الدِّرهم الفضى المعدل إصدارات لعملات نحاسية أخرى وإنْ كان النَّحاس لا يزال حتى الآن المعدن الذى لم يحظ بدراسة مستفيضة وخاصة فى وقتنا هذا (بارسيلو ١٩٧١ - ١٩٧٢).

وعلى الرغم من أنَّ النَّماذج المعروفة تملأ رويدًا رويدًا الثَّغرات الزَّمنية الموجودة، فإن قلة المكتشفات فى شبه الجزيرة الأيبيرية يطرح العديد من المشاكل الهامة بشأن تداول العملات فى الأندلس ، وكذلك افتراضات جديدة بشأن مكان إصدار مثل هذه العملاتو هذه النُّدرة فى العملات المذكورة ترتبط إلى حدٍ كبير بالمشاكل الاقتصادية، وبالتَّالى بعدم الاستقرار السِّياسى الذى واكب الحِقَب الأولى لفتح إسبانيا ، وبلا أدنى شك فإنَّ التَّتابع المضطرب للحكام مما أدى إلى ندرة الإصدارات واستمرارها .ويجب أنْ يكون صدى ذلك كبير فى الهيكل المالى للإدارة الأموية الجديدة فى أراضٍ ضُمَّت حديثًا للإسلام .والقيم القِّياسية والوزنية المعروفة للعملات الأولى من الفِّضة التى سُكَّت بالأندلس يبدو أنَّها كانت تُقَدَّرُ بـ ٢,٩٠ جرامًا .و بالتَّالى فإنَّها تشبه إلى حد كبير وحدات القياس والموازين المستخدمة فى الشَّرق وعلى وجه التَّحديد فى دمشق وإنْ كانت تزيد عمَّا فى مصر (٢,٨٣) جرامًا ، وكذلك بعض ورش سك العملات فى العراق وإيران ، وهذا يوضح كما يشير باتيس (باتيس ١٩٩٠) إلى أنَّ الوحدة الأصلية للعملات الأموية كانت تختلف إلى حدٍ ما فيما يتعلق بالإصدار الحقيقى والمادى لهذه العملات بمختلف أرجاء الإمبراطورية الأموية .

وفيما يتعلق بجودة الدَّراهم فإنَّها تقل فى مستواها عن المعروف فى دور السَّك الأموية ؛ ولهذا فإنَّ درجة النَّقاء كانت تتراوح ما بين ٩٣ - ٩٨ ٪ ولكن كانت فى تدهور

مستمر بمرور الوقت أمَّا قيم أو قيمة النَّماذج الصادرة عن دور سك أموية أُخرى فقد كانت أعلى كما هى الحال فى الوسيط الذى بلغت درجة نقائها ٩٩ ٪ وإنْ كانت هذه الدَّرجة من النَّقاء قد وُجِدَت فى نماذج صدرت فى أفريقيا .

و كما أشرنا آنفًا فإنَّ ندرة هذه العملات قد ربطها (م . بارسيلو) مع سياسة المركزية لدور سك العملة وإمكانية سك نقود فى الوسيط باسم سك الأندلس أو أفريقيا نظرًا لتشابه النَّموذج المتداول للعملة بين المكتشفات فى الأندلس والمغرب وكذلك بالمحافظات الشَّرقية بالعالم الأموى (بارسيلو ١٩٨٨) ، وسبب هذه الظَّاهرة يمكن أنْ يرجع إلى التَّنظيم المالى للدولة الأموية وسياسة المركزية لدور السَّك ، وبهذا يمكن تفسير النَّموذج الشَّاذ للتداول النَّقدى الموجود فى السَّنوات الأولى لفتح الأندلس .

وخلاصة الأمر أنَّ فترة الفتح تعنى استبدال النَّموذج النَّقدى القوطى الغربى المصنوع من معدن واحد بنموذج آخر مصنوع من ثلاثة معادن فى بادئ الأمر ، ثم سرعان ما اقتصر على معدنين فقط الذَّهب والفِّضة حتى ينتهى فى خاتم الأمر إلى معدن واحد وهو الفِّضة .وندرة المسكوكات فى ذلك العصر يبدو أنها تشير إلى وضع انتقالى تحت رقابة صارمة من جانب الحكومة المركزية المتأثرة من جرَّاء الاضطرابات والتَّمردات التى حدثت فى ذلك الوقت . ووقف الإصدارات النَّقدية وتوافق ذلك زمنيًا مع فترة الاضطرابات السياسية التى حدثت أو التَّمردات التى وقعت ضد السُّلطة الجديدة ، وهذا يوضح الارتباط الوشيج والعلاقة الوثيقة بين هذين المظهرين (وقف إصدار العملات والاضطراب السياسى) خاصة إذا وضعنا فى الاعتبار عمليات فرض الضَّرائب التى تفرضها الدَّولة على مواطنيها ، وهذا المظهر مهم للغاية ، وسيتكرر فى أوقات أُخرى من التَّاريخ النَّقدى بالأندلس .

وبوصول عبد الرَّحمن الأوَّل إلى الأندلس عام ١٣٨ هـ و ٧٥٦ ميلادية لم يقم خلال السَّنوات العشر الأولى لحكمه بإصدار عملات بصورة منتظمة بل كانت على فترات ونادرة ، واعتبارًا من عام ١٥٠ هـ ٧٦٧ م فقد أصبحت الإصدارات النَّقدية منتظمة وكانت فى تزايد مستمر فى عهد خلفائه ثم عانت هذه العملات من تراجع كبير

حتى اختفت تماماً فى عهد الأمير الأخير عبد الله فى نهاية القرن التَّاسع الميلادى (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ ، ٨٨٨ - ٩١٢ م) (كانتو مارسال ١٩٨٨) .

ومن النَّاحية العملية فقد وُضِعَ موضع الاستخدام نظام نقدى دورى باستصدارات سنوية من العملات الفضية (دون إصدارات للدراهم) (بارسيلو ١٩٧٥) التى تعكس إلى حدٍ ما أوضاعاً ونزعات اقتصادية نرى كيف أن إنتاج العملات بدأ يتزايد فى عصر عبد الرَّحمن الثَّانى (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ ، ٨٢٢ - ٨٥٢ م) ومعروف الجُهد الذى بذله هذ الأمير فى أثناء حكمه وإنْ كنا لا نستطيع إيجاد علاقة مشابهة (كانتو مارسال ١٩٨٦) . وغيبة الذَّهب يُعتبر أحد العوامل التى تُمَيِّزُ بشكل واضح العصر الأميرى لقرطبة إزاء عصر المحافظين أو الحكام وإن كان التَّزويد أو التَّمويل بالمعدن النَّفيس قد حدث بفضل استيراد الدِّينارات من شمال أفريقيا كما يثبت ذلك من بعض الاكتشافات .

ومن النَّاحية القياسية والوزنية فإنَّ هذه الإصدارات الفضية كان وزن القطعة منها ٢,٧٠ جراماً ، ولكن بتغييرات طفيفة سنقوم بشرحها فيما بعد ، وبالنِّسبة لكون المعدن حقيقى أو لا ، وكذلك فيما يتعلق بدرجة نقاء النَّماذج ، فإن المعلومات المتوفرة لدينا ضئيلة ، كما أنَّه لا توجد بحوزتنا تحليلات كافية لإيضاح هذين الأمرين ومع ذلك فإنَّ درجة النَّقاء بلغت ٩٠ ٪ ، وهذا يعنى أنَّ القيمة أقل من المألوفة فى أجزاء أُخرى من البلدان الإسلامية ، ولكنها فى حدود المعقول .

والاختلاف مع المرحلة السَّابقة كبير بسبب كثرة وتنظيم إصدار المجموعات النَّقدية الأموية والأندلسية، والتى ستستمر فى الإصدار بدون توقف (إلا فى مناسبات معدودة) حتى بدايات أو أوائل القرن الحادى عشر الميلادى .

وهذا الظرف أو الوضع الخاص يجعلنا نتصل مباشرة باستخدام ومهمة العملة الإسلامية فى الأندلس التى تتطور كأداة للرَّقابة المالية من جانب الدَّولة على مواطنيها ورعاياها .ولهذا يمكن فهم نقص العملة النَّقدية المبدئية فى أثناء حكم الأمير الأوَّل خلال فترة طويلة من السَّلام والرَّقابة بجَميع أطراف وأرجاء الدَّولة الذى يجب أن يتمَّ بنفس الشَّكل حتى مع آخر الأمراء الذى ذكرناه آنفاً ، كما أنَّ أزمات التَّمردات

المتلاحقة والمتتابعة أثرت على كيفية سير الأمور بالدَّولة وخاصة فى فهم الضَّرائب المفروضة على مختلف المناطق التى تكون منها إقليم الأندلس إداريًا .

و تُفهم بهذا الشَّكل العلاقة الوشيجة الموجودة بين طرح عملات للتَّداول وبين الحكم المركزى أو السُّلطة المركزية فى قرطبة (بارسيلو ١٩٧٩ - ١٩٨٤ - ١٩٨٥ ، بيدرو شالميتا ١٩٨٦ ب) .

ويجب أنْ نأخذ فى الاعتبار فصلاً آخر فى استخدام العملة الأميرية ، ويمكننا أنْ ندرك ذلك من الاكتشافات ؛ حيث إنَّ الأغلبية السَّاحقة منها مصنوعة من معدن واحد وهذا يعنى أنَّها عملات فضية ؛ لأننا كما اشرنا آنفًا نجد أنَّ الذَّهب لم يُسك ، كما أنَّ البرونز كان غير معروف لنا ، كما أنَّه ليس على درجة العملة الفضية ولا قيمتها ، وهذه العملة كانت الأداة الضَّريبية والمالية .

وهذه الاكتشافات ذات تاريخ زمنى متسع ، بمعنى أنَّها تشمل عملات تغطى من النَّاحية العملية ممالك الأمراء كافة ، وبنفس الشَّكل فإنَّ وجود العملة الفضية العربية غير الأندلسية لم يكن شائعًا ، كما أنَّ وجود العملة العباسية كان نادرًا ، وكذلك شَّمال أفريقيا ، ومن ناحية أخرى نجد أنَّ ظاهرة هامة تتألف من وجود كميات هائلة من العملات المُجَزَّأة أو المُقَطَّعة انضمت إلى قائمة الاكتشافات .

وهذه الظَّاهرة موجودة أيضًا فى أجزاء أُخرى من أوروبا بفضل استيراد العملات الإسلامية من الشَّرق ، ومع ذلك فإنَّه بالنِّسبة للأندلس يبدو أننا نوجد أمام تلاعبٍ محليٍ من قِبَل الشَّعب ومن جانب العملاء آخر الأمر الذين كانوا يتزودون بأجزاء العملات التى لم تقدمها الدَّولة .

والأغلبية السَّاحقة لأجزاء أو كسور العملات يبدو أنها تتراوح بين ١/٤ و ١/٥ درهم مما يؤكد أنَّ سك أو إصدار عملات برونزية كان يتم بكميات قليلة للغاية أو أنَّها لم تَصدُر بأى شكل وربما يكون أيسر بالنِّسبة للدولة قبول مثل هذا الوضع إزاء عجزها الأكيد فى ضمان تزويد مواطنيها بالنُّقود من المعادن غير الثَّمينة أو غير النَّفيسة ، وبنفس الشَّكل نعرف أنَّ الدَّولة كانت تناهض هذه التلاعبات والتَّغييرات للعملة وكانت تحتم أنْ تكون الضَّرائب المالية من عملة محددة وفى حالة جيدة (كانتو ، مارسال ، ١٩٨٨) .

وخلاصة الأمر يمكننا القول إن العصر الأميرى يعنى من وجهة النَّظر النَّقدية أو العملاتية إنشاء خطة لاستخدام وتوفير العملات بشكل إجبارى من خلالها تقوم الدَّولة بطرح كميات من النُّقود كل عام للمواطنين من المرجح أنْ تكون متعلقة بالمتطلبات الضريبية والمالية التى ستقوم الدَّولة بالمطالبة بها ، وهذا يؤكد العلاقة الوثيقة بين العملة والضَّريبة مبتعدين بذلك عن أى اعتبار اقتصادى وهذا ليس بعائق كما رأينا فى موضوع كسور العملات لكى تستخدم كأداة اقتصادية عند طرحها للتَّداول .

ويمكننا القول إنَّ الإمارة بدأت بنشاط محدود فى إصدار العملات ثم توسع هذا النَّشاط فيما بعد إلا أنهُ عاد إلى التَّراجع فى نهاية هذا العصر حتى أدى الأمر إلى إختفاء إصدار العملات تماماً فى أواخر عهد عبد الله نتيجة للوضع السِّياسى الصَّعب الذى عانى منه الحكم أو السُّلطة القرطبية ، وقد امتدت نتائج هذه الأزمة حتى السَّنوات الأولى لعبد الرَّحمن الثَّالث أول خليفة لقرطبة .

وعندما تولى عبد الرَّحمن الثَّالث عرش قرطبة عام ٣٠٠ هـ ٩١٢ ميلادية ، فإنَّ هذا يعنى بداية تأسيس الخلافة فى قرطبة أى عندما حصل الحكام القرطبيون على امتيازات كانوا يعتقدون أنَّها حقٌ لهم بعد الإطاحة بأسرتهم فى الشَّرق على أيدى العبَّاسيين ، وآخر الأمر لم يكن هؤلاء هم الأوائل ؛ لأنَّ الفاطميين فى شمال أفريقيا قاموا بعمل مماثل ، وبالتَّالى أصبح فى العالم الإسلامى ثلاث خلافات : الخلافة العباسية فى العراق ، والفاطمية فى شمال أفريقيا ، والأموية فى الأندلس .

ومن وجهة نظر المعادن المستخدمة فإنَّ العملات فى عصر الخلافة كانت مصنوعة من الذَّهب والفَّضة وهناك بعض النَّماذج القليلة من النَّحاس وإنْ كانت الإصدارات الذَّهبية كانت لها أهميتها الخاصة وإنْ كان إنتاج العملات الفضية أكثر بكثير من الذَّهبية والنَّحاسية استمراراً لما كانت عليه العملات فى القرون السَّابقة ، وعلى أيَّة حال فإنَّ الدَّولة القرطبية الأندلسية كانت تستهلك إنتاجها من الفَّضة ؛ لأنَّها لم تقم بتصدير هذا المعدن إلى خارج (وخاصة على شكل عملات) الحدود الإسبانية إذا كانت تصدرها إلى الممالك المسيحية الكائنة فى شمال إسبانيا أمَّا وجود العملات القُرطبية فى أوروبا الوسطى أو وسط أوروبا وشمال أفريقيا فقد كان نادراً للغاية .

وعلم القيـاس والموازين هو المجـال الذى قـدَّم لنا العـديد من التَّـغـيـيـرات والاختلافات فى عملات عصر الخلافة فقد ثبت أنَّ هذه العملات لا تنتمى إلى نموذج أو موديل واحد فيما يتعلق بالفِّضة (بيشير ، ١٩٨٦ ، كانتو ، ١٩٨٩) .

وبصفة عامة يمكننا اعتبار أنَّ كل واحد من الخلفاء الثَّلاثة الأوائل عبد الرَّحمن الثَّالث والحكم الثَّانى وهشام الثَّانى استخدم موديلاً قياسيًا ووزنيًا مختلفًا إلى حدٍ ما، وإن كان موديل عبد الرَّحمن الثَّالث هو الأكثر تقليديًا ؛ حيث كان يتراوح وزنه ما بين ٢,٧٠ جرامًا و٢,٨٠ جرامًا ، ولكن هذا الوزن تناقص فى عهد خليفته أى الحكم الثَّانى إلى ٢,٥٩ جرامًا ، ولكنه قد ازداد ليصل إلى ٣ جرامات أو ٣,١٠ جرامات فى عهد آخر الخلفاء المذكورين (هشام الثَّانى) .

وهذا الوضع المعقد يجعلنا ندرك التَّفاوت فى موديل ووزن العملات إبَّان حكم الخلفاء الثَّلاثة ، وكذلك التَّعديل الذى طرأ على الموديل الذى كاد أنْ يكون ثابتًا قبل بدء حكمهم بسنوات قليلة ، كما كثرت تسميات أو مسمَّيات العملات فى ذلك العصر (بيدرو شالميتا ١٩٨٦ أ) ، وظهور عدد كبير من وحدات الوزن الأندلسية مكتوب عليها ما يشير إلى هذه المسمَّيات النَّقدية قد ألقى بكثير من الضوء على هذه المشكلة (أى أسهم فى إيضاح هذه المشكلة) .

أمَّا الذَّهب فإنَّهُ أكثر ثباتًا ؛ حيث كان يتم إصدار الدِّينار بوحدة وزن تتراوح ما بين ٣,٩٠ جرامًا وأربعة جرامات وكسور الدِّينار مثل نصف دينار وثلث دينار والتَّفاوت فى هذا المعدن هى أقل بكثير مما حدث فى الفُّضة ، كما أنَّ الإصدارات النَّقدية الذَّهبية كانت قليلة إلى حدٍ كبير .

ويبدو أنَّ نقاء الإصدارات النَّقدية من الذَّهب والفَّضة ظلَّت فى الإطار المعقول والمقبول وقد تراوحت ما بين ٨٠ - ٨٦ من النَّقاء مع تفاوتات قد تصل إلى ٧٠ ٪ بالنِّسبة للعملات الفضية ، بينما نجد أنَّ الدِّينار قد ظلَّت درجة نقائه تتراوح ما بين ٨٠ و٩٠ ٪ .

هذا وقد بدأت مشكلة أو أزمة العملات فى عصر الخلافة خلال السَّنوات الأولى من القرن الخامس الهجرى الحادى عشر الميلادى (رودريجيث مارينهو بيثوتو كابرال ،

١٩٨٨) وإن كانت جودة هذه العملات ستستمر حتى عصر الحموديين إبَّان الثُّلث الأول من القرن الحادى عشر الميلادى (بيثيرا ١٩٨٦) .

ومن وجهة نظر علم الأنماط فإننا وجدنا ظهور اسم الخليفة على ظهر العملة فى المنتصف هذا إلى جانب ألقابه ، وبعد ذلك ظهرت أسماء بعض رجال الدَّولة أو كبار الشَّخصيات من ذوى المناصب العليا : مثل الوزير الأوَّل وكذلك المسئولين الإداريين المرموقين وخاصة رجال الاقتصاد ثم نُقِشَت أيضًا أحداث حَلِ الخلافة ، وهذا يعنى أسماء أولياء العهد .

وعمومًا فإنَّ هذا التتابع للأسماء المكتوبة قد أفادنا كثيرًا فى تحديد زمن وتاريخ العملات إذا لم يكن مدونًا على العملات نفسها أو إذا كان التَّاريخ ممسوحًا؛ ولهذا فإننا نعرف تاريخ جميع عملات هذا العصر وزمن صدورها وظهورها .

وبصفة عامة يمكننا اعتبار أنَّ الأنماط النَّقدية فى عهد الخلافة كانت مُحافظة، وهذا يعنى أنَّها شهدت قليلاً من التَّغيير ، وخاصة فى توزيع الكتابات والنُّقوش الخاصة بألقاب وأسماء الخليفة ، وفيما يبدو أنَّ الخلفاء كانوا يبحثون عن نموذج نقدى ذى تصميم سهل ويمكن التَّعرف عليه بفضل أنماطها الكتابية والنَّقشية وفى بعض الحالات بفضل التَّركيبة الزخرفية الذى يمكن أنْ يتحول إلى موديل أو نموذج محدد .

و هذا المفهوم مهم ؛ لأننا نعلم أنَّ العملة نقشية أو كتابية تمامًا كما هى الحال فى العملة الإسلامية ، ولذلك فإنَّ الكتابات أو النُّقوش فى هذه العملة تقوم مقام العنصر التَّصويرى الجمالى فى العملة الكلاسيكية غير الإسلامية ، وإذا كانت العملات فى عصر الخلافة لم تشهد تطورًا كبيرًا فإنَّها فى عصر ملوك الطَّوائف قد تنوعت وحدثت بها كثير من التَّعديلات والتَّغييرات بعد عصر الخلافة بقرن من الزَّمان ، ومع ذلك كان من السهل التَّعرف على عملة عهد الخليفة من جانب العملاء فى الممالك المسيحية بشمال شبه الجزيرة الأيبيرية ؛ حيث إنَّها كانت العملة الوحيدة الموجودة فى ذلك الوقت .

وبالنِّسبة لاستخدام العملة فى عصر الخلافة فإنها قد التزمت بنفس استخداماتها فى العصر الأميرى، وهذا يعنى أنها ظلت أداة ضريبية لخدمة الدَّولة ، كما أنَّ

السَّنوات الأولى من عصر الخلافة وخاصة الخليفة الأوَّل خلت من العملات ، كما أنَّ هناك فترة أخرى من الصِّراعات كانت بدون عملات ، وهى الفترة التى حاولت السُّلطة المركزية خلالها فرض سيطرتها وسلطانها على المحافظات والأقاليم ، وهذا يجعلنا نتذكر أمرًا مشابهًا أيضًا إبَّان العصر الأميرى .

وبعد أنْ أصبحت سلطة الدَّولة مركزية عادت العملة إلى الاستخدام ؛ حيث تزايدت كميات الإصدارات من العملات بشكل مدهش وذلك بإعطاء مزيد من الاهتمام إلى الأختام (بيثير ، ١٩٨٨ ب ، كانتو ١٩٨٨) .وإذا أُضيفت إلى هذه التحليلات الاكتشافات الضَّخمة التى تمَّت فى منطقة قرطبة وضواحيها يمكننا القول إنَّ الخطة التى أُنْتُهِجَتْ هى الصَّحيحة ، وأنَّ الواقع يثبت أنَّ الدَّولة فى ذلك الوقت كانت مركزية قوية ، ويُعَضِدُ هذا المفهوم كثرة الورش بالعاصمة والمناطق المجاورة لها .

إنَّ قوة الدَّولة القرطبية وتحسن اقتصادها فى القرن الرَّابع الهجرى العاشر الميلادى تنعكس كما أشرنا آنفًا فى إنتاج عملات ؛ فمن ناحية نجد أنَّ المصادر تشير إلى أنَّ دخول (جمع دخل) الدَّولة العامة كان يتمثل معظمها فى عوائد الحقول والضَّرائب المفروضة عليها وهى كمية تفوق بكثير أى دخل مالى للدَّولة من المصادر الأخرى كالرُّسوم الجمركية على سبيل المثال والتِّجارة إلخ ...وهذا الوضع هو انعكاس للوضع الاجتماعى الحقيقى الذى هو الأساس الجوهرى للمجتمع الأندلسى .

والاكتشافات فى عصر الخلافة يبدو أنَّها تواصل نفس النَّهج فى العصر السَّابق وهذا يعنى أنَّ الاكتشافات من العملات تؤكد صنعها من معدن واحد من الفِّضة فى المقام الأوَّل مع بعض الاكتشافات للعملات الذَّهبية التى تقل فى كميتها كثيرًا عن الاكتشافات الفضية ، وفى تلك الفترة كانت هناك كسور للعملات، وقد أكَّدت الكشوف وجود كميات كبيرة من كسور العملة ، وتؤكد كسور هذه العملات أنَّ وزنها إذا جمعت لتكون واحدًا صحيحًا لا يختلف تمامًا عن وزن العملة الواحدة ؛ فمثلاً الدِّينار نجد أنَّ كسوره إذا وُزِنَتْ تعطينا واحدًا صحيحًا يتفق تمامًا مع وزن الدِّينار الواحد .

وهناك معلومة تعكس التَّأثيرات والعلاقات الموجودة مع أجزاء أخرى من العالم الإسلامى ، وتكمن هذه المعلومة فى الوجود الملحوظ لعملات أسر ملكية أفريقية فى الاكتشافات الأندلسية ، وخاصة أنَّه توجد عملات فاطمية ذهبية وفضية تتواءم مع الاكتشافات فى عصر الخلافة واستمر هذا الوجود فى أثناء القرن الخامس الهجرى الحادى عشر الميلادى ، ولا يمكن أنْ ننسى الوجود الأموى فى شمال أفريقيا وكثمرة لسياستها الرقابية على المنطقة المذكورة التى كانت فى صراع دائم مع الفاطميين ، وقد أدى ذلك إلى إصدار وسك نقود باسم خلفاء قرطبة فى ورش تصنيع العملات فى شمال أفريقيا فى أماكن مثل ناكور أو مدينة فاس (ساينث - دييث ١٩٨٤) .

ولكى ننهى حديثنا عن العملة فى عصر الخلافة يجب علينا أنْ نُبرز أهميتها الخاصة فى العلاقة التى جمعت بينها وبين الممالك المسيحية فى شمال شبه الجزيرة الأيبيرية والتى لم يوجد بها عملات خاصة بها إلا فى المقاطعات الكتالانية من جرَّاء تأثير شرلمان .وقد أصبحت العملة فى عصر الخلافة نموذج الحسابات لكافة الصَّفقات فى معظم الممالك المسيحية فى الشمال ، كما أنَّ التسميات المسميات المستخدمة تخص الشَّخصيات الموجودة على العملات وليس لنفس الخليفة ، وهذا يزيد قيمة التعليق الذى ذكرناه سابقًا عن مهمة الأنماط الكتابية فى ذلك الوقت ، كما أنَّ الحديث عن عملة قاسمية أو جعفرية فى الوثائق المسيحية له مغزى كبير (بيدرو شالميتا ١٩٨١ ، كانتو ١٩٨٦) ، وهذا يوضح الأهمية والاستمرار فى المبادلات التى تمت بالعملة الخليفية القرطبية .

وخلاصة الأمر ولكى ننتهى مما يتعلق بالعالم الأموى سواء فى عصر الإمارة أو فى عصر الخلافة ، فإنَّ عملته كانت عنصر استقرار يحدث نصف سنويًا تقريبًا (باستثناء الفترات التى أشرنا إليها سابقًا) بكثرة ملحوظة وكانت انعكاسًا لاحتياجات ومتطلبات الدَّولة ، والخط الذى بدأته العملة الأميرية قد ازداد وامتد فى أثناء الخلافة ويمكن القول إنه منذ خلافة عبد الرَّحمن الأوَّل حتى وصول الحموديين أى قُرابة ثلاثة قرون تقريبًا فإنَّ العملة الأموية (وخاصة الفضية منها) كانت عاملاً مستقرًا لم يشهد سوى القليل من التغييرات والتَّعديلات فى الوزن والقياس ، كما أنَّ جودتها كانت دائمة ومستمرة .

وقد كانت للعملة أهمية بالغة فى العلاقات الاقتصادية بالمجتمع الأندلسى ، إلا أنَّ أثر هذه الأهميـة لم يُدْرَس بتـعمق ، ومـع ذلك نأخـذ بعين الاعـتبار الوضـع المضطرب الذى سيـحـدث إبَّان عـصـر الطَّوائف الأولى وكـذلك التَّظلمـات التى حـدثت من جرَّاء السِّيـاسـة النَّقدية ، كـمـا يجب أنْ نأخـذ فى الحـسبـان أن العـملة الأمـوية كـانت إحـدى الأدوات الفعَّالة فى الدَّولة الأموية القرطبية .

كما أنَّ أزمة الدَّولة الأموية المركزية فى نهاية القرن العاشر ومطلع القرن الحادى عشـر الميـلاديين سـتـعنى تغـييرًا جذريًا فى فـهم واسـتـخـدام العـملة ، والذى سـيكون تطورها صوب وضع مختلف وأكثر تعقيدًا بالنِّسبة للوضـع السِّياسى المختلف بالأندلس .

وعالم الطَّوائف فى القرن السـابع الهـجرى الحـادى عشـر الميلادى ، وهـذا يعـنى مـا يسـمى طوائف الخـلافـة أو الطَّوائف الأولى يشـكل بانورامـا مـعـقـد ، والذى حـدثت خلاله الأزمـات والمشاكل النَّاجمة عن السِّياسة التى انتهجها المنصور الحاجب المهيمن على مقاليد السُّلطة فى عهد الخليفة هشـام الثَّانى ، وذلك فى أثناء الجزء الأخـير من الخـلافة وقـد ظـهـرت هـذه المشـاكل لتـبـرز مدى التَّـغـيير والضَّرر الذى لحق بقـواعـد وأسـاسيات المجتمع الأندلسى .

ويمكن القـول إنَّ القـرن العـاشـر كـان بمثـابة المحـاولة القـصـوى لإقامـة مـجتمـع إسلامى فى الغرب والقرن الحادى عشر يمثل الأعراض الأولى لتمزقه وتفتته .

وأفضل مثال لذلك موجود فى عملات هذا العصر وبشكل تقليدى تم اعتبارها على عمـلات أكثر العصـور تـعقيدًا كما كـان العـصر المجهول فى تاريخ العملات الإسـلامية فى إسبـانيـا وإنْ كان اهتـمـام الدِّراسـات الكلاسـيكية والتَّـحـقيـقات قـد عُنيتا بالـعملة الأندلسية (بيبيس ١٨٩٣ ، بريبتو ١٩٢٦).

وهذه الكثافة مُحددةٌ لتنوع السُّلطات المحلية لوجود حكام كثيرين والعديد من دور السِّك وأسماء الأشخاص هذا إلى جانب العجز عن فهم كيفية السير الاقتصادى للعملة فى عصـر الطَّوائف ؛ حـيث كـانت تُمثِّلُ نظامًا نقديًا مـختلفًا تمامًا عمـا كـان عليه فى العصر الأموى .

إنَّ التَّفسيرات الجديدة أو الحديثة عن استخدام عملات عصر ملوك الطَّوائف والتى شرحت على أساس نص شهير لابن حزم القرطبى تؤكد وتوضح أنَّ العملات فى ذلك العصر لم تعد تفي أو تحترم أى مفهوم دينى أو قانونى ، كما أنَّها لم تنطبق على أى نمط من أنماط الضَّريبة والمالية المتفق عليها ، بل أصبحت أداة أو وسيلة للضغط والاضطهاد والضَّرائب الباهظة الظالمة لأفراد المجتمع الأندلسى (بارثيلو ، ١٩٩١) .

وفقط من هذا المنطلق أو من وجهة النَّظر هذه يمكن فهم التَّنوع والهائل لأنماط العملات والكتابات والنُّقوش والمسمَّيات والمعادن والأسماء أى تمزيق كل ما كان وحدة وصالحًا عامًا إزاء ظهور لكل نوع من الفوائد والأنشطة المحلية والإقليمية .

والخطوة نفسها من المجتمع الخلافى إلى طوائفى (المعبر عنه بألفاظ نقدية) يذهلنا بكثرة حيرته وتردده عقب التَّدهور الخلافى (أى عصر الخلافة) وبعد الكثير من التَّجارب المتنوعة والخجولة فإنَّ الأسرة المحمودية ستصدر عُملة بشكل مستمر ومنهجى منتظم أمَّا بقية السُّلطات المهيمنة فى بقية أرجاء الأندلس فقد أبت إصدار عملات مما أدى إلى وجود فترة أُخرى خالية من العملات بما فى ذلك المدن بالغة الأهمية من النَّاحية التِّجارية ، ويمكن القول إن بقايا عملات عصر الخلافة هى التى كانت مطروحة للتَّداول حتى اختفائها تمامًا مما أدى إلى وجود عصر أو فترة دون عملات وهى ظاهرة معروفة ، وتضع موضع الجدل أو تشكك فى أهمية العملات كأداة اقتصادية (وفقًا لما يراه جيتشارد ١٩٩٠) .

والخلافات الكبيرة فى موديلات ونماذج وشكل وتماسك الكائنة بين بعض الإصدارات وبعضها الآخر تعكس بجلاء الأزمة التى عانت منها مختلف الممالك وتذبذباتها إزاء الضَّغط المسيحى الكاثوليكى ، و تحليلات الجودة بالنِّسبة للعملة تعتبر عنصرًا أو عاملاً فى غاية الأهمية لتحديد العملية الكبيرة للتدهور وللافتقار الذى عانت منه العملات (كما يرى نونان ١٩٨٨) .

وتحليل دقيق للعملة فى عصر ملوك الطَّوائف يؤكد ويصدق على هذا الرأى : فمن ناحية – وبنظرة بسيطة – فإنَّهُ من السهل تقدير التَّدهور السَّريع لجودة العملة الذَّهبية أو الفضية مع الأخذ فى الاعتبار كثرة إصدارات العملات من الذَّهب الردىء

(فيما يتعلق بالدِّينار وكسوره) وتدهور الفِّضة حتى أصبحت مسكوكات من الفِّضة والنِّحاس (كما فى الدِّرهم وكسوره) ومن ناحية أُخرى استخدام أكثر من ثلاثة موديلات أو نماذج مختلفة ومتباينة بالنِّسبة للدِّرهم فيما يتعلق بالوزن ٣,١٠ جرامات ذى الوزن الخلافى (أى فى عصر الخلافة) وكذلك ٤,٠٨ ، جرامات وكذلك ٤,٦٦ جرامات ، وقد استُخدم النِّموذجان الوزنيان الأخيران فى ملوك الطِّوائف بالمنطقة الشَّرقية من الأندلس .

وهذا الوضع المعقد سيقترن بوجود قيمة أو سعر فى بعض الأحوال منها الدِّرهم المزدوج (أى ضعف درهم) وكذلك أنصاف الدَّراهم .

وهذا التَّنوع فى التَّسميات أو المسمَّيات والنَّماذج أو الموديلات إلى جانب كثرة التَّصميمات وأنماط العملات تَنُمُّ عن بانوراما مختلف تمامًا عن العصر الأموى السَّابق؛ لأنَّ التَّفاوت فى الوزن والجودة للعملات كانا كبيرين للغاية ، كما أنَّ استخدامها كان مفروضًا على أفراد الشَّعب بشكل تعسفى ومأساوى .

وهذه البانوراما الشَّاذة أو غير المنتظمة استمرت بطرح كميات كبيرة من كسور العملات من الذَّهب والفِّضة المخلوطة بالنِّحاس ، وذلك على شكل أثلاث وأرباع الدِّينار، هذا إلى جانب إصدارات أُخرى أكثر أو أقل انتظامًا من الفِّضة أو خليط من الفِّضة والنِّحاس ، كما حدث ذلك من قبل فى العصر الأموى حتى استمر الموديل أو النِّموذج من الذَّهب حيث أشير عليها الكميات المطروحة ، ولكن معظم المدفوعات كانت تتم بالعملة اليومية المعتادة . ومن الواضح أنَّ القيمة الزَّهيدة للدِّرهم فى عصر الطِّوائف أدى إلى بث الثِّقة فى كسور العملات الذَّهبية ، ولهذا نرى أنَّ بعض ممالك الطِّوائف ركزت إنتاجها بشكل أساسى من هذا المعدن النَّفيس كما هو الحال فى عملات دونييس فى طليطلة أو أميرييس فى فالينثيا .

وتجدر الإشارة هنا إلى أنَّ التَّنوع الكبير فى الإصدارات النَّقدية والنَّماذج أو الموديلات للعملة المتداولة يعنى اختلافًا كبيرًا لما كانت عليه العملة من ثبات إبَّان القرون السابقة ، ويمكن القول أيضًا أنَّ الإصدارات الخاصة قد كثرت لعدة أسباب (سواء كانت ضريبية أو استثنائية) التى يمكن أنْ تؤدى إلى تغييرات اضطرارية أو كونها سبل وأدوات الصِّفقات الكبيرة الهائلة .

والضغط الذى عانت منه ممالك الطَّوائف منذ منتصف القرن الحادى عشر الميلادى وضرورة سداد الضَّرائب على شكل عملات وفقًا لما كان متبعًا فى الدُّول الإسلامية بالأندلس ؛ حيث كانت تقوم هذه الدول بدفع ضرائبها إلى الممالك المسيحية بالشَّمال مقابل الحماية والمساعدة والدِّفاع ، وهذه النقطة الأخيرة التى عصفت بتوازن نظمها النَّقدية ومثال للحلول المقترحة فى هذه العلاقات يكمن فى الإصدارات التى قام أحمد المقتدر بسرقسطة عند سداده للضريبة إلى سانشو الرَّابع جارثيس دى نابارًا (بييثير ١٩٨٨ أ) وذلك بالعملة الذَّهبية ، إلا أنَّ الدفع كان يتم بالدَّراهم التى تم إصدارها خصيصًا لهذا الأمير .

واكتشافات عصر الطَّوائف تفيدنا فى تحديد النَّماذج والموديلات المطروحة للتَّداول من عملات هذا العصر ، والنَّماذج أو الموديلات تميل إلى الحفاظ على الخط نفسه أو الاتجاه العام للعصور السَّابقة وذلك بالتَّمييز الواضح بين المعادن ، ويكفى إبراز عملية الاختفاء المطلق للعملة الفضية التى كانت موجودة فى عهد الخلافة التى اختفت تمامًا عقب العصر الحمودى حتى الاكتشافات التى اقتصرت فقط على إنتاج ممالك الطَّوائف من العملات ، كما أن مسألة كسور العملات استمرت بشكل محدد ولكن ببعض القيود المفروضة وفقًا للظروف الضريبية والمالية لهذه العملات .

وتجب الإشارة أيضًا إلى وجود العملة الفاطمية والصَّقلية فى الاكتشافات وخاصة الذَّهبية منها .

وكختام لعصر الطَّوائف يمكننا إيجاز انهيار وتداعى بنية الدَّولة فى عهد الخلافة أيضًا ، والذى ينعكس فى العملة ؛ حيث فقدت معظم خصائصها التى كانت قد تحددت وعُرِفَت فى العصور السابقة ، حيث سيحدث فى غضون سنوات قليلة بعد ذلك تدهور شامل فى إنتاج العملات وتداولها .

ولقد تسببت أزمة الدُّول الإسلامية فى الأندلس فى أثناء القرن الحادى عشر فى تدخل المرابطين وهم أسرة من البربر تجمَّعوا حول حركة دينية (كاسيس ، ١٩٨٥) ، ووجود المرابطين يعنى نهاية ممالك الطَّوائف بالأندلس ، كما أنَّ قوتهم العسكرية أدت إلى تقويض وتقليص القوة العسكرية للممالك المسيحية وإنْ كان ذلك بصفة مؤقتة .

وهكذا فقدت الأندلس استقلالها السِّياسى وبالتَّالى النَّقدى ؛ حيث أصبحت على مدى قرنين من الزمان تقريبًا جزءًا من الإمبراطوريات الأفريقية (المرابطين والموحدين) ومنذ تلك اللحظة فإن تاريخ العملات بالدُّول الإسلامية فى شبه الجزيرة الأيبيرية أصبح وشيج الارتباط أو الصلة بشمال أفريقيا ، وقد كان لهذا الأمر آثارٌ بالغة الأهمية لتاريخ العملات فى الأندلس وكذلك لتأثيراته فى دول أُخرى بشبه الجزيرة الأيبيرية مثل مملكة قشتالة .

وإذا كان تدخل المرابطين سياسيًا فى غاية الأهمية فإنَّه فى مجال العملات لن يقل عن ذلك أهمية بل يزيد ؛ لأنَّ العملة فى هذا العهد أُدْخِلَ عليها كثير من الإبداع ؛ فالعملة المرابطية تعنى العودة إلى النَّماذج أو الموديلات القانونية للعملة فيما يتعلق بدرجة النَّقاء والوزن والإنتاج المنتظم فى العديد من ورش تصنيع العملات (دور سك العملة) إذا ما قارنَّا هذا بالتَّخبط والإضطراب اللذين تميز بهما عصر الطَّوائف فيما يتعلق بالعملات والعملة المرابطية تمثل نموذجًا أو موديلاً كاملاً تتوافر فيه كافة المواصفات الوزنية والقياسية والجودة .

وتتميز الإصدارات المرابطية بالكثرة والوفرة وخاصة الدَّنانير التى أُعدت فى كثير من الورش وقد كان وزن الدِّينار ٤ جرامات ، كما أنَّ كثرة الدَّنانير جعلتها المرجع الأصلى ، وقد كانت لها أهمية بالغة فى العملات الصَّعبة الدَّولية بمنطقة غرب البحر المتوسط طوال النِّصف الثَّانى من القرن الحادى عشر الميلادى والنِّصف الأوَّل من القرن الثَّانى عشر ، وهذه الوفرة فى الذَّهب المسكوك على شكل نقود أو عملات جاء نتيجة السيطرة والتَّحكم فى طرق القوافل الصحراوية ومداخل مناجم الذَّهب فى أفريقيا والسودان .

ولقد تصدَّى المرابطون لإحدى المشاكل التى تعرضنا لها آنفًا ، وهى كسور العملات أو بمعنى آخر نقص كسور العملات ، وذلك بإصدار وحدات العملة من الفِّضة بوزن جرام واحد إلى جانب مجموعة من أجزاء أو كسور العملة ١/٢ ، ١/٤ ، ١/٨ ، ١/١٦ ، مما قدم لشعب الأندلس العديد من التَّسميات، وبالتَّالى أغناهم عن الحاجة إلى إحداث تغييرات أو تخفيض للعملات ، وبالتَّالى استطاع المرابطون إيجاد وضع من الشَّرعية فى إنتاجهم من العملة ، وبهذا قضوا تمامًا على أى نوع من التَّلاعب بها .

وقد نجمت أزمة المرابطين فى شمال أفريقيا على أيدى حركة الموحدين ، وقد تفاقمت عندما تولَّى السُّلطة تاشفين بن على فى عام ٥٣٧ هجرية ١١٤٢ ميلادية ، وقد لقى حتفه على أيدى الموحدين فيما بعد ، كما أنَّ الصراعات والنِّزاعات على خلافة تاشفين بن على عجلت بالفعل اختفاء سلالة أو أسرة المرابطين .

هذا وقد ركَّز الموحدون على تقوية دولتهم عسكريًا فى شمال أفريقيا مما سمح بظهور حركات بديلة فى شبه الجزيرة الأيبيرية لمواجهة الموحدين وهناك عدة تفسيرات أو افتراضات لظهور مثل هذه الحركات منها أنَّ الموحدين استعانوا بالمرتزقة المسيحيين فى مواجهتهم للمرابطين وكذلك هناك افتراض آخر يتعلق بعجز المرابطين فى الدفاع عن الأندلس إزاء ضغوط الممالك المسيحية ، ويجب أنْ نضيف إلى هذا وذاك العداء الصريح أو التَّفاوت الثَّقافى بين شعب الأندلس والموحدين والمرابطين ، وقد اتضح ذلك من المشاكل النَّاجمة عن المعاشرة أو التَّعايش .

وهكذا بدأ عصر تاريخى غامض ومعقد لم تُفَسرهُ المصادر الأدبية تفسيرًا كافيًا، وبالتَّالى فإنَّ العملة تصبح عنصرًا هامًا وإحدى الشَّهادات الموثَّقة لإيضاح المشاكل الزَّمنية والسُّلالية (الأسر الحاكمة) والتَّاريخية التى حدثت فى ذلك العصر .

وبزعامة أحمد بن قاسى دى ميترولا ، حمدين بن محمد دى قرطبة وسيف الدَّولة أحمد عبد الملك بن هود وابن وزير وآخرين مرموقين ، وقد تبع هؤلاء كثير من المتمردين الثَّائرين على المرابطين مما أدى إلى امتداد التمرد فى أرجاء الأندلس وقد طلب هؤلاء مساعدة الموحدين ، وبالتَّالى وضعوا أقدامهم فى شبه الجزيرة الأيبيرية ولكنهم وجدوا معارضة شديدة من جانب جماعات المتمردين الذين كانوا قد طلبوا نجدتهم ، ولم ينج من ذلك إلا ابن ماردينيس فى سيطرته على مورثيا وفالينثيا .

وقد قام هؤلاء الحكام المستقلون بتقليد النَّماذج والموديلات النَّقدية التى كان قد أدخلها المرابطون ، والتى نالت شهرة كبيرة وصيتًا عظيمًا وسيقوم هؤلاء الحكام بإصدار دنانير فى مدن مثل غرناطة وقرطبة ومورثيا وفالينثيا ومايوركا وجيان وسيلبيس ، وقد أصدروا أيضًا عملات فضية القراريط وكسورها .

لقد كان لعملات المرابطين والذين خلفوهم تأثيراً هائلاً فى عملة مملكة قشتالة التى اعتادت على استخدام الدِّينار المرابطى وعندما لم يتم تزويد المملكة القشتالية بهذه الدَّنانير المرابطية فقد فضلَّت سك عملة تُقَلِّدُ فى شكلها الخارجى ووزنها ، ولكن بتغيير المضمون الدِّينى للكتابات التى كانت بالعملات المرابطية ؛ ولهذا فقد اختار ألفونسو الثَّامن لسك العملة على غرار العملة التى كانت موجودة عقب عصر المرابطين (وعلى وجه التَّحديد لابن مارانيس) بعد إدراج رموز مسيحية مثل الصليب إلى جانب الكتابات العربية ولكن بتغيرات جوهرية فى النَّص حيث حلت الكتابات المسيحية محل الكتابات القرآنية أما فيما يتعلق بالوزن فلم يتغير كثيراً عن النَّموذج أو الموديل المرابطى ، وقد أدى هذا إلى وجود عملة تسمى " مرابيدى " ؛ حيث أصبحت من أهم التَّسميات الكلاسيكية والتقليدية للعملة القشتالية والإسبانية .

هذا وقد خلف الموحدون المرابطين فى شمال أفريقيا، وقد توسَّعت دولة الموحدين وضمت إليها الأندلس ، وقد أدى هذا إلى تقويض بل فرملة التوسع المسيحى ، ونعنى بذلك توسع الممالك المسيحية فى أراضى الأندلس .

وفيما يخص الإصدارات النَّقدية للموحدين فإنَّ العملات فى عهدهم قد انتابها تغيير جذرى فى مظهرها وشكلها سواء كان ذلك فى الدِّرهم أو فى الدِّينار .ومن وجهة النَّظر التَّاريخية فإنَّ العملات الموحدية قد خلت من تاريخ السَّك ، ولكنها مع ذلك دُوِّنَ على الذَّهبية منها أسماء سلف الحاكم واسم من سك العملة ، وهذه الخاصية تعتبر مصدراً مهماً للمعلومات التكميلية الإضافية .

وسيكون لهذه العملات تأثير كبير فى مثيلاتها بالممالك المسيحية وخاصة مملكة قشتالة ، وهكذا قامت هذه الممالك بإصدار عملات ذهبية على شكل الدِّينار ووزنها ٤,٦٨ جرامات ، وقد سُمِّيَ " دوبلا " فى مملكة قشتالة التى اتخذت من العملة الذَّهبية نموذجاً لإصداراتها إلى جانب $\frac{١}{٢}$ و $\frac{١}{٤}$ س دينار ، وهذه القطع الذَّهبية هى التى ستتخذها مملكة قشتالة لإصداراتها الذهبية منتهجة بذلك وحدتى القياس والوزن الإسلاميتين ، كما حدث ذلك أيضاً فى فترة سابقة عند قيام هذه الممالك بتقليد عملات

المرابطين ، وهذه النَّماذج أو الموديلات ستستمر فى العملة القشتالية حتى التَّعديلات التى سيدخلها الملوك الكاثوليك .

وفيما يتعلق بالفِّضة فقد أدخلوا الدِّرهم بشكل مربع بوزن قدره ١,٥٦ جرام مقترنًا بكسوره نصف الدِّرهم وربع الدِّرهم (فونتيلا ، ١٩٨٨ ، رودريجيث مارينهو ١٩٨٦) .

وكما حدث مع العملة المرابطية ، فإنَّ إصدارات الموحدين قد أمدَّت شبه الجزيرة الأيبيرية بقطع ذهبية وفضية من العملات مما مهد الجو لظهور تقليدات للدرهم الموحدى فى مدن بفرنسا وإيطاليا (على شكل المدعو مياريس) ، وكذلك اتخاذ الذَّهب كما ذكرنا سلفًا لكى يكون نموذجًا أو موديلاً للعملة القشتالية .

و كما حدث فى عهد المرابطين فإنَّ إمبراطورية الموحدين شهدت انهياراً وتدهوراً من جرَّاء تمردات بنى مارين أو تمرد الحفصيين فضلاً عن المواجهة المستمرة بين المرابطين مع قشتالة فى الأندلس مما أدى إلى ظهور طوائف الموحدين فى شبه الجزيرة الأيبيرية وهذه الطَّوائف ظهرت لمواجهة سلطة الموحدين ؛ حيث عاد أفراد من الأسر الكلاسيكية الأندلسية إلى تولى السُّلطة والحكم وقد أصدر هؤلاء عملات بأسماء العديد من الشَّخصيات فى أماكن مثل فالينثيا الجارابيوأشبيلية أو سبته ، وقد اعترف هؤلاء فى بعض الأحوال بحكم الحفصيين فى تونس ، وأهم هؤلاء جميعًا هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود فى مورثيا فى الفترة من ٦٢٥ – ٦٦٨ هـ / ١٢٢٨ – ١٢٧٠ م . وقد استقلت فى تلك الفترة مملكة غرناطة عن الهوديين فى مورثيا ، وذلك بالاستعانة بالحفصيين فى تونس أو بالعباسيين فى بغداد ، كما أعلنت تبعيتها لملكة قشتالة لضمان بقائها .

والسلالة أو الأسرة النَّصرية فى غرناطة كانت خاتمة العملات الإسلامية فى شبه الجزيرة الأيبيرية ، وقد اتبعت نهج النَّماذج الأصلية للموحدين ، وأسر أخرى بشمال أفريقيا مثل الحفصيين (رودريجيث ١٩٨٣ ، رودريجيث ، فونتيلا ١٩٨٨) ، وطوال تاريخها نجد أنَّ هذه الأسرة قد أصدرت عملات بالمسمَّيات الثَّلاث : الدِّينار والدِّرهم والفيلوس النَّحاسية ، كما عرفت هذه الأسرة أيضًا العملة الفضية المخلوطة بالنَّحاس

ولكن فضة العملة الأخيرة كانت رديئة ، وكانت كل هذه العملات باستثناء الفيلوس كانت تطابق موديلات ونماذج عملات الحفصيين ؛ والموحدين وإنْ كانت موديلات الموحدين تفوق بكثير نماذج الحفصيين حيث شهدت عملة الموحدين تطوراً فى الكتابة أثَّر فى توزيع النُّقوش أو الكتابات على وجهى العملة .

وكانت الدِّينارات تزن ٤,٦٠ جرامات ، أمَّا نصف الدِّينار فكان يزن ٢,٣٥ جرامًا مع وجود بعض القطع الصَّغيرة من الذَّهب المسمَّاة الدَّنانير الصغيرة (الدِّيناريـنز) ، وكانت مربعة الشَّكل وأوزان ضئيلة لم تتجاوز ٠,٢٠ جرامًا ، أمَّا الدِّرهم فكان يصدر درهمًا ونصف درهم وربع درهم وثمن درهم بأوزان ١,٥٠ ، ٠,٧٥ ، ٠,٥٥ ، ٠,٢٦ جرامًا على التَّوالى ، وكل هذه العملات كانت تحافظ على الشَّكل المربع لدرهم الموحدين ولكن بتغييرات فى الكتابة لتواكب عصر الإصدار .

أمَّا بالنِّسبة للعملة النَّحاسية (الفيلوس) فقد عاد إلى الظُّهور من جديد بعد فترة توقف طويلة لم يكن بين العملات المسكوكة والمطروحة للتَّداول ، وكانت الفيلوس النَّصرية تتميز بشكلها الخاص المتعدد الزَّوايا ؛ حيث كانت السَّبائك تقطع قبل سكها بدون أسماء الأمراء ولكن كان مدونًا عليها اسم دار السَّك وتاريخ الإصدار فى الفترة من ٨٧٩ إلى ٨٩٤ هجرية .

وهكذا كانت العملة الإسلامية فى الأندلس إبَّان القرنين الثَّانى عشر والثَّالث عشر الميلاديين نموذجًا يُحتذى بالنِّسبة لعملات مملكة قشتالة وليون ؛ حيث شهدت عملتا هاتين المملكتين تطوراً مميزًا اختلف عما كانت عليه العملات فى ممالك أُخرى بشبه الجزيرة الأيبيرية وباقى أوروبا ، والتى لم تضاهها حتى القرن الخامس عشر .

وداخل الدُّول الأوروبية الغربية نجد أنَّ العملة الإسلامية بالأندلس تمثل مجموعة استثنائية فريدة نظرًا لأهميتها فى التَّاريخ السِّياسى والاقتصادى لشبه الجزيرة الأيبيرية ، ولكونها تمثل حالة فريدة فى إطار الإصدارات النَّقدية التى اختلفت فى تطورها عما كانت عليه فى باقى الدول الأوروبية .

المراجع

(١) ألفارو أسينس ، ث . ، ١٩٩٢ " مجموعة العملات الإسبانية - العربية " محاضر ندوة العملات الإسبانية - العربية ، مدريد ، ص ٣٩ - ٧٥ .

(٢) بلاجير ، أ . م . ، " إصدارات العملات العربية - الإسلامية فى إسبانيا " برشلونة ، ١٩٧٦ .

(٣) بارثيلو . م " فى العملات الذهبية فى الأندلس " ١٢٧ - ٣١٦ / ٧٤٤ (٥) - ٩٣٦ (٧) العملة والقرض / ١٣٢ ، ١٩٧٥ .

(٤) بارثيلو ، م . ، " العملات الأندلسية أثناء الإمارة الأموية " (١٣٨ - ٣٠٠) العملات والقروض ، ٨ ، ٣١٣ - ٣٢٣ ، ,١٩٧٩

(٥) بارثيلو ، م . ، " دراسة عن الهيكل المالى والعمليات الحسابية فى الإمارة الأموية فى قرطبة " (١٣٨ - ٣٠٠ / ٧٥٥ - ٩١٢) والخلافة (٣٠٠ - ٣٦٦ / ٩١٢ - ٩٧٦) أكتاميديفاليا (محضر العصر الوسيط) (١٩٨٤ - ١٩٨٥) ، ٥ - ٦و٤٥ - ٧٢ .

(٦) بارثيلو ، م . ، ١٩٨٨ ، أشكال العملات الإنتاج الجديد للعملات والممارسة المالية الإدارية أثناء الخلافة الأموية ، مشاكل العملات فى شبه الجزيرة الأيبيرية . ٣ سانتاريم ١١٧ - ١١٨ .

(٧) بارثيلو ، م . ، العملات فى عهد ملوك الطوائف ، دوفارتير / ريفتيرو (١٩٩١) ١٥ - ٢٤ .

(٨) باتيلس . م . ل " العملات فى إسبانيا أثناء الخلافة الأموية فى الشرق " ٧١١ - ٧٥٠ محاضر الملتقى الثالث ، مدريد ١٩٩٠ .

(٩) البرتو كانتو " الإصلاح النقدى للملك القاسم " القنطرة ، ٧ ، (١٩٨٦) ٤٠٣ - ٤٢٨ .

(١٠) البرتو كانتو " المسائل الاقتصادية والعملات الأندلسية " أراجون فى العصر الوسيط القرن التاسع (١٩٩١) سرقسطة ٤٢٩ - ٤٤٤ .

(١١) كانتو ألبرتو مارسال . م . " العملات الفضية فى الإمارة الإسبانية " مشاكل إصدار العملات فى العصور الوسطى فى شبه الجزيرة الأيبيرية ٢ (١٩٨٦) أفيليس ، ١٦٧ - ١٨٠ .

(١٢) البرتوكانتو " حجم إنتاج الدراهم فى الأندلس أثناء السنوات العشر من ٣٣٠ هـ إلى ٣٤٠ هـ " مشاكل إصدار العملات فى العصور الوسطى فى شبه الجزيرة الأيبيرية ٣ ، (سانتاريم ، ٩١ - ٩٨) ، كانت وألبرتو مارسال ، " العثور على عملات من عهد الإمارة (غرناطة) ، القنطرة ، ٩ (١٩٨٨) ٤٢٩ - ٤٧٠ .

(١٣) كانت و ألبرتو " إصدارات العملة الفضية فى الأندلس ومدينة الزهراء أثناء الخلافة القرطبية " فى الفترة من ٣٢١ هـ إلى ٣٩٩ هـ / ٩٣٣ - ١٠٠٨ م ، مجلة العملات ، ٩٤ ، ٩٥ (١٩٨٩) ٤١ - ٥٤ .

(١٤) كانت و ألبرتو " العملات فى إسبانيا خلال القرن الثامن ملوك الطوائف " إشراف : رامون مينينديث بيدال ، مدريد ، ١٩٩٤ .

(١٥) دومينتش ث . " تداول العملات النقدية فى عصر الإمارة ببالينثيا " مشاكل الإصدار الأولى من النحاس ، المحاضر التمهيدية للمؤتمر التاسع للعملات ، العملات الوطنية ، إيلشى ، ١٩٩٤ (صحافة) .

(١٦) أويستاتش . د . " العملات العلوية تاريخ العملات فى المغرب القرن الرابع " بنك المغرب ، الرباط ، ١٩٨٤ .

(١٧) بيدرو تشالميتا " دقة العملات الأسبانية - العربية (الدرهم القاسميوالدرهم العربانى " JESHO) ٢٤ ، ٣ (١٩٨١) ٣١٦ - ٣٢٤ .

(١٨) بيدرو تشالميتا " الدرهم العربانى ، القرطبى ، الأندلسيوقيمته " أكتانومانيستيكا (مجلة محضر العملات) العدد ١٦ (١٩٨٦) ١١٣ - ١٢٦ .

(١٩) بيدرو تشالميتا " إعفاء العملات من الضرائب والرسوم بالأندلس " مجلة الدراسة العربية ، العدد ٥ ، ٦ (١٩٨٦ ب) ١٥٥ - ١٦٦ .

(٢٠) بيدرو تشالميتا " العملات النقدية والعملات المالية " وثائق الإسلام فى العصور الوسطى ، طايل ، ٢٩ (١٩٩١) ٦٥ - ٨٨ .

(٢١) بيدرو تشالميتا " الغزو ونشر الإسلام " مافرى ، ١٩٩٤ .

(٢٢) فوتنيلا بابيستا . س . ، العملات المرابطية ، اللقاء الأول ، سرقسطة (١٩٨٨) ٦٧ - ٨٨ .

(٢٣) جويتشارد . ب . " تأملات حول العملات الأولى لملوك الطوائف الأندلسيين " (١٠٠٩ / ٤٠٠ - ١٠٥٩ - ٤٥١) اللقاء الثانى ، ليريدا ، ١٥٥ - ١٦١ .

(٢٤) هازارد اتتش . دبليو . " تاريخ العملات فى العصور الوسطى المتأخرة فى شمال أفريقيا " مجلة العملات الأمريكية (أمريكان نوميسماتيك سوسيتى) نيويورك ، ١٩٥٢ .

(٢٥) كاسيس ، إتش ، إى " ملاحظات على العقود الثلاثة الأولى لأسرة المرابطين ، ٤٥٠ - ٤٨٠ هـ ، ١٠٥٨ - ١٠٨٨ م " دراسة للعملات ، مجلة الإسلام ، العدد ٦٢ (١٩٨٥) ٣١١ - ٣٢٥ .

(٢٦) كاسيس ، إتش ، إى " العملات وتاريخ نماذج العملات فى الإسلام الغربى " المؤتمر العاشر للعملات (١٩٨٥) ، لندن ، ٤٠٩ - ٤١٦ .

(٢٧) كاسيس ، إتش ، إى " طوائف المرابطين " اللقاء الثانى (١٩٩٠) ليريدا ، ٥١ - ٩٢ .

(٢٨) ميدينا . أ . " عملات إسبانية إسلامية " كتاب القراءات والتصنيفات ، طليطلة ، ١٩٩٢ .

(٢٩) مايلز ج .، ث . " إصدار العملات الأموية فى إسبانيا " نيويورك ، ١٩٥٠ .

(٣٠) نونان ت إتش . " بداية أزمة الفُضة فى الإسلام " دراسة مقارنة بين آسيا الوسطى وشبه الجزيرة الأيبيرية " مشاكل إصدار العملات فى شبه الجزيرة الأيبيرية ، ٣ ، سانتاريم (١٩٨٨) ١١٩ – ١٤٤ .

(٣١) ديكسو تو كابرال غ . ، م . ، ساينز دييث . غ . ، إى . " الدراهم الفضية أثناء العصر الثورى للخلافة الأموية فى إسبانيا " مشاكل إصدار العملات فى العصور الوسطى فى شبه الجزيرة الأيبيرية ، ٢ / أبيليس (١٩٨٦) ١٦٧ – ٢٠٦ .

(٣٢) ديكسو تو كابرال غ . ، م . ، رودريجيث مارينهو ، غ . " تحليل لإصدارات المرابطين من العملات الفضية " مشاكل إصدار العملات فى العصور الوسطى فى شبه الجزيرة الأيبيرية ، ٣ ، (١٩٨٨ أ) ١٤٥ – ١٧٤ .

(٣٣) بيسثير ، غ . " تأملات فى الوثيقة المتعلقة فى سداد ديون أحمد المقتدر فى سرقسطة إلى سانشو الرابع جارثيس فى ابارًا " مشاكل إصدار العملات فى العصور الوسطى فى شبه الجزيرة الأيبيرية ، ٣ ، (١٩٨٨ أ) سانتاريم ، ١٩١ – ٢٠٨ .

(٣٤) بيسثير ، غ ." إصدار العملات الفضية باسم هشام الثانى المؤيد بالله (٣٦٦ – ٤٠٣ هـ / ٩٧٦ – ١٠١٣ م) " مشاكل إصدار العملة فى العصر الوسيط فى شبه الجزيرة الأيبيرية ، ٢ ، (١٩٨٦) أبيليس ١٨١ – ١٩٦ .

(٣٥) بيسثير ، غ ." دراسات لإصدارات مختلفة لدار سك النُقود بمدينة الزهراء وتقدير العملات (٣٤٠ – ٣٥١ هـ / ٩٥١ – ٩٦٢ م) " إيقاع الإنتاج النُقدى (١٩٨٨ ب) باريس .

(٣٦) بريتو إى بيبيس ، أ. " ملوك الطُوائف " مدريد ، ١٩٢٦ .

(٣٧) رودريجيث لورينتى ، غ . غ . ، العملات النصرية " مدريد ، ١٩٨٣ .

(٣٨) رودريجيث لورينتى ، غ . غ . ، فونتنيلا ، س . ، الفُضة النصرية إسهام الإسلام فى إسبانيا فى تطور ودقة وزن العملات ، مشاكل إصدار العملات فى العصور الوسطى فى شبه الجزيرة الأيبيرية ، ٣ ، سانتاريم ، ٢٣١ – ٢٤٢ (١٩٨٨) .

(٣٩) رودريجيث مارينهو ، غ ، بيسوتو كابرال .ح . م . " الدُراهم الفضية فى عهد هشام الثُانى فى عام ٤٠٣ هـ (١٠١٢ – ١٠١٣ م) " مشاكل إصدار العملات فى العصور الوسطى فى شبه الجزيرة الأيبيرية ، ٣ ، (١٩٨٨) ، سانتاريم ، ٩٩ ، ١٠٦ .

(٤٠) رودريجيث مارينهو ، غ " العملات التى أصدرها أحمد بن قاسى وبداية سمات ومميزات الإصدارات النُقدية للموحدين " مشاكل إصدار العملات فى العصور الوسطى فى شبه الجزيرة الأيبيرية ، ٢ ، (١٩٨٦) ٤٣ – ٥٨ .

(٤١) ساينز – دييث ، غ . إى . " إصدار العملات النُقدية فى خلافة قرطبة فى شمال أفريقيا " مدريد ، ١٩٨٤ .

(٤٢) بيبيس إيسكوديرو ، أ . " عملات الأسر العربية الإسبانية " مدريد ، ١٨٩٣ .

الفصل الخامس

المصوغات غير الذَّهبية بالأندلس
مقابر باب البيرا

إعداد : إدواردو فريسنيدا باديا ، مانويل لوبيث ،
إيماكولادا أليمان أجيليرا ، أنخيل رودريجيث أجيليرا ،
خوسية مانويل بينيا رودريجيث .

كانت للجواهر مكانة مهمة فى نفوس الشُّعوب فى الماضى السَّحيق . وفى النُّصوص التَّاريخية والأدبية تَبيَّن أنَّ المسلمين قد استخدموا المجوهرات أيضًا ، ويكفى للتدليل على ذلك أنَّ أول قطع من المجوهرات غير الذَّهبية بالأندلس صنعها الحرفيون المستعربون (المسيحيون الأندلسيون) وفقًا للعرف الإسبانى القوطى . وبعض المؤلفين ومن بينهم ابن إدارى جمعوا معلومات قيمة عن التِّجارة ووصول مجوهرات قادمة من المشرق . وكذلك ابن حوقل يحكى عن كثرة القطع غير الذَّهبية التى كانت لدى عبد الرحمن الثَّالث فى قرطبة . وفى هذا الصدد فإنَّه من المعروف بواسطة المقتبس أنَّ هذا العاهل اتخذ حزامًا من الذَّهب المرصع بالأحجار الكريمة والقسطل النَّفيس . وإبَّان هذا العصر فإنَّ عددًا كبيرًا من اليهود قد عُهِدَ إليهم بصناعة الحُلى والمجوهرات من مختلف المعادن (فضة وذهب) لسيدات قرطبة من الطَّبقة العليا (الأرستوقراطية) ؛ ولذلك فإنَّ استخدام المصوغات لتزيين الملابس والعمائم والقروط لم يكن حكرًا على مجتمع النساء فقط ؛ لأنَّ استخدامها وفقًا للشاعر ابن درَّاج القسطلى كان شائعًا بين بعض الشَّخصيات الملكية فى فالينثيا فى أثناء القرن الحادى عشر .

وفى القرن الحادى عشر الميلادى كان يُفضل استخدام الأحجار شبه النَّفيسة مثل العقيق الأحمر والزِّركون والزَّبرجد .وقد أشار ابن الخطيب أيضًا إلى استخدام

الأحجار شبه النَّفيسة فى عصر النَّصريين فى جواهر الأسر النَّبيلة وأسر البلاط الملكى مثل الزَّركون والزُّمرد واللآلئ والياقوت الأصفر، وقد أشار أيضًا إلى تفضيل السيدات المسلمات للمجوهرات من الذَّهب الخالص بين أبناء الطَّبقات الأرستوقراطية ومن الفضة بين نساء الطَّبقات المتواضعة (أر بى ١٩٨٤ : ٢٩٩).

وهذه الإشارات التَّاريخية تسمح بالاقتراب من المستوى الاجتماعى الاقتصادى للمتزينين بالجواهر وكذلك التَّمييز بين مختلف المعادن المستخدمة فى صنعها .

ولعلَّ أفضل مرجع تعرض لتنوع المجوهرات المستخدمة فى نهاية العصر النَّصرى وأثناء الحقب الأولى من القرن السَّادس عشر يتمثل فى الوثائق الموجودة فى أرشيف الحمراء وفى كتاب بيريث دى ايتا (مارتينيث ١٩٦٧) .

والسَّابقات الأولى بشأن اكتشاف أحجبة من العصر الإسلامى نجدها موثَّقةً فى غرناطة إبَّان العصر أو القرن الحالى .وقد تُّم الاكتشاف بعد فتح أساس منزل كائن أمام قبو محراب الكاتدرائية وقد تمثل الاكتشاف فى إناء بداخله العديد من عملات المرابطين والموحدين وبينها العديد من الأحجبة النُّحاسية ذات النُّقوش تَدُلُّ على التَّقوى والحماية .وفى تلك اللحظة نجد أنَّ فرناندو دى باولا جمع هذه الأحجبة ، والتى كان يحملها الأشخاص المدفونون فى مقبرة ترينفو (بيادار : ١٩٠٥) والمؤلف عندما أشار إلى التَّوافق وتشابه كلا الاكتشافين ، وأضاف أنَّ الحفريات التى تمَّت بالمنطقة أدَّت إلى اكتشاف أكثر من عشرين نموذجًا دون التمَّكن من تصنيفها وطبقًا لما أورده بيادار (بيادار ١٩٠٥ : ٦٦) فإنَّ الحجاب أو التَّميمة كانت عليها نقوش تدل على المدح والثَّناء على وجهيها .

كما أنَّ العثور على بعض القرط فى المدافن جاء نتيجة الحفريات بالمدافن الإسلامية فى توريثيا (أريناس ديل رى ، غرناطة) (وفقًا لما أورده أرِّيباسوريو ، ١٩٧٩ : ٣١) ، والتى مميزاتها الشَّكلية تتوافق مع الموجودة فى هذا الكتاب .

كما أنَّ الحفريات التى تمَّت فى مقبرة المسلمين بباب البيرا سواء بطريق الدَّستور – النصر كما بالمستشفى الملكى سهلت عملية توثيق بعض القطع ذات الزِّينة الشخصية مثل القُرط والخواتم والأحجبة والدَّلاَّيات من العصر الأندلسى .

وعند التَّطرق إلى الدِّراسة الخاصة بالقطع المعدنية ، وفى محاولة لإيجاد أوجه شبه كان من الضرورى البحث عن قرائن ثقافية قريبة يمكن العثور عليها فى شمال أفريقيا لفهم عالم المعتقدات ومظاهر السِّحر والتَّبين التى كانت سائدة فى العصر الأندلسى ٠

إنَّ حفريات مدافن مدينة غرناطة وقطع التَّزين الشخصية (الحُلى الشخصية) تمثل العناصر الشَّائعة ، والتى برز من بينها الحلقان أو القرط ، كما أن نظام إغلاق هذه الحلى كان متشابهًا ؛ فالنظام المستخدم بسيط فى ميكانيكيته ، ويتم ذلك بتوصيل أحد الأطراف بالطرف الآخر ثم يثنى أو يطوى عند الطرف الآخر حتى يمنع سقوط أو فقدان الحلية ٠

إنَّ الحلقان ذات أشكال دائرية ، وهى مصنوعة من خيط معدنى فى البداية ، ويمكن التمييز بين ثلاثة أنواع :

(١) الحلق من النُّحاس المذهَّب ، والذى يتراوح قطره ما بين ٢٢ إلى ٢٥ مليمتر ٠

(٢) الحلق الفضى ، وهناك نموذجان : أحدهما قطره يتراوح ما بين ١٥ إلى ٢٠ مليمتر وهو الأكثر شيوعًا ، والآخر قطره ٢٥ مليمتر ٠

وقد لُوحِظَ فى القروط أو الحُلقان المميزات الشكلية القياسية والمواد المستخدمة فى صنعها ، ونتيجة هذه التكوينات تشير إلى القيمة الاقتصادية لنفس الحُلية أو الجوهرة وأهمية الشخص الذى يرتديها ، وكذلك لكتابة الحفظ المنقوشة عليها عندما يجمع بينها فى حلية واحدة وفيما يلى المجموعات التى استقر الرأى بشأنها :

فمن بين الحُلقان التى أدخل فيها خيط معدنى نجد أنَّها تتنوع وفقًا للمعدن المستخدم ، وعمومًا توجد أفضلية ما بالخرز المعدنى كما يستخدم الخرز أيضًا من الزُّجاج والأصداف ، ومن بين الخرز المعدنى نجد المصنوع من النُّحاس المطلى بالذَّهب وتسود الخرزة السَّطحية ذات الفصوص أو الحبوب ، والتى تذكرنا بتشابهها مع ثمرة التُّوت ، وهذا النَّموذج أيضًا يصنع من الذَّهب (HR ٣٠٠ ١٢) .

وعادة ما تكون الخرزة منقوشة بأربعة قواطع أو فواصل قطرية فى كل غطاء ، وهى كائنة حول محور الثُّقب وهى توحى بكونها صليب مزدوج ٠

وفى مجموعة القروط أو الحلقان المكونة من عنصرين متداخلين فإنَّ مجموع هذه العناصر العديدة من التَّشكيلات لقطع الحُلِّى ، ولهذا فإنَّه تسود التَّشكيلات البسيطة وذلك بإدراج خرزتين من المعدن أو من الزُّجاج أو من خليط من الزُّجاج والمعدن ، ويبرز بين قطع هذه المجموعة قرطٌ بخرزة معدنية على شكل شبه منحرف أو معين بثمانية قواطع أو فواصل قُطرية وتمثيل ليد القديسة فاطمة (HR ١٣٤٧٤ أ ، ب) .

عقد أو قلادة :

وأمَّا مجموعة القروط أو الحلقان التى تتركب من ثلاثة عناصر متداخلة ؛ فهى تُمَثِّلُ كثرة تفوق سابقتها ، ويتم التَّمييز بين بعض النَّماذج الأساسية ؛ حيث إنَّ تنوع المواد يتيح المزيد من التَّشكيلات الجمالية كما هى الحال فى القرط ذى الخرزة الزُّجاجية والخرزتين المعدنيتين فى المحيط وهما ذوات فصوص وهى الأكثر شيوعًا، وهذه التركيبة تعانى من بعض التغييرات فى نظام تركيبها ؛ ففى بعض الأحيان نجد أنَّ الخرزة الزُّجاجية توجد بين الخرزتين المعدنيتين أو فى أحد الطرفين ، وهناك بعض القروط بها خرزتان زجاجيتان توجد كل منها فى أحد طرفى القرط ، أمَّا الخرزة المعدنية فتقع فى المنتصف بينها أو بخرزتين معدنيتين ذات فصوص فى المحيط عند الطَّرفين وصدفة فى الوسط .

وفى هذه المجموعة تبرز القروط أو الحلقان ذات الخرزة المعدنية الخارجية ذات الفصوص فى الوسط وخرزة زجاجية وأُخرى معدنية توجد كل واحدة منها فى أحد الطرفين (HR ١٥١٧٨ – AYE) .

أمَّا المجموعة ذات الأربعة عناصر المتداخلة فإنَّها إلى جانب تقديم مزيد من التَّشكيلات الجمالية فإنها ذات مغزى مفهومى إلى حدٍ ما ، فإنَّ وجود عنصرين معدنيين فى الوسط وزجاجيين فى الأجناب هى السَّائدة والشَّائعة ، فالنَّتيجة الجمالية للتَّكوين تشير إلى نموذج مفهومى يقوم على التَّناسب ، وعلى الرغم من ذلك فإنَّ التَّنوع يُوَثَّق عندما يتم استبدال خرزة جانبية بأُخرى صدفية (أ ، ب ٣٠٢٥ TR) .

فى هذه الحالة فإن الإطار المفهومى الرَّمزى الخاص بالحماية أو الحفظ نظراً لوجود الصَّدفة يؤدى إلى عملية انفصال أو انكسار للنِّظام التَّناسبى .

أما فى مجموعة القروط المكونة من أكثر من أربعة عناصر فإنَّها تبرز من النَّاحية الجمالية ليس فقط لوجود نموذج واحد بل نظراً لعدد العناصر المستخدمة فى صنعه وطبيعة كلٍ منها ؛ فهو ذو صناعة متطورة وبه ١٣ خرزة زجاجية خارجية تحيط بأُخرى من الزِّركون كبيرة الحجم ، وتوجد فى المنتصف ذات اللون الأحمر شفافة ولها ٢٠ مستوى .

الدبل – الخواتم التى تمَّ تصنيفها فإنَّها تمثل ثلاثة أنماط ذات طُرقٍ صناعة مختلفة ، وتبرز منها الدِّبلة الدَّائرية أو المستديرة (HR13432 و HR1620) الأكثر عرضًا وسمكًا فى منطقة الوسط ، وهذا السُّمك له شكل بيضاوى أو دائرى ، واتحاد الطُّرفين يتم بإخفاء هذين الشَّكلين أو يتم وصل الطرفين بطريق التَّقابل لكى ينطبقا بدقة كبيرة ، ويتم الوصل فى كلتا العمليتين بواسطة لحام لمنطقة الوصل .

وهناك نماذج أُخرى تُمثل حجر ثمين وخرزة من الزُّجاج ذات اللون الأزرق القاتم (HR14143) أو بدون لون (١٣٣٠١ HR) .

وهناك نموذج موثق وهو المشبك أو الأبزيم (١١١٤ TR) والخاص بتعليق بعض الملابس مثل العباءة التى تغطى الصَّدر . إنَّ النَّموذج الذى يعنينا فى الحقيقة له مميزات شكلية واضحة مما يجعله يماثل أو يشابه المشابك أو الأبازيم الإسبانية الرومانية ذات القوس أو التى على شكل قوس .

والحفريات تمكنت من توثيق قلادة أو عُقد (٤٠٣٤ – خ TR4) المكون من عشر خرزات من الزُّجاج، وهى ذات ألوان متعددة (الأبيض والأسود والتركوازى والأمغر) ويمكن القول وفقًا للمصادر التَّاريخية إنَّهُ تم استخدام المنسوجات ، وعلى سبيل المثال " الحرير " لنظم مثل هذا النوع من الحُلى ، ولهذا فإنَّ النَّسيج لم يتم حفظه .

أما الدَّبابيس الموثقة فهى بسيطة فى شكلها فهى عبارة عن دبوس من النُّحاس شبه المبروم فى أحد طرفيه كرأس للدَّبوس ووجوده فى المدافن إلى جوار جمجمة يجعلنا نفكر فى أنه كان يستخدم لتثبيت بعض التَّسريحات أو الكفن فوق الرأس .

ومن بين الأحجبة والدلاّيات ذات المغزى الرّمزى يبرز نموذجان الأول : على شكل مثلث ذى اللون الأسود (ب – ١٣٤٢٤ – HR) طوله ١٦ مليمتر وسمكه ٥ مليمتر ذو أطراف مستديرة وهو مثقوب بالطول . أما المثال أو النّموذج الثّانى فهو عبارة عن صفيحة أُخذت من صفيح مدلفن وصُنِعَ من الرُّصاص بزخارف كتابية فى الوجه والظهر (١٢٠٤٠ HR) .

ومن بين المواد المستخدمة فى صنع هذه الحلى الخاصة بالزّينة ضمن مجموعات المعادن يبرز النُّحاس كعنصر شائع الاستخدام نظرًا لسهولة ويُسر الحصول عليه إلى جانب سهولة صهره ، وقد استخدم فى القروط والحلقان والمذهّبات . إنَّ تذهيب المعادن أى طلائها بالذّهب (قد عُثِرَ عليه أيضًا فى المغرب خلال العصر الحالى) (EUDEL 1902) أمَّا العناصر المعدنية الأُخرى الأقل استخدامًا فقد تمثّلت فى الذّهب والفضة .

إنَّ استخدام الفضة يُعَدُّ رمزًا للطهارة والنقاء إذا لم يتم تقدير قيمتها الاقتصادية. ومن النّادر جدًا استخدامها دون خلطها بالمعادن الأخرى مثل النُّحاس والرّصاص والقصدير .

أمَّا الزُّجاج فهو عنصرٌ يكثر استخدامه فى تزيين المجوهرات ، وذلك بملأ الحجر المعدنى للخاتم أو الدبلة أو على شكل مستدير كخرزة من مكونات قُرط أو قلادة .ومن الشّائع استخدام الزُّجاج الملون بالعديد من الأكسيدات المختلفة ، أو الكربونات مثل المنجنيز والنُّحاس والحديد والكوبالت للحصول على درجات ألوان متعددة ، ولكنَّ الأكثر استخدامًا يكمن فى الخرزات الزُّجاجية المعتمة ذات اللون التُّركوازى (الفيروزى).

وهناك عناصر أُخرى شائعة الاستخدام مثل الرَّخويات البحرية نظرًا لقيمتها التِّجارية العالية وكذلك الجيرية ، ومن بين الأحجار شبه النَّفيسة ثبت استخدام حجر الزَّركون وذلك لتقليد بعض الأحجار النَّفيسة التى كانت تستخدم فى تلك الفترة ، وفى هذه الحالة يمكن أن يُعَدَّ القسطل من بين هذه الأحجار ، وهو متنوع مثل الزَّركون ذى اللون الأحمر البرتقالى الشفاف اللامع كلمعان الزُّجاج وذى الشكل المخروطى .

إنَّ دراسة القروط والحلقان تسمح بالتَّعرف على طريقة العمل المستخدمة بواسطة الحرفيين أو الفنانين اليدويين الذين كانوا يهتمون بالمصنوعات أو المجوهرات غير الذَّهبية ، وكذلك للتَّعرف على المستوى الفنى الذى وصل إليه هذا النَّشاط الحرفى فى الأندلس .وفى هذا يُرجع إلى التَّوثيق الأثرى وكذلك للمعلومات الخاصة بدراسة السُّلالات البشرية التى تمَّت فى شمال أفريقيا وعلى وجه التحديد فى المغرب والجزائر (رواتس ١٩٨٩ وبوخيخا ١٩٣١) .

فهناك بعض المؤلفين الذين أبرزوا مدى هذا التَّشابه بين هذه القطع ونماذج ترجع إلى العصر ما قبل الرُّومانى (جوميث مورينو ١٩٥١) وكذلك بالعصر الإسبانى الرُّومانى أو القوطى (ثوثيا ١٩٩٢).وهذا المظهر ملحوظ فى استخدام وسيلة لإدراج اللؤلؤ فى صناعة مجوهرات الأحجار الكريمة ؛ حيث يبرر ذلك فى هذه المجوهرات الرَّخيصة باستخدام العناصر الزُّجاجية المستديرة أو البيضاوية ، والتى تتنوع درجات ألوانها ، وذلك فى تقليد واضح للأحجار أو الجواهر النَّفيسة .

ويمكن أنْ توجد روابط قليلة بين صناعة المجوهرات غير الذَّهبية فى شمال أفريقيا والأندلس ، ومع ذلك فإنَّ التَّأثير والتَّأثُّر الثَّقافى بين ضفتى البحر المتوسط كان وثيقًا ومكثَّفًا ، وقد رحل كثير من الحرفيين أو الصُّيَّاغ من الأندلس إلى شمال أفريقيا ومعهم تقنياتهم ؛ ففى القرن الثَّانى عشر استقر كثير من الصَّاغة الأندلسيين فى الجزائر وخلال العصر النَّصرى شهدت صناعة المجوهرات غير الذَّهبية تطورًا كبيرًا فى شمال أفريقيا ، وإنَّ هذا التأثير قد امتد حتى بعد فتح غرناطة (كامبيس - فابرير ١٩٩٠) ؛ فطرد المسلمين نهائيًا فى القرن السَّابع عشر أدى بهؤلاء إلى الاستقرار فى كل من المغرب والجزائر حيث عاش فيها حرفيون يمثلون كل الحرف ، وبالطبع صائغى مجوهرات غير ذهبية ، كما بدأ كل هؤلاء الحرفيين تقنية التَّثقيب أو التَّخريم فى شمال أفريقيا خاصة فوق الطلاء ، وقد تخصص فى هذا النشاط أو الحرفة أُسر معينة مثل أسرة بنى ينِّى (كامبيس - فابرير ١٩٩٠ : ١٥) .

والتّقنيات الموثقة سواء على الصعيد العرقى البشرى أو على الصعيد الأثرى فى هذه المدافن أو المقابر يمكن تجميعها وفقًا لخطة كامبيس - فابرير (كامبيس - فابرير ١٩٩٠ : ٣٩ إلى ٤٢) على النّحو التّالى :

١ - تقنيات النّار ، والتى من بينها عملية صهر الفضة والصبّ وعمليات اللحام .

٢ - تقنيات النّقر ، وهى تقنية تتم فى الوقت نفسه مع التّقنيات السّابقة ، وذلك لتغيير شكل المعدن المستخدم بواسطة الشّاكوش أو الأزميل .

٣ - تقنيات التّشطيب والتى يتم فيها تعديل طفيف للشّكل النّاتج عن التّقنيات السّابقة حيث تفقد القطعة شيئًا من مادتها كما هى الحال فى ختم القوالب عند نقشها وتخريمها وبردها .

وفيما يتعلق بالتّقنيات المستخدمة لصناعة القطع سنحلل فيما يلى بعضها، حيث يمكن ملاحظة تكوين مختلف تقنيات العمل .

ومن بين القطع التى نفذت فى قالب باستخدام اللحام النّهائى تبرز بصفة رئيسية الخرزات الخارجية المصنوعة من المعدن ذات السّطح الأملس أو المفصص . إنَّ طريقة الصُّنع معقدةٌ للغاية ؛ ففى المثال الأول يُعَد القالب أو النّموذج (من الطين الصلصال عامة) ، وهذا القالب مكون من جزء أو من جزئين به عليهما نقوش أو زخارف ، ويعد إعداد القالب الفخارى يُصَبُّ عليه المعدن المنصهر ، وعند سحب القطعة من القالب توضع فى ماء بارد لكى يتم تصحيح العيوب ، ثم تأتى مرحلة التّشطيب ، وتنتهى عملية الصُّنع باللحام للغطائين شبه الخارجيين وثقبهما من الطّرفين لكى يتم نظمهما .

و الخواتم والدّبل التى تم تصنيفها تَنُمُّ عن ثلاث تقنيات عند التنفيذ . إنَّ أبسط طريقة (HR ١٣٤٣٢ و HR ١٦٢٠٩) ، وذلك بإعداد صفيحة سُمكها يتراوح ما بين مليمتر إلى ١,٥ مليمتر عن طريق الصّهر والتّصحيف أو التّرقيق للمعدن العريض والسّميك فى وسطه ، بينما تقل مساحته كلما اتجهنا إلى الأطراف ، وفيما بعد يتم قطع المعدن فى قطعة واحدة .ويكون السُّمك فى وسط المعدن على شكل دائرى أو بيضاوى .

ووصل الطَّرفين يتم بإخفائهما أو بوصلهما دون إخفاء ، وسواء هذا أو تلك فإنَّ العملية تتم باللحام النهائى لمنطقة الوصل .

أمَّا الطَّريقة التِّقنية للتَّصنيع نجدها موثقة فى (HR ١٤١٤٣) ، وذلك بإعداد صفيحة مستوية سمكها ١ مليمتر، يزداد هذا السُّمك فى المنطقة الوسطى، وهى عبارة عن شكل بيضاوى وعن طريق اللحام يتم ثقب القطعة بحيث تستوعب الخرزة المعدنية .

أمَّا الطَّريقة الثَّالثة الموثقة فى (HR ١٣٣٠١) ، والذى تم فيها إعداد خاتم من خلال لحام عنصرين : بالثُّقب من جانب ووصل الصفيحة شبه المستوية من جانب آخر ، أما طرفا الصفيحة فى هذه الحالة يتم تثبيتهما بواسطة اللحام أسفل قاعدة الثُّقب .

وفيما يتعلق بتذهيب المعادن فقد كان يتم باستخدام خليط من الزِّئبق ، والذى كان يُطلق عليه اسم " على النَّار ، "وذلك عن طريق خلط الذَّهب بالزِّئبق وطلاء القطعة المراد تذهيبها ثم يُسخَّن على النَّار حتى يتم تبخير الزِّئبق ويتبقى اللون الذَّهبى .

أمَّا تقنية النُّحاس المذهَّب فهى معروفة منذ القدم ، أى فى عصر الخلافة كما نستطيع التأكد من ذلك فى كنوز لالوخا (غرناطة) ، وفى جاروتشا فى أَلميريا، وكلاهما فى معهد بالينسيا لخوان تشاريلا (فى المتحف الإقليمى بجيان) ، وكذلك يُلاحظ فى كنز لوركا بموؤثيا فى فترة ملوك الطوائف خلال القرن الحادى عشر .

أمَّا طريقة سحب الأسلاك فإنَّها تقنية أساسية ، وتكمن فى تقليص قطر السِّلك المستدير ثم يُدْرجُ أو يُدخل فى صفيحة مثقوبة فى قالب لسحب الأسلاك ذات ثقوب متعددة وذات مقاسات تدريجية ، وذلك بجذبه أو بشده بسرعة وحيوية .

وبعد تحليل التِّقنيات ومواد التَّصنيع المستخدمة نجد أنَّ هناك العديد من الأمور المتعلقة بالبحث تتعلق بالهوية الاجتماعية والقبلية للذين تَحلَّوا بهذه المجوهرات والذين صنعوها ، وفى هذا الصَّدد يتضح لنا من خلال الدِّراسات العرقية أو السُّلالية إلى جانب الأنثروبولوجية (الخاصة بطبائع الإنسان) التى أُعدَّت عن المجوهرات ، والذين تزينوا بها فى المغرب (روميرو دى تيخادا – ١٩٨٠ ، مورين باردى ١٩٩٠) ، يمكن

استنباط مستويين : الأوَّل : يشير إلى أصل ووجود شعب متنوع السُّلالات والأعراق (عرب وبربر ويهود) ذى هوية قبلية ·والمستوى الثَّانى : يتعلق بالمكان حيث لا يجب التَّمييز فقط بين الرِّيف والحضر بل أيضًا بين المناطق والمقاطعات ·

فبعض المؤلفين لا يستطيعون التَّمييز الواضح بين المجوهرات العربية والبربرية ؛ لأنه فيما يتعلق بالبربرية فإنَّ أوجه الشبه والإختلاف كبيرة ومتفرعة ، ومع ذلك فإنَّهُ على ما يبدو توجد أفضلية عند اختيار بعض المواد ، ولهذا فإنَّ المجوهرات الرِّيفية العربية أو البربرية نجدها مصنوعة من الفضة أو النُّحاس ذات زخرفة هندسية بسيطة جدًا ، أمَّا الذَّهب فليس شائعًا ؛ لأنه لم يظهر إلا فى منازل الأعيان (مورين باردى ١٩٩٠ - ٢١) ؛ وبهذا الشَّكل فإنَّ نموذج التَّسريحات أو تصفيفات الشعر ولوازمها البسيطة ؛ وهذا ما يحدث أيضًا بين اليهود حيث يستخدمون الفضة المطلية بالذَّهب أو النُّحاس الأصفر ·

ومن ناحية أُخرى فإنَّ المجوهرات فى الحضر يسود فيها استخدام الذَّهب أو الفضة المطلية بالذَّهب بزخرفة أساسية ملتوية أو زجزاجية زهور أو ثقوب أو تخريمات (روميرو دى تيخادا ، ١٩٨٠ - ١٢) ، أمَّا فيما يتعلق بالمقابر الغرناطية فإنَّ المجوهرات المدروسة بها تشابه كبير مع مجوهرات الجنوب (تيَّراسى ١٩٣٠) ، والتى اتبعت العرف السَّائد من حيث التَّقنيات أو الزَّخارف التى تم إبرازها هنا ·

ويتضح جليًا أنَّ المجوهرات كانت مكملةً للملابس أو للتَّصفيفات ، وإذا كانت عناصر التَّسريحات أو التَّصفيفات ليست مقصورة على مجموعة معينة ، فإنها تُبرز هوية واضحة فى أشكالها وتكويناتها (مورين باردى ١٩٩٠ - ٢١) ، ولذلك فإن شكل التَّسريحة ولوازمها أو مكملاتها (مجموعة الجواهر إلخ ....) تمثل عناصر التَّعرف على مجموعة قبلية معينة ·

إنَّ كثرة النَّماذج واضحة ومع ذلك وحتى عندما تُميز نماذج تصفيفات الشَّعر هذه بين قبيلة وأُخرى فإنَّ هناك بعض المدلولات التى يمكن من خلالها التَّعرف على المستوى الاجتماعى والاقتصادى لمن يرتدون هذه المجوهرات وإنْ كانت الحلى التى تستخدمها

النِّســاء العـربيـات والبربريـات واليـهـوديات اللائــى يعشــن فى قرية واحـدة لا تخـتلف فيما بينها (روميرو دى تيخادا - ١٩٨٠ - ١٥) .

ويمـتد اسـتخـدام المجوهـرات إلى الرِّجـال أيضـًا والأطفال وإنْ كان ذلك يقتصـر على استخدام التَّعويذة أو التميمـة أو الحجـاب عبارة عن كيس من الفضـة أو الجلد به آية قـرآنيـة ، وكذلك القلادة للوقاية من الحسـد (آدم - ١٩٥٢ - ٤٦٦) ، وأبزيمـات الأحزمة .

ففى المغرب كان الحرفيون اليهود هم صـانعو المجوهرات ؛ لأنَّ المسلمين شعروا بجاذبية بسيطة صـوب العمل بالمعادن (روميـرو دى تيـخـادا - ١٩٨٠ - ١٤) . وفى الوقت الحاضـر توجد بعض الأماكن الصَّغيرة للحرفـيين من البربر فى المنطقة المواجـهة لجبال أطلس المغربية (مورين باردى ١٩٩٠ - ٢١) الذين يتوارثون الحـرفة من جيل إلى جيل ومن الآباء إلى الأبناء (روميرو دى تيخادا - ١٩٨٠ - ١٤) .

وفى المقام الأخير يـجب أنْ نعرف المغزى الثَّقافى والقيمة الرَّمزية للمـجوهرات ؛ ففى شمال أفريقيا نجد أنَّ للمجوهرات قيمتان جوهـريتان : الأولى اقتصادية والثَّانية وقائية للحمـاية من السِّـحر . فالقيمـة الأولى فى الأزمـات كانت تجعل من المجوهرات مـادة للمبـادلة أو المقايضـة (بيسـانسنوت ، ١٩٥٣ - القرن الثَّانى عشـر) ولها لذلك قيمة للشُّهرة وتؤكد مـهر الخطيبة أو العروسة .ومع ذلك فإنَّ القيمة الوقائية للسِّحر هى الأكثر أهمية ؛ ففى مختلف الأوسـاط نجد أنَّهُ لحمـاية الأسـرة وممتلكاتها تبرز أهمية الأحـجبة والتَّمـائم والتَّعـاويذ وتلك التى كانت تمـثل الشَّخصيات التى تقوم على تنفيذ الوصـايا أو التَّعـاليم الدينيـة أو القـانونيـة أشـيـاء تبـهـر مـثل (الفـضـة والمرايات والأصـداف) وصـيغ وآيات من القـرآن (تشـامـبـاولت وبيـربورجى ١٩٦٥ : ٢٣)؛ فالتَّمـائم هـى التى بها رموز مـنقوشة أو مكـتوبة من هنا تكـتسب معنـاها الـسِّحرى (كنعـان ١٩١٤ - ٧٧ وكـارلوس ١٩٨١- ١٠٩) ، أمَّا مـصطلح التَّـعـويذة فـإنَّ القـوة السِّحرية للحـماية تـأتى من المادة نفسـهـا المصنـوع منهـا التَّعـويذة . وعلـى الرَّغم من التَّعريفين السَّابقين فإنَّ الحـدود الفـاصلة بين التَّـعـويذة والتَّميمـة غير مرئيـة أو غير واضحة إذا وضعنا فى الاعتبار أنَّ كليهما صنع لغاية واحدة وهى الوقاية من السِّحر .

و التَّعويذة والتَّميمة يلبسها الرِّجال والنِّساء على حدٍ سواء كما يقول (البيريتش ١٩٤٩) وكذلك كان من الشّائع استخدام العدد خمسة للوقاية من الحسد ، وكذلك استخدام اليَّد وفقًا لما يقوله بروسبر ريكارد كما جاء في استشهاد (مورين باردي ١٩٩٠ - ٢١) ويوحي بأنَّ هذا الرقم أحيانًا يكون خفيًا أو مستترًا ، وإذا لم توجد - أحيانًا خمسة عناصر - فإنَّه توجد بالفعل خمسة مواضع لهذه التَّعاويذ أو التَّمائم .

المراجع

(١) أدم . أ " عادات قبائل البربر فى المناطق المواجهة لجبال أطلس " هيربيريس ، العدد التّاسع والثّلاثون ، باريس ، ص ٤٥٩ - ٤٧٩ ، ١٩٥٢ .

(٢) أرين راكيل " إسبانيا الإسلامية من القرن الثّامن إلى الخامس عشر ، برشلونة ، ١٩٨٤ .

(٣) أرِيباس بالاو أنطونيو ريو ريو مانويل (١٩٧٩) " المقابر منطقة تورينيا محافظة غرناطة " دراسة أثرية ، حوليات ، الدِّراسات بالعصور الوسطى ، ٩ برشلونة ، ص ١٩ - ٧٤ .

(٤) أثوار رويث رفائيل " أثار إسلامية " أليكانتى ، ١٩٨٩ .

(٥) بيسانسينيون . خ . " المجوهرات العربية والبربرية فى المغرب " الدَّار البيضاء ، ١٩٥٣ .

(٦) بوجيخا . م . " المجوهرات الجزائرية " (١٩٣١) ص ٢٠٣ - ٢٢٤ .

(٧) كامبيس فابرير " المجوهرات البربرية فى الجزائر " ١٩٩٠ .

(٨) كولا البيرتيش . خ . " التّعاويذ والتّمائم المغربية " مدريد ، ١٩٤٩ .

(٩) تساميلاوت . دو بير بروجى " ستة أشكال " متحف الإنسان ، باريس ، ١٩٦٥ .

(١٠) روتية - أى " السِّحر والدِّين فى شمال أفريقيا " الجزائر، باريس ، ١٩٨٤، ١٩٠٩ .

(١١) أوديل باول " المجوهرات غير الذَّهبية الجزائرية والتُّونسية " الجزائر ١٩٠٢ .

(١٢) جوميث مورينو مانويل " المجوهرات فى الفن العربى الإسبانى حتى الموحدين " مدريد ١٩٥١ .

(١٣) كالوس . ل . " كتالوج التّعاويذ والتّمائم الإسلامية " باريس ، ١٩٨١ .

(١٤) مارتينيث رويث خوان " ملابس المسلمين طبقًا لبيريت دى إيتا " وثائق الحمراء ، كرَّاسات الحمراء ، ٣ غرناطة (١٩٧٦) ص ٥٥ - ١٢٤ .

(١٥) مورين باردى . م . " مجوهرات النساء فى المغرب فى المنطقة المواجهة لجبال أطلس " ، باريس ١٩٩٠ .

(١٦) بيريث هيجيرا تيريسا " أشياء وصور من الأندلس " مدريد (١٩٩٤) ص ١٣٩ - ١٤٦ .

(١٧) روبليس أنطونيو " التّعويذة " بيت إسلامى فى مورثيا ، دراسة لمجوهراته (القرن الثّالث عشر) مورثيا (١٩٩١) ص ٨١ - ٨٦ .

(١٨) روميرو دى تيخادا بيلار " جواهر المغرب بالمتحف الوطنى للسُّلالات البشرية " مدريد (١٩٨٠) .

(١٩) رواتش . د . " المجوهرات البربرية فى المغربوالتَّقاليد اليهودية والعربية " ١٩٨٩ .

(٢٠) ترأس هنرى " أصول المجوهرات بجنوب المغرب " هيسبريس ، باريس ، الجزء الحادى عشر ، رقم ١ ، ٢ (١٩٣٠) باريس ص ١٢٥ - ١٣٠ .

(٢١) دى باولا بايادار فرانثيسكو " اكتشـافات الطَّريق الكبـير " الحمراء ، الجزء الثَّامن ، رقم ١٦٦ ، (١٩٠٥) غرناطة ص ٦٤ - ٦٧ .

(٢٢) ثوثايا ستابل هانسين خوان " البطاقات الفنية لمجوهرات الأندلس " الفنون الإسلامية فى إسبانيا ، مدريد ١٩٩٢ ، ص ٢٢٠ - ٢٢٣ - ٣٠٠ - ٣٠٢ .

الفصل السَّادس

فن الطَّهى الأندلسى

إعداد : أكسيبر أثيون جارثيا سانشيث

لقد تعايش العرب والإسبان فى أثناء القرن الثَّامن دون التَّفاهم بينهما دون وعى بالمستقبل ، وكل جماعة تعيش فيما بينها ، وهذا الوضع المبدئى المتميز بالطلاق المشترك والجهل السلبى لا يمكن أن يستمر كثيراً ، وبالتَّالى فقد تغيَّرت الحال فى القرن التَّاسع وإن كانت التغييرات قد بدأت قبل ذلك .

فمن جهة نجد أنَّ ساكنى الأرض الجدد قد تصاهروا مع أبناء البلد الأصليين، وبمرور الوقت أصبح الجدد يشعرون بأنَّ هذه الأرض وطنهم .

ومن جهة أُخرى ، فإنَّ الثَّقافة الأندلسية نمت بخطوات عملاقة ، وإنْ كانت قد تأثرت كثيراً من قبَل الحكام الأمويين للأندلس ؛ فقد وصلت تأثيرات ألف ليلة وليلة من بغداد كطود جارف وحقيقى ، وفى عصر الأمير عبد الرَّحمن الثَّانى (٨٢٢ - ٨٥٢) نجد أنَّ قرطبة عاصمة الإمارة قد شهدت عملية تأثير عراقى لا مثيل له ، وقد ساعد على ذلك قدوم زرياب المطرب الشَّرقى الشَّهير ، والذى أُطلق عليه " العصفور الأسود " الذى لم يجلب معه فقط أغانى وموسيقى بل أيضًا جلب معه وصفات للتَّجميل وللطَّهى وموضات فى الزِّى أو فى الملبس وقواعد للارتقاء بالذُّوق والتَّهذيب لاستخدامها ونشرها فى الأندلس ، وعلى هذا الأساس فالطَّعام الجيد يجب أنْ يحتوى على عدة أطباق لا يرجع اختيارها لمجرد الصُّدفة ، وقد قيل إنَّه ليس من اللائق أن يُقَدَّم فى وجبة ما نوعان من

الأطعمة لا يتجانسان . إنَّ هذا الشَّخص الذى عاش فى البلاط القرطبى علَّم الأندلسيين عددًا كبيرًا من الأطباق الجديدة وبعضها حمل اسمه " على الطريقة الزِّريابية "، وكان من بين هذه الأطباق وأكثرها شيوعًا الجنجلون القمحى الذى كان يُطهى بعدة طرق .

إنَّ مناخ السلام النسبى السائد فى الأندلس فى عهد عبد الرَّحمن الثَّالث (٩١٢ – ٩٦١) أدى إلى ظهور ابتكارات ثقافية وفنية متنوعة ، وفيما يتعلق بفن الطَّهى فإنَّ الوجبات والأطباق الجديدة قد انتشرت بسرعة ، وأول معلومات فى هذا الصَّدد وجدناها فى كتاب الحُسْبة التى تمَّت كتابته ما بين القرن التَّاسع إلى الحادى عشر، وعلى الرَّغم من ذلك فإنَّهُ اعتبارًا من القرن الحادى عشر بصفة أساسية أو الثَّانى عشر، بدأ بالفعل أدب حقيقى لفن الطَّهى كنتيجة لمطبخ ثرى ومتنوع الوجبات والأطباق .

فالوثائق العربية متعددة ، وقد أمدتنا بالكثير عن الغذاء الأندلسى وإنْ كان بوسعنا تصنيفهم فى مجموعات اقتداءً بكتاب الحُسْبة الوصفات والنَّتائج والمواسم الزِّراعية والأعمال الطِّبية الخاصة بالتَّدبير الغذائى ، التَّاريخية والجغرافية والأدبية ، الأعمال الأدبية ، كتب الرَّحلات أو الأسفار ، النَّصوص القانونية ومعادلات فن الطَّهى ، وإن كان فيما يتعلق بالأخيرة لا نعرف سوى مؤلف أندلسى أو عن الطَّعام الأندلسى [١] وآخر إسبانى مغربى[٢] .

ومن كل هذه الأعمال فإنَّ أهمها وأقدمها كتاب الحُسْبة ، وقد أعدَّه المتزنون (وهم الأشخاص الذين ليس لهم هم سوى السَّهر على الحفاظ على العادات الطَّيبة العامة للمسلمين ، وخاصة لتفادى حدوث غش فى التِّجارة بالأسواق) . وهذه النَّصوص فى العديد من المجالات اهتمام فائق الوصف ، وهى المجالات الاجتماعية والاقتصادية واللغوية والعلمية إلخ ... وهى ذات طبيعة شعبية ومحلية محضة .

وبالتَّركيز على فن الطَّهى فى هذه الكتب أو الأعمال نجد أنَّها إشارت إلى الأطعمة التى كانت تُعَدُّ فى الأسواق فى الهواء الطلق ثم تُباع بعد ذلك ، أو كانت تُؤكل هناك فى الأمَاكن المغلقة ، أو فى المطاعم المعدة لذلك أو تُحمل إلى المنازل ، مثل هذه النَّصوص لا تذكر فقط أسماء الوجبات أو الأطعمة أو الأطباق الشَّعبية وطريقة إعداد

بعضها بل أيضًا العناصر الرَّئيسية للطَّهي الأندلسي مثل أنواع الزِّيوت المستخدمة وتنوع التَّوابل إلخ ... ومن ناحية أُخرى فإنَّها تأخذ كثيرًا من المصطلحات الإسبانية الأصل إلى جانب الشَّرقية ، والتي انتقلت إلى الإسبانية في صورة ألفاظ ومصطلحات عربية . وعلى الرَّغم من ذلك كله فإنَّها تقدم لنا معلومات توضح وتكشف عن العادات الغذائية للأندلسيين ، ومنها ميل المنطقة الجنوبية من إسبانيا - وهي الأندلس الحالية - إلى تناول الحلوى والمحمَّرات أو المقليات ، وهو الأمر الشَّائع حتى يومنا هذا .

ومن بين هذه الأعمال يبرز عملان هما الأكثر شهرة ، وفي الوقت نفسه يقدِّمان لنا المزيد من المعلومات ، الأوَّل : الذي ألَّفه الإشبيلي ابن عبدون[٣] (القرن الحادي عشر - القرن الثَّالث عشر) . والثاني الذي ألفه المالقي السَّقاتي[٤] (في مطلع القرن الثَّالث عشر) . إنَّ وصفات هذه الأطباق الشَّعبية التي كانت تعد بالأسواق هي التي تتحدث لنا عن المطبخ أو الطَّهي الأندلسي . إنَّها أطباق بالرَّغم من كونها شرقية في الأصل فإنها كانت تستخدم عناصر أندلسية أصلية ، وبالإضافة إلى ذلك نجد طبيعتها الشَّعبية أدت إلى تأصيلها وتأثيرها فيما بعد .

كل هذه الأطباق أو معظمها وردت أيضًا في كتب وصفات الطَّهي الأندلسي ، والجديد أنَّ الجودة غلبت الكثرة للعناصر أو المكونات المستخدمة ، وهذا ما يميز بين الوصفات الرَّاقية والمعقدة من الأطباق البسيطة التي كانت تُعد في الأسواق .وفي الأطعمة المعدَّة في هذه الأمَّاكن العمرانية المفتوحة كانت تستخدم في طهيها العناصر الأكثر توافرًا وبالتَّالي الرخيصة والميسورة .

١ - الغذاء النَّباتي :

أ - الخبز والحسَّاء

إنَّ الحبوب تحتل مكانة بارزة في غذاء الأندلسيين ، وفي سوق الحبوب ، وهو أهم الأسواق الأندلسية ؛ حيث يُخَصَّص له جاب أو محصل للضرائب في أغلب الأحيان [٥] ، ويُباع فيها القمح بأنواعه المختلفة والحبوب الثَّانوية والشَّعير والجادوار والذُّرة ، وكذلك

البقوليات مثل الفول والعدس والحمص والبسلة ، ومع ذلك فإنَّ القمح هو الذى يُراقب بعناية فائقة من جانب المتزنين (نُظَّار الأسواق) ٠

ففى المقام الأوَّل نجد أنَّه فى هذا النوع من الغذاء يحتل الخبز المرحلة الرَّئيسية ؛ ففى الأندلس وعلى وجه التَّحديد فيما يُسمى بمنطقة الأندلس ، حيث تزرع مساحات كبيرة بالحبوب فإنَّ السُّكان يتناولون خبز القمح ، وإن كانت هناك أنواع متعددة طبقًا لنوعية الدَّقيق المستخدم ؛ فالدَّقيق الأوَّل والدَّقيق الفاخر يُخصص لصناعة الخبز الطَّرى الفاخر ، وهذا النَّوع من الدَّقيق الذى يمكن صناعة الخبز منه أدى إلى إصدار تشريع دقيق بشأن نقابة الطَّحانين ؛ حيث كانت تحدث عمليات غش كثيرة مثل خلط الدَّقيق الفاخر بدقيق من أنواع أُخرى أقل جودة ، ففى المناطق الساحلية كان يتم طحن عظام حيوان السيبياء ونباتات أُخرى ومنتجات بحرية أُخرى يشبه إلى حدٍ كبير ما يبيعونه من دقيق ٠

وفى الفترة التى يندر فيها الدَّقيق يرتفع ثمنه فإنَّ الأندلسيين وخاصة سكان المدن كانوا يستعينون بالدَّقيق الثَّانوى وبالبقول مثل (الفول والعدس والحمص والبسلة والأرز والذُّرة إلخ ...) ، وكل هذا يتبع للاستهلاك العادى والمألوف فى المناطق الرِّيفية ٠

وعندما تنشبُ الحروب وتنتشر الأوبئة والمجاعات والظُّروف الصعبة الأُخرى يضطر الشَّعب إلى العودة إلى أغذية كانت فى طى النِّسيان أو إلى أغذية أقل جودة وأُعدَّ الخبز من البقوليات الجافة أو اليابسة بعد خلطها بفواكه ذات القشرة الصَّلبة مثل أبو فروة والبلوط وكذلك حبوب وجذور أشجار برية (ربَّانية) الذى يتناولها كتاب الأغذية للطَّبيب الأشبيلى أبو مروان عبد المالك بن زُهْر(القرن الثَّانى عشر) الذى ذكر فيه ١٨ غذاءً متنوعًا [٦].

وكان الخبز يعجن ويقطع فى البيوت ثم يُحمل ليُخبز فى المخبز العام [٧] ، ومع ذلك كان يُمكن شراؤه أيضًا من السُّوق أو فى الطَّواحين نفسها ، وإنْ كان ينظر بسوء إلى هذا الأمر حيث كان العرف السَّائد إعداد الخبز عجينًا بالمنزل كما يحدث حتى الآن فى كثير من البلدان فى شمال أفريقيا ٠

ومن بين الأطباق التى كانت تُعدُّ على أساس من الحبوب الشُّوربات الغليظة أو القصعة أو العصيدة وهى من أقدم الأطعمة التى تناولها الإنسان ، وهى تمثل الغذاء الشَّعبى الأكثر بساطة والأكثر يُسرًا فى المناطق التى تنتشر فيها الحبوب. إنَّها تتعلق بأغذية عادية للفقراء والأثرياء [٨] ، وإنْ كانت أكثر شيوعًا بين الفقراء . وواقع الأمر أنَّ أساس هذه الأطباق كان الدَّقيق أو الحبوب المبشورة ، وكانت تختلف وفقًا للقوة الشِّرائية للمستهلك ، ومن هنا كان التَّنوع والجودة لبقية المكونات أو العناصر (خضروات ولحوم ودهون) .

وفى إطار هذه المجموعة من الشُّوربات غليظة القوام التى تُعد أحد الأطباق الشَّعبية شهرة فى جميع أنحاء العالم الإسلامى نجد الهريسة ، وقد شاع ذلك فى المطبخ الأندلسى كما يحدثنا كتاب الحُسْبة، وقد كانت للهريسة طرق عديدة لإعدادها وطهيها [٩] . إنَّ هذا الطَّبق الذى يشتق اسمه من هريس ، وكان يُعد بعد هرس القمح المنقوع مسبقًا وكان يُضاف إلى شوربة غليظة القوام من اللحم المطهى جيداً والمفتت تقريبًا هذا إلى جانب دهن حيوانى ، وعند إعداده بالأسواق كانت تتم عمليات غش كثيرة لهذه الوجبة كان يتم صبغ ماء العجين لكى يصبح لونه أحمر ، وبهذا الشكل يمكن إقناع المستهلكين بأنَّهُ مُعد باللحم ، وبالتَّالى يقوم البائعون برفع سعره .

وهناك نوع آخر من الطَّعام كان شائعًا بين الطَّبقات الشَّعبية كان يُعَدُّ من الدَّقيق المطحون جيدًا ثم يُضاف إليه العسل والدُّهون ويُرش بالسُّكر وهو طعام ذو قيمة غذائية هائلة يساعد على السِّمنة وفقًا لكتاب فن الطَّهى الإسبانى المغربى [١٠] .

الثَّريد كان أحد الأطباق الشَّعبية الذى يُعدُّ من فتات الخبز ، ومن هنا أخذ اسمه وقد كان يوضع فتات الخبز فى شوربة دسمة وعادة ما كان يُغلى فى بعض اللحم ، وتشير كتب الطَّهى إلى وصفات عديدة لتجهيز هذا الطَّبق ، وهناك وصفة لطهى الثَّريد على أساس إضافة لحم الخروف والسبانخ واللبن والمنفحة ، وكان يُعَدُّ هذا فى قرطبة الإسلامية ، وقد اشتهر به القرطبيون وفقًا لما سرده الجغرافى الشَّهير الإدريسى (القرن الثَّانى عشر)[١١] .

وفى النِّهاية كانت تُطهى فى الأسواق أمعاء الحيوانات ذات الأسعار الرَّخيصة وهذا لا يعنى أنَّها أقل قيمة غذائية من لحوم الدَّرجة الأوَّلى ، وقد كان من بين الأطباق الأكثر شيوعًا واستخدامًا إلى جانب رأس الخروف طبق الشُّوربة المُعد باللحم المخلى بعد خلطها بالماء وكثير من البهارات وبعد أنْ تُطهى تكون الشُّوربة فى غاية الدسامة لذوبان دهون اللحم بها ثم يُضاف إلى الشُّوربة فُتات الخبز .

و إلى جميع هذه الأطباق كان يُضاف إليها عادة الخضروات التى كانت متوفرة لدى الأندلسيين طوال العام نظرًا لوفرتها وتعددها وتنوعها .

و من المعجونات كانت الرقيقة والغليظة مثل الشعرية (١٢) ، والكسكسى (١٣) أصبحت أغذية شعبية وإنْ كانت فى عصر متأخر اعتبارًا من القرن الثَّانى عشر عندما بدأت المصادر العربية فى التَّعرض للحديث عنها .

أمَّا الأرز وإنْ كان لم يكن من الأطعمة المألوفة والأساسية بين سكان الأندلس كان يُستهلك بكثرة وخاصة فى القرن الثَّانى عشر والثَّالث عشر عندما انتشرت زراعته وزاد إنتاجه ؛ فهناك الأرز باللبن والزُّبد والسُّكر أو العسل ، وكان يُعتبر من طعام الجنة أو طعام فردوسى ، كما كان يدخل إعداد طبق الأرز بالسَّمك المزود بالبهارات ، وكان الأندلسيون يتناولون هذا الطَّبق فى بعض الأعياد الأسرية والدِّينية ، وقد ساد الاعتقاد بأنَّ هذا الطَّبق هو الذى سبق الطَّعام الإسبانى الشهير باسم (Paella - بانيا) (١٤) .

ب - الفواكه والخضروات :

إنَّ إنتاج الخضروات والفواكه كان ملحوظًا فى منطقة الأندلس ، وبالفعل اعتبارًا من القرن الحادى عشر كنتيجة للتَّقدم الزِّراعى الذى تمَّ فى أثناء حكم ملوك الطَّوائف الذين أدخلوا أنواعًا جديدة من الفواكه والخضروات ، وبهذا تمكَّن الأندلسيون من الحصول على الخضروات والفواكه الطازجة طوال معظم العام خاصة لأنَّ القرع العسلى والباذنجان والبطيخ والخيار والفاصوليا كانت تجمع حتى شهر أكتوبر ، وكانت تتناوب مع خضروات وفواكه الشِّتاء مثل اللفت والجزر والكرنب والكُرَّات إلخ ... والتى

كانت تبدأ فى الظُّهور اعتباراً من شهر نوفمبر، هذا إلى جانب تطور طريقة حفظ وتخزين هذه الفواكه والخضروات سواء طازجة أو جافة مما أدى إلى الحفاظ على نظام التَّدبير الغذائى بين الأندلسيين .

وقد وُجِدَ بالسُّوق الفاكهى ، وهو إلى جانب ذلك كان الخضرى أو بائع الفواكه والخضروات ، وكانت لمهنته أهمية عظيمة الشَّأن فى التِّجارة والاستهلاك ، وكانت اللوائح – كما فى بقية النِّقابات المتعلقة بالأغذية – صارمة ، ولكن هناك أمر عجيب أورده ابن عبدون فى هذا الشَّأن " كانت الخضروات تُغسل جيداً فى مياه النهر النظيفة وليس فى البرك وأحواض المزارع نفسها " (١٥) .

إنَّ منتجات الخضروات والبساتين كانت تدخل فى كثير من الأطباق الأندلسية إذا لم نقل فى كل هذه الأطباق كما هى الحال فى العصيدة أو القصعة وكذلك فى شوربة البقوليات المذكورة آنفًا . أمَّا الفواكه فكانت تؤكل وحدها طازجة أو مجففة أو على شكل عصائر أو كسلطة فاكهة ومربَّات .

ج – المشروبات :

لقد تناول الأندلسيون كثيراً من عصائر الفاكهة (الشَّراب) ، وكان من بين المشروبات الشَّعبية الأُخرى مثل الموستو وهو عصير من أنواع مختلفة ، ومشروب الرُّبُّ هو عصير من العنب المطهى جيداً والخالى من التِّفْل. ومن ناحية أُخرى النَّبيذ (١٦) والخمر على الرَّغم من كونها مُحَرَّمَة بنصوص القرآن فإنَّها تُشْرَبُ فى جميع أرجاء العالم الإسلامى سواء فى المشرق أو فى المغرب ، وكان الأندلسيون يجنحون إلى الخمر الذى يُعده الخمَّارون النَّصارى أو اليهود ، وقد كان شائعًا بين جميع أبناء الشَّعب الأندلسى واستهلاكه أمرٌ ثابتٌ ومؤكدٌ لوجوده فى كتاب الحُسْبة ، وقد كان يُحَرَّمُ على صانعى الزُّجاج صناعة أوانٍ يمكن أن تستخدم لحفظ الخمور (١٧) ، لدرجة أنَّ السُّكر كان ثمة عادة عامة بين الطَّبقات العليا ، وقد كان المسئول أو الشَّخصية البارزة التى لا تشرب خمراً من أصحاب الفضائل الكبرى .

وأخيرًا فإنَّ القصائد التى نظمت فى شأن الخمر (الخمريات) تثبت لنا بدرجة كافية أنَّ تناول الخمور لم يكن أمرًا منعزلاً أو أقل شيوعًا فى المجتمع الإسلامى بل كان على نقيض ذلك تمامًا حتى إنَّ الشِّعر الأندلسى فى القرن الحادي عشر يقدم لنا قائمة طويلة بأسماء الأدوات والأوانى المستخدمة فى الاحتفالات الدُّنيوية لتناول الخمر وكذلك سلسلة من القواعد واللوائح يجب مراعاتها عند تقديمها (١٨).

٢ - غذاء من أصل حيوانى :

أ - أطباق مجهزة باللحم :

كما فى حالات أخرى فإنَّ المعلومات الأكثر دقة بشأن اللحوم ذات الاستخدام الشَّائع نجدها منصوصًا عليها فى كتاب الحُسْبة ، وكان أفضلها لحم الخروف وهو غذاء الأقلية ، وهو يوضح بجلاء المستوى الاجتماعى للمستهلك ، وكانت لحوم الماعز تُباع فى الأسواق أيضًا واللحم البقرى إلى جانب لحوم الصَّيد من السُّمان والأرانب إلخ ... هذا فضلاً عن أحشاء الحيوانات وخاصة الأمعاء والرَّأس (١٩) .

ومن جميع هذه الأنواع المذكورة من اللحوم كانت تُعَدُّ أطباق مختلفة بالأسواق ، وكانت الكفتة أو الكباب أكثرها مبيعًا والميركاس والأسفيدا .

إنَّ أطباق الكفتة كانت طعامًا شعبيًا للغاية ، وكانت تُباع بالأسواق ، أمَّا فى المطابخ الرَّاقية فلم تكن الكفتة طبقًا وحيدًا بل كانت إلى جانب عناصر أُخرى يعد منها أطعمة معقدة .

أمَّا الميركاس فهو عبارة عن نقانق محشوة بلحم مفروم مخلوطة بكثير من الدُّهون والبهارات ، وبعد حشو النَّقانق بهذه العناصر تُقلى وتُقدم مع صلصة معينة .

ومن بين الأطباق التى كانت تُقَدَّمُ فى الأسواق من اللحوم الكباب كان يُعَدُّ من لحوم الصَّيد إلى جانب أحشاء الحيوان التى كانت تُشوى بكثرة ، ومع ذلك فإنَّ شواء الخروف كان يُباع أيضًا فى الأسواق وكان يُعَدُّ طعامًا فاخرًا . ولكن فى مناسبات

معينة وذات أهمية دينية كان الفقراء يتناولونه فى عيد الأضحى كغذاء ذى طابع رمزى أو شعائرى .

وعلاوة على هذه الأطباق من اللحم فقد كانت هناك أنواع أُخرى حازت إعجاب الأندلسيين بالأسواق منها لابالاجا التى ارتُكِبَت عمليات غش فى إعدادها ، والسقاتى ويحضر بإعداد الكبد مع كثير من الخبز ولكن مع قليل من الزَّيت والبهارات (٢٠) ، وهناك طبق آخر يُسمى "التَّفايا" وهو طبق من اللحم كان يُعدُّ مع عدة توابل ثم يُطهى، وقد كان يُلف اللحم فى قطعة من القماش لإعطائه نكهة خاصة دون إفساد الشُّوربة ، وقد دخل هذا الطَّبق الأندلس على يد المذكور زرياب ، وكان من الممكن أن يُعَدُّ أبيض أو أخضر طبقًا للون الكزبرة التى كان يُتبل بها وعادة كان هذا الطَّبق مُعَقَّدًا فى إعداده (٢١) .

وكانت لحوم الصيد تُعَدُّ فى الفرن بعد رشها بالزَّيت الملون بالزَّعفران ، وعندما تُحَمَّرُ من كل جانب كانت تُسقى بصلصة من الخل ومعجون من الملح والعسل والدَّقيق سوف نتحدث عنه فيما بعد وكثير من الثُّوم والزَّيت ، وقد كان يحوز إعجاب نزلاء السُّوق الأمر الذى لم يحدث مع البسطرمة من اللحم ؛ ففى رأى ابن عبدون الذى حرَّم بيعها لأنَّها كانت تُصنع من اللحوم الفاسدة وقد كانت سُمًّا قاتلاً (٢٢) .

وهناك أطباق أُخرى من اللحم كان قوامها اللحوم المخلية وكثير من الخل والبهارات وبدون ماء وهى السيكياج أو المخلل والثيرباج ، وهى أطباق ذات قيمة غذائية كبيرة ؛ لأنَّ الخل له خصائص تجعل من اللحم لينًا طريًا وخاصة لحم الكندوز مما يجعلها سهلة وسريعة الهضم .

ب - أطباق كانت تُعَدُّ بالأسماك :

لقد كان السَّمك يُستهلك بكثرة بين الطَّبقات الشَّعبية بالأندلس نظرًا لوفرته فى السَّواحل وأنهار شبه الجزيرة الأيبيرية ، وكانوا عادة يتناولونه باردًا فى مختلف فصول السَّنة، س وعندما كان السَّمك يندُر كانوا يلجأون إلى ما لديهم من أسماك

محفوظة ، أمَّا بيعه سواء كان طازجًا أو مقليًا أو مملحًا فكان يقوم به عدد كبير من الأشخاص بالأسواق .

ومع ذلك فإنَّ الأسماك لم تكن تحظى بإعجاب أفراد الطَّبقات العليا بالأندلس مثلما كان يحدث أيضًا فى العالم الإسلامى بالعصور الوسطى ، وقد كان ذلك نتيجة تأثير عدة عوامل : اجتماعية ، دينية ، ثقافية ، غذائية إلخ ... وإن كانت الأسباب الاجتماعية الاقتصادية قد يكون لها مبرر فى الأندلس حيث رغب المسلمون مخالفة المسيحيين الذين كانوا يتناولون الأسماك بكثرة فى الصِّيام .

ولهذا ففى كتاب الأطعمة الإسبانية المغربية الذى ضم أكثر من ٥٠٠ وصفة غذائية نجد فقط عشرة أطباق كانت تُجَهَّز بالأسماك ، وغالبًا ما تُعَدُّ بالفرن أو مطهية بالصَّلصة .وفى كتاب "الفضالة" الذى ضم ٤٠٠ وصفة غذائية لم نجد سوى ٣٠ وصفة بالسَّمك ، وهذا يشير إلى كثرة الأطباق السَّمكية مقارنة بما جاء فى كتاب الأطعمة الإسبانية المغربية ، وربما يرجع هذا إلى كون هذا الكتاب أندلسى محض .

ج - منتجات الألبان والبيض :

لقد انتشرت فى الأسواق الأندلسية الإسلامية تجارة منتجات الألبان ، نظرًا للدَّور الرَّئيسى الذى كان للبن فى الغذاء الشَّعبى ، ومن هنا نجد الرقابة الصَّارمة المفروضة على تُجَّار الألبان الذين تحتم عليهم مراعاة العديد من القواعد واللوائح المتعلقة بالصِّحة ونظافة الأدوات والأوانى المستخدمة فى تعبئة الألبان وأُخرى تتعلق ببيع الجبن والزُّبد واللبن الخاثر (اللبن الرايب) ، وعلى الرَّغم من هذه الرقابة الصَّارمة على تجار الألبان ، فإنَّ الغشَّ كان سائدًا ، فضلاً عن غيبة العناصر الأساسية المتعلقة بالنَّظافة والصِّحة العامة خاصة عند إعداد بعض منتجات الألبان مثل اللبن الرَّايب أو الخاثر الذى كان يُعَدُّ فى مستنقعات الوادى الكبير وقد حدث فى كثير من الأحيان أنَّ حُرِّمَ بيعه ؛ لأنَّ النَّاس لو رأوا صناعته لن يجرؤ أحدٌ منهم على تناوله (٢٣) .

وقد كان الجبن واللبن الخاثر أكثر العناصر بيعًا فى الأسواق إلى جانب الحليب ؛ لأن الحليب إلى جانب تناول النَّاس له وحده كان يدخل فى إعداد كثير من الأطباق مثل الحلوى والشوربة والبقوليات ... إلخ .

و فيما يتعلق بالبيض ، ونظرًا لكون إنتاجه منزليًا نجم عن ذلك استهلاك الأندلسيين للبيض بكثرة لدى كل الطَّبقات الاجتماعية والاقتصادية وإنْ كان مع بعض الفوارق الملحوظة لأنَّه إذا كان البيض يمثل الأساس الغذائى للطَّبقات الشَّعبية ؛ ففى الموائد الأرستقراطية كان البيض يظهر كأحد العناصر المكونة للأطباق الفاخرة أو مجرد زينة على هذه الموائد .

٣- المطبخ :

أ - المواد الدُّهنية :

لقد كان استخدام الأندلسيين لزيت الزَّيتون أسوة ببقية بلدان البحر المتوسط؛ حيث يفضل سكان هذه المناطق زيت الزَّيتون على بقية المواد الدهنية ، وذلك على الصَّعيد الشَّعبى ، كما أن زيت الزَّيتون كان متنوع الاستخدام وفقًا للمستوى الاقتصادى والاجتماعى ، وإلى جانب زيت الزَّيتون كانوا يستخدمون أيضًا الزُّبد والدُّهون الحيوانية حتى فى حالة قلى أو تحمير اللحوم التى كانوا يطهونها أولاً .

و كانت المقليات تقدم فى الأسواق ، وهى أطباق سهلة التَّجهيز وإن كان لا يُنْصَحُ بتناولها فى رأى أطباء الأندلس الذين فضلوا زيت الزَّيتون على الدُّهون والزُّيوت الحيوانية والنَّباتية كافة .

ب - البهارات والتَّوابل :

إنَّ زراعة النَّباتات العطرية والملوَّنة والإتجار فيها كانت تحتل مكانة مرموقة فى الأندلس .

لقد ورث الغرب عن روما حب البهارات ، وعلى الرَّغم من أنَّ استخدامها كان فى حالة تراجع تدريجى حتى الاختفاء تقريبًا ، فإنَّها عادت للظُّهور مرة أُخرى فى القرن الثَّانى عشر فى الوقت الذى بدأت فيه أفضلية الطَّهى والطَّعام الأندلسى ؛ حيث كانت البهارات تستخدم بكثرة فى أطباق اللحوم والسَّمك والشُّوربات وحتى فى الحلويات والمشروبات .

وقد كان استخدام البهارات والتَّوابل مرتبطًا بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية كما كان أيضًا لمحاكاة ومجاراة الأذواق الشَّرقية ، وكذلك فى محاولة لكسر رتابة النَّكهات المحلية ، كما يجب ألا ننسى مزايا هذه الأعشاب فى الأغراض الطِّبية كما جاء هذا فى كثير من كتب الأطباء والصَّيادلة والنَّباتات الزِّراعية والطَّهى ... إلخ .

وقد أصبحت هذه البهارات والتَّوابل أمرًا مألوفًا ومعتادًا بين الأندلسيين بعد أنْ كانت سلعًا للرفاهية ؛ حيث تزايدت المساحات المزروعة بها وبالتَّالى تزايد إنتاجها ، وأهم هذه المنتجات الزَّعفران الذى تركَّزت زراعته فى طليطلة وبالينثيا وبايثا أوبيدا وبرييجو وباثا ، وقد كان إنتاج بلدة باثا غزيرًا ووافرًا حتى إنه كان كافيًا لاستهلاك كل سكان الأندلس وفقًا لما أورده الجغرفى الشَّرقى العمرى (القرن الرابع عشر).

و إلى جانب الزَّعفران فإنَّ التَّوابل الأخرى التى كانت تستخدم على الصَّعيد الشَّعبى نجدها تتمثل فى الكمون والكراوية واليانسون والشَّمر والنَّعناع والزَّعتر والكزبرة والسِّمسم والسَّذاب والزَّعتر البرى ، أمَّا التَّوابل الأجنبية فكانت تتمثل فى الفلفل الأسود والأبيض والقرفة والقرنفل وجوز الطِّيب ؛ فالكزبرة التى كان الإغريق أول من استخدموها كانت من التَّوابل الشَّائعة الاستخدام فى البلدان الإسلامية فى الشَّرق والغرب ، كما كان الثُّوم أيضًا أحد التَّوابل المستخدمة بكثرة فى الأطباق الأندلسية .

إنَّ وفرة التَّوابل فى الأطباق الأندلسية تعتبر إحدى المميزات البارزة ، كما أن استخدامها سيؤثر على حدٍ سواء فى النَّكهة والطَّعم ، وكذلك اللون السَّائد فى هذه الأطباق ، وكذلك الكزبرة التى كانت تضفى اللون الأخضر على الطَّعام ، كما أنَّ

مكونات الأكل الأخرى كانت تضفى لونًا خاصًا لهذه الأطعمة مثل البيض والنَّرجسية من زهرة النَّرجس [٢٤] ، وخلاصة الأمر أنَّها النَّزعة الجمالية للتلذذ من خلال النَّكهة والرَّائحة .

ويقدم لنا كتاب الطَّهى الإسبانى المغربى تعريفًا للدَّور البارز الذى تقوم به البهارات فى المطبخ :

"إنَّ معرفة التَّوابل تمثل الأساس الجوهرى للأطعمة ، وبها تتميز الأكلات طعمًا ورائحة ونكهة " .[٢٥]

و إلى جانب الخل والملح نجد أنَّ أحد التَّوابل الأندلسية تكمن فى معجون من العسل والملح والدَّقيق ، وكذلك السائل الناجم عن تخليل أمعاء أنواع خاصة من الأسماك .

ج - الحلوى :

نجد بين طبقات المجتمع الأندلسى كافة ميلٌ إلى الحلويات متعددة الأنواع والأشكال والمذاق كما تحدثنا بذلك كتب فن الطَّهى .

لقد كانت الحلويات تعد بكثرة ، ولكنها تنقسم إلى مجموعتين : الأوَّلى المقليات التى كانت تُسمى قطايف ، والثَّانية الحلويات التى كانت تُطهى فى الفرن .وعلى الصَّعيد الشَّعبى كانت المقليات أكثر استخدامًا والقطايف التى تمثل المجموعة الأوَّلى كانت عبارة عن نوع من الكعك بعد قليها وتحميرها كانت توضع فى عسل مغلى .

أمَّا النَّوع الثَّانى فهو عبارة عن حلوى من الجبن والسُّكر ، وكانت تُجهز من الدَّقيق والزَّيت والماء واللبن حتى يكون لها قوام لكى يتكون منها كعكة أو عجينة ثم تُقلى بعد ذلك وتوضع فى العسل ، والفرق بينها وبين المجموعة الأوَّلى يكمن فى طبقة الجبن التى توضع فى منتصف هذه المجموعة الثَّانية ، وقد كانت هذه الحلويات تؤكل فى مختلف طوائف وطبقات المجتمع الأندلسى ، كما حظيت باهتمام الشعراء الذين تغنُّوا بها مثل القاضى ابن أزرق (القرن الخامس عشر) ، وفى كتاب الحُسْبة هناك

انتقادات لاذعة لصانعي الحلوى من النَّوعين لحثهم على عدم الإقدام على غش الحلويات فضلاً عن إرشادهم عن الطَّريقة المثلى لإعدادها(٢٦) .

و إلى جانب المجموعتين السَّابقتين من الحلوى كانت هناك أنواع أُخرى تُباع بالأسواق ، وهي حلوى غير مقلية كانت تُسمى الفطير والمسمنات والبسكويت ، وفي كل هذه الحلوى كانت تُعجن بماء الورد وكذلك اللبن ، وقد كان السُّكر يُستبدل بالعسل نظرًا لكونه أكثر حلاوة وأرخص سعراً ، أمَّا المكسرات فقد كانت أحد مكونات هذه الحلويات وخاصة اللوز والجوز .

٤- المطبخ المنزلي وأدواته :

إنَّ المنزل الأندلسي يتكون من بهو فسيح على غرار المنازل الإسلامية يؤدي إليه ممر ، وكانت كل غرف البيت وملحقاته تفتح على البهو أو الفناء الموجود بوسط المنزل . أمَّا المطبخ فقد كان صغير المساحة ، وكان يوجد بجوار مدخل البيت وبالقرب من غرفة التَّخزين التي كانت تغلق بمفتاح يوضع مع ربة البيت ، وقد كانت المطابخ تختلف من طبقة اجتماعية إلى أخرى (٢٧).

وكان المطبخ العادي يتكون من التَّنور (نوع من الفرن حُفِرَ في الأرض) على شكل دائري أو مخروط ، وهو بذلك يُستخدم في إعداد الخبز وكذلك لإعداد بعض الأطباق . أمَّا الجزء الثَّاني فكان المستوق دوكان في المشرق يوضع على ارتفاع ٨٠ سم (٢٨) ، حيث كانت تُطهى به كلُّ الأطعمة .

٥ - طعام التَّفايا البيضاء :

يؤخذ من لحم الكبش وخاصة من صدره ويديه وجانبيه وما يقع عليه الاختيار من لحوم الكبش، يُنَظَّف اللحم ويُقَطَّع ثم يوضع في قِدْرٍ جديد ويُضاف إليه الماء والزيت . وتؤخذ خرقة جديدة ثم يوضع فيها الزنجبيل والملح والكزبرة اليابسة وقليل من

البصل المُقَطَّع ويُلَفُّ كل هذا فى الخرقة جيداً وتلقى فى القِدْر مع اللحم ، ويُتْرَك اللحم حتى يُطهى جيداً ، ومن أراد أن يضع فى القِدْر كفته فليضع ، فإذا طُهِىَّ اللحم يُترك قليلاً على نار هادئة حتى يتحمَّر ثم يُقدم طبقًا شهيًا بإذن الله تعالى .ويمكن إعداد هذا الطعام أيضًا من لحم الجدى الرضيع والدجاج بنفس الطريقة التى أشرنا إليها آنفًا .

الفرن وهو مصطلح فى معناه الواسع ينطبق على الفرن العام ، وهو المكان الذى كان يُحمل إليه الخبز وبعض الأطعمة الأخرى لإعدادها وبالتَّالى فهو عنصر كائن خارج المنزل .

و بالنِّسبة للنَّار المستخدمة فى الإشعال فقد كان الفحم فى المقام الأوَّل ثم يليه الحطب .

و تقنية إعداد الطَّعام كانت تكمن فى تجهيزه على البخار كما هى الحال مع الكسكسى وإنْ كانت بعض الأطعمة تُعَدُّ بعد تحميرها فى زيت الزَّيتون على الصَّعيد الشَّعبى كما جاء فى كتاب الحُسْبة ، وهذه التِّقنية لم تستخدم فى كتابى فن طَّهى الآخرين الأندلسيين المعروفين ، وإذا حدث وتمَّ اتباع هذه التِّقنية فإنَّ ذلك لم يتم مباشرة بل بعد إعداد عدة أطباق أُخرى ثم بعد ذلك تُقلى الأطعمة كما أشرت آنفًا . وأخيراً كانت عمليات الشِّواء للحم والأسماك وإن كان ذلك أكثر شيوعًا فى اللحوم مستخدمًا لذلك حلة أو صحيفة أو على شوايات فوق النَّار وإنْ كانت هذه الأطعمة لم يكن يُنصح بها وفقًا للقواعد الطِّبية (٢٩) . وتُوصى كتب الطِّب والطَّهى إعداد الطَّعام فى أوانٍ خزفية سواء أكانت مطلية أم لا ، كما توصى هذه الكتب ذاتها بعدم إعداد الأطعمة فى أوانٍ نحاسية ، وإن كان لا مانع من استخدام الأوانى المعدنية غير النُّحاسية .

وكتاب الطَّهى الإسبانى المغربى يشير إلى الأدوات التى يحتاج إليها من يحترف هذه المهنة ، وهى أدوات مصنوعة من المرمر الأبيض أو من الخشب الصُّلب مثل الملاعق والمغارف وكذلك من الخشب ، والشىء نفسه بالنسبة لمنضدة العجين والتَّوزيع (٣٠) .

وقد كانت أكثر الأدوات استخداماً فى المطبخ الأندلسى وفقًا لكتاب الحُسْبة وكتب فن الطّهى الأخرى الحلة أو القدر أو المرجل والطاسة (المقلاة) والصينية والقصعة والأنجر ، وهناك كثير من الأدوات والدَّوارق والجرار التى كانت تُستخدم فى المطبخ وعلى المائدة ، وكانت متعددة الأشكال والأحجام ، هذا فضلاً عن الخوابى أو الخابيات التى كانت تُستخدم فى تخزين الطَّعام .

و جدير بالذِّكر أنَّ كثيراً من التَّوصيات التى ذكرها مؤلف و كتب الطَّهى نجدها بعينها مكررة فى الأعمال المشابهة اللاحقة وهذه الوصايا إمَّا طبية وإمَّا خاصة بفن الطَّهى مثل ابن الخطيب (٣١) وأربولى (٣٢) وفضالة (٣٣) .

وطبقًا للطَّبيب الأشبيلى فإنَّ أفضل الأوانى المستخدمة فى الطَّهى كانت الأوانى الفخارية والخزف المزجَّج ؛ لأنَّ الأوانى الفضية أو الذَّهبية لم تكن فى متناول الجميع، فضلاً عن أنَّها غير محببة دينيًا ؛ فالأوانى الفخارية غير المطلية كانت تستخدم فى الطَّهى من مرَّة إلى خمس مرَّات لأسباب صحية ، وإن كانت هذه القاعدة لم تطبق حيث كان النَّاس يستهلكونها بكثرة ، وإن كان لا يفضل استخدام الآنية نفسها للطهى عدة مرَّات بل كان يفضل وجود مزيد من الأوانى لاستخدامها على التَّبادل ، وكان يجب غسل وتنظيف الأوانى يوميًا بالماء السَّاخن والرَّدَّة (٣٤) .

والنُّحاس على الرَّغم من شيوع استخدامه فى صنع أوانى الطَّهى مثل الحلل والمقلاة ، فإنَّ الأطباء كانوا يرفضونه تمامًا وكذلك من قبل نُظار ومراقبى الأسواق حتى ولو كان مطليًا بطبقة من القصدير نظرًا لتفاعل هذا المعدن مع بعض مكونات الوجبات الغذائية فى أثناء طهيها وإعدادها .

أمَّا الأدوات المصنوعة من الحديد كانت من الأدوات المفضلة الاستخدام فى المطبخ الأندلسى ، أمَّا الأوانى من الرَّصاص والقصدير التى كانت تستخدم كثيراً فى المطبخ وعلى المائدة كانت من بين الأوانى التى أوصى بها مؤلفو كتب الطَّهى . وأخيرًا فإنَّ الزُّجاج كان يستخدم فى الأوانى مثل الدوارق والأكواب والكئوس نظرًا لكونه هشًا (٣٥) .

وخلاصة الأمر فإنَّ الطَّعام كان يُقدم على موائد منخفضة مغطاة بمفرش من القماش أو الجلد ، ولم تكن تستخدم شوك أو سكاكين ولكن كانت هناك ملاعق من الخشب للشُّوربات التى كانت تُقَدَّم فى قصعة أو أنجر من الخزف .

٦ - التَّأثير اللاحق :

بعد أنْ استعرضنا عادات الطَّهى الأندلسية سندرس فيما يلى مدى استمرار هذه العادات حتى الآن على الأصعدة الشَّعبية وفى المناطق الرِّيفية .

فبعد انتهاء استرداد الأراضى الأندلسية ، وعلى الرَّغم من أن المسيحيين المسنين أرادوا محو وطمس عادات الطَّهى الأندلسية وذلك باستبدالها ، فإنَّ عادات المسلمين استمرت ليست فقط بين المسلمين ولكن أيضاً بين المسيحيين ، وفى كثير من الأحيان نجدها قد اختلطت مع عادات المسيحيين المسنين .

و قصة " لالوثانا الأندلسية " التى تنتمى إلى القرن السَّادس عشر تقدم لنا أحد الكتالوجات الكاملة للغذاء الأندلسى فى عصر الملوك الكاثوليك ، وذلك عندما تصل الدونثا - لالوثانا - إلى روما فتلتقى بعدد من السيدات ذات الأصل الأندلسى اللائى استضفنها فى منزلهن حيث سردت عليهن كثيراً من الوجبات التى كانت قد تعلمتها من جدتها بقرطبة :

" لقد تعلمت طهى القطايف والمحشيات والكسكسى بالحمص والأرز والكفتة المستديرة والمسطوحة الممزوجة بالكزبرة الخضراء ، هذا فضلاً عن الباذنجان بالثُّوم والخل والكمون والكعك ولحوم الجدى أو التيس بالليمون وكذلك طنجرة السَّمك والحلويات الممزوجة بالعسل "(٣٦)

و كذلك نجد أنَّ استنتاجات مؤتمر جاويديكس عام ١٥٥٤ وكذلك فى أوامر غرناطة فإنَّ الموسوعة الغذائية لم تتغيَّر كثيراً : الكسكسى والأرز والتِّين والزَّبيب والخضروات والفواكه واللوز والجوز والزَّيتون ولحم الخروف أو الكبش ولحوم الصَّيد ، هذا فضلاً عن

المشروبات مثل عصير البرتقال أو عصير فواكه أُخرى والقرع العسلى والحلويات الطَّرية إلخ ... [٣٧] ، كما أنَّ وصفات الأطعمة الأندلسية نجدها مدوَّنة أيضًا فى كتاب الأطعمة للمؤلف روبرتو نولا .

ولكن ماذا بقى من هذه الأطعمة الأندلسية أو الإسلامية ؟ إنَّها وجبات أو أطباق عديدة كل المعجونات ، فتات الخبز ، الملح ، الزَّيت ، الخل ، الماء ، والكفتة والكسكسى وكثير من القصعات أو الثَّريد المحلى بالسِّمسم .

و لكن على وجه الخصوص فى مجال الحلويات حيث يمكن ملاحظة هذا التَّأثير : الأزهار وحلويات الطَّاسة والمقليات المغمورة فى العسل والجُلاش بالسِّمسم ومعجون الدَّقيق المعطرة بالليمون وكذلك الفواكه المعدة كحلويات .

و أخيرًا ، ينبغى علىَّ أنَّ أبرز أنَّ كثيرًا من مصطلحات الطَّهى وكذلك مكونات بعض الأطباق قد انتقلت من العربية إلى الإسبانية ومازالت تستخدم حتى الآن وكذلك بعض المصطلحات الفارسية ومن بينها الزَّيت والسُّكر والزَّبيب والبرتقال والليمون والمشمش والتَّرمس والأرز والباذنجان والزعفران والشَّراب والجرَّة والكوز .

و يجب أنْ نشير إلى الاستنتاجات التالية :

فى المقام الأوَّل : إنَّ الفضل فى معرفة الوجبات والأطعمة الأندلسية وطريقة إعدادها يرجع إلى كتاب الحُسْبة ومختلف الكتب الخاصة بالطَّهى .

من المنطقى ظهور اختلافات فى النِّظام الغذائى وفقًا للحالة الاقتصادية والاجتماعية لمختلف طبقات الشَّعب الأندلسى : أى اختلاف واضح تمامًا بين المطبخ الفاخر للطبقات الأرستوقراطية ومطبخ الكادحين من العمال الفقراء .

وبطريقة موجزة يمكننا القول إنَّ كتاب فن الطَّهى الإسبانى المغربى ضم ٥٠٠ طبقٍ منها ٣٠٠ تُعَدُّ من اللحوم المختلفة مثل لحوم الأرانب والخراف والكباش ، وهى أكثر الأطباق استهلاكًا ، وتلى هذه الأطباق فى الأهمية الحلوى ومعظمها مقليات، وتحتوى على كثير من المكسرات ، أمَّا فيما يتعلق بالأسماك فلا توجد سوى ٢٠ وصفة

لإعداد هذه الوجبات ، أمَّا البقية القليلة من وجبات الكتاب فهى عبارة عن أطباق مُعدة من المعجونات والبيض والشُّوربات غليظة القوام أو القصعات ، وهذه الوجبات تنتمى إلى أصول متعددة شرقى وبربرى وأندلسى، وبعضها ينتمى إلى مدن أندلسية خاصة فى غرب الأندلس .

أمَّا بالنِّسبة لكتاب الفضالة ، وهو كتاب خاص بفن الطَّهى الأندلسى وهو أكثر تنظيمًا وتنميقًا من سابقه ، ويضم الكتاب ٤٠٠ طبق منها ١٦٠ قوامها اللحوم و٨٠ طبقًا قوامها الحبوب و٨٠ طبقًا من الحلويات منها ٥٠ نوعًا من الحلوى المقلية أمَّا الأنواع الباقية فهى عبارة عن حلويات صلبة أو مغمورة فى العسل ، أمَّا بقية وصفات هذا الكتاب فهى عبارة عن أطباق من الخضروات وبعض المحفوظات أو المعلبات فى خل .

إنَّ النِّظام الغذائى فى الأسواق يخضع تمامًا لميزات الطَّعام بحوض البحر المتوسط ، أمَّا وصفات كتابى الطَّهى فى الأندلس فإنَّها تخضع للطابع الإسلامى المميز.

و على الرَّغم من ذلك فإنَّنا نجد كثيرًا من الملامح الجوهرية المشتركة على جميع الأصعدة والمستويات : كثرة استخدام التَّوابل والبهارات ، خلط الطُّعوم والنَّكهات ، كثرة استهلاك السُّمون والدُّهون والحلويات ، تفضيل اللحوم على الأسماك إلخ ..ولكن من الملائم أنْ نذكر أنَّ معظم هذه العادات الخاصة بالطَّهى نجدها فى المطابخ الرُّومانية كما هى الحال فى ضرورة سلق اللحوم قبل طهيها أو شيِّها ، وهى عادة قديمة جدًا من تأثرهم بشعوب المشرق وفقًا لما أورده خ . أندرية ، وهى نزعة تهدف إلى الحصول على لحوم طرية لينة سهلة المضغ فى مقابل اللحوم المقرمشة الصلبة [٣٨] ، وهذا يعنى أنَّ التَّأثير الشَّرقى يتقارب فى الأندلس عن طريقتين المطبخ الرُّومانى والمطبخ العربى .

ويمكن استنتاج حدوث تغيير ما فى بعض المظاهر فى العادات الغذائية للأندلسيين على المستوى الشَّعبى . أمَّا العادات الرُّومانية والبحر متوسطية فلا يزال

لهما ثقل كبير وإلى جانبهما توجد تأثيرات شرقية معينة ، هذا فضلاً عن نظام غذائى حكيم من ناحية ، وشعبى من ناحية أُخرى ، فضلاً عن استناده إلى زراعة قائمة على أساس علمى ، كل هذا كان له تأثير السِّحر على النِّظام الغذائى الأندلسى ، وبفضل الاستغلال الحكيم لموارد الأندلس الطَّبيعية التى تنتجها أرضه ، ومن هنا تنوع غذاء الأندلسيين فكان موفوراً ومتوازناً أكثر من غذاء وطعام سكان الممالك المسيحية فى شبه الجزيرة الأيبيرية .

الهوامش

(١) لقد كان هذا الموضوع عنوان رسالة الدكتوراه لفرنانو لاجرانخا ، والتي نُشر منها جزء : " الطَّعام العربي في الأندلس " وفقًا لمخطوط لم ينشر بعد ، مدريد ١٩٦٠ .ومع ذلك فإنَّ النَّص كان عرضة للنَّشر مرتين ابن رزين التُّجيبي " فضالات الخوان في طيبات الطَّعام والألوان "وطبعة م . بن شقرون ، الرباط ، ١٩٨١ الطبعة الثَّانية ، بيروت ١٩٨٤ .

(٢) هويش ميراندا " الطَّهي الإسباني المغربي في عصر الموحدين " طبقًا لمخطوط لم يطبع "كتاب الطَّبيخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين " طبعة مدريد ١٩٦٥ ، ترجمة لمؤلف مجهول من القرن الثَّالث عشر عن الطَّهي الإسباني المغربي ، مدريد ١٩٦٦ .

(٣) لقد طبع هذا النَّص العربي إلى جانب نصي كتابين أخرين بواسطة ليفي بروفينسال " وثائق عربية لم تنشر بعد عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية للمسلمين في العصور الوسطى " السِّلسلة الأوَّلى ، وصفات ونظريات كتاب الحُسْبة (طبعة المعهد الفرنسي للآثار بالقاهرة) القاهرة ١٩٥٥وكتاب ابن عبدون يشغل الصفحات من ٣ إلى ٦٥ . أمَّا التَّرجمة الإسبانية فقد قام بها جارثيا جوميث وليفي بروفينسال ، أشبيلية في بدايات القرن الثَّاني عشر ، كتاب ابن عبدون الطبعة الثَّانية ، ١٩٨١ ، أشبيلية .

(٤) النَّص العربي قام بنشره ج . س . كولين وليفي بروفينسال كتاب الحُسْبة كتاب أبو عبد الله محمد السَّكات دي مالقة عن الغش في الأطعمة الإسبانية العربية في إسبانيا المسلمة (طبعة دراسات معهد هاوتيس الحادي والعشرين) باريس ١٩٣١وقد قام بالتَّرجمة إلى الإسبانية بيدرو تشالميتا خيندون " الكتاب في أداب الحُسْبة " كتاب الرَّقابة الصارمة على السُّوق ، للسَّكات ، الأندلس العدد الثَّاني والثَّلاثين ١٩٦٧ ، ١٢٥ - ١٦٢و٣٥٩ - ٣٩٧ والأندلس العدد الثَّالث والثَّلاثين (١٩٦٨) ١٤٣ - ١٩٥و ٣٦٧ - ٤٣٤ .

(٥) ابن عبدون " كتاب الحُسْبة " رقم ١٠٠ النَّص العربي ص ٤١ التَّرجمة ص ١٢٩ - ١٣٠ ، والذي ينص على أنَّ جابي الضرائب بأسواق الغلال والحبوب (إن وجدت) لا يأخذ من البائع أكثر من مُدٍ في القفيز وهو مكيال من المكاييل .

(٦) أبو مروان عبد الملك بن زهر " كتاب الأغذية " ترجمة وتقديم : إيميليو جارثيا جوميث (مصادر عربية إسبانية ٤) مدريد ١٩٩٢ النَّص العربي ص ١٠ - ١٣والتَّرجمة ص ٤٦ - ٤٩ .

(٧) عن إعداد الخبز انظر ليفي بروفينسال " إسبانيا الإسلامية حتى سقوط الخلافة في قرطبة " (٧١١ - ١٠٣١) من الميلاد الجزء الخامس من تاريخ إسبانيا لمينينديث بيدال ترجمة : إيميليو جارثيا جوميث ، مدريد ، الطبعة الثَّالثة ١٩٧٣ ص ١٣٢ .

(٨) م . م . إحسان " الحياة الاجتماعية في ظل حكم العباسيين " لندن ١٩٧٩ ص ١٣٠ - ١٣٣ .

(٩) من الغريب أنْ يقوم المراقب أو الناظر الأشبيلى بتحديد الطُّهاة والبائعين لهذا الطُّبق وكذلك الوظيفة أو الحرفة النَّاجمة عن ذلك " الحُرَّاس " ابن عبدون وكتاب الحُسْبة رقم ١٩٨والنَّص العربى ص ٥٥ ترجمة ص ١٦٩ .

(١٠) أ - هويش ميراندا " كتاب الطُّهى الإسبانى المغربى " النَّص العربى ص ١٨٠ التُّرجمة ص ٢١٩ .

(١١) إيميليو جارثيا سانشيث " غذاء الأندلس الإسلامية " الأندلس الإسلامية نصوص ودراسات ، العدد الأوَّل والثَّانى والثَّالث (١٩٨١ - ١٩٨٢) ص ١٧٠ .

(١٢) العطرية هو الاسم القديم الذى كان يُطلق على الشُّعرية والذى لا يزال يستخدم فى موريتانيا بين يهود المشرق وأول كتاب يذكر ذلك هو كتاب الأغذية لابن زاهور (المخطوط ١١٦٧) وفيما بعد السُّكات أبو مروان عبد المالك بن زهر " كتاب الأغذية " النَّص العربى ص ٧٥و١١١ التُّرجمة ص ٩٨و١٢٩ ، السُّكات كتاب فى آداب الحُسْبة ، النَّص العربى ص ٣١ التُّرجمة (الأندلس العدد) ص ١٦٣ .

(١٣) القاضى الغرناطى ابن أزرق (القرن الخامس عشر) يتذكر هذا الطُّبق باشتياق وحنين فى المشرق ، وقد قدم كتابا الطَّعام فى الأندلس وصفات لهذا الطُّبق كما فى كتاب إيميليو جارثيا سانشيث ابن الأزرق أرجوزة عن بعض الأطعمة الغرناطية المفضلة بالأندلس الإسلامية ، نصوص ودراسات (١٩٨٠) ص ١٥٥ .

(١٤) ف . جارثيا سانتا ماريا " الأعياد المسيحية فى الأندلس " الأندلس ، العدد الرَّابع والثَّلاثين (١٩٦٩) النَّص العربى ص ٢٠ ، ٢١ التُّرجمة ص ٣٤ ، ٣٥ .

(١٥) ابن عبدون " كتاب الحُسْبة " رقم ١٠٧ النَّص العربى ص ٤٢ التُّرجمة ص ٣٢ .

(١٦) الرُّب مشتق من اللغة العربية من لفظ رُّب وهو عصير العنب - وإنْ كان قد أعد من بعض الفواكه الأخرى - بعد طهيه وتنقيته من التُّفل دون أن يصل إلى درجة التخمر ، ومن ناحية أُخرى فإنَّه بالنسبة لغالبية الأطباء المسلمين فى العصر الوسيط وكذلك بالنسبة للحاليين فإنَّ مصطلح نبيذ يختص بكل شراب مُسْكِر سواء كان خمراً أو نبيذاً حقيقياً، وقد كان الأخير يجهز من الخمر المأخوذة من التَّمر وإنْ كان الأندلسيون قد استبدلوا التُّمور بالعنب أو الزَّبيب عند إعدادهم للنَّبيذ وكانوا يضيفون له العسل . وحول خصائص الأغذية العلاجية لهذين النَّوعين انظر كتاب أبو مروان عبد المالك بن زهر ، كتاب الأغذية النَّص العربى ص ٤٤ التُّرجمة ص ٧٢ .

(١٧) هذه وإجراءات أُخرى دافع عنها ابن عبدون لمنع بيع الخمور وهى موجودة فى كتاب الحُسْبة رقم ١١٦ ، ١٢٩ ، ١٨٦ النَّص العربى ص ٤٣ ، ٤٥ ، ٥٢ التُّرجمة ص ١٣٦ ، ١٤٢ ، ١٦٣ .

(١٨) عن هذا الموضوع يمكن الإطلاع على كتاب ج . ه . بيريث " الشعر الأندلسى بالعربية الفصحى " فى القرن الحادى عشر الميلادى ، باريس ١٩٥٣ ص ٢٧٠ - ٢٧٢ .

(١٩) وعن أنواع اللحوم التى يتحدث عنها السُّكات لم يسمح لأحد من الباعة أنْ يبيع فى نفس المحل لحم الخراف والماعز ، ولم يسمح أيضًا بوضع لحم الماعز بين محلين يبيعان لحم الخراف حتى لا يُخدع الغُشماء فكل لحم يجب بيعه فى محلات مختلفة ومميزة " كتاب فى آداب الحُسْبة " النَّص العربى ص ٣٤ - التُّرجمة (الأندلس العدد ٣٢) ص ١٧٠ .

(٢٠) عن إعداد هذا الطُّهى فإنَّ السُّكات قد أعد كثيراً من القواعد المحددة ، النَّص العربى ص ٤٠ التُّرجمة (الأندلس ٣٢) ص ١٨١ .

(٢١) " الفضالة " (ص ٨٣) وصفة للتفايا الأندلسية التى كانت تُعَدُّ مقلية بدلاً من المسلوقة كما هو معتاد وهذا دليل قاطع على ميل الأندلسيين إلى المقليات أو المحمَّرات .

(٢٢) ابن عبدون " كتاب الحُسْبة " رقم ١٢٢ النَّص العربى ص ٤٥ التَّرجمة ص ١٣٩ - ١٤٠ .

(٢٣) ابن عبدون " كتاب الحُسْبة " رقم ١١٨ النَّص العربى ص ٤٠ التَّرجمة ص ١٣٣ .

(٢٤) " الفضالة " ص ٧٢ .

(٢٥) أ . هويش ميراندا " كتاب الطُّهى الإسبانى المغربى " النَّص العربى ص ٦٥ التَّرجمة ص ٨٥ .

(٢٦) بالنِّسبة لهذا القاضى الغرناطى فإنَّ المُجَبَّنة اسم مشتق من الجبن ، وهى من الخارج تشبه الوردة ، ولكنها من الدَّاخل كالسُّوس ، وهذا التَّشبيه يشير إلى العسل الذى كان يغطى هذه الحلوى وإلى الجبن الذى كان بداخلها ، إيميليو جارثيا سانشيث ، ابن أزرق ، أرجوزة عن بعض الأطعمة الغرناطية المفضلة ص ١٥٤ .

(٢٧) محاضرة ف . دى لاجرانخا سانتا ماريا " الأعياد المسيحية بالأندلس " الأندلس ، العدد الثَّالث والثَّلاثين ، الجزء الثَّانى (١٩٧٠) ص ١٢٤ .

(٢٨) عن وضع الطُّهى فى مختلف البلدان الإسلامية ، محاضرة ومقال لعدة أشخاص ، المطبخ فى الموسوعة الإسلامية ، الجزء الرابع ، ص ٧٩٧ - ٨٠٥ .

(٢٩) أبو مروان عبد المالك بن زهر " كتاب الأغذية " النَّص العربى ص ٧٤ التَّرجمة ص ٩٨ .

(٣٠) أ . هويش ميراندا " كتاب الطُّهى الإسبانى المغربى " النَّص العربى ص ٧٠ التَّرجمة ص ٩٠ .

(٣١) ابن الخطيب " كتاب الأصول لحفظ الصِّحة فى الفصول " طبعة وترجمه إلى الإسبانية ث . باثكيث دى بينيتو سلمنكا ، ١٩٨٤ ، النَّص العربى ص ٦٠ ، ٦١ التَّرجمة ص ١٣٧ .

(٣٢) أ . دياث جارثيا ، كتاب نصرى عن الأغذية " الكلام على الأغذية للأربولى " طبعة وترجمة ودراسة دفاتر الدِّراسات فى العصور الوسطى ، العددان العاشر والحادى عشر (١٩٨٢ - ١٩٨٣) رقم ١٠٩ النَّص العربى ص ٢٥ ، ٢٦ التَّرجمة ص ٦٥ ، ٦٦ .

(٣٣) " الفضالة " ص ٤ .

(٣٤) أ . هويش ميراندا " كتاب الطُّهى الإسبانى المغربى " النَّص العربى ص ٧٠ التَّرجمة ص ٨٩ .

(٣٥) هذه التَّوصيات حول المواد التى يجب استخدامها لصناعة أوانى الطُّهى والمائدة وردت فى كتاب الأغذية لابن زهر النَّص العربى ص ١٣٦ - ١٣٨ التَّرجمة ص ١٤٧ - ١٤٩ .

(٣٦) ف . ديليكادو لالوثانا الأندلسية ، طبعة برونو. م . داميانى ، مدريد ١٩٧٢ .

(٣٧) م . اسباداس بورجوس " مظاهر اجتماعية دينية للأغذية الإسبانية " إسبانيا ١٣١ (١٩٧٥) ص ٥٤٥ .

(٣٨) خ . أندرية " الغذاء والطهى فى روما " باريس ١٩٨١ ص ٢٢٠ - ٢٢٣ ، ويشير هذا المؤلف أيضاً إلى أنَّ الطعام فى روما قد ورث معظم الطعام الإغريقى وهو مطبخ أو طهى يتميز بالحلويات ويفرط فى استخدام التوابل والبهارات ويبرز فيه أيضاً خلط الطعوم والنكهات المتناقضة مثل العسل والخل فى أطباق متنوعة .

المراجع

● أبو مروان عبد المالك بن زهر " كتاب الأغذية " طبعة وترجمة وتقديم : إيميليو جارثيا سانشيث (المصادر العربية الإسبانية ٤) مدريد ١٩٩٢ .

● إحسان . م.م. " الحياة الاجتماعية فى ظلِّ حكم العباسيين " لندن ١٩٧٩ .

● أندرية . خ . " الغذاء والطَّهى الرومانى " باريس ١٩٨١ .

● أربية . ر . " إسبانيا الإسلامية فى عصر النَّصريين (١٢٣٢ – ١٤٩٢) باريس ١٩٧٣ ، رينيب ١٩٩٠ .

● " خصائص الغذاء لدى المسلمين فى إسبانيا فى أثناء العصور الوسطى " دفاتر دراسات العصور الوسطى ، العددان الثَّانى والثَّالث (١٩٧٤ – ١٩٧٥) ٢٩٩ – ٣٢١ .

● بولينس . ل . " الطَّهى الأندلسى فى أثناء القرنين الثَّانى عشر والثَّالث عشر " باريس ١٩٩٠ .

● كولين غ . س . وليفى بروفينسال " كتاب الحُسْبة باللغة الإسبانية " للمؤلف عبد الله محمد السُّكاتى دى مالقة وقوانين محاربة الغش فى الأطعمة والحبوب بإسبانيا الإسلامية ، (مطبوعات معهد هاوتيس) الجزء الحادى والعشرين ، باريس ١٩٣١ .

● تشاليتا خيندرون بيدرو " الكتاب فى آداب الحُسْبة " (للسَّكاتى) الأندلس العدد الثَّانى والثَّلاثين (١٩٦٧) ١٢٥ – ١٦٢ ، ٣٥٩ – ٣٩٧ ، والأندلس العدد الثَّالث والثَّلاثين (١٩٦٨) ١٤٣ – ١٩٥ ، ٣٦٧ – ٤٣٤ .

● ديليكادو . ف . أ . لالوثانا الأندلسية ، طبعة برونو . م . داميانى ، مدريد ١٩٧٢ .

● دياث جارثيا . أ . كتاب نصرى عن الأغذية " الكلام على الأغذية للأربولى " طبعة وترجمة ودراسة " دفاتر دراسات العصور الوسطى (١) السَّابع والثَّامن (١٩٧٩ - ١٩٨٠) ٥ - ٣٧ ، (٢) العاشروالحادى عشر (١٩٨٢ - ١٩٨٣) ٥ - ٩١

● ● اسباداس بورجوس . م . " المظاهر الاجتماعية الدِّينية للغذاء الأندلسى " إسبانيا ، ١٣١ (١٩٧٥) ٥٣٧ - ٥٦٥ .

● جارثيا جوميث إيميليو وليفى بروفينسال " أشبيلية فى أوائل القرن الثَّانى عشر " كتاب ابن عبدون ، الطبعة الثَّانية ، أشبيلية ١٩٨١ .

● جارثيا جوميث إيميليو " الغذاء فى الأندلس الإسلامية " الأندلس الإسلامية نصوص ودراسات (١) العددان الثَّانى والثَّالث (١٩٨١ - ١٩٨٢) ١٣٩ - ١٧٨ ، (٢) العددان الرَّابع والخامس (١٩٨٣ - ١٩٨٤) ٢٣٧ - ٢٧٨ .

● ابن أزرق " أرجوزة عن بعض الأفضليات الغذائية الغرناطية " الأندلس الإسلامية ، نصوص ودراسات (١) ١٩٨٠ ص ١٤١ - ١٦٢ .

● جرانخا سانتا ماريا . ف . " من الطَّهى العربى الأندلسى وفقًا لمخطوط لم يطبع بعد " مدريد ١٩٦٠ .

● الأعياد المسيحية بالأندلس - الأندلس (١) العدد الرَّابع والثَّلاثون (١٩٦٩) ١ - ٥٣ ، (٢) الأندلس العدد الخامس والثَّلاثون (١٩٧٠) ص ١١٩ - ١٤٠ .

● هويش ميراندا . أ . المطبخ الإسبانى المغربى فى عصر الموحدين وفقًا لمخطوط لم يطبع بعد " كتاب الطَّبيخ فى المغرب والأندلس فى عصر المرابطين " طبعة مدريد ١٩٦٥ .

● ترجمة إسبانية لمخطوط مجهول المؤلف من القرن الثَّالث عشر عن المطبخ الأسبانى المغربى ، مدريد ١٩٦٦ .

● ابن الخطيب " كتاب الأصول لحفظ الصحة فى الفصول " طبعة وترجمة ث . باثكيث دى بينيتو سلمنكا ١٩٨٤ .

● ابن رزين التوجيبى " فضلات الخوان فى طيبات الطّعام والألوان " طبعة م . بن شيقرون ، الرباط ، ١٩٨١ ، الطّبعة الثّانية ، بيروت ، ١٩٨٤ .

● ليفى بروفينسال " وثائق عربية لم تطبع بعد عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى الغرب الإسلامى فى العصور الوسطى " السّلسلة الأولى ثلاث كتب إسبانية عن الحُسْبة (مطبوعات المعهد الفرنسى للآثار الشّرقية بالقاهرة) (القاهرة ١٩٥٥) .

● " إسبانيا الإسلامية حتى سقوط الخلافة فى قرطبة (٧١١ – ١٠٣١ من الميلاد) الجزء الخامس من تاريخ إسبانيا لرامون مينينديث بيدال ، ترجمة : إيميليو جارثيا جوميث ، مدريد ، الطبعة الثّالثة ، ١٩٧٣ .

● نولا . ر . " كتاب الأطعمة " طبعة ودراسة دينوسيو بيريث (بوست ثيبوسين) مدريد ١٩٢٩ .

● ج . هـ . بيريث " الشّعر الأندلسى بالعربية الفصحى فى القرن الحادى عشر " الطبعة الثّانية ، باريس ١٩٥٣ .

● رودينسون . م . " الغذاء " الموسوعة الإسلامية ، الجزء الثّانى ص ١٠٨١ – ١٠٩٧ .

● تأثيرات الحضارة الإسلامية فى الحضارة الأوروبية إبّان العصور الوسطى وخاصة فى مجال الغذاء والأطعمة " محاضر المؤتمر الدولى الثّالث عشر " الشّرق والغرب خلال العصور الوسطى ، الفلسفة والعلوم ، ٩ – ١٥ أبريل ١٩٦٩ روما ، ١٩٧ ص ٤٧٩ – ٥٠٠ .

● روسية بوردوى . ح . " أسماء الأشياء فى الأندلس " اقتراح لمصطلح خزفى ، بالما دى مايوركا ١٩٩١ .

● السّكاتى " الكتاب فى آداب الحُسْبة " طبعة ج . س . كولين وليفى بروفينسال (كتاب إسبانى عن الحُسْبة) للمؤلف أبو عبد الله محمد السّكاتى دى مالقا

عن قوانين مكافحة الغش فى الأطعمة والحبوب فى العهد الإسلامى بإسبانيا (مطبوعات معهد هاوتيس للدراسات المغربية) باريس ١٩٣١ ، الجزء الحاديوالعشرون .

● عدة مقالات فى الموسوعة الإسلامية عن المطبخ ، الجزء الرَّابع ص ٧٩٧ – ٨٠٥ .

● وينيس . د . " المطبخ فى عصر الخلافة العربية بالعصور الوسطى " الطَّهى فى العصر الحديث ، لندن ، ١٩٨٩ .

الفصل السَّابع

الأندلس والمغرب في العصر الوسيط
(منذ القرن الحادى عشر حتى الخامس عشر)

إعداد : فرانثيسكو بيدال كاسترو

١- مقدّمة :

إنَّ العلاقات والروابط فى مختلف المجالات بين إسبانيا الإسلامية والمغرب مستمرة ومثرية ومثمِرَةٌ ، وهى ترجع إلى وحدة الغرب الإسلامى فى العصر الوسيط وتجانسه ، ومع ذلك فإنها تحتوى على كثير من نواحى الاختلاف والتميز . وفى ظل هذا الإطار العام الشامل المغرب - الأندلس تظهر الاتصالات والارتباطات والروابط التى تصل الأندلس بالمغرب(١) . لقد كانت المظاهر والعوامل السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية هى وسائل الربط والاتصال بين ضفتى مضيق العُدْوَتين (مضيق جبل طارق) .

و الفحص الدَّقيق لتاريخ الجانبين يُظْهِر أنَّه اعتباراً من أواخر القرن الحادى عشر الميلادى على وجه الخصوص يجد أنَّ التاريخ كان واحداً ومشتركًا ولا يتجزأ وإن كان متوازيًا ، ومن هذا المنطلق كان عنوان هذا المقال : التاريخ المشترك إبَّان القرون من الحادى عشر إلى الثالث عشر عندما وحَّد المرابطون والموحدون الأندلس والمغرب فى دولة واحدة ، هذا فضلاً عن التاريخ المتوازى خلال القرون من الثالث عشر إلى

الخامس عشر ، وذلك عند قيام الممالك المستقلة إثر سقوط الموحدين ؛ حيث نشأت هذه الممالك على شاطئ المتوسط التى تتشابه فيما بينها (وخاصة بين المرينيين فى فاس والنَّصريين فى غرناطة) فى تطورها وتاريخها هذا بعض عن أوجه الشبه الأخرى ونقاط وعناصر الاتصال المشتركة ٠

ويهدف هذا البحث تقديم بعض هذه العناصر وبعض الأمثلة للعلاقات بين الأندلس والمغرب من نقاط الاتصال المشتركة والتأثيرات المتبادلة وعمليات التبادل وخاصة فى الأندلس والمغرب ، وهذا سيتم من خلال فحص ومتابعة لتاريخيهما إبَّان الفترة المعنية بذلك ، والتى سنوضح فيها النقاط المشتركة أولاً ثم المتوازية فيما بعد وذلك اعتباراً من ظهور إمبراطورية الموحدين فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر إلى أواخر الخامس عشر نهاية عصور الأسرة النَّصرية فى غرناطة والميرينية فى فاس ٠

وعلى الرغم من أننا سندرس الجوانب السياسية ، فإنَّنا سنُعطى جانبًا من الأهمية للجانب الثقافى وكذلك فيما يتعلق بالعنصر البشرى والشعبى ٠

وسنتبع فى ذلك ترتيبًا زمنيًا فى عملية العرض وسنقدم عرضًا تاريخيًا موجزًا لكل مرحلة من هذه المراحل ؛ فالأمر هنا لا يتعلق بتقديم عرض تاريخى ولا إعداد متابعة مستفيضة لكل العوامل المشتركة والاتصالات إلخ .... بل سيقتصر الأمر على إبراز بعض الملامح والحالات الهامة وذات المغزى فى هذه العلاقة والتأثير المتبادل والتبادل والتقارب والاندماج ٠

وقبل الخوض فى الموضوع فمن الملائم إعداد نظرة عامة عن الوضع التاريخى ؛ ولذلك يجب أنْ نذكر أنه بعد سقوط الموحدين الذين حلُّوا محل المرابطين وانتزعوا إمبراطوريتهم نجد أنَّ تمزقًا سياسيًا أصاب الغرب الإسلامى نجم عن ظهور أربع ممالك مستقلة : النَّصريون فى غرناطة ، والمرينيون أو بنى مرين فى فاس ، والزيانيس فى ترميسين ، والحفصيون فى تونس ، كما أنَّ مصالحهم المتباينة فيما يخص الأهداف الجغرافية والسياسية والاقتصادية (طرق التجارة بالبحر المتوسط) جعلتهم يقيمون كافة التحالفات بما فى ذلك مع المسيحيين ٠وبعد أن انحسرت الأندلس فى

مملكة النِّصريين بغرناطة نجد أنها شهدت غزواً بربرياً ثالثًا أقل أهمية من الغزوين السابقين وقد تمثل هذا في قيام بنى مرين من المغرب بغزو الأندلس ، وبهذا الغزو تنتهى مشاركة شمال أفريقيا فى تاريخ الأندلس ، هذه المشاركة التى بدلاً من أنْ تنقذ الأندلس من المد المسيحى بشكل نهائى كانت سبباً فى أزمتها وتقويض مساحتها من الأرض وفقًا للملاحظات المهمة التى أبدتها ماريا خيسوس بيجيرا(٢) .

وفى إطار هذه الاعتبارات العامة يجب أنْ نتذكر عامل الاتصال الهام ألا وهو عنصر الهجرة التدريجى والمكثف لجزء من الأندلسيين الذين بدلاً من اللجوء والاحتماء فى أماكن تخضع للسيطرة الإسلامية نجدهم قد اختاروا الرحيل إلى المغرب اعتباراً من القرن الثانى عشر فى الوقت الذى تزايد فيه زحف المسيحيين وكذلك تقليص مساحة الأندلس .

و فى المجال الثقافى فإنَّ الاتصالات والعلاقات يجب ألا ننظر إليها على أنها بين كيانين مختلفين ، ولكن بين جزأين من الوحدة نفسها .وقد لعب الغرب الإسلامى (الأندلس) دوراً هامًا حيث بدأ فيه النشاط الثقافى قبل المغرب (٣) ، وبذلك كان للأندلس أهمية حيوية فى تكوين الثَّقافة العربية الإسلامية التى كان لها أكبر الأثر فى تلك الوحدة المشار إليها آنفًا .واعتباراً من القرن الحادى عشر وخاصة المغاربة نجد أنَّهم قاموا باكتساب ومحاكاة وإعادة إنتاج الثَّقافة الأندلسية ، أما فى القرن الثالث عشر وطوال عصر النِّصريين أصبح المغاربة مؤهلين لإقامة علاقة تعاون وتكامل على قدم المساواة مع أساتذتهم (٤).

٢ – بعض الأمور السَّالفة على هذا العصر:

لكى نتحدث قليلاً عن تاريخ هذه العلاقات الأندلسية الشمال أفريقية ومنحها مزيداً من الاستمرارية فإنه بوسعنا العودة إلى القرون السابقة والبحث عن بعض المقدمات التى تمنع من تقديم المسألة بشكل منعزل وغير مرتبط فيما يتعلق بالفترات السابقة ؛ ولهذا يمكن أن يؤخذ فى الاعتبار الأحداث والبيانات التالية :

لقد بدأ الاتصال فعلاً عندما بدأ الفتح العربى للأندلس ، وقد تزعم ذلك العنصر البشرى الشمال أفريقى ؛ فمعظم القوات التى وصلت مع طارق بن زياد كانت من البربر المغاربة وقد قام هؤلاء إلى جانب فرق عربية أخرى بتأسيس بعض المستوطنات بالأندلس : كما فى سيًرا مورينا والأندلس الشرقية ووادى وجنوب نهر الوادى الكبير .

كما أنَّ التمرد البربرى الكبير الذى وقع عام ٧٤٠ فى الأندلس كان قد بدأ فى المغرب ، وقد أُخْمِدَ هذا التمرد على أيدى القوات السورية التى كانت قد استُدْعِيَت خصيصاً لهذا الغرض .

وفى عام ٨١٨ حدثت هجرة مهمة من قرطبة إلى شمال أفريقيا ؛ فبعد القمع الدامى لتمرد أرَّابال ، فى قرطبة فإن الحكم الأوَّل الذى لقب بالربضى بسبب هذه الواقعة قام بنفى جميع سكان أرَّابال ؛ ولهذا فقد خرجت آلاف الأسر من قرطبة حيث استقر الكثير منها فى مدينة فاس ، وبدعوة من الأمير إدريس الثانى الذى أراد تعمير المدينة ، وقد أقامت هذه الأسر فى أحد الأحياء الجديدة الذى أطلق عليه فيما بعد أسم " مدينة الأندلسيين " فى مواجهة الضاحية المسماة " بالقيراونيين " ، وقد أسهم هذا الإسكان الأندلسى فى تطوير ونمو المدينة وكذلك دولة المغرب ؛ نظراً للخبرة الهائلة لهؤلاء فى الحياة الحضرية ، وكذلك نظراً لباعهم الطويل فى مجال تنسيق وتزيين الحدائق والبناء والحرف اليدوية (٥) .

وفيما بعد فإنَّ تدخل بنى أمية فى شمال أفريقية أدى إلى تحويل المنطقة إلى نوع من المحمية الأندلسية ؛ حيث أشرفت على كثير من الأراضى بالاحتلال المباشر لبعض المستوطنات كما هى الحال فى سبته ، هذا فضلاً عن اعتراف بعض الأمراء المغاربة بخليفة قرطبة ، وذلك لأسباب تتعلق بالنفوذ السياسى والمصالح التِّجارية ، كما أنَّ هذا الإشراف سمح لها بتجنيد جنود لخوض الحروب ضد المسيحيين ، وخاصة اعتباراً من عام ١٩٧١ (٦) .

وإبَّان حكم ملوك الطَّوائف يجب أنْ نشير إلى أنَّه على الرغم من عدم وجود إسهامات جديدة من القوات المغربية وأن كلا جانبى المتوسط قد انغلق على نفسه داخليا ، ولهذا توقفت العلاقات السياسية والعسكرية ، فإنَّه يجب إبراز قيام بعض

ممالك الطَّوائف البربرية ، فإنَّ بعض المجموعات المحددة التى تكونت من البربر المغاربة، والتى انضمت للجيش الأندلسى فى أواخر القرن العاشر وأوائل الحادى عشر قامت بتأسيس طوائف غرناطة ومالقة وروندا وقرمونة ومورون وأركوس.

و إعادة توحيد المرابطين فى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى تعنى تغييراً جذريًا وشاملاً فى العلاقات السياسية بين الجانبين على حد قول الأستاذة ماريًّا خوسيه بيجيرا ؛ حيث أبرزت أنَّه انطلاقًا من السيطرة الأندلسية على المغرب (الأسبقية الأموية على شاطئ المغرب الغربى) فى أوائل القرن وبعد توقف شبه كامل للعلاقات فى أثناء فترة ممالك الطَّوائف، ثم تأتى فترة السيطرة المغربية على الأندلس بالخضوع السياسى وإدراج الأندلس فى إمبراطورية المرابطين فى أواخر القرن الحادى عشر [٧] .

٣ - المرابطون [٨]

ويرجع أصل المرابطين إلى الحركة السياسية الدينية للإصلاح على المذهب المالكى التى ظهرت ونمت اعتبارًا من التحالف القَبَلى " شينايا " ، والتى كانت ترعى وترحل فى الصحراء الموريتانية فى منتصف القرن الحادى عشر ، وقد كان أهم زعمائها عبد الله بن ياسين ، وهو عالم مالكى كان واعظًا ومؤسسًا للحركة ، ويحيى بن عمر الذى تولَّى السلطة العسكرية فى السنوات الأولى ، وأبو بكر ويوسف بن تاشفين وقد جمع هذان الأخيران بين السلطتين الدينية والعسكرية ، وقام هؤلاء بتأسيس إمبراطورية المرابطين بعد غزوهم لجميع أراضى المغرب والوصول حتى تريسين وتأسيس مرَّاكش عاصمة لها ثم قاموا بغزو الأندلس ، وقد جعلوا حدود إمبراطوريتهم عند نهر السنغال فى الجنوب ونهر الإيبرو فى الشمال .

ومع ذلك لم يستطيعوا غزو الأراضى المسيحية المجاورة ، واكتفوا بحماية حدود إمبراطوريتهم . وبمرور الزمن فإنَّ الضغوط المسيحية صعَّبت المقاومة على المرابطين ، كما أنَّ هناك بؤرة أخرى أضعفت مقاومة المرابطين تركَّزت فى حركة الموحدين بالمغرب،

والتى إلى جانب الاستياء الاجتماعى والدينى الفكرى والسياسى فى الأندلس مما أدى إلى قيام بعض الحكام بإعلان راية التمرد والعصيان ضد المرابطين كما حدث فى (قرطبة وخائين وغرناطة والبرتغال وياداخوث ومالقة وقادش وومورثيا وبالينثيا) الأمر الذى تسبَّب فى قيام ممالك للطوائف مرة أخرى [٩] ، وهى ممالك مستقلة طلبت أحيانًا مساعدة الملك ألفونسو السادس (قرطبة) ومن الموحدين (قادش) أحيانًا أخرى . وبعد مرور وقت قصير طالب ملوك الطَّوائف الجدد من الموحدين التدخل من إسبانيا مما أدى إلى إلحاقهم الهزيمة بالمرابطين ، وبهذا بسط الموحدون نفوذهم على الأندلس[١٠] .

ولعل أهم حدث بارز فى العلاقات بين الأندلس والمغرب يكمن فى دعوة ملوك الطَّوائف للمرابطين لكى يساعدوهم فى حروبهم ضد النَّصارى تلك الدعوى التى فتحت باب الخلافات والضَّعف السياسى والعسكرى لملوك الطَّوائف مما أدى إلى فتح وإعادة توحيد إسبانيا الإسلامية على أيدى السُّلالة البربرية .

وقد تمت هذه الدعوة من خلال بعثة أرسل بها ملوك أشبيلية وياداخوث وغرناطة إلى بلاد المغرب ضمت كبار القضاة فى العواصم المذكورة ، وقد انضم إليهم قاضى قرطبة [١١] .

وفى هذا الوقت الحرج أصبحت عبارة شهيرة للملك الشَّاعر الذَّائع الصيت المعتمد بن عبَّادة (المتوفى ١٠٩٥ والذى حكم من ١٠٦٩ إلى عام ١٠٩١ عندما هُزِمَ على أيدى أمير المرابطين يوسف بن تاشفين) والذى قال قبل السُّقوط تحت النُّفوذ المسيحى أو اللجوء لمساعدة هؤلاء الوحوش الغلاظ من البربر المرابطين : " أُفَضِّلُ أنْ أكون راعى إبل فى أفريقيا على أنْ أكون راعيًا للخنازير فى قشتالة ". هذه العبارة الشهيرة كانت تعبر بإيجاز عن الوضع ، وكانت بمثابة تخمينة للنهاية التى كان التاريخ يخفيها لملوك الطَّوائف .ومن ناحية أخرى ، كان فى غاية الأهمية قيام الفقهاء باستدعاء المرابطين وذلك بتأييد من الشعب والذين إلى جانب الغاية العسكرية أدرجوا مآرب أخرى مثل : عودة الأخلاقيات إلى الحياة العامة وتخفيف الأعباء الضريبية ، وقد أدى هذا إلى حتمية عزل ملوك الطَّوائف ؛ ولهذا نجد أنَّ المفتيين المشهورين وذوى النُّفوذ أصدروا فتواهم ضد ملوك الطَّوائف ولصالح تدخل المرابطين [١٢] .

وكـان أول عنصـر اتصـال بين شـاطئى المتـوسط هـو العنصـر البـشـرى [١٣] : فـالجيـوش الغـازيـة للمرابطين التى دخلت الأندلس واستـقـرت فيـهـا كـانت من البـربر المغاربة الذين استُقبِلوا أعظم استقبال من جـانب شـعب الأندلس كمحـررين ، ولكن سرعان ما تدهور الوضـع السياسى والاجتماعى فتغيرت الحال رأسًا على عقب فأصبح هؤلاء البربر مستبدين ومضطهدين لشعب الأندلس ، وبزغت من جديد نزعة النفور من البربر وكراهيتهم لدى أبناء الأندلس ، والتى سجلها التاريخ ولكن بعد فوات الأوان؛ حيث كان تزايد البربر فى الأندلس أمرًا لا يمكن الرجوع فيه أو العدول عنه .

وإلى جـانب هؤلاء الجنود البـربر يجب أنْ نشـيـر إلى وجـود أسـر العلمـاء الذين ينتمـون إلى البـربر الذين وصلوا قـبل ذلك إلى الأندلس ، وقـد انصـهـروا تمامًـا فى المجتمع الأندلسى ، وكان لهم ثقلاً خـاصًا فى تكوين الهوية التاريخية المغربية وعلم التاريخ الخاص بها ، وهذا يخدمنا عند المغرب الخاضع لثقافة مادية راقية وسيطرة فكرية ، والذى سيتحول فيما بعد إلى الضَّيف والوريث [١٤] ، يعنى بذلك البربر الذين غزوا الأندلس .

وفى هذا المعنى أيضًا يجب أن نتذكر الشخصيات التى لا تحصى التى قَدِمَت إلى الأندلس بغرض الدراسة أو لتحسين واستكمال دراساتهم منذ القرن الحادى عشر وإبَّان كل الفترة التى هيمن فيها المرابطـون على مقاليد السلطة ، ومن هؤلاء : عبد الله بن غالب الهمدانى (المتوفى ١٠٤٢ أو ١٠٤٣) وأبو عمران الفاسى (المتوفى عام ١٠٣٧ أو ١٠٣٨) وموسى بن حماد السناجى (المتوفى عام ١١٤٠ أو ١١٤١) [١٥] . إنَّ أسفار هؤلاء العلماء المغاربة إلى ضفتنا استمرت منذ العصر الوسيط حتى قبيل الأحداث والاضطرابات التى سبقت سقوط غرناطة [١٦] .

ومن المناسب أيضًا إبراز التـأثير على الصـعيد اللغوى الذى حدث من جـانب المرابطين على الجزء المسيحى من شبه الجزيرة الأيبيرية نظرًا للعلاقات الوثيقة والزاخرة التى كانت تربط بين المرابطين والممالك المسيحية ، وهكذا فإن اللغة القشتالية أخذت عن العربية الكثير من المصطلحات والألفاظ فى تلك الفترة من بينها كلمة مرابطين [١٧] وكلمة ثيد [١٨] التى تعنى السيد ومرابيدى [١٩] وكلمة صنهاجا [٢٠] ... إلخ .

من ناحية أخرى ، فإنَّ التَّدفق البشرى حدث أيضًا فى الاتجاه المعاكس من الأندلس إلى المغرب ؛ فانتقال الأشخاص من على ضفة المضيق إلى ضفته الأخرى كان مستمرًا ، ولكن بينما كان معظم القادمين من المغرب إلى الأندلس محاربين نجد أنَّ القادمين من الأندلس إلى المغرب كانوا علماء ؛ فالعديد من الفقهاء والعلماء والمثقفين والأمناء الأندلسيين قد تقلدوا كبريات المناصب فى إدارة الإمبراطورية بالضفة الأخرى لمضيق جبل طارق ، هذا فضلاً عن انتشار حضارة الأندلس وثقافتها فى المغرب ، فالأمر يتعلق بانتقال العاصمة الثقافية إلى المغرب ؛ حيث إنَّ مقر بلاط الإمبراطورية والسلطة السياسية كان فى مرَّاكش ، أمَّا الأندلس فقد أصبحت محافظة أو إقليمًا [٢١] . وقد شجع كل هذا على زيادة العلاقات والاتصالات من القرن الحادى عشر الميلادى . وأمثلة لذلك نجد الفيلسوف ابن باجة (المتوفى ١١٣٨ تقريبًا) أستاذ ابن رشد الذى هاجر من سراقسطة وأقام فى المغرب مدفوعًا بمصالحه السياسية ، والشاعر الفتح بن خاكان (المتوفى عام ١١٣٤) والذى ترك منصب أمين سر حاكم المرابطين يوسف بن تاشفين فى غرناطة لكى يقيم فى مرَّاكش حيث لقىَّ حتفه فى ظروف مأساوية ، هذا فضلا عن الكثيرين الآخرين من الشخصيات التى بحث عنها حكام المرابطين من بين أمناء السِّر البارزين لكى تعمل فى خدمتهم [٢٢] . ويُضاف إلى الحدث السابق أن كثيرًا من علماء الأندلس - بطبيعة الحال - كانوا يتوقفون فى المدن المغربية التى كانوا يمرون بها فى أسفارهم إلى المشرق ذهابًا وإيابًا .

كما يجب ألا ننسى أيضًا نفى المستعربين أيضًا عام ١١٢٦ من جرَّاء تعايشهم وتأييدهم لألفونسو الأوَّل المقاتل فى أثناء حملته على الأندلس ؛ فقاضى قرطبة والجد ابن رشد انتقل إلى مرَّاكش (حيث توفى هناك) لكى يبلغ المسئولين عن خيانة هؤلاء المسيحيين وإصدار فتوى حكم فيها عليهم بالنفى إلى شمال أفريقيا ، وقد شمل هذا النفى اليهود أيضًا [٢٣] ، ولكن لم يكن اليهود والنَّصارى فقط الذين اضطروا للذهاب إلى المغرب ؛ فعبد الله آخر ملك زيرى فى غرناطة خُلِعَ من عرشه على يد المرابطين ونُفِىَ إلى المغرب وكذلك تميم دى مالقة والمعتمد الإشبيلى وملك الميريا رحل فى سفينة إلى قلعة بنى حمود فى وسط المغرب عام ١٠٩١ للفرار من اضطهاد المرابطين .

وهناك عنصر مشترك على الصعيد السياسى والاجتماعى فى الإمبراطورية بأسرها وهو التجانس بين الضفتين فى الأندلس والمغرب المرابطية وهو القانون أو المذهب المالكى ؛ فالدفاع إلى جانب أتباع هذه المدرسة الشرعية من جانب الأسرة المالكة ، والتى أعتبر حكامها أنفسهم الزعماء الدينيين المصلحين (زعماء الإصلاح) مما منح الفقهاء من الأندلسيين فى المقام الأوَّل سلطة كبيرة ونفوذًا وشهرة ، فقد كانوا بمثابة أساس أيديولوجية الدولة وعنصرًا مهمًا فى الرقابة الشعبية من خلال التطبيق الصَّارم للمذهب المالكى فى كل نواحى الحياة (٢٤) . وقد برز العديد من الفقهاء ذوى الفكر الأصيل والإنتاج الغزير ، والذين ذاع صيتهم خارج حدود مناطقهم الجغرافية ، ومن بينهم ابن رشد الجد (ابن رشد الجد المتوفى ١١٢٦) أو قاضى إشبيلية العظيم ابن العربى (المتوفى عام ١٠٩٩) .

وعلى الرغم من ذلك فإنَّ صرامة المذهب المالكى خنقت حرية الفكر ، كما قيد تطور الشعر ، وفى مقابل ذلك كان له أثر عظيم فى ازدهار التصوف وفى مرونة بعض مظاهر الحياة الاجتماعية مثل وضع المرأة التى تمتعت بوضع أكثر حرية فى المجتمع ؛ فعلى الرغم من شيوع المذهب المالكى وتطبيقه بصرامة فإنَّ بعض عناصر القانون العُرْفِى للرُحَّلْ من قبيلة الصناجى كانت مسموحًا بها فى المغرب ، ومن بينها الطريقة التى عاشت بها المرأة بشكل متحرر مما جعلها تتمتع بحرية معقولة فى مجتمع يسوده الرجال ، الأمر الذى سيتسبب فى الغضب الجامح لمهدى الموحدين ابن تومارت (٢٥) .

كما أنَّ الفن المرابطى نظرًا لتطوره البدائى قد تأثَّرَ بالفن الأندلسى الراقى المزدهر وإنْ كان قد احتفظ ببعض ملامحه الأصلية مثل البساطة والتلقائية المغربية . وفى هذا الصدد يجب أنْ نبرز أنَّ أحد إنجازات المرابطين فى المغرب فضلاً عن توحيدها قبليًا وسياسيًا وإداريًا تمثل فى محاكاة الحضارة الأندلسية ، وخاصة فيما يتعلق بتقنيات التشييد والتعمير .

٤ - الموحدون (٢٦)

إنَّ الأسرة المالكة التى حلَّت محل المرابطين فى الحكم امتدت إمبراطوريتها لتشمل الغرب الإسلامى بأكمله من تسربوليتانيا (الطرابلسية) حتى الأندلس - هى أسرة الموحدين ، وهى تشترك مع سالفتها فى العديد من الملامح الأساسية ، كما أنها من البربر ومن أصل مغربى ، وقد بدأت بأيديولوجية جديدة متزمتة .

لقد ظهرت الحركة الدينية السياسية التى أسسها ابن تومارت (المتوفى عام ١١٣٠) المهدى (الملهم من قبل الله) الذى بدأ فى مواجهة المرابطين منذ عام ١١٢٠ وبعد أنْ نشر أيدولوجية بين البربر فى قبيلته الأصلية والمصمودة فى جبال أطلس لجأ إلى مكان بعيد عام ١١٢٣ تيسمايال جنوب مرَّاكش حيث تحصَّن وبدأ كفاحه ضد الصنهاجى المرابطى . ويقوم فكره أو أيديولوجيته على توحيد الله ، وقد لُقِّبَ أنصاره بالموحدين وقد طالب بالعودة إلى الاستقامة وإلى المصادر الأصلية للدين والشريعة وهما القرآن والسنة ، وبهذا هاجم انحرافات الفقه المالكى الذى اتبعه المرابطون ، كما انتقد كذلك (تدهور التَّفسير الشَّرعى والدينى والابتعاد عن صفاء العقائد ونقائها والممارسات الدينية التى وصل إليها المرابطون .

هذا قد لَقَّبَ خلفاء المهدى أنفسهم بالخلفاء ، وقد أطاحوا تمامًا بالمرابطين من المغرب بعد أنْ استولوا على عاصمتهم مرَّاكش عام ١١٤٧ ، وقد امتد سلطانهم حتى إفريقية (تونس الحالية) وبعد عبورهم مضيق جبل طارق وغزوهم للمنطقة الإسلامية بشبه الجزيرة الأيبيرية نجد أنَّ توسع إمبراطوريتهم قد فاق بكثير مساحة إمبراطورية سلفهم من المرابطين.

ومع ذلك فإنَّ فتحهم للأندلس قد كلَّفهم الجهد الجهيد ، وقد تأخروا فى تحقيق ذلك عدة مرَّات نظرًا للمقاومة الشديدة التى بدأتها بعض الأماكن والمناطق فى مواجهة الغزاة الجدد من البربر ، وقد برز من بين المدافعين عن استقلال الأندلس ابن ماردنيس وابن حمشك اللذين سيطرا على المنطقة الجنوبية الشرقية (ليبانتى ومورثيا) كما احتلوا لفترة زمنية مؤقتة بعض المدن الهامة مثل خائين وغرناطة وقرمونة .

وقد استغرق بسط الموحدين سيطرتهم على المتمردين والقضاء على كافة القلاع والحصون والاستحكامات التابعة للمقاومة حوالى ربع قرن من الزمان ؛ لأنَّه لم يتم لهم ذلك إلا فى عام ١١٧٢ .

ولم تستمر حياة هذه الأسرة المالكة زمنًا طويلاً ؛ لأنه اعتبارًا من الحقبة الثانية من القرن الثالث عشر بدأت تتفاقم عوامل عدم الاستقرار والتمزق ؛ فالانقسام الداخلى من جرَّاء الصراع على الخلافة أدى إلى ضعفهم فى أعقاب هزيمتهم فى لاس ناباس دى تولوس على يد المسيحيين فى ١٢١٢ مما سهل تمرد الأندلسيين أنفسهم وكذلك ظهور طوائف ثالثة (٢٧) ، كما فى مورثيا بزعامة ابن هود وفى بالينثيا بقيادة زيَّان بن ماردانيس وكذلك عبد الله البياسى الذى خرج من بايیسادو استولى على قرطبة وجيان وكيسادا وأهمها خلافة محمد بن يوسف بن نصر الذى سُمِّيَت دولة بنى نصر باسمه ، وجدير بالذكر أنَّ ابن نصر تمرَّد فى أرخونا ، وفى عام ١٢٣٧ غزا غرناطة لكى يقوم بتأسيس الأسرة المالكة التى حملت اسمه ، والتى ضمَّت إليها كلَّ الأراضى النائية فى الأندلس وآخر بقاعها ، أمَّا باقى أراضيها فقد وقعت فى أيدى المسيحيين : أشبيلية وقُرطبة وجيان وجزر الباليار .

هذا وقد صمد الموحدون لهجمات المرينيين فى المغرب حتى عام ١٢٦٨ ؛ حيث استولى هؤلاء على مرَّاكش عاصمة إمبراطورية الموحدين المحتضرة .

وجدير بالذكر أنَّ المهدى قد أنشأ نظامًا سياسيًا ذا بنية طبقية كبيرة يرأسه مجلس استشارى يتألف من خمسين شخصًا من الأعيان .

أمَّا خليفته عبد المؤمن (المتوفى عام ١١٦٣) الذى لقَّب نفسه بالخليفة فقد تبنَّى هيئات للحكم مستلهمة من النِّظام الأندلسى ؛ حيث اتبع نظام الخلافة فى قرطبة وأبقى فى المقام الأول على بنية دولة المرابطين ، والتى كان أمناؤها ووزراؤها أندلسيين فى الغالب ؛ حيث استعان بهم عبد المؤمن فى إدارة شئون البلاد ، واعتبارًا من القرن الثالث عشر الميلادى فقد أطلق على الشئون المالية اسم أشغال كما هى الحال فى الأندلس وقد لُقِّبَ مسئولها بصاحب الأشغال ، بينما نجد أيضًا أنَّ كلمة مشرف من أصل أندلسى وهو مفتش مالى أو محصل رسوم الجمارك والضرائب ، والذى كان

مقره في دار الأشراف [٢٨] ، وفي هذا الصدد يجب أن نشير إلى بعض التغييرات التى أدخلها الموحدون فى الأمور الضريبية مثل إلغاء بعض الضرائب التى لم ترد بالقرآن الكريم ، والتى كان المرابطون قد أقرُّوها وفرضوها من قبل مثل القبالات [٢٩] ، وهى ضريبة على كل الصفقات التى تتم فى الأسواق .

وهناك عامل آخر تشبع به الموحدون من الأندلس وهو الجيش ؛ لأنَّ الخليفة الثانى للموحدين عبد المؤمن أخذ الحرس المسيحى للمرابطين كما قام خلفه فيما بعد بالاستعانة بالمرتزقة المسيحيين كما هى الحال بالنسبة لآخر خليفة للموحدين المأمون (المتوفى ١٢٣٢) الذى حصل على ١٥٠٠٠ رجل من ملك قشتالة ، وقد سمح لهم بممارسة شعائر دينهم على الملأ [٣٠] .

وليس من الغريب أنَّ وجود واتصال الموحدين بشبه الجزيرة الأيبيرية سيكون له تأثير لغوى كما حدث مع المرابطين فى اللغة الإسبانية ؛ حيث دخلت كلمات عربية كثيرة اللغة القشتالية ، وإذا كانت عملة المرابطين "المرابطى" فإنَّ عملة الموحدين كانت "المصمودى" وهى من الذهب ، وسبب تسميتها كذلك أنها نُسِبَتْ إلى قبيلة مصمودة وهى قبيلة بربرية ينتمى إليها الموحدون ، والتى أدت إلى وجود عملة إسبانية قديمة ماوثمودين بمعنى مسكوكة ذهبية (مرابطى) .

واعتباراً من القرن الثانى عشر بدأ الإسلام ينحسر فى الأندلس ؛ حيث بدأ المسلمون الهجرة من أراضيهم واستقر معظمهم فى المغرب ، ولقد قام المهاجرون من المزارعين بتطوير الزراعة بشكل ملحوظ وكذلك تدبير شئون المياه والرى ، بينما تفوق ذو الصناعات والحرف اليدوية على أقرانهم من أبناء البلد الأصليين ، أمَّا العلماء فقد تولوا مناصب رفيعة الشأن فى الإدارة والحكم كوزراء وأمناء ... إلخ . حتى إنَّه كانت لهم الأولوية على المثقفين الوطنيين [٣١] .

وفى هذا الصَّدد يمكننا أنْ نذكر بنى سعيد دى الكالا لاريال ، هذه الأسرة الشهيرة ذات النُّفوذ التى كان من بينها المفكِّرون السِّياسيون وخاصة فى القرن الثانى عشر ، حيث شغل أفرادها مناصب هامة فى كل من الأندلس والمغرب على حد سواء . هذه هى حال محمد بن أبى جعفر بن سعيد الذى كان حاكما لأشبيلية

وغرناطة وساليه ومرّاكش [٣٢] . وبالطريقة نفسها فى مجال الطّب [٣٣] نجد أنّ أطباء أجلاء من الأندلس مارسوا مهنتهم النبيلة فى بلاط الموحدين لخدمة ملوكهم مثل ابن الطفيل (المتوفى عام ١١٨٥ أو ١١٨٦) والعالم الكبير ابن رشد (١١٢٦ - ١١٩٨) وابن تملس دى الثيرا (المتوفى ١٢٢٣) ، وأيضًا كانت هناك مجموعة من الأطباء زاولوا مهام مهنتهم فى المستشفيات التى شيدها الموحدون واستمروا يزاولون عملهم بعد ذلك فى أثناء حكم المرينيين . ومثالاً لذلك أبو اسحاق ابراهيم الدانى وأنجاله (القرن الثالث عشر) الذين تولّوا منصب أمين مستشفى مرّاكش .

وبهذه الطريقة أيضًا ليس من الغريب أنْ تؤكد بعض المصادر أن مدينة فاس فى عصر الموحدين جمعت بين علم قرطبة والقرويين [٣٤] .

٥- الغرب الإسلامى إثر سقوط الموحدين
من القرن الثّالث عشر إلى الخامس عشر [٣٥]

٥-١- مقدمة

ويمكن من خلال هذه الفترة التاريخية تطبيق نظريات فيلسوف التاريخ العظيم ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦) على حياة الإمبراطورية ، وهذا يرجع لكون هذه الفترة هى عصره [٣٦] التى استخلص منها ملاحظاته وتأملاته بشأن تخصيص ١٢٠ عامًا فى التاريخ لإمبراطورية من أصل بدوى ، والتى انقسمت إلى ثلاثة أجيال : -

الجيل الأوّل : يرتبط بالفتح أو الغزو وتأسيس الدولة . والجيل الثانى : يرتبط بالاكتمال والنضج لحضارة مستقرة . أمّا الجيل الثّالث : يرتبط بالتدهور وقدوم أسرة أخرى لتحل محلها فى غزو البلاد . ولهذا فإنّ المرابطين بعد أن فتحوا المغرب والأندلس استقروا فى السلطة ووسّعوا إمبراطوريتهم التى نالها الضّعف والتّمزق فيما بعد ممّا أدى قيام الموحدين بالإطاحة بهم من السُلطة ، ولكن الموحدين لاقوا المصير نفسه أيضًا ، وإبّان النصف الأول من القرن الثالث عشر وقعت بعض الأحداث التى أنذرت

بنهاية الإمبراطورية التى أسسها الموحدون لانتهاء طورها الحيوى لثلاثة أجيال طبقًا لتصنيف ابن خلـدون فضعـف ملوكـهم الذين سيطرت عليهم طوائف مختلفة جعلتهم لا يستطيعون بسط سلطانهم على كافة الأراضى ؛ ففى الأندلس كما ذُكِرَ لقى الجيش هزيمة مريرة على أيدى المسيحيين فى ١٦ يوليو ١٢١٢ ، مما أدى إلى نهاية السلطة العسكرية للموحدين .

ويُضاف إلى التمزق السياسى فى شبه الجزيرة الأيبيرية وظهور طوائف جديدة تمزق المغرب أيضًا فى ممالك مستقلة وأول حاكم يعلن تمرده وعصيانه للسلطة المركزية هو حاكم إفريقية (تونس حاليًا) عام ١٢٢٩ ، وفى سنة ١٢٣٦ أعلن استقلاله التام ، وكان يُدْعى باسمه فى خطب الجمع وبهذا ظهرت الأسرة الحفصية . ففى عام ١٢٣٥ نجد أنَّ الأسرة البربرية زاناتا من بنى عبد الواحد بقيادة يجموراسان بن زيَّان (١٢٣٥-١٢٨٣) استقلت فى تريمسن والمنطقة المجاورة لها التى كانت تديرها بتفويض من حكومة الموحدين ، وهناك قبيلة بربرية أخرى زناتى والتى تربطها قرابة بالأسرة السابقة ، وكذلك بنو مرين الذين استولوا على مدينة فاس عام ١٢٤٨، واتسع سلطانهم لكى يُصَوِّبوا بعد ٢٠ عامًا الضربة النهائية للموحدين فى عام ١٢٦٨ ويستولوا على العاصمة مرَّاكش .

وجدير بالذِّكر أنَّ الممالك الثلاثة سيكون لها علاقة مرتبطة ومستقلة ذات مصالح مشتركة فى التوسع بالمنطقة وطموح فى السيطرة وعلى المغرب بأسره لكى تصبح كل واحدة منها سلفًا لإمبراطورية الموحدين وكذلك لهم عدو مشترك (وهو صديق وفقًا للزمن) ويتمثل فى النَّصارى ، ولن تحقق أية مملكة مآربها فى توحيد المغرب تحت سلطانها ؛ لأنَّه بالإضافة إلى عدم توافر القوة الكافية لها والمساندة اللازمة فإنَّ هذه الممالك كانت كلُّ منها تعوق تقدم الأخرى وزحفها .

وهناك عامل آخر مهم شهده ذلك العصر وهو زحف المسيحيين فى شبه الجزيرة الأيبيرية الذين كانوا يفتحون الأراضى الأندلسية ، وبدأوا فى سياسة توسعية فى المغرب وكذلك إقامة علاقات دبلوماسية مع مختلف ممالك المنطقة حتى بلغ بهم الأمر توقيع معاهدات وتحالفات بين المسيحيين فى شبه الجزيرة الأيبيرية ومسلمى ما وراء مضيق جبل طارق .

وهذا الزحف التوسعى للمسيحيين فى شمال أفريقيا سيكون له خلال القرن الخامس عشر نتيجة خاصة ومهمة بسبب تورطاتهم السياسية والاجتماعية ، ويتعلق الأمر برد الفعل الدينى وقيام المسلمين برد هذا الاعتداء الذى تمثل فى ثورة اجتماعية شاملة ذات طابع سياسى ودينى ، والتى تزعمتها الحركات الروحانية المنظمة (٣٧) .

وفيما يلى سنقوم باستعراض الممالك الأربعة بإيجاز ، تلك الممالك التى قامت على أنقاض إمبراطورية الموحدين فى الأندلس والمغرب لإلقاء نظرة شاملة على اللوحة التاريخية لهذه الفترة .

٥ -٢ الحفصيون فى أفريقيا (٣٨)

لقد كان صاحب التَّسمية صديقًا لابن تومارت ، ومنذ ١٢٢٩ حتى ١٥٧٤ حكم الحفصيون فى إفريقية (تونس الحالية) ، وقد تولَّى الحكم خلال هذه الفترة ٢٥عاهلاً حفصيًا وأهمهم هو أبو زكريا (١٢٢٨ - ١٢٤٩) مؤسس هذه الأسرة الملكية ونجله المستنصر (١٢٤٩ - ١٢٧٧) الذى قوَّى أركان الدولة ، وقد أطلق على نفسه لقب خليفة ، وبعده بدأت فترة من التمردات والانقسامات القومية التى سهَّلت غزو البلاد على أيدى المرينيين مرتين فى ١٣٤٧ أو ١٣٤٨و١٣٥٣ أو ١٣٥٤ ، هذا وقد عادت السلطة إلى الحفصيين على أيدى أبو العباس (١٣٧٠ -١٣٩٤) الذى وحَّد الدولة بعد أنْ أخضع لسيطرته التَّمردات المختلفة ووضع أسس الدولة الجديدة المزدهرة التى ستتسع طوال القرن الخامس عشر ، بينما نجد أنَّ الممالك المجاورة المرينية والزيانية كانت تتقهقر وتنكمش .

وتجدر الإشارة هنا إلى أنَّ الملكين العظيمين اللذين تولَّيا العرش خلال هذه الفترة هما : أبو فارس ١٣٩٤ - ١٤٣٤وأبو عمرو عثمان (١٤٣٥ -١٤٨٨) اللذان دعَّما الدَّولة وعملا على تقويتها حتى نعمت بالَّرخاء والازدهار السِّياسى والاقتصادى والثَّقافى ، وبعد ذلك حلَّ بها التَّدهور الحتمى .

أمّا علاقاتها مع مملكة الزياني ستكون ذات غزو عدواني وتدخل في شئون حكمها وأحيانًا بتوقيع التحالفات (٣٩) .

أمّا الحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والدينية فهى بصفة عامة مزدهرة ونشطة وذات علاقات خارجية واسعة .

ولقد كانت الجباية العامة أو الضرائب العامة تقوم على أساس الصدقة الجزية (ضريبة على الأفراد) فى ضرائب متعددة سواء على الأراضى أو على المحاصيل أو على التجارة وكذلك الضرائب على المعمار ، ولقد كانت الضرائب تدفعها القبيلة لشيخها ، والذى كان من حقه منح الامتيازات الضريبية .

ولقد كان الجيش ذا تكوين غير متجانس : عرب رُحَّل (كانوا أكثر عددًا) والبربر والشرقيون والأندلسيون والمسيحيون ، فقد كانت كتيبة ميليشيا من الفرسان المسيحيين القادمين من إسبانيا وإيطاليا تمثل حرس العاهل ، ويوجد أيضًا (قائد البحرية) فضلاً عن أهمية القرصنة التى كانت تمولها الحكومة ورجال الأعمال وتقوم بمهاجمة سفن الأعداء .

وفيما يتعلق بإدارة العدل فقد كان العاهل يقوم برد المظالم فى جلسات عامة كل أسبوع ، بينما كان القاضى فى تونس يعتبر القاضى الأعلى (قاضى الجماعة) ، وكان من بين اختصاصاته تعيين العدول فى كل بلد الذين تحولوا إلى موظفين وفى كل مدينة مهمة كان هناك قاض معين من قبل السلطان بعد استشارة القاضى الأعلى فى تونس وكبار رجال الدين . وقد تحول المفتى إلى موظف أيضًا اعتبارًا من النِّصف الثانى من القرن الرابع عشر الميلادى حيث كان يُعَيِّنهُ السلطان ، وكان يتقاضى راتبًا مقابل عمله ، وقد تزايدت أهمية ونفوذ المفتى بحيث تجاوزت أهمية ونفوذ القاضى الذى تحول إلى منفذ لفتاوى المفتى .

٥ – ٣ أسرة عبد الواحد فى وسط المغرب تريمسين [٤٠]

وهم يُسَمَّونَ أيضًا بالزيانيين نسبة إلى اسم زعيمهم الأوَّل بجموراسان بن زيَّان (١٢٣٥ – ١٢٨٣) الذين بسطوا نفوذهم على وسط المغرب واتخذوا تريمسين عاصمة لهم [٤١] طوال ما يربو على ثلاثة قرون منذ ١٢٣٦وحتى ١٥٥٤ . وعلى الرغم من أنَّ الدولة بدأت بملك استطاع التغلب على العقبتين الرئيسيتين للدولة الجديدة وهما النزعات القبلية بين البربر والكفاح ضد الميرينيين ، فإنَّها لم تحقق وضعًا سياسيًا قويًا وصلبًا ؛ حيث وقعت مرتين فى أيدى الميرينيين (١٣٣٧ – ١٣٤٨ ، ١٣٥٢ – ١٣٥٩) الذين كانوا يمثلون تهديدًا دائمًا للزيانيين طوال تاريخهم وبنفس الصورة وكما أسلفنا فإنَّ الحفصيين أقحموا أنفسهم فى السياسة الداخلية لدولة عبد الواحد وخلعوا ملوكًا وتوَّجوا آخرين وفقًا لمصالحهم ولإخضاع هذه الدولة بالتبعية .

وعلى وجه التحديد ، منذ ١٣٨٩ – ١٥٥٤ العام الذى استولى فيه الأتراك على تريمسين ، أصبحت هذه المملكة تابعة لفاس أو تونس ، ولم تنعم بحياة مستقلة منذ ذلك الحين .

ويرجع سبب الضعف السياسى لهذه الدولة أنَّها كانت خاضعة لسيطرة وقوة بعض المجموعات ذات الأصل العربى فى وسط المغرب والحتمية الجغرافية التى وضعت المملكة الزيَّانية بين نارين : فى الشرق الحفصيون وفى الغرب الميرينيون كما أشرنا إلى ذلك آنفًا ؛ ولذلك فليس من المستغرب أنَّه فى عام ١٥٠٩ وقعت تريمسين تحت السيادة الإسبانية التى كانت تبسط سيطرتها على وهران .

ومع ذلك فإنَّ نشاطها الاقتصادى والتجارى لم يتدهور على الإطلاق ، كما أنَّ حياتها الثقافية كانت بارزة ومثمرة .

وكان جيش هذه المملكة يتألف فى المقام الأول من الفرق الهلالية وإنْ كان بجموراسان لديه قوات من التركمان والأكراد والنَّصارى ، وقد كانت الإدارة أو الحكومة منظمة وبها أشخاص أكفاء ، وقد كان الوزراء يُعينون من قبل السلطان وهم دائمًا من أفراد الأسرة الحاكمة فى البداية ، ولكن فيما بعد أسندت هذه المناصب إلى

الأندلسيين ، وكان الوزراء يتولُّون قيادة ورئاسة الجيش هذا إلى جانب سلطة قوية ، وقد كان الحاجبُ عالمًا فى القانون والمالية .

وفيما يتعلق بالضرائب يجب أنْ نبرز الامتيازات الضريبية التى منحوها لقواتهم العسكرية من الهلاليين ، والذين كُلِّفوا بجباية الضرائب مقابل حصة معينة منها .

٥-٤ المرينيون فى المغرب [٤٢]

لقد قوى التحالف القبلى الزناتى لبنى مرين منذ عصر الموحدين ، كما قوى وضعهم حتى عام ١٢٤٨ حيث استولى أحد قادتهم أبو يحيى (١٢٤٤- ١٢٥٨) على فاس ، وانطلاقًا من هذه المدينة استطاع التقدم وغزو بقية أرجاء إمبرطورية الموحدين، وقد تُوِّجَ ذلك بالاستيلاء على مرَّاكش فى عام ١٢٦٨ ، على يد أبى يوسف (١٢٥٨ - ١٢٨٦)، وبهذا بدأ حلم بنى مرين فى التحقق : وهو خلافة الموحدين فى إمبراطوريتهم ، وقد كان التوسع فى هذه الفترة ملحوظًا ؛ حيث قام المرينيون بحملتين عام الأندلس فى ١٢٧٥ ، ١٢٧٧ ، كما تم تأسيس مدينة فاس الجديدة .

وقد تمَّ الحفاظ على هذا الوضع رغم الصُّعوبات (تمردات داخلية) فى أثناء حكم أبى يعقوب (١٢٨٦ - ١٣٠٧) ثم سيتداعى ذلك بعد وفاته حتى مجىء أهم قادة هذه الأسرة وهو أبو الحسن (١٣٣١ - ١٣٥١) حيث عاشت فى عصره دولة المرينيين أوج عظمتها وازدهارها ، هذا إلى جانب عصر نجله الذى خلفه فى الحكم (١٣٤٨ - ١٣٥٨) ، وتعيش الدولة أوج مجدها حيث خصصت قوتها للتوسع فشنت الحملات على الأندلس وإنْ كانت هذه الحملات لم يكتب لها كل النجاح ، وقد تم افتتاح تريمسين فى ١٣٧٧ و١٣٥٢وتونس فى ١٣٤٧ ، ١٣٥٧ كما تم فى ذلك الوقت تحقيق أكبر منجزات هذه الأسرة مثل المساجد فى فاس والمنصورة والكثير من المدارس، وقد تمَّ أيضًا ترميم مستشفى فاس ... إلخ .

وفيما بعد بدأت فترة التدهور الطويلة التى تميزت بالفوضى وضعف الملوك التى ستنتهى عام ١٤٢٠ بفقدان السلطة الفعلية للعاهل لكونه قاصرًا لصالح أحد أفراد

بني وطّاس ، الأمر الذى أدى إلى فقدان أسرة المرينيين للحكم لصالح الأسرة المذكورة عام ١٤٦٥ وعلى وجه التحديد حدث تمرد فى مدينة فاس فى العام السّالف الذّكر حرّض عليه الخريفيون الذين تمتعوا بنفوذ ملحوظ فى الحياة الدينية بالمدينة . وقد حدث هذا التمرد فى غياب السلطان عبد الحق آخر حاكم مريني، ويرجع سبب ذلك إلى زيادة الضّرائب ، وقد بويع الخريفى إدريس محمد الجوتى زعيمًا ، ولن يسترد الوطاسيون مدينة فاس حتى عام ١٤٧٢ (٤٢) ، وينتهى بذلك المشروع السّياسى الطّموح للمرينيين لإصلاح إمبراطورية الموحدين .

وعلى الرغم من ذلك فإنّ إنجازات المرينيين فى المجالات الدّينية والفنية والثقافية مهمة ؛ فهناك الكثير من الإنجازات المعمارية ، وكذلك ازدهار العلوم والأنشطة الدينية وإعادة أحلال المذهب المالكى الذى كان قد انزوى أو اختفى بسبب الموحدين .

وعلاوة على ذلك فقد وقعت بالمدينة بعض الأحداث التى كانت لها أهمية فى الحياة الاجتماعية بالدولة ؛ ففى عام ١٤٣٧ تم اكتشاف مقبرة مولاى إدريس ، وقد شجع المسئولون على زيارتها ، هذا فضلاً عن الحركة الدينية الصوفية وحركات الإخاء التى نمت بشكل ملحوظ كما كان لها تاثير كبير فى الحياة السياسية (٤٤) .

وفى المجال الضريبى فقد فرضت الحكومة ضرائب ليست قرآنية ، وقد حصلت القبائل والعشائر العربية على امتيازات أراضٍ كثيرة حيث عُهِدَ إليهم بجباية ضرائبها ، وقد تلقّى الخريفيون والأولياء كمية محددة من الخزانة العامة ، كما أنّ جمعيات الإخاء قد تمتعت بإعفاءات ضريبية ، وقد تولّى اليهود فى نهاية العصر الميرينى مهمة جباية وتحصيل الضّرائب دون أن يأخذوا فى الاعتبار النُّصوص والتعاليم القرآنية ولا مراعاة التنازل عن جزء من الجزية للخريفيين والمرابطين وفقًا للعرف السائد آنذاك .

لقد كان الجيش الميرينى فى بداية الأمر محدوداً، ويتكون من سلاح فروسية هائل ثم زاد عدده فيما بعد حيث انضم إليه أفراد من الزناتيين من وسط المغرب وعرب فضلاً عن التركمان والفرنسيين والأندلسيين ، وقد أنشأ أبو يوسف ترسانة فى مساليه بينما كانت سبته القاعدة البحرية الرئيسية ، ولكن البحرية أو الأسطول بدأ فى التّدهور فى عصر أبى الحسن .

وفى إطار العدالة يمكن إبراز شخصية قاضى فاس الجديدة الذى كان بمثابة القاضى الأعلى ، والذى كانت له ضيعة ممنوحة من الدولة فضلا عن راتبه الكبير والهدية السنوية .

٥ –٥ الوطّاسيون فى المغرب [٤٥]

بعد أن تولى الوطاسيون الحكم بشكل صورى أو اسمًا فقط عام ١٤٢٠ ، والذين كانوا ينتمون إلى أسرة لا تتمتع بأهمية سياسية واصلت هذه الأسرة نفس النَّهج السياسى للميرينيين فى التَّصدى لهجمات البرتغاليين .

وبعد اختفاء أخر مرينى عام ١٤٦٥ تم تأسيس الوطاسيين بشكل رسمى فى مدينة فاسوكان أول عاهل منهم هو محمد الشابى (١٤٧٠ أو ١٤٧١ حتى ١٥٠٤ أو ١٥٠٥) والذى سيتبعه محمد البرتغالى (١٥٠٤ أو ١٥٠٥ إلى ١٥٢٦) [٤٦] ، وقد اعتُرِفَ بالأوَّل منهما كسلطان فى عام ١٤٧٠أو ١٤٧١ من قبل فاس وإبان حكمه الذى استمر ٣٥ عاما واجه العديد من الصعوبات .

ففى السياسة الخارجية نجد أن الهجمات المسيحية البرتغالية والقشتالية حدَّت من نفوذ كثير من المدن المغربية ، أمَّا على الصعيد الداخلى فإنَّ ادعاءات الاستقلال من جانب بعض الزعماء المحليين وبعض الخريفيين وزعماء جمعيات الإخاء أدَّت إلى تعريض سلامة وترابط الدولة للخطر الداهم ، وقد أدَّيا بالفعل إلى تمزيق الدولة حتى انحسر سلطانها فى المنطقة الشمالية من أراضيها ، وقد أدى كل هذا إلى توقيع هدنة إجبارية مع البرتغاليين إثر سقوط مدينة أرسيلا .

إنَّ زحف المشركين وتوقيع الاتفاق سالف الذكر إلى جانب أسباب أخرى اجتماعية وسياسية أدت إلى ردود فعل شعبية خلال النصف الثانى من القرن الخامس عشر والأوَّل من القرن السَّادس عشر ذات طابع دينى قومى [٤٧] شجعت على التصدى والنضال ضد الغزاة ، وقد تزعمت هذا النضال جماعات الإخاء التى كانت تعمل بشكل مستقل ، وفى عام ١٥٠١ فُضَّت الهُدْنَة مع البرتغال ، ولم تستطع هذه الأسرة المغربية

التصدى لفتوح البرتغاليين ، كما أن التّمردات الدّاخلية قد تزايدت ، وفى النّهاية فإنّ هذا التّمزق قد سمح للخريفيين بطرد الأسرة الحاكمة وإعادة توحيد الدولة عام ١٥٥٣ .

ومن جانب أخر ومن وجهة النظر الثقافية يجب إبراز الازدهار العام فى الحياة الفكرية والجامعية فى فاس الميرينية والوطّاسية (٤٨) ، وعلى وجه الخصوص فى الفقه حيث شهد تطوراً لم يسبق له مثيل ؛ حيث حجب أو غطى على كلّ أنواع المعرفة الأخرى ؛ فالعلماء كانوا فى المقام الأوّل ، وكان الفقهاء فى الدرجة الأولى يليهم فى الترتيب علماء النحو والفلك والرياضة والمؤرخون ... إلخ .

٥-٦- النّصريون فى غرناطة

إنّ تاريخ مملكة النّصريين فى غرناطة معروف لنا إلى حد كبير بفضل دراسات راتشيل أرييه (انظر المراجع) ، ولذلك فإننا سنقتصر فقط على إعطاء فكرة شاملة عن ذلك فضلا عن الملامح البارزة .

لقد بدأت هذه المملكة نتيجة التمزق السياسى للموحدين كواحدة من ممالك الطّوائف الثلاثة ، وهى مملكة غرناطة التى بدأت عام ١٢٣٢ عندما أعلن محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر عن استقلاله فى أرخونا ودخوله غرناطة فيما بعد عام ١٢٣٧ ، وإنْ كان النّصريون فى بداية الأمر قد خضعوا لقشتالة لتدعيم قوتهم ونفوذهم ، وبعد ذلك تحالفوا مع أشقائهم فى الجهة المقابلة لمضيق جبل طارق ثم تأرجحوا فى التحالف بين هؤلاء وأولئك .

إنّ الازدهار الثقافى والفنى الذى شهده القرن الرّابع عشر الميلادى جاء نتيجة توقف الكفاح ضد الزّحف المسيحى ، هذا التوقف الناجم عن الحرب الأهلية فى قشتالة فى النّصف الثانى من القرن الرابع عشر .

ومع ذلك ففى القرن الخامس عشر الميلادى نجد أنّ غرناطة عاشت فترة من الثّورات والانتفاضات والنّزاعات الداخلية وعدم الاستقرار السّياسى والضّعف

العسكرى فضلاً عن التقدم والزحف النصرانى . إن ضعف الميرينيين لم يسمح بتقديم المساعدة والمساندة لأشقائهم الأندلسيين مما سهل الأمر على المسيحيين .

ويتحسن الوضع بتولى أبى الحسن على (١٤٦٤ – ١٩٨٢) ، ولكن فى عام ١٤٦٩ تم زواج فرناندو ملك أراجون مع إيزابيل ملكة قشتالة ، وقد نجم عن ذلك توحيد إسبانيا المسيحية ، وبعد سنوات قليلة بدأ هذان الملكان هجومهما النهائى على غرناطة، والذى بدأ عام ١٤٨٢ بالاستيلاء على قصر الحمراء هذه القلعة الحصينة التى سمحت للأندلسيين بالبقاء طوال قرنين ونصف من الزمان فقدت فعاليتها وتهاوت قلاعها وحصونها ، واستحكاماتها النَّصرية الحصينة أمام فعالية المدفعية المتقدمة المدمرة ، وقبل هذا الزَّحف الكبير للأعداء نجد أنَّه قد تمت الإطاحة بمولاى حسن ؛ حيث قام الغرناطيون بزعامة أبناء ثيراخيث بمبايعة نجله أبى عبد الله محمد ملكًا عليهم خلفًا لوالده فى نفس العام أى ١٤٨٢ .

إنَّ نشوب الحرب الأهلية فضلاً عن تقدم وزحف الملوك الكاثوليك أديا إلى استسلام غرناطة عام ١٤٩٢ ، واعتباراً من هذا التاريخ تزايدت الهجرة من الأندلس إلى المغرب خاصة وإلى شمال أفريقيا بصفة عامة ، وبعد غزو غرناطة تزايد الأمر نظراً لقسوة وصعوبة الظروف المعيشية للمسلمين تحت السيطرة المسيحية .

وفى مجال الهيئات يجب الإشارة إلى أهمية السلطان الذى كان يتدخل فى كلِّ الشُّئون كما تزايدت أهمية الهيئات القضائية ؛ فكان للقضاة والعدول وكتاب العدل والموثقين والمفتيين إلخ ....مقام عظيم .

وقد أفاد الفن النَّصرى من فنون العصر السابق وطوره فى مجال الهندسة المعمارية والفنون الزُّخرفية ، ومع ذلك ففى القرن الخامس عشر الميلادى ظهر تأثير الميرينيين قويًا .

و فى مجال الأدب نجد أنَّ ازدهار القرن الرَّابع عشر الميلادى لن يتحقَّق فى القرن الخامس عشر ، وقد برزت بعض الشَّخصيات فى مجال الأمثال وفى فن الفروسية أو المختارات الشِّعرية .

٦ - علاقات بنى ميرين والنَّصريين فى الفترة من القرن الثَّالث عشر حتى الخامس عشر .

ونظرًا لأنَّ المساحة الجغرافية التى تحتلها المغرب فى الوقت الحالى هى المنطقة التى كان يحتلها الميرينيون و كذلك النَّصريون (كلتا الأسرتين ظهرتا فى أعقاب تفتت إمبراطورية الموحدين التى انتهت فى النصف الثَّانى من القرن الخامس عشر)، وسيتركز اهتمامنا عن هذه الفترة فى العلاقات التى ربطت المرينيين مع مملكة غرناطة آخر معقل للإسلام الأندلسى .

ففى بداية أسرتهم ولتدعيم وتوطيد سلطانهم خضع النَّصريون لملوك قشتالة ، ولكن اعتبارًا من الرُّبع الأخير للقرن الثالث عشر تخلص النَّصريون من هذه التَّبعية ولجأوا إلى الميرنيين فى فاس ، ويمكن اعتبار عام ١٢٧٤ بداية تدخل الميرنيين فى الشئون الداخلية لغرناطة .

وخلال الفترة من القرن الثَّالث عشر إلى الخامس عشر نجد أنَّ الميرينيين قد تدخلوا سياسيًا فى الأندلس وإنْ كان الأمر لا يتعلق بغزو أو احتلال شامل كما حدث فى عصر الموحدين والمرابطين من البربر، فإنَّ الأمر يتعلق باحتلال هؤلاء الزنانتين لفترة محدودة ولأماكن محددة أقل مما كان للصناجة والمصمودة السابقتين؛ لأنهم لم يحتلوا سوى ثلاث مدن هى الجزيرات وجبل طارق وروندا . ومع ذلك كان لهم تأثير أخلاقى وأدوا إلى تأخير وإعاقة الفتح المسيحى ؛ لأنَّه من نهاية القرن الثَّالث عشر فإنَّ السلاطين الميرينيين ذهبوا إلى الأندلس شخصيًا خمس مرَّات ، وإبَّان النِّصف الأول من القرن الرَّابع عشر اشتركوا بشكل مكثف فى المعارك التى نشبت من أجل إحكام السيطرة على مضيق جبل طارق (وعلى سبيل المثال فى ١٣٣٣ عاد الميرينيون واحتلوا جبل طارق التى كان تحت سيطرة القشتاليين) ، كما أنَّ هزيمة الميرينيين فى معركة سلادو وبالاشتراك مع النَّصريين (فى عام ١٣٤٠) أدى إلى فقدان الميرينيين للمدن الثلاث التى كانت تحت سيطرتهم (الجزيرات وجبل طارق وروندا) وعودتهم إلى فاس لتفادى مزيد من التَّدهور الدَّاخلى الذى سيكون أمرًا حتميًا فيما بعد .

ومن جهة أخرى يجب إبراز أن الاحتلال الذى قام به الميرينيون لبعض المدن كان نتيجة لتحالفهم مع النَّصريين فى بداية الأمر وإنْ كان التفاهم والانسجام بشأن المصالح لم يكن شاملاً فضلاً عن استياء وغضب السلاطين الغرناطيين تجاه تزايد سلطة بنى مرين، وقد أدى هذا الأمر إلى فك التحالف بينهما (٤٩) ؛ فقد استمر ينبض بالمشاعر الأندلسية ضد بربر شمال أفريقيا (٥٠).

و لهذا فإنَّ التَّدخل المفرط لبنى مرين فى الشُّئون الدَّاخلية للنَّصريين أدى إلى قيام النَّصريين فى بعض الأحيان بالتحالف من جديد مع المسيحيين (٥١) والبحث عن التحالف مع الزَّناتيين فى تريمسين ؛ فالقطيعة بين النَّصريين والميرينيين ستكون نهائية فى ١٣٧٢ عندما أقام محمد الخامس علاقات ودية وطيبة مع تريمسين وتونس واحتل جبل طارق آخر معاقل الميرينيين فى الأندلس .

ومن وجهة النظر الثقافية فى الأندلس نجد أنَّ الأسفار إلى المشرق قد تراجعت ، وقد تعلق النَّظر بالاتجاه صوب الطَّرف الثانى لمضيق جبل طارق العدوى ؛ حيث تُقدِّم المملكة الميرينية سلسلة من العناصر الاجتماعية الثَّقافية والسِّياسية مشابهة لما كان تقدمه مملكة النَّصريين فى غرناطة تجعلها قبلة وكعبة للعلماء الغرناطيين ، كما أنَّ ملوك الميرينيين كانوا يستقبلون هؤلاء العلماء والمفكرين فى بلاطهم ، وقد أنعموا عليهم بالثراء والتَّشريف والتَّكريم وفى بعض الأحيان منحوهم اللجوء السياسى ، ومع ذلك فإنَّ هذا لم يتحقق فيما بعد ففى عصر الوطَّاسيين خلال ما يعرف باسم أول عصر للهجرة الكبيرة من الأندلس إلى المغرب بسبب الغزو المسيحى ، وإبَّان هذه السنوات عاشت البلاد ظروفًا من الاضطراب السِّياسى والتَّدهور الاقتصادى والاجتماعى الذى كان له أكبر الأثر السلبى على حياة ومعيشة المهاجرين (٥٢) .

هذا ، وقد تزايد حجم الاتصالات والتَّبادلات الثَّقافية ، وظهر كثير من الأندلسيين الذين كانوا يدرسون فى المدن المغربية مثل فاس ومكناس ، كما أنَّهُ فى غرناطة تم استخدام كتب تعليم أُلِّفَت وكُتِبَت فى المغرب مما جعل بنية التعليم فى غرناطة والمغرب متشابهة تمامًا فى القرن الخامس عشر أكثر من أى وقت مضى وكذلك البنية العلمية لمختلف الممالك (٥٣) ، ويعتبر هذا تتويجًا لعملية طويلة انتهت بالتشابه الثقافى العربى

الإسبانى من جانب المغرب خاصة فى عهد الميرينيين فوفقًا لبعض المصادر فإنَّ جانبًا من المغرب أصبح كالأندلس (٥٤) ، وأمثلة هذا التكامل بين الضفتين " العدوتين " متعددة ، ويمكن رؤيتها فى مختلف المجالات من النَّشاط الفكرى : التعليم والعلوم اللغوية والفنون والتَّاريخ والعلوم (٥٥) .

ولهذا فإنَّ كثيرًا من العلماء الأندلسيين (الغرناطيين) الذين اتجهوا إلى الشاطئ الآخر لمضيق جبل طارق مثل العلامة الكبير الوزير ابن الخطيب الذى ارتبطت حياته بالمغرب بشكل وثيق حتى إنَّهُ مات فى فاس عام ١٣٧٥ وقد اتهم بالزَّندقة والكفر، كما أنَّ كثيرًا من الشعراء الغرناطيين مثل ابن بباش العبدرى الذى درس فى سبته، وابن الصباغ العقيلى الذى ترك الإدارة الغرناطية لكى يعمل بالأمانة الملكية فى فاس حيث توفى فى عام ١٣٥٧ ، ومحمد بن الأوزاعى (المتوفى عام ١٣٥٦) الذى بعد أن أساء النَّصرى يوسف الأوَّل معاملته هجر غرناطة وأقام فى فاس ؛ تحت حماية أو فى كنف السُّلطان أبى عنان فارس الذى أهدى إليه كثيرًا من قصائد المدح وإبراهيم النميرى (المتوفى ١٣٨٣) الذى استقر به المقام فى فاس حيث خدم السَّلاطين الميرينيين أبى الحسن وأبى عنان وأبى القاسم البارى (المتوفى ١٣٨٤) ، والذى كان أمينًا لأبى عنان وكاتب المراسلات الرسمية له وقد تمَّ تعينه قاضيًا للعاصمة ، وابن الأحمر (المتوفى عام ١٤٠٤ أو ١٤٠٧) الأمير النَّصرى الذى فرَّ من غرناطة لكى يلجأ إلى فاس ؛ حيث كرَّس حياته لتأليف الأعمال الأدبية والتاريخية عن الأندلس والمغرب إلخ......(٥٦).

وإلى جانب هؤلاء الأدباء تجدر الإشارة هنا إلى مجموعة من الفقهاء البارزين الذين زاروا أو درَّسوا فى المدن المغربية الرئيسية .ومثال ذلك الرحلات العلمية إلى المغرب للفقيه الغرناطى المنتورى (المتوفى عام ١٤٣٠) الذى أتم دراسته فى فاس (٥٧).

ويمكن ملاحظة ذلك أيضًا فى مجال الطِّب ؛ حيث خرج من غرناطة معظم الأطباء الذين وصلوا إلى المغرب ؛ حيث شاركوا فى دفع الحركة العلمية فى عصر الميرينيين ، ومن بينهم يمكن ذكر التَّالية أسماؤهم الطَّبيب وعالم الفلك ابن ركَّا

(المتوفى ١٣١٥) ، وفيما يبدو أنه من مورثيا ، وقد هاجر ليستقر به المقام فى بوجيا؛ حيث عاد منها إلى الأندلس وكان الملك النَّصرى محمد الثَّانى قد استدعاه ليعيش هناك ، وأبو تمَّام غالب الشَّاقورى (القرنين الثَّالث عشر والرَّابع عشر) الذى مارس الطِّب فى بوجيا وغرناطة قبل أنْ يقيم فى فاس كطبيب للعاهل المرينى أبى الحسن ، والمالقى محمد بن قاسم القرشى (١٣٠٣ - ١٣٥٦) الذى درس فى شمال أفريقيا، وقد عُيِّنَ مديراً لمستشفى فاس عام ١٣٥٣ .وقبل عام ١٣٦٥ أو ١٣٦٧ كان قد أقام هناك أبو عبد الشُّديد ، وهو من مواليد جيان مثل سابقه ، والذى كان ناظراً للأسواق فى مالقة والغرناطى فرج الخزرجى ، وقد تولَّى منصب مدير مستشفى فاس فى عهد حكومة محمد الوطَّاسى (١٤٧١ - ١٥٠٤) ، وقام ببعض الإصلاحات وأدخل على ما يبدو موسيقيين فى غرف المرضى الذين كانوا يعانون من اضطرابات عقلية (٥٨) .

ولم يكن الطِّب فقط هو الذى شهد الانتقال الثقافى بل أيضًا علومٌ أُخرى مثل الفلك ، والتى يمكن أنْ نشير إلى التَّأثير الكبير اعتباراً من القرنين الثَّالث عشر والرَّابع عشر لأعمال أزارقيل وأزاكلوه (القرن الحادى عشر) فى الفلكيين المغاربة (٥٩) .

وبالإضافة إلى ذلك وكما قيل من قبل ففى الاتجاه المضاد فقد استمرت الأسفار والرحلات العلمية ؛ حيث ظلَّ المغاربة يتوافدون على غرناطة حتى السَّنوات الأخيرة السابقة على سقوط المدينة .ومن بين هؤلاء الفاسيان الزقَّاق (المتوفى عام ١٥٠٦ أو ١٥٠٧) وأحمد الداقون (المتوفى عام ١٥١٥) أو قاض طيطوان محمد القراسى (المتوفى عام ١٥٥٦ أو ١٥٥٧) (٦٠) .

وفى المجال الثقافى أيضًا يجب أنْ نشير إلى التُّراث الموسيقى الأندلسى الذى تلقته المغرب ، وطبقًا لكلمات محمد المنُونى فقد تمَّت مغربة هذه الموسيقى ، وذلك بتطبيع وتكييف مقطوعاتها وأشعارها وأنغامها (٦١).

وكل هؤلاء العلماء قد تركوا أثرًا ثقافيًا وعلميًا فى الثَّقافة العربية استمرت حتى يومنا هذا كما يعترف بذلك المفكرون المغاربة الحاليون (٦٢).

الهوامش

(١) فى الفترة التى ندرسها فإنَّ المغرب لم تكن موجودة ككيان سياسى وقومى محدد ومستقل.ومع ذلك فإننى قد سمحت لنفسى باستخدام مصطلح المغربى وإنْ كان من الأصح الحديث عن المغرب أو المغرب الأدنى والمغرب الأقصى لتحديد الموقع الجغرافى فى شمال أفريقيا الذى تحتله حاليًا المغرب .

(٢) ب. بيجيرا المداخلة ، رقم ٢٤٤ .

(٣) وحول هذه الأسبقية اطلع على زانيبا - تايتر - ٧٦ - ٧٩ ، المقال الذى يتناول تأثير الثَّقافة الأندلسية فى المغرب وأثره فى التطور العلمى على ضفتى المضيق .

(٤) المنونى نماذج ١٤٤ .

(٥) ليفى بروفينسال ، إسبانيا ١٠٨ - ١١١ .

(٦) عن التدخل الأموى فى شمال أفريقيا - انظر ب. بالبية المداخلة ، وبيجيرا ، العلاقات ٢٥٨ - ٢٦٤ وبيجيرا ممالك الطَّوائف .

(٧) ب. بيجيرا ، العلاقات ، ممالك الطَّوائف ١٥٥ - ,١٦٤

(٨) الدِّراسات المتخصصة الحديثة عن هذه الأسرة : هاجر ، المرابطون ، باستور المرابطون ، انظر أيضًا المراجع المذكورة فى الملاحظات التالية وكذلك المدرجة فى القائمة الأخيرة .

(٩) عن ممالك الطَّوائف بعد عصر المرابطين انظر دندش ، الأندلس ٧٠ - ١٠٠ ، وبيجيرا ممالك الطَّوائف ١٨٩ - ٢٠١ .

(١٠) عن ضعف المرابطين وأسباب سقوط هذه الأسرة الحاكمة ، انظر التحليل الذى أعده.دندش فى هذا الصدد ، الأندلس ، ٢٣ - ٢٥ .

(١١) لا جاردير المرابطون ، ١٠٧ .

(١٢) بوش المرابطون ١٤٩ - ١٥٠ بيجيرا الرسائل ، بيجيرا ممالك الطَّوائف ١٧٢ - ١٧٤ .

(١٣) توجد عدة أعمال تتحدث عن أهمية وتأثير هذا العنصر البشرى وقضية القبلية فى المجتمع الأندلسى مثل عبد الكريم ، العنصر ، بوش الأندلس ، بوش البربر ، بوش العنصر ، ابن عبود البنية شاليتا الفتح ، هذا فضلاً عن الأعمال المعروفة لجيتشارد .

(١٤) شاتزميلر التراث (ذا ليجانس) فيليبى " الأسر " .

(١٥) عن هذه الشّخصيات ومغاربة أخرين ذهبوا ليدرسوا فى الأندلس انظر زانيبار تابتير ٩٣ - ٩٧ .

(١٦) المنونى نماذج ١٤٥ - ١٤٦ .

(١٧) كلا المصطلحين مشتقان من العربى المرابط ويعنى الزاهد ، الراهب المحارب الذى يعيش فى دير أو قلعة بعيداً أو منعزلاً عن الناس يعيش حياة متقشفة مخصصة للعبادة والصلاة والحرب لأسباب تتعلق بالعقيدة ، وفى اللغة الإسبانية هناك عدة كلمات مرابيطو ، مورابوطو ، ومارابوطو فضلاً عن كلمة مارابو ، وهو طائر مغربى يشبه البجع ولكن أكبر حجماً حيث يستخدم ريشه فى الزينة وهذه الكلمة من أصل فرنسى ، وقد أطلقها الفرنسيون على المرابطين أيضاً فى القرن التّاسع عشر لتشابه سلوك الطائر مع عبادة المرابط ، وقد استعان الفرنسيون بهذه الكلمة بعد استنادهم إلى كلمة مرابطو الإسبانية .

(١٨) من العربى سيدى وهى نطق موجز لكلمة سيِّدى وهى صيغة احترام وتبجيل فى إسبانيا الإسلامية وقد أطلقت على الشهير رودريجو دى بيبار الذى نُفِىَ من قشتالة فى عهد الفونسو السّادس وعاش بين المسلمين ، وكان فى خدمة طوائف سراقسطة ، وقد انتقل ذلك إلى اللغة الإسبانية "Cid" أى السيد أو سيدى .

(١٩) من اللغة العربية مرابطى : عملة صغيرة من الفضة من عصر المرابطين وكذلك صفة مشتقة من اسم المرابطين والتى بصفة عامة تشير إلى المرابطين ومن هذه الكلمة أُشتق فى اللغة الإسبانية لفظ مرابيدى ومشتقاتها مرابيدينو ، مرابيدين ، موربى وموربيديل .

(٢٠) من اللغة العربية صناجى مشتق من صناجة مجموعة قبائل بربرية من البدو الرُّحل من الصحراء الغربية التى خرج منها المرابطون وقد انتقلت إلى اللغة الإسبانية " cehegi " بينما نجد أنّ اسم القبيلة أصبح فى اللغة الإسبانية " Zanhaga " .

(٢١) ومع ذلك فليس لهذا السبب لم يتلق عناية خاصة من جانب الأمراء المرابطين الذين انتقلوا فى مناسبات عديدة من الغرب إلى الأندلس إمّا فى حملات حربية أو لأنشطة سياسية وعلى سبيل المثال الأمير الأوّل يوسف بن تاشفين عبر إلى الأندلس خمس مرّات (١٠٨٦ ، ١٠٨٨ ، ١٠٩٠ ، ١٠٩٧ ، ١١٠٢ ، ١١٠٣) بينما قام نجله بالذهاب إلى الأندلس أربع مرّات .

(٢٢) المنونى نماذج ١٤٣ .

(٢٣) د. سيُرانو " فتونان " بالبية " الهجرة " ، ١١٠١ أو ١١٠٢ وصول سياسة المرابطين المتسامحة مع المسيحيين مقال بوتشيش بعنوان " المرابطون " .

(٢٤) ومع ذلك كان هؤلاء الفقهاء الذين ساندو السُّلطة والحكومة المرابطية بعد أنْ استدعت الأمير يوسف بن تاشفين لعزل ملوك الطّوائف الذين ثاروا ضد حكامهم فى الأندلس وأسسوا ممالكهم الخاصة . انظر فى هذا الصدد ثورة القضاة دندش " الأندلس " ٧٦ - ٩٤ دراسة للسِّيرة الذاتية لكبار القضاة فى هذا العصر وكذلك يمكن وجود ذلك فى عمل لاجارير " السُّلطة " .

(٢٥) عن هذه القضايا وأخرى تتعلق بوضع المرأة فى عصر المرابطين فى عدم وضعها للحجاب عند خروجها من منزلها انظر دندش " الأندلس " ٣١٥ إلى ٣١٧ وخاصة ٣١٦ ودندش " أدوار "وخاصة ٤٩ - ٥٠ .

(٢٦) عن هذه الأسرة فإلى جانب الأعمال الكلاسيكية أ. هويتش ميراندا وأخرين انظر بيجيرا الممالك ٢٠٣ - ٢٢٨ وحول بدايتها فى الأندلس دندش " الأندلس " ١٠١ - ١٢٠ .

(٢٧) حول التمزق السياسي بعد الموحدين في الأندلس انظر بيجيرا ، " الممالك " ٣٢٩ - ٣٤٧ .

(٢٨) إدريس " المغرب " ٥ - ٧ .

(٢٩) إدريس " المغرب " القبالى ، جمع قبلات ضريبة ليست قرآنية عن القيمة الشرائية فى الأسواق أى ضريبة على أية صفقة تتم فى السوق (وهى تُشبه ضريبة المبيعات فى عصرنا الحاضر)·وقد انتقلت إلى البنية الاقتصادية المسيحية وقد استخدمها الإسبان بنفس اللفظ لتعنى الضرائب التى تحصل على عمليات البيع والشراء فى الأسواق وقد اشتُق منها قبلات الربح ، وهى ضريبة كانت تؤخذ من الأجنبى على السلع التى كان يبيعها أما كلمة الكابلاريو فتعنى جابى هذه الضرائب .

(٣٠) إدريس " المغرب " ١٣ .

(٣١) بالبية " الهجرة " ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٣٢) مورال ، شعراء ، ٢٦٧ - ٢٦٨ .

(٣٣) كاستيلس ، الطب ١١٦ ، ١١٨ ، ص ٩ ، ١٢٢ ص ٤ .

(٣٤) المنونى نماذج ، ١٤٣ .

(٣٥) المصادر والمراجع المستخدمة فى إعداد هذا الجزء فإلى جانب ما ذكر ، ابن مرزوق ، المسند ، ابن خلدون التاريخ وخاصة الأجزاء ٢ ، ٣ ، ٤ نصرى ، الاستقصاء ، ابن نصر ، التاريخ ، ماركايس ، البربر ، ٢٧٧ - ٣٠٤ جولين ، التاريخ ص ١٣٢ - ٢٠٣ (الحفصيون ١٣٥ - ١٥٤ ، الزناتيون ١٥٤ - ١٦٣ ، المرينيون ١٦٣ ، ١٨٣ ، الوطاسيون ١٨٣ - ٢٠٣) ابن شقرون ، حاجى ، مصادر وهناك أعمال أخرى عن هذا العصر يمكن أن نجدها فى إنتاج باحثين مثل عطا الله دينا وجورج ماركايس وفيرمين ريكينا وروبرت برونشفيج وجاستون ديفيردون ومايا تشاتر ميلر .الخ ...

(٣٦) وبالإضافة إلى ذلك فقد كان المؤرخ فى خدمة السلاطين فى الممالك الإسلامية الأربع فى الغرب (النصريين والحفصيين والميرينيين والزناتيين) مما يجعله شاهداً فريداً على الأحداث ويجعل أيضاً عمله أحد المراجع الأساسية لدراسة هذه اللحظة .

(٣٧) كور لاستباليشمينت ٣٢ - ٣٥ - ٥٢ - ٥٣ .

(٣٨) العمل الرئيسى عن هذه الأسرة المالكة للمؤلف برونسفيج " البربر " انظر أيضاً إدريس " الحفصيون "والمراجع المذكورة فى ص ٧٢وابن شقرون " لاميليية " ٤٠ - ٤٣ وكذلك الأعمال المذكورة فى الملاحظات السابقة وخاصة ابن خلدون " التاريخ " الجزء الثانى ص ٢٨٦ - ٤٧٦ والجزء الثالث من ص ١ إلى ١٢٣ الجلالى " تاريخ " الجزء الثانى ٧ - ٦٨ .

(٣٩) فى أثناء حكم أبى فارس حدثت عدة تدخلات فى مملكة عبد الواحد لكى تتضمن حكومته بعض العاملين من التابعين للدولة ففى عام ١٤٢٤ تم خلع عبد الواحد ابن أبى حمو وتُوّجَ محمد بن تاشفين، وفيما بعد قام السلطان المخلوع فى عام ١٤٢٨ باسترداد عرشه بمساعدة الحفصيين ولكنه قُتِلَ فى صراعه على السلطة التى تولاها محمد مرةً أخرى . وقد أدى هذا إلى تدخل عسكرى آخر من جانب تونس التى احتلت تريمسين عام ١٤٣١وقد تُوّجَ أبو العباس أحمد بن حمو . والسلطان التونسى الذى خلفه : أبو عمرو عثمان بعد

أن أعاد السلام إلى ربوع البلاد الداخلية ليتمكن من التدخل فى تريمسين عام ١٤٦٢ عندما خُلِعَ حليفه على يد الامير الثائر بى عبد الله بن أبى زيان الذى استطاع الاستيلاء على العاصمة ، ولكنه إزاء الوجود العسكرى أضطر لإعلانه تابعًا للحفصى المذكور . إنَّ هذا الخضوع قد تم تعزيزه أيضاً بالأسلحة ففى عام ١٤٦٦ إثر محاولات الاستقلال التى قادها أبو عبد الله .

(٤٠) وإلى جانب المراجع فى الملحوظتين السابقتين انظر تناسى ، تاريخ ، ابن خلدون ، تاريخ الجزء الثالث ص ٢٢٦ – ٤٩٢ ، الحبيات " أبو حمو " الجلالى : تاريخ الجزء الثانى ص ١١٤ – ٢٦٩وابن خلدون ، بارخيس " تكملة " بارخيس تليمسان ، ماركايس عبد الواحدى والمراجع المذكورة فى ص ٩٦ – ٩٧ وابن شقرون ليميلية ٤٤ – ٧ . كما يجب الأخذ فى الاعتبار أيضًا أعمالاً أُخرى لعطا الله دينا عن هذه الأسرة .

(٤١) ووفقًا لبعض المؤلفين فهو اسم بربرى مكون من كلمتين تليم التى تعنى اجتماع وسان التى تعنى اثنانوالتى تشير إلى الموقع الطبيعى للمدينة بين الصحراء ، والتلال ، الونسارى إيضاح ٤ الملحوظة ٤ .

(٤٢) أضف إلى الأعمال المذكورة ما يلى : ابن الأحمر " روضات " ابن أبى ثار " الأنيس " ٢٧٨ – ٤١٤ النص العربى الجزء الثانى ص ٥٣٠ – ٧٤٦ ترجمة ، ابن خلدون تاريخ الجزء الرابع ص ٢٥ – ٤٨٦ ، نصيرى الاستقصاء الأجزاء الثالث والرابع ، الجلالى تاريخ الجزء الثانى ص ٦٩ – ١١٣ ، ابن شقرون لابية (الطريق) ص ٢٠ – ٣٠ باسم ، بريجنون ، تاريخ ص ٨٢ – ١٣٣ (مراجع تتضمن قائمة مراجع ممتازة من ص ١٥٦ – ١٦٣ ز بيجيرا التاريخ ...

(٤٣) ليفى بروفينسال ، التاريخ الجزء الثالث ، ابن ناصر التاريخ ص ١٣٥ .

(٤٤) بريجنون " تاريخ المغرب " ص ١٧٢ .

(٤٥) عن الأسرة النصرية ، الاستقصاء الجزء الرابع ص ٩٩ – ١٦٦ كور الأسرة المالكة ، كور لاستباليشمينت ٤٧ (شجرة النسب) ابن شقرون لاميليية ، ابن شقرون لابيية ، ص ٣١ – ٣٣ ، باسم بريجفون ، تاريخ ، الفصل ١٣ ، ١٦٦ – ١٨٢ ، ليفى بروفينسال الوطاسيون ، روسسينبرجر " لاريتشرشى " . أمَّا المصدر الأساسى لهذه الفترة الذى يتناول تاريخ هذه الأسرة لعام ١٥٤٧ هو كراسى عروسات الأرجوزة رقم ٤١٢ وهى عبارة عن أبيات شعرية حيث يتم فيها استعراض جميع عاهلى أو ملوك هذه الأسرة .

(٤٦) يوجد خلاف حول تواريخ أو زمن حكم هذين السُلطانين . اذكر المرجع كور : الأسرة ص ٧٦ – ٩١ ، ١١٣ – ١٥٣ .

(٤٧) كور : الأسرة ١٠٠ – ١٠٥ ، باسم .

(٤٨) بيركية ، المدينة والجامعة .

(٤٩) لقد كانت هناك بعض المناسبات أو المرات التى أيد فيها الميرينيون المعارضة ضد السُلطان الرسمى . وقد حدث هذا فى البداية عندما طلب بنو أشقيلولا ملاك مالقة مساعدة سلطان فاس فى ١٢٧٤ الذى سلموه مالقة ١٢٧٨وقد تحققت لهم مساعدته وقد وقعوا التحالف الثلاثى معه ومع ملك قشتالة (الميرينيون ، وأشقيلولا والقشتاليون) ضد السلطان النصرى محمد الثانى . ومع ذلك لم يفدهم بشئ ؛ لأنَّه فى عام ١٢٨٨ قام آخر حاكم من بنى أشقيلولا بتسليم قادش للنصرى محمد الثانى حيث استقر به المقام فى المغرب .

(٥٠) أربية " العلاقات " بيجبيرا التَّدخل .

(٥١) وعلى سبيل المثال " أرُبياس " بنو مرين .

(٥٢) رازوق : التجربة ، ٦٧ – ٦٨ .

(٥٣) ابن شريفة " من العام " ٣٤ .

(٥٤) المنونى ، نماذج ١٤٤ .

(٥٥) أمثلة لكل واحد من هذه المجالات فى المنونى نماذج ، ١٤٥ – ١٥٦ .

(٥٦) انظر عن هؤلاء الشعراء وأخرين مورال " شعراء " ص ٢٧٠ – ٢٧٥ .

(٥٧) حول هذا الموضوع ابن شريفة من العام .

(٥٨) عن هؤلاء الأطباء جميعهم كاستيلز " الطب " ١١٥ ، ١١٩ – ١٢٢ ، ١٢٤ – ١٢٥ ، ١٢٦ – ١٢٧ . .

(٥٩) كوميس " أبروموس ".

(٦٠) المنونى نماذج ، ١٤٥ – ١٤٦ .

(٦١) المنونى نماذج ، ١٥٢ ، المنونى المستقى .

(٦٢) ابن شريفة من العام ، ١٥ .

المراجع

● عبد الكريم .ج . " العنصر الشمال أفريقى وإسهاماته فى التَّاريخ السياسى والثقافى للأندلس " ، فى المؤتمر الإسبانى الأفريقى لثقافات البحر المتوسط ، الأسس التاريخية لعلاقة جوهرية (١ - ١٩٨٤) غرناطة ، ١٩٨٧ (٢٦٩ - ٢٨٠) .

● ابن نصر خ . م " تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى " ، جامعة كمبردج برس ، ١٩٨٧ .

● أربية " المملكة النَّصرية فى غرناطة " ، مدريد ، مافرى ١٤٩٢ ، إسبانيا الإسلامية فى عصر النَّصريين ، ١٢٣٢ - ١٤٩٢ ، باريس ، بوكارد ، ١٩٩٠.

● أربية " علاقات المملكة النَّصرية فى غرناطة بالمغرب " من ١٣٤٠ إلى ١٣٩٠ .

● جارثيا أرينال علاقات ٢٠ - ٤٠ .

● أريباس بلاو ماريانو " بنو مرين فى المعاهدة الموقعة بين أراجون وغرناطة " فى مؤتمر الدِّراسات العربية والإسلامية (١ ، ١٩٦٢ ، قرطبة) مدريد ١٩٦٤ ص ١٧٩ - ١٨٨ .

● بارخيس خ . خ . ل ، تكملة تاريخ بنى زيَّان ملوك تريمسين ، دوبرات ، ١٨٥٩ .

● ابن عبود محمد ، البنية الاجتماعية فى الأندلس إبَّان عصر الطَّوائف : مسألة القبلية فى الحوار الإسبانى المغربى (٣٦٣ - ٣٧١) .

● ابن شقرون م . ب . أ ، العناصر الثقافية (دراسة اجتماعية وثقافية وفنية لعصر المرينيين والوطَّاسيين ، الرِّباط ، ١٩٧٠ .

● ابن شريفة م . من العام فى الحوار الإسبانى المغربى ١٥ - ٤١ القسم العربى .
ابن شقرون (الطَّريق الفكرى المغربى فى عصر الميرينيين والوطَّاسيين خلال القرون من الثَّالث عشر حتى السَّادس عشر) الرباط ، ١٩٧٤ .

● بيركية جاكيس ، المدينة والجامعة " تاريخ مدرسة فاس " ، مراجعة تاريخية لدوريت ، السلسلة الرابعة عام ٢٧ (١٩٤٩) ٦٤ - ١١٧ .

● بوش خاثينتو " المرابطون " دراسة تمهيدية أعدها إيميلو مولينا لوبيث ، غرناطة جامعة ، ١٩٩٠ (١٩٥٦) .

● بوش . خ ." الأندلس الإسلامية العرب والبربر " ملاحظات وأفكار على موضوع قديم ، الأندلس الإسلامية نصوص ودراسات ١ (١٩٨٠) ص ٩ - ٤٢ .

● بوش خاثينتو " البربر فى الأندلس " البربر فى الأندلس فى المؤتمر الإسبانى المغربى لثقافات البحر المتوسط ، الأسس التَّاريخية لعلاقة جوهرية (١ ، ١٩٨٤) غرناطة ، ١٩٨٧ ، ٢٦١ - ١٦٨ .

● بوش . خ . " العنصر البشرى الشَّمال أفريقى فى تاريخ إسبانيا الإسلامية " مذكرات المكتبة الإسبانية فى طيطوان ، (١٩٦٤) .

● بوش . خ . ، إمبراطوريات الصَّحراء فى خ . بيرنيت وآخرين . " الإسلام من القرن الحادى عشر إلى الثَّالث عشر " مذكرات التاريخ ١٦ رقم ٣٣ ص ١٨ - ٢٥ .

● بوتسيس إبراهيم القادرى " الموحدون وسياسة التَّسامح مع النَّصارى فى الأندلس " الجزء الثَّانى ، ١٤١٤ - ١٩٩٤ ، ص ٣٢ - ٣٤ القسم العربى .

● بريجنون . خوآخرون ، تاريخ المغرب ، باريس ، هايتير ١٩٦٧ .

● كاستيلزمار جارثيا " الطِّب فى الأندلس والمغرب " القرون من السَّابع إلى التَّاسع الهجرى ومن الثَّالث عشر للخامس عشر الميلادى ، فى الحوار الإسبانى المغربى ١١٥ - ١٢٧ .

• شالميتا بيدرو الغزو ٧١١ – ٧١٣وتكوين الأندلس ، الحوار الإسبانى المغربى ، ١٦١ – ١٦٨ .

• الحوار الأسبانى المغربى للعلوم التَّاريخية " تاريخ وعلوم ومجتمع " (الثَّانى ، ١٩٨٩ غرناطة) مدريد ايكما ١٩٩٢ .

• كوميس مرسية ، تأثير السرقوه فى شمال أفريقيا ، الحوار الإسبانى المغربى ١٤٧ – ١٥٩ .

• كور أوجست " أشر الوطَّاسيين " (١٤٢٠ – ١٥٥٤) قسطنطينية ، ١٩٢٠ .

• تأسيس أسرة أشراف المغرب (١٥٠٩ – ١٨٣٠) باريس ، لوركيس ، ١٩٠٤ .

• دندش . أ . أدوار سياسية فى دولة المرابطين ، الحوار الإسبانى المغربى ٤٩ – ٦٥ (القسم العربى) .

• دندش عصمت ، الأندلس فى نهاية المرابطينومستهل الموحدين (٥١٠ – ٥٤٦ / ١١١٦ – ١١٥١) التَّاريخ السِّياسى والحضارة ، بيروت ، دار الغرب الإسلامى ، ١٩٨٨ .

• ديفوركو شارليز إيمانويل ، العلاقات بين شبه الجزيرة الأيبيرية وشمال أفريقيا خلال القرن الرَّابع عشر الميلادى ، حوليات الدِّراسات فى العصور الوسطى ، الجزء السَّابع (١٩٧٠ – ١٩٧١) ص ٤١ – ٦٥ .

• فيليبى هلينا " أسر العلماء من أصل بربرى فى الأندلس " الحوار الإسبانى المغربى ، ١٦٩ – ١٨١ .

• جارثيا أرينال مرسيدس وبيجيرا م . خيسوس (طبعة العلاقات بين شبه الجزيرة الأيبيرية والمغرب من القرن الثالث عشروحتى الخامس عشر) جلسات الحوار ، مدريد ، المجلس الأعلى للبحث العلمى وايكما (معهد التعاون مع العالم العربى) ، ١٩٨٨ .

• جاوتيير أى . ف . شمال أفريقيا إبَّان العصور المظلمة ، باريس ، بايوت ، ١٩٥٢ .

● التاريخ العظيم لألفونسو العاشر ، طبعة دييجو كتالان ، مدريد ، جريدوس ، ١٩٧٧

● هاجر سها عبودوآخرون " المرابطون فى الأندلس " تاريخ ١٦ - ٢١٣ يناير (١٩٩٤) ٤١ - ٧٤ .

● حياة عبد الحميد " أبو حمد موسى الزيَّانى " ، الجزائر ، الشَّارقة ١٣٩٤ هـ ١٩٧٤ م .

● حاجى . م . " المصادر العربية لتاريخ المغربوالأندلس فى القرنين الخامس عشر والسَّادس عشر الميلاديين " ، فى جارثيا أرينال علاقات ، ٢٧٣ - ٣٨٨ .

● ابن أبى زار الفاسى (القرن الرَّابع عشر) دار المنصور ١٩٧٢ ترجمة ، أ . هيوتشى ميراندا بالينثيا ١٩٦٤ .

● ابن الأحمر ، (١٤٠٤) روضة النِّسرين فى تاريخ بنى مرين ، تقديم وترجمة ميجيل أنخيل مانثانو ، مدريد ، المجلس الأعلى للبحث العلمى ، ١٩٨٩ .

● ابن خلدون ، عبد الرحمن (١٣٣٢ - ١٣٨٢) تاريخ البربر فى الأسر الإسلامية بشمال أفريقيا ، ترجمة البارون دى سلانى ، باريس ، بول كازانوبا ١٩٢٥ - ١٦٥٦ .

● ابن خلدون ، يحيى (١٣٧٨) بنو عبد الواحد وتاريخهم ، ترجمة : ألفريد بيل ، الجزائر ، الطِّبعة الشَّرقية ، ١٩٠٣ - ١٩١٣ .

● ابن مرزوق (١٣١٠ - ١٣٧٩) المسند ، أحداث أبى الحسن سلطان المرينيين ، دراسة وترجمة للإسبانية ماريا خيسوس بيجيرا ، مدريد ، احاق ، ١٩٧٧ .

● إدريس هادى روجرز " الحفصيون " " إف " الجزء الثَّالث ، ٦٨ - ٧٢ ، الخامس .

● إدريس هادى روجرز " مغرب المرابطين تحت السيطرة التركية " أبريل ١٩٧٩ ١ -١٦ .

- جولين تشى – أندرية ، تاريخ شمال أفريقيا الجزائر وتونس والمغرب منذ الفتح العربى وحتى ١٨٣٠ ، باريس ، بايون ، ١٩٦١ .
- كراسى محمد عروسات المسائل فى حكم بنى وطّاس ، طبعة عبد الوهاب ، المنصور الرِّباط ، ١٣٨٣ / ١٩٦٣ .
- لا جارديير بينست " المرابطون فى عهد يوسف بن تاشفين " ١٠٣٩ – ١١٠٦ ، باريس ، لارماتان ، ١٩٨٩ .
- لا جارديير " القضاء فى عصر المرابطين " القنطرة ، العدد ٧ (١٩٨٦) ص ١٣٥ – ٢٢٨ .
- ليفى بروفينسال " الأدب التَّاريخى فى المغرب من القرن الخامس عشر حتى القرن العشرين " ، باريس ، لاروس ١٩٢٢ .
- ليفى بروفينسال " تاريخ إسبانيا الإسلامية حتى سقوط خلافة قرطبة " (٧١١ – ١٠٣١) مدريد ، اسباسا كالبى ، ١٩٨٢ .
- ليفى بروفينسال " الوطَّاسيون " فى مجلة إل العدد الرابع ، ١١٩٤ – ١١٩٦ .
- المنونى محمد ، الموسيقى الأندلسية بالمغرب ، البحث العلمى ، ١٤ – ١٥ ص ١٤٧ – ١٧٧ .
- المنونى محمد . نماذج من التَّكامل الثَّقافى بين المغرب والأندلس فى عصر غرناطة الحوار الإسبانى العربى ١٤٣ – ١٥٧ (القسم العربى) .
- ماركايس جورجيس ، عبد الواحد فى مجلة إل العدد الأول . ص ٩٥ – ٩٧ .
- ماركايس . ج . البربر المسلمون ، باريس ، أوبيير ١٩٤٦ .
- مورال مولينا تيلياديل " شعراء غرناطيون فى شمال أفريقيا " فى الحوار الإسبانى المغربى ص ٢٦١ – ٢٧٧ .
- ناصرى . أ . (المتوفى عام ١٨٩٧ الاستقصاء فى دول المغرب الأقصى ، الدار البيضاء ، دار الكتب ١٩٥٤ – ١٩٥٦ .

● باستور مونيوثوبيدال كاسترو فرانثيسكو ، المرابطون " اقتراب من تاريخهم في حملة المهد للمرابطين والمدن المفقودة في موريتانيا " ، غرناطة ، سييَّرانيفادا ، ٩٥ ، في الصَّحافة .

● رازوق محمد " التجربة الأندلسية في المغرب خلال القرنين السادس عشروالسابع عشر " في الحوار الإسباني المغربي ، ٦٧ – ٧٤ (القسم العربي) .

● مراجع عن العلاقات بين شبه الجزيرة الأيبيرية وشمال أفريقيا خلال القرنين الخامس والسَّادس عشر ، طبعة جارثيا أرينال م . أجيلار ، مدريد ، ١٩٨٩ .

● روسينبرجر بيرنارد " المغرب الحديثة " دراسة إسلامية ، ٦٨ (١٩٨٨) ص ١٤٧ – ١٦٩ .

● سيَّرانو ديلفينا " فتوتان عن طرد المستعربين عام ١١٢٦، رَف الدِّراسات العربية ، العدد الثاني (١٩٩١) ١٦٣ – ١٨٢ .

● ساتز ميلر مايا " تاريخ الميرينيين لابن خلدون " ، أبريل ، ١٩٨٢ .

● ساتز ميلر مايا " تراث البربر بالأندلس في القرن الرَّابع عشر "وكذلك في جارثيا أرينال علاقات (٢٠٥ – ٢٣٦) .

● تناسي محمد (المتوفي ١٤٩٣) تاريخ بني زيَّان ، ترجمة خ . خ . بارخيس ، باريس ، دوبرات ، ١٨٥٢ .

● بالبية خواكين " التدخل الأموي في شمال أفريقيا " ، دفاتر المكتبة الإسبانية في طيطوان ، ٤ (١٩٦٧) ٧ – ٣٩ .

● بالبية . خ . الهجرة الأندلسية في المغرب خلال القرن الثَّالث عشر ، في جارثيا أرينال : علاقات ٨٧ – ١٢٩ .

● بالبية . خ . ، العلاقات بين الأندلس وشمال أفريقيا عبر مضيق جبل طارق من القرن الثَّامن حتى الخامس عشر " المؤتمر الدولي ، مضيق جبل طارق (العدد الأول ١٩٨٧ سبته) مدريد ١٩٨٧ العدد الثاني ، ص ٩ – ٣٦ .

● بيجيرا ماريًا خيسوس ، تاريخ زاكور (ترجمة ، مدريد ، الجمعية الوطنية لأمناء المكتبات والأرشيفات والأثريين ، ١٩٧٤) ص ٥١٥ – ٥٣٩ .

● بيجيرا ماريًا خيسوس ، رسائل الغزالى والطرطوسى إلى العاهل يوسف بن تاشفين ، الأندلس ، العدد ٤٢ ، ١٩٧٧ ، ص ٣٤١ – ٣٧٧ .

● بيجيرا ماريًا خيسوس ، تدخل بنى مرين فى الأندلس وفى جارثيا أرينال : علاقات ص ٢٣٧ – ٢٤٧ .

● بيجيرا ماريا خيسوس ، العلاقات بين المغرب والأندلس فى القرن الحادى عشر ، الحوار الإسبانى المغربى ، ٣٥٧ – ٣٦٩ .

● وانشريس أحمد ، المتوفى عام ١٥٠٨ ، أضحل المسالك إلى قواعد الإمام مالك ، طبعة أحمد ابن طاهر الخطابى ، الرِّباط ، صندوق إحياء التُّراث الإسلامى ١٤٠٠/١٩٨٠ .

● الجلالى " تاريخ الجزائر العام " الجزائر ، ١٩٥٥ .

● زانيبار محمد ، تاثير الثَّقافة الأندلسية بالمغرب وأطروحة فى التَّطور العلمى بين البلدين ، فى الحوار الإسبانى المغربى ص ٧٥ – ١٠٨ ، القسم العربى .

الفصل الثَّامن

الاقتراب من بعض المظاهر الاجتماعية للأسواق الأندلسية

إعداد : مارجريتا لوبيث جوميث

ثقافة السُّوق :

توجد عوامل وعناصر متعددة لفهم ما يمكن أن يُسمى سوقًا ومن بينها العوامل الجغرافية والتاريخية والاقتصادية والتنظيمية والإدارية والعمرانية والعرقية والإنتاجية والاجتماعية ...إلخ .

وثقافة السُّوق فضلاً عن سخونتها الاقتصادية والتُّجارية بوسعها أنْ تقدم لنا معلومات مكثفة عن :

١ - الثوابت الخاصة عند التعرف على البنية الدَّاخلية للسُّوق.

٢ - الأطوار الموسمية والتى تشير لنا دوريات السُّوق لتحديد مواعيده الموسمية.

٣ - بعض المعلومات عن الأماكن التى كانت تُقام بها الأسواق .

٤ - النَّزعات الفنية اليدوية لعصرٍ معين (التعرف على حرف معينة فى أسواق المدن) .

٥ - أذواق العصر التى يُحددها الإقبال الكبير على المنتجات الطبيعية والفنية اليدوية ونوع التُّجار .

٦ - مختلف العناصر البشرية الموجودة بالسُّوق ، وكذلك مختلف الطبقات الاجتماعية التى تتحدد فى إطار السُّوق .

و مما لا شك فيه أنَّ هذه الفترة الواقعة بين أوائل العصر الوسيط أو العصور الوسطى وأواخره احتوت على كثير من المصاعب عاقت التعرف جيداً على الأندلس حتى بدء ما يسميه المؤرخون بالعصر الحديث ، وخاصة فيما يتعلق بالأشخاص الذين عاشوا هناك ومارسوا أنشطة أو حرفًا قليلة الشأن فى الظاهر مثل البيع فى أحد الأسواق .

ولم يستطع المؤرخون الإسبان المسلمون رغم دقة كتاباتهم إيضاح هذا الأمر .

عناصر البحث :

ومن بين العناصر التى تخدمنا فى التَّحليل لأحد الأسواق نجد أنَّ العنصر البشرى مجهول تمامًا بالنسبة لنا ، ولكى نتعرف على وجوده نجد أنَّه من الضرورى التَّزود بالمعلومات من هنا وهناك ، وهذه المعلومات المبعثرة تكمن فى التعليقات التَّاريخية ، رسائل حسبة ، وثائق العدل وموثقى العقود ، الأوصاف الأثرية ، الأدب الأندلسى ، كُتب الرَّحَّالة والجغرافيين ، دواوين الخطب (وبها حصص الغزاة من الأراضى المفتوحة) ، كُتب الأوقاف ، اقتفاء المهن والحرف الإسلامية الأندلسية ، أدب العصر الذهبى (القرن السادس عشر) القواميس والمعاجم الحديثة للمراجع والدِّراسات لمقارنة للتعرف على المهن والحرف والتُّجار والفنانين اليدويين عصور أُخرى ودول أُخرى بالعالم الإسلامى وتلك التى مازالت باقية فى المغرب وخاصة فى مراكش .

وما سنحصل عليه لن يزيد عن كونه معلومات يجب تجميعها وترتيبها مع وضع افتراض للبحث دون أنْ نستهين بالكثير من التساؤلات التى ستطرأ أمامنا مهما كانت صبيانية فى الظاهر.

كيف كان التُّجار الأندلسيون ؟ وما المهن أو الحرف التى كانت شائعة آنذاك ؟ وما سبب شيوعها ؟ وهذا التساؤل الأخير يمكن تحديده بإشارات إلى توريث المهن

أو الحرف ، عدم وجود كفاءات أو فرص أُخرى للعمل ، إلى كثرة الربح ، إلى كثرة الطلب على منتجات معينة ، ...إلخ.

والموازنة فى المنتجات المطلوبة يمكن أنْ تقربنا من نظرة شمولية اجتماعية واقتصادية وكذلك سياسية فى المجتمع الأندلسى ، وهذا العنصر أو العامل سيطرأ عليه تغيير بمرور الزمن ؛ حيث إنَّ الفترة التى نحن بصددها حوالى ثمانية قرون تقريباً، وقد شابتها الكثير من الأزمات السِّياسية والاجتماعية والدِّينية ، وقد نجمت هذه الأزمات نتيجة عوامل داخلية وأخرى خارجية (تقدم عمليات الاسترداد المسيحى للأراضى الأندلسية وصعوبة استيراد المواد الخام من بلدان إسلامية أُخرى بسبب عدم تأمين الملاحة بالبحر المتوسط) .

وحينما نتحدث عن التُّجار فإننا نشير بذلك إلى كبار تجَّار الأقمشة والمنسوجات والمطرَّزات والبهارات والصَّاغة من تجار المجوهرات الذين تصاهروا مع طبقة النبلاء بالأندلس وكذلك الباعة والفنانين اليدويين بسوق المدينة من أعلاهم إلى أدناهم (أى من كبار التُّجار إلى السُّوقة) ولكن المقصود دائمًا هو تجار المدينة .

اقتراب من العنصر البشرى :

تجمعهم حرفة التُّجارة كما يقول ابن عبدون (القرن الثَّانى عشر الميلادى) فإنَّ هؤلاء التُّجار فى أشبيلية تركوا أثرًا واضحًا فى أسماء الأماكن بالمدينة مثل الشوارع والأسواق الصغيرة (السويقات) وفقًا لحرفهم ومهنهم .

تجار البهارات والعطور (العطَّارين) : فى قرطبة ولوركا ومايوركا وأشبيلية وطليطلة وغرناطة ومالقة ...

تجَّار الأقمشة (البَّزازين) قرطبة .

تجَّار المنسوجات والترزية (الخياطين) قرطبة وأشبيلية .

تجَّار الحرير غرناطة .

تجّار الروبابيكيا (السَّقّاطين) غرناطة .

تجّار الأحذية (الكراكين) غرناطة وقرطبة وأشبيلية .

الحلّاقون غرناطة .

القصّابون (الجزّارون) غرناطة وأشبيلية وطليطلة وقرطبة .

تجار الخزف وصانعوه (الفخّارين) غرناطة .

الدباغون طليطلة .

وهناك علاقة وطيدة بين المهن وأصحاب الحرف اليدوية ؛ ففى أشبيلية إبّان القرن الثّانى عشر وفقًا لابن عبدون فى رسالته أو مؤلفه الحسبة حيث صنَّف التُّجار وفقًا لأنشطتهم وخدماتهم .

البناء : البنّاءون وتجار الجص وتجار الجير والطوب وفيما يتعلق بالملابس والمنسوجات والأصباغ والروبابيكيا والخياطين والصباغين وتجار الجلود . وفيما يتعلق بالحذاء أو الأحذية الكوركيروس (صانعو الصنادل التى نعالها من المطاط وتجار وصناع الأحذية) .

وفيما يخص بتوريد الأغذية وإمداد النّاس بها : تجار وبائعو الألبان والبيض والخبازون وبائعو الجبن والسماكون والصيادون وتجار وصناع السجق أو النقانق وتجار الخل والطباخون وبائعو الهريسة وبائعو الزبيب والتين والملح والزعفران والكعك المقلى .

وبالنسبة للأعمال الخشبية : النّجّارون والنّشّارون ، وفيما يخص الأعمال الصحية الحجامون أو الفصادون والأطباء والصيادلة والمُبَخِّرون وبشأن تصنيع أدوات متواضعة الاستخدام مثل صناع القفف والأحبال والمناخل والقدور أو الغلايات .

مهن متنوعة : الحدّادون ، الفحّامون ، الحمّالون ، تجّار البذور والزُّجاج وتجّار الألباد والفتائل وصنّاع المناخل والصّيّادون والأجراء وصنّاع الرّق من الجلود وكذلك معلمو المدارس .

بعض الاستنتاجات الاجتماعية :

من الوظائف التى أشرنا إليها آنفًا يجدر التنبيه على الآتى :

- إنَّ معظم هذه الحرف أو المهن المتواضعة تنتمى إلى أصحاب المحلات والحرفيين اليدويين (السُّوقة وأرباب الصنايع)٠
- إنَّ بعض الحرف تحتاج إلى معلم لكى يتتلمذ على يديه الصبية ، والبعض الآخر مجرد باعة لمنتجات أولية (مواد خام) والبعض الآخر مجرد عمال ٠

و فى تنوع الخدمات نلاحظ الآتى :

إنَّ عروض المواد الغذائية سواء الطبيعية أو المجهزة كانت هائلة ، مما يؤكد أنَّ السُّوق لم يكن فقط للبيع والشِّراء ، بل كان أيضًا مكانًا للتسامر والاجتماع على مائدة الطعام .

و قد جَمَّعَ بيدرو تشاليتا فى مؤلفه المتكامل عن السُّوق هذه الافتراضات ، حيث ميز الفارق بين المجتمع الريفى والحضرى ٠

و فى إطار هذا المظهر من الاحتياجات الحضرية وقد تمثلت إحداها وأهمها فى الصناعات التحويلية ؛ ففى المجتمع الريفى نجد أنَّ النساء والرِّجال كانوا يتناولون طعامًا جماعيًا أمَّا فى المجتمع الحضرى فلا ٠ ويوجد مجتمع الحريم المنطو على نفسه فى حجرة الحريم كان قليل الخروج والمشاركة ، وهناك فى المقابل مجتمع آخر منفتح يعيش فى الأسواق ولا يكاد يعود إلى المنزل إلا للنوم وهو مجتمع الذكور أو الرِّجال ، وهذا المجتمع كان بحاجة ماسة للغذاء ٠ (بيدرو تشاليتا " رجل السُّوق فى إسبانيا أثناء العصور الوسطى والحديثة " ١٩٧٣ ، ص ١٧٥ - ١٧٦) ٠

وبعد ذلك أشار إلينا ب ن . اليسيف الذى فى مؤلفه مجتمع النساء (أرابيكا ، ١٩٥٦ - الجزء الثَّالث) إلى أنَّ الطَّبقة الشَّعبية أو عامة الشَّعب فى سوريا العصور الوسطى كانت لا تُعِدُّ الطعام وتكتفى بشراء الجاهز منه فى الأسواق ٠

وعودة إلى النموذج أو العينة المشار إليها نجد أنَّ الأبحاث الحديثة لمؤلفين قد أعدُّوا دراسات مستفيضة عن هذا الموضوع قد أشاروا إلى أنَّ المعلومات التى ساقها ابن عبدون عن ناس السُّوق فى أشبيلية فى عصر المرابطين (القرنين الحادى عشر والثَّانى عشر الميلاديين) يمكن أنْ تشمل العصور التَّالية مع بعض التغييرات .

وفى عصر الموحدين (القرنين الثَّانى عشر والثَّالث عشر الميلاديين) فإنَّ حرف السقطى تشبه إلى حد كبير الحرفة السابقة ، ولكن بإدخال بعض التطور عليها ، كما كان هناك أيضًا العرَّافون والسحرة وأمينة الإماء .

و هذه الحرف والمهن الجديدة ستتكرر فى عهد النَّصريين (القرنين الثَّالث عشر والرَّابع عشر الميلاديين) ، وقد ازدادت بحرفة المهرجين وتجار القرود فى الأسواق .

والكتاب المسمَّى بالأوقاف (كتاب مقاييس المنازل والمساجد ومحلات الكنائس فى غرناطة وأوقافها وتجهيزها من قِبَلْ الملوك الكاثوليك) يُعطينا فكرة عن محلات أخرى وعقارات كائنة بين السقَّاطين وشارع البيرا التى انضمت إلى الأوقاف الكنسية فى غرناطة فى أثناء الحقب الثُّلاث التى استغرقتها عملية استرداد إسبانيا من المسلمين على أيدى المسيحيين .

وفى إحصائية أشارت إلى مجموعة من الحرف والمهن التى كانت كلاسيكية فى عصر النَّصريين بغرناطة ، وربما كانت هذه الحرف أو المهن مهمة بسبب أنشطتها فى هذا العصر المسيحى مثل القصابين (الجزارين) وتجار البهارات والتوابل وخياطى الملاحف ، وذلك لأنَّ الطَّلب لاستمرار هذه الوظائف أو الحرف كان كبيرًا من قِبَلْ المجتمع الإسلامى فى غرناطة الذى كان لم يتفرق ويتبدد بعد .

مهن الرَّفاهية :

ومن بين مهن تجار الصفوة وُجِدَ الصاغة أو الجواهرجية فى الأندلس وكذلك بائعو المنسوجات والحرفيون اليدويون لصناعة الحرير الموجودون فى مدينة القيصرية أو السُّوق المغلق لسلع الرَّفاهية .

والمصوغات عمل يدوى يحتاج إلى تعليم راقى وذوق رفيع لتركيب الأحجار الكريمة والمعادن النفيسة وكذلك لإعداد المصوغات العاجية الممتازة .

و بما أن العمل فى المصوغات والجواهر عمل مرفه فإنَّ من اشتغل فى هذا المجال هم أفراد ينتمون إلى الطَّبقة المتوسطة ، وقد بلغ الأمر أن أصبحت هذه المهنة هى حرفة كثير من الأندلسيين المرموقين الذين تعرضوا لنوائب الزَّمن مثل نجل المعتمد بن عبَّاد (القرن الحادى عشر الميلادى) الذى بعد الإطاحة بوالده والطرد إلى المغرب (مراكش) عمل صائغًا .

و يدون هـ . بيريس فى عمله " الشعر الأندلسى باللغة العربية الفصحى " فى القرن الحادى عشر الميلادى النُّصوص التى تحتوى على شهادات ووثائق التَّقنيات التى استخدمها الصَّاغة الأندلسيون الذين طلوا الفضة بالذَّهب أو الذين استخدموا الهيماتيت (حجر الدم وهو معدن) لتلميع وصقل الجواهر .

و كانت أفضل ورش صناعة المجوهرات فى قرطبة وأشبيلية ، ويتحدث ابن الخطيب فى القرن الرَّابع عشر فى عمله " إشراق بدر البدور على الأسرة النَّصرية " عن حب السَّيدات الغرناطيات للجواهر والطَّلب المتزايد على هذه السِّلع النَّفيسة .

و من بين الزخارف التى كانت الأميرات والسَّيدات الغرناطيات تطالبن به الأحزمة وشرائط الزِّينة وأغطية الشَّعر وأربطة الجوارب ، وكانت تُصنع من الذَّهب والفضة المصنوعة بذوق رفيع ودقة رائعة ، ومن المؤسف أننا وجدنا الغرناطيات يفرطن إفراطًا باهظًا فى زيِّهن وملابسهن حتى بلغ ذلك حد الهذيان .

(ابن الخطيب " اللمبة الدرية فى الدولة النَّصرية " ترجمة لافوينتى الكانتارا ، تاريخ غرناطة ، الجزء الثَّالث ص ١١٣) .

و فيما يتعلق بتجار المنسوجات والأقمشة والمطرَّزات فإنهم تمتعوا بسمعة اجتماعية كبيرة ، ومما لا شك فيه أن أناقة الأندلسيين الذين اعتنوا تمامًا بملبسهم ومظهرهم ، ومن هنا فإنَّ علاقات المهن بالسُّوق نجد أنَّ معظمها مرتبط بالأقمشة والملابس .

وقد كانت المنسوجات تُستورد من إيران (بلاد فارس) وتونس ، ولكن أغلبيتها كانت تُنْسَج فى ألميريا بنفس التِّقنيات الأصفهانية (بلاد الفرس) والبغدادية (العراق) الأنطاكية (سوريا) ، وكانت هناك منسوجات تحتوى على خيوط من الذهب ومطرزة بعِرق اللؤلؤ وقد صُنِعَت فى الأندلس .

ويدون بيريس فى عمله المشار إليه آنفًا تصنيفًا لحُلَل النساء والرِّجال فى الأندلس إبَّان القرن الحادى عشر الميلادى (ونعتقد أن هذا التَّصنيف كان متعلقًا ببع الطَّبقات الاجتماعية الأرستقراطية ، وكانت السيدات يرتدين القميص والجاكيت والمعطف والعباءة والجلباب والإزار (نوع من الملابس كان يُخَصَّص لتغطية الجزء السفلى من الجسم) والمشملة لتغطية الجسد كله وكذلك البلوزة والسروال والدكة (حزام لضبط البنطلون أو السروال والخمار والنقاب) .

و كان الرِّجال يرتدون الجلباب الخفيف والدثار (الملابس الداخلية) والقميص والسروال أو البنطلون ، البرنس ، وبدلة السهرة ، وكان البرنس بمثابة معطف مزود بغطاء للرأس .(هـ . بيريس " رخاء الأندلس " ترجمه إلى الإسبانية لـ : م . جارثيا أرينال ص ٣٢) .

و كان أهم تُجَّار الحرير فى أثناء عصر الخلافة هم القرطبيون ، أمَّا غرناطة النَّصرية فقد بلغت صناعة الحرير الغرناطى شأوًا عظيمًا ، وقد كان لاستغلال تجارة الحرير الأثر الكبير فى اقتصاد مملكة غرناطة ، والطلب المتزايد على هذه المنتجات الفاخرة أدى إلى زيادة المهنيين فى هذه الحرف ، كما أنّ مكاسب كبار التُّجار قد ازدادت أيضًا .

رأى ابن خلدون فى هذا الموضوع :

إنَّهُ فى غاية الأهمية ذكر رأى ابن خلدون فى هذا الصدد (القرن الرَّابع عشر الميلادى) وخاصة فيما يتعلق بأسعار السِّلع والبضائع فى المدن الآهلة بالسُّكان فى العالم الإسلامى ومن بينها العديد من المدن الأندلسية ، وأهمية ملاحظات عالم

الاجتماع التونسى الأصل تكمن فى كونه معاصراً لغرناطة النَّصرية فى مجدها وأوج ازدهارها ، وبالتَّالى فإنَّ كلماته بشأن غرناطة صائبة تماماً .

وابن خلدون ينتقد فى الفقرة التَّالية الحرفيين اليدويين إلى جانب قيامه بتحليل اجتماعى عن استهلاك هذه السِّلع الغنية الراقية .

"ومع ذلك ففى مدينة ذات تطور اجتماعى ملحوظ واحتياجات متزايدة من السِّلع الفاخرة الرَّاقية نجد أنَّه كانت هناك أسباب كافية لتزايد الإقبال على طلب هذه المنتجات ، وكان كل فرد يشترى هذه السِّلع حسب إمكانياته المادية .

أمَّا فيما يتعلق بالفنون فإنَّ ارتفاع أسعار منتجاتها فى المدن الآهلة بالسكان يرجع إلى أسباب ثلاثة :

١ - تزايد الطلب والإقبال على هذه المنتجات نتيجة للرَّفاهية التى سادت هذا المجتمع وهذا أمر مرتبط تماماً بالتطور الاجتماعى .

٢ - كثرة مطالب العمال فى هذا المجال على الرَّغم من عدم رغبتهم فى العمل المُضنى وإرهاق أنفسهم ؛ لأنَّهم كانوا يستطيعون العيش الرَّغد بأقل كسب نظراً لكثرة المواد الغذائية ووفرتها ورخص أسعارها .

٣ - كثرة عدد المرفَّهين والأثرياء الذين وجدوا أنَّه من الضرورى أن يعمل آخرون لخدمتهم ؛ ولذلك تعاقدوا مع الكثيرين من كافة الحرف والمهن .

ولهذه الأسباب نجد أنَّ الحرفيين اليدويين كانوا يتقاضون مرتبات كبيرة تفوق بكثير ما يقدمونه من أشغال وأعمال ، وكان هناك صراع بين هذه الطَّبقة من الحرفيين لاحتكار المنافسة بالأسواق بغية الحصول على هذه السِّلع الفاخرة وبيعها ، وبالتالى أصبح العمال والحرفيون اليدويون مغالين فى مطالبهم وقد رفعوا قيمة خدماتهم ، وقد أدى هذا إلى إنفاق معظم الموارد التى كان يمتلكها سكان المدينة " (مقدمة ابن خلدون ترجمة .أى - طرابلس ص ٦٤٤- ٦٤٥) .

و يضيف ابن خلدون قائلاً : إنَّ هناك علاقة حميمة بين المدن الكبيرة وهذه السِّلع الغنية الفاخرة ؛ لأنَّه فى المدن الصغرى لا يتم بيع مثل هذه المنتجات .

وفيما يتعلق بالسلَع الفاخرة أو سلع الرَّفاهية فإنَّ الإقبال عليها ضئيل نظراً لقلة عدد سكانها فضلاً عن ضآلة مواردهم ودخولهم ، ولهذا فإنَّ مثل هذه السلَع لا يوجد تكالبٌ عليها ، ولهذا كانت أسعارها زهيدة .

السِّحر وشعبية السُّوق :

و كان من بين المهن الكائنة بالأسواق الأندلسية ، والتى استمرت طوال عدة قرون مهنة السَّاحر والسُّقطى (تاجر الروبابيكيا) وكذلك العَّرافون والمنجِّمون ، وكان معظم هؤلاء قادمين من مصر ، وكان من بين فنونهم ممارسة السِّحر ، ويؤكِّد ابن خلدون أنَّ السِّحر وخفة اليد وعلم الأحجبة والتَّعاويذ والتَّمائم كانت موجودة فى عصر الأشوريين والكلدانيين فى بابل بالعراق وبين الأقباط فى مصر الذين توافرت لديهم معلومات غزيرة عن هذا الموضوع .

و قد كانت لهذه المهن والحرف أهمية بالغة وقيمة كبيرة فى كل من قرطبة وأشبيلية وألميريا ، وكذلك فى حفلات الأعيان والأمراء الأندلسيين .

وقد كان لحرفة السحر تلاميذ موهوبون ومتفوقون ، وقد وقع على كاهلهم بعد ذلك تعليم من أراد احتراف هذه المهنة ، وقد وجدنا الأمثلة كثيرة فى أدب عصر النهضة وكذلك القرن الذهبى فى إسبانيا على بعد خطوات تاريخية قليلة من غرناطة النَّصرية، وعلى سبيل المثال فإنَّ الكوميديا المأساوية المُسَمَّاة بسلستينا وبطليها كالسيتو ومليبيا هى عمل أُلِّفَ فى أواخر القرن الخامس عشر ، وكانت سلستينا تقوم بدور القوادة السَّاحرة التى كانت خدماتها مطلوبة بإلحاح فى ذلك الوقت .

لقد كان لها ست مهن هى : " فلاحة وتاجرة عطور وحلاقة وقوادة وقليل من السِّحر ، كما أنَّها كانت تُرَقِّعُ غشاء البكارة للآنسات اللائى أخطأن ، وكانت أهم مهنها التستر على الآخرين أى القوَّادة " (ف . روخاس لاسليستيا ، بورجوس ، ١٤٩٩ ، طبعة نادى القراء ، ١٩٦٦ ، ص ١٢٤) .

وممارسة مهنة السحر فى الأسواق تحتاج إلى مكان واسع أو ميدان لكى يستطيع المشاهدون الالتفاف حول ساحرهم عند ممارسته لألعابه السِّحرية ، وربما يكون ميدان بيبالبوينت فى غرناطة ، وهو الميدان الذى شَهِدَ تمرد المسلمين خير شاهد على هذه التجمعات الشعبية أو سوق دوبير فى طليطلة .

ومما لا شك فيه أنَّ السُّوق كان خير مكان لمشاهدة أكثر الأحداث جاذبية فى كل عصر ، وهناك الكثير من الإشارات بشأن التُّجمعات التى حدثت فى الأسواق وتسببت فى حدوث تمردات كبيرة مثل واقعة استشهاد المستعربين فى قرطبة خلال القرن التَّاسع الميلادى والتى تزعمها ألبارو وأوخينيو وقد وقع الحادث فى السُّوق القرطبى ، سوق القطاعى أو التجزئة عندما جاء إلى السُّوق أحد القساوسة الفارين من الجبل بغية الشِّراء ، وقد تَعَرَّف عليه أحد زملائه وأبلغ عنه .

ونظرًا لكون السُّوق مركزًا لتجمع النَّاس فقد كان المكان الأنسب لعرض المتهمين المحكوم عليهم بالإعدام ؛ حيث يتم الإفصاح والتنديد بجريمتهم أو بما ارتكبوه من آثام وكذلك لافتضاح أمرهم على رءوس الأشهاد لكى يتعظ أبناء الشَّعب ، ويكون ذلك رادعًا لهم ، وفى حوليات قصر الخليفة القرطبى الحكم الثَّانى الذى أعدَّها عيسى بن أحمد الرَّازى (مقبس ابن حيان أشار إلى الإهانة الشَّعبية التى تعرض لها أحمد بن عمر الملقَّب بالواهب وهو لص تمرَّس فى سرقة أهل قرطبة ، وقد عُرِضَ اللص الملقَّب بالواهب فى سوق قرطبة تلبية لأمر الخليفة الحكم الثَّانى ، وقد اصطحبه المنادى على مدى يومين بالسُّوق القرطبى لكى يراه الحرفيون اليدويون ومختلف الطبقات الأخرى بالسُّوق من التُّجار ، ثم أعقب ذلك وصول الأمر بسجنه) المصدر سالف الذكر ، ترجمة إيميلو جارثيا جوميث ، ١٩٦٧ ، ص ٤٤ .

التَّوارث الأسرى للمهن والحرف :

وجدير بالذِّكر أنَّ الافتخار داخل المجتمع الأندلسى بالأصل والطَّبقة الاجتماعية ، وخاصة بين العرب كان سمة سائدة بين النَّاس فى الأندلس ، وكذلك

كانت هناك فوارق بين الطَّبقة العليا (خاصة النَّاس) والنَّاس من أصل متواضع الطَّبقة الدنيا (عامة النَّاس) ، ولهذا فإنَّ المهن الوضيعة كان يعمل بها أفراد الطَّبقة الدُّنيا .

ويمرور الزَّمن وتتابع الأجيال فإنَّ كثيراً ممن ينتمون إلى الطَّبقة الدُّنيا أو عامة النَّاس استطاعوا التَّدرج فى المناصب فكان من بينهم العالم والوزير .

وكانت عادة العرب إعطاء لقب أو كنية لكل شخص لكى ينبئ عن انتسابه إلى قبيلة أو عشيرة أو إلى مكان معين أو إلى مهنة احترفها أجداده وآباؤه كانت بوسعها إعاقة الرغبة فى تصنيف الطبقة الجديدة من النبلاء ليس فقط بغية نسيان أصلهم الحقيقى بل أيضًا نظرًا للرفض الضمنى من قبل الأعيان الأندلسيين .

وهذا ما حدث مع أحد أعيان سراقسطة فى عصر المؤتمن (القرن الحادى عشر الميلادى) يُدعى أبو مطاريف ابن الدَّبَّاغ الذى رأى ذات يوم وزير المؤتمن المدعو أبو الفضل بن حصداى يقرأ كتابًا وكان من أصل يهودى ، ولكنه اعتنق الإسلام ، وقد أراد ابن الدَّبَّاغ أن يمزح معه فقال له هل كنت تقرأ التوراة ؟ فأجابه قائلاً نعم . وتجليد الكتاب من جلد قام بدباغته هذا الذى نعرفه جميعًا .هـ . بيريس المصدر المذكور آنفًا ص ٢٧٢ .

وفى هذه الحالة كان الافتخار بالأصل محل تهكم من جانب المتحاورين بسبب الأصل الأسرى ، ومع ذلك فهذا لم يمنع كليهما من المحافظة على الصداقة التى كانت تجمعهما .

ولم يكن الأمر هكذا فى جميع الحالات ؛ لأنَّه فى حالات أخرى قام المتحاور بالدفاع باستماتة عن أصله المتواضع كما هى الحال فى أمر القصاب الذى كان من سراقسطة والمُسمَّى يحيى السَّراقسطى ، والذى احترف مهنة الشِّعر فى بلاط المؤتمن قرر العودة إلى جزارته ، ولم يلق بالاً لمطالب العامل لكى يستمر شاعراً فى البلاط .

مهن وحرف المسلمين :

إن التوارث أو القدر قد حدد مصير كثير من الأندلسيين الذين مارسوا مهنًا أبًا عن جد حتى بعد استرداد غرناطة من جانب المسيحيين وحتى فترات لاحقة لذلك ، وهى مهن أو حرف كانت لا تشير فقط إلى الأصل العِرقى أو الجنسى للشخص بل إلى ديانته .

وكارو باروخا قد تعمَّق كثيراً فى هذا الأمر كما عودنا التمحيص والدِّقة فى أبحاثه ، وذلك عندما تحدَّث عن عمال البلدية عام ١٥٥٢ ميلادية ، وكانت الأوامر البلدية تتضمن الإشارة إلى ٧٤ مهنة أو حرفة يشغلها مسيحيون ومسلمون ، وكانت لهذه المهن أو الحِرَفْ أسماء عربية من النَّاحية الفنية وإشارات إلى توليها من جانب المسلمين المغاربة على وجه الخصوص .(كارو باروخا ، مسلمو مملكة غرناطة ، ص ٩٦) .

وبالإضافة إلى ذلك كما يشير نفس المؤلف فإنَّ الأدب نفسه خاصة فى القصائد الشعبية قد دون هذه المهن والحرف بين جنباته ، ولكن على هيئة هجاء أو ذم لهذه المهن أو الحرف ، وقد أكدَّت هذه القصائد أنَّ المسلمين منهزمون ، وقد كان النبلاء والوضعاء على حدٍ سواء ؛ لذلك فإنَّ الحرفة التى كانوا يعملون بها كانت تضعهم على قدم المساواة لا فرق بين نبيل ووضيع على الصَّعيد الاجتماعى .

إنَّهما فاطمة وشريفة

تبيعان التِّين والزَّبيب

و يحكى لاجارتو إيرنانديث

أنَّهما ترقصان فى قصر الحمراء

و تفتلان الأحبال من ليف النَّخيل

و تزرعان الكرنب

وتحتشانه

ويأتى أربولان بعد أنْ

يكون قد حفر أكثر من مائة حفرةٍ

مقابل حفنةٍ من الدَّقيق

وقطعة عملة مثقوبة

والزَّجرى معه جحشان

لم يمل من سكب المياه

والصبى الآخر يرسمه محطمًا للرِّماح

يقوم موكا بإعداد كعكاته المقلية

ويقول الآخر ابتعد

ابتعد لقد جاء موكا الشُّجاع

فارس نبات الغاب

لقد أصبح الرِّجال والسَّيدات الآن بائعين لثمار التِّين والزَّبيب وجادلات لا خوص وسعف النخيل وكذلك لرى البساتين وزراعتها وحفارين ومأجورين وحمَّارين وسائقى القوافل .

وفى نصوص أخرى ذكرت وظائف أو مهن أخرى للمسلمين مثل بائعى الحلوى والعسل والعريف العالم أصبح بنَّاءً متواضعًا أو تجَّارًا ، وكل هذا يمثل كارثة تاريخية بالمعنى القديم ، ويمثل أيضًا نهاية طور من الأطوار.

(كارو باروخا ،التقييم التَّاريخى والثَّقافى لكل ما هو مسلم وما هو مسلم أندلسى فى إسبانيا ، الأندلس ثمانية قرون من التاريخ ، مدريد ، ١٩٨٩ ، ص ٤٠ - ٤١)

المراجع

(١) المقرى (نفح الطِّيب من غصن الأندلس الرَّتيب) طبعة القاهرة ١٩٤٩ .

(٢) السَّكَّاتى الملكى كتاب الحُسبة ، نص عربى تقديم وهوامش وشرح للكاتب ح . س كولينوليفى بروفينسال ، باريس ١٩٣١ .

(٣) أبيلا . م . أ " المجتمع الإسبانى المسلم فى نهاية الخلافة " ، الاقتراب من دراسة سكانية ، مدريد ١٩٨٥ .

(٤) كارو باروخا . غ موريسيكيو " مملكة غرناطة "مجموعة فوندا مينتو ، مدريد ١٩٨٥ .

(٥) كارو باروخا . ح " التَّقويم التَّاريخى لما هو مسلم وموريسكى فى إسبانيا " النَّدوة الأولَى للثقافة الإسلامية – الأندلس ثمانية قرون من التَّاريخ ، طليطلة ١٩٨٧ ، مدريد ١٩٨٩ ص ٣٧ إلى ٤٢ .

(٦) بيدرو تشالميتا " سيد السُّوق فى إسبانيا خلال العصرين الوسيط والحديث " إسهام فى دراسة تاريخ السُّوق ، المعهد الإسبانى العربى للثَّقافة ، مدريد ١٩٧٣ .

(٧) بيدرو تشالميتا " الجمعية الحرفية التُّجارية للمدينة الإسلامية " ندوة دولية عن المدينة الإسلامية ، سرقسطة ١٩٩١ ص ٩٣ – ١١١ .

(٨) شريف خا . أ ولوبيث جوميث . م . لغز المياه فى الأندلس ، طبعة لونويجرح ١٩٩٤ .

(٩) إيميليو جارثيا جوميث " حوليات قصور خليفة قرطبة " الحكم الثَّانى لعيسى بن أحمد الرَّازى (مقتبس من ابن حيَّان ، ترجمة جارثيا جوميث ، رابطة الدِّراسات والمطبوعات ، مدريد ، ١٩٦٧ .

(١٠) جويتشارد ب . " البنية الاجتماعية الشرقية والغربية فى إسبانيا الإسلامية " مدرسة الدراسات الاجتماعية ، مركز الأبحاث التاريخية ، الحضارة والمجتمع ، ٦٠ موتون باريس ١٩٧٧ .

(١١) جويتشارد بيير " الأندلس ، البنية الأنثروبولوجية لمجتمع إسلامى فى الغرب " دار نشر بارال ، برشلونة ، ١٩٧٦ .

(١٢) ابن عبدون أشبيلية فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى ، طبعة وترجمة ليفى بروفينسال وجارثيا جوميث ، دار نشر أشبيلية ، ١٩٨١ .

(١٣) ابن خلدون . م . " المقدمة " ترجمة إلى طرابلس . إف إى . ث . المكسيك ، ١٩٧٧ .

(١٤) لا فونيتى الكانترا م. " تاريخ غرناطة " ١٨٤٣ إلى ١٨٤٦ .

(١٥) مارين . م . " الفرد والمجتمع " مجموعة مافرى ١٩٤٢ ، مدريد ، ١٩٩٢ .

(١٦) بيريس . إتش . " ازدهار الأندلس " ترجمة جارثيا أرينال ، دار نشر كتب إيبريون ، الطبعة الثانية ، مدريد ، ١٩٩٠ .

(١٧) ريموند . أ . " الحرفيون والتجار فى القاهرة خلال القرن الثامن عشر " المعهد الفرنسى فى داماس ، داماس ، ١٩٧٣ ، فى مجلدين .

(١٨) روخاس . إف . "لاثيليستينا (القوادة)" نادى القراء ، مدريد ، ١٩٦٦ .

(١٩) سانشيت ألبورنوث . ث . " إسبانيا الإسلامية " الجزء الأول والثانى ، بوينوس أيرس ، ١٩٤٦ .

(٢٠) سيمونيت . إف وخ " تاريخ المستعربين فى إسبانيا " أربعة أجزاء ، دار نشر تومر ، مدريد ١٩٨٣ .

(٢١) توريس بالباس . ل . " المدن الإسلامية " الطبعة الثانية ، المعهد الإسبانى العربى للثقافة ، مدريد ١٩٨٥ .

(٢٢) بالبوينا ريكو م. ث. " المنازل والمساجد ومحال أوقاف وكنائس غرناطة " المعهد الإسبانى العربى للثقافة ، مدريد ، ١٩٦٦ .

الفصل التاسع

العصر المظلم للحمراء

إعداد : فرناندو بالديس

فى السياق العام للمعمار الأندلسى الذى لا يُعرف عنه إلا القليل على عكس الاعتقاد السائد نجد أنَّ واقع غرناطة يتمتع بمزايا خاصة للغاية .

فالقصور المشيدة فوق تل الحمراء لفتت أنظار وانتباه أبناء المدينة والغرباء على حدٍ سواء ، ولم تحظ حصون وقلاع الحمراء بالاهتمام نفسه الذى حظيت به القصور بسبب اعتبار القلاع والحصون مُجَرَّد إطار معمارى فقط وإن كان البعض قد أمعن النظر فيها ، ولكن بدرجة أقل مقارنة بالقصور .

ومما لا جدال فيه أنَّ هناك عدم ترابط بين الأبحاث المخصصة لقلاع المنطقة السكنية والمدينة ، وكأنها فى مفاهيم التحليلات المعمارية لا تُشكل مجموعة واحدة متجانسة لا تتجزأ ناجمة عن الاحتياجات التكتيكية والإستراتيجية لكل لحظة تاريخية بشكل مستقل بغض النظر عن الاستخدام الذى خصص لكل وحدة منها على حدة .

ومن ناحية أُخرى فإنَّ الانبهار الكبير بالقصور التى أقام فيها النَّصريون جذب إليها أنظار الباحثين الذين حاولوا فى مرَّات معدودة معرفة تاريخ المكان قبل أن تُشيَّد هناك هذه المبانى الرائعة التى لا زالت خالدة حتى الآن ، وترجع هذه المشكلة إلى التقسيم التنظيمى الداخلى العابث والمجازى الذى يُقْصِرُ الأبحاث الأثرية داخل حدود ضيقة وتقليدية للغاية مما يضطرنا إلى وضع حدود وهمية غير موجودة أصلاً لا فى الزَّمن ولا فى الثَّقافة .

الفتح العربى والمؤشرات الأولى للتَّعمير فى العصور الوسطى :

نشر تورِّيس بالباس مقالاً عام ١٩٤٠ عن العصور الأولى للحمراء ؛ حيث نظَّم ورتَّب المعلومات والأنباء الواردة بشأن الحمراء ، نعنى المكان قبل أن يتحول إلى مركز عصبى واستراتيجى للمدينة فى حد ذاتها ولملكة غرناطة ككل(١) ، وهناك اتجاه خاص لدراسة البقايا الأثرية لعصور ما قبل الإسلام التى تم العثور عليها فى التَّل خلال أوقات مختلفة أو ظروف متباينة وبمحض الصدفة فى مكان الاكتشاف .(٢)

وعلى الرغم من أنَّه فى بعض الحالات المعينة فإنَّ الصدفة قد تتأكد نظرًا للوجود الذى لا جدال فيه لمدينة إلبيرا الرومانية فى تل البائسين ، كما أن قرب المكانين هو المؤشر البسيط على إمكانية اكتشاف هذه الآثار بالصدفة مع قبول تأكيد الاكتشاف بعضها ليس لمجرد الصدفة بل كانت على الطبيعة ونتيجة الحفريات .

والمسألة فى نظرنا متميزة ، وذلك لتفنيد ودحض رأى قاطع يتمثل فى النقوش اللاتينية الكائنة بمتحف الحمراء ، والتى ظهرت عند حفر أساس كنيسة سانتا ماريا فى الثمانينات من القرن السادس عشر .(٣)

ويشير إلى ذلك النص الذى نُشِرَ عدة مرَّات وقرأ هو ترجمه السيد / مانويل جوميث مورينو مارتينيث(٤) .

" باسم السيد المسيح الرب تم تأسيس كنيسة سان إيستيبان (الشَّهيد الأوَّل) فى المكان الذى يُسَمَّى ناتيبولا ، وذلك على أيدى الحبر سان باولو عام ٥٧٧ ميلادية كما تم تشييد كنيسة سان خوان وكنيسة سان بيثينى الشهيد الفالينثى على أيدى الحبر أو البابا ليليولو فى ٢٢ يناير عام ٥٩٤ فى عهد الملك ريكاردو ، وهذه المعابد المقدسة الثلاثة شُيدت من أجل التثليث العظيم ، وقد تعاون القديسون فى بناء هذه الكنائس بسواعد أبناء المنطقة تحت إشراف المهندس الشهير جوديليوبا(٥) .

وقد أدلى كثير من المؤلفين بآرائهم حول النقش اللاتينى أو الكتابة اللاتينية والتى تنطوى على كثير من الصعوبات الأكيدة عند قراءته (٦)وترجمته ، ولعل أهم المسائل

هى تلك التى تشير إلى الشخصية المذكورة ومعرفة موقع ناتيبولا حيث شيدت كنيسة سان استيبان .

وأوَّل هذه الصعوبات فضلاً عن العديد من التلعثمات فيما يتعلق باسم الشهير جوديليويا(٧) يبدو أنها قد تلاشت بفضل النبأ المنشور فى الإحاطة من قبَل د . دوزى (٨) .

واستناداً إلى الوصف الذى أعده هذا المؤلف الذى يشير إلى مؤلف آخر - ابن الصيرفى - " كان للمسيحيين فى غرناطة كنيسة شهيرة ليست بعيدة عن بوابة إلبيرا، وقد شيدها أحد كبار الضباط فى المكان الذى كانت به مقابر صلاح بن مالك ، وقد هُدِمَت الكنيسة تمامًا فى جمادى الثانى عام ٤٩٢ هجرية (الموافق ٢٣ مايو ١٠٩٩ ميلادية) وذلك استجابة لأمر سلطان المرابطين يوسف بن تاشفين ، ويشير د. دوزى إلى أن الضابط المشار إليه هو جوديليو باو يحدد هدم المعبد أحد المعابد التى أنشأها فى أواخر القرن الحادى عشر (٩) .والفكرة معقولة وتساعد على إيضاح المنصب الذى كان يتولاه هذا الشخص (١٠) القوطى الاسم(١١) .

كما أنَّ تحليل نقش الكتابة أو النقش الكائن بكنيسة سانتا ماريا لم يرد على المسألة الثانية من تلك التى أشرنا إليها ويقتصر فقط على افتراض بدون أساس ؛ فنحن فى احتياج إلى الاطلاع على بعض المراجع العربية التى تستطيع أن تقدم لهذا الأمر جرعات من الترجيح .

فأول مرَّة يظهر اسم الحمراء ظهر باسم الحمراء يعنى أنه لم يكن يحتوى على حرف B كما فى الكتابة الإسبانية Alhambra ومعنى الاسم هو صفة من أفعل فعلاء وتعنى اللون الأحمر للمؤنث ، وقد جاءت هذه التسمية نتيجة المواجهات الدَّامية التى حدثت بالمنطقة بين العرب وأهالى البلاد إبَّان حكم الأمير عبد الله (١٢) .

ويذكر الواقعة ابن إدارى (١٣) لقد وجد القائد العربى سوار بن حمدون القيسى نفسه مضطراً إلى اللجوء بقواته للحمراء للاحتماء فيه ؛ حيث استطاع مقاومة أعدائه حتى وصل به الأمر أنَّه كان على وشك إلحاق الهزيمة بهم (١٤) ، وتشير هذه

الواقعـة إلى أنَّ الحمراء كان بها مبنى كبير يستطيع أن يأوى عدداً كبيراً من القوات فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر ليس هذا فقط بل استطاع رد هجمات المعتدين بنجاح ساحق ، وبالتالى فالحديث عن حصن كبير لن يكون مبالغة بأية حال من الأحوال .

و قد أكَّد خ . م . رولدان بشكل قاطع استناداً إلى كتاب المقتبس لابنحيَّان [١٥] الأصل القوطى للقلعة أو الحصن وربط ذلك بالمدعو إيستيبان من قِبَل المؤرخ القرطبى ، وطبقًا لهذا المؤلف فإنَّ القلعة كانت تشكل جزءًا من النظام الدفاعى عند الحدود ، والذى أعدته المملكة القوطية الغربية فى طليطلة ليكون فى مواجهة الأراضى التى كان يحتلها البيزنطيون اعتباراً من القرن السادس الميلادى [١٦] ، وعندما غادرت القوات الإمبراطورية شبه الجزيرة فى عام ٦٢٥ فإنَّ حصون وقلاع الحمراء المشيدة خارج إلبيرا المحاطة بالقلاع والحصون أيضًا [١٧] لم تعد تلعب دوراً استراتيجيًا بارزًا وإنْ كان قد انتعش بضع سنوات عقب الفتح العربى بمقتضى توزيع الأراضى الذى قام به الفاتحون العرب أمَّا فى القرن الحادى عشر فقد وقعت معارك دامية بين العرب وأهالى البلاد ، وبالنسبة لرولدان فإنَّ اسم إيستيبان يتم تبريره ببناء كنيسة للقديس المسمى بنفس الاسم ، والذى شيدها جوديليوبا ، وكان يعتبر بمثابة احتفال بالنقوش الموجودة بكنيسة سانتا ماريا ، وقد ظهرت النقوش أو الكتابة على الطبيعة . أما اسم ناتيبولا فإنَّه كان اسم التَّل الذى أقيمت عليه فيما بعد الحمراء أو أحد أجزائها [١٨].

ويشير المجلد الخامس من كتاب المقتبس إلى القلعة المسماة باسم إيستيبان عدة مرات [١٩] ، حيث ترتبط بالعديد من الحوادث التى حدثت فى عهد عبد الرحمن الثالث فى الفترة من ٩١٣ هـ - ٩٢٦ ، ويشير الناشرون فى كتاب التاريخ إلى أن الاسم ظهر بصيغتين : إيشتيبان وشانت أستيبان ويشيران إلى أن الاسمين هما لاسم واحد ، وهو يشير إلى سان استيبان المعروف حاليًا بسان إستيبان ديل نويرتو فى محافظة جيان [٢٠] ، ولكن المسألة ليست بسيطة بهذا الشكل .

وهناك مؤلفان عربيان آخران هما التاريخ المجهول لعبد الرحمن الثالث [٢١] وبيان المغرب[٢٢] اللذان يصفانَّ الأحداث بنفس الألفاظ هذا فضلاً عن أنهما يشيران إلى

وجود مصدر مشترك موثق [٢٣] يساعد على التمييز بين المكانين المشار إليهما بالمسميين السابقين والكائنين بإلبيراوجيان على الترتيب كما أشار إلى ذلك من قبل ف . خ . أجير يو م. ث . خيمينيث [٢٤].

ويوجد اسم إيستيبان فى المقتبس بمناسبة الغارات العسكرية لعبد الرحمن الثالث عام ٩١٣ .

"وبعد ذلك كان عبد الرحمن الثالث هو الذى شنَّ هجماته على قلاع وحصون الفاسد عمر بن حفصون فى إلبيرا بعد أنْ دمَّر قلاع الخائن، وبعد ذلك ذهب الناصر إلى قلعة إيستيبان التى تطل على عاصمة إلبيرا ، وعند عودته كان الهدوء قد عمَّ ، وعلى الرغم من ذلك فقد حاصرها عدة أيام محصنًا قلاعها وطائفًا جائلاً بضواحيها التى زارها مرارًا وتكرارًا [٢٥] ، وهناك فى سلسلة جبال (سيرًا نيفادا) عرف أن المتمرد ابن حفصون قد اقترب بجيشه من عاصمة إلبيرا قاصداً فتحها وذلك بخداع أهلها ، وحينئذ سافر الناصر إلى المدينة المسماة بسالوبرينا ؛ حيث قوَّى حصونها وحافظ على مصالحها وشرع الخليفة الناصر فى العودة عن طريق إيستيبان وقلعة بنيافوراتا الخاضعين لنفوذ الملعون ابن حفصون التى ألحقت قواته الأذى بأهالى قلعة غرناطة وبعاصمة إلبيرا اللتين كانتا حصينتين قويتين لا يمكن اختراقهما [٢٦] .

وقد قام عبد الرحمن الثالث بتدميرها عن أخرها حتى تم وقف القتال يوم الاثنين الحادى عشر من ربيع الأول الموافق السادس من يونيو عام ٩٢٥ ، وذلك بقلعة إيستيبان الحصينة للغاية أخر حصون وقلاع إلبيرا ، والتى أظهر أهلها الخضوع والاستسلام ولكنهم أضمروا المكايد، واقترح عليهم الناصر النزول من القلعة إلى السهول المجاورة والمحيطة بها، إلا أنهم ترددوا ولم يتحلوا بالعقل ، ولهذا واصل هجماته عليهم حتى أزعجهم وحاصرهم وأحاط بهم من كل جانب حيث بلغت الهجمات والاعتداءات ذروتها ، وقد تمَّ تشييد ستة قلاع وحصون احتياطية خلف الحصون والقلاع الأصلية ، وكانت الحصون والقلاع فى مواجهة بعضها ، وتم تجهيزها وإعدادها عسكريًا حتى كونت هذه القلاع والحصون دائرة حولهم وضيقت عليهم الخناق تمامًا [٢٧].

وقد تاقت نفس عبد الرحمن لرؤية نجله ولى العهد الحكم الذى كان قد تركه فى قرطبة فأرسل رجالاً يحظون بثقته لإحضاره وكان الطفل يبلغ من العمر عشر سنوات وثمانية أشهر ونصف ، كما أحضروا أيضًا من القصر أخاه الشقيق عبد العزيز ، وكانت هذه أول رحلة للحكم ولى العهد ثم اعتاد على الأمر بعد ذلك . هذا وقد تسلَّى عبد الرحمن مع نجله وسَعِدَ به أيَّما سعادة ، ولكنَّه إزاء قسوة الظروف فى قلعة إيستيبان وطول أيام إقامته هناك احتاج الطفل للعودة إلى العاصمة فقام عبد الرحمن بتقوية التحصينات والتجهيزات بالقلاع والحصون الاحتياطية وعهد إلى الوزير سيد عيسى بن أحمد بن أبى عبده القيام مع مجموعة من المرتزقة بمهاجمة العدو من أحد الجوانب على حين يقوم عميله قائد الشرطة دُرِّى بن عبد الرحمن على رأس مجموعة أُخرى من الرجال بالهجوم من جانب آخر بعد أن جهزهم بالمعدات العسكرية . حينذاك رجع عبد الرحمن إلى قرطبة ، وقد دخل قصره يوم الخميس الثانى من ربيع من نفس العام الموافق السابع من يوليو عام ٩٢٥ بعد حملة عسكرية استغرقت خمسين يومًا .

ولم يتوان المكلفان بمهاجمة القلعة عيسى بن أحمد ودُرِّى فى غزوها وإجبار أهلها على الاستسلام ، وقد تم اختيار بعضهم للانضمام إلى خدمة السلطان [٢٨].

ومما هو أكيد أنَّ اسم ايشتيبان أو إيستيبان عندما يظهر بمفرده إنما يشير إلى بلدة فى إلبيرا ليست بعيد عن عاصمتها - حاضرة إلبيرا - ولا عن غرناطة نفسها [٢٩] ، وبالإضافة إلى ذلك فإنَّهُ فى النَّبأ الأول يلاحظ أن الناصر توجه إلى قلعة إيستيبان التى تطل على عاصمة إلبيرا ، وكان يُطْلَقُ على قلعة إيستيبان حصن إلبيرا وعلى غرناطة حصن غرناطة .

وعلى هذا الأساس فإنَّ نظرية غ . م . رولدان تبدو موثقة للغاية وعلى ضوء ما ذكره ابن حيَّان فهو قاطع وحاسم بعد معرفة الأحداث التاريخية .

مذكّرات عبد الله والحمراء :

إنَّ المُسَمَّاة بمذكرات عبد الله آخر عاهل لأسرة زيرى الغرناطية تحتفظ ببعض الإشارات القيمة لمعرفة الحمراء إبَّان الحقب الأخيرة من القرن الحادى عشر (٣٠) ، ومن بينها الصيغة الثنائية لكتابة الاسم ، والتى تستخدم حتى يومنا هذا وثلاث إشارات غير مباشرة للإصلاحات والترميمات التى أجريت على جدرانها وحوائطها ، وكانت الترميمات الأولى من عمل ابن النجرايا الوزير اليهودى لباديس بن جانوس الملك قبل الأخير لغرناطة من أسرة زيرى . أمَّا الإصلاحات الثانية والثالثة فإنَّها ترجع إلى عبد الله نفسه الذى اهتم بحماية عاصمته من النوايا غير الخفية والتوسعية للأمير ابن تاشفين أمير المرابطين .

وإذا لم يُعرف ما عرض أو ما تقدم فى الجزء الأول من هذا العمل يمكننا أن نعتبر أنَّ الإشارة الأولى فى هذا المقام إلى التحصينات والقلاع للحمراء هى تلك التى أشار إليها عبد الله نفسه عند سرد قصة المؤامرة الفاشلة التى دبرها لتسليم الوزير ابن النجرايا لتسبيم غرناطة إلى ملك أو عاهل الميريا ابن صُمَادح ويؤكد :

"وعندما خاف الوزير اليهودى من غضب الشعب الجامح انتقل من بيته إلى القصبة فى انتظار تنفيذ مخططاته ، ولكن الناس لم يستحسنوا عمله الدنىء ولا تشييد قلعة الحمراء حيث كان الهدف الاحتماء بها هو وأسرته عند دخول ابن صُمَادح حتى يستتب الأمن وتهدأ الأمور" (٣١) .

و قد وقعت هذه الأحداث بضع سنوات قبل عام ١٠٥٦ أى عام وفاة الوزير على الأرجح (٣٢) ، ومع ذلك سنتجنب الجدل الذى أُثير عن امتلاكه لقصر قبل قصور النَّصريين (٣٣) ، فليس من الملائم اعتبار ابن النجرايا هو الذى شيد قلعة الحمراء ، فمن الواضح والبديهى وجود حصن عسكرى قديم بالمكان ، وإذا كان الوزير قد فعل شيئًا فلم يتعد قيامه بعمليات الترميم الجزئية أو الشاملة أو ربما التوسيع لهذه القلعة وإنْ كانت هذه الاستنتاجات لا يمكن استخلاصها بسهولة من النَّص ؛ فالدراسة الأثرية للعمل والموجودة حتى الآن لا تسمح بالرد على الاستفهامين الأول والثانى ، ومع ذلك فإنَّها ترفض تمامًا الاستفهام الثالث(٣٤) .

فالنبأ الثانى مرتبط بالسياسة المعقدة والمتشابكة لشبه الجزيرة الأيبيرية فى تلك الأزمنة التى أدت إلى مواجهات لا حصر لها بين كلٍّ الممالك بشبه الجزيرة بين المسيحيين والمسلمين ، وفى إطار المواجهات التى تمَّت بين بنو عباد بأشبيلية وبنو زيرى فى غرناطة استطاع ألفونسو السادس دى ليون التوصل إلى اتفاق مع الأشبيليين على القيام بشن هجوم على عاصمة الدارو من أية جهة أو جانب ، ولكى يتم تنفيذ الهجوم قاموا بتشييد وإعادة تشييد قلعة بيليوس [٣٥] . وجدير بالذكر أنَّ وجهة نظر المؤرخ فى العصور الوسطى لا تتفق مع المؤرخ أو الكتب الحديث ، وبالتالى تفتقر إلى الدقة الخاصة باللغة العلمية ، ولهذا السبب لا يمكن فهم كلمات أو ألفاظ أو مصطلحات مثل يشيد أو يبنى بمعناها الحرفى أكثر من كونها تؤكد الواقعة أو الحدث ، وهذا لا يعنى (بعيداً عن أى تخمين أو تأمل أثرى) عدم وجود مرحلة تشييد سابقة ، وهذا كله يعتمد على السياق وكذلك على المظاهر المادية ، وفى حالتنا هذه يبدو أنَّ بيليوس قد شُيِّدت من جديد ، ومع ذلك فإنَّ هذا ممكن على الرغم من وضوح النص على اعتبار ذلك توسعة لمبنى قديم أو سابق ، كما أنَّ الهجمات قد كلفت بها قوات مسيحية أرسلها الملك الليونى ، وقد تحمل تكاليفها العاهل العبادى .

و لتحصين مبنى هذه القلعة قام ابن عمَّار بتأجير جيش من ملك ليون ألفونسو السادس مقابل مبالغ كبيرة من المال ، وإن كان العاهل العبادى يفضل إعطاء الأموالَ للمسيحيين أنفسهم من خلال وعود صادقة أحياناً وكاذبة أحياناً أُخرى حتى انتهت الأعمال التى كلفوا بها [٣٦] .

وقد أراد عبد الله صدَّ الهجمات والاعتداءات معتمداً على قواته ، ولكنه لم يتحقق له ذلك فقرر شراء سلبية أعدائه بفضل المساعى الحميدة للمأمون بطليطلة على قرطبة [٣٧] ، وقام حُرَّاس قلعة بيليوس بمغادرتها بفك معداتهم الدفاعية التى احتلتها على الفور القوات الغرناطية .والفقرة التى تصف الواقعة واضحة للغاية :

عندما وقعت هذه الأحداث المأساوية فى قرطبة وعلم بها حرَّاس قلعة بيليوس قام هؤلاء بمغادرتها ، وقد احتلها على الفور ألف رجل ، وأصبحت فى حوزتى بمعداتها وأسلحتها وما فيها التى لم تُصَب بسوء ، وبفضل هذا تمكنت من دراسة التحصينات

الدفاعية التى قمت بتنفيذها فيما بعد بتحصينات وقلاع غرناطة ، وبهذا أصبحت عاصمتى بعيدة عن تهديد قلعة بيليوس [٣٨] .

أما النبأ الثانى فمتعلق بهذا الحدث ، التحصينات الدفاعية التى أدخلت على القصبة فى العاصمة الزيرية لم تؤثر فقط على الجزء القديم للمدينة بل شمل أيضاً القلاع الخارجية للمدينة كما يبدو ذلك من النادرة التى حكاها عبد الله نفسه [٣٩] :

" عندما أمرت بتشييد الجدار المجاور للحمراء بدافع من الأحداث البارزة التى وقعت ، والتى فاضت علىَّ بالتعليقات ".

و طبقًا لرأينا فإنَّ الحصون والقلاع التى شيدها العاهل الغرناطى لم تكن صغيرة كما أنها لم تقتصر على البائسين ، فتشييد الحمراء خارج النطاق العمرانى للمدينة والجدار المجاور لها يجب أن يكون قريبًا منها ، وهذا الافتراض يتأكد أو يتحقق استنادًا إلى قصيدة الشاعر السمسير الذى سخر فيها من تحمس عبد الله للاحتماء من المرابطين [٤٠] :

إنَّ ملك غرناطة غبىٌّ

إنَّهُ يعتقد أنَّهُ الرجل الأكثر علماً

إنَّهُ يتعامل مع ألفونسو والمسيحيين

(يا له من حُكْمٍ متحفظ !)

إنَّهُ يحصن المبانى عاصيًا

اللهو الأمير (يوسف بن تاشفين)

إنَّهُ يُشَيِّدُ فيما حوله بغباء

و كأنَّهُ دودة قزٍ

و لكن دعه يبنى ، فإنَّهُ سيئوب إلى رشده

عندما يحلُّ عليه أمر القادر القهَّار

وطبقًا لرأى إيميليو جارثيا جوميث [٤١] فإنَّ الأعمال التى يسخر منها الشَّاعر السمسير تكمن فى عمليات الترميم للقلاع والحصون الإستراتيجية للمملكة التى قام بها عبد الله والتى سرد حكاياتها الملك نفسه [٤٢] ، ولكننا نفهم بأنَّ السخرية ليست محدودة بل إنَّها تشير إلى الدفاعات الخاصة بالعاصمة عندما يقول " إنَّهُ يُشَيِّدُ فيما حوله بغباء " ، ولم يستطع أى موضوع أثرى أن يحل هذه المعضلة . ومن كل ما تقدم لا يمكن استخلاص استنتاجات بعيدة المدى ولا أمور جديدة ، وبالكاد تم إظهار العلاقة بين التحصينات العسكرية لعبد الله فى غرناطة وبعض نواحى التقدم التقنية من أصل مسيحى شمالى ، والذى يكمن فى الاتصال أو الارتباط بينهما فى أشغال بيليوس والسر يكمن فى مقارنة المعلومات الموثقة بالآثار المعمارية القليلة للزيريين التى ما زالت موجودة حتى الآن .

جسر القاضى :

و يتفق جميع المؤلفين على أنَّ المسمى بجسر القاضى والكائن على الضفة الجنوبية لنهر الدارّ و أحد جوانب تل الحمراء أنَّه كان يُشَكِّل جزءًا من الجدار المجاور المشار إليه آنفًا .

وبصعوبة تمَّ الحفاظ على الجانب الجنوبى من القوس (الذى شُيِّدَ على شكل حدوة حصان) الكائن ببرج ذى قاعدة سداسية الشكل بجانبين أو ضلعين بمحازاة حوض النهر .

ولبرج هو عبارة عن حائط ذى أوقاب أو غرف صغيرة جدًا أو دعامات حديثة الآجر (الطوب اللبن) والدبش (أو الحجر غير المصقول) ، أما ارتفاعه الأوَّلى فلم يكن معروفًا ، وبلا أدنى شك تجاوز كثيرًا ارتفاعه الحالى ، وفى داخله يوجد سُلَّمان يفصلهما جدار ، وكلاهما لهما صندوق خماسى الشكل ولكل منها دعامة خشبية بالوسط من الحجر غير المصقول وألواح حجرية بين صفوف من الأحجار ، أمَّا أجزاؤهما فقد غطيت بقباب [٤٣] ، أما فتحاتها فكانت تفتح للخارج ؛ حيث كانت توضع بها فوَّهات المدافع والأسلحة الأخرى .

والسُّلَّمان يؤديان من ناحيتهما الداخلية إلى ممر بمخرج إلى باقى كلٍ منهما وهى محصنة بأحجار متقاربة وهى محاطة بالآجر ، وكانت تغلق استنادًا إلى رأى ل . توريس بالباس بباب من جزئين وتبدو الأحجار رومانية الأصل (٤٤) ، واليوم هى على ارتفاعها ما فوق منسوب المياه ، ويمكن تبرير هذا بغزارة مياه النهر وانخفاض مجراه .

و الجزء الباقى من القوس قد بُنِىَ من الأحجار الجيرية المربعة – تقريبًا فى حجم الطوب اللبن أو الآجر – المحكمة التركيب والبناء وفى الواجهة تبدو الأحجار بالتناوب بارزة وغائرة والمنحنى الخارجى للعقد يزخرف قاعدة سيقان النباتات المنحنية الخطوط وعلى شكل أزهار كبيرة فى الأحجار الغائرة ، وكل هذا وذاك كان محاطًا بحلية معمارية على شكل إطار الشباك أو طُنُف النافذة .

والدائرة ما زالت تحتفظ بالعديد من التجاويف والفتحات ، اثنتان متوازيتان تقطعهما من أعلى إلى أسفل بحيث تتكيف مع الشكل الجانبى للقوس .

ومن خط أفاريز الجدران تجاه الجزء الأعلى يوجد فى الفتحتين زوجان من الغرف المستطيلة المفتوحة كل اثنتين مع بعضهما بنفس المستوى ، أمَّا الأجزاء السُّفلى فلها عمق مسطوح .

وفى الإطارين اللذين يحددان الفتحتين الرأسيتين يوجد حزَّان أو أُخدودان على خط واحد مع زوج آخر مجسم فى وسط منحنى العقد الخارجى وإن كان يزيد ارتفاعه – ١٠ سم – عن الاثنين الأوليين ، وهذه الأخاديد أو الحزوز الأربعة والزوج العلوى من الأوقاب هى أقل عمقًا فى جزئها العلوى .

وبعد أن أعددنا عملية إعادة البناء المفترضة لكل النظام باستكمال دائرة القوس، وجعلها تستند على برج آخر فى المواجهة ربما يشبه البرج المرئى (٤٥) يمكن محاولة إيجاد شرح أو تفسير لهذه المجموعة العجيبة من الأخاديد والفتحات والتجاويف ، أمَّا الوقبان السفليان فإنَّهما يُستخدمان لإدخال الكمرتين للجزء المستطيل التى كانت تتقاطع قطريًا داخل القوس ، أمَّا بقية الحزوز أو الأخاديد والأوقاب العلوية فإنَّها تتكيف مع الدائرة وقد استخدمت لتثبيت الهياكل الخشبية أو المعدنية – الخشبية المغطاة بصفائح معدنية – ولهذا فإنَّ شكلها الجانبى منحنى .

جسر القاضى وباب لوس تابليروس :

من الوثائق المكتوبة نعرف أنَّ قوسنا كان يشكل جزءًا من الباب المسمى بباب الضفاف (باب لوس تابليروس) على الرَّغم من أنَّ اسمه الحالى ، ولم يكن له أية علاقة كما أوضح ذلك جيدًا ل . توريِّس بالباس [٤٦] مع جسر القاضى الأوَّل الذى شُيِّد فوق مجرى نهر الدارُّو ، والذى اختفى منذ زمن طويل [٤٧] .

وبمصطلحات تاريخية يجب أن نفترض عملية موسعة فى هذه المنطقة من القلعة أو الحصن فى أثناء حكم عبد الله [٤٨] ، وإذا كان المسمَّى حاليًا بجسر القاضى والجدار كله الذى كان يرتفع على الضفة بجوار أو فى مواجهة الحمراء هما من إنشاء هذا العاهل وفقًا لتأكيده الشخصى وباب الضفاف يجب أن يكون همزة الوصل بين طرفى الجدارين فى منطقة القلعة القديمة [٤٩] فى اتجاه نهر الدارُّو . ويفترض سيكو دى لوثينا (١٩٦٨ - ٢١٠) الذى يتفق مع وجهة نظرنا بأنَّ البناء تمَّ فى عصر الملك باريس بن زيرى وهذا صحيح (٤٢٩ - ٤٦٦ هجرية ١٤ أكتوبر ١٠٣٧ - ٢٦ أغسطس ١٠٧٤) ، ومع كل ذلك فإنَّ هناك اختلاطًا أو لبسًا بين البرج الكبير الذى ما زال موجودًا بجسر القاضى مع برج بجانب باب الضفاف ، ويجعل من هذا مدخلاً وحيدًا مشتركًا للنهر والناس بالإضافة إلى أنه يجعل الجدار ذا بنية مزدوجة مستحيلة (نفس المصدر ص ٢٠٣ وخريطة أو رسم تصميمى للقلعة القديمة وأيضًا سيكو لوثينا - باريديس . ل ١٩٧٥ مخطط ص ٣٩ ، ٨٥) ، ولكن الرابط بين الحمراء والجدار لم يكمن فى تشييد جدار بل تنظيم جزء متوسط له تجويفان للسَّماح بالمرور فى آن واحد ، ومن مكان مختلف للنهر والمارة .وإذا كان باب الضفاف قد وُجِدَ فمن المحتم أن يكون قد تم تغييره اللهم إلا إذا كان قد أُعيد تشييده من جديد ، وكل هذا قام به آخر ملوك الزيريين لسد ثغرة كائنة بالنطاق المعمارى أو بالأجزاء المحيطة بالنطاق المعمارى ، ومن هنا جاءت الأبيات الساخرة للشاعر السمسير[٥٠] .

وتنقصنا بعض الآراء الرصينة لإعادة بناء الباب مع بقاء آثار ومؤشرات أثرية تبرهن على معرفة كيفية عبور النهر من أسفل الجدار ، وإذا حكمنا على حجم الدائرة فإنَّ القوس كان له سهمٌ وضوء يبلغ ارتفاعه ٣,٨٠ متر بنفس مستوى ارتفاع خط

الأحجار غير المصقولة (الدبش) ، ويبدو أنَّ الفتحتين الطويلتين الموازيتين كانتا تستخدمان لتركيب قفل مزدوج ، والنظم المستخدمة فى أبواب القلاع الأندلسية حتى أواخر القرن الحادى عشر يُخفض الاحتمالات النظرية إلى احتمالين مع وجود هامش أو مساحة للتغيير ، أو أنه كان عبارة عن تجويف مزدوج وبهو متوسط على جانبيه برجان أحدهما الذى اختفى وكان يحمل قوس النهر أو إذا قبلنا ظهور الأدوار أو الطوابق الملتوية خلال هذا القرن وفقًا لنموذج مونايتا أو نموذج لوس بيسوس (الأثقال) فى غرناطة نفسها والممر سيكون متعرجًا أو ملتويًا - مغطى أو مكشوفًا - بتجويفين عند فرضات النهر أو فتحاته [٥١] .

ويتفق معظم المؤلفين أنَّهُ كان مكونًا من شبكات مزدوجة من الحديد للسماح بمرور المياه وتجنب المعتدين المحتملين [٥٢] ، ولكن لم ينتبه أحد إلى ما سُمِّى ببوابة الضفاف رغم أنها كانت قنطرة متناسين احتياج المارة إلى الدخول والخروج من غرناطة من مكان جافويابس ، والشك الوحيد يتأتى من التأكد من التجويف الوحيد والذى ل . تورِّيس بالباس عند ترجمته لباب الضفاف بباب لوس تابليروس بدلاً من باب الخبَّازين [٥٣] ، مستندًا إلى ترجمة بيرموديث دى بيدراثا ؛ لأنَّ معنى الضفاف (باب خشبى) ، كما يقول بيدرو دى الكالا [٥٤] ، يقع مؤلفنا بهذه الصورة فى تناقض واضح ، وإذا كان إغلاق التجويف كان عن طريق قنطرتين أو بابين أو بوابتين كانتا بمابة هويس ومن حين لآخر كان يتم رفعها لتفادى الفيضانات الخطيرة فإنَّ التسمية تكون ملائمة ·وإذا كان أثرًا كما قال بيرموديث دى بيدراثا فإنَّ التجويف ظلَّ محميًا ، وقد سمح بحرية مرور المياه ، ولكن الإشارة إلى لوس تابليروس أو الخبازين لن يكون لها مغزى[٥٥] .

واستخدام قوائم خشبية له عيبان فى نظرنا : العيب الأوَّل أنه كان يضعف دفاع القلعة عندما تكون مفتوحة ، كما أنه يجعل البوابة أو الباب لا فائدة له عندما يكون مفتوحًا بين أخدودى قوائم الباب ، أو دعاماته التى تكمن مهمتها كما قلنا فى السماح بأخذ الماء دون أدنى خطر وبجرَّافة مزدوجة فى باب الحصن كان التزود بالماء ممكنًا أمَّا فى بوابة مزدوجة فلم يكن ذلك ممكنًا ؛ لأنه فى حالة البوابة المزدوجة تظل هذه

مرفوعة قليلاً ودائمًا ، وبالّتالى فإنَّ هذه الوسيلة تفقد جزءًا كبيراً من كفاءتها عندما يكون الماء ضحلاً لوجود فاصل بينه وبين مجرى النهر ٠ أما العيب الثانى فإنَّ هذه الوسيلة تجعل من المحتم تركيب جهاز مشابه لتشغيل دفتى البوابة وإنشاء غرفة علوية لإدخالهما أو جزء منهما عند دفع البوابة . والعنصران أو الجهازان يصعب تخيلهما مع الأخذ فى الاعتبار أنَّ الجدار ضيق (٥٦) ، وبمصطلحات أثرية فإنَّهما يخلوان من أقل وضوح مادى ٠

والاعتراض الأكثر قوة الذى يمكن طرحه على هذه النظرية يكمن فى الاسم القديم للبوابة مع افتراض وجودها فى تجويف النهر ليس على الجانب المفتوح افتراضًا على أرض يابسة ، وإذا كان الذى يغلق القوس حاجز فلماذا سُمِّىَ بباب أو بوابة الخبازين ؟ فمن وجهة نظرنا إنَّ هذا يرجع إلى استخدام قطع كبيرة وضخمة من الخشب فى بعض أجزاء الإغلاق ، وتفسير مثل هذه النظرية يجبرنا على إعادة النظر فى دور الحزوز أو الأخاديد وكذلك الأوقاب الصغيرة فى دائرة القوس ٠

وبعد التحقق والتعرف على الفتحتين الطويلتين المتوازيتين كقناتين لاحتواء أطراف القضبان فإنَّهُ يبدو جليًا الافتراض بأنَّ الأوقاب الأربعة الكائنة بها كانت تستخدم لإدخال الكمرات الخشبية الأربع المتقاطعة رأسيًا للقضبان الحديدية للحاجز، أمَّا السفلية فإنَّها كانت تتوافق مع القطر النظرى للأقواس أمَّا العلوية فكانت تقطعه بشكل واضح ٠ أمَّا فيما يتعلق بأنَّ بعض التجاويف كانت أعرض من الفتحات نفسها، فإنَّ هذا يرجع إلى السُّمك الكبير للقضبان الجديدة ، ومن ناحية أُخرى فإنَّ كون التجويفين العلويين لهما مخرج يجعلنا نفكر فى وجود شكل متعرج الخطوط متكيف مع الجزء العلوى للقوس حيث كانت تتداخل الأطراف العلوية لسيخان الحديد للحاجز أمَّا السفلية فكانت مغروسة فى رمال المجرى ٠

أمَّا الزَّوجان الآخران من الأوقاب فإنَّ لكلِّ واحدٍ مخرجًا وكانت المتوازية منها والموجودة فى الجزء المختفى من القوس تستخدم لاحتواء أو إدخال الطَّاولات المخصَّصة لإغلاق وتقوية تجاويف المجرى حيث توجد كلُّ الأجهزة التى كانت تتلقى ضغط المياه وخاصة على الجزء الأسفل للحواجز ٠ أمَّا الألواح أو الطَّاولات المستندة إلى الأخاديد أو فُرض النَّهر الخارجية يجب أنْ تكون مبطَّنة برقائق أو صفائح معدنية

لحمايتها .وعلى الرغم منذ أن الحواجز المخصصة لإغلاق الأبواب كانت معروفة من زمن طويل فإنّها كانت فيما يبدو من الخشب المُبَطَّن بصفائح معدنية ، وفقط في نهايات العصور الوسطى انتشرت بالغرب الأوروبي تلك التي صُنِعَت فقط من أسياخ حديدية (٥٧) .

فوجود هذه الأخشاب في نهاية القوس يُفسر إلى حدٍ كبير سر تسمية البوابة بذلك الاسم ، والتي كان لها تجويف دون أن نتخيَّلها مغلقة بقطعتين كبيرتين من الخشب ويجعل للمزغلين (المزغل هو فتحة في المباني المحصنة لإطلاق النيران) الموجودين على الجانبين مغزى كبيراً ، وجدير بالذكر أن المزغلين كانا يستخدمان كنقطتي مراقبة ورماية لمنع تسلل أي شخص يحاول الدخول متسلقاً عن طريق القضبان الحديدية مستنداً إلى الألواح الخشبية لتفادي حاجز الجدار من أضعف نقطه به .

ويكمل هذا المخطط غرفة سداسية الشكل بالبرج لها رصيف ومقدمتان لحماية البناية أو المبنى من الفيضانات النهرية الدورية ، ومن هنا نفهم المغزى الواضح لعملية تقوية قاعدته التي تم ترميمها في الآونة الأخيرة ، ولم يختلف عن هذا برج الحدود .

وهذا البناء الجديد قائم على عدم وجود عناصر أثرية تساعد على افتراض حركية أو تحرك الحاجزين ، وللصعود إليه أو الهبوط منه يتحتم تركيب جهاز مشابه – بنفس المواصفات البنائية – لوضع وتركيب قناطر أو أهوسة خشبية تجعل الفتحات أو التجاويف الأربعة لا مغزى لها ولا فائدة بالكمرات الأمامية وخاصة السفليتين منها ، وبعد التعرف على أنَّ طول المنور بين القوائم الخشبية بالقوس بلغ ٧,٩٠ متراً واعتباراً من ابعاد ومقاسات الأوقاب (الغرف الصغيرة أو الحلوق) ٠,١٨ × ٠,٤٢ × ٠,٣٠ متراً ، أمَّا العلوية ٠,١٨ × ٠,٤٥ × ٠,٣٠ متراً ، أمَّا السفلية فيمكن قياس أبعادها ٨ × ٠,٤٠ × ٠,١٥ متراً تقريبًا ، وبإعطاء الخشب كثافة قدرها ٨٥٠ كيلو جراماً للمتر المكعب فإنَّ وزنها سيصل إلى ٤٠٠ كيلو جرام .

والشبكة الحديدية لكي تكون فعالة لا يمكن أن تكون أسياخها الحديدية لا يقل قطرها عن ٥ سم ولا يزيد عن ذلك حتى لا يجرح أو يشرخ الكمرات ، كما أنه لا يمكن

أن يزيد الفاصل بينها عن ١٥ سم ؛ حتى لا تسمح بتسرب أجسام صغيرة على سبيل المثال فى حجم طفل ، أما عددها فلا يمكن أن يزيد عن ٣٥والطول الشامل لكل قضيب من الحديد من أعلى أول كمرة حتى مجرى النهر يبلغ ٨,٨ متر متوسط طوله ٠ والوزن التقديرى لكل كمرة أو قضيب علماً بأن كثافة الحديد تبلغ ٨٠٠٠ كجم فى المتر المكعب هى ٤,٨٠٠ كجم ؛ ولهذا فإنَّ كل واحد من الحاجزين بلغ وزنه التقريبى حوالى ٥,٢٠٠ كجم وإمكانيات تركيب فرملتين يدويتين فوق الجدار - ٢,٥٠ / ٢,٦٠ م عرضًا - لرفع الشبكتين الحديديتين أى حوالى ٩,٦٠٠ كجم تقريبًا غير كافيتين على الإطلاق بل نستطيع القول بإنها منعدمة تقريبًا ، هذا يستدعى أن يكون الجهازان ثابتان وضروريان ، وكل جهاز يجب أن يكون ملائمًا ومتكيفًا تمامًا مع القوس منذ لحظة تشييده ٠

تحسينات عبدالله :

وبالعودة مرة أُخرى إلى شهادة عبدالله بن زيرى بالنسبة لمنجزاته الدفاعية فى غرناطة متجاهلاً الأحداث المعينة التى وصفها الغرناطى ، فإنَّ أهم ما جاء فى روايته هو تشييد بيليوس (حصن أو قلعة بيليوس التى ذكرناها آنفًا) على أيدى متخصصين من ليون ، واستناداً إلى صعوبة النص أنه تم استخدام عناصر دفاعية جعلت من القلعة حصينة لا يمكن فتحها أو غزوها مهما كانت إمكانيات المعتدين التكتيكية [٥٨] ، وهذه العناصر المذكورة التى لم تُمس عندما غادرت القوات الحصن أو القلعة ، وقد دُرِسَت بعناية واستفاضة من جانب الفنيين الغرناطيين ، وفى النهاية أفادت فى تحسين الأشغال التى أُنجزت بعد ذلك بقليل فى قلعة غرناطة ٠

و طوال سنوات اعْتُبِرَت بدءًا من مؤلفات ل . تورِّيس بالباس[٥٩] العناصر التى أُضيفت من قِبَل العاهل الزيرى الأخير على قلعة غرناطة يمكن أن تكون ثلاثة أبراج شبه مستديرة ومرئية فى هذا المكان ، وقبول هذه الأبراج الآن على كونها معاصرة يجعل من غير الملائم اعتبارها تجديدات أو ابتكارات إبداعية فى عالم مثل العالم الأندلسى الذى اعتاد على تشييدها متوازية السطوح ؛ نظراً لألفة استخدامها فى الممالك

المسيحية الواقعة على الحدود وفى الحصون الرومانية التى ما زالت باقية فى الأراضى الإسلامية ، ولم يبق نموذج واحد يرجع تاريخه فى الظاهر إلى عصر الخلافة [٦٠] ، وبات من الواضح استخدامها فى قصرالجعفرية الذى أُنشئ بضع سنوات قبل ذلك [٦١] .

ولا الأبواب المتعرجة التى ظهرت أوَّل نماذج لها فى شبه الجزيرة الأيبيرية هى باب مونايتا وباب لوس بيسوس وكلاهما فى قلعة غرناطة ، يمكن أن تكون موضوعًا أو أساسًا لحل أو لإجابة عن تساؤلاتنا .و إذا آمنًا بصلاحية نظرية مانويل جوميث مورينو [٦٢] فإنَّه لا يساورنا أدنى شك فى الأصل الشَّرقى لهذا النَّوع من المداخل ولا فى وصوله إلى شبه الجزيرة الأيبيرية فى العصر الإسلامى ، ولكن إذا لم يكن هذا الرأى صحيحًا ، وكان مصدر هذه المداخل الممالك الشمالية كيف نبرر عدم وجودها فى المبانى والمنشآت المسيحية المعاصرة ، وهذا الشك يبدو أكثر وضوحًا عند اعتبار العدد الكبير للنماذج المحفوظة [٦٣] فى النصف الجنوبى لشبه الجزيرة الأيبيرية والمؤرخة كلها عقب القرن الحادى عشر [٦٤] .

ووفقًا لرأينا فإنَّ الابتكار المستخدم بواسطة القوات الليونية (قوات منطقة أو مملكة ليون الإسبانية الواقعة فى الشمال) فى بيليوس والمقتبسة من مدينة غرناطة قامت على أساس استخدام الحاجز كعنصر حماية للأبواب أو البوابات ، والذى تكيَّف هنا مع وظيفة متشابهة نسبيًا ألا وهى السماح لمياه نهر الدَّارُو بدخول القلعة أو الحصن فى غرناطة ، وكذلك خروج الماء أيضًا باستخدام جهاز أو وسيلة مماثلة، واستخدام هذا النوع من النظام أو الجهاز ربما كان جديداً بالنسبة للعصور الوسطى الإسبانية ولكنه موثق فى العالم البيزنطى منذ عصور مبكرة ، ويصف بروكوبيو دى كساريا واحداً مشابهًا بتجويف تحميه أسياخ أو قضبان حديدية للسماح بمرور الماء فى النهر من خلال القلعة فى الحصون والاستحكامات الكائنة فى داراسو التى تم إصلاحها فى عهد الإمبراطور جستينيان ٥٢٧ - ٥٦٥ من الميلاد [٦٥] .

ووصول تأثيرات أوروبية معترف بها إلى الممالك المسيحية الشمالية إبَّان القرن الحادى عشر لا يجب قصرها على مجالات أُخرى من النشاط البشرى ولا فى وضع عسكرى متغير كثيراً وغير ثابت ، والمنطقى هو افتراض دخول تقنيات عسكرية جديدة

بين تأثيرات ثقافية أخرى إلى عالم غير مستقل حتى هذه اللحظة ؛ حيث كان يعتمد إلى درجة كبيرة على تقاليد هو تقليد النماذج المستوردة من الدول الأندلسية المزودة بتنظيم وسبل بشرية أكثر رقيًا أو كفاءة .

والخلاصة فإنّ بقايا المُسمى " بجسر القاضي "والمعلومات الواردة فى التبيان لا تسمح فقط بالتحقق وإعادة بناء أحد العناصر الهامة التى شكلت جانبًا مهمًا من الدفاعات الخاصة بالحمراء فى أحد قطاعاتها الضعيفة جدًا ، ولكن أيضًا تجسيد لظاهرة التأثير الثقافى ، ولأوّل مرة بدأت الأندلس تعانى من تقهقر فنى حتى فى المجال العسكرى بالنسبة لجيرانها المعتدين فى الشمال الذين اتخذوا أنظمة وابتكارات جديدة قادمة من القارة الأوروبية ، وكانت قادرة على استخدامها لصالح استراتيجية هجومية وليست فقط دفاعية جاعلة من الحاجة ميزة ، وقد كان ذلك مالوفًا منذ بضع سنوات مضت ، كما أنّ الحمراء نفسها ستعانى من ذلك بعد قرن من الزمان .

التّوافق بين الأنباء الموثّقة والهندسة المعمارية :

وآخر عنصر فى الاعتبار هو التّوافق الزّمنى بين العناصر المعمارية المحفوظة فى قلعة الحمراء والمخطط المتطور الموصوف آنفًا الذى لقى مساعدة خاطئة فى الوثائق المكتوبة .

و على الرغم من التّغييرات أو التّعديلات العميقة التى عانى منها النظام الدفاعى فى التّل أواخر العصر الوسيط والعصر الحديث ، هذه التغييرات تُصَعِّب عمل وتحليل اللوحات والأبراج التى يرجع تاريخها إلى ما قبل العصر النّصرى ، والتى تسمح بعزل أنواع متباينة من الأجزاء المعمارية ووضع نظام لوصف طبقات الجدران اعتبارًا من وضعها الجغرافى ، وهذا التغيير الشكلى يُلاحظ أكثر فى النّصف الشمالى للقلعة ولكن يجب تقييمه بحذر شديد ؛ نظرًا لارتفاع مؤشره كأمر غامض أو من قبيل الصدفة [٦٦] .

وهناك يمكن التمييز بين تركيب ثلاثة أنماط أو أنواع من الأعمال حدث بها إصلاحات عن طريق الترقيع وهذه الأعمال كانت مختلفة التراكيب أو البنيات والمواد . الطبقة العلوية والسفلية هى أشغال لحوائط أو حواجز من الملاط والجص أو الزلط، ولكنها تختلف فيما بينها بواسطة كثرة الجير والشكل المسطوح أو المستوى للجص أو الزلط أحيانًا أردوازى ، وهى أكثر وضوحًا فى الطبقات السفلية .

أمَّا الحلية المركزية فإنَّها مشيدة على أساس خاص من الأحجار غير المصقولة (الدبش) السميكة والمثبتة بالملاط الرملى والجيرى بين صفوف من الطوب اللبن [٦٧] .

وهذه ميزة أو ملمح مشترك فى كافة الأنماط البنائية ، وتكمن فى لونها الأحمر فى جزء من الحائط المُجَهَّز من الطِّين المدقوق ؛ حيث نجد أكاسيد الحديد تغطى سطح الجدران حتى وهى مطلية باللون الأبيض حتى تنتهى بصبغتها ، وربما تكون هذه الظاهرة (نعنى ظاهرة الاحمرار) هى المسئولة أو هى أصل التسمية العربية للقلعة مما أدى إلى نسيان اسمها اللاتينى القديم .

وبألفاظ ذات تحديد رمزى وزمنى نجد أنَّ الفرق واضح بين منوعات الدبش المذكورة ، ويصعب التحقق من بعض هذه الأحجار غير المصقولة (الدبش) ومقارنتها بأى من المذكورة فى الوثيقة المكتوبة .

و فتح مجسات فى بعض النقاط أو أماكن بالسياج أو الحاجز حتى الوصول إلى المستوى الجيولوجى الذى استخدم قاعدة لها هو السبيل الوحيد القادر على نقل تشابه لمخطط نسبى إلى حدٍ كبير ، وحينذاك نستطيع وضع مقارنة صارمة بين الأخبار الموثقة والإيضاحات المادية للإجابة على بعض التساؤلات المتعددة التى تنبعث من البنية الشكلية للقلعة أو الحصن العسكرى .

الخلاصة أو الاستنتاج :

من كل ما تقدم نستطيع بهذا الشكل إيجاز أو وضع تاريخ لتل الحمراء ، وقد كان هناك حصنٌ أو قلعة يمثل جزءًا من النظام الإستراتيجى الذى أقامته المملكة القوطية

الغربية فى طليطلة ليكون فى مواجهة الأراضى المفتوحة خلال النصف الثانى من القرن السادس الميلادى على أيدى القوات الإمبراطورية لبينزانثيو ، فمن الممكن أن يكون قد أُعيد بناؤها أو تمت الإفادة من بناء سابق نظرًا لميزات المكان لحماية الجانب من التل أو المرتفع حيث شيدت قلعة إيلبيرى ، وبعد ذلك بقليل قام قوطى شهير – وبالتأكيد أحد العسكريين – بتشييد كنيسة وخصصها لسان إيستيبان فى المكان المسمى بأتيبولا ، وهذا المكان عُثِرَ عليه فوق تل الحمراء ، وإن كنا نجهل موقعه الحقيقى ، فمن الممكن أن تكون الأرض التى أُقيمت عليها فيما بعد كنيسة سانتا ماريا بالحمراء وخارج أسوار الحصن العسكرى .

وبعد الانتهاء من فتح الأراضى التى كان يحتلها البيزنطيون فإنَّ القلعة فقدت الكثير من قيمتها الإستراتيجية ، وقد استخدمت فى الدفاع عن مدينة إيلبيرى، وستستمر كذلك حتى الغزو العربى حيث أصبحت نقطة للمراقبة للملاك الجدد للأندلس، والتى استخدموها أيضًا كمخبأ فى أثناء الصراعات والنزاعات الأهلية التى وقعت فى المنطقة بأسرها خلال النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى ، ولأوَّل مرَّة أُطلِقَ عليها وصف الحمراء .

والقلعة موضع الجدل ستصبح جزءًا من الأماكن الخاضعة لسيطرة المتمرد عمر بن حفصون حتى استولى عليها عبدالرحمن الثالث عام ٩٢٥ ، وفى ذلك الوقت كانت تعرف بقلعة إيستيبان (أو حصن إيستيبان) تخليدًا للقديس الذى يحمل الاسم نفسه الذى سُميت الكنيسة باسمه والتى شيدها جوديليوبا .

ولم نعرف شيئًا عنها حتى منتصف القرن الحادى عشر بفضل الشهادة التى أدلى بها الزيرى عبدالله ، وفى تلك الأثناء وقع حدثان أثرا بشكل ملحوظ على النظم الدفاعية لغرناطة ، الأوَّل : إعادة تشييد القلعة القديمة التى أُقيمت بأعلى قمة الحمراء ، والتى شُيدت بناء على مبادرة من الوزير اليهودى ابن النجرايا الذى فكر فى استخدامها كمخبأ له ولأسرته وممتلكاته .

أما الحدث الثانى : فقد وقع فى نهاية القرن نفسه ؛ حيث تم استكمال تحصين القلعة الغرناطية ، وقد اتصلت على الأقل بواسطة جدار البانسين وفى تلك اللحظة تم

تشييد المُسمى بجسر القاضى لإمدادها بالمياه وكذلك للسماح بدخول نهر الدَّارُّو إلى داخل المدينة دون الإخلال بأمنها وأمانها .

وجانب من هذه الاستنتاجات يقوم على أسس وثائقية ، وهى تفتقر إلى التأكيد والتوثيق مما يحتاج إلى إجراء بحث أثرى تكميلى .

و من الصعب أن يؤكد أو أن ينفى علم الآثار بشكل قاطع المعلومات التى أوردها المؤرخون فى هذا الصدد ولكن بلا أدنى شك ستساعدنا على التوصل إلى استنتاجات ملموسة عن تطور القلعة فى فتراتها المظلمة أى غير المعروفة أو المجهولة ، وربما يكون جزء من جدار القلعة يُشكل جانبًا مما شيده القوط فى مملكة طليطلة عندما لم تكن الحمراء غير معروفة بهذا الاسم ، وكانت تستخدم للحماية وكواجهة خارجية لإيلبيرِّى القديمة .

الهوامش

(١) توريس بالباس . ل . ، (١٩٤٠) لقد أثبت أنَّ غالبية المؤلفات الأكثر انتشاراً التى اشتملت على أنباء نادرة عن الحمراء ما قبل القرنين الثالث عشر والرابع عشر فترة الازدهار الكبرى ، والتى تم فيها تشييد معظم المبانى التى لا تزال باقية ما هى إلا أنباء غامضة فى كثير من الأحيان وخاطئة وليست بها إشارة إلى المراجع أو النصوص التى أُخذت منها (ص ١٥٥٠) .

(٢) بعض الأجزاء المعمارية والأحجار المتنوعة بنقوش وكتابات - كلها رومانية موجودة بالقصر أو بالجدران أو بأبراج الحمراء يمكن أن يكون قد تم نقلها إلى الحمراء من تل القلعة القديمة إلى الضفة الأخرى لنهر الدارُو حيث كانت مدفونة تحت الأرض فى القرن الثامن عشر أما بقايا أو آثار المدينة الرومانية المعروفة باسم إيلبيرى نفس المرجع ص ١٥٦ .وهذا الرأى كان سائداً حتى الوقت الحالى لدى كثير من المؤلفين على الرغم من قلة الأدلة ذات الطابع الأثرى . كبانيلاس . د . ، (١٩٩٢) ص ١٣٣ الملحوظة - ١ .

(٣) جوميث مورينو . م . (١٨٨٩) ص ٩ - ١١والمعلومات عن ظهورها يقدمها ف . بيرموديث دى بيدراثا (١٦٣٨ ، - ١١- الفصل الحادى والعشرين) وهو الحجر الجيرى المرمرى الأبيضومقاساته ٠,٦٠ × ٠,٥٢ × ٠,١٣ م . ولا زال هناك سطران من النص ولكن تنقصه الزاوية اليُسرى العلوية واليمنى السُفلية .

(٤) فلوريث . أى (١٧٥١) ص ٣٣ - ٣٤و١٧٥٤ - ص ١٥٠و١٥٢ - ١٥٣ ، هوبنر . أى . (١٨٧١) ص ٣٣ رقم ١١٥و(١٩٠٠) ص ٥٨ ، فيتا . ف . (١٨٩٢) ص ١١و١٩٠٣ ص ٢٥٣ ، جوميث مورينو مانويل (١٨٨٨) ص ١١ ،(١٨٩٢) ص ١٢٠ - ١٢١ ، دبيهيل . أى . (١٩٦١) ص ٣٥٦ رقم ١٨١٥ ، بيبيس خ . (١٩٦٩) ص ١٠٠ - ١٠١ رقم ٣٠٢ ، جارثيا مورينول . أ . (١٩٧٤) ص ٥٣ ، باستور .م وميندوثا . أ. (١٩٨٧) رقم ١٥٢ ص ٢٩٣ - ٢٩٦ صورة ٩٨ ، كانتو . أ . فى الرواية الجديدة التى يقدمها فى نفس عمله رقم ١٨٨ .

(٥) جوميث مورينو مانويل (١٨٨٩) ص ١٠ .

(٦) من بين المظاهر الأُخرى يجب أن نشير إلى رأى خ . بيبيس (١٩٦٩) رقم ٣٠٢ ص ١٠١ ، والذى يعتقد فيه أنَّ تم تنفيذها كاملة فى الفترة من ٦٠٣ إلى ٦١٠ فى أثناء حكم ويتيريكو . ويرى أيضاً أنَّ تاريخ تطوبيو تكريس الكنائس يتعلق بالثانية والثالثة أما فيما يخص الأولى فلم يظهر تاريخ اليوم ولا الشهر ولا السنة .

(٧) إنَّ قراءة هذا الاسم الذى قدمه كل من هوبن روجوكيث مورينو الأول فى عام ١٨٧١ ص ١١٥ والثانى فى سنة ١٨٨٩ ص ١٠وشكا فى صحته قد قبله إى - دبيهيل عام ١٩٦١ ص ٣٥٦ رقم ١٨١٥وقد شكك فيه من جديد

(٨) من جانب خ. بيبيس (١٩٦٩ ص ١٠١) الذى يستبدله بتحفظ بجوديليو وقد قبل رأى ف . فيتا (١٩٠٣ ص ٢٥٣) .

(٩) نفس المصدر ص ٣٠١ الملحوظة ١.

(١٠) يسميه بتحفظ كوميتى كل من ف. فيتا (١٩٠٣) ص ٢٥٣ ، وخ . بيبيس (١٩٦٩) ص ١٠١ول . أ جارثيا مورينو (١٩٧٤) ص ٥٣ ويعتقد أنَّ الأمر يتعلق بأحد الأثرياء من الملاك بالمنطقة ، وهذا الرأى يشاركه ف . سلفاد بينثورا (١٩٩٠) ص ٣٣١ – ٣٣٢ .

(١١) المصدر السابق ذكره .

(١٢) صفر ٢٧٥ ربيع الأوَّل ٣٠٠ هجرية (الموافق ٢٩ يونيو ٨٨٨ / ١٦ أكتوبر ٩١٢) .

(١٣) البيان (١٩٠٤) ص ١٣٨ – ١٣٩و٢٢٠ – ٢٢١ .

(١٤) للسرد الكامل لجميع الأحداث انظر دوزى ر. (١٩٣٢) الجزء الثانى ص ٢٩ – ٣٤ وكبانيلاس (١٩٩٢) ص ١٢٧ .

(١٥) مقدمة للطبعة الثانية لمانويل جوميث مورينو ١٩٨٨ .

(١٦) جارثيا مورينو ل . أ (١٩٩١) ص ١٦٢ و ١٨٢وبايخو خيرييس م. (١٩٩٣) ص ٣٨٤ . ٣٨٨

(١٧) سوتو مايور م. سولا م . وتشوكلان . ث . وروكا مانويل مورينوومارية أ . وليثكايينو . ر (١٩٨٨) .

(١٨) اعتبر جوميث مورينو أنَّ كنيسة سان إيستيبان لم تنشئ فى مكان الاكتشاف ، ولذلك فإنَّ هذا الاسم لم يُعَيِّن تل الحمراء ومع ذلك قَبِلَ بأنَّ الكتابة أو النقش يمكن أن يكون قد زيَّن أو زخرف كنيسة سان بيسينتى والتى يمكن أن تكون قد تأسست فى الحمراء أو فى مكان آخرٍ ، جوميث مورينو . م (١٨٨٩) ص ١١ فإنَّهُ يصدق ضمنيًا فى عام ١٨٩٢ ص ١٢٠ – ١٢١ .

(١٩) ابن حيَّان (١٩٨١) ص ٣٧ – ٣٨ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ٢٤٢ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٢ ، ١٠٧٥ ، ١٠٨ ، ١٥٤ – ١٥٥و٢٦٨ .

(٢٠) نفس المصدر السابق ص ٤٤١

(٢١) التاريخ المجهول (١٩٥٠) ص ٤ ، ٧ والطبعات التالية ص ١٠١ ، ١٠٧ .

(٢٢) البيان (١٩٠٤) ص ٢٧١و٣١٣ ، ٣١٤ .

(٢٣) التاريخ المجهول (١٩٥٠) ص ١٥ – ٢٤ .

(٢٤) " فى رأينا أنهما قلعتان مختلفتان إحداهما تقع فى إلبيرا والثانية ربما تكون سان إيستيبان ديل يوريتو " (١٩٧٩) ص ١٤٧ – ١٤٨ ملحوظة ٤٤ .

(٢٥) ابن حيَّان (١٩٨١) ص ٣٧ والطبعة التالية ٥٧ .

(٢٦) ابن حيَّان (١٩٨١) ص ٤١ – ٤٢ والطبعات التالية ٦١ – ٦٢ ، البيان (١٩٠٤) ص ٢

(٢٧) ابن حيّان (١٩٨١) ص ١٢٩ والطبعات التالية ص ١٥٤ – ١٥٥، البيان (١٩٠٤) ص ٣١٣ – ٣١٤ .

(٢٨) ابن حيّان (١٩٨١) ص ١٣٠ والطبعات التالية ص ١٥٥ .

(٢٩) في النص العربي للتواريخ الثلاثة فإنّ الناشرين قد وضعوا كلمة سان أو شان مقدمة على إيستيبان أو ايشتيبان في المرات التي لم توجد فيها كلمة سان دون التنبيه أو التحذير من عيب التفسير الضمني .وفي نهاية الأمر فإنّ سان ايشتيبان كان شائعًا إطلاقه على المكانين ولكن في إحداهما فقد استُعْمِلَ شانت عندما ذكره المؤرخون أو الكتاب العرب في مؤلفاتهم .

(٣٠) ابن عبده (١٩٨٥) (١٩٨٧) (١٩٨٩) ، شالميتا بيدرو (١٩٧٣) ، إدريس . هـ . ر . (١٩٦٤) و (١٩٦٥) و (١٩٦٥ مكرر) ، خيمينيث خ . (١٩٩٢) ، ليفي بروفينسال أيوجارثيا جوميث إي (١٩٨٠) ومينينديث بيدال (١٩٤٤) وتيبي . أ . ت (١٩٨٤) ، (١٩٨٦) والقاضي (١٩٩١) .

(٣١) ليفي بروفينسال . أي وجارثيا جوميث .إي (١٩٨٠) ص ٢٦ ب ، والطبعات التالية ص ١٣١ – ١٣٢ .

(٣٢) المصدر السابق ذكره ص ٣٢ .

(٣٣) باراخيرو . ف. ب. (١٩٥٦) ، (١٩٦٨) وبريتش .ي . (١٩٦٩) .

(٣٤) ليفي بروفينسال . إي (١٩٦٠) .

(٣٥) ف . إيرنانديث ، حدّد موقع هذه القلعة بالقرب من غرناطة بين بينوس بوينتي وألبورا ، ليفي بروفينسال .إي (١٩٣٦ / ١٩٣٩) ص ٣٠ – ٣١ .

(٣٦) ليفي بروفينسال وجارثيا جوميث . إي (١٩٨٠) ص ٣٤ والطبعات التالية ١٥٤ .

(٣٧) وقد حدثت هذه الواقعة في يناير ١٠٧٥ ستة أشهر قبل وفاة المأمون ، دونلوب . د . م (١٩٦٥) ، ليفي بروفينسال . إي ومينينديث بيدال ر. (١٩٤٤) ص ٣ .

(٣٨) ليفي بروفينسال وجارثيا جوميث (١٩٨٠) ص ٣٤ والطبعات التالية ص ٥٦ .

(٣٩) يشير إلى ظهور برطمان أو إناء من الفخار به ثلاثة آلاف مثقال ، وذلك في أثناء القيام بعمليات تقوية الحصون في منزل اليهودي أبو ربيع أمين خزانة باديس بن زيري ، المصدر السابق ذكره ص ٦١ والطبعات التالية ٢٣٧ – ٢٣٨ .

(٤٠) ليفي بروفينسال . إي (١٩٣٦) ص ١٢٥ ، ليفي بروفينسال وجارثيا جوميث (١٩٨٠) ص ٥٦ ملحوظة ٥٣ .

(٤١) المصدر السابق ذكره ص ٥٦ – ٥٧ ملحوظة ٥٣ .

(٤٢) المصدر السابق ذكره ص ٥٧ والطبعات التالية ٢٢٢ الشكل ٢ إعادة تشكيل افتراضية .

(أ) الهيكلان الأوليان الخارجي والداخلي في القسم نجد أنَّ الأوقاب أو الغرف الصغيرة تظهر حمراء اللون والخطوط المتصلة من الرقائق المعدنية التى تحمي الخشب وأماكن دق المسامير ·
أمَّا الخطوط المتقطعة الحمراء ستكون ألواح الهيكل .

(ب) أما الهيكلان الآخران نجد أنَّ الهيكل ذا اللون الأسود من اليسار إلى اليمين يتعلق بالأخاديد أو الفتحات حيث كان يوجد الحاجز أمَّا الهيكل ذو اللون الأحمر من اليمين إلى اليسار فإنَّهُ يتعلق بالأوقاب حيث كانت تدخل الكمرات المثبتة للشبكة التى كانت تمسك ألواح الإغلاق .

(ج) الهيكلان الداخليان ·

(٤٣) طبقًا لتوريس بالباس (١٩٣٤) ص ٣٦٣ حيث نجد أنَّ الأكثر شرقية كانت محشوة بالأحجار غير المصقولة (الدبش) عندما شُيِّدَ المنزل الذى كان فوقها أمَّا الأخرى فقد كانت محشوة بالأنقاض ·

(٤٤) المصدر السابق .

(٤٥) استنادًا إلى ف . إينريكيث دى خوركيرا (١٩٣٤) الجزء الثانى ، ص ٥٦١ ، ل . توريس بالباس المصدر السابق ذكره ص ٣٦٣ يفترض الهدم الكامل للبرج عام ١٦٠٩ عندما تم تنظيم المجرى الحالى لنهر الدَّارُو " كان قد هدم البرج القوى الكائن بالنهر وقد أُنشئ مكانها جسر قوى " انظر أيضًا ف . إينريكيث خوركيرا (١٩٣٤) الجزء الأول ص ٨ .

(٤٦) توريس بالباس . ل . (١٩٣٤) .

(٤٧) جسر القاضى الحقيقى كان قد شُيِّدَ وفقًا لنبأ أورده ابن الخطيب فى أثناء حكم باريس بن زيرى بواسطة القاضى الغرناطى على بن محمد بن توبة (المصدر السابق ص ٢٢) وقد تمَّ هدمه عام ١٥٩٠ .

(٤٨) ليفى بروفينسال . إى وجارثيا جوميث (١٩٨٠) ص ٦١ والطبعات التالية ص ٢٣٧ .

(٤٩) كان الرصيف قويًا متينًا (ريكاردو . ر . ١٩٥٤ ، ١٩٥٥ ، ١٩٦١) الذى كان يربط بين القلعة الأولى (القلعة القديمة) ومجرى نهر ألدَّارُ وللسماح بعملية السقاية . سيكو دى لوثينا . ل . (١٩٦٨) .

(٥٠) سيكو دى لوثينال (١٩١٠) ص ٤٠ – ٤١ .

(٥١) توريس بالباس . ل . ١ (١٩٦٠) .

(٥٢) أولبير أورتادو . خ و م . (١٨٧٥) ص ٢٠٢ " كان يعبر الجدار فوق نهر الدَّارُو فوق الجسر العربى الذى بقى منه رأسه وبه مؤشرات تدل على إنزال الحاجز الذى كان موجوداً هناك لإغلاق مجرى النهر " ، جوميث مورينو ، م . (١٨٩٢) ص ٤١٨ ، توريس بالباس . ل . (١٩٣٤) ص ٣٦٣و (١٩٤٩) ص ٢٢٣ – ٢٢٤ . عنصر احتياطى للمساعدة فى استخدام الحاجز الثابت تقوم به بعض الأجهزة الخاصة بالنظافة عام ١٥٣٧والمحفوظة فى بلدية غرناطة (المصدر السابق ذكره) ص ٤٢٠ – ٤٢١ ، حيث يذكر أنَّ باب الشبكة فى نهر الدَّارُ وباستخدام المصطلح شبكة فى مدلولها كحاجز مفتوح أو شبكة .

ومن الذين يؤيدون استخدام مصطلح هويس أو قنطرة المؤرخ ف . بيرموديث دى بيدراثا (١٦٣٨) الجزء الأول ، الفصل الثالث والعشرين ، الورقة ٣٣١ فى المذكور بواسطة م وخ . أوليبير أورتادو (١٨٧٥) ص ٢٠٢وكذلك ل . توريس بالباس (١٩٤٩) ص ٤٢٤ وأمام البرج المحفوظ هذا الآن كان هناك برج أخر وبينهما هويس أو قنطرة كان يتم بها إغلاق النهر عند دخوله المدينة .

(٥٣) توريس بالباس . ل . (١٩٤٩) ، ص ٤٢٤ .

(٥٤) (١٦٣٨) الجزء الأول ، الفصل الثالث والعشرين ، الورقة ٣٣١ .

(٥٥) توريس بالباس . ل . (١٩٤٩) ، ص ٤٢٤ .

(٥٦) سمك الجدار اعتباراً من عرض القوس كان يتراوح ما بين ٢,٥٠و٢,٦٠ متراً .

(٥٧) انظر توى . س . (١٩٣٩) .

(٥٨) إنَّ أفكار عبد الله في هذا المقام معبرة جداً ليس فقط كسرد لواقعة من الوقائع بل أيضاً كوصف لوضع عسكرى عام في الممالك الأندلسية ، وهو الاعتراف بأهميته بعد انسحاب المعتمد والقوات المسيحية أعددت جيشاً مدرباً للاستيلاء على القلعة ، ولكننى لم أستطع ذلك ؛ فالاستيلاء على القرية بحد السيف كان يعتبر عملاً رائعاً ومفخرة لأمير مسلم مثلى ولكن ما حدث أنَّ القلعة كانت أمامى ، ولكنى لم أستطع غزوها بسبب دفاعاتها وتحصيناتها والتجهيزات الداخلية بها كما أننى لم أتمكن من محاصرتها حتى تنفد احتياطياتها لأن العدو استمر يستقبل الإمدادات والمساعدات . وفى النهاية اضطررت إلى رفع الحصار ، والسيطرة على الحصن فى هجمة كان يستطيع الأقوى القيام بها ، ولكننا كنا فى هذا الوضع سواء ولم يكن أمام جميع الملوك سوى دفع رواتب الجيش وإذا أراد أى عاهل تدمير هذا الجيش كان يتحتم عليه أن يدفع مزيداً من المال ، ليفى بروفينسال . إيواى جارثيا جوميث (١٩٨٠) ص ٢٩ ، ٢٩والطبعات التالية ص ١٥٥ .

(٥٩) توريس بالباس ل . (١٩٤١) ص ٤٤٢ ، جوميث مورينو مانويل (١٩٥١) ص ٢٥٥ .

(٦٠) مارتينيث . س . (١٩٨٧) ص ٢٠٣ – ٢٠٥ .

(٦١) شُيِّدَ قصر الجعفرية فى الفترة من ٤٤١ / ٤٧٤ / ٤٧٥ هجرية الموافق الخامس من يونيو ١٠٤٩والحادى والثلاثين من مايو ١٠٨٢/٢٠ مايو ١٠٨٣) انظر أويرت . تش (١٩٧٩) ص ١٠ .

(٦٢) جوميث مورينو . م . (١٩٥١) ص ٢٥٥ .

(٦٣) ولا باب من البوابات المحفوظة فى مملكة ليون حيث دُرِسَتْ دراسة منهجية والمؤرخة بين أصولها والقرن الثالث عشر ولها محور متعرج .وهناك حالة واحدة فى جدار ثامورا – سان ميجيل المختفية – كان لها مدخل فى المنحنى ، ولكن لن يكون هذا قبل القرن الثانى عشر ، انظر جوتيريث غ . أ . (١٩٩٠) ص ٢٨ .

(٦٤) توريس بالباس . ل . (١٩٦٠) .

(٦٥) بروكوبيودى سيساريا (١٩٦١) ٥ ، ١٨ .

(٦٦) وبالفعل فإنَّ الإصلاحات التى أجريت على الأجزاء القديمة للوحة لم تكن منتظمة دائمًا، كما لم تتبع نهجًا أفقيًا اعتبارًا من ارتفاعات متجانسة ووجود انهيارات عميقة أو عدمه يجعلنا ندرك وجود طلاءات متأخرة فى المناطق المنخفضة والعكس بالعكس .

(٦٧) والنسيج الغربى جدًا بين البرج الثانى والثالث لأبراج اللوحة كان ينظمها بشكل خاص ، فالوسطى بها الطوب اللبن بالعرض أما البرجان الآخران فالآجر بهما يُرى وجهه .

المراجع

(١) أجيرًى . ف . خوخيمينيث ماريا . ث " مدخل إلى جيان الإسلامية " دراسة جغرافية وتاريخية ، جيان ١٩٧٩ .

(٢) أربيه . ر . " المملكة النصرية بغرناطة (١٢٣٢ – ١٤٩٢) " مدريد ١٩٩٢ .

(٣) برجيبوهر. ف . ب . " قصر الحمراء فى القرن الحادى عشر " صحيفة واينبرج والمعهد الثقافى العدد ١٩ ، ١٩٥٦ .

(٤) نفس المؤلف " قصر الحمراء مجموعة دراسات فى القرن الحادى عشر فى إسبانيا الإسلامية " برلين ١٩٦٨ .

(٥) " البيان تاريخ أفريقيا وإسبانيا " ترجمة أى فجنان ، الجزائر ، ١٩٠٤ .

(٦) ابن عبده " كتابة تاريخ الأندلس أثناء عصر ملوك الطوائف " مجلة الغرب الإسلامى والبحر المتوسط ، العدد ٤٠ ، ١٩٨٥ ، ص ١٢٣ – ١٤١ .

(٧) ابن عبده " جوانب من الواقع الأندلسى فى القرن الخامس الهجرى " طيطوان ، ١٩٨٧ .

(٨) بيرموديث دى بيدراثا . ف. " تاريخ الكنائس بدايات وتطور المدينة والدين الكاثوليكى فى غرناطة " غرناطة ١٦٣٨ .

(٩) ابن عبده " مباحث فى التاريخ الأندلسى " الرباط ، ١٩٨٩ .

(١٠) بريستتش . ك . " أحداث شرقية " ١٩٦٩ ، ص ٦٩ – ٧٢ .

(١١) كبانيا س . د . " الحمراء " مقدمة تاريخية فى مجلة الأندلس الفنون الإسلامية فى إسبانيا ، مدريد ١٩٢٢ ص ١٢٧ – ١٣٣ .

(١٢) تشالميتا بيدرو " تاريخ متقطع وغير محدد " إسبانيا ١٣٠ ،١٩٧٣ ، ص ٢٧ – ٧٥ .

(١٣) كريزويل . ك . أ . ث . " الهندسة المعمارية الإسلامية " أكسفورد ، ١٩٤٠ .

" تاريخ مجهول " لعبد الرحمن الثالث الناصر ، نُشِرَ لأول مرة وتُرجِمَ مع مقدمة وهوامش وفهرس بواسطة ليفى بروفينسال وإيميليو دييهيل إى وجارثيا جوميث ، مدريد – غرناطة ١٩٥٠ ، نقوش لاتينية مسيحية . رلين ، ١٩٦١ .

(١٤) دوزى . ر . " تاريخ المسلمين فى إسبانيا غزو المرابطين للأندلس (٧١١ – ١٧١٠) " ليدين ، ١٩٣٢ .

(١٥) دونلوب . د . م . " تاريخ المسلمين فى الأندلس " ، ص ٢٤٩ – ٢٥٠ ، ١٩٦٥ .

(١٦) أيورت . تشى " اكتشافات إسلامية فى بلاجيرو الجعفرية بسرقسطة " مدريد ١٩٧٩ .

(١٧) فيتا . ف . " عبارات يونانية فى شواهد قبور قوطية غربية " صحيفة أكاديمية التاريخ الملكية ، ٢١ ١٨٩٢ ، ص ٥ – ١٩ .

(١٨) فيتا . ف . " القديسة أولاليا فى برشلونة " إحدى كنائسها فى القرن الخامس الميلادى ، صحيفة أكاديمية التاريخ الملكية ، ص ٤٣ ، ١٩٠٣ ، ص ٢٥٠ – ٢٥٥ .

(١٩) فلوريث . إى " إسبانيا المقدسة " الجزء السابع ، مدريد ، ١٧٥٤ .

(٢٠) جارثيا مورينو . ل . أ . " وصف لملكة القوط الغربيين فى طليطلة " سلمنكا ، ١٩٧٤ .

(٢١) جارثيا مورينو . ل . أ . " الغزوات وإحتلال شبه الجزيرة ومراحل نحو توحيد أراضى إسبانيا " فى إسبانيا القوطية الغربية . تاريخ إسبانيا ، مينيديث بيدال ، الجزء الثالث ، ١٩٩١ ، ص ٦١ – ٢٦٨ .

(٢٢) جوميث مورينو مانويل " آثار معمارية فى إسبانيا " غرناطة ، مدريد ، ١٩٠٧ .

(٢٣) جوميث مورينو مانويل " الفن الإسلامى حتى عصر الموحدين " الفن الإسلامى ، فى مجلة فن إسبانيا ، الجزء الثالث ، مدريد ١٩٥١ .

(٢٤) جوميث مورينو مانويل " آثار رومانية وقوطية غربية فى غرناطة " ١٩٨٨ ، الطبعة الأصلية ترجع إلى عام ١٨٨٩ .

(٢٥) جوتيريث . خ . أ . " تحصينات واستحكامات مدينة ثامورا " دراسة أثرية وتاريخية ، ثامورا ، ١٩٩٠ .

(٢٦) إنريكيث دى خوركيرا . هـ . " حوليات غرناطة " طبعة مادين أوثيتى ، غرناطة ، ١٩٣٤ .

(٢٧) إيرنانديث . ف . " منارة أو مئذنة عبد الرحمن الثالث فى المسجد الكبير بقرطبة " غرناطة ، ١٩٧٥ .

(٢٨) هوينر باتش " المسلمون فى إسبانيا " زيوريخ ، شتوتجارت ، ١٩٧٠ .

(٢٩) هوبنر . إى ." نقوش مسيحية إسبانية " برلين ١٩٠٠ .

(٣٠) هويسى ميراندا . أ . غرناطة ، ١٩٧٧ ، ١٠٣٥ - ١٠٤٣ .

(٣١) ابن حيان " تاريخ الخليفة عبد الرحمن الثالث الناصر فى الفترة من ٩١٢ - ٩٤٢ (المقتبس " ترجمة وهوامش وفهارس ماريا خيسوس فيجيرا وفيدريكو كورنيتى وتمهيد خ . م . لكاراً ، سرقسطة (١٩٨١) .

(٣٢) إدريس . هـ . ر " الزيريون فى إسبانيا " الأندلس ، العدد ٢٩ ، ١٩٦٤ ، ص ٣٩ - ١١٩ .

(٣٣) إدريس . هـ . ر . " أهل فرمونة " مجلة الأندلس ، العدد ٣٠ ، ١٩٦٥ ، ص ٢٧٧ - ٢٩٠ .

(٣٤) إدريس . هـ . ر . " أهل باداخوث " مجلة الأندلس ، العدد ٣٠ ، ١٩٦٥، ص ٢٧٧ - ٢٩٠ .

(٣٥) خيمينيث . خ . " الأمير عبد الله " تاريخ ، العدد ١٦ ، ١٩٤ ، ١٩٩٢ ، ص ١١٠ - ١١٨ .

(٣٦) خيمينيث ماتا . م . ث . " غرناطة الإسلامية " إضافة إلى دراسته الجغرافية السياسية والإدارية من خلال أسماء الأماكن ، جامعة غرناطة ١٩٩٠ .

(٣٧) ليفى بروفينسال . إى " مذكرات عبد الله فى غرناطة " مجلة الأندلس ، العدد ٣ ، ١٩٣٦ / ١٩٣٩ ص ٢٩ - ١٤٣ .

(٣٨) ليفى بروفينسال . إى " أجزاء من مذكرات الملك الزيرى عبد الله فى غرناطة " مجلة الأندلس ، العدد السادس ، ١٩٤١ ص ١ - ٣ .

(٣٩) ليفى بروفينسال . إى " مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بنى الزيرى بغرناطة (٤٦٩ - ٤٨٣) " المُسَمَّى بكتاب التبيان من النسخة الوحيدة المحفوظة بجامع القرويين بفاس ، القاهرة ١٩٥٥ .

(٤٠) ليفى بروفينسال . إى " العباديون " ١٩٦٠ ، ص ٥ - ٧ .

(٤١) نفس المؤلف " عبد الله بلوجين " ١٩٧١ ، ص ٤٥ .

(٤٢) نفس المؤلف وإيميليو جارثيا جوميث ، القرن الحادى عشر على لسان المتكلم " مذكرات عبد الله آخر ملك زيرى فى غرناطة الذى أُطيح به من عرشه على أيدى المرابطين (١٠٩٠) " ترجمة ليفى بروفينسال (١٩٥٦) وإيميليو جارثيا جوميث ، مدريد ١٩٨٠ .

(٤٣) مارتينيث . س . " بعض مظاهر الحصن الإسلامى فى تالابيرا دى لارينا " المؤتمر الثانى للآثار الإسبانية فى العصر الوسيط ، الجزء الثانى ، مدريد ١٩٨٧ ، ص ٩٩ - ٢٠٥ .

(٤٤) أولبيرا أورتادو . خ .وم . " غرناطة وآثارها العربية " مالقة ١٨٧٥ .

(٤٥) باستور مونيث . م وميندوثا إيجواراس . أ ." نقوش لاتينية فى محافظة غرناطة " جامعة غرناطة ، غرناطة ١٩٨٧ .

(٤٦) بابون مادونادو . ب ." ملاحظات على الفنوالآثار الإسبانية الإسلامية " اعتبارات أثرية عن غرناطة ومنارة سان خوسيه (القديس يوسف) ، الأندلس الإسلامية ٢ - ٣ / ١٩٨١ / ١٩٨٢ ص ٢١٩ - ٢٢٨ .

(٤٧) بيّار . تش ." ابن عمّار " مجلة إيف (EF) العدد الثالث ١٩٧١ ، ص ٧٢٧ - ٧٢٨ .

(٤٨) بريتو بيبيس أ . " ملوك الطوائف " دراسة تاريخية ولعملات المسلمين الإسبان فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) " مدريد ١٩٢٦ .

(٤٩) لروكبيو دى سيساريا " غرناطة الإسلامية فى القرن الحادى عشر " ترجمة هـ . ب . دوينج ، لندن ، كمبردج ما بين ، ١٩٦١

(٥٠) القاضى محمد ، التبيان لعبد الله بن بلوجين . مذكرات أم سيرة ذاتية فى أعمال الحوار الجامعى التونسى الإسبانى والتراث الأندلسى والثقافة العربية الأسبانية ، تونس ١٩٩١ ، ص ٣٥ - ٥٢ .

(٥١) ريكاردو . ر . " الفن المعمارى " مجلة الأندلس ، العدد التاسع عشر ، ١٩٥٤ .

(٥٢) ريكاردو . ر . " الفن المعمارى " مجلة الأندلس ، العدد العشرين ، ١٩٥٥ ، ص ٤٥٢ - ٤٥٤ .

(٥٣) نفس المؤلف " الفن المعمارى " مجلة الأندلس ، العدد السادس والعشرين ، ١٩٦١ ، ص ٤٦٧ - ٤٦٨ .

(٥٤) روكا . م ومورينو . م . أ . ليثكانو . ر . " البائسين وأصول مدينة غرناطة " غرناطة ,١٩٨٨

(٥٥) رولدان إيرباس . غ . م . " آثار " فى مجلة تاريخ غرناطة ، الجزء الأول ١٩٨٣ ، ص ١٣٥ - ٣٦٣ .

(٥٦) سلفادور بينتورا . ف . " إسبانيا الجنوبية بين روما والإسلام ، الاقتصاد والمجتمع ، جامعة غرناطة ١٩٩٠ .

(٥٧) سيكو دى لوثينا " خريطة لغرناطة العربية " غرناطة ، ١٩١٠ .

(٥٨) سيكو دى لوثينا " حول القلعة القديمة فى غرناطة " مجلة الأندلس ، العدد الثالث والثلاثين ، ١٩٦٨ ، ص ١٩٧ - ٢٠٣ .

(٥٩) سيكو دى لوثينا باريديس . ل . " غرناطة النَّصرية فى القرن الخامس عشر " غرناطة ، ١٩٧٥ .

(٦٠) سوتومايور . م . ، سولا . أ .وتشوكلان . ث ." الآثار القديمة فى غرناطة الأيبيرية - الرومانية والعربية " غرناطة ١٩٨٤ .

(٦١) تيبى أ. ت . " الأمير عبد الله بن بلوجين -٤٦٥ - ٤٨٣ هجرية ١٠٧٣ / ١٠٩٠ ميلادية ،آخر أمراء بنى زيرى فى غرناطة وكتابه التبيان " فى دراسات وبحوث فى تاريخ الأندلس والمغرب وليبيا وتونس ، ١٩٨٤ ، ص ٢٠٠ - ٢١٨ .

(٦٢) نفس المؤلف " التبيان مذكرات عبد الله بن بلوجين آخر ملوك الزيريين فى غرناطة " ليدبن ١٩٨٦ .

(٦٣) توريِّس بالباس . ل . " منارة القديس يوسف وتشييدات الزيريين فى غرناطة " مجلة الأندلس ، العدد السادس ، ١٩٤١ ، ص ٤٢٢ - ٤٣٤ .

(٦٤) نفس المؤلف " جسر القاضى وباب لوس بناديروس (باب الخبازين) فى غرناطة " مجلة الأندلس ، العدد الثانى ١٩٣٤ ، ص ٣٥٧ - ٣٦٤ .

(٦٥) نفس المؤلف " الحمراء فى غرناطة قبل القرن الثالث عشر " مجلة الأندلس ، العدد الخامس ، ١٩٤٠ ص ١٥٥ - ١٧٤ .

(٦٦) نفس المؤلف " مسجد غرناطة الكبير " مجلة الأندلس ، العدد العاشر ١٩٤٥، ٤٠٩ - ٤٣٢ .

(٦٧) نفس المؤلف " باب الخبازين المفترض وجسور غرناطة " مجلة الأندلس ، العدد الرابع عشر ، ١٩٤٩ ، ص ٤١٩ – ٤٣٠ .

(٦٨) نفس المؤلف " الأبواب المنحنية أو المتعرجة فى الفن المعمارى الإسبانى الإسلامى العسكرى " مجلة الأندلس ، العدد الخامس والعشرين ، ١٩٦٠ ، ص ٤١٩ – ٤٤١ .

(٦٩) توى . س . " القلاع ، تاريخ مختصر للتحصينات والاستحكامات منذ عام ١٦٠٠ قبل الميلاد إلى ١٦٠٠ بعد الميلاد " لندن – تورينتو ١٩٣٩ .

(٧٠) بابيخو خيربيس . م . " بيثانثيو وإسبانيا القديمة القرون من الخامس إلى الثامن " فصل عن تاريخ البحر المتوسط ، جامعة الكالا دى ايناريس ١٩٩٣ .

(٧١) بيبيس . خ . نقوش مسيحية فى إسبانيا الرومانية والقوطية الغربية " برشلونة ، ١٩٦٩ .

(٧٢) ثامباور – إى – " تاريخ الإسلام " هانوفر ، ١٩٢٧ .

الفصل العاشر

ملاحظات على الخزف النَّصرى
الشَّكل والمضمون

إعداد : جييرمو روسيو بوردوى

إنَّ العثور على أجزاء من الخزف تحت سطح الأرض بالنسبة لعالم الآثار أو الأثرى لمُهمَّة رائعة ومشجعة للغاية ؛ لأنها تقربنا من الرجال والسيدات الذين قاموا باستخدامها آنذاك ، ولكن لكى يتحقق للأثرى ذلك يجب عليه اتباع منهج ثابت ودقيق يحتوى على عدة مراحل وهى : التَّنظيف والتَّلميع ، وإعادة التَّركيب والترميم، وأحيانًا تكون هذه الأشغال مخيبة للآمال .

فالوثيقة الخزفية ليست شكلاً فقط بل إنَّ أهميتها تكمن فى معظم الأحيان فى المضمون أو المحتوى الذى تتكون منه (أى المواد الخام التى استخدمت فى صنعها) فالخزفيات تتعدد استخداماتها وتتنوع ، ويمكننا من خلالها إدراك كثير من المدلولات - التى فى غالبية الأحيان قد تنأى عنا - إذا قمنا بتحليل القطعة الخزفية فى هدوء وتريث ورَويَّة وبأعين وعقلية أثرية محضة .

وبصفة عامة ، فإنَّ المتَّخصص المُدرَّب والمُتَمَرِّس فى دراسة الخزف لعصر ما يصل به الأمر فى وقت ما إلى أنَّ اهتمامه الصارم - بالقطعة الخزفية نفسها : شكلها وجودتها والتقنية المستخدمة فى صناعتها ، والبراعة الفنية للشخص الذى زخرفها - قد يتبدد ويتلاشى حيث يدفع به حماسه فى البحث عن أبعاد وأمور أخرى مثل :

ما الذى احتوت عليه هذه القطعة الخزفية ؟ وفيم استخدمت وما هو استخدامها الدقيق على وجه التحديد ؟

وفى هذا الصدد فإنَّ مقالى قد يبدو أنَّه خرج عن صُلب الموضوع ولكن لا ؛ لأنَّ التطرق إلى الخزف الأندلسى فى وجهة نظرى له أهمية كبيرة شكلاً ومضمونًا ، فإذا كان المحتوى أو المضمون هو الطين المطبوخ فإنَّ ما يحمله الإناء الخزفى أو ما يوضع فيه ليس خزفًا بل شيئًا إيجابيًا أو على الأقل شيئًا لذيذًا شهيًا ، ودون أدنى ريب فى غاية الأهمية للتعرف على المجتمع الذى استخدم هذا الإناء الخزفى وما فيه .

وفيما يتعلق بالذين اتبعوا مسلكى أو منهجى العلمى فإنَّهم يعرفون جيداً اهتمامى الجَمْ بدراسة النماذج الخزفية الخاصة بالعصر الإسبانى الإسلامى فى بلدنا، ويكمن هذا المنهج فى دراسة مراحل أو عصور محددة جيداً ، وفى بادئ الأمر أوليت شكل الأشياء اهتمامًا بالغًا إلى جانب زخرفتها ، وقد حاولت البحث عن تسلسلها الزمنى(1) ثم تعمَّقت - بكل الحماس والاجتهاد - فى دراسة الأسماء التى أطلقها المسلمون على مختلف الأوانى الخزفية (2).

وتلك المحاولات سواء أفادت أم لم تُفِد ليس من سلطتى أنْ أحكم على عملى أدَّت مؤخراً إلى اهتمامات أكثر غرابة وعلى وجه الخصوص الكشف عن استخدامات المنتجات الخزفية الأندلسية وفى مشروع طموح للكشف عن المواد الخام التى تكون منها غذاء المسلمين الإسبان (3).

وفى هذا المجال تلتقى - كما هو منطقى - المادة والتقنية والزُّخرفة والشكل والتسلسل الزمنى وأسماء الأدوات الخزفية ، كما أنَّ هناك أموراً أخرى فى غاية الأهمية ذات طابع اجتماعى تسمح لنا بالتعمق فى المظاهر الخفية لكيفية حياة المجتمعات أو الجماعات التى استخدمت هذه النماذج الخزفية .

و لهذا فلم يبق سوى أنْ نتذكَّر تلك الأبيات الشعرية لشاعر قديم نسيناهُ تقريباً :

يا لهـــا من روح خــفــيــفـــــة ،

روح الخـــمـــــــــــــــر ،

يا صـــــــانعي الفــخـــــار !

لهـــــــذه الروح الخــفــيــفـــــة

اجــعـلوا للأوعـيــة حــوائط ملســـاء .

يا نـاقـشي (مـزخـرفـــي) الكئـوس ،

جَــوِّفُــــــــــــوها بِحُـــــــب ،

بـالشَّـــــــكل الذي يجــعــــــل

هــذه الـــرُّوح الشــــــهــوانيــة

جســــــداً يمكنـنــــا مـداعـبـتـه

بـلـطـــف فـي هـــذا الإنـــــاء الأزرق .

واعتباراً من هذه الرباعية لعمر الخيَّام فقد بات تماماً في غاية الوضوح أنَّ الخزف مرتبط تماماً باللذة والمتعة ، المتعة المُحَرَّمَة - على الأقل نظرياً - للمشروبات الروحية التي تُوهِنُ العقل وتُضْعِفُ الأعضاء ، والإبريق هو النصر الأساسي لِسِقايةِ الخمر، وفي بعض الأحيان يُطلق عليه اسم عام كالإناء أو الوعاء في معناه المجرد ، والآن حسنٌ ، فإنَّ الكئوس يجب أنْ تكون من البلُّور أو الزُّجاج ، فمن الطبيعي أنْ تُحافظ الخزفيات المطلية على رائحة وشذا الخمر ، والخزفيات بدون الطلاء الزُّجاجي لكونها مسامية فإنها تُغَيِّرُ الطعم الهام لهذا السائل ، ولتناوله فإن استخدام كؤوس من الفخار ليس ملائماً لأنَّ عبير الخمر يتبدد .

وعلى الرَّغم من ذلك فإنَّ الأواني الخزفية غير المطلية المستخدمة لحفظ الخمور لها ميزة كبيرة وهي الرَّشح الذي يملأ جدرانها ويغطي سطحها ، وعندما يتبخر الرَّشح فإنَّهُ يرطب الإناء والسائل الموجود بداخله ؛ فالإبريق الخاص بحفظ الماء رطباً يجب أنْ

يكـون مصـنوعًا من الفـخـار الأبيض دون طــلاء لكى يستطيع أداء هذه المهـمـة على أكمل وجه ·

فالماء والخمر عنصران حيويان وخاصـة الأوَّل منـهمـا ، والحصول عليهما باهظ التكاليف وتخزينهمـا أمرٌ ضرورى وأساسى لاستخدامـهما وقت الحاجة ، ونظم وطرق استـخـراج المياه فى الحمـراء تكشفُ أسـرارهـا رويدًا رويدًا ، وتحـدثنا عن صـعـوبة ومشكلة الحصول على الماء ، وخاصة عملية تخزينه على مستوى المدينة ، ومع ذلك ففى كثير من الأحيان فإننا نتجاهل هذه المشكلة على الصعيد المنزلى ·

وتقـوم الخـابيـة أو الخـابئـة بهـذه المهـمـة فى أحـسن صـورة ، وهذا الإنـاء المعـين ضرورى لاستخدامـات المنازل ، ولذلك فإنَّ خابيات الحمراء كنمـاذج للخزف النَّصرى أصبحت عيِّنات نموذجية أو مثالية ، ولقد نُسِىَ اسمـها العربى وحَلَّ مـحله لفظ مُبتذل وأحيانًا غير ملائم وهو باللغة الإسبانية خارُون (أى الراقود أو الخابية التى تستخدم لتزيين المنازل)، ورواقيد الحمراء قطع خزفية متميزة ، والنمـاذج القليلة التى عُرِفَت تُحـفظ بعناية بالغة فى أهم مـتـاحف العـالم ولكن هذه القـيـمة الخـاصـة ليست وليـدة عصرنا هذا ، ففى القرن الرابع عشر الميلادى كانت تُصَدَّرُ إلى الشرق ، وفى مُتْحَف القاهرة نجد أجزاء لخابيات الحمراء الكبيرة التى تؤكد هذا الأمر [٤].

ويكفى للتدليل على ذلك مثال واحد لنقف على أهمية الخابية فى عصرها فى بيئات بعيدة عن الأندلس فالراقود الكبيرة أو الخابية الكبيرة الموجودة فى متحف ستكهولم من أصل قُبرُصى ، وقد روى لنا قصته الأستاذ / أوتو كورتز ·

إنَّ أول شـخـص ذكـر هـذا الإناء هـو الرَّاهب دييـجـو دى مـيـريدا وذلك فى الرسالة التى وصف فيها حجه إلى الأراضى المقدَّسة (فلسطين - بيت المقدس) عام ١٥١٢ ، وقد أشار إلى إقامته فى بلدة فاما جوستا : فى كنيسة صغيرة بأحد أديرة الراهبات توجد خابية من الحجر ؛ حيث استطاع مُخَلِّصنا أن يصنع معجزة عندما حوَّل الماء إلى خَمْرٍ فى حفل زفاف بالجليل · إنَّ الخابية كاملة وجميلة للغاية تستحق الرؤية أو المشاهدة ، ومن البديهى يشير كورتز إلى أنَّ الراهب دييجو لم يستطع إدراك أن هذه الخابية الجميلة التى رآها يرجع أصلها إلى إسبانيا وطنه ومسقط رأسه[٥].

وفى عام ١٥٧١ استولى الأتراك على الجزيرة ، وقام القائد التركى مصطفى باشا بالاستيلاء على ست من الخابيات لكى تكون ضمن غنيمته ، وبعد وفاة مصطفى باشا آلت هذه الخابيات إلى السلطان ، وفى عام ١٥٩٨ قام بزخرفتها أحد الفنانين ويُسَمَّى جورج حاير الذى وقَّع على إحداها مما أدى إلى التعرف عليها بعد مرور قرون من الزمان .

وفى وقت لاحق اشترى سفير النمسا لدى الباب العالى (تركيا) هذه الخابية ، ثم آلت إلى مجموعة رودرلفو الثانى ، وفى عام ١٦٤٨ قامت القوات السويدية بسلب ونهب مدينة براج لتنضم الخابية من جديد كغنيمة حرب إلى مجموعة عاديات الملكة كريستينا عاهلة السويد ، واليوم تُعَدُّ هذه الخابية من أهم القطع الأساسية والرئيسية بالمتحف الوطنى فى ستكهولم .

إنَّ مصائب الدهر التى ألمت بهذه الخابيات وتقلب أحوالها منذ فخاراتها الأصلية بالغرب ووصولها إلى الشرق وعودتها من جديد إلى الغرب من خلال آلاف المغامرات والمخاطر وطرق النَّقل التى لا يمكن تصورها ، كل هذا يُعَدُّ أكبر دليل على قيمتها الثمينة وأهميتها التى لا تُقارن ، كما يدل أيضًا على الاهتمام البالغ الذى حظيت به منتجات الحمراء الخزفية خارج إسبانيا ، كما أنَّ الخابيتين الموجودتين بالحمراء كانتا أسعد حظًا من شقيقاتهما ، وقد تعرفنا عليها بفضل رسومات كفناه مورفى(٦) ؛ لأنَّ إحداها إذا كانت تعتبر أهم قطعة خزفية بمتحف الحمراء فإنَّ الأخرى قد اختفت منذ زمن طويل دون أنْ تترك أثرًا لها .

ومع ذلك فإنَّ مصانع الفخار أو فخارات القصور لم تصنع هذه القطع الفريدة بل كرَّست جهودها أيضًا لسد احتياجات القصور والمنازل من أوانى وأوعية الخدمة الأخرى . إنَّها خزفيات من نوع خاص مرتفعة الأسعار غالية القيمة ، وقد انتشرت بشكل كبير فى إيطاليا ومايوركا (مايوركا هى إحدى جزر الباليار الإسبانية الواقعة فى البحر المتوسط) ففى النصف الأول من القرن الرابع عشر نجد أنَّ الخزف الراقى جداً والفاخر وصل إلى مجتمع مايوركا لاستكمال أوانيه وأوعيته المعتادة ، وجدير بالذِّكر أنَّ هذا الخزف كان الخزف النَّصرى (٧) ، ويكفى أن نذكر أن أهميته قد فاقت

الوصف وبلغ درجة عالية من الإتقان وتبع ذلك ارتفاع مما جعل صانعى الخزف الفالينسيين يسرعون فى تقليد خزف الحمراء والعمل على انتشاره فى جميع أنحاء البحر المتوسط (٨) .وإنصافًا للحق فإنَّ الخزف الفالينسى (نسبة إلى مدينة فالينسيا الإسبانية المطلة البحر المتوسط) نعنى التقليدات الفالينسية للخزف النَّصرى ، كانت ذات جودة فنية راقية وكبيرة ، ويَصْعُب التمييز بينها وبين الخزفيات النَّصرية ، وفى كثير من الأحيان فقد عُرِفَت على أنَّها خزفيات نصرية ، كما يتضح ذلك فى كثير من المتاحف الأجنبية .وعلى أية حال فإنَّ جودة الرسوم والزَّخارف والتركيبة الغريبة من الأزرق والأصفر ، نعنى المذهَّب أو المذهَّب فقط ، يجعل للخزف النَّصرى رقة خاصة مما يجعل من الصعب الخلط بينه وبين الخزف المصنوع فى أماكن أُخرى ، وقد اكتُشِفَ فى هذا الإنتاج وجود قطع خشنة الصنع فظَّة الزَّخرفة أرضيتها خضراء وزخارف مذهَّبة أو صفراء من المنجنين، ولكنها حاليًا غير معروفة جيداً ،ولم تستحق اهتمام الدارسين .

ومن المألوف عادة أنَّ المراكز المنتجة للخزف النَّصرى تركزت بشكل رئيسى فى ألميريا ومالقة ، ومن اسم مالقة اشتُقَّ اسم ماليقا ، وأطلِقَ على أحد أنواع الخزف .وإذا لم يكن هناك برهانٌ وثائقى على تصنيع الخزفيات فى أماكن أخرى من المملكة النَّصرية ، فإنَّ علم الآثار أمَدَّنا بمؤشرات عن نشاط الفن اليدوى فى أماكن أُخرى بما فى ذلك الحمراء .

وفى الواقع ، فإنَّ مالقة وألميريا كانا المينائين اللذين انتشر عبرهما الإنتاج الخزفى النَّصرى بمنطقة البحر المتوسط ، وعلى ذلك يجب ألا نستغرب أن يطلق اسم ماليتشا كمرادف للخزف المُذهب ، كما فى إيطاليا ؛ حيث كان يُطلق اسم مايوليتشا على الخزف المطلى بالزُّجاج والمزخرف ، نظرًا لكون مايوركا مركز توزيع الخزف المزجَّج أو المطلى بالزُّجاج ، وإنْ كانت مايوركا منذ أوائل القرن الثالث عشر لم تعُد تنتج هذا النوع من الخزف الفاخر نتيجة لاستردادها على أيدى المسيحيين .

ويمكن دراسة الخزف النَّصرى من خلال أرصدة متاحف متعددة ومجموعة مُتحف الحمراء تُمَكننا من التَّعرف على تنوع كبير سواء فيما يتعلق بالمظهر أو الجوهر(٩) ، وتبرز من بينها مجموعة الصَّوانى ذات القاعدة الصَّغيرة أو الفوهة الكبيرة (أى أنها صغيرة من أسفل وواسعة من أعلى) وأهم هذه النماذج تميزًا هو الصينية الكائنة فى جناح

فيكتوريا وألبرت بمُتحف لندن ؛ حيث أُعِدَّ لها جناح أو حوض كبير مستدير وبه ثلاثة صواری وكأنها أحد المراكب ، وفی الصاری عُلِّقَ أو رُفِعَ مركب شراعی مربع وعليه الكينا البرتغالية . هل نجد أنفسنا أمام رمز لنشر الخزف النَّصرى ؟ إن هذا أمر مُحتمل ؛ لأنَّ السفن البرتغالية كانت الوسيلة الملائمة لنقل ونشر هذا النوع من البضائع والسلع (يعنى هنا الكاتب الخزف) .

والدراسات الخزفية التى فى متناول أيدينا اعتادت على الاهتمام الخاص بالقطع والنماذج الخزفية الفريدة ؛ نظرًا لأهمية قيمتها الزخرفية وأهمية استخدامها ، وهذه النزعة أيضًا تُلاحظ فى المجموعات الكائنة بأهم المراكز المتحفية (يعنى المتاحف)؛ حيث أولت القطع الفريدة اهتمامًا بالغًا على حساب القطع العادية ، والتى فى واقع الأمر كانت تستخدمها البشرية ، وإذا كُسِرَت قامت بإصلاحها لكى يتم استخدامها من جديد ، إنَّها القطع العادية التى لم يكن لها قيمة استثنائية ، ولكنها كانت تُرَمَّم ويتم إصلاحها لصعوبة استبدالها .وهذا الطَّابع اليومى هو الذى يهم عالم الآثار ؛ لأنَّ هذا يُقَرِّبُهُ من المغامرة الإنسانية اليومية أكثر من تلك القطع الفريدة ذات القيمة الثمينة ، والتى لم تتعد فى كثير من الأحوال أن تكون اقتناءً للرَّفاهية فحسب أو بمعنى أصح فإنَّها كانت بمثابة قطع لوضعها فى فترينات زجاجية أو بعرفنا اليوم. إنَّها قطع للديكور فقط .

وفى منهج اكتشاف الخزف النَّصرى لدينا نموذج واضح جلى من خلال الحفريات التى تمَّت فى كاستيبخو وجواخاريس جنوب محافظة غرناطة .وقد عرفنا عن الحفريات التى تمَّت منذ بضع سنوات من خلال التقارير المكتوبة والمناقشات العلمية ، ولكن لم تجر محاولة واحدة لتقديم الجانب المنزلى الذى يُسْتَشَفُ من خلال الخزف المُكتشف فى ذلك المكان (١٠).

وأصل الخزف النَّصرى يجب أنْ نبحث عنه فى أواخر المنتجات الخزفية للموحدين التى بلغت شأنًا عظيمًا فى الثلث الأول من القرن الثالث عشر الميلادى ، وخزف جواخاريس هو همزة الوصل بين خزف الموحدين وخزف النَّصريين ، واعتبارًا من الخزف المفقود فى منطقة كائنة فى قمة الجبل فإنَّه يمكننا تحديد النَّمط الجديد اعتبارًا من النصف الثانى من القرن الثالث عشر وهو الخزف النَّصرى .

ولكن كيف كان المتاع المنزلى من الخزف لسُكَّان كاستييخو ؟

في المقـام الأوَّل يُلاحَظ وجـود عناصـر وأدوات التَّـخـزين المُمَـثلة فى الجـرار والخابيات والمُلائمة لتخزين أو حفظ الحبوب والسوائل ، وبعضـها ثابت ذو حجم كبير وقاعدة مستوية كمخازن منزلية لهذه المواد ، والبعض الآخر متحرك وقاعدته مدببة حـتى تتكيف مـع القُـفف أو الزنـابيل الطويلة التى توضـع على ظهـر الراحلة أو الدابة كوسيلة للنقل . واعتباراً من هذه النماذج اشتُقَّت الخزفيات النَّصرية ، ونعنى بذلك الخابيات التى أطلق عليها الإسبان لفظة خارُون ، واشتهرت هذه الخابيات فيما بعد باسم خارُونات الحمراء ، وأعلى نسبة من الخزف المنزلى يتعلق بأوانى وأدوات طهى الطَّعام اعتباراً من الموقد أو الكانون المتحرك الملائم للطهى ، وكذلك كمدفأة ، وكذلك سلسلة متنوعة من المراجل أو القدور والحلل والطناجر المختلفة الأشكال والأحجام وتقنيات اللانفاذية (ويعنى بهذا التشطيب المُحكم لهذه الأوانى حتى لا تتسرب منها الأطعمة السائلة) .ويمكن أنْ نؤكد أنَّ القدور أو المراجل والطناجر كانت متنوعة أو متعددة الاستخدامات ليس فقط لطهى الأطعمة بل أيضًا كأدوات خدمة وكذلك كأوانٍ وأوعية للأكل الجماعى .

ويمكن القول إن أطقم السفرة كانت غير موجودة ، وفى هذا المجال يمكن ملاحظة أنَّ عملية صقل الصَّوانى كانت غير مألوفة ، وخاصة الصَّوانى ذات اللون الأخضر بفتحات مزدوجة أو ثنائية لإدراج الرصاص المصهور ، وهذه القطع متميزة وتندرج تحت أنماط عصر الموحدين ، وستكون سببًا فى إنتاج الصَّوانى المخروطية الكبيرة التى سبق وضعها كمميزات للخزف النَّصرى .

وما زالت هناك بعض الأباريق أو الدوارق لسقاية السوائل بين متاع المنازل ، هذا إلى جانب أغطية متعددة الأشكال .

وبصفة استثنائية ظهرت بعض القطع يمكن اعتبارها خارجة عن الموضوع مثل حاملات المشاعل ، وطبلة صغيرة وحَمَّالة للخابية أو الخارُون كما يُسميها الإسبان ، وهذه القطع لها أهميتها بين متاع المنزل، ومع ذلك لم تكن شائعة أو مألوفة بصفة عامة .

ونمـوذج جواخـاريس يسمح لنا بوضـع نقطة انطلاق لما سيكون عليه المتاع أو الأثاث الخزفي المنزلي إبَّان العصر النَّصري بالأندلس .

ويمكن التَّعرف على التعقيدات الشَّكلية اعتباراً من ازدهار الفُخَّارات (مصانع الفخـار) النَّصرية وعلى وجه الخصوص في النِّصف الثـاني من القرن الرابع عشر وحتى سنوات طويلة من القرن الخامس عشر ، وتنوع الأشكال ليس موازياً أو مقترناً بنوع الاستخدام ؛ فقد استمر إنتاج صواني أو أطباق وأحياناً فناجين الخدمة وكذلك أواني أو أدوات شرب السَّوائل مثل الأباريق ، وقد أدخلت صناعة الخزف النَّصرية عنصراً جديداً لم يكن معروفاً من قبل ، وهو الكأس وبرطمان الصيدلية وإنْ كان البرطمان ينتمي إلى حقب وعصور سابقة إلا أنَّهُ إبَّان العصر النَّصري بدأ يتسع انتشاره بشكل كبير .

واستخدام المتاع أو الأثاث الخزفي المنزلي وهو مظهر لم يَكَدْ يُدْرَس حتى الآن ولدراسته لدينا مصدر إعلامي خاص جداً : وهو كتب أو وصفات المطبخ [١١] .والأنباء التي علمناها نادرة حقًّا ؛ لأنه في مثل هذه الكتب لا توجد فقط ضوابط عن شكل هذه الأواني بل أيضاً عن كيفية استخدامها .

وعلى سبيل المثال فإنَّ المرجل أو القِدر يجب أن تُطابق الطَّعام الذي سيُطهى بها فأحياناً يكون جديداً ، نظيفاً ، كبيراً، أو أنه جديد ومطلي بالزُّجاج ، صغير ، مغلق أو مزود بجسد كبير وواسع ورقبة (لها جوف واسع وعنق) ، وإلى جانب القدر الكبيرة توجد القدر الصَّغيرة وتصغيرها باللغة العربية قُدَيرة. ومن المعلومات التي وصلت إلينا نستطيع التمييز على الأقل بين أربعة أحجام مختلفة من الحلل الكبيرة والعادية والصَّغيرة والصَّغيرة جداً ، الأمر الذي تأكَّد لنا من خلال الاكتشافات الأثرية ، ومن بين هذه القدور أو الحلل يجب علينا أنْ نشير إلى قِدر أو حلة الكُسْكُسي التي تتميز بكثرة فتحاتها وثقوبها ، وقد توثَّق لنا ذلك من خلال النماذج التي عُثِرَ عليها في بيرا [١٢] بالميريا وجواخاريس .

أمَّا الطناجر والصَّواني والأطباق وطسوت الغسيل فإنها يمكن أن تكون من الفخار فقط أو الفخار المزجَّج (المطلي بالزُّجاج) ، والتغييرات الشكلية تشمل جوانب

متخصصة للغاية مثل الغطاء المثقوب في الوسط فتحة لا غنى عنها لإدخال عصاة لتقليب مكونات الطَّعام فى أثناء عملية الطَّهى ، ولكن بقى لنا فضولٌ للتعرف كيف كان شكل هذه العصاة .

والتغييرات والتنوع فى القطع التى عُثِرَ عليها لا حصر لها ، والدِّراسة الخاصة بالأثاث أو المتاع الخزفى المنزلى من خلال كتب وصفات الوجبات أو الأطعمة قدَّم لنا كثيراً من الأشياء الجديدة العجيبة ومن بينها شيء متميز : الدَّرجة الرفيعة فى التخصص المطبخى ، وقد انعكس ذلك فى إحدى الوصفات التى تحدَّثت عن مثقوب القاعدة وعند الإمساك بالقطعة من مقبضها فإن إصبعًا من نفس اليد الممسكة بها تستطيع تغطية الثقب وكشف الثقب وفقًا لإرادة ورغبة الطباخ بحيث يقع أو يسقط محتوى القطعة فى القلاية وبهذا الشَّكل يمكن عمل صور وأشكال من العجينة المسكوبة (١٣) ، وخلاصة القول جهاز يشبه جهاز تحمير بلح الشام أو ما يعرفه الإسبان بـ " لوس تشوروُس ، "وهو أمر يجب ألا نستغربه على الإطلاق ؛ لأنَّ هذه الحلوى – بلا أدنى شك – يرجع أصلها إلى الأراضى الإسلامية .

وما هو استخدام الوعاء الخزفى ؟ فالإجابة عن هذا السؤال يمكن أنْ يكون حقيقة بديهية ؛ لأنَّ استخدام وعاء خزفى هو أساساً متعددٌ ، والمادة الخزفية بالرَّغم من كونها هشة فإنَّها تحتاج إلى صقل باستمرار ، ويمكن أنْ تكون فى النِّهاية قصرية أو أصيص للزرع . وطبقًا للمستوى الاجتماعى والاقتصادى للجاليات أو الجماعات التى تستخدم هذه الخزفيات وبالشَّكل الذى نتعمق به فى معرفتها (أى الخزفيات) نجد أنَّ الإفادة منها من جديد وإعادة صقلها وإعادة استخدامها كانت تمثل عنصراً مشتركًا طوال العصر الإسلامى بالأندلس .

ومع ذلك فإنَّ استخدام الأوعية الخزفية لا يعتمد على إعادة صقلها ودرجة المحافظة عليها سواء كانت فطرية أو مكتسبة من جانب الجماعات التى تستخدم مثل هذه الخزفيات ؛ حيث إنَّ كل قطعة مصنوعة من الطِّين أو الفخار المطبوخ ، كان لها استخدامٌ معينٌ ، وهذه بإيجاز المهمة التى يهمنا تحديدها .

وإعداد خطة تكوِّنُ قاعدة لعملية تصنيف القطع من حيث الاستخدام قد سبق إعداد ذلك فى مرَّات متعددة (١٤) ، ويكفى قبول أية محاولة تصنيفية والقيام بتنميقها وتكييفها مع الاحتياجات الخاصة للفترة التى ننوى دراستها ، وفى الأساس فإنَّ كل خطة تصنيفية يجب أنْ تقدِّم تنوعًا صارمًا للاستخدامات ، وإذا كانت المتغيرات أو التنوعات ستتعدد فإنَّ التصنيف سيطرح لنا لوحة معقدة أو جدولاً معقداً وغير ملائم لوضع خطة مترابطة .

والواقع أنَّ الاحتياج لحصر المصطلحات الصارمة لهذا التصنيف أو التبويب يُعَدُّ من المهام الشاقة للغاية ، فضلاً عن كونه معقداً ؛ لأنَّ أهمية الخزف فى الحياة اليوميةواستخداماته المعقدة تدفعنا إلى عمل تصنيفات تفصيلية بالشكل الذى لا يدع مجالاً للشك فى أن هذه المحاولات ستكون سُدى ولا طائل تحتها . فتبويب أو تصنيف يضم أكثر من خمسة عشر استخداماً فى وجهة نظرى سيكون مجرداً ومعقداً وسينأى عن صلب الموضوع وغير فعَّال كعنصر تصنيفى .

وربما تكون نزعتى المفرطة فى النَّقد فى هذا المجال ، يمكن أنْ تكون مُغالى فيها والخطة التى سأقترحها قد تبدو مفرطة التبسيط ، واستناداً إلى الحكمة القائلة الرجوع عند الحق فضيلة إذا كانت الآراء المعارضة ستكون مُقنعة فإننى على أتم الاستعداد لتحديد المدلول ، وإذا لزم الأمر التصحيح أو العدول عن رأيى.

وأودُّ وضع خُطة للاستخدامات الخزفية مكونة من خمسة أقسام رئيسية ، وهى فى حد ذاتها قد تقبل مجموعات فرعية .

١ - التَّخزين والنَّقل.

٢ - الاستخدام المنزلى .

٣ - التَّغذية .

٤ - الاستخدام التِّقنى والمعمارى .

٥ - طبيعة اللعب واللهو .

وفى إطار هذه التقسيمات الرئيسية يمكن - كما ذكرت آنفًا - إدراج ملامح أو علامات متوسطة أو وسطية تحدد بدقة استخدام الخزفيات دون أنْ ننسى أنَّ عينة أو نموذجًا معينًا يمكن أن يكون متعدد التكافؤ نظرًا لشكله وسعته إلخ .... وبالتالى فإنَّ إمكانية استخدامه فى مجالات مختلفة واردة ٠

والقسم الأول لا يحتوى إلا على مشاكل قليلة فى التَّفسير أو الشَّرح ، والجسم الخزفى يمكن أنْ يوضع به سوائل أو أشياء صُلبة ، كما يمكن أنْ يكون هذا الإناء ثابتًا أو متحركًا بشكل خاصٍ ٠

ونوع السَّوائل أو الأشياء الصُلبة سيؤثر قليلاً على الشكل وعلى أيَّة حالٍ فإنَّ الإناء الخزفى سواء كان لحمل السوائل أو الأشياء الصُلبة فإنَّ هذا لن يُغير من مادته الخام اللازمة لصنعه ولا من تقنية تصنيعه ، فإناء الماء مثلاً يمكن أنْ يكون من الطين المسامى بغية ترطيب الماء ، بينما نجد أنَّ إناء الزَّيت يجب أنْ يكون غير مسامى محكم التشطيب ومطليًا بطبقة عازلة تمنع تسرب السائل من الإناء بحيث لا يلوث جدرانه والمكان الموجود به ٠

و العناصر الصُلبة سواء كانت حبوبًا أو ملابس (لدينا دليل على أنَّ خابيات خيربا كانت تستخدم لحفظ الملابس وخاصة الخابيات الكبيرة) يجب أنْ تكون غير مسامية حتى لا تسمح بتسرب الرُّطوبة أو الماء إلى داخل هذه الخابيات فتؤدى إلى تلف ما فيها من ملابس أو حبوب ٠

أمَّا فيما يخص أوانى أو أوعية النَّقل فإن علاقة حجمه وثقله فارغًا أو وزنه وهو مملوءً يجب تقييمها دائمًا بالنِّسبة للشكل وسهولة إمساكه واستعمال هو التَّحكم فيه وفقًا لنوع النَّقل سواءً أكان هذا بشريًا أم حيوانيًا ، وفيما يتعلَّق بالنَّقل الحيوانى يجب أنْ تكون القطعة الخزفية ذات شكل خاص بحيث يتكيف مع الخِرجَة التى تحملها الدَّواب ٠

ولذلك وفى إطار مجموعة التَّخزين والنَّقل فإنَّ سهولة الاستعمال تعتبر شرطًا أساسيًا ٠ ومن جهة أخرى فإنَّ مميزاتها الفنية يجب أن تلائم فى شكلها وحجمها مختلف الأشياء التى ستُنْقَلُ فيها ٠

وفى القسم الثانى : التَّخزين نجد أنَّ التغييرات بالنِّسبة للاستخدامات الفرعية كثيرة ومتعددة ؛ حيث إنَّ تعقيد المواد التى تدور فى إطار هذا المفهوم متعددة ، ومتنوعة وعملية إعداد الأغذية أو الأطعمة فى غاية التعقيد أحيانًا .وفى البداية يمكن التفكير فى خمس مجموعات فرعية جديدة تتواءم مع استخدامات أخرى ذات طابع غذائى :

- أوانى للطهى ، ونعنى بذلك الأوعية الخاصة بالوقود والنِّيران .
- أوانى لوضع الأغذية وهى ضرورية لعملية الطَّهى .
- أوانى للإعداد والتَّجهيز المسبق للأغذية أو الأطعمة قبل طهيها .
- أدوات مطبخية أخرى لازمة لتتبيل وتجميل وتزيين الأطعمة واستخدامها اللاحق فى خمة السفرة أو المائدة .
- أوانى مساعدة لتجهيز وتتبيل وتزيين الأطعمة قبل الطَّهى وبعده ، وبمعنى دقيق فإنَّ هذه المتغيرات تنحصر فى ثلاثة :

١ - الأوانى التى تحتوى على الوقود والنيران .

٢ - أوعية الطَّهى .

٣ - أوعية أو أوانى الخدمة والمائدة .

وعلى الرغم من ملاحظة وجود تداخلات بين كل مجموعة وأخرى أو بين البعض والبعض الآخر ، فإنَّه الحالة الأولى نجد أنَّ وعاء النار سواء كان كانونًا أو مجرَّد جذوات من النيران موضوعة على الأرض يبدو أنه قد تميز تمامًا .

أمَّا فيما يتعلَّق بقسم أو مجموعة تجهيز الأطعمة فإنَّ التنوع فيها أكبر والعلاقة المتبادلة مطلقة ؛ لأنَّه يمكن تجهيز الطَّعام فى الوعاء نفسه الذى سيطهى فيه على النَّار أو فى وعاء آخر مختلف تمامًا ، وفى هذه المجموعة أو القسم يجب أنْ ندرس الحلل والطَّناجر والمراجل أو القدور وقِطَعًا أخرى كثيرة من الخزف دون أنْ ننسى أنْ أطعمة

معينة يمكن أنْ تقدم على المائدة فى الوعاء نفسه الذى طُهِيَت فيه ، وبالتَّالى سنجد تداخلاً بين هذه المجموعة والتالية لها .

كما أنَّ أدوات السفرة يمكن استخدامها فى إعداد وتجهيز أطباق معينة بغض النَّظر عن أنَّ شكلها وزخرفتها تجعلها مُخصصة للقيام بوظيفة لخدمة المائدة أو السفرة ، وفى هذا القسم يجب إدراج أوعية شرب السوائل المُعدَّة تمامًا لخدمة المائدة أو السُفرة ، ولكنها ترتبط ارتباطًا وثيقًا مع أوعية الحفظ وإنْ كان حجمها أصغر.

وفى هذا القسم يجب أنْ نُفْسِحَ المجال للأباريق الصَّغيرة ذات الفوهة الواسعة ، ويطلق عليها – بشكل صائب فى اللغة العربية – لفظ " مشْرَب " الذى حُرِّفَ إلى " مشْرِبْ " أو أوانى الشرب ، وفى هذه الحالة فإنَّ كمية كبيرة من الأباريق التى عُثِرَ عليها فى المستودعات الأندلسية ليست فى الحقيقة أوانٍ لحفظ السوائل ، بل هى أكواب للشُرْبِ ، وهو ارتباط متبادل فى هذه المحاولة التَّصنيفية .

وأطباق الخدمة أيضًا: الكبيرة منها مثل الصَّوانى أو الأطباق هى متعددة الاستخدامات ، ولم يكن الطَّبق الفردى على المائدة الأندلسية شيئًا مألوفًا ، ولكننى لا أستطيع التجرؤ لتأكيد ذلك فيما يتعلق بأوانى الخدمة فى القصور ، وإنْ كانت تساورنى الشُكوك ، ولكن فى الأوانى المنزلية للأندلسى العادى فإنَّ الطَّعام كان يُقَدَّم فى صينية أو طبق كبير مشترك للأكل الجماعي ، وكان تناول الطَّعام يتم بأصابع اليد، فغيبة الملاعق كانت أمرًا عاديًا ، أمَّا تناول السَّوائل مثل الشوربة فكان يتم رشفًا ، وإنْ كان فى الأنماط الأندلسية السابقة على العهد النَّصرى لم يُعْرَف وجود القصعة أو السُلطانية أو الصَّحفة التى ستكون أحد الأنماط الرئيسية المسيحية ، أمَّا الشَّوكة فهى اختراع لاحق ، وعلى الرغم من أنَّ هناك مؤشرات على وجود أداة مشابهة للشوكة فإنَّها لن تعدو أن تكون بسنين أو بثلاثة أسنان على الأقصى لإمساك الطَّعام عند تقطيعه بالسكِّين أكثر من كونها شوكة بمعناها المعروف لدينا اليوم .

ومن خلال المعلومات التى حصلنا عليها من حفريات كاستيخو دى لوس جواخاريس (اسم مكان) بغرناطة يُلاحظ أنَّ الصينية أو الطبق كان أداة مهمة ؛ لأنَّ النَّماذج التى عُثِرَ عليها كانت بها مؤشرات تدل على عمليات ترميم متلاحقة قد حدثت

لها ، فضلاً عن إصلاحات لها عن طريق رقائق من الرصاص لتثبيتها والحفاظ عليها ، وفى مجتمع منعزل مثل جواخاريس فإنَّ بقاء الطَّبق أو الصِّينية كان واضحًا ، ومع ذلك لم يكن اقتناؤه أمرًا ميسورًا لعامة الناس .

وفى إطار القسم ذى الطابع المنزلى يمكن إدراج متغيرات عديدة ، فمن ناحية تجد النظافة الصِّحية سواء الشَّخصية أو المنزلية ، الإضاءة ، الزَّخرفة والتَّدفئة البيئية (تدفئة الجو) ... إلخ .

وانطلاقًا من المعلومات الأثرية من الممكن توثيق هذه المظاهر المتنوعة بشيء من الدِّقة .

ففى القسم المخصص للمهمة التقنية والمعمارية نجد أنَّ لدينا سلسلة واسعة من الأوانى المختلفة ، والأثرى انطلاقًا من مكتشفاته لا يستطيع دائمًا دراسة هذا التَّنوع الكبير من الأدوات والأوانى الخزفية ، وفى البداية يمكن تخصيص قسم لمواد البِّناء :

- الطُّوب اللبن أو الآجر.
- قرميدة (التى تستخدم فى تغطية أسطح المنازل على شكل هرمى كى تسمح بنزول مياه الأمطار وعدم تراكمها على الأسطح ، وهذا أمر شائع فى أوروبا) .
- القيشانى .
- ماسورة صرف المياه أو التَّنور .

و كل هذه الأنماط موثقة تمامًا ، ومن ناحية أخرى سيكون لدينا أوانٍ معينة خاصة بصانع الفخار نفسه (الفخارى) .

- الحواجز التى يضعها بين أرضية الفرن والقطعة الخزفية .
- بكرة أو أسطوانة .
- وحلقات على شكل حرف " S "(اس) ضرورية لوضع القطع الخزفية فى الفرن. ولكل قطعة من أوانى صانع الفخار لها وظيفتها المميزة فالحاجز يستخدم لفصل الأطباق المزجَّجة (المطلية بالزُّجاج) عند وضعها فى الفرن

أحدها فوق الآخر ، وذلك حتى لا يلتصق الطِّلاء الأخضر للطبق العلوى بالطَّبق الذى تحته أو أسفلهُ ٠

أمَّا البكَّرات فتعزل بدورها القطع الخزفية المرصوصة وقت تصنيعها أى وهى بالفرن ، كما أنَّ البكرات توضع فى جدران الفرن لتكوين عدة طوابق ، وبهذا الشَّكل يمكن ملء الفرن تمامًا (١٥).

أمَّا حرف " S " (اس) فلم يُعثر عليه حتى الآن فى مايوركا ودنيا (اسمى مكان) ، فلم يُعرف على وجه التحديد مهمتهما أو وظيفتهما وربما استُخْدِمَ لتعليق إناء صغير له مقبض فى آخر كبير بغية استغلال المساحة المتاحة على أفضل ما يكون ٠

ووجود القواديس يسمح بوضع قسم فرعى فى إطار الخزفيات التى لها استخدام تقتنى ، فضلاً عن استخدامها الأساسى للحصول على الماء سراً فى الرِّيف أو فى المدينة (١٦) . إنَّ نمط القادوس شهِدَ تغييراً طوال العصر الأندلسى ، ولكن اختلافاته الشَّكلية الضَّرورية لكى تتواءم القطعة (مع عجلة السَّاقية أو النَّاعورة ، والتى تُحَتِّم أنْ يكون للقادوس عُنُق ضيق يسمح بربطه جيداً على أنْ تكون الفوهة واسعة من أسفلها بالشَّكل الذى لا يسمح بانسكاب الماء عندما يكون القادوس فى وضع رأسى، ونادِراً ما نجد قطعة خزفية يكون شكلها مرتبطًا تمامًا باستخدامها أو بوظيفتها وبالتَّالى فإنَّ القادوس يجب أنْ يسمح بالعمليات التالية :

١ - النزول فارغًا فى وضع مقلوب ٠

٢ - دخوله فى الماء بالشَّكْل الذى يسمح بملء جوفه أو مستودعه عن آخره ٠

٣ - الصُّعود فى وضع رَأسى وهو مثبت جيداً فى عجلة الناعورة أو السَّاقية مع رد فعل لبقية القواديس بسبب ثقل الماء المجمع فى مختلف القواديس ٠

٤ - سكب المياه فى وضع مائل أولاً وأفقيًا ثم فى النِّهاية مقلوبًا تمهيداً لبدء العملية من جديد ٠

ولموازنة المجهود اللازم لرفع القواديس المملوءة بالماء فى هذه القطع التى تنتمى إلى العصور الوسطى المسيحية والحديثة فإنَّ القادوس كان به فتحة بقاعدته بالشَّكل

الذى يسمح بالتنقيط أو تسرب الماء نقطة نقطة مما يخفف إلى حد كبير من هذا الجهد أو المجهود ، وعلى الرَّغم من ذلك فإنَّ معظم القواديس فى العصر الإسلامى ، والتى تمكنت من دراستها فإنَّ هذه الظاهرة لم تكن موجودة (يقصد الفتحة أو الثقب الذى بالقاع) .

و الوثائق المكتوبة عن وصفات الطَّعام تشير لنا إلى أنَّ السُّكر كان عنصرًا مهمًا فى النِّظام الغذائى الأندلسى ، ولدينا مؤشرات قديمة جدًا عن تصنيع السُّكر . ويصف ابن أعوان – على سبيل المثال – عملية التَّصنيع بدقة بالغة فى القرن الحادى عشر وإنْ كان لا يوجد دليل على تصنيع السُّكر بالأندلس على الأقل فى الفترة ما بين القرن العاشر والرَّابع عشر الميلادى ، كما أنَّ هناك وثيقة عن تصنيع السُّكر بطريقة يدوية منزلية بين المسلمين الأندلسيين فى غرناطة ، فى أثناء القرن السَّادس عشر وتشير لنا الوثيقة أنَّ عملية التَّصنيع كانت أمرًا شائعًا ومعروفًا ، ومن ناحية أخرى فإنَّهُ منذ القرن الثالث عشر لدينا دليل على نوع من السُّكر أُطْلِقَ عليه فى النُّصوص " جماعة السُّكر "ومنطقى إذا وُجِدَ دليلٌ لفظى لهذه الجماعة يجب أنْ نتفق على وجوده الفعلى ومع ذلك فحتى وقتنا الحاضر لم يكن ممكنًا التَّحقق من ذلك بكل تأكيد زمنى هذه الجماعة الأندلسية .

و الآن فإنَّ التقنية الخاصة بتكرير السُّكر تحتم وجود طريقة معينة ، وهذه تكمن فى متحف الآثار بغرناطة ، وذلك فى القطعة التى عُثِرَ عليها فى البحر دون تاريخ محدد أو زمن معلوم ، والجماعة الأندلسية دون أدنى شك يجب أن تكون كذلك لا يهم أن تكون كبيرة أو صغيرة ، بل المهم أنها ستكون تمامًا كالقطعة التى عُثِرَ عليها فى البحر من حيث الشكل (١٧).

و فى كل أثاث أو متاع منزلى نجد أنَّه من المألوف تنوع استخدامات القطعة الخزفية ، ولذلك فإنَّ قطعة خزفية معينة يمكن أنْ تخصص لعدة مهام أو وظائف ، ولنرى ذلك فى القصعة أو الجفنة (وهى الإناء الذى يوضع تحت البرميل ليجمع الماء الذى يتساقط من المبزل (الصُّنبور) نجدها تستخدم فى مهام الطَّهى مثل عجن دقيق الخبز ومهام النَّظافة والصِّحة مثل غسل الملابس واستحمام الأشخاص والمهام البنائية

مثل إعداد الملاط بكميات صغيرة ومع ذلك ففى بعض المظاهر المعينة نجد أنَّ نماذج خزفية محددة تُصنع لغاية معيَنة ·وسوف أسوق بعض الأمثلة مثل الأوانى التى توضع تحت الخابيات لجمع نقاط الماء المتساقطة منها التصميمات أو الماكينات المعمارية بمنطقة مورثيا التى فُسِّرَت كما يتضح ذلك من النموذج الفريد الكائن بمتحف أَلميريا [18] ونماذج أخرى عُثِرَ فى مورثيا ولوس جواخاريس ·

فالأوانى التى توضع تحت الخابيات مفيدة للغاية فضلاً عن أن لها مهمة خاصة جدًا :

١ - إنَّها تستخدم كمسند للخابيات ·

٢ - إنَّها تجمع الماء المتبخر من جدران الخابيات ، وذلك فى جزئها العلوى ·

٣ - وبعد تصفية الماء من جديد عبر قناة صغيرة أو مجرى صغير تأخذ الماء لاستخدامه من جديد ·

و من الملاحظ أنَّ القطعة متطورة تُناسب مجتمعًا متطوراً ، وفى الواقع فإنَّ هذه القطعة ليست لها مهمة أو وظيفة عملية ، ويمكن القول إنَّ هذه القطعة لم تكن سوى مبتكر رفاهية وخيال للمسلمين الأندلسيين ·

و فى هذا الصدد أيضًا نجد القطع المُسمَّاة بالتَّصميمات أو الماكينات الهندسية المعمارية فى مورثيا والمعروفة باسم مساقى الحمام وفقًا لتفسير مانويل خورخى أراجونيسيس [19] ، وقد أعاد تفسيرها خوليو نابارُّو مساند الإبريق [20] ، وفى الواقع إننا أمام قطعة خزفية رائعة الزُّخرفة بغض النظر عن مهمتها أو وظيفتها ، كما أنَّ فائدتها الحقيقية لم تتحدد حتى الآن ·

وفى فصل أو قسم عناصر وأدوات الإضاءة نجد أنَّ المصباح أو القنديل ليست هناك مشاكل للتعرف عليه أو لشرحه ، ولكن فى أوانٍ أو أدوات أخرى كحوامل الشَّمعدان من الممكن أنْ يصعب تعريفها أو شرحها ·

وفيما يتعلق بنموذج متحف أَلميريا الوارد من القصبة فإننا نجد أنفسنا أمام شكل ناقوسى وفتحة تسمح بإخراج الشمع الذائب أو المنصهر ، وكذلك سنبلة طويلة فى

وسط المصباح تسمح برفع الإضاءة إلى ارتفاع معين [٢١] ، وانتهاء السنبلة بنتوء أو بحدبة يسمح فقط بوضع شمعدان أو شمعة واحدة ، ويتعلق الأمر بجهاز ثابت يسمح برفع بؤرة الضوء ، وبالتَّالي توسيع مدى الإضاءة ، وفي إطار الخط نفسه يمكن إدراج قطع مورثيا ولوس جواخاريس ولكن بتحفظات معينة ؛ حيث إنَّه يمكن الخلط بينها وبين الأغطية وإنْ كانت الحافة السفلى لقطع جواخاريس خشنة وفظَّة مما يجعلنا نتكهن بعدم استخدامها للغرض الذي نحن بصدده ، ولا يمكنني أنْ أخوض في مزيد من التفاصيل عن النموذج الذي عُثِرَ عليه في مورثيا ، والذي عُرِفَ من خلال مظهره الأثري .

وفانوس أليكانتي [٢٢] يُعتَبر عينة متنقلة ضمن هذه المجموعة من عناصر الإضاءة ويسهل نقله بفضل يده العلوية ، ونظام الإضاءة سيكون على أساس جَذِيٍّ أو جمرات ؛ لأنَّهُ لا يوجد فراغ يتسع لوضع وعاء به أي نوع من الوقود ، وفتحات التهوية كائنة بالجزء العلوي للقطعة (أعني الفانوس) ، وتقوم هذه الفتحات بالتخلص من الدخان النَّاجم عن عملية الإشعال أو الاحتراق .

وتوقفي لدراسة مختلف أدوات الإضاءة مصدره نُدرة وجود مثل هذه الأدوات بين أمتعة البيت الأندلسي المألوفة أو المعهودة ، إنَّها عبارة عن أدوات أو قطع خزفية معينة ، وإنني أتجرأ على تسميتها أو وصفها بكونها نماذج فريدة أو شبه فريدة .

وفي إطار هذه القطع الفريدة يجب منح مزيد من الاهتمام لزجاجات الحبر ، والمادة التي تصنع منها هذه الأدوات متنوعة ومختلفة من بينها الفضة وهي التي صُنِعَت منها حبَّارة كوبريس [٢٣] في جنوب فرنسا ، والتي أصبحت اليوم كوعاء لحفظ الذخائر الدينية ، كما أنَّ من بين عناصر صناعة الحبَّارات نجد الفخار أو الخزف [٢٤] .

ويمكننا أنْ نَدْرِسَ اثنين منها مختلفي الاستخدام ، نموذج أليكانتي وهو أسطواني ذو تجويفات كبيرة لحفظ الحبر وتجويفات صغيرة القُطْرِ لوضع الأقلام ، وحبَّارة المتحف الوطني للآثار تُعْتَبَرُ نموذجًا صالحًا للسفر [٢٥] ، والقطعة

ذات الشكل الأسطواني مُغلقة بأنبوبة محقنة أو غابة صغيرة في وسطها تسمح بإيلاج الحبر فيها وكذلك القلم وهي مصنوعة بشكل إذا وقعت الحبَّارة لا ينسكب الحبر .

وكما يمكن أنْ نلاحظ الرُفاهية والخيال قد جاوزا كل المقاييس بل قد بلغا حد الإفراط ، ولكن يجب أن نعترف بأن شعبًا رحَّالة ؛ حيث نجد أنَّ كُتَّابه ومؤلفيه كانوا أيضًا كذلك ، وقد لعبوا دورًا مهمًا في الحياة ، وبالتَّالي فإنَّ صناعة الحبَّارة بهذه الدِّقة والمواصفات كان أمرًا ضروريًا لموائمة التِّرحال الدائم والكتابة في نفس الوقت .

أمَّا فيما يتعلق بأمتعة اللعب واللهو المصنوعة من الفخار (الطين المطبوخ) فإنَّ تطورًا ضئيلاً طرأ عليها [٢٦] . لقد تمكنًا مؤقتًا من البرهنة على وجود طبلات ومزامير أو صفافير .وفي الشَّرق يوجد دليل قاطعٌ على وجود أنْفِرةٍ أو أبواق ، ولكن حتى الآن لم نتمكن من إثبات ذلك في الأندلس الإسلامية .وقد وجد اللهو في فن الخزف أكبر معاون ومساعد وبفضل الطين المطبوخ (الفخار) استطاع الإسباني تسلية أوقات فراغه وذلك بالدق على الطبول الخزفية وكذلك لطرد الأرواح الشريرة عن طريق العزف . وفي إطار المزايا المتعددة للطِّين يجب أنْ نفكر أيضًا في قيمته كعُنْصر سحري عجيب ؛ فهو كالحجاب أو التَّعويذة التي تقي الإنسان الشُّرور كافة ، كما أنَّ الطين يمكن دراسته أيضًا كَعُنْصُرٍ أساسي للألعاب أو اللعبات التي تُسَبِّب جلبة وضوضاء ، فضلاً عن أنَّ الخزف كان يُستخدم لمكافحة الحسد ، وهذا مظهر جانبي في الآثار الإسلامية ، وفي العصر النَّصري نجد اهتمامًا خاصًا بهذا الجانب حيث وجدنا كمية كبيرة من نماذج هذا النَّوع ظهرت في مستودعات أثرية تنتمي لهذا العصر ، فمن ناحية يبدو أنَّه مُحَرَّمٌ بالنِّسبة للعالم الإسلامي ؛ لأنَّ هذه التماثيل المصنوعة من الفخار أو الخزف لكونها تصويرية أي لها شكل وهيئة فهي تشبه الأيقونات والإسلام يحرِّم ذلك . ومن جهة أخرى فإنَّ الأثريين أو علماء الآثار اعتادوا تجاهل هذه القطع في معظم الأحيان لعدم إمكانية تحديد زمنها بدقة وأحيانًا أخرى يتجرأ الأثريون في تحديد زمن معين ، ولكن النتيجة قد تكون مخيبة للآمال أو مخزية .

فاللعبة من الطِّين المطبوخ أو الفخار بصفارة أو بدونها هي أدوات أو عنصر مشترك بي كافة الحضارات ، وقد تتبعنا ذلك في كل أوروبا وفي مناطق كثيرة آسيوية

مجاورة للقارة الأوروبية كما أكْتُشِفَ وجودها فى أمريكا اللاتينية (أمريكا الجنوبية) ولا ندرى هل وصلت عن طريق الحملات الاستعمارية أم كانت أصلية موجودة قبل حدوث هذه الحملات . فوجود الصفارة له قيمته الخاصة ، فهو يحول أداة من أدوات اللهو والتسلية إلى عنصر سحرى عجيب وكذلك إلى أداة تُحدث ضجيجًا والضجيج يستخدم فى عدة أمور منها تنبيه الصديق من حدوث خطر مفاجئ أو مباغت ، إثارة غضب الجار ، طرد الأرواح الشريرة أو لتنبيه الماشية ، فالضجة هى القيمة الأساسية للأداة وفى هذا الصدد يجب التَّركيز على وجود هذه الظَّواهر أو المظاهر فى المضمار الاجتماعى الأندلسى .

وقد كان المرحوم تورِّيس بالباس [٢٧] هو أوَّل من تَعَرَّف على اللعبات الفخارية أو الخزفية التى عُثِرَ عليها فى الحمراء : مثل الجياد الصَّغيرة وحيوانات أخرى وخاصة المفترسة والهِرِّية (نسبة إلى الهر) ، كما أثبت بالإضافة إلى ذلك الكثير من الدلائل النصية التى ألقت بالضَّوء على أصل هذه اللعبات وذلك من خلال فتوى لجد العالم الجليل والفيلسوف القدير ابن رشد وقد دوَّنها أحد فقهاء ترميسين [٢٨] ، وقد أوصى فيها المؤمنين بعدم استخدام هذا النوع من اللعب الذى كان يُباع عادة فى المهرجانات والاحتفالات والموالد والأسواق ، وبالتالى كانت عادة مسيحية أو تقليدًا مسيحيًا ، ولكنه كان مذمومًا لدى المسلم التقى الغيور على دينه .

وهذه الفتوى التحريمية كانت لها أهمية بسيطة ؛ لأنَّ وجود تماثيل حيوانات كان ثمة دائمة فى طول وعرض الأندلس بأسرها ، ولم تكن الجغرافيا النَّصرية استثناء من ذلك لأنَّه ؛ ربما تكون المكان الذى ظهرت فيه أكثر اللعبات التى عُثِرَ عليها من هذا النوع ، ولكنَّها فى الحقيقة لم تحظ باهتمام زملائى ومحاولاتى فى هذا المجال معروفة للجميع وخاصة فيما يتعلق فى استمرارية هذا النمط من اللعب حتى الآن وكانت تُسمى فى البرتغال " أبيتوس "وفى أندوخار " بيكيروسوبيتوس " وخارج شبه الجزيرة الأيبيرية وعلى وجه الخصوص فى جزيرة مايوركا كانت تُسمى " سيرولس أو شيلنس ".

وسوف أركز اهتمامى على لعبات الحمراء ، وأهم مجموعة تتكون من الجياد التى عليها فارس أو بدون فارس وتليها فى الأهمية مجموعة الحيوانات الهرِّية أو القطية

وسواء هذه أو تلك فإنَّها متعددة الأشكال والأحجام ومتباينة التقنيات كما يوجد نموذج فريد لثعبان ومن الممكن أنَّ هذا الثعبان كانت له أهمية كبيرة لحماية المنازل وخاصة أسقفها أو سطوحها ، وثعبان الحمراء لم يكن لها صفارة ، أما الثعبان الذى عُثِرَ عليه فى الحمامات العربية بجيان فكان لها صفارة (٢٩) ، والأوَّل يعنى ثعبان الحمراء كان فى وضع مثنى أو سَيْرٍ وجسمه متعرج كما لو كان يزحف ، أما ثعبان بجيان فيبدو فى وضع استراحة ملتفًا حول نفسه فى وضع انتظار . وسيكون فى غاية الأهمية التعمق فى موضوع اللعب لدى المجتمعات الإسلامية ، هل سيكون هذا الموضوع متأصل فى الأندلس والمجتمع المسيحى ووصل إلى المجتمع الإسلامى بالأندلس ؟ أم أنَّ ذلك يُعتبر بقاءً بربريًا فى الأندلس ؟ إنَّها تساؤلات يطرحها الإنسان بصوت مرتفع ولكن حتى الآن مازالت بدون إجابة .

أمَّا بقية قطع الحمراء فإنَّها تندرج فى مجموعة الأدوات التى تُقَلِّد تغريد العصافير ، ونماذج متحف الحمراء ذات طبيعة تشبه الإنسان ، وفى هذه الأدوات نجد أن الماء عنصرٌ فى غاية الأهمية ، وعند تحريكها بواسطة الهواء المدرج من جانب الشخص نفسه الذى يلعب بالقطعة فإنَّ هذا ينجم عنه صوت العصافير أو تغريدها، والقطعة لها ثلاث عناصر : مستودع للمياه وفتحه لإدراج الهواء وإدخاله ، ونهاية فى الحمراء جرت العادة على أنْ يكون شكلاً لرجل مُلتحى .وهذه الأداة يطلق عليها اسم العصفور أو البلبل ، وذلك فى مختلف أنحاء شبه الجزيرة الأيبيرية حتى الآن ، أمَّا فيما عدا ذلك فإنها أداة مشتركة وعامة بين مختلف كثير من الحضارات .

ولم يبق فى النِّهاية سوى أنْ ندرس الجرس الصغير ، وهو عبارة عن تمثال نسائى له تنورة (جونلة) على شكل جرس الجسد رفيع ونحيف والساعدان على الخصرين على شكل مقبضى الجرس ، هل هى قطعة من أصل مسيحى ؟ لا يمكننا الجزم فى هذا الموضوع ؛ لأنَّ القطع التى عُثِرَ عليها فى المحيط النَّصرى ، وخاصة فى الحمراء ليست بها قرينة تسمح بتأريخها بدقة وبشكلٍ صحيحٍ ؛ فالجرس له قيمةٌ رمزية بالنسبة للمسيحى أمَّا فيما يتعلَّق بالشَّخص المسلم فإنَّ الجرس لا يمثل أى مغزى هذا إذا لم يكن يكره الناقوس فى حد ذاته لكونه رمزًا لتعدد الآلهة والشرك ، ولكن هذا أمر آخر ليس موضوع دراستنا الحالية .

لقد تناولنا فيما سبق العديد من الاعتبارات حول مهمة استخدام الأثاث والمتاع الخزفى الأندلسى ، أمَّا الجزء الثَّانى من دراستى فإنَّهُ يتعلق بمحتوى الخزف نفسه . وهى قضية ليست أثرية بدرجة كبيرة ؛ لأنَّ المادة العضوية باستثناء العظام هى أمر غير ملموس أو محسوس بالنِّسبة لنا نحن الأثريون فإننا نوثق موضوعاتنا استناداً إلى البقايا المادية التى تفضلت وتكرمت الطبيعة الأم بتركها لنا ، ومع ذلك فإنَّ قراءة وصفات الطَّعام قدَّمت لنا معلومات نموذجية وفريدة بشأن استخدام الأوانى الخزفية ومهمتها والمكوِّنات التى استخدمها أجدادنا الأندلسيون طوال حياتهم .

وليس بوسعى الاستطراد والتَّوسع فى هذا الموضوع ؛ لأنَّ الأمر يتعلق ببحث يتم إعداده حاليًا على فترات مستغلاً أوقات الفراغ دون التمكن من إعطائه الوقت اللازم للانتهاء منه ، وعموماً فإنَّ المعلومات شهية وفى غاية الأهمية ، خاصة وأننا نتحدَّث عن الطَّعام .

و لنرَ بعض الأمثلة : فالطَّباخ الأندلسى كان بوسعه إعداد سمك بالملح باستخدام وعاء أو إناء خزفى مخصَّص لمهمة مختلفة تماماً أرى طرف نقيض من إعداد السَّمك .

تؤخذ قرميدة جديدة وتُملأ بالملح ثم يوضع السَّمك ويغطى بالملح ثم توضع قرميدة أُخرى كغطاء ثم يوضع فى الفرن ، وسيكون لذيذاً شهياً بإذن الله .

و الحمد لله كانت تستخدم فى هذا الأمر قرميدة جديدة ، وفى هذا الصدد فإنَّ الإشارات بشأن جودة الأوعية أو الأوانى المستخدمة فى المهام المطبخية عجيبة . والجمل أو التعبيرات مثل حلة أو إناء جديد ووعاء نظيف أمرٌ غير مألوف تماماً ، وقد تكون غريبة بالنسبة لعقليتنا فى موطنى على الأقل نجد أنَّ الحلل والقدور أو المراجل والطناجر الجديدة تحتاج إلى عملية إعداد مسبق قبل تخصيصها لطهى الأطعمة، ولا يمكننى أنْ أتصوَّرَ إعداد الطَّعام طهياً فى قدر أو طنجرة أو حلة غير نظيفة .

ومن العجيب فعلاً ملاحظة كثرة الأشكال والأحجام والمميزات الخاصة التى يجب أن تكون عليها القدر أو المرجل وجمعها قدور أو مراجل أو حلل:

١ - قِدْرٌ جديدة .

٢ – قِدْرٌ نظيفة.

نوع المادة الخام

١ – قِدْرٌ مزجَّجة .

٢ – أو مطلية بالزُّجاج .

٣ – قدر من النُّحاس.

٤ – قِدرٌ من الحجر .

٥ – قِدرٌ من الخزف أو الفخار .

٦ – قِدرٌ غير مزجَّجة أو بدون تزجيج .

أمَّا المظاهر الشكلية فهى متعددة وفقًا لكتاب الطبيخ وهى كما يلى :

١ – قدر كبير مثقوب لطهى الكسكسى .

٢ – قدر كبير.

٣ – قدر جديدة مزجَّجة لها جوف وعنق .

٤ – قدر مثقوبة .

٥ – قِدرٌ مغلقة .

٦ – قِدرٌ لها جوف .

٧ – قِدرٌ صغيرة.

٨ – قُدَيْرَة .

وفى المصدر الثانى فضل الجوعان نجد أنَّ الشكل الباروُكى (نزعة أدبية وفنية

سادت إسبانيا فى القرنين السَّادس عشر والسابع عشر) بلغ أموراً مبالغًا فيها، وجدير بالذِّكر أنَّ مؤلفه أعرب عن سعادته عند إيضاح هذه المتغيرات والمميزات :

١ – قِدر ُنظيفة وجديدة كاملة

٢ – قِدرٌ للكسكسى .

٣ – قِدرٌ ذات فوهة واسعة .

٤ – قِدرٌ واسعةٌ .

٥ – قِدرٌ جديدة مزجَّجة ومجففةٌ

٦ – قِدرٌ مدهونة .

٧ – قِدرٌ مجهَّزة لإعداد الكسكسى أى مثقوبة من أسفلها أو من قاعدتها .

وفى الواقع فإنَّ المعلومات التى حُصِلَ عليها بالسُّبل الأثرية تُغطى تمامًا هذا التَّنوع الكبير .

حسنًا الآن ففى هذه العينات أو النَّماذج التى حصلنا عليها من أدب المطبخ أو الطَّهى يطيب لى أنْ أسرد بعض الاعتبارات المحددة عن مضمون ومحتوى القطع الخزفية وكيفية استخدامها ، فمثالان بسيطان كافيان لتوضيح الموضوع كما يجب وبالشكل اللائق .

الأوَّل : يتعلق بإعداد أو تفصيل الزُّلابيات ، كما جاء فى كتاب فضل الجوعان الذى ترجمه السيد / فرناندو لاجرانخا (٣٠) الذى أشرنا إليه آنفًا :

> **"وبعد ذلك يُملأ بها قدحٌ أو كوب الذى فى أسفله ثقب أو فتحه صغيرة تكفى لإدخال أصبع الخنصر (الإصبع الصغيرة) ثم توضع طاسة على النار (مقلاة) وبها زيت كثير ، وتُغطى الفتحة بالإصبع وعندما يكون القدح أو الكوب فوق المقلاة يتم إخراج الإصبع فيتساقط مُحتوى القدح أو الكوب يتم تحريك اليد التى تحمل القدح فينجم عن ذلك أشكالٌ متعددةٌ مستديرةٌ ".**

وبإيجاز فإنَّ هذا القدح مع المقلاة عبارة عن جهاز لتصنيع لوس تشورّوس (بلح الشام)٠

وبالنِّسبة لى فإنَّ هذه العملية المعقدة إلى حد كبير لا يمكن أنْ تتم بدون إبريق له مقبض أو يد بالشكل الذى يستطيع معه إنسان أو شخص ماهر القيام على أكمل وجه بالعمل وذل بمفرده ٠

وفى الحقيقة فإنَّ روعة هذه الوصفات كانت تقترن دائمًا بالصلاة والدُّعاء ؛ لأنَّ المؤلف كان يحتاط دائمًا عند إنهاء المعلومة بقوله : " هذا سيكون طيبًا شهيًا بمشيئة الله ". وهى صيغة موضوعية إلى أقصى درجة ؛ لأنَّها تُخلص الكاتب من كافة الخطايا ذاك الذى خطرت له هذه الفكرة الرائعة لتجميع تلك الوصفات٠

أمَّا فيما يتعلق بالمثال الثَّانى فإنه مذكور فى كتاب الطَّبيخ ، طبقًا لترجمة هويسى دى ميراندا [٣١] ؛ حيث يشير إلى الخصائص اللازمة والواجب توافرها فى الهون أو الصَّلاية لهرس الأطعمة ٠ فالهون أو الصلاية (المهراس) من الحجر الرخامى الأبيض أو من الخشب الصلب مثل جذور الكروم وأشجار الزَّيتون والمرّان والبَقْس والقَسْطَل والبُطم أو الضَّراوة المُعدّ لهرس الأشياء التى لا يتلاءم هرسها فى النحاس بأية حال من الأحوال مثل الملح والثوم والبصل والخردل والنِّعناع والكزبرة الخضراء والليمون وكثير من النباتات الأخرى - الخضروات والفواكه مثل التُّفاح والسَّفرجل والرُّمان واللحوم والدُّهون واللوز والحشو الخاص بالكحك والأطعمة التى قوامها الخبز أو الدَّقيق ٠

فوجود المهراس المعدنى موثق تمامًا، أمَّا المهراس الحجرى فيصعب التحقق منه والبحث عن هويته لأسباب جلية ؛ فوجودها يمكن تجاوز أى حدود والمهراس الأندلسى يمكن أنْ يكون قد بقى بسهولة تامة ، أمَّا المهراس الخزفى فعلى العكس من ذلك تمامًا لم نستطع التَّعرف على هويته ، ولكنَّ هذا الإناء أو الوعاء وُجِدَ بكل تأكيد قُبيل العصر الإسلامى ٠ونماذج تمَّ التَّعرف عليها حديثًا من هذا النَّوع ستؤكد أنَّنا على صواب [٣٢].

وبعد هذ الاستطراد المسهب والمفرط عن الخزف ومضمونه ومحتواه فإننى أودُّ فقط تحديد بعض المظاهر لبحث مازال فى حيز الإعداد وأتمنى الانتهاء منه فى يوم ما ، ومهمة الخزف متصلة اتصالاً وثيقًا بالعناصر والمكوِّنات التى كانت فى حوزة الطَّباخ الأندلسى ، وهذه المعلومات يمكن أنْ تصلنا فقط من خلال قراءة متأنية لكتب المطبخ أو الطَّهى ؛ لأنَّ البقايا المادية التى يمكن أنْ يتعرف عليها الأثرى قليلة ونادرة : بعض العظام وقشر البيض وبشكل فريد شوك السَّمك والأسنان العظمية لبعض الحيوانات البحرية التى لا يمكن إعداد جدول منها كمادة خام مترابطة ولو إلى أدنى درجة . فقراءة كتب المطبخ يُعلمنا جيدًا أنَّ الإسبانى المسلم لم يكن شَرِّيبًا (كثير الشراب) كما يريد أنْ يوهمنا بذلك ، وإذا لم يكن يمتهن ويزدرى تناول الخمر أو شربها ، وهى خطيئة يمكن غفرانها بسهولة فإنَّ حياة بدون الخلِّ كانت ستكون فوضوية ، استنادًا إلى مرقة التخليل كان تمليح الأسماك واللحوم وتدخينها أمرًا ميسورًا لدى الأندلسى لحفظ الأغذية ، ومن جهة أخرى فوجود الخبز والمكوِّنات الأخرى المأخوذة من القمح كانت تمثل العناصر الأساسية التى لا غنى عنها لتدبيره الغذائى ، ونعنى بذلك المسلم الأندلسى ، وكل بحث أثرى أُعِدَّ بمعايير نقدية مبالغٌ فيها يجب أنْ يطرح تساؤلاً ، وهو ما الأشياء التى يمكن العثور عليها فى مستودع أندلسى قبل اغتباطنا من دراسة الذى سيظهر فى المستودع نفسه ؟

إنَّ الخزف النَّصرى فى السِّياق الثقافى الأندلسى هو صفوة وخلاصة الفن الخزفى ، ويعنى ذلك أنه بمثابة وسام مجيد يضع نهاية لتقليد دنيوى استخدم الخزف كرمز للسلطة اللون الأخضر والمنجنيز بمدينة الزَّهراء وفقًا للافتراض الذى ساقه الأستاذ م. بارثيلو [٣٣] ، وهذا الوسام أو البروش سيتحول إلى رمز للازدهار الثقافى من خلال الخابيات بالحمراء ، والتى غزت حوض البحر المتوسط باليرمو ومصر وقبرص لدرجة أنَّه عقب اختفاء الثَّقافة النَّصرية بسنوات قليلة فإن هذه القطع الخزفية الفريدة تحولت فى عيون المسيحيين وأسماعهم إلى قارورات أسطورية جليلية وعنصرًا للتقدير والتبجيل ؛ لأنَّها تشكل جانبًا من معجزات الرب وإنْ كانت الحقيقة هى أنَّ المعجزة الحقيقية فيما يتعلق بالخابيات تكمن فى استمرار بقائها على مرِّ العصور والأزمان كرمز للحمراء الخالدة ولِمَ لا وهى إنتاج خزفى تميز به العالم الأندلسى ؟!

المراجع

(١) (أ) روسيو بوردى .ج. " الخزف العربى فى مايوركا عرض موجز لأنماطه وتاريخه " مايوركا ، بالما دى مايوركا ، ١٩٧٥ ص ٢١٥ - ٢٣٠ .

(ب) روسيو بوردى .ج. " تجربة لتنظيم الخزف العربى فى مايوركا " مايوركا ، بالمادى مايوركا ، ,١٩٧٨

(ج) روسيو بوردى .ج. " الخزف العربى فى مايوركا (مشاكل تاريخية) " الخزف فى العصور الوسطى بحوض البحر المتوسط الغربى ، فالبون ، ١٩٧٨ ، باريس ، ١٩٨٠ ص ٢٩٧ - ٣٠٩ .

(د) روسيو بوردى .ج. " الخزفيات فى المرحلة الأولى (العصر الأوَّل) بعض الملاحظات المنهجية " فى خزف أواخر العصور الوسطى بجنوب الأندلس ، غرناطة ، ١٩٩٣ ، ص ١٣ - ٢٥ .

(٢) روسيو بوردى . ج . " اسم الأشياء فى الأندلس " اقتراح لمصطلحات خزفية ، بالما دى مايوركا ، ,١٩٩١

(٣) بعض العروض التى قُدِّمت فى ملتقى أو ندوة ليريد او خاطبا (اسمى مكان) عن التغذية أو الغذاء فى العصور الوسطى المنعقدين فى عامى ١٩٩١ ، ١٩٩٢ على الترتيب . والتأخير طُبعت فى محاضر جلسات الملتقيين يجعلنا نعتقد بأنَّ هذه المحاولات قد باءت بالفشل أو ذهبت مع الريح .

(٤) كاسمار مانويل " أجزاء من أباريق مالقية فى مُتْحَف القاهرة " مجلة الأندلس ، العدد السادس والعشرين ، مدريد ، ١٩٦١ ، ص ١٨٩٥ - ١٩٠ .

(٥) كورتيس أوتو " التاريخ الغريب للحمراء " مجلة الأندلس ، العدد الخامس والأربعين ، مدريد ، ١٩٧٥ ص ٢٢٠٥ - ٢٢١٢ .

(٦) كافانا مورفى ، روبرت " العاديات العربية أو الآثار العربية فى إسبانيا " الحمراء ، غرناطة ، ١٩٨٧ ، ص ٤٧ - ٤٨ .

(٧) فلوريس اسكوبوسا ايسابيل ومونيوث مارتين ، ماريًا ، الحياة أو العيش فى الأندلس ، ألميريا ، ١٩٩٣ .

(٨) بلاكى هوجو " الخزف والزَّخرفة الإسبانية " الملتقى الدولى الثانى للخزف فى العصور الوسطى فى غرب البحر المتوسط ، طليطلة ١٩٨٤ ، مدريد ١٩٨٦ ، ص ٣٦٥ - ٤٠٧ .

(٩) فلوريس إيسكوبوسا إيسابيل " دراسة تمهيدية عن الخزف الأزرق والمذهَّب فى عهد النَّصريين بالحمراء " مدريد ، المعهد الإسبانى العربى للثقافة ، ,١٩٨٨

(١٠) كريسيير باتريك ماريًا ماجدلينا ريبرا فراو ، رسيو بوردوى جيرمو " الخزف فى أواخر عصر الموحدين وأصول الخزف النَّصرى " الخزف فى العصور الوسطى بغرب البحر المتوسط ، لشبونة ١٩٨٧ ميرتولا ١٩٩١ ، ص ٢١٥ - ٢٤٦ وتوجد طبعة منفصلة دفاتر العهد المسيحى ، العدد الثانى ، بالمادى مايوركا ، ١٩٩١ .

(١١) هويش ميراندا ، أمبرو سيو " ترجمة إسبانية لمخطوط مجهول الهوية من القرن الثالث عشر عن المطبخ الإسبانى المغربى " مدريد ١٩٦٦- دى - لا جرانخا - سانتا ماريًا - فرناندو " المطبخ العربى الأندلسى طبقًا لمخطوط لم يطبع ، مدريد ١٩٦٠ .

(١٢) دو مينجيث بيدمار ، مانويل . فلورنس إيسابيل . مونيوث ماريًا ديل مار" بعض الخزفيات الإسلامية فى تل روح القدس (ثيروديل ايسبيرتو سانتو) بيرا ، ألميريا ، الملتقى الأول للثقافة بالبحر المتوسط ، ألميريا ١٩٨٦ ، ص ٢١٩ - ٢٣٠ .

(١٣) دى لاجرانخا سانتا ماريًا فرناندو ،" المطبخ العربى - الأندلسى وفقًا لمخطوط لم يطبع بعد " مدريد ١٩٦٠ ، ص ٢٢ - ٢٣ .

(١٤) باثانا ، أندرية " الخزفيات فى العصور الوسطى " مناهج الوصف التحليلى التطبيقى على منتجات شرق إسبانيا ، بيت بيلاثكيث ، العدد ١٥ ، ص ١٣٥ - ١٨٥ .

نابارُّو بلاثون ، خوليو " منزل إسلامى فى مورثيا " دراسات لمتاع وأثاث المنزل ، مورثيا ، ١٩٩١ .

فلوريس أسيكو بوسا ، إيسابيل ومونيوث مارتين ماريًا ديل مار " الحياة أو العيش فى الأندس " ألميريا ، ١٩٩٣ .

(١٥) أميجيس فرانسوا باثانا أندرية " الخزفيات فى العصور الوسطى فى غرب البحر المتوسط ".

(١٦) باثانا أندرية " ساقية عربية فى بستان زيتون " المؤتمر الثانى عن آثر إسبانيا فى العصور الوسطى ، مدريد ١٩٨٧ الجزء الثانى ، ص ٤٢١ - ٤٣٢ .

بوستس فيرُّومارينا شينشليا جوميث " أشكال خزفية مساعدة : الكوانين والقواديس وأشياء أُخرى " المؤتمر الثانى عن الآثار الإسبانية فى العصور الوسطى ، مدريد ١٩٨٧ الجزء الثانى ، ص ٤٩١ - ٥٠٠ .

(١٧) روسيو بوردوى ، جيرمو " الخزف والسُّكر فى العصور الوسطى " فى الصحافة فى الملتقى الدولى الرابع عن قصب السُّكر .

(١٨) دودا دوروتيا " الخزف الإسبانى الإسلامى فى ألميريا من القرن الثانى عشر حتى الخامس عشر " هيديلبرج، ١٩٧٠، انظر رقم ٨٠ من تصنيفها .

(١٩) خورخى أراجونيسيس، مانويل ، متحف القلعة العربية فى مورثيا ، مدريد ، ١٩٦٦ .

(٢٠) نابارُّو بالاثون ، خوليو " الأشكال المعمارية فى الأثاث الخزفى فى الأندلس " دفاتر الحمراء ، العدد ٢٣ ، غرناطة ، ١٩٨٧ ، ص ٢١ - ٦٥ .

(٢١) دودا دوروتيا " الخزف الإسباني الإسلامي في ألميريا من القرن الثاني عشر حتى الخامس عشر " هيديلبرج، ١٩٧٠، أنظر رقم ٨٠ من تصنيفها .

(٢٢) أثوار رويث ، رفائيل : كاستيو دى لا توزى جروثا (حيخونا) أليكانتى ، ١٩٨٥ ، ص ٩٣ - ٩٤ .

(٢٣) ألماجرو باتتش مارتين " دواية الحبر أو زجاجة الحبر العربية في عصر الخلافة " بكنيسة كوربوريس (روسيون) العدد الرابع ، ثى إن أ . اشبيلية ١٩٦٣ ص ٤٨٧ - ٤٩٠ .

(٢٤) أثوار رويث ، رفائيل : كاستيو دى لا توزى جروثا (حيخونا) أليكانتى ، ١٩٨٥ ، ص ٩٣ - ٩٤ .

(٢٥) ثوثايا خوان ، واى ياجوستيراس " تحليل بالأشعة لزجاجة حبر أو محبرة من عصر الخلافة " مجلة أ . ب . ر . م العدد ٧٥ ، مدريد ، ١٩٧٧ ، ص ٩١١ - ٩١٥ .

(٢٦) تحديث القضية اليوم يمكن الإطلاع عليه في محاضر حوار ألميريا عن علم موسيقى الأجناس بالبحر المتوسط تحت الطبع وخاصة محاضراتى عن الآلات الموسيقية من الطين المطبوخ (الفخار) الباقية من العصور الوسطى .

(٢٧) توريس بالباس ليوبولدو " حيوانات اللعب " مجلة الأندلس، العدد الحادى والعشرين ، مدريد ، ١٩٥٦ ، ص ٣٧٣ - ٣٧٥ .

(٢٨) طالبى .م ،" الخزف العربي والإسلامي في القرن الخامس عشر بالغرب الإسلامي " مجلة أرابيكا ، العدد الأول ، ليدين ١٩٥٤ ، ص ٣٠٤ .

(٢٩) روسيو بوردوى .ج." الزَّخرفة الحيوانية في الجزر الشَّرقية بالأندلس ، بالما دى مايوركا ، ١٩٧٨، ص ٦٢ .

(٣٠) دى لا جرانخا سانتا ماريًا فرناندو " المطبخ العربي الأندلسي طبقًا لمخطوط لم يطبع ، مدريد ، ١٩٦٠ ، ص ٢٢ - ٢٣ .

(٣١) هيوشى ميراندا ، أمبروسيو" ترجمة إسبانية لمخطوط مجهول الهوية من القرن الثالث عشر عن المطبخ الإسبانى المغربى " مدريد ١٩٦٦ .

(٣٢) فلوريس اسيكو بوسا ، ايسابيل ومونيوث مارتين ماريًا ديل مار " الحياة أو العيش فى الأندس " ألميريا ، ١٩٩٣ .

(٣٣) بارثيلو . م . " الملك الأخضر والأبيض ، أوانى الخلافة بمدينة الزَّهراء " الخزف فى أواخر العصر الوسيط فى جنوب الأندلس ، غرناطة ، ١٩٩٣ ، ص ٢٩١ - ٢٩٩ .

الفصل الحادى العاشر

دراسة منهجية وتصنيفية
لخزف مدينة إلبيرا

إعداد : كارلوس كانو بييدرا

نشر ليوبولدو توريِّس بالباس مقالاً عام ١٩٣٩ بمجلة الأندلس عن الخزف الإسبانى الإسلامى[1] الذى كان و لا يزال بمثابة دعوة لإعداد دراسات كاملة ومتكاملة جادة و منظمة و منهجية عن الموضوع ، و فى إحدى فقرات هذا المقال اهتم الكاتب بالخزف فى عهد الخلافة و ندرة المعلومات التى فى حوزتنا عن هذا الموضوع [2] ، وبالتأكيد فإنَّه قد ظهرت خلال تلك السنوات إشارات أكثر أو أقل اتساعًا و كثافة بشأن الخزف فى مدينة الزَّهراء [3] و مدينة إلبيرا [4] و بوباسترو [5] ومدينة ثيلى (مدينة سالم) [6] ، ولكن على الرغم من ذلك لا توجد دراسات متكاملة ومنهجية لهذه المادة الخزفية . و قد انتقد ليوبولدو توريس بالباس قيام العديد من جهابذة العلم الإسبان بإعداد دراسات وتطويرات كاملة عن الخزف الإسبانى [7] كانت تتخللها بعض الثغرات خلال أوقات مهمة نتيجة لعدم وجود وثائق و معلومات فى هذا الشأن ، ثغرات كانت تتوافق مع اثنين من أكبر فصول إنتاج الخزف الإسبانى : عصر الخلافة القرطبية والعصر النصرى .

وقبيل عقد الأربعينيات أجريت محاولات بالفعل لتصنيف الخزف فى العصور الوسطى بإسبانيا ، وقد تزعَّم هذه المحاولة مانويل جوميث مورينو مارتينيث فى

سلسلة محاضرات بجامعة برشلونة عام ١٩٢٤ ، والتى نُشرت فيما بعد من قِبَل الجامعة ذاتها[٨] .

واعتباراً من الأربعينيات توالت الاشارات و المقالات عن حقول جديدة كانت تمُدنا بالمادة الخزفية الوفيرة [٩] ، كما ظهرت دراسات أكثر تكاملاً عن بعض القطع التى سبق اكتشافها من قبل ، وفى هذا الصدد سنذكر ما قام به جوميث مورينو نفسه [١٠] ، وكامبوس جاثورلا [١١] ومانويل جونثاليث مارتى [١٢] ولويس م. يلوبيا [١٣] وباسيليو بابون مالدونادو [١٤] و إيميليو فرنانديث سوتيلو[١٥] وجييرمو روسيو بوردوى [١٦] وخوان ثوثايا [١٧] وأندريه باثانا[١٨] و خوسيه أجوادو بيالبا [١٩] ورفائيل بويرتاس تريكاس [٢٠] وخوليو ناباروٌ بلاثون [٢١] وآخرون الذين اهتموا بتجميع و تصنيف القطع الخزفية المتعددة الأصول ، و لكن على أية حال فإن ما أعده جوميث مورينو وضمه إلى مؤلفه عن مدينة إلبيرا لم يتم مراجعته إلا بشكل وجيز ومقتضب و أحيانًا عشوائى [٢٢] ، وحتى الآن ما زلنا نفتقر إلى دراسة كاملة متكاملة مزودة بالصور والرسوم التخطيطية .

وهذه هى المهمة التى تعهدنا القيام بها و ثمرتها تكمن فى المقال الذى بين أيدينا ، ونأمل فى هذا المقال - بصفة أساسية - تقديم هذه القطع الخزفية مصنفة وفق نظم تقنية و شكلية وزخرفية .

والمجموعة التى نحن بصددها تتألف مما يقرب من مائتى قطعة خزفية (مابين قطع كاملة ، أو مُرَمَّمَة أو أجزاء) ، والتى تم تجميع مُعظمها فى الربع الأخير من القرن الماضى من مركز الطرف [٢٣] - من بين أطلال و بقايا مدينة إلبيرا - والتى توجد مودعة حاليًا بمتحف الآثار بغرناطة [٢٤] ، وقد دُرِس معظم هذه القطع ونُشِرت وجُرِدَت بواسطة مانويل جوميث مورينو مارتينيث عام ١٨٨٨[٢٥] وإنْ كانت قد وصلت بعض القطع التى تنتمى إلى مجموعات أخرى أصلية تنتمى إلى المكان نفسه .

وعبر هذه الصفحة نود أن نُعرِب عن خالص شكرنا وعظيم تقديرنا للسيدة / أنخيلا ميندوثا المديرة السابقة للمتحف الإقليمى للآثار فى غرناطة للاهتمام والعناية

اللذين أولتنا إيَّاهما فى كل لحظة إبَّان إعداد الدراسة مما جعل عملنا البحثى ممكنًا وسهلاً و ميسورًا .

نعرف أن مدينة إلبيرا كانت عاصمة للمنطقة التى تحمل اسمها إبَّان الإمارة والخلافة القرطبية وفقًا لما تؤكده لنا الوثائق والمصادر الإسلامية (٢٦) وإن كان بعض المؤرخين والرَّحالة يقولون إنَّ وسط الحى ينتسب إلى كاستيليا (٢٧) ، والأصل الاشتقاقى لكلمة إلبيرا مشتق من كلمة أو لفظ البيريس الذى يعنى أهم المراكز الحضارية بالمنطقة فى العصور القديمة وأوائل العصور الوسطى .

ولقد كُتِبَ الكثير عن مكان البيريس و إلبيرا و العلاقات الفعلية بين كليهما من ناحية التسمية مع التركيز على الأهمية الأثرية لقطاعات معينة بالبائسين (البيريس ، إلبيرا فى رأى بعض الجهابذة من العلماء) أو الأطلال الكائنة بين بلدتى الطرف و بينو بوينتى (من هذا المكان يأتى خزفنا ، المكان الحقيقى للبيريس إلبيرا طبقًا لآراء آخرين) وعلى أية حال لقد اتضحت القضية فيما بعد اعتبارًا من القرن الماضى ، وذلك بحل وسط اقترحه ف . سيمونيتا تلك النظرية التى ارتضاها علاَّمتنا السيد / مانويل جوميث مورينو مارتينيث(٢٨) ، والتى ما زالت صالحة حتى يومنا هذا وتكمن فى التحقق من اسم المدينة الرومانية القديمة البيريس ، وذلك من خلال البقايا الأثرية فى البائسين (٢٩) وعاصمة المنطقة الإسلامية و بقايا منطقة لافيجا وبالقرب من قرية الطرف ، ووفقًا لهذه النظرية فإن وصول المسلمين إلى إسبانيا أدى إلى تغيير العاصمة ومدينة البيريس لم تصبح الحاضرة الأهم بالمنطقة بل أصبحت العاصمة كاستيليا والتى بمرور الوقت أصبح اسمها إلبيرا طبقًا لاسم المحافظة ، وقد انحسرت البيريس فى مدينة صغيرة كان يسكنها المسيحيون واليهود الذين بدأوا فى إطلاق اسم جارناتا عليها ، هذا الاسم الذى سيتأكد من جديد كعاصمة بعد تفتت الخلافة وتمزقها .

وانطلاقًا من هذه الاعتبارات فإنَّ البقايا أو الآثار الخزفية التى جمَّعها مانويل جوميث مورينو مارتينيث وأعضاء اللجنة الإقليمية للآثار من منطقة لافيجا وأودعوها مُتحف الآثار بغرناطة تنتسب هذه القطع الخزفية بالفعل إلى أهم مركز ثقافى فى المنطقة فى أثناء الخلافة القرطبية .

إنَّ غياب الحفريات الأثرية فى المكان و قلة ما كتبه المؤرخون و الرَّحَّالة المسلمون عن مدينة إلبيرا [٣٠] تجعل من هذه الآثار الخزفية - إلى جانب غيرها من المواد غير الخزفية التى جُمِعَت فى الوقت نفسه فى عمليات الكشوف إبَّان القرن الماضى [٣١] أهم ما حفظ ، وهى بلا شك تشهد بجلاءٍ على مدى القيمة الثَّقافية للعاصمة الإقليمية خلال عصر الازدهار لأراضينا الجنوبية .

أ - نظرية الأنماط أو علم الأنماط بالنِّسبة للأشكال

لقد وضعنا خطة تتكون من فصلين كبيرين : أشكال مفتوحة (مسطوحة وشبه مسطوحة) و أشكال مغلقة ، والفارق بين النمطين يكمن فى غيبة أو وجود حائط رأسى أو عنق مغلق إلى حدٍ ما تحدد بشكل قاطع مكان تطوير النقوش الزخرفية وكذلك طريقة التركيب فى النماذج المزخرفة ، وانطلاقًا من هذه الازدواجية فإن تنوع الرسوم التخطيطية و الإضافات واستخدامات الأوانى و الأدوات ستؤدى إلى إكمال خطتنا الشكلية ، ومع ذلك يجب أنْ ننبه على صعوبة تحقيق و إجراء هذا التصنيف أو التبويب فى القطع الزخرفية ، هذه الصعوبة ترجع فى المقام الأوَّل إلى الحرية التى تمتع بها صانع الفخَّار دائمًا عند ممارسته لعمله والمواد التى كان يستخدمها وفى المقام الثانى للإيهام الإصلاحى (أو الإصلاحات المبهمة) الموجودة عند تسمية الأنماط والأشكال .

١- الأشكال المفتوحة

١ - أ - الأطباق أو الصَّوانى

ولهذه المجموعة عدد كبير من أجزاء الأطباق أو الصوانى المعروفة باسم (التيفور) و هذه الكلمة تُبرز أهمية هذه الأوعية و الأوانى فى الخزف المنزلى فى عصر الخلافة ، وبعضُها ذو مقاسات و أحجام كبيرة مما يُسَهِّل إعادة تركيب شكلها و كل زخرفتها ، وتنقسم هذه الأطباق أو الصوانى بسبب جوانبها إلى ثلاثة أنماط أو أنواع :

● تلك الأطباق أو الصَّوانى التى تتميز بقاعدتها الحَلْقيَّة أو الحِلْقية (قطع مُسجلة برقم ٧٧١ / ٧٨٠ / ١١٤٢ / ١٢٤٠ / ١٢٦٩ / ١٢٨١ / ١٢٨٣ / ٢١٤٧ / ٢٢٩٨ / ٢٣٠٣/ ٢٣٠٥ / ٢٣٠٦ / ٢٣١٠ / ٢٣١٧ / ٢٣٢٣) وجوانب ذات بروز جانبى على شكل حرف (S) بِشفَّة تتجه نحو الخارج بخفة وأحيانًا مُختنقة الأرقام (٧٨١ / ٢٥٠/ ١٢٥٢/ ١٣٠٠) و المقاسات يختلف قطرها من ٢٠ مليمترًا إلى ٢٤٠ مليمترًا . و هى قطع جيدة الصنع متقنة الزَّخرفة ، و فى معظمها (باستثناء القطعة رقم ٢٣١٢) تستخدم الألوان البنفسجى و الأخضر فق لون أبيض للتعبير عن موضوع متنوع يكمن فى منتصف الطبق أو الصينية وتتجمع هذه الخطوط الزخرفية متبعة تخطيطات تكوينية إشعاعية أو نصف قطرية (موضوعات فى الأصل أمَّا زَهْريَّة أو شبه كتابية أو نقشيه) ، أمَّا خارج الإناء أو الوعاء فقد تزخرفت باللون العسلى / الأخضر ، وهو المألوف فى هذا النوع من الأطباق أو الصوانى ، أمَّا الظَّهر فمزخرف باللون الأبيض و حالة استثنائية فريدة تكمن فى القطعة رقم ٢١٤٧ بزخرفة مرسومة على كلا الوجهين وموضوعات تُحاكى الإنسان .

ويكثر هذا النمط فى الحقول الخليفية – ومعظمها يقترن بزخرفة هائلة ثنائية اللون على أرضية بيضاء – وتتميز بمسقطها الخلفى المهم .

وقد عثر روسيو على عدد كبير من هذه الأوانى فى مايوركا[٣٢] ، كما تم إثبات وجود مثل هذه الأطياف أو الأشباح فى بلدة ميساس دى أستا [٣٣] نيبلا [٣٤] تالابيرا [٣٥] قرطبة [٣٦] مدينة الزَّهراء [٣٧] ألميريا [٣٨] طليطلة [٣٩] مالقة [٤٠]

مورثيا [٤١] فالينثيا [٤٢] ثوثايا قد أثيرت فى بعض الأحيان [٤٣] الأصل الصينى لشبح هذه الأوانى أو الصوانى .

- الأوانى ذات القواعد المسطوحة و الحوائط المنحنية و الخفية البروز الأرقام (٧٧٤ / ٨٥٥ / ٩٦١ / ١٢٤١ / ١٢٤٣ / ١٢٤٤ / ١٢٤٥ / ١٢٤٦ / ١٢٥٤ / ١٢٥٥ / ١٢٥٨ / ١٢٥٩ / ١٢٦٧ / ١٢٧١ / ١٢٧٧ / ١٣١٣ / ١٣٢٨ / ٢٣١٨ / ٢٣٢١).

- وتختلف الأحجام والمقاسات بشكل ملحوظ (من ٢٠٠ مليمتر إلى ٣٥٠ مليمترًا نعنى قطرالفَمّ ") ، ويجب التمييز الهام بين النماذج التى زُخْرِفَت وجوهها الداخلية على أرضية بيضاء (أحيانًا بموضوعات إيحائية مثل الجواد أو صائد الصقور) وبين تلك الأخرى التى على الرغم من أنَّها من الخزف المزجج المطلى التى تخلو من الأرضية البيضاء أو حتى من أى تخطيط زخرفى .

- وهذا النوع أو النمط يكثُر أيضًا فى بقايا أو أطلال مدينة الزَّهراء [٤٤] والميرينا [٤٥] وطليطلة [٤٦] مورثيا [٤٧] ومالقة [٤٨] ....

- ونُدْرِجَ فى النهاية خلال الفصل الحالى القطعة (رقم ٢٢٩٩) التى تنتمى إلى شكل مألوف قليلاً ذى جسد مُنخفض وقاعدة مسطوحة وجناح أفقى متطور جداً . والمساحة الداخلية تُزخرف فوق أرضية بيضاء ، ويمكننا التَّمييز بين بقايا شبكة كتابية أو نقشية فوق مسطح الجناح ، وتوجد قطع مشابهة فى طليطلة [٤٩] ومورثيا [٥٠] .

١ - ب - حوامل ذات ثلاثة قوائم

لقد حُفظَ نموذجان (رقم ٦٥١ - ٧٦٥) و هى خالية من الخزف المزجج ، أولاً القطعة (رقم ٦٥١) لها قوائم متطورة جداً ، بينما الآخر يقترن بشبحه أو طيفة بيدين رأسيتين واسعتين ، وتتفق القطعتان فى تقديم أبليكات بالطرف فى اتجاه رأسى وحلَمَات ذات قطع ثلاثى ، وهذه القطع للاستخدام العام ، وهى معروفة بأنها أفران صغيرة أو مدافئ صغيرة ، وقد عُثِرَ على قطع مشابهة فى مايوركا [٥١] .

١ - ج - الجفنَات أو القصعات

وهو نوع خاص من القَصْعة أو الجَفْنَة ذات المقاسات أو الأبعاد الكبيرة ، وقد وصلت هذه القطع كاملة غير منقوصة إلى متحف الآثار بغرناطة (شكل ٧٥٣) ، وهى عبارة عن قطعة ثريدية ذات جدران سميكة و تشطيب بدائى ، و كانت تستخدم لغسل الملابس والأوانى (الشكل و الاستخدامات استمرت حتى أيامنا هذه) وقد أطلقنا عليها اسم القصعة أو الجفنة استناداً إلى المصطلح الذى أطلقه عليها روسيو [٥٢] الذى يؤكد وجود مثل هذا النوع بين المنتجات الفخارية الإسلامية بمايوركا ، ويصنفها نابارُو [٥٣] بين الآثار أو البقايا الخزفية بمورثيا و باثانا [٥٤] وفالينثيا .

١ - د - الأغطية

ولنتناول فى هذا الجزء نماذج متنوعة - أو قطع منها - تتفق فى كونها أوعية أو أوانى مسطوحة أو شبه مسطوحة و لها استخدام مشترك (رقم ١٢٥٦ / ١٣١٨ / ٢١٤٤ / ٢١٤٥) ورسم أطيافها أو أشباحها و جودتها الزخرفية تختلف بشكل ملحوظ .

وإحدى هذه القطع ما زالت موجودة برمتها و هى كالثريد (رقم ١٣٨١) ، وهى على شكل خزانة البارود فى البنادق القديمة و لها مقبض أو علاَّقة صغيرة فى وسطها وتقوم بمهمتها موضوعة فوق جرَّة أو قدْر أو مرْجَل ، وقد عثر عليها أيضًا فى مايوركا [٥٥] و مدينة الزَّهراء [٥٦] ومورثيا [٥٧] وفالينَثيا [٥٨] .

أما القطع رقم ١٢٥٦ / ٢١٤٤ / ٢١٤٥ فلها أغطية ذوات مقاسات كبيرة مسطوحة بحوائط قصيرة ومستقيمة ، ولها خنَّوْص واسع بالوسط ، وهى مزخرفة بروعة فائقة على أرضية بيضاء ، و قد يقال إنه نظرًا لحجم قطرها فإنَّها صُنُعَت خصِّيصًا لتغطية الأوانى أو الأوعية الكبيرة ، أما النموذجين رقم ٢١٤٤ / ٢١٤٥ فهما الأفضل احتفاظًا ، وقد نُشِربواسطة مانويل جوميث مورينو مارتينيث [٥٩] كغطاء وجسد

إناء على التوالى (حيث إنَّه - بالصدفة - يمكن تركيبهما أو وضع إحداهما على الأخرى) ٠ وتفتقر إحدى هاتين القطعتين إلى الجزء الذى يحمل المقبض أو العلاَّقة فى الوسط ٠

هذا ولم نستطع إثبات وجود مثل هذا النوع من الأغطية فى أى حقل إسبانى إسلامى آخر ٠

٢- الأشكال المغلقة

٢- أ - الجرار أو الأباريق

ومن بين قطعنا الزخرفية التى تنتسب لعصر الخلافة وجدنا نوعين من الجِرار والأباريق يختلفان فيما بينهما بوضوح تام ، فمن ناحية نجد الأباريق ذات المقاسات أو الأحجام المتوسطة (١٠٠ مليمتر و ١٥٠ مليمتر من حيث الارتفاع) لها رقبة كبيرة وفم كبير واسع ، ويقوم مقبضها الرأسى الذى يربط فمها بوسط الجسد(الأرقام ٦٤ / ٦٤٥ / ٦٤٩ / ٧٥٧ / ٩٢٥ / ١٠٢٣ / ١٠٢٤ / ١٠٢٥ / ١١١٠ / ١١١١ / ١١١٢ / ١١٣٦) و من ناحية أخرى تلك القطع التى ذات المقاسات أو الأحجام الكبيرة ٢٠٠مليمتر - ٢٥٠ مليمتر من حيث الارتفاع ، والتى لها رقبة ضيقة وفم صغير ، ويربط مقبضها وسط الجسد بمنتصف الرقبة (٦٤٤ / ٦٤٧ / ٦٤٨ / ١٠١٩ / ١١٣٤ / ١١٣٥ / ٢٠٦٥) وفى كلا النمطين أو النوعين نجد أن الفم ثلاثى الفصوص بثقب صغير ٠

ونظراً للكم الهائل من هذه النماذج فإن الاعتقاد السائد يقول بإنَّ مثل هذه الأوانى كانت شائعة الاستعمال أو الاستخدام فى المنازل الإسلامية، وأنَّ كلَّ شكل من هذه الأشكال له استخدام معين أو أنَّه مُخصص لحفظ سائل مُحدد (ماء / خمر / زيت) على سبيل المثال) ٠

أمَّا الزُّخرفة فهى فى مُعظم هذه النماذج غير موجودة ، وأحيانًا توجد بصمات صانع الفخار فى الجزء الأسفل للبطن أو خطوط قليلة بيضاء متوازية فى أعلى

البطن ، وهذا هو كل الزُّخرفة الموجودة فى هذه الأوانى إن وُجِدَت ، ومع ذلك فقد وجدنا بعض النماذج المزججة (النموذج رقم ١١٣٤) . و عندما يتعلق الأمر بقطع تنتمى إلى النمط الثانى (عنق ضيق و فم صغير) فإنَّ المقبض يستمر من خلال حلْية حَلَقِية تُقَسِم الرقبة من منتصفها .

ويمكننا إيجاد علاقة بين هذه الأطياف أو الأشكال من الأباريق أو الجرار مع نماذج قوطية غربية (القوط الغربيون هم أحد الشعوب التى احتلت إسبانيا قبيل الفتح الإسلامى) كما ظهرت فى حقول خليفية وستظل موجودة إلى فترة طويلة . ويوثق روسيو النمطين من الخزف بخزف مايوركا [٦٠] وبيلانكيث بوسكو [٦١] وصامويل دى لوس سانتوس [٦٢] وكاثورلا [٦٣] جوميث مورينو [٦٤] وخوان ثويايا [٦٥] يؤكدون وجود مثل هذا النوع فى بقايا مدينة الزُّهراء ، دورو تيادورا [٦٦] ونابارُّو بلاثون [٦٧] يؤكد أنَّ على بقاء جرَّتنا أو أبريقنا بين قطع القرون اللاحقة لألميرا ومورثيا على التوالى .

٢ - ب - أوانٍ أو أباريق ببزبوز

وقد وجدنا فى ثلاث محاولات أوانى أو أباريق مغلقة و كبيرة البطن التى لها البزبوز المخروطى لسكب السوائل من الداخل (رقم ٧٥٤ / ٧٦٧ / ١١٨٤) والأوانى الثلاث تختلف فى شكلها ، كما أن وضع إضافاتها مختلف ايضًا ، فالقطعة رقم ٧٥٤ لها فم أو فوهة واسعة والبزبوز يميل إلى كونه أفقيًا أمَّا رقم ٧٦٧ فإن رقبتها أو عنقها ضيق ولها فتحة لسكب السوائل فى وضع رأسى تقريبًا أمَّا رقم ١١٤٨ فهو فى النهاية أقل حجمًا و ذو صناعة بدائية فظة فهو أشبه بالرضَّاعة ؛ ففى النَّموذجين الأوَّل والثانى نجد زخرفة رائعة باللونين الأخضر والبنفسجى على أرضية بيضاء وتشغل الزُّخرفة النِّصف العلوى من القطعة أمَّا فى النموذج الثالث فإن القطعة تظهر بلون التريد .

وفى معهد فالينثيا دى دون خوان بمدريد يوجد نموذج مزخرف ينتمى إلى مدينة إلبيرا أو مدينة الزُّهراء [٦٨] والذى شكله يُشبه تمامًا النموذج رقم ٧٦٧ ، أوانى لها

بزبوز وجدنا أيضًا فى علم الأنماط أو نظرية الأنماط أو التصنيف التى أعدّها روسيو والمخصصة للخزف الإسلامى بمايوركا [٦٩] أو فى تصنيف ناباروُ عن الخزف المورثيانى (مورثيا) [٧٠] أو تبويب باثانا عن خزف فالينثيا [٧١] أو ترتيب ثوثايا [٧٢] لخزف السامرة .

٢ - ج - القارورات أو القنينات

وتوجد نماذج كثيرة لهذا النوع من القارورات أو القنِّينات (ذات الجسد الكبير والعنق الضيق) وهى موجودة بمتحف الآثار بغرناطة قادمة من الطرف ، وتختلف فى أحجامها وزخرفتها ، وإذا استثنينا الآنية رقم ٧٥٩ ذات الجسد الأسطوانى والعنق المنخفض وفم أو فُوَّهة واسعة ، أمَّا القطع أو النماذج الباقية فإنها تنتمى إلى نفس النمط ذو البطن التى على شكل بالُونه والعنق الضيق . والآن يمكننا الحديث عن مجموعتين كبيرتين : تلك الزجاجات التى لا مقبض أو يد لها و التى جسدها مُنبعج أو مُفَلطح ، وهى هائلة الزَّخرفة على أرضية بيضاء (رقم ٦٧٧ / ١٠٣٤ / ١٢٦٨ / ١٢٧٢ / ١٢٨٥ / ٢٢٩٤ / ٢٢٩٥ / ٢٢٩٧ / ٢٣٠٩) و تلك الزجاجات الشائعة أو العادية ذات اليد أو المقبض الرأسى و الجسد الإسطوانى الكروى أو الدائرى و هى خالية من الزخارف أو بها زخارف جزئية (رقم ١١٨١ / ١١٨٢ / ٢٠٦٠ / ٢٠٦٤ / ٢٠٧٤ / ٢٠٧٨ / ٢٠٧٩ / ٢٠٨٠ / ٢٢١٢ / ٤١٦٦ / ٤٢٠٧ / ٤٢٠٨) . وإلى الفصل الأول ينتمى النموذج الرائع رقم ٦٧٧ الذى يحمل زخرفة لأرانب برية على بطنها ، أمَّا الفصل الثانى فيه كمية لا بأس بها من القارورت أو القنينات الكاملة التى وصلت إلى متحف الآثار بغرناطة وأصبحت تمثل جانبًا من محتوياته الثمينة .

وعلى الرَّغم من أنَّ النمطين من الأوانى يتفقان فى العناصر الرئيسية، فإنَّه من الواضح أنَّها صُنِعَت خصيصًا لاستخدامات و احتياجات مختلفة ، ولا نشك فى أنَّ نماذج المجموعة الأولى ذات الزَّخرفة الهائلة يمكننا أنْ نطلق عليها أوانى المائدة ،

أمَّا قطع أو نماذج المجموعة الثانية من الزجاجات والقارورات ذات المقابض فإنَّها من أدوات المطبخ و ربما تكون مزايت (جمع مَزْيَتَهْ) .

ومن الشائع العثور على مثل هذه القطع فى الحقول الإسبانية الإسلامية سواء كانت تنتسب إلى عصر الخلافة أم لا . ففى ميسا دى أستا على سبيل المثال وجو أستيفى جيريرو [٧٣] زجاجة مزخرفة ذات جسد مُنبعج تشبه المجموعة الأولى التى تحدَّثنا عنها . وفى أشبيليه أيضًا [٧٤] وفى بالما دى مايوركا [٧٥] عُثِرَ على قطع من هذا النوع وجوميث مورينو[٧٦] يعيد إنتاج نموذج هائل من مدينة الزَّهراء و باسيليو بابون [٧٧] يجمع نماذج أصلية من نيبلة .و مما تُبرزه دودا [٧٨] فإن الأشكال المستديرة الشائعة فى القنينات المزججة (المطلية بالزجاج) القادمة من ألميريا بعد الخلافة قنينات قد جُمِعَت أيضًا من أراضى سبته [٧٩] وطليطلة [٨٠] ومورثيا [٨١] أو فالينثيا [٨٢] .

٢ - د - الفناجين

بعض القطع التى تحمل الأرقام (١١٨٦ / ١١٨٧ / ١٢٨٢ / ١٣٠٥ / ١٣٠٨ / ٢٠٧٧ / ٢٣٠٧) هى ذات شكل أسطوانى وهى مزودة بمقبض أو يد رأسية (أحيانًا بإضافة مسطوحة فى الجزء العلوى من المقبض أو اليد على شكل ذراع للكتف يُسَهِّل من مسكها) وقد صُنِعَت هذه الأوانى من طين أصفر ، وقد طُلِيَت بطبقة من الزجاج العسلى اللون (بدرجات خضراء) نعنى هنا اللون وجدير بالذِّكر أنَّ اللون تلاشى من المقبض بسهولة .

هذا وقد وجدنا أشكال فناجين متشابهة بين بقايا مدينة الزَّهراء [٨٣] وألميريا [٨٤] وفالينثيا [٨٥] و مورثيا [٨٦] فى عصر ما بعد الخلافة . و يعتقد ثوثايا بأنَّ الفناجين ذات الإضافة بمقبضها أو بيدها تنتمى إلى المرحلة الأولى من الخلافة أمَّا السابقة عليها فيجب البحث عنها فى النماذج الإيرانية التى صُنِعَت من الزجاج [٨٧] .

٢ - هـ - القِدُورِ أو المراجل

لقد جَمَّعْنا فى تصنيفنا ثلاثة نماذج من الحُلل : اثنتان منهما برقمى ٧٧٣ / ٨٣٦٥ وتتشابهان كثيراً فى شكلهما الجانبى و كذلك فى وضع مقبضيهما . الآنية أو الْقِدر رقم ٧٧٣ تبدو مزججة أى مطلية بالزجاج ، وهى مزخرفة بالشُّحُبِ القاتمة أمَّا الآنية رقم ٨٣٦٥ فإنَّها تشبه الثريد أو البقسماط فقط وهو أمرٌ مألوف فى مثل هذا النوع من الأوانى ، و لكن بالإضافة إلى هذين النموذجين يمكن أنْ نضيف واحدة من أجمل وأعقد القطع فى صناعتها التى وصلتنا من الطرف إنها الآنية رقم ٢٠٦٣ المزججة والمزخرفة ، وهى ذات جسد إسطوانى وبها أربعة مقابض على مسافات متساوية ، وهى مُتَوَّجةٌ بحلايا أو أحليَّات زخرفية كبيرة وعُرْفٍ فوق الشُّقَّة ، وتتشكل الحلات من إضافات مثلثية ، إنَّها قطعة نادرة لا مثيل لها هى والاثنتان السابقتان وتكتمل القطع الثلاث بغطاء مسطوح على الفوهة أو الفم وتتميز الآنية رقم ٢٠٦٣ بوجود مكان معين لهذا الغطاء .

وقد خصص جييرمو روسيو [٨٨] من عمله بابًا خاصًا للقدور أو المراجل الإسلامية التى ظهرت فى مايوركا ، وقد أعد المؤلف تصنيفًا موسعًا لأشكالها الجانبية ، وتتفق اثنتان مما تحدَّثنا عنهما مع أحد أنماطه (ب - أ) كما جَمَّع يوبيا أيضًا بين صفحاته العديد من القدور أو المراجل تنتسب إلى تطور الخزف الإسبانى الإسلامى[٨٩] ، وقد أمعنا النظر على وجه الخصوص فى قطعة قادمة من قرطبة والتى وإنْ كانت مزخرفة على أرضية بيضاء إلاَ أنَّها تشبه كثيراً فى شكلها نموذجنا رقم ٧٧٣ ، وفى النهاية فإنَّ دوروتيا دود [٩٠] و خوليو نابارُّو [٩١] يبرزان لنا بقاء هذه الأشكال بين الخزف بأليريا ومورثيا بعد القرن الثانى عشر الميلادى ، وعلى أية حال فإنَّ نموذجنا رقم ٢٠٦٣ لا يزال يبرهن على أصالته المطلقة .

٢ - و - الجِرارَ أو الجرَّاتُ

لقد وجدنا نموذجًا كبير الجسد مُزَوَّدًا بمقبض رأسى و بقية مقبض آخر فى الطرف المقابل (رقم ٢٠٦٩) ، والمساحة الخارجية تبدو مغطاة بطبقة من الزجاج غير متساوية وبها زخرفة مُسننة وحزامين بلاستيكيين مُلتصقين بالنصف العلوى للجسد ، وعلى الرغم من أنَّ هذه القطعة مزججة ومزخرفة فإنَّها قطعة بدائية فظَّة صُنِعَت بسرعة لتأدية مهمة محددة و هى التخزين .

ولم نستطع ملاحظة أىًّ نموذج آخر بشكل واضح يمكن أنْ ينطبق على تلك الأشكال المزودة بدَوْرَق بمساحة خارجية مزخرفة على أرضية بيضاء المألوفة الاستخدام بين بقايا مدينة الزَّهراء ، ومن المحتمل أن يكون أحد نماذجنا المصنفة كقارورات أو قنينات (رقم ٢٢٩٤ / ٢٣٠٩ على وجه الخصوص) ينتسب إلى هذا النمط من الأوعية أو الأوانى و لكن على أية حال سأواجه هذا الفارق العددى اللعين بين نماذج حقل ونظائره من الحقل الآخر .

٢ - ل - قطع كبيرة للتخزين

إنَّ القطع المُسجَّلة بأرقام (٤٦٥ / ٨٥٤ / ٢٠٧٠) نظرًا لجسدها وعنقها تنتسب إلى القطع الكبيرة المخصصة للتخزين سواء للسوائل أو للحبوب ، وهناك عناصر مشتركة أُخرى بالإضافة إلى حجمها و ذلك مثل وجود مقابض أو أيدى وكذلك الطين أو الفخَّار الذى يشبه الثريد أو البقسماط و نعومة الملمس وبدون زخرفة تقريبًا .

والنموذج رقم ٤٦٥ عبارة عن قطعة كبيرة البطن بيضاوية الشَّكل بفوهة أو بفم مفتوح جدًا و مقابض أو أيدى على شكل إضافات مثلثية كثيفة مثبتة فى وضع رأسى وشكله الذى أُعيد بناؤه يجعلنا نتذكر على الفور أوانى التخزين الكبيرة الطليطلية أو الأشبيلية التى وُثِقَت أو سُجِلَت اعتبارًا من القرن الحادى عشر[٩٢] ، وعلى العكس

من ذلك لم نجد شيئًا مماثلاً فى المؤلفات عن حقول عصر الخلافة أو بمستودعات عصر الخلافة ٠

و العنق رقم ٨٥٤ له مقبض واحد رأسى و ثقب صغير فى القطاع المقابل (كان مخصصًا كأبريق أو لنقل أو لتخزين الماء) و شكله يمكن أن يرتبط بتلك الجرات الكبيرة ذات الفوهات أو الأفواه الثلاثية الفصوص سواء المزخرفة منها أو لا فى عصر الخلافة (٩٣) ٠

أمَّا العُنقُ رقم ٢٠٧٠ فعلى العكس من ذلك له فمُ و مقبضان رأسيان ، ومن الشائع العثور على قطع مشابهة فى مايوركا (٩٤) وقرطبة (٩٥) وفالينثيا (٩٦) أو فى قلعة بنى حمود و كذلك فى شمال أفريقيا (٩٧) ٠

٢ - م - الأكواب و الكئوس

وكما أسمينا العديد من النماذج أو القطع ذات الأحجام الصغيرة - فى غيبة التسميات أو المسميات الدقيقة - (٤ ، ٥ سم من حيث الارتفاع) بأشكال متنوعة من الأسطوانى المستدير أو الذى يشبه البالُونة حتى الكروى أو الثنائى المخروط بفوهات واسعة و مساحات مزجَّجَة ، ويمكن أنْ تكون قد استُخْدِمَت لاحتواء مواد صلبة كانت تستعمل بكميات ضئيلة مثل الملح و التوابل و البهارات على سبيل المثال ، وأرقام هذه القطع هى٦٥٥ / ٨٤٦ / ٨٤٨ / ٨٤٩ / ٩٣٥ / ٢١٤٢ وفقًا لتصنيفنا و قد أدرجنا فى هذا الفصل إناء صغير له مقبض يجب أنْ تكون له علاقة فى الاستخدام مع القطع التى نتحدث عنها الآن أكثر من تلك التى درسناها آنفًا ٠

والمساحات الخارجية دائمًا مزججة (التلوين النمطى المألوف الْعَسَلى على طين أو فخار أصفر) ، وبعض النماذج تتم زخرفته على أرضية بيضاء بدون بقايا أو آثار زخرفية من لونين (رقم ٦٦٥) على سبيل المثال ٠

وعلى الرغم من أننا نعتبرها طريقة مألوفة و شائعة فى الخزف بأيَّة بلدة إسبانية إسلامية فإنَّ غيبة الزُّخرفة أو المميزات الخاصة يجعل إدراجها ضئيل فى

المراجع والمصادر التى اطلّعنا عليها ، و قد أدرجها روسيو [٩٨] فى سلسلته وقد أعاد إنتاج نموذج يجمع العديد من أوجه الشبه مع القطع التى ندرسها هنا . يوبيا [٩٩] وكامبوس [١٠٠] يقدمان لنا الأدلة القادمة من مدينة الزّهراء و باثانا يجمع نموذجًا من فالينثيا [١٠١] ودوررثيا دورا [١٠٢] تُبرز لنا شيوع هذا النمط من الأوانى – التى تشبه فى شكلها أوانى مدينة إلبيرا – فى الخزف الذى تلى عصر الخلافة فى ألميريا .

٢ - ن - القناديل

إنَّ أكبر عدد من النماذج التى هى محل الدراسة هى عبارة عن قناديل هى (أرقام ٦٢٣ / ٦٢٤ / ٦٣٥ / ٧٦٠ / ٧٧٦ / ٩٠١ / ٩٣٦/ ٩٣٧ / ١٠٢٧ / ١٠٥٨ / ١١٣٧ / ١١٣٨ / ١١٣٩ / ١١٤٠/ ١١٨٥ / ١٣٤٣ / ١٣٤٤ / ١٣٤٥ / ١٣٤٦ / ١٣٦٤) ، وإذا استثنينا الخمسة نماذج الأخيرة (قناديل ذات قائم مرتفع) فإنَّ غالبية هذه النماذج تتبع النمط التقليدى ذات التطور الأفقى : على شكل حلة مسطوحة و عنق ضيق و ثقب أفقى طويل على عظمة و مقبض كبير و رأس فى الجهة المقابلة للثقب ، وداخل هذه النماذج يمكننا تقديم الفوارق التى تحدد الشكل الجسد (البطن) الثنائى المخروط أو القوسى أو خط أعناقها (رأسية أو جَرَسيِّة الشكل) وهناك استثناءان آخران يتمثلان فى النموذجين رقمى ١١٣٧ / ١١٣٨ المزودين بأربعة ثقوب (ومقبض أفقى على الفم أو الفوهة) وثلاثة ثقوب على التوالى ، وعمومًا فإنَّ القناديل مصنوعة من الطين الفظ الغليظ وسطوحه خالية من الزجاج والزَّخرفة (على الرغم من كونه شائعًا نسبيًا فإنَّ وجود رسومات مزججة و ملائمة كنظام زخرفى – رقم ٩٠١ / ١٠٢٧ على سبيل المثال) ، أو فى بعض الأحوال بتغطيتها تمامًا بطبقة زجاجية كما فى رقم (١١٨٥) .

وتؤلف القناديل الخمسة ذات القوائم المرتفعة فصلاً على حدة ، وتوضح لنا البقايا الموجودة تنفيذًا أو صناعة دقيقة ، كما أنَّ الأجزاء المميزة لأشكالها (الطبق أو الإناء والقضيب الأسطوانى أو المحاط بدرابزين و خزانته ذات ثقوب) قد ظهرت مغطاة بالزجاج (القطعة رقم ١٣٦٤) أو فوق أرضية بيضاء تقريبًا نظيفة خالية من الزَّخرفة .

إنَّ أوجه الشبه التى وجدناها بين قناديلنا بمدينة إلبيرا والقادمة من أماكن أُخرى عديدة وكثيرة . ومن المعروف أن هذه القطع (الأفقية بدون قوائم) يرجع أصلها إلى القدم الكلاسيكى وبتغييرات طفيفة وصلت إلى العصر الحديث ، وفى المستويات الأثرية الإسلامية على سبيل المثال لا الحصر بجزيرة مايوركا وجد روسيو أنماطًا متنوعة من بينها القنديل ذى القائم الرأسى [١٠٣] الذى يظهر أيضاً فى مدينة إلبيرا ، وقد وُجِدَ أو عُثِرَ بين بقايا مدينة الزَّهراء [١٠٤] ونيبلا [١٠٥] ألميريا [١٠٦] مالقة [١٠٧] سبته [١٠٨] مدينة سالم [١٠٩] طليطلة [١١٠] مورثيا [١١١] إلخ ..... على قناديل بكميات كبيرة مما يجعل هذه الأوانى أو الأدوات المخصصة للإضاءة تُشكل جانبًا مهمًا من الجوانب الفنية لصناعة الفخار العام الإسبانى الإسلامى .

٢ - ى - القواديس والتنُّور

ومن بين القطع المغلقة نتناول فى المقام الأخير القواديس (رقم ٦٤٥ / ٦٥٦ / ٦٥٧ / ٩٣٤ / ٢٠٧١ / ٢٠٧٢) و التنور (رقم ٨٥٧) التى وصلت ناقصة إلى مُتْحَف الآثار بغرناطة قادمة من بلدة الطرف ، ومن بين مميزات أشكالها وجود شقين أو أخدودين عميقين فى الأرقام (٦٥٤ / ٦٥٦ / ٦٥٧ / ٢٠٧١ / ٢٠٧٢) أو البروزات المحددة فى رقمى (٨٥٧ / ٩٣٤) والتى تتأصل فى هذه الأوانى وفقًا للاستخدام المخصصة له .

قطع تشبه فى لونها الثريد أو البقسماط (باستثناء القادوس رقم ٩٣٤ المغطى بطبقة زجاجية لا لون لها) وقد تمَّ تصنيعها بسرعة و بطريقة فظة (وتوجد بصمات صانع الفخار عليها) ، كما أنَّها خالية تمامًا من الزُّخرفة .

يجب علينا أنْ نفترض أنَّ القادوس كان للساقية أو الناعورة والتنور (قطع من الطين المطبوخ) ، إنَّها قطع مألوفة فى أىِّ مصنع فخار خلال أى عصر من العصور ، كما أنَّ تطور أشكالها نادر جدًا على مدى قرون طويلة ، ولقد صادفتنا صعوبات جمَّة عندما أردنا إجراء مقارنة بين القطع التى نحن بصدد دراستها و بين قطع من مستودعات أُخرى فى نفس العصر ، وعلى سبيل المثال فإنَّ روسيو لم يُدرج فى

نظرية أنماطه القادوس ولا التنور من بين الخزف العربى فى مايوركا [١١٢] ، وقد استطعنا فقط إيجاد قطع أو أجزاء نموذج مشابه فى كتاب أو مؤلف ميليدا عن بقايا مدينة سالم [١١٣] أو النموذجين اللذين ينتسبان إلى العصر النصرى وهما من ألميريا [١١٤] و فى الكتالوجات أو التصنيفات الحديثة عن الخزف بفالينثيا [١١٥] ومورثيا [١١٦] فى العصر الإسلامى نجد أنها تضم بعض القطع من هذا النوع .

٣- أدوات الفخَّارى أو صانع الفخَّار

(الحواجز التى كان يضعها الفخارى بين القطع الطرية و الفرن)

وفى المقام الأخير سنذكر و سنعلِّق على الأشياء الصغيرة أو الأدوات الصغيرة من الطين أو الفخار التى كان يستخدمها صانع الفخار داخل الفرن لكى يسند بها قِطَعةُ الزجاجية ، ثلاثة من هذه الأدوات تحمل الأرقام (١١٤١ / ١٤٠٧ / ١٤٠٨) قد وصلت إلينا من مدينة إلبيرا ، إنَّها حوامل ذات ثلاثة قوائم صُنِعَت باليد و هى ليست مستوية الصُّنع ، و هى مزودةٌ بإضافات صغيرة مثلثية باستثناء الأجزاء المغطاة ببقع الزجاج مما يوضح لنا استخدامها فى الأفران .

ومن الشَّائع استمرار رؤية هذا النَّوع من القطع فى يومنا هذا بنفس الأشكال (الآن مصنوعة من مادة مقاومة للحرارة) فى ورشة صانع الخزف ؛ و لذلك فقد كانت قطعة شائعة فى صناعة الفخار الإسبانية قبل و أثناء و بعد الوجود الإسلامى ، وقد عَثَرَ روسيو - على سبيل المثال - على حاجز مشابه بين بقايا جزيرة مايوركا [١١٧] وكذلك فى أجوادو فى طليطلة [١١٨] و باثانا فى فالينثيا [١١٩] أو نابارُّو فى مورثيا [١٢٠] .

ب - تقنيات الزَّخرفة و التَّكسية أو التَّلبيس

لقد جمعت صناعة الخزف الإسلامية العديد من طرق التكسية أو التلبيس والزَّخرفة الجزئية - بعضها قديم جداً مثل صناعة الخزف نفسها - كما أنَّها فى نفس الوقت طوَّرت و نشرت فى أراضى الغرب طُرقًا أصلية جديدة ، هذا وقد أُعدَّت الكثير من نظريات التَّصنيف أو التَّبويب المعقدة تقريبًا عن التَّقنيات الزَّخرفية التى استخدمها صُنَّاع الفخار المسلمين [١٢١] ، وليس هنا المقام للتعليق عليها بل سنقتصرُ فقط على تأكيد هذا التنوع من خلال القطع الواردة من مدينة إلبيرا وسنعلق فيما بعد على جدول خاص بالأنماط الذى يشير أو يتناول بوضوح نوع الخزف الذى نحن بصدد دراسته .

١- قِطَعٌ بلون الثَّريد أو البقسماط

١- أ - بدون تغيير أو تعديل لون السَّطح الخارجى

١ - قطع خالية من الزَّخرفة .

٢ - قطع بها بصمات واضحة .

٣ - قطع بها تشكيل زخرفى .

٤ - قطع بها خطوط مُسننة أو أخاديد أو حزوز.

١- ب - قطع بتغيير أو تعديل جزئى لون السَّطح الخارجى

١- قطع بها خطوط متوازية باللون الأبيض.

٢- قطع بها طرطشة أو بُقَعْ أو نقاط مُزَجَّجة .

٢- قِطَعٌ مُزَجَّجة أو مطلية بالزجاج

٢- أ - طلاء زجاجى بسيط و متجانس

١- طلاء زجاجى شفَّاف (درجة اللون : العسلى) ٠

٢- طلاء زجاجى بدرجات اللون الأخضر ٠

٣- طلاء زجاجى أخضر فوق زخرفة مخططة ٠

٤- طلاء زجاجى بنى اللون فوق زخرفة مخططة ٠

٢- ب - مُزجَّج بسيط بزخرفات أو بقع بلون آخر

١- مزجَّج أو طلاء زجاجى شفاف (عسلى) ببقع أو رسومات بنية ٠

٢- طلاء زجاجى شفاف (عسلى) ببقع أو رسومات خضراء ٠

٣- طلاء زجاجى شفاف (عسلى) ببقع أو رسومات بُنيَّة وخضراء ٠

٤- طلاء زجاجى أخضر ببقع أو رسومات بنيَّة ٠

٥- طلاء زجاجى بُنيٍّ ببقع أو رسومات بيضاء ٠

٢- ج - خزف مُزجَّج مغطى بأرضية بيضاء مُسبقاً

١- أرضية بيضاء بدون زخرفة ٠

٢- أرضية بيضاء و زخرفة باللون البنفسجى ٠

٣- أرضية بيضاء و زخرفة بنفسجية و خضراء ٠

٤- أرضية بيضاء و زخرفة من لونين إلى جانب اللون العسلى ٠

الخزف ذو السَّطح الخارجي باللون الثريدي أو البقسماطي و طرق زخرفته

من الشَّائع جداً وجود قطع خالية من الزَّخرفة وطريقة إضافية للتكسية أو التلبيس ، ويتمشى هذا مع صور الاستخدام العامة أو التي تتعلق بالمطبخ أو التخزين أو الخزين وهي مصنوعة من طين غير مصفى جيداً ودرجات لونه متعددة ، وبرنامج العجين لهذه الأنماط لم يعتن به جيداً ، كما أنَّ النَّار تلامس في كثير من الأحيان الحوائط أو الجدران الخارجية للقطع مما يؤدى إلى ظهور بقع سوداء اللون عليها ويجعلها دخيلة على اللون الطبيعي للطين . وفي تصنيفنا سُجِلَت كقطع ثريدية اللون أو بقسماطية اللون وبدون زخرفة معظم القنينات والأباريق و الجرَّات وبعض القدور أو المراجل ذوات الحوامل الثلاثة والقواريس أو الرضَّاعة التي تكمل هذا الجزء الأوَّل .

وتُرى في هذه القطع أخاديد أفقية تتفق مع البصمات التي يتركها صانع الفخار على القطعة في أثناء إعداده لها بالعجلة (يستخدم الفخَّاري عجلة لإعداد وتشكيل قطَعه الفخارية أو الخزفية) ، وهذه البصمات التي عَمَّت القناديل والأباريق والجرار أو الجرَّات في المقام الأوَّل نجدها تشغل الجزء السفلي لجسد القطعة ، وتؤكد هذه البصمات مدى رداءة التقنية والمنهج السريع لتنفيذها .

وفي حالتين فقط (في الحامل رقم ٧٥٦ و القطعة ٢٢٥٥) لاحظنا وجود خطوط مُسننة على قطعة ثريدية اللون (و على العكس من ذلك نجد أنَّ الخطوط المُسننة تقترن بالعديد من القطع المزجَّجة أو المطلية بالزجاج كما ستتاح لنا الفرصة فيما بعد لتحليل مثل هذه القطع) ، ومن النادر أيضاً وجود زخرفات جمالية أو تشكيلية في هذا النوع من الخزف الوارد من بلدة الطرف (أحبال الجفنات أو القصعات كما في القطعة رقم ٧٥٢ أو لمكيال الزيت رقم ٤٦٥ اللذين يمكن اعتبارهما شيئًا استثنائيًا) .

ويتم تغيير لون السطح الخارجي لغرض زخرفي فقط وذلك بإضافة لون إلى الطين أو الفخار بحيث لا يزجِّجها أو يحولها إلى زجاج أو عن طريق الرش

أو الطرطشة بأكسيد الرصاص ، وهذا هو شأن الأباريق المزخرفة بخطوط ذات لون أبيض خطوط رفيعة ومتوازية كائنة بالجزء العلوى للبطن أو جسم الإناء أو فى القناديل المزخرفة بخطوط منقوطة باللون العسلى أو الأخضر التى تجول بأطراف وشعاعات جسد القطعة . ولن ندرج فى هذا الفصل موضوع الحواجز التى كان يستخدمها صُنَّاع الفخار أو الفخَّاريون عند إعداد قطعهم الخزفية بالفرن ، وجدير بالذِّكر أنَّ هذه الحواجز كانت قد ظهرت بها بقع سوداء اللون نتيجة اتصالها المباشر بنيران الفرن .

ويمكننا أنْ نختتم هذا الفصل أو هذا الجزء الصغير المخصص للخزف الثريدى أو البقسماطى اللون مؤكدين غيبة الحلول الزخرفية الخاصة بهذا النوع أو النمط من الخزف (الخطوط المسننة ، الزخرفات التشكيلية و الانطباعات أو التأثيرات والأخاديد أو الحزوز) (١٢٢) ، وأثبتنا أيضًا ندرة الزخرفات أو الزخارف على أرضية أخرى سوى البيضاء بقليل من النماذج و باستخدام الخطوط المتوازية فقط التى كان صناع الفخار يقومون بها بمساعدة عجلة ورشتهم . (١٢٣)

الخزف المُزَجَّج (المطلى بالزُّجاج) مباشرة على السَّطح الفخارى

إنَّ القطع المزجَّجة كثيرة التى سطحها المرئى أو سطحاها مغطيان بطبقة زجاجية ، ولهذه الطبقة الزُّجاجية وظيفة فى غاية الأهمية وهى اللانفاذ بالأوانى المطلية بها ، وإنْ كنا يجب أنْ نقبل أنَّ بريقها أو الألوان المتنوعة التى تنجم عنها ما هى إلا عناصر زخرفية .

وأحيانًا نعثر على قطع بها زجاج متجانس الألوان ، إمَّا العسلى (أملاح الرصاص البسيطة عند الاتصال بلون الطين نفسه) ، أو الأخضر (عند إضافة أكسيد النحاس لتركيبة الزجاج) وليس بها أىُّ نوع آخر من الزَّخرفة ، وهذا ما يحدث بالنسبة للفناجين أو مع بعض القناديل المدونة فى قائمتنا و لكن على وجه الخصوص فى معظم الفناجين والزجاجات لا لون لها (درجات اللون العسلى) ، ويُطلى بها فخارٌ أو طين أصفر فإنَّ لون الطبقة الزجاجية حينئذ يتحول إلى أخضر وهو أكثر رسوخًا وثباتًا

– وإنْ كان فى بعض الأحيان لا يتم الطلاء بشكل منتظم – و من الشائع ملاحظة حالات من التلوين الوسط بين هذا و ذاك (بين الأصفر و الأخضر) نتيجة محتملة أو ممكنة للوجود العرضى لأكسيد النحاس فى تركيبة الورنيش (البريق) (١٢٤).

وهناك بعض القطع إلى جانب طلائها زجاجيًا ؛ فقد أضفيت عليها بقع أو نقاط أو رسومات ذات لون مختلف عن لون الزجاج و من الشائع جداً إيجاد بقع أو نقاط بنية اللون (الحديد أو المغنسيوم) خضراء (النحاس) أو اللونين معًا (١٢٥) مقترنًا بلون السطح الخارجى ذى اللون العسلى ، لقد وجدنا أيضًا بعض النماذج المزجَّجة ولونها أخضر ذى رسومات بنية اللون أو السطح الخارجى بنيًا بتصميمات أو رسومات بيضاء وهو على العموم نظام أو طريقة أو أسلوب زخرفى متصل تمامًا بداخل كما أنَّ العناصر الزخرفية تكمن فى كونها نقاط غير متساوية أو موحَّدة الشكل القَصْعَةِ أو أشكال ورسومات هندسية .

ومن بين النماذج المطلية بالزجاج يسهل إيجاد زخرفات أو زخارف بها أخاديد أو حزوز الشئ الذى لم يعمِ القطع الثريدية اللون أو البقسماطية اللون وهو أمر يصعب إدراكه أو فهمه وفيما يبدو أنْ رغبات المُزَخْرِف تكمن فى ترسيخ وتثبيت عدَّة درجات لونية للون واحد للزجاج و التصميمات الهندسية المحضة ، ويُطَبَّقْ هذا على بطن الآنية أو الوعاء و يقوم على استخدام الخطوط المستقيمة المُجَمَّعة فى خطوط متوازية أو فى التقاء الخطوط فى تقاطعات على شكل صليب أو حرف (X) أو أجنحة المروحة .(١٢٦)

خزفٌ مُزَجَّج (مطلى بالزّجاج) و مُزَخْرَفٌ على أرضيةٍ بيضاء

وبهذا الشكل نكون قد وصلنا إلى أهم فصل فى دراستنا ، وهو النظام الزخرفى أو الأسلوب الزخرفى القائم على تطبيق فرشاة من أكسيد النحاس (أخضر) والمنجنيز (البنفسجى) على أرضية بيضاء لإخفاء اللون الأصلى أو الطبيعى للطين والذى بعد زخرفته يُطْلَى بطبقة شفافة من أكسيد الرصاص ، وهذا الأسلوب من أصل شرقى (١٢٧) ، وقد تمَّ اكتشافه لأوَّل مرَّة لخزفنا فى بقايا بلدة الطرف ، كما أنَّ القطع

المزخرفة بهذا الشكل تمثل أهم سلسلة من خزفنا فى عهد الخلافة [١٢٨] ، وبإبداعات طفيفة فإنَّ الخزف الأخضر أو البنفسجى قادم من فخاراتنا الإسلامية الأندلسية حتى عهد قريب من العصر الحديث [١٢٩].

لقد وجدنا بين القطع التى يتألف منها تصنيفنا بعض النماذج للفناجين والقناديل (ذات القوائم المرتفعة أو الطويلة فى المقام الأول) ، والتى تتميز بأرضيتها البيضاء و الطلاء الزجاجي و لكنها خالية من الزَّخرفة ثنائية اللون [١٣٠] ، وبهذه الطريقة وصلت إلينا بعض القطع التى تبرز استخدام أكسيد المنجنيز كملَوِّنٍ ، ولكن الأكثر شيوعًا هو استخدام المنجنيز إلى جانب أكسيد النحاس (الذى يستخدم للحشو فقط) لعمل تصميمات زخرفية متنوعة على أرضية بيضاء .

والقطع المزخرفة هكذا تتميز بجودتها الشكلية وتشطيبها الرائع وتنتمى إلى نمط القطع أو النماذج المغلقة وكذلك إلى المفتوحة ، أمَّا الزجاجية أو القارورات البطنية والعنق الضيق و غير المزودة بمقابض فإنَّه تمَّ زخرفتها على أرضية بيضاء مثل القطع المزودة ببزبوز والأمثلة كثيرة ومتعددة خاصة فى مجموعة الأطباق والصوانى ، و من الواضح أنَّ هذا الأسلوب الزخرفى يطبق على السطح المرئى (فى حالة الأشكال المغلقة) أو المعروضة للخارج (فى حالة الأشكال المفتوحة) أمَّا الوجه الآخر فسيطلى بطبقة زجاجية عسلية أو خضراء أو سيتم الاكتفاء بالطبقة البيضاء دون زخرفة .

والرسم على أرضية بيضاء سيسمح بتطوير تنوع موضوعى رائع وأفضل زخارفنا - العناصر الزخرفية الهندسية والنباتية والحيوانية وحتى البشرية - تظهر على قطع أو نماذج مغطاة بالأبيض وهكذا ستسنح لنا الفرصة لفحصها فى الجزء القادم .

وفى النهاية يجب التنويه بأنَّ ضمن هذا الأسلوب الزخرفى وجدنا تنوعًا بإدخال لون ثالث العسلى الذى يُطْلَى مُسبقًا على سطح الآنية و قد ظل احتياطيًا فى مناطق محددة ومعينة وهو يرافق الأخضر والأبيض و الأسود فى الزَّخرفة [١٣١] ، وعلى

العكس مـن ذلك فـإنَّ تقنيـة الحَبْل الجـاف وبقـايا الديكـور أو الزُّخـرفـة ذات العاكس أو الانعكاس المعدنى غير موجودة على الإطلاق فى قائمة تصنيفنا .

ج - العناصر الزخرفية

فى الفصل السابق وضعنا العديد من أساليب الزُّخرفة وطرقها التى ظهرت بالقطع الأصلية الواردة من مدينة إلبيرا والآن يأتى الدور على دراسة العناصر الزخرفية التى تتحدد من خلال هذه التقنيات ؛ حيث سنقوم بتنظيمها أو ترتيبها وسنبحث عن أوجه التشابه بين الآثار الخزفية لمستودعات أُخرى .

وإذا استثنينا نماذج قليلة مزخرفة بأخاديد أو حزوز فإنَّ معظم الخزف الذى عُثِرَ عليه فى بلدة الطرف تُحَلُّ عناصره الزخرفية بواسطة الرسم وسنتوقف على وجه الخصوص عند تنوع الموضوعات و التركيبات التى ينتهجها الخزف ذو اللون المزدوج أو ثنائى اللون فى السلسلة ذات الأرضية البيضاء .

نظرية أو علم العناصر الزُّخرفية

أ- العناصر الهندسية

١- دوائر ذات خطوط مستقيمة أو مساحات ذات خطوط مستقيمة محددة بواسطة حزوز أو أخاديد فى بعض القطع المُزججة ذات اللون الواحد.

٢- خطوط بسيطة متوازية تمَّ تنفيذها بمساعدة عجلة صانع الفخار و محددة برسومات بيضاء على أبَاريق أوجِرَار لم تُطْلَ بالزجاج .

٣- عناصر زخرفية أكثر تعقيداً تمَّ تنفيذها واليد مرفوعة ذات اللون البنى أو البني والأخضر على قطع مطلية بالزجاج ليست لها أرضية ، وأحيانًا تكون عبارة عن شُجَب أو براويز بسيطة .

٤- عناصر متنوعة تمَّ تنفيذها و اليد مرفوعة مع المنجنيز و النُّحاس على قطع مغطاة بأرضية بيضاء و سنكمل هذا الجزء بقائمة أخرى ٠

ب - عناصر نباتية أو زهرية

و تتعلق هذه العناصر فقط بالزخارف المرسومة على سطح مطلى مسبقًا بأرضية بيضاء ، و سوف نُعِد قائمة كاملة لهذه الأنماط فيما بعد ٠

ج - عناصر تشبه الإنسان و الحيوان

و تتعلق فقط بالزُّخرفة المرسومة على سطح قد غُطِّى مسبقًا بأرضية بيضاء ٠

د - عناصر نقشية أو كتابية أو شبه نقشية أو كتابية

وترتبط هذه العناصر فقط بالزُّخرفة المرسومة على مساحة أو سطح سبق لهُ أن طُلِىَ بأرضية بيضاء ٠

أ - العناصر الهندسية

١ - عناصر محزَّزة أو ذات أخاديد

و فى العديد من النماذج المزجَّجة من تصنيفنا (القاروورتين رقم ٢٠٦٠ / ٤١٦٦ وعنق الزجاجة رقم ٢٠٦٤ والقِدرِ أو المرجل رقم ٢٠٦٣ و الطبق رقم ٢٠٦٩) ٠ لقد وجدنا تطويراً للعناصر الزخرفية الهندسية ذات الخطوط المستقيمة على أساس حزوز أو أخاديد عريضة تقريبًا التى تم تنفيذها قبل طلائها بالزجاج على سطح القطعة ٠ وإذا استثنينا عنق الزجاجة ذات الخطوط المسننة و المتوازية وغير المنتظمة التى

تغطيها تمامًا فى كافة القطع المدروسة نجد أنَّ هذه الزَّخرفة تتجمع فى مجموعة أفقية وحيدة عريضة تقريبًا ، والتى تحتل أكبر جزء من جسد المقبض أو المقابض التى تكمل الشكل دائمًا لأية قطعة تفصل هذا الشريط المزخرف وكما هى الحـال فى القِدر أو المرجل تشارك بشكل إيجابى فى التجزىء التكوينى للمجموعة .

وفى كل النَّماذج نجد أنَّ هذا الشَّريط الأفقى قد انتهى بتقسيم الخطوط الرأسية أو المائلة مكوِّنة دوائر متتالية جاهزة لحشوها أو لملئها .

فالعناصر الزخرفية التى تشغل الفراغ الفاصل بين الواجهتين و الناجم عن التقاء الخطوط بعضها بالبعض الآخر هى عناصر زخرفية بسيطة جدًا : شبيكة من الخطوط المائلة و دوائر من الخطوط المتوازية أو حرف (X) بسيط أو مزدوج (شائعة جدًا ، وتتكرر فى ثلاث نماذج) ، وربما يكون العنصر الأكثر تكاملاً (فى إطار بساطته) تقدمه لنا القِدْرُ فى إحدى دوائرها لتناولها موضوعًا يُذَكِّرنا بتركيبة السُنبلة أو ورقة لنبات الخُنشار أو السَّرخَس .

ومن الصعب إيجاد أوجه شبه بين البقايا الخزفية بالمستودعات الإسبانية الإسلامية لهذا النوع من الزَّخرفة والتكوينات الزخرفية . ومن الشائع جدًا استخدام أختام الأمر الذى لا نجده فى بقايا مدينة إلبيرا . ويحدثنا كاساما [١٣٢] عن أسلوب زخرفى مشابه (الذى ينضمن أيضًا تقنية التطبيق تقنية المشط) بين القطع الواردة من الكالا لابيخا (القلعة القديمة) أو بيرلاسدى تاخونيا ، ومن العجيب أنه توجد عدة تشابهات بين زخرفة قطعنا الخزفية و بعض النماذج الشمال أفريقية التى عُثِرَ عليها فى قلعة بنى حمود [١٣٣].

ب - مزخرف أبيض

يجب أنْ نتناول أيضًا ضمن العناصر الزخرفية الهندسية الحليات البيضاء التى تبرز فى النصف العلوى للجسد المعتم لبعض الأباريق أو الجرار ، وعدد هذه الخطوط المرسومة بمساعدة عجلة الفخارى متنوعة ؛ فأحيانًا يكون وضعها كما فى

الرقمين (٦٤٥ ، ١٠٢٣) لا يندرج تحت أى نمط تكوينى وإنْ كان من المألوف العثور على خطوط متساوية كما فى (رقم ٦٤٩) أو مجموعات تتكون الواحدة منها من ثلاثة خطوط كما فى (رقم ٦٤٤).

ولقد وجدنا فى مدينة الزَّهراء نفس التقنية الزخرفية وإنْ كان صانعوا الفخار القرطبيون اعتادوا على ملئ كل السطح الخارجى للقطعة مكونين بذلك حصيلة واسعة من العناصر الزخرفية .

وطبقًا للوثائق التى فى حوزتنا من الصعب العثور على قطع فى مدينة الزَّهراء أو فى أى مستودع آخر من عصر الخلافة بها هذا النوع من الحليات البيضاء .

ج - عناصر زخرفية هندسية مطلية أو مرسومة

إنَّ التخطيطات الهندسية فى الزَّخرفة المطلية أو المرسومة مألوفة جداً إذا كان الأمر يتعلق بالقطع المزجَّجة سواء كان الطلاء الزُّجاجى مباشرًا على الطين أو كانت الزَّخرفة فوق أرضية بيضاء .

لقد جمَّعنا وحللنا فى المقام الأول القطع الكاملة والأجزاء الوفيرة المزجَّجة ذات الأرضية العسلية أو الخضراء و ذلك بتنفيذ تركيبة من العناصر الهندسية (الوحيدة) المنفذة على سطوحها المرئية محاولين فى نفس الوقت وضع أسس بشأن تكوين الأوانى أو الأوعية .

إنَّ نماذج القطع المغلقة المزخرفة مباشرة على الطين وتحت هذه الطبقة الزجاجية قليلة جداً ، و من الأكثر شيوعًا إيجاد القارورات أو القنينات ، القدور أو المراجل ولقناجين والأباريق أو الجرَّات أو القناديل المطلية بالزجاج بدون بقايا زخرفية من أى نوع ، وعلى الرغم من ذلك فإن قارورتين من المجموعة التى نحن بصدد دراستها (رقم ٧٥٩ ، ٤٢٠٨) وقدرٌ أو مرجل (رقم ٧٧٣) المزججة أو المطلية بالزجاج العسلى بها شُخَب أو برابيز زخرفية أو رسومات سريعة غير منظمة نُفِّذَت باللون البنى

كما أنه أكثر شيوعًا زخرفة داخل الأوانى أو الأوعية المفتوحة مثل الصوانى أو الأطباق فى المقام الأول ذات الأبعاد الكبيرة فالطلاء الزجاجى الخارجى أو السطحى هو غالبًا من اللون العسلى ، وإنْ كان فى بعض الأحوال كما فى النموذج (رقم ١٢٦٧) يظهر مطليًا باللون الأخضر ٠

وفى القطع القليلة التى أُعيد تركيبها أو تشييدها تمامًا (الصينية أو الطبق رقم ٩٦١) و كذلك فى الأجزاء التى تنتمى إلى نفس القطعة ، يظهر تركيب ثابت غالبًا يكون على شكل مُعَيَّنْ داخل دائرة كما فى الأرقام (٩٦١ / ٢٣١٢ / ١٢٧٧) ، وأحيانًا يكتمل هذا التركيب الموجود فى الوسط بخط زخرفى كما فى رقم (٢٣١٢) ، أو حتى فى القطعة رقم (١٢٧٧) ، حيث يوجد عنصر زخرفى شبه نقشى يملأ داخل المعين ٠ وفى مكان آخر وجدنا تركيبة داخلية على شكل شبيكة كما فى (رقم ٢٣٠٨) أو تطوير زهرة نباتية كبيرة أكثر تعقيدًا أو مستوحاة من تلك التى ترسم على أرضية بيضاء ٠ وعلى أيَّة حال فإنَّ اللون المستخدم لتثبيت هذه العناصر الوسطية هو اللون البنى القاتم وأحيانًا اللون الأخضر يكملها كما فى رقمى (٦٩١ ، ٢٣١٥)٠

وفى مكان آخر مخصص على وجه التحديد فى زخرفة الصوانى أو الأطباق هو القطاع الداخلى لحافة أو طرف هذه الأوانى (الشكل ٨ ج) ٠ وفى جميع الحالات تظهر عناصر زخرفية مبسطة تقريبًا يبدو أنها تنتسب إلى نفس الأصل : المِقرعة أو زهرة اللوتس (عروس النيل) ، وأحيانًا يكون هذا العنصر باعتماد تكوينى إشعاعى مما يبرز أصله النباتى (رقم ١٢٦٧) ويتم تركيبهُ و تجريده تدريجيًا (رقم ١٢٣٨) حتى يتحول إلى خط بسيط متعرج متموج كما فى (رقم ١٢٨٤) أو تتابع أجزاء دائرة ملونة كما فى رقم (٩٦١) و فى بعض الأجزاء تمت زخرفة الطرف أو الحافة بواسطة حلية بسيطة كما فى (رقم ١٢٥٩)٠

وكذلك فى زخرفة و تزيين الطرف أو الحافة يظهر اللون البنى القاتم الأكثر شيوعًا بين بقية الألوان و إن كان فى بعض الحالات النادرة يوجد شريط أخضر صغير كما فى (رقم ١٣١٣) أو التناوب بين كلا اللونين كما فى رقمى (٩٦١ / ١٢٥٩) ٠

وسنستشهد فى النهاية بوجود بعض الأجزاء التى تنتمى إلى قطع شبه مسطوحة زُخْرِفَت بشُخَبٍ غير متساوية أو ببقع واسعة بنية اللون ، والذى يصعب معه تعريف حدودها كما فى الأرقام (١٢٤٩ / ١٢٥٤ / ١٢٥٨).

وفى الفصل السابق اعترفنا بالصعوبة التى واجهتنا لإيجاد أوجه تشابه بين هذه القطع الواردة من مدينة إلبيرا (و الذى تكمن زخرفتها فى الطلاء بالمنجنيز أو النحاس لتثبيت العناصر الزخرفية مباشرة على الطين أو الفخار فوق غطاء أو طبقة ذات لون بُنى أو أخضر) وبين قطع مستودعات أخرى .

وعلى أية حال فإنَّ دراسة خوسيه أجوادو [١٣٤] حول الآثار الطليطلية تُثبت بجلاء استخدام هذه التقنية وهذه العناصر الزخرفية على أرضية الصوانى أو الأطباق ، كما استطعنا توثيق وجود قارورات أو قنينات بشُخَبٍ أو بزابيز غير متساوية وكذلك رسومات هندسية نُفِذَت دون تمهل وبلا أدنى تأنٍ فى بعض المستودعات الأخرى .

إننا نُصرُّ على أن هذا النوع من الزُّخرفة هو مشتق من تلك الأخرى التى كانت تُنَفَّذُ فوق أرضية بيضاء وفى نهاية هذا الفصل استطعنا التوصل إلى أصل هذه العناصر الزخرفية المثبتة مباشرة على لون الطين أو الفخار.

د - عناصر هندسية مرسومة على أرضيةٍ بيضاء

إنَّ العناصر الزُّخرفية الهندسية التى تظهر على سطوح سبق طلاؤها بأرضية بيضاء أو طبقة بيضاء متنوعة وذات تنفيذ كامل و متكامل ، كما يتضح ذلك من نماذج الأوانى اللوكس الممتازة ، ومن النادر جداً أنْ تظهر هذه الأوانى بدون عناصر زهرية أو حيوانية أو حتى شبه إنسانية وعند تنفيذها يتدخل اللونان الأخضر (من النحاس) والبنفسجى (من المنجنيز) ، أمَّا وضعهما على أرضية القطعة فإنَّهُ كان يُعتمد على رتم الصانع وشكل الآنية نفسها (والاستخدام فى آخر المطاف) التى يُراد زخرفتها .

لقد أعددنا جدولاً للأنماط يجمع ١٧ عنصراً زخرفياً مختلفاً ، ولم ندرج فيها تلك الأشكال الهندسية التى تنجم عن التقسيم التكوينى لأيَّة قطعة ككل ، ولكننا فقط أخذنا

فى الاعتبار الاهتمام بالعناصر الزخرفية الخالصة سواءً كانت أساسية أو مجرَّد عناصر للحشو (١٢٥) .

١- عناصر زخرفية ذات خطوطٍ مستقيمةٍ

١-١- رسومات قصيرة و متوازية تتكيف مع بعضها فى اتجاه راسى أو مائل خفيفًا عند طرف أو حافة بعض القطع المفتوحة كما فى جزء من الطبق أو الصينية (رقم ٢٣٠٦) ، أو القطع المفتوحة كما فى الفنجان ذى البزبوز (رقم ٧٥٤) ، وفى كلتا الحالتين فإن الرسومات تم تنفيذها باللون الأخضر فقط ، ولكننا نفترض وجود ألوان أخرى وذلك باستخدام التلوين القاتم أو التناوب بين لون وآخر.

١-٢- لقد وجدنا أيضًا هذا النوع من الخطوط الرأسية و المتوازية (الآن رفيعة وطويلة أكثر من سابقتها و ذلك بالتناوب بين اللونين) ، فى الجزء السفلى من جسد جزء من الفنجان رقم (١٢٤٧) ، وهذا النمط من الزَّخرفة يظهر فى بعض فناجين مدينة الزَّهراء (١٣٦).

١-٣- مثلثات أو عناصر على شكل منقلة أو زاوية النجَّار تشغل وسط القطع شبه المسطوحة (جزء من الطبق أو الصينية رقم ١٢٤١وجزء من الصينية أو الطبق رقم ٢٣٠٦) ، ومفهومه الزخرفى يذكِّرنا بالقطع المزخرفة بالمُعَيَّنات بدون أرضية بيضاء .

١-٤- مثلثات تملأ أو تكمل عناصر زخرفية دائرية (جزء من قارورة أو قنينة رقم ١٢٦٨ ، جزء من الصينية أو الطبق رقم ١٢٤٣) و أحيانًا فإنَّ هذه المثلثات لها جوانب منحنية إلى حدٍ ما لكى تتكيف مع الأشكال الدائرية أو المستديرة .

١-٥- و هناك عناصر زخرفية هندسية ذات خطوط مستقيمة أكثر تعقيداً وصعوبة عند تعريفها أو تحديدها تم تنفيذها على جسد بعض الأوانى (مثل الكأس أو الكوب الإسطوانى رقم ١٢٨٨ و جزء الصينية أو الطبق رقم ١٢٤٦) .

٢- عناصر زخرفية هندسية ذات رسومات منحنية
- عناصرُ مستديرةُ أو دائريةُ

٢-١- دوائر متراكزة أو مكثفة مصفوفة فى حليات أفقية أو شرائط أفقية دون تحديد ، وبصفة عامة فإنها تتناوب فى اللون ، وتتصل بخارج الأوانى المغلقة (أجزاء من الأطباق رقم ١٢٨٥ / ١٢٩٥ / ٢٢٩٧ / ٢٣٠٩) ، ولقد وجدنا الموضوع نفسه فى بعض الزُّجاجات الواردة من مدينة الزَّهراء[١٣٧].

٢-٢- دوائر متركزة أو مكثفة مصفوفة فى حليات أفقية أو شرائط أفقية محددة ، وتُملأ الدائرة الداخلية باللون القاتم ، وتبدو متصلة أيضًا بتطوير تكوينى لقطع مغلقة مثل القارورة رقم (٦٧٧) و الأوانى ذات البزابيز رقم (٧٥٤ / ٧٦٧) ، وهذا الشرائط أو الحليات تتناوب مع غيرها مختلفة المحتوى والمضمون وهى بصفة عامة نباتية ، ولقد وجدنا عناصر زخرفية مماثلة فى أوانى وأوعية مدينة الزَّهراء [١٣٨] ونيبلا [١٣٩].

٢-٣- و هناك نوع آخر من العنصر الزخرفى السابق و هو الكائن بالقارورة رقم (١٢٧٢) ، حيث إنَّ الدائرة الخارجية تأخذ شكلاً رُمْحِيًا (شكل الرمح) لكى تستطيع التوغل فى الدوائر السابقة و اللاحقة ، لقد وجدنا أيضًا عناصر مشابهة بين قطع مدينة الزَّهراء [١٤٠] ، وجدنا عنصرًا زخرفيًا مشابهًا من أصل نباتى واضح موجود بقطعة من القلعة القديمة (الكالالابييخا) [١٤١] ، كما أن الأمثلة بالخزف الفالينثى كثيرة ومتنوعة [١٤٢].

٢-٤- دوائر بداخلها أشكال رباعية الفصوص أو دوائر صغيرة كما فى أجزاء الطبق أو الصينية رقم (٢٣٠٠) ، وقد ظهر هذا العنصر الموضوع الزخرفى فى مدينة الزَّهراء أيضًا [١٤٣].

٢-٥- أشباه دوائر أو أنصاف دوائر متراكزة أو مكثفة مصفوفة مع شرائط أفقية ومحددة ، ويملأ نصف الدائرة الداخلية باللون العسلى وقطر الأشكال يلتقى مع الأفقى السفلى للشريط (جزء من القارورة رقم ١٠٣٤) ، ويظهر نفس العنصر

الزخرفى فى إبريق أو جرّة بمدينة الزّهراء [١٤٤] ، وفى بعض الأجزاء الأخرى فى نفس المدينة [١٤٥] وجدنا بقايا أو آثار بوياسترو[١٤٦].

٢-٦- أنصاف دوائر مصفوفة فى شرائط أفقية و محددة ، ونصف الدائرة الداخلية ملون باللون القاتم ، أمّا قطر الأشكال فإنَّهُ يتفق مع الخط الأفقى العلوى للشريط (جزء من الصينية أو الطبق رقم ٨٠ ---)٠

٢-٧- أنصاف دوائر مصفوفة فى شرائط أفقية ومحددة والأشكال تعتمد بالتناوب على خط علوى وسفلى من الشريط كما أن نصف الدائرة الداخلية ملون باللون القاتم كما فى جزء من الصينية أو الطبق رقم ٨٠ ---) ٠

٢-٨- أنصاف دوائر بها خطوط مستقيمة تشكل زاوية قائمة وفى داخلها نقاط صغيرة قاتمة تتناوب فى داخل و خارج الأشكال ، وهذه العناصر الزخرفية الهندسية مصفوفة فى شريط أفقى (أجزاء الغطاء رقم ٢١٤٤) و موضوع مُشابه يشغل سطح جزء من الحبل الجاف بمُتحف الحمراء [١٤٧] ، كما تعرفنا أيضًا على الموضوع بين البقايا الخزفية لقلعة بنى حمود [١٤٨] ٠

٢-٩- أنصاف دوائر لحافة أو لطرف القطع المفتوحة : ولحشوها أو ملئها يتناوب اللونين الأخضر و البنفسجى (قطع الطبق أو الصينية رقم ٧٨١ / ٨٥٥ / ٢٢٩٦) ، وهذا النوع من الزّخرفة للقطاعات أو الأجزاء الداخلية لأطراف أو لحافات الأوانى يظهر أيضًا فى القطع شبه المسطوحة بمستودعات أخرى [١٤٩] ، وهو مُعَمَّمٌ فى القطع المزججة (المطلية بالزجاج) الخالية من الأرضية البيضاء ٠

٢-١٠- أنصاف دوائر مملوءة لتزيين حافات وأطراف القطع المفتوحة والتى تتناوب فى نموها أو تطورها مع أشكال مثلثية (قطع الصينية أو الطبق رقم ١٢٤١ / ١٢٤٥)٠ وكذلك فى هذه الحالة أيضًا يوجد تشابه مع القطع الواردة من مدينة الزّهراء [١٥٠] ، ويوجد تشابه أيضًا بين قطع أو أجزاء مزجّجة من مستودعنا خالية من الأرضية البيضاء ٠

٢-١١- عناصر دائرية مملوءة بشكل متنوع تتكامل بأشكال أو رسومات أو مخططات مثلثية لتتزين أرضيات هذه القطع شبه المسطوحة (أجزاء أو قطع رقم ١٢٨٣ / ٢٣١٣)[١٥١].

٢-١٢- من الشائع ظهور الضفيرة النمطية لعصر الخلافة وهى ضفيرة ذات ثلاثة أطراف ، ويتعلق هذا النوع من الزخارف بالقطع ذات الحلق مثل القارورات رقم (٦٧٧ / ١٠٣٤ / ١٢٧٠ / ٢٢٩٤) والإبريق رقم (١٢٣٤) ، و كذلك القطع الخالية من الحلوق مثل جزء الفنجان رقم (١٢٧٣) و أجزاء الطبق أو الصينية رقم (١١٤٣ / ٢١٤٦) ، ويظهر هذا العنصر الزخرفى أيضًا بكثرة بين البقايا الخزفية لمدينة الزَّهراء [١٥٢] وبوباسترو [١٥٣] ومدينة سالم [١٥٤] ومستودعات أخرى بشبه الجزيرة الأيبيرية [١٥٥] أو شمال أفريقيا [١٥٦] .

ب - العناصر الزُّخرفية النَّباتية

وتظهر العناصر النباتية و الزَّهرية فقط على القطع المغطاة بأرضية بيضاء تلك التى تنتمى الأوانى ذات الجودة العالية المزخرفة باللون الأخضر والمنجنيز (ولقد حللنا الاستثناءات الممكنة) ، ولكى نُسهِّلَ دراستها أعددنا الجدول الآتى للأنماط و الأنواع .

١ - موضوع المقرعة

١ - ١ - مقرعة ذات ساق متعرج أو متجعد :

١ - تتكيف مع حليات رأسية .

٢ - تتكيف مع حليات أفقية .

٣ - تظهر و كأنها مركز التكوين فى قاع القطع المفتوحة .

١ - ٢ - مقرعة ذات ساق مستقيم مُقَوَّس بصورة طفيفة :

١ - تتكيف مع حُليات أفقية و فصوصها تتجه لأسفل .

٢ - تتكيف مع حليات أفقية و فصوصها تتجه لأعلى .

١ - ٣ - مقرعة فريدة بداخلها تاج رُمحى الشكل .

١ - ٤ - مقرعة مزدوجة أو ثنائية و متناسبة بداخل تاج الزهرة .

١ - ٥ - مقرعة أو ورق شوك اليهود تتكيف مع فراغات مثلثية الشكل .

٢- موضوعات نباتية أخرى

٢ - ١ - تستخدم كأرضية فى تكوينات القطع المفتوحة : الأناناس و الأزهار الكبيرة لتيجان رُمحية الشكل .

٢ - ٢ - تتكيف مع حليات أفقية : عقود من الأوراق .

٢ - ٣ - عناصر نباتية أخرى تُصاحب و تكمل تكوين موضوعات شبه حيوانية أو بشرية .

وتمثل المقرعة الموضوع الأكثر شيوعًا فأنواعها المختلفة تتكيف مع الاستخدامات التركيبية المتنوعة وحتى فى العنصر الموجود نجد تنوعًا كبيرًا ، حيث يُلاحظ التطور الواضح من الموضوعات المنتهية جيدًا إلى تلك التى يتم تنفيذها بشكل سريع ومُبَسَّط ، و إحدى هذه المقارع موجودة بحلية رأسية التى تصاحب جزءًا من القارورة رقم (٢٢٩٤) ، هذا الشريط أو هذه الحلية تتناوب مع أخريات مُضَفَّرة بالداخل . والموضوع كما يحدث دائمًا فى هذا النوع من الزَّخرفة يُرسم بالمنجنيز على أنْ يُترك داخل العنصر الزخرفى مع اللون الأبيض للمسند أو المقبض ، بينما اللون الأخضر لأكسيد النحاس ستُطلى به المنطقة الخارجية المحددة بالشكل العام للمقرعة وخطوط الشريط الزخرفى .

كما أنَّ الدقة التى تمَّ بها تنفيذ الوضوع الزخرفى سَهَّل علينا إيجاد تشابهات مع خزف مدينة الزَّهراء [١٥٧] أو العناصر الزخرفية المعمارية لعصرالخلافة [١٥٨] .

وهذه المقرعة نفسها مُبسَّطة إلى حدٍ كبير ولكنها تحتفظ بخطها المتموج أو المتعرج لساقها و يظهر ذلك ضمن أجزاء بعض القارورات (مثل رقم ١٢٨٥) التى تتكيف مع إطار أو برواز قطاع أفقى ، ونعترف بوجودها فى قاع بعض الصوانى أو الأطباق (تلك التى بأطرافها تتناوب العناصر الزخرفية المثلثية بأنصاف دوائر مملوءة كما فى أرقام (١٢٤٤ / ١٢٤٥ / ٢٣٠١) ، والتى تؤلف العنصر المركزى للتكوين .

وهناك نوع مختلف شائع بين بقايا مدينة إلبيرا الذى يتألف من المقارع المُبسَّطة ذات الساق المستقيم أو المقوَّس خفيفًا ، هذا الساق الذى فقد جمال شكله المتعرج أو المُتَجَعِّد . إنَّهُ عنصر زخرفى يظهر متكررًا فى قطع ذات جودة عالية وقد تكيف مع الحليات الأفقية لزخرفة القطع شبه المسطوحة (جزء الطبق أو الصينية رقم ٢١٤٣ وأجزاء الأغطية رقم ٢١٤٤ / ٢١٤٥) أو فى القطع المغلقة (القارورة رقم ٦٧٧ وأجزاء القارورة رقم ٢٢٩٥) ، وبصفة عامة فإنَّ الساق يظلُّ ملتصقًا بالخط العلوى للحلية العريضة المسطوحة وفصوص العنصر الزخرفى وإنْ كان هذا الموضوع يظهر معكوسًا أو مقلوبًا فى القصعة أو الجِفنة رقم (٢١٤٣) . وفى الحالات التى تهمنا أيضًا فإنَّ المقرعة تبدو مرسومة بالمنجنيز و بتحفظ باللون الأبيض ، ولازال اللون الأخضر هو الذى يملأ أو يلون الفراغات وخاصة الخارجية منها بصفة عامة .

إنَّ المقرعة المُبسَّطة مألوفة الاستخدام بين بقايا مدينة الزَّهراء [١٥٩] بوباسترو[١٦٠] طليطلة [١٦١] مورثيا [١٦٢] مالقة [١٦٣] وفالينثيا [١٦٤] .

ويمكن اعتبار الأشكال ذات الفصوص المتعددة التى تنمو داخل أوراق رُمحية الشكل يمكن اعتبارها مقارع أيضًا ، إنَّها شائعة فى زخرفة القطع القرطبية [١٦٥] ، وإنْ كان بين أجزاء مدينة إلبيرا ظهرت مرَّة واحدة مُصاحبة أو مقترنة لأرضية الطبق أو الصينية رقم (٧٧٤) و التى فيها يتجمع العنصر الزخرفى فى مجموعة ثلاثية ، ويظل مُعَانقًا بمخطط هندسى آخر [١٦٦].

وعندما يجمع أحد البراويز البيضاوية الشكل بداخله مقرعتين متساويتين يتكون منهما عنصر زخرفى خاص أحياناً يصاحب الحلية ذات الزَّخرفة شبه نقشية أو شبه كتابية (وهذا ما يحدث على الأقل فى أحد أجزائنا رقم ٢٣١٧ ويُفترض أنهُ يحدث فى جزء آخر ناقص رقم ٧٨١) ، و فيما يبدو أنَّ هذا الموضوع الزخرفى قد وُرِثَ من الزَّخرفة المعمارية [١٦٧] و يبدو فى كثير من بقايا أماكن أُخرى [١٦٨] .

ومن ناحية أخرى فإنَّ قاع بعض الأطباق أو الصوانى ينقسم إلى أجزاء دائرية ذات أنصاف أقطار متعددة على مسافات متساوية و ينجم عن هذا فراغات مثلثية تُملأ بعنصر زخرفى نباتى على شكل مقرعة أو ورقة شوك اليهود (أجزاء رقم ٧٧١ / ٧٨٠ / × ٤٢ / ١١٥٢ / ١٢٨٦) ، و دائمًا يحفظ هذا العنصر الزخرفى فى اللون الأبيض للقاع أما لون تسديد الفراغات أو المساحات الخالية فهو بصفة عامة اللون الأخضر، وهذا العنصر السابق يحيط بشكل الورقة .

وعندما يتعلق الأمر بالحصول على عنصر مركزى خاص لأرضيات أو لقيعان القطع الخزفية المفتوحة يوجد موضوع يسمح بتقسيم تكوينى إشعاعى لاحق : زهرة كبيرة ذات تيجان رُمحية الشكل ، لقد لاحظناه بوضوح فى العديد من نماذجنا أجزاء من الأطباق أو الصوانى رقم (٧٧١ / ١٢٨٦ / ٢٣٠٣) ، وتصاحب دائمًا تلك التوليفات أو التركيبات التى أشرنا إليها آنفًا ، أمًّا لُبُّ أو نواة الزهرة كان من المعتاد تكوينها بالمنجنيز ، أمًّا التيجان فباللون الأبيض مما يتناقض مع الحشو الخارجى أو تظليل الفراغات باللون الأخضر ، ويجب أنْ نبحث عن أوجه الشبه لهذا الموضوع فى قرطبة [١٦٩] ، وأيضًا عنصر الأناناس الذى اعتقدنا أننا تعرفنا عليه فى جزئيتنا رقم ٢٣٠٢ التى تنتمى إلى قاع صينية أو طبق [١٧٠] .

وإلى جانب المقارع توجد عناصر زخرفية نباتية أخرى تتكيف مع داخل الحليات الأفقية كما يتضح من رقمى (٧٥٤ / ٢١٤٥) المبسَّطين و لكنهما يكشفان بوضوح عن أصلهما [١٧١] وبنفس الصيغة الآنية رقم (٧٦٧) تُنمِّى عُقدًا من الأوراق على شكل قلب (موضوعة فى اتجاه رأسى) الذى عرفناه أيضًا بين قطع مدينة الزَّهراء [١٧٢] وسنستشهد فى النهاية وكوضع خاص أو حالة خاصة جداً بموضوع تلك

الأوراق أو الورقات بجزء القارورة رقم (١٢٦٨) بشكل قلب و ملطخة ببقع دائرية ملونة تتناوب مع الأشكال المثلثية مع ورقات أخرى متعددة الفصوص التى تُذكِّرنا بموضوع المقرعة ٠

أمَّا فيما يتعلق بالموضوعات الحيوانية التى ظهرت على سطح القارور (رقم ٦٧٧ أرانب برية و فى قاع أو أرضية الطبق أو الصينية رقم ٨٥٥ حصان) فإنَّها تقترن أو تصاحب عناصر زخرفية نباتية منفردة و بسيطة جداً تنتهى بما يشبه الأغصان الصغيرة ذات الثلاث ورقات أو كبساطة زهرة اللوتس (عروس النيل)٠

ج- العناصر الزُّخرفية الشَّبيهة بالإنسان أو بالحيوان

إنَّ العناصر الزخرفية الهائلة فى الزخارف الإسبانية الإسلامية بصفة عامة تتألف من الأشكال أو الصور البشرية والحيوانية التى ترسم على سطح القطعة التى سبق أن طُلِيَت بيضاء ، ومن اكتشافها فإن موضوعات الزَّخرفة البشرية أو الآدمية والحيوانية قد لفتت أنظار كثير من الجهابذة الذين اهتموا بها وطبعوها على الفور [١٧٣] ، ونعنى بهذه الموضوعات موضوعات مدينة إلبيرا ٠

وبالفعل فإنَّ الموضوعات الآدمية ظهرت مرتين فى خزفنا وقد رُسِمَت بالمنجنيز على أرضية بيضاء ومملوءة بالبقع الخضراء والبنفسجية ، ويتعلق الأمر بأرضية أو قاع طبق أو صينية كبيرة رقم (٢١٤٣) الذى يبرز فى وسطه مُحاطاً بحليات عريضة و مسطحة متراكزة أو مكثفة مليئة بنوع آخر من الزخارف ، حيث يظهر الشكل الجانبى لرجل فى أحلى ثيابه و شعره الغزير المُجعَّد والقاتم السواد وعينه الواسعة وذراع ممدودة ليحمل فى يده عصفوراً كما يبدو من شكله (دائماً كان الصقر هو رمز هذه الزَّخرفة) وهو شكل مُبسَّط و شبه مفقود إلى حد كبير ٠ وفى مكان آخر (الجزء الذى ينتمى إلى قاع الطبق أو الصينية رقم (٢١٤٧) ، والتى تخضع لنظام حلية متراكزة ، حيث تظهر رأسان آدميتان مرسومة بالمنجنيز وقد فقدتا أكبر قدر من ملامحهما ٠

فمن المعروف جيداً أنَّ مسلك الإسلام تجاه التصاوير أو الصور الآدمية (وهذا استثناء من بين الاستثناءات) هو تحريم هذه الصور أو الرسومات ، ولهذا السبب فإنَّ الصورة أو الشكل الآدمى قليل جداً بل نادرٌ فى الزّخرفة الإسبانية الإسلامية . وبتأثير من التقليد السّاسانى فإنَّ الوجود الآدمى شائع فى بلاد فارس وربما يرجع ظهور بعض الصور والأشكال الآدمية فى خزف منطقة البحر المتوسط الغربية إلى تأثير الخزف الفارسى ، وعلى العموم فإنَّ هذه التصويرات قليلة جداً ، ولم يصل إلينا منها سوى القليل و التى معها يمكن مقارنة صورنا و رسوماتنا ، وقد أدرج مانويل جوميث مورينو ثلاثة أجزاء خزفية مزخرفة واردة من مدينة الزّهراء تمثل أشكالاً آدمية جانبية وبعضها تُشبه تماماً فى ملامحها رأس صائد صقورنا (١٧٤) ، وأيضاً هناك جزء مماثل يتم توثيقة فى مالقة (١٧٥) .

وقد كانت فى غاية الغزارة و الوفرة الزخارف الحيوانية وإن كنا لم نلاحظ سوى ثلاثة نماذج تنتمى لهذه العناصر الزخرفية فى البقايا الخزفية الواردة من بلدة الطرف : فى قاع أو أرضية صينية أو طبق رقم (٨٥٥) يظهر شكل جانبى لجواد على ظهره يوجد عصفور يمسك بزمامه أو بلجامه بمنقاره ؛ فالرسم هائلٌ وقاتم اللون والشّكل موزع بنسب هائلة و يستخدم اللون للتظليل العام باستثناء خصلات من عرف الفرس ، و الذّكر (الجهاز التّناسلى للحصان) والأرجل تكاد لا تظهر لبعدها و هى مغطاة كلها بالمنجنيز . و على الجدار المركزى لبطن القارورة رقم (٦٧٧) (و هى قارورة بطنها كبيرة ولها عنق ضيق بدون مقبض أو يد) وتظهر حلية عريضة مسطحة مقسّمة إلى فراغات بين عدة واجهات نظراً لتقاطعها مع العديد من الحليات العريضة المسطحة الرأسية مملوءة بضفيرة داخل هذه الفراغات المستطيلة وهى تلف أو تُحيط بأربعة أرانب بريّة – فى وضع واحد وكذلك الحجم – فى وضع تأهب للقفز . وبالحيوانات بقع بمنطقة الظهر و معظم الجسد ملون باللون الأخضر (ومن جديد فإنَّ الأرجل الخلفية بعيدة وبالتالى لونها مختلف) ، كما أنَّ الحيوانات تُمسك بأغصان نباتية صغيرة .

وجدير بالذِّكر أنَّ الموضوعات الزخرفية الحيوانية التى ظهرت فى مدينة الزَّهراء [١٧٦] يجمع بينها وبين الموضوعات التى نحن بصدد دراستها الآن كثير من أوجه الشبه . وعلى الرغم من أنَّ موضوعات مدينة الزَّهراء شاع فيها استخدام الطاووس – وهو موضوع مجهول تمامًا حتى الآن بالنسبة لقطع مدينة إلبيرا – فإنَّ الحمامات موجودة (و هى تشبه العصفورة – الفارس) وكذلك الحيوانات ذات الأربع أرجل ، بأرجل فى وضع تأهب للقفز ، أجساد مليئة بالنقط أو البقع البيضاء وبفمها غُصنٌ صغيرٌ [١٧٧] . ويعيد مانويل جوميث مورينو مارتينيث [١٧٨] إنتاج طبق أو صينية وارد من نفس المستودع القرطبى الذى بأرضيته أو بقاعه صورة حيوان يشبه إلى حد كبير الحصان المرسوم على الصينية أو الطبق رقم (٨٥٥) . إنَّ هذه الموضوعات الزخرفية الحيوانية هى أقل كثيرًا بين بقايا مستودعات أخرى .وعلى أية حال فإننا سنستشهد بالظبى الصغير الذى ظهر فى مايوركا وقام روسيو بنشره فى مؤلفه [١٧٩] ، كما أنَّ العصفور الذى نُفِّذَ باتباع الحبل الجاف أو اليابس الذى ظهر فى قلعة الأنهار [١٨٠] وكذلك العصفور – الحجل بطليطلة [١٨١] ، وطيور مالقة [١٨٢] ، وأشباه الحيوانات فى فالينثيا [١٨٣] ، أو التصاوير الحيوانية الواردة من قلعة بنى حمود [١٨٤] ، التى تعود إلى طرح أمور واضحة فى تلازمها مع الرسومات الأندلسية .

وقد أبرز بابون مالدونادو [١٨٥] أوجه الشبه الموجودة بين هذه الحيوانات المدونة بقائمتنا وبين الحيوانات الكائنة بالمستودعات الشرقية ، ومن المرجح أن تكون وسيلة انتشار هذه العناصر الزخرفية هى المنسوجات أو العاج ، وعلى العموم فلقد وجدنا تشابهات كثيرة بين حيواناتنا وتلك التى ظهرت فى الخزف الفارسى فى نيسابور[١٨٦] .

د – الزَّخرفة بالنَّقش أو بالكتابة

إنَّ العناصر الزُّخرفية النقشية أو الكتابية – أو على الأصح – شبه النقش أو الكتابة – تنحصر فى نماذج قليلة بزخرفة مرسومة على أرضية بيضاء ،

وتظهر هذه فى الجزء العلوى لجسد قارورة رقم (١٠٣٤) و كذلك فى الغطائين رقم (٢١٤٤ / ٢١٤٥) وفى حافة رقم (٢٢٩٩) و كذلك فى أرضيات الأطباق أو الصوانى رقم (١٢٨١ / ٢٣١٧ / ٢٣٢٢ / ١٢٧٧) . وعلى أية حال فإنَّ الرسومات أو الخطوط لا اتجاه لها و قد نُفِّذَت على عجل ودون تمهل بالاستفادة من التخطيطات القائمة للمنجنيز و كذلك كما فى كثير من الأطباق أو الصوانى تندرج تمامًا تحت خطة من خطط الزَّخرفة الهندسية و هكذا أخفت أصولها أو مصدرها ، ففى مدينة إلبيرا لا يوجد التاريخ الخاص بكتابات بالخط الكوفى و البرامج الكتابية الكبيرة التى ظهرت فى قطع مدينة الزَّهراء [١٨٧] أو بمستودعات أخرى إسبانية إسلامية [١٨٨] .

د - اعتبارات موجزة عن البدايات التَّكوينية

فى القطع الخزفية المرسومة فى مدينة إلبيرا

نودُّ استكمال دراسة الموضوعات الزخرفية لهذه القطع الخزفية المرسومة على أرضية بيضاء مع الإشارة إلى بعض الاعتبارات حول التنظيم التكوينى لهذه العناصر الزخرفية أى طرق تجميع هذه الموضوعات وعلاقة هذه التجميعات مع شكل القطع المراد زخرفتها وفى هذا الصدد لقد وضعنا مبدأً أساسيًا أو قاعدة جوهرية للإشارة إلى التكيف العام بين الشكل والزَّخرفة التى وجدناها دائمًا فى الخزف الإسلامى وعلى وجه الخصوص فى هذه الأوانى أو الأوعية القادمة من بلدة الطرف .

وهذا التكيف ينعكس تمامًا فى الأنماط التكوينية المحددة ، أنماط قد لاحظها باسيليو بابون [١٨٩] فى دراساته عن الخزف فى مدينة الزَّهراء والتى سيعكسها أيضًا جييرمو روسيو [١٩٠] عند التطرق إلى الخزف العربى فى جزيرة مايوركا ، وسنبدأ نحن من التمييز المألوف بين الشكل المغلق والشكل المفتوح .

١- التَّكوين فى القطع المُغلقة :

تُطبَّق العناصر الزُّخرفية - من النَّاحية المنطقية - على القطع المغلقة بالحوائط الخارجية لها بينما الداخل (الغير مرئى فى القطع الكاملة) يُغطَّى بطبقة زجاجية ذات لون متجانس ، ففى مدينة إلبيرا نجد أنَّ القطع المزودة بشُجب أو بزابيز و مزخرفة بالنحاس والمنجنيز تنحصر فى مجموعة القارورات أو القنينات الخالية من المقابض وبعضها ببزبوز طويل ، تسود هذه القطع الخطوط الأفقية فى التكوين الزخرفى بالشكل الذى يجعل من المألوف وجود شرائط أفقية ومتوازية ذات السُّمك المتنوع ومملوءة بالعناصر الزخرفية التى تحدثنا عنها فى الأجزاء السابقة ، فالحليات العريضة المُسطَّحة الأكثر أهمية (هذه الأهمية تتأتى أحيانًا من عرضها وأحيانًا أخرى من أصالتها وتعقيد أو ثراء عناصرها الزخرفية الكائنة بداخلها) فى الوسط أو فى النصف العلوى لبطن الإناء (أحسن جزء مرئى عندما يكون الإناء على المنضدة) بينما الأجزاء السفلية لأجساد هذه الأوانى تخلو بصفة عامة من الزُّخرفة ، كما أنَّ أىَّ عنصر زخرفى أو وجود مقابض أو بزابيز على سبيل المثال فى بعض الأوانى ، وفى هذه الحالة القارورات يجعل الشريط الزخرفى الأفقى ينقطع محترمًا وجود هذه المقابض أو البزابيز .

وفى بعض الحالات لاحظنا وجود أجزاء أو أقسام رأسية (عادة تستخدم فى تقسيم أفضل للشريط الأفقى ، كما يحدث فى القارورة التى بها الأرانب البرية) وفى حالات متعددة جدًا فى القنينتين أو القارورتين رقم (١٢٧٠ / ٢٢٩٤ على سبيل المثال) الخطوط الرأسية هى المهيمنة أو الوحيدة فى التنظيم الزخرفى للمجموعة .

٢- التَّكوين فى القطع المفتوحة :

ونحن نشير بهذا أساسًا إلى الزَّخرفة على أرضية بيضاء لداخل الأطباق أو الصوانى . و فى مثل هذه الحالات فإنَّ الجدران أو الحوائط الخارجية هى التى تبقى بصفة عامة دون أرضية بيضاء ، ولكنها مع ذلك تُطلى بطبقة زجاجية متجانسة باللون الأخضر أو العسلى لحمايتها .

هذا وقد وضع بابون [١٩١] قائمة بعشرة أنماط مختلفة لشكل زخرفة الأرضيات بهذه الأوعية وقد عُزيت هذه التكوينات إلى موضوعات زخرفية محددة ، واستناداً إلى نظرية أو علم الأنماط فقد درسنا قطعنا الخزفية ولاحظنا افتقارات هامة وكذلك وجود بعض الأنماط التى لم تظهر فى المستودع القرطبى ، فلم نجد على سبيل المثال بقايا من الكتابات أو النقوش الكوفية الكبيرة الكائنة فى نمط رقم (أ) وإن كان لدينا إشارة إلى أطباق عليها عناصر زخرفية شبه نقشية أو كتابية مرسومة على ذراعى صليب ، كما أنه ينقصن أيضًا أنماطه ب ، ج ، د ، هـ ، و ، ل ، م ، و لدينا شهادة واحدة ذات مغزى بسيط و هى الزهرة الكبيرة ذات التيجان الأربعة الرُمحية الشكل ذات القاعدة العريضة (النمط E) نعم ، يجب أن نبرز وجود نموذجين فى قطعنا الخزفية مزخرفين بحلقات صغيرة بداخل دائرة كبيرة (نمط G) ، إنَّ أهمية النمط K فى مخطط صليبى الشكل بنوعيه يملأ أجزاء الدائرة الناجمة عن الدوائر أو الحلقات والأشكال البيضاوية فى مدينة الزَّهراء .

ونوجز باقتضاب ما سبق أن عرضناه قائلين : إن من بين القطع المفتوحة بغرناطة وجدنا ما هو مجزأ أو مقسَّم إلى تكوينات إشعاعية متراكزة أو مكثفة وبين هذه الأخيرة تكثر النماذج التى يبرز فيها أهمية العنصر المركزى (أيًا كان نمطه) نظرًا للامتداد الكبير الذى يشغله هذا العنصر فى القاع أو الأرضية .

الاستنتاجات

إنَّ الخزف الذى حللناه و صنَّفناه فى الصفحات السابقة متنوع و ذو جودة عالية ويتفق من حيث الصِّفات أو المميزات العامة مع القطع الخزفية الأخرى التى عُثِرَ عليها فى مستودعات أخرى بالأندلس ، والدراسة المستفيضة لهذا الخزف والمقارنة بينه وبين قطع واردة من أماكن أخرى جعلتنا نتطرق إلى بعض الأمور الموسعة والتى سنحاول هنا الإجابة عنها فى هذه الاستنتاجات : وهى مكان أو موطن الإنتاج وتاريخ الإنتاج فى المقام الأوَّل .

ففيما يتعلق بموطن أو مكان الصناعة فمن المعتاد اعتبار الأصالة فى المقام الأول و هذه نظرية نرتضيها و لكن سنضيف إليها بعض الإيضاحات . بالفعل نجد من المنطقى التفكير الاعتقاد بأنَّ مركزًا إقليميًا مثل مدينة إلبيرا كان من بين سكانها قطاع للحرف اليدوية تخصص فى صناعة الفخار المطبوخ وأن إنتاجه كان يكفى إحتياجات السوق المحلى أو الإقليمى و حتى يمكن بيع هذه المنتجات الخزفية خارج نطاق المحافظة نفسها .والاعتقاد فى هذا الإنتاج المحلى له ضماناته المادية مثل الحواجز من الفخار المطبوخ كما فى (الحواجز التى كان يضعها صانع الفخار بأرضية الفرن وكذلك حتى لا تصل إليها النَّار مباشرة فى الفرن وهى قطع لا غنى عنها بالنسبة لصانع الفخار . هذه الحواجز - والبقع العارضة التى وجدناها على هذه الحواجز - توضح لنا استخدام الطلاء الزجاجى ووجود أكسيد النحاس والمنجنيز بين أملاح الرصاص والآن يمكننا إدراك الفارق بين الخزف المفيد أساسًا ثريدى اللون أو المغطَّى بطرق بسيطة بطبقة من الزُّجاج وهو عادة خال من الزخارف وهو شائعٌ و مألوف بين جميع البلدان و بين مجموعة القطع عالية الجودة الزُّخرفية التى تزخرف على أرضية بيضاء (أكثر القطع جاذبية بين النماذج التى درسناها) التى ظهرت فى مدينة إلبيرا ذات التصميمات الرائعة التى تكشف عن أيدى فنانة وعقول واسعة الثقافة ، هذه القطع تمَّ إنتاجها فى نفس المدينة ، وفى حالة الإيجاب فإننا سنمنح صانعى الفخار بمدينة إلبيرا أهمية واهتمامًا يضارع ما كان نظراؤهم فى عاصمة الخلافة الأندلسية (قرطبة) وربما يكون صانعو الفخار بمدينة إلبيرا ينتمون إلى أجداد قرطبيين ، أمَّا فى حالة السَّلب أو النَّفى فليس من غير المنطقى اعتبار هذه المنتجات دقيقة الصنع ثمرة العلاقات التجارية التى ربطت بين عاصمة الإمبراطورية والمراكز الإقليمية الرئيسية ، ولكى نوضح هذه المعضلة نحن فى حاجة إلى أدلة قاطعة لم نستطع الإسهام بها فى هذه الدِّراسة : التَّحليل الكمى للفخار الذى يسمح لنا بالتحقق من مصدر الطِّين أو الفخار أو التتابعات الأثرية الواضحة والتى نفتقر لها حاليًا .

وفيما يتعلق بفترة إنتاج هذا الخزف تتفق الأطروحات التقليدية التى تستند إلى أخبار تاريخية معترف بها والتى تؤكد أنَّ القطع السالف ذكرها ودراستها تنتمى إلى عصر الخلافة ، ومن الصحيح أيضًا أنه لم يتم التمييز على الصعيد العام بين المنتجات الخزفية لعصر الخلافة بالِّنسبة لمراحلها السَّابقة (الإمارة) واللاحقة لها مباشرة (الطوائف) و لكنَّ الزَّخرفة الخضراء والبنفسجية على أرضية بيضاء والتشابهات الواضحة بين خزفنا وتلك التى ظهرت بمدينة الزَّهراء تمثل أهمية إنتاجنا فى القرن العاشر الميلادى . ونعرف من ناحية أخرى أن مدينة إلبيرا لم تبق على قيد الحياة أكثر من الربع الثانى من القرن الحادى عشر الذى فقدت فيه دورها كعاصمة لصالح غرناطة ، وقد دُمِّرَت المدينة وخُرِّبَت و سُلِبَت ، وبالتالى فقدت مصانع الفخار بها .

ولن ننسى أنْ نُسَجِّل فى هذا الجزء أيضًا التشابهات الوثيقة التى لاحظناها بين خزفنا (المجموعات الموجودة بدون زخرفة أو تلك المطلية بطبقة زجاجية فقط) والواردة من مصانع فخار مجاورة وإن كانت من المفترض أن تكون لاحقة لها - ألميريا ومالقة بصفة أساسية - وهذه التَّشابهات يجب تبريرها ببقاء تقليد أو عرف شكلى أو فنى تقنى الذى سيتغير أو سيُعَدَّل بوصول الموحدين وعلى وجه الخصوص اعتبارًا من الإبداعات النَّصرية .

الهوامش

(١) توريس بالباس ، ل " الخزف الإسبانى الإسلامى " مجلة الأندلس عام ١٩٣٩ ص ٤١٢ و التالية لها .

(٢) ونستشهد بالنص أو حرفيًا : و لكن بينما تُرى هذه الحفريات (يشير بذلك إلى القصبة بمالقة) من الضرورى طبع و نشر الخزف فى عصر الخلافة و كذلك فى كل من غرناطة و مالقة لكى يكتمل التطور الرائع لفن صناعة الفخار فى بلدنا .

(٣) قبل عام ١٩٣٩ طبع مؤلف عن مدينة الزَّهراء لبيلاثكيث بوسكو و بحثان عن الحفريات . بيلاثكيث بوسكو ج ر " مدينة الزُهراء و ألميريا " مدريد ١٩١٢ . نفس المصدر حفريات بمدينة الزُهراء (قرطبة) مذكرات عما تمَّ اكتشافه فى هذه الحفريات J.S.E.A بحث رقم ٥٤ مدريد ١٩٢٣ ، خيمينيث رويث كاسيخوان ايرنانديث ، حفريات فى مدينة الزُهراء (قرطبة) مذكرات بالأعمال التى قامت بها اللجنة المنتدبة المشرفة على الحفريات J.S.E.A بحث رقم ٨٥ مدريد ١٩٢٦ .

(٤) جوميث مورينو ، م . مدينة إلبيرا ، غرناطة ١٨٨٨ .

(٥) ميرخلينا - ث - دى . بوباسترو ، مذكرات عن الحفريات التى تمت فى ميساس دى بيبا بيردى ، الشرُو (مالقة) J.S.E.A بحث رقم ٨٩ مدريد ١٩٢٧ .

(٦) ميليدا غ. ر (مدينة سالم) بحث عن الحفريات التى تمت فى ١٩٢٤ - ٢٥ J.S.E.A بحث رقم ٨٢ مدريد ١٩٢٦ .

(٧) يشير على وجه التحديد إلى الخزف الإسبانى الذى قام مانويل جوميث مورينو قام بطباعته مؤخراً (برشلونة عام ١٩٣٣) .

(٨) جوميث مورينو ، م. الخزف الإسبانى فى العصور الوسطى ، برشلونة عام ١٩٢٤ .

(٩) هنا سنتذكر تقارير استيبى جيريرو عن (خيريث) استيبى جيريرو ، م. حفريات أستاريخيا فى A.E.A العدد ١٥ مدريد ١٩٤٢ ، نفس المصدر حفريات استاريخيا (ميساس دى استاريخيا خيريث) حملة عام ١٩٤٥ - ١٩٤٦ المأمورية العامة للحفريات الأثرية . تقارير وبحث رقم ٢٢ مدريد ١٩٥٠ . نفس المصدر اكتشاف جديد للخزف العربى فى ميساس دى استاريخيا (خيريث) فى الأندلس العدد ١٥ ، ١٩٦٠) وكذلك ليوبيس وف. ماتيو عن الخزف فى فالينثيا (ماتيو وليوبيس .ف اكتشافات خزفية فى فالينثيا مجلة الأندلس العدد ١٥ ، ١٩٥١) أوتشورينا والخزف فى ألميريا (أوتشتورينا .ف. الخزف العربى فى بتشينا ألميريا فى M.M.A.P العدد ١٤ ، ١٩٥٣) دراسة كاسامار عن بقايا قلعة الأنهار (كاسامار .م الخزف الإسلامى فى القلعة القديمة ، الأندلس ، العدد الثالث و العشرين ١٩٥٨) تقارير جييرمو روسيو عن القطع

الخزفية التى ظهرت فى جزيرة مايوركا (روسيو بوردوى .ج. اكتشافات خزفية فى مدرسة مونتسيون (بالما دى مايوركا) فى مجلة الأندلس العدد التاسع و العشرين ١٩٦٤ ، رسيو و آخرون قناديل إسلامية أُكتُشِفَت فى مايوركا ، مايوركا ١٩٦٩ ، روسيو بوردوى .ج. تجربة لتصنيف الخزف العربى فى مايوركا ، بالما دى مايوركا ، ١٩٧٨ (كارياثو حول الخزف فى أشبيلية (كارياثوج - أخدود أو خندق فى أرض أشبيلية فى كُراسات الحمراء ١٩٧٤ - ١٩٧٥) أو باسيليو بابون عن الخزف فى تالابيرا (بابون مالدونادو .ب. الخزف الإسلامى فى تالابيرا دى لا رينا طليطلة فى القنطرة العدد الأول مدريد ١٩٨٠) أو طليطلة (بابون مادونادو . ب الفن الإسلامى و الأندلس الإسلامى فى طليطلة ، مجلة القنطرة ، العدد الثانى ، مدريد ١٩٨١ .

(١٠) جوميث مورينو ، م. الفن العربى الإسلامى حتى الموحدين ، الفن الإسبانى ، الجزء الثالث مدريد ، ١٩٥١

(١١) كاسوس كثورلا ، ى. الخزف الإسبانى فى العصور الوسطى مدريد ١٩٤٣ .

(١٢) جونثاليث مارتى ، م. خزف الشرق الإسبانى ، القرون الوسطى مدريد ، برشلونة ١٩٤٤ - ١٩٥٢ .

(١٣) لوبيا .ل، م. الخزف الإسبانى فى العصور الوسطى ، برشلونة ، ١٩٧٣ .

(١٤) بابون مادونادو ، ملحوظات عن الخزف الإسبانى الإسلامى فى مجلة الأندلس ، العدد الثانى والعشرين ، ١٩٧٢ .

(١٥) فرنانديث سوتيلو. أى ، الخزف الإسلامى الإسبانى بمتحف الآثار فى سبته ، سبته ١٩٧٧

(١٦) روسيو بوردوى ، ج. تجربة لتصنيف الخزف العربى فى مايوركا بالما دى مايوركا ، ١٩٧٨ .

(١٧) ثوثايا ، خ. الخزف الإسبانى و تصنيفها إلى أنماط . و كذلك الخزف فى عصر الخلافة و أنماطه . كلاهما فى مجلة الخزف فى العصور الوسطى بمنطقة البحر المتوسط الغربية ، العدد الخامس و العشرين ، فالبون عام ١٩٧٨ ص ٢٦٥ و التالية لها . انظر أيضًا مؤلفه عن الخزف الأندلسى فى كتابه " الخزف الإسبانى المزخرف " برشلونة ، ١٩٨١ .

(١٨) باثانا ، أ. الخزف فى العصور الوسطى ، الأدوات المنزلية ذات الاستخدام الشائع فى ميلانجيس كاسا بيلاثيليث ، ١٥ ، باريس ، ١٩٧٩ ، و أيضًا لنفس المؤلف " الخزف فى العصور الوسطى فى ميلانجيس كاسا بيلاثيليث ، ١٦ ، باريس ، ١٩٨٠ باثانا وآخرون ، الخزف الإسلامى فى مدينة فالينثيا (١) فالينثيا ، ١٩٨٣ .

(١٩) أجوادو بيالبا ، خ. الخزف الإسبانى الإسلامى فى طليطلة ، مجلة المجلس الأعلى للبحث العلمى ، مدريد ، ١٩٨٣ .

(٢٠) يويرتاس تريكاس ، ر. الخزف الإسلامى الأخضر و البنفسجى فى القصبة بمالقة . كراسات الحمراء ، ٢١ ، غرناطة ، ١٩٨٥ .

(٢١) نابارُّو بلاثون ، خ. الخزف الإسلامى فى مورثيا - مورثيا ١٩٨٦.

(٢٢) ايجواراس ، غ. خزف إلبيرا فى M.M.A.P 1945 ص ٧٣ و التالية لها .

(٢٣) لا نعرف عن يقين فى أى حالة تم العثور على هذه القطع . ففى الصفحات التقديمية لمانويل جوميث مورينو (المصدر المذكور آنفًا ١٩٨٨) تسمح لنا افتراض أنّ عمل المحترفين اختلط بعمل الهواة والعمال الذين كانوا يبحثون عن بعض المكاسب . ويخبرنا جوميث مورينو نفسه ... نأسف لأنّ الحفريات لم تتم بشكل منتظم ولو تمّ ذلك لتمكننا من الحصول على الثمرة المرجوة الضرورية لتاريخ الفن والآثار والمعتاد تحصيلها من جرّاء هذا النوع من الأعمال ولتمكننا أيضًا من دراسة المدينة التى كانت فى حضن سلسلة الجبال المسمّاة إلبيرا وشكل و توزيع و أهمية مبانيها . فالعمل بالطريقة التى ذكرناها أدى إلى اختفاء الكثير من المعلومات بالغة الأهمية لأن هدف الحفريات كان فى المقام الأول العثور على أشياء لتحقيق مكاسب منها أو للاستفادة من مواد الجدران و الأسمنت وقد تضمن التقرير المعد عنها بأنّ هذه المواد قد تهشمت و اندثرت .

(٢٤) لقد ظلت هناك ما يزيد على مائة عام . و مصيرها فى المستقبل هو متحف الفن الإسلامى الإسبانى بالحمراء .

(٢٥) جوميث مورينو ، المصدر السالف ذكره (١٨٨٨).

(٢٦) نُعدُ اختياراً لنفس المراجع و المصادر.

(أ) كتب الملك عبد الله فى القرن الحادى عشر تاريخ أسرته (القرن الحادى عشر مع ضمير المتكلم . مذكرات عبد الله آخر ملك لغرناطة الذى أطاح به الموحدون من عرش غرناطة . ترجمة ليفى بروفينثال وايميليو جارثيا جوميث . (مدريد ١٩٨٠) والتى فيها يصف مدينة إلبيرا الواقعة فى سهل من السهول ويقطنها أناس لا يطيق بعضهم البعض الآخر ويضيف أيضًا كيف أنّ المدينة قد هجرها أهلها ولجأوا إلى غرناطة .

(ب) وفى النصف الثانى من القرن الحادى عشر كتب أيضًا أبو عُبَد البكرى فى مؤلفه جغرافية إسبانيا (كتاب المسالك و الممالك ترجمة اليسيو بيدال بيلتران ، سرقسطة ١٩٨٢ يحدد لنا موقع مدينة إلبيرا داخل المنطقة السادسة فى الجنوب) التى كانت عاصمتها أشبيلية .

(ج) أبو عبد الله محمد الإدريسى بعد ذلك فى القرن الثانى عشر فى مؤلفه " تسلية من يريد التجوال فى العالم " هناك وصف لأفريقيا وإسبانيا للإدريسى ليدين ١٨٦٦ يقول لنا فيه أيضًا أنّ عاصمة المحافظة كانت مدينة إلبيرا حتى هاجر أهلها إلى غرناطة .

(د) الخطيب (أنظر دوزى .ر مظاهر من الأدب الإسبانى فى العصور الوسطى - أمستردام ، ١٩٥٥ يحدثنا فيه عن الشهرة والإزدهار اللذين تمتعت بهما مدينة إلبيرا وقد أسهب فى وصف مسجدها .

(٢٧) سنُعدُّ قائمة لهم :

(أ) أحمد الرازى فى النصف الأول من القرن العاشر (ليفى برفينثال . وصف إسبانيا للرازى فى مجلة الأندلس ١٩٥٣ ص ٥١ والتالية لها) يقول لنا إنّ كاستيا هى عاصمة حى إلبيرا وإنْ كان قد أكد فيما بعد بأن ما بين قرطبة وإلبيرا حوالى ٦٠ ميلاً .

(ب) ابن حيّان ، تاريخ الخليفة عبد الرحمن الثالث الناصر بين السنوات ٩١٢ ، ٩٤٢ – المقتبس ، الجزء الخامس ، ترجمة دى بيجيرا كورينتى ، سرقسطة ، ١٩٨١) ويذكر أيضًا أنَّ كاستيا هى عاصمة إلبيرا .

(ج) ياقوت (أنظر جمال عبد الكريم ، الأندلس فى مجمع البلدان لياقوت ، أشبيلية ، ١٩٧٢) الذى بأنَّ المدن الرئيسية لمحافظة إلبيرا كانت غرناطة وكاستيا . وهذه المشكلة الخاصة بالازدواجية بين كاستيا و إلبيرا لها حل بسيط إذا فكرنا بأنَّ الأولى كانت تسمية مدينة قبل أنْ تصبح عاصمة ، تسمية ظلت تتلاشى شيئًا فشيئًا لصالح الثانية – اسم المحافظة نفسها – اعتباراً من عصر الخلافة . وفى وصف الرازى نجد التسميتين لمرفة مكان واحد .

(٢٨) سيمونيت ف.خ. وصف لملكة غرناطة طبقًا للمؤلفين العرب ، غرناطة ، ١٩٦٢ .

(٢٩) هذه البقايا الأثرية المعروفة قديمًا تم تصنيفها بواسطة مانويل جوميث مورينو فى مؤلفه آثار رومانية وقوطية غربية فى غرناطة . غرناطة ، ١٩٨٣ .

(٣٠) من المحتمل أنْ يكون الهمارى (النصف الثانى للقرن الخامس عشر الذى ترك لنا الملحوظة الكبيرة أو الوصف الكبير عن المدينة (مدينة إلبيرا) فى كتاب الروض المعطر (ترجمة م . ب . مايسترو فالينثيا ١٩٦٣) حيث قام بتجميع وتلخيص أخبار سابقة . ويقول لنا إنْ عبد الرحمن الأوَّل هو الذى أسسها وكانت بين أجمل العواصم وأنبل المدن بالأندلس ومسجدها – يواصل قائلاً – أسسه أنس الصفانى وتم ترميمها بأمر من عبد الرحمن الثانى وبين فضوليات المنطقة أنه كان بضواحى المدينة (مدينة إلبيرا) تمثال حصان منحوت من حجر صلب . الهمارى يذكر لنا الشخصيات الشهيرة من أبناء هذه المدينة .

(٣١) وتوجد هذه الآثار حاليًا بمتحف الآثار بغرناطة وقد تمَّ جردها بواسطة مانويل جوميث مورينو (المصدر السابق ذكره ١٨٨٨) و قد ضمَّنها ملاحظة خوالينا ايجواراس عن اكتشافات مدينة إلبيرا عام ١٩٤٦ و ذلك فى تقارير المتاحف الأثرية الإقليمية . و تتناول بصفة خاصة الآثار البرونزية و التى يبرز من بينها أجزاء من خمسة مصابيح كبيرة – مكونة من أسطوانة مسطوحة أفقية مُفرَّغة تُعلَق بواسطة ثلاث سلاسل أو جنازير – وقنديل أو مصباح هائل ذات قاعدة متعددة الزوايا وقنديل ذو ثقب طويل . كما جمعت أيضاً أجزاء أعمدة من الأحجار و أجزاء من زخارف حائطية على الخزف والزجاج وبعض العملات .

(٣٢) روسيو بوردوى ، ج. المصدر السالف الذِّكر (١٩٧٨) ص ١٥ والتاليات لها .

(٣٣) استيفى جيريرو ، م. المصدر سالف الذِّكر (١٩٦٠) ص ٢٠٠ والتالية لها.

(٣٤) بابون مالدونادو ، ب. ملحوظات على الخزف الإسلامى فى نيبلا ، مجلة القنطرة ١٩٨٠ ، ص ٤٠٧ .

(٣٥) بابون مالدونادو ، ب. المصدر سالف الذِّكر(تالابيرا ١٩٨٠) ص ٤٠٢ .

(٣٦) دى لوس سانتو خينير ، س. مشتريات المتحف الآثار بقرطبة ، مجلة M.M.A.P 1948 - 1949 الشكل ٢٧.

(٣٧) المؤلفات عن الخزف بالمستودع القرطبى الغنى تركَّزت بصفة أساسية فى دراسة الموضوعات الزخرفية وهى خالية من الجدولة النمطية أو من التقسيم النمطى النسبى من حيث الشكل . وهناك تقسيم

نمطى أو تصنيف نمطى أُعدَّ بشكل مُقتضب بواسطة كامبوس (كامبوس كاثورلا) أى الخزف و الزجاج فى عصـر الخلافة بمدينة الزَّهراء (قرطبة) و كذلك فى مقتنيات المتحف الوطنى للآثار ١٩٤٠ - ١٩٤٥ مدريد ١٩٤٥ شكل (٧).

(٣٨) دودا ، د. الخزف الإسبانى الإسلامى فى ألميريا ، الجزء الثانى عشر ، مكرر ، ١٥ جابوندرت ، هامبورج ١٩٧٠ صورة (١).

(٣٩) أجوادو .خ. المصدر المذكور آنفًا (١٩٨٣) صورة (٢).

(٤٠) بويرتاس ، ر. المصدر السالف الذّكر (١٩٨٥) شكل (١).

(٤١) ناباروُ ، خ. المصدرالسالف الذكر (١٩٨٦) رقم (٣١٢ - ٣١٥ - ٣٢٠).

(٤٢) بوثانا ، أ. المصدرالسالف الذكر (١٩٨٣) رقم (١٥ / ١٦ / ١٨ / ٢٠ / ٢١).

(٤٣) ثوثايا ، خ . المصدرالسالف الذكر(١٩٧٨) ص ٢٦٥ و التاليات لها .

(٤٤) وهذه الوفرة أو الكثرة تسمح لنا بالحديث عن التشابه والقرابة بين خزف مدينة الزُّهراء و مدينة إلبيرا / أنظر بيلاثكيث بوسكـو المصـدر السالـف الذّكر (١٩١٢) فى الصـورة (٤١) حيث تصور جانبين أو صورتين جانبيتين للطبق أو الصينية .

(٤٥) أوتستورينا .ف ، المصدر المذكور آنفًا (١٩٥٣) فى الشكل (٧٣) حيث ينشر صورة جانبية لطبق أو صينية مشابهة جدًا لما ندرسه حاليًا .

(٤٦) أجوادو .خ ، المصدر المذكور آنفًا (١٩٨٣) الصورة (٢) .

(٤٧) ناباروُ .خ ، المصدر السالف الذّكر (١٩٨٦) رقم (٣١٦ / ٣١٧ / ٣١٩ / ٣٢٢) .

(٤٨) بويرتاس .ر ، المصدر السالف الذّكر (١٩٨٥) شكل (٢) .

(٤٩) أجوادو .خ ، المصدر السالف الذّكر (١٩٨٣) صورة (٢) .

(٥٠) ناباروُ .خ ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٦) رقم (٣٢١).

(٥١) روسيو .خ ، المصدر المذكور آنفًا (١٩٧٨) ص (٦٣) .

(٥٢) روسيو .خ ، المصدر المذكور آنفًا (١٩٧٨) ص (٦٠) .

(٥٣) ناباروُ .خ ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٦) رقم (٦٨).

(٥٤) باثانا .أ ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٣) شكل (١٢) .

(٥٥) روسيو .خ ، المصدر المذكور آنفًا (١٩٧٨) ص (٥٨) نمط (أ) .

(٥٦) كامبوس . أى ، المصدر سالف الذّكر (١٩٤٥) ص ١٤٩ (٢٤) .

(٥٧) ناباروُ .خ ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٦) رقم (٤٤٠ و التاليات لها) ترجع للقرن الثالث عشر .

(٥٨) انظر باثانا .أ ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٣) صورة (٨) .

(٥٩) جوميث مورينو . م ، المصدر المذكور آنفًا (١٨٨٨) صورة (١٣) .

(٦٠) روسيـو .خ ، المصدر المذكور آنفًا (١٩٧٨) شكل (٤ ، ٨) إبريقنا ذو الشُخب الضيق و الذى صُنِّفَ بواسطته كقارورة أو قنينة .

(٦١) بيلاثكيث بوسكو .ر ، المصدر المذكور آنفًا (١٩١٢) صورة (٣٩) .

(٦٢) دى لوس سانتوس . س ، الخزف الإسلامى المزخرف فى مجلة MM.AP، ١٩٧٤ ص ٤٦ والتاليات لها .

(٦٣) كامبوس . أى ، المصدر السابق ذكره ، (١٩٤٥) ص (١٤٩) (٥ ، ٦) .

(٦٤) جوميث مورينو مانويل . المصدر السابق ذكره ، (١٩٥١) الصور رقم (٣٧٦ / ٣٧٧ / ٣٧٨) .

(٦٥) ثوثايا . خ ، المصدر سالف الذكر (١٩٨١) الشكل ص (٤١) .

(٦٦) دودا .د ،. المصدر سالف الذكر (١٩٧٠) الشكل (١) صورة (١٠ ، ١٥) .

(٦٧) ناباروُ .خ ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٦) رقم (٦٣ ، ٦٤ ، ٣٣٧) .

(٦٨) يوبيا ، ل . م . ، المصدر الذى سلف ذكره (١٩٧٣) شكل (١٩) ووفقًا لما يؤكد أنّها واردة من مدينة إلبيرا بينما مانويل جوميث مورينو على العكس من ذلك يدرجها فى قطع مدينة الزُهراء (المصدر المذكور آنفًا ١٩٥١) .

(٦٩) جيبيرروسيو ، المصدر سابق ذكره (١٩٧٨) يدرجها بين الأباريق أو الجرُات على الرغم من أنّها مزودة ببزبوز مخروطى . و القطع المايوركية تختلف بشكل ملحوظ عن الغرناطية .

(٧٠) ناباروُ .خ ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٦) رقم (٣٤٦) .

(٧١) باثانا .أ ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٣) شكل (٢٤) .

(٧٢) ثوثايا . خ ، المصدر سالف الذكر (١٩٨١) الشكل ٩ (ب) .

(٧٣) استيبى . م . ، المصدر سالف الذكر (١٩٥٠) صورة (٢٨) .

(٧٤) كارياثو . خ . ، المصدر المذكور سلفًا (١٩٧٤) .

(٧٥) روسيو . ج . ، المصدر سالف الذكر (١٩٦٤) .

(٧٦) جوميث مورينو. م . ، المصدر المذكور سلفًا (١٩٥١) شكل (٣٧٦) .

(٧٧) بابون . ب . ، المصدر الذى سبق ذكره (نيبلا ١٩٨٠) ملحوظة (٨) شكل (٨).

(٧٨) دودا .د ،. المصدر سالف الذكر (١٩٧٠) الشكل (٢) .

(٧٩) فرنانديث . أي . ، االمصدر المذكور آنفًا (١٩٧٧) شكل (١ ، ٢) .

(٨٠) أجوابو .خ ، المصدر السالف الذكر (١٩٨٣) صورة (٣) .

(٨١) ناباروُ .خ ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٦) رقم (٦٦ ، ٤٩٣ و أُخَر) .

(٨٢) باثانا .أ ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٣) شكل (٩، ١٥ ، ٢٥) .

(٨٣) بيلاثكيث بوسكو .ر ، المصدر المذكور آنفًا (١٩١٢) يبرز فنجانًا مشابهًا سالف الذكر ، (١٩٤٥) يعيد إنتاج فنجان به إضافة في الشكل ٧ (٢٠) .

(٨٤) انظر دودا .د ، المصدر الذي تقدم ذكره (١٩٧٠) صورة (٢) التي تكون نموذجًا آخر لفنجان من عصر المرابطين - الموحدين .

(٨٥) بوثانا . م ، (١٩٨٣) شكل (٨) .

(٨٦) ناباروُ .خ ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٦) رقم (٣٤٧) .

(٨٧) ثوثايا . خ ، المصدر سالف الذكر (١٩٧٨) ص (٢٧٧) .

(٨٨) روسيو . ج . ، المصدر سالف الذكر (١٩٧٨) ص (٦٦) و التاليات لها شكل (١٥) .

(٨٩) يوبيا ، ل . م . ، المصدر الذي سلف ذكره (١٩٧٣) شكل (٥١) - ص ٤٤ .

(٩٠) دودا .د .، المصدر سالف الذكر (١٩٧٠) الشكل (٣ ، ٤) صورة ,١٦ .

(٩١) ناباروُ .خ ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٦) رقم (١ ، ٢ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣) .

(٩٢) انظر على سبيل المثال الصورة رقم (٥٧ ، ٧٢) ، يوبيا (المصدر المذكور سلفًا) (١٩٧٣) .

(٩٣) انظر كاستيخون مارتينيث دي أريثالا ، حفريات الخطة الوطنية لمدينة الزُهراء (قرطبة) حملة ١٩٤٣ في التقارير و المذكرات رقم ٨ المأمورية العامة للحفريات الأثرية ، مدريد ، ١٩٤٥ صورة ١٦ .

(٩٤) روسيو . ج . ، المصدر سالف الذكر (١٩٧٨) شكل (٥ أ) .

(٩٥) انظر جوميث مورينو . م ، المصدر المذكور أنفًا (١٩٥١) شكل (٣٧٧ / ٣٧٨) أ- انظر أيضًا بايون .ب. ، المصدر المذكور سلفًا عام (١٩٧٢) شكل (١٨) .

(٩٦) بوثانا . م ، (١٩٨٦) المصدر سالف الذكر ، شكل (١١) .

(٩٧) جولفين .ل. ، الخزف في العصر الحمودي (قلعة بني حمود) الجزائر في الخزف في العصور الوسطى في منطقة غرب البحر المتوسط العدد (٢٥) باليون ١٩٧٨ ص ٢٠٣ و التاليات لها شكل (٤) .

(٩٨) روسيو . ج . ، المصدر سالف الذكر (١٩٧٨) ص ٧٢ و التاليات لها . انظر نمطه أ في الشكل (١٧) .

(٩٩) يوبيا ، ل . م . ، المصدر الذي سلف ذكره (١٩٧٣) شكل (١١) - ص ٣٥.

(١٠٠) كامبوس . أى ، المصدر السابق ذكره ، (١٩٤٥) ص (١٤٩) شكل (٧ ، ٣٨) .

(١٠١) باثانا .أ ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٣) شكل (١٣) .

(١٠٢) دودا .د .، المصدر سالف الذكر (١٩٧٠) ٢ ج ، ٤ ب .

(١٠٣) روسيو و أخرون ، المصدر الذى سبق ذكره ، (١٩٦٠) انظر أيضًا روسيو . ج . ، المصدر سالف الذكر (١٩٧٨) ص ٤٨ والتاليات لها ، الأنماط شكل (١٠) .

(١٠٤) انظر بيلانكيث . بوسكو .ر. ، المصدر سالف الذكر (١٩١٢) صورة ٣٩ وانظر أيضًا ثوثايا . غ ، المصدر سالف الذكر (١٩٨١) ص (٤٢) .

(١٠٥) بابون . ب . ، المصدر الذى سبق ذكره (نيبلا ١٩٨٠) شكل (٨) .

(١٠٦) أوتستورينا .ف ، المصدر المذكور آنفًا (١٩٥٣) ، شكل (٧٤) .

(١٠٧) أنظر يوبيا ، خ . م . ، المصدر الذى سلف ذكره (١٩٧٣) أشكال (٤٧ ، ٤٨) وأيضًا بويرتاس .ر ، المصدر السالف الذكر (١٩٨٥) .

(١٠٨) فرنانديث . أى . ، االمصدر المذكور آنفًا (١٩٧٧) أشكال (٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١) .

(١٠٩) ميليدا غ. ر، المصدر المذكور سلفًا (١٩٢٦) صورة (٥) .

(١١٠) انظر أجوادو .خ ، المصدر السالف الذكر (١٩٨٣) .

(١١١) ناباررُو .خ ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٦) ولنذكر استشهادًا خاصًا للقنديل ذى الثقوب الثلاثة – رقم ٦٧١ من التصنيف – الذى عُثِرَ عليه فى محافظة مورثيا وهو يشابه قنديلنا .

(١١٢) انظر روسيو . ج . ، المصدر سالف الذكر (١٩٧٨) .

(١١٣) ميليدا غ. ر، المصدر المذكور سلفًا (١٩٢٦) صورة (٥) .

(١١٤) دودا .د .، المصدر سالف الذكر (١٩٧٠) صورة (٢٧ أ ، ب) .

(١١٥) باثانا .أ ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٣) شكل (٢٣) .

(١١٦) انظر نابارُّو .خ ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٦) قطع واردة من مورثيا ولوركا رقم التصنيف (٣٥٣ / ٥٦٣ / ٢٥٧) .

(١١٧) روسيو . ج . ، المصدر سالف الذكر (١٩٧٨) شكل ٧٨ (١) .

(١١٨) أجوادو .خ ، المصدر السالف الذكر (١٩٨٣) .

(١١٩) باثانا .أ ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٣) شكل (٥٠) .

(١٢٠) نابارُّو .خ ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٦) .

(١٢١) سنقتصر على الاستشهاد ببعض الدراسات الهامة التى أجريت فى هذا الصدد وعلى أيَّة حال فإنَّ تصنيفًا نمطيًا كاملاً و علميًا حديثًا لا زال فى حيز الإعداد . وسنذكر جوميث مورينو. م . ، المصدر المذكور سلفًا (١٩٢٤) وجونثاليث مارتى .م. ، المصدر المتقدم ذكره (١٩٤٤) يوبيا ، ل . م . ، المصدر الذى تسلف ذكره (١٩٧٣) روسيو . ج . ، المصدر سالف الذّكر (١٩٧٨) ثوثايا . خ ، المصدر سالف الذّكر (١٩٨١) أجوادو .خ ، المصدر السالف الذّكر (١٩٨٣) باثانا .أ ، المصدر السابق ذكره (١٩٧٩ - ١٩٨٠) .

(١٢٢) افتقار عام فى الخزف الإسبانى الإسلامى حتى انتشار طرق وضع الأختام فى العصر الذى تلى الخلافة مباشرة .

(١٢٣) ظهرت فى مدينة الزُّهراء عدة قطع أو أجزاء التى يظهر عليها هذا النمط من الزُّخرفة البيضاء (دون طلاء زجاجى) على اللون القاتم للطين أو الفخار . والقطع التى أعاد إنتاجها جوميث مورينو .م. المصدر السالف الذّكر (١٩٥١) ويوبيا ، خ . م . ، المصدر الذى سلف ذكره (١٩٧٣) بابون . ب . ، المصدر الذى سبق ذكره (١٩٦٧) وصامويل دي لوس سانتوس ، المصدر سالف الذّكر (١٩٤٧) تبرز زخرفة تملأ كل القطعة وهى زخرفة متعددة العناصر الزُّخرفية - بما فى ذلك الموضوعات التى تشبه الحيوان - رسم درجات خمرية و قائمة على لون الطين الفاتح ليس أمرًا شائعًا أو مألوفًا إبَّان عصر الخلافة ويجب الإنتظار حتى القرنين الحادى عشر و الثّانى عشر لمعرفة تعميمه وقمة إزدهاره ، مالقة ، بالما دى يوركا ، ألميريا ومورثيا .

(١٢٤) العثور على خزف مطلى بالزجاج متجانسة اللون كان شائعًا فى المستودعات الإسبانية الإسلامية وجدير بالذّكر أنَّ هذا الموضوع قد دخل الأندلس فى أثناء الإمارة أو الخلافة القرطبية و لم تغادر صناعة الفخار أو الخزف شبة جزيرة أيبيريا . وهكذا ظهرت قطع مطلية بالزُّجاج فى ميساس دى بيا بيردى (أنظر ثوثايا . خ ، المصدر سالف الذّكر (١٩٨١) ص (٣٩) ، قرطبة ، انظر يوبيا ، خ . م . ، المصدر الذى سلف ذكره (١٩٧٣) شكل (٢٥) مدينة الزُّهراء ، انظر جوميث مورينو. م . ، المصدر المذكور سلفًا (١٩٥١) شكل (٣٧٦) . الكالا لابيخا (القلعة القديمة) أنظر بابون . ب . ، المصدر الذى سبق ذكره (١٩٨١) شكل (٣٩٨) ، بيشينا ، انظر أوتستورينا .ف ، المصدر المذكور أنفًا (١٩٥٣) الشكلين (٦٨ ، ٦٩ إلخ ...).

(١٢٥) ومن المحتمل أن تكون الزُّخرفة باللون الأخضر والبُنّى المقترنين بالطبقة الزُّجاجية العسلية اللون هى تقليد لهذا النوع من الزخارف على أرضية بيضاء التى تظهر فى القطع و النماذج عالية الجودة و عمومًا فإنَّه من الصعب إيجاد تشابه لهذا النوع من البقع القاتمة اللون أسفل الطبقة الزجاجية . لقد وجدنا شيئًا مماثلاً بين بقايا نيبلا (أنظر كاسامار المصدر المذكور سلفًا (١٩٥٨) ص (٤٠٦ - ٤٠٧) مدينة سالم (انظر ميليدا غ. ر. المصدر المذكور سلفًا (١٩٢٦) ص ١٦) سبتة (انظر فرنانديث . أى . ، االمصدر المذكور أنفًا (١٩٧٧) شكل ٢) طليطلة (أنظر أجوادو .خ ، المصدر السالف الذّكر (١٩٨٣)) مورثيا (أنظر نابارُو .خ ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٦) فالينثيا (انظر باثانا .أ ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٣) .

(١٢٦) و أيضًا يتعذر علينا فى هذا الفصل إيجاد تشابهات أوجه شبه ربما لغيبة المطبوعات فى هذا الشأن أكثر من الافتقار إلى نموذج أو نمط حقيقى لهذه الزُّخرفة بين الأوانى المنزلية يوبيا (المصدر المذكور أنفًا (١٩٧٣) شكل ٢٥) حيث يعيد إنتاج آنية قادمة من بوياسترو بنفس المبادئ أو العناصر الزخرفية و أيضا يوبيا (المصدر المذكور أنفًا (١٩٧٣) شكل ٧٣) حيث يُعزى إلى عصر الطوائف آنية أخرى مُزجَّجة بزخرفة مُحززة أو ذات حزوز . و الأجزاء المطلية بالزُّجاج بزخرفة إضافية ظهرت فى تالابيرا دى لايينا (انظر بابون . ب . ، المصدر الذى سبق ذكره (١٩٨٠) ص ٤٠٢) فى طليطلة (انظر بابون . ب . ، المصدر الذى سبق ذكره

(١٩٨١) شكل (٣) وقد عُرِفَ ذلك عن طريق الختم و هو أمر مألوف جداً في الخزف الإسباني الإسلامي اعتباراً من القرنين الحادى عشر والثانى عشر .

(١٢٧) اعتبر مانويل جوميث مورينو المصدر البيزنطي المحتمل للتقنية الزخرفية على أرضية بيضاء وأنّ عناصر هذه الزخرفة شرقية (انظر جوميث مورينو . م الحجر الذهبى دى مالقة فى مجلة الأندلس (١٩٤٠) ص (٣٨٦) نفس هذا الأصل والطراز المرجّح لدخول مثل هذا النوع منصوص عليه فى كتاب خوان ثوبويا (المصدر المذكور سلفًا ١٩٨١ ص ٣٨) لقد أصرّ بابون مالدونادو أيضًا على المنشأ الشرقي لمثل هذه العناصر التى تصاحب التقنية (انظر بابون . ب . ، المصدر الذى سبق ذكره (١٩٧٢) ص ١٩٥) .

(١٢٨) هذا وقد ظهر هذا النوع من الخزف في أماكن عديدة و سنستشهد بتلك النماذج فى مدينة إلبيرا (أنظر جوميث مورينو. م . ، المصدر المذكور سلفًا (١٩٨٥)) مدينة الزهراء (أنظر بيلانكيث . بوسكو .ر. ، المصدر سالف الذكر (١٩١٢) ، انظر أيضًا أسيبى أنظر المصدر المذكور آنفًا (١٩٥٠)) القلعة القديمة (كاسامار ١٩٥٨)

تالابيرا دى لارينا (انظر بابون . ب . ، المصدر الذى سبق ذكره (١٩٨١) طليطلة (انظر أجوادو .خ ، المصدر السالف الذكر (١٩٨٣)) بيتسينا (أنظر أوتشتورينا المصدر المذكور سلفًا ١٩٥٣) سبته (أنظر فرنانديث سوتيلو المصدر المذكور آنفًا ١٩٧٧) مايوركا (أنظر روسيو . ج . ، المصدر سالف الذكر (١٩٧٨) مالقة (أنظر بويرتاس .ر ، المصدر السالف الذكر (١٩٨٥)) مورثيا (أنظر نابارّو .خ ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٦) فالينثيا (انظر باثانا .أ ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٣) .

(١٢٩) إنّها معروفة جيداً خاصة تلك القطع التى خرجت من مصانع فخار باترنا

(١٣٠) وغيبة الزخرفة هذه على أرضية بيضاء يمكن البرهنة عليها أو من المرجّح بين بقايا و آثارمدينة الزهراء وأنّها متصلة بصفة خاصة بالقطع ذات الأحجام الصغيرة (انظر فى هذا الصدد بيلانكيث . بوسكو . ر. ، المصدر سالف الذكر (١٩١٢) ص ٧٧ صورة ٤٨ وانظر أيضًا كامبوس كاثورلا ، المصدر السابق ذكره (١٩٤٥) ص ١٥١ .

(١٣١) الباحث الوحيد الذي لاحظ استخدام اللون الأصفر فى الزخرفة الخضراء / البنفسجية كان خوان ثوثويا (المصدر سالف الذكر ١٩٨١ ص ٣٩) ولا زالت هذه القطع الرائعة تحتاج إلى دراسة أكثر تكاملاً و أكثر منهجية وهى تنتسب إلى عصر الخلافة وكذلك تقنياتها الرائعة .

(١٣٢) كاسامار ، المصدر سالف الذكر (١٩٥٨) ص (٤٠٦ / ٤٠٧) .

(١٣٣) مارثايس .ج. ، القطع الخزفية بقلعة بنى حمود القرن الحادى عشر ١٩١٣ .

(١٣٤) أجوادو .خ ، المصدر السالف الذكر (١٩٨٣) انظر الصورة رقم ١٢ أ .

(١٣٥) يوبيا (المصدر المذكور آنفًا (١٩٧٣) . يعيد إنتاج في الشكل ٨٥ قارورة من ألميريا مطلية بالزجاج ز مزخرفة بشُخب غامقة أو قاتمة ذات الأصل المالقى و هى الزجاجات التى درسها إيميليو فرنانديث سوتيلو (انظر المصدر سالف الذكر ١٩٧٧) الذى يوجد فى متحف الآثار بسبته و هى مزخرفة بنفس الشكل وبعناصر زخرفية متشابهة . انظر أيضًا لفالينثيا كتالوج أو تصنيف باثانا (المصدر سالف الذكر ١٩٨٣) .

(١٣٦) ثوثايا . غ ، المصدر سالف الذكر (١٩٨١) صورة رقم (٤٢) .

(١٣٧) ثوثايا . غ ، المصدر سالف الذكر (١٩٨١) صورة رقم (٤٢) .

(١٣٨) بابون . ب . ، المصدر الذى سبق ذكره (١٩٧٢) شكل (١٧) .

(١٣٩) بابون . ب . ، المصدر الذى سبق ذكره (نيبلا ١٩٨٠) شكل (٦ ، ٧) .

(١٤٠) بابون . ب . ، المصدر الذى سبق ذكره (١٩٧٢) أشكال (٣ ، ١١ ، ١٧) . انظر بيلانكيث . بوسكو .ر. ، المصدر سالف الذكر (١٩١٢) صورة (٤٢) .

(١٤١) كاسامار ، المصدر سالف الذكر (١٩٥٨) شكل (٢) .

(١٤٢) انظر باثانا .أ. ، (المصدر سالف الذكر ١٩٨٣) شكل (٣١) .

(١٤٣) بابون . ب . ، المصدر الذى سبق ذكره (١٩٧٢) شكل (٨) .

(١٤٤) جوميث مورينو. م . ، المصدر المذكور سلفًا (١٩٥١) ص (٣١٦) .

(١٤٥) بيلانكيث . بوسكو .ر. ، المصدر سالف الذكر (١٩١٢) صورة (٤٢) .

(١٤٦) مير خيلينا . ب. ، المصدر المذكو آنفًا (١٩٢٧) صورة (٣٣) ٣ و (٣٤) ٣٠ .

(١٤٧) بابون . ب . ، المصدر الذى سبق ذكره (١٩٦٧) صورة (١٦) .

(١٤٨) مارثا يس .ج. ، المصدر المذكور آنفًا (١٩١٣) صورة ١٢(١١) ، ٢٣(٤).

(١٤٩) فى مدينة الزهراء انظر ثوثايا . خ ، المصدر سالف الذكر (١٩٨١) صور صفحة (٤٢) و التاليات لها . أيضًا انظر بابون . ب . ، المصدر الذى سبق ذكره (١٩٧٢) و جوميث مورينو. م . ، المصدر المذكور سلفًا (١٩٥١) لصور متعددة نيبلا انظر بابون . ب . ، المصدر الذى سبق ذكره (نيبلا ١٩٨٠) شكل (٧) ، لفالينثيا انظر باثانا .أ ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٣) الشكلين (٢٦ ، ٢٧) .

(١٥٠) بابون . ب . ، المصدر الذى سبق ذكره (١٩٧٢) شكل (٥) .

(١٥١) موضوع مشابه وجدناه فى جزء من الأجزاء بمدينة سالم (انظر ميليدا غ. ر، المصدر المذكور سلفًا (١٩٢٦) صورة (٦) (٥) و كذلك فى فالينثيا (انظر باثانا .أ ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٣) الشكل (٢٩).

(١٥٢) جوميث مورينو .م. ، المصدر سالف الذكر ، (١٩٥١) ص (٣١٧) .

(١٥٣) ميرخيلينات . دى . ، المصدر المذكور آنفًا ، (١٩٢٧) شكل (٥٣) (٤) .

(١٥٤) ميليدا خ. ل . ، المصدر سالف الذكر ١٩٢٦ ، صورة (٦) (٦) .

(١٥٥) ظهرت فى ميساس دى أستا (انظر استيبى .م. ، المصدر المذكور آنفًا ١٩٥٠ ، صورة(٢٧) (٢) والقارورة رقم (٢٨) و كذلك فى طليطلة (انظر أجوادو .خ ، المصدر السالف الذكر (١٩٨٣) صورة (١٤) (أ) فى مالقة (انظر بوير تاس .ر . ، المصدر ١٩٨٥ صور ٢) وفى مورثيا (انظر نافارو .خ ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٦) رقم ٣٢٠ ، ٣٢١) .

(١٥٦) فالينثيا (انظر باثانا .أ ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٣) الشكل (٣٠) .

(١٥٧) انظر بابون . ب . ، المصدر الذى سبق ذكره (١٩٧٢) شكل (٥) و أيضًا انظر بيلانكيث . بوسكو .ر. ، المصدر سالف الذكر (١٩١٢) صورة (٤٠) و الأشكال ٢١ ، ٤٤ ، وظهر الموضوع أيضًا فى خزف ألميريا (انظر دودا .د .، المصدر سالف الذكر (١٩٧٠) صورة (٤ أ) فى قلعة بنى حمود انظر مارثا يس .ج. ، المصدر المذكور أنفًا (١٩١٣) صورة ١٦ (٢) .

(١٥٨) أنظر بيلانكيث . بوسكو .ر. ، المصدر سالف الذكر (١٩١٢) شكل (٢١) وأيضًا بابون . ب . ، المصدر الذى سبق ذكره (١٩٧٢) صورة (١٢).

(١٥٩) انظر بيلانكيث . بوسكو .ر. ، المصدر سالف الذكر (١٩١٢) صورة (٤٢) و أيضًا بابون . ب . ، المصدر الذى سبق ذكره (١٩٧٢) شكل (٣ ، ٥).

(١٦٠) ميرخيلينات. دى . ، المصدر المذكور أنفًا ، (١٩٢٧) شكل (٣٣)(١) .

(١٦١) أنظر أجوادو .خ ، المصدر السالف الذكر (١٩٨٣) صورة (١٤ ب) .

(١٦٢) نابارُو .خ ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٦) رقم ٣١٣) .

(١٦٣) بويرتاس ، ر. المصدر السالف الذكر (١٩٨٥) شكل (١٠) .

(١٦٤) انظر باثانا .أ ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٣) الشكل (٣٢) .

(١٦٥) انظر جوميث مورينو. م . ، المصدر المذكور سلفًا (١٩٥١) أشكال رقم (٣٧٧ / ٣٧٨ / ٣٧٩) . وأيضًا بابون . ب . ، المصدر الذى سبق ذكره (١٩٧٢) شكل (١٥ ، ١٦) وصورة رقم ١٠ ، ١١) ١٦٦ .

(١٦٦) لقد تعرفنا على هذا الموضوع فى جزء نُشِرَ بواسطة بابون مالدونا دو .ب١٩٧٢, شكل ,١٧

(١٦٧) بابون مالدونا دو .ب١٩٧٢, ، " الفن الإسبانى الإسلامى فى زخرفته النباتية "، مدريد ١٩٨١ انظر الجداول ١ ، ٢ ، ٣ ، ص ٢١ والتاليات لها للربط بين الموضوع وعناصر الزخرفة المعمارية انظر بابون . ب . ، المصدر الذى سبق ذكره (١٩٧٢) صورة (١٢) وإيجواراس ايبانيث المصدر الذى تقدم ذكره (١٩٤٦) شكل (٧).

(١٦٨) للبحث عن أوجه شبه بين خزف مدينة الزهراء أنظر بابون . ب . ، المصدر الذى سبق ذكره (١٩٧٢) صورة (٩) شكل ١١ ، ١٤ ، ١٧ . وايضًا بيلانكيث . بوسكو .ر. ، المصدر سالف الذكر (١٩١٢) صورة (١٢) ، شكل ٢٩ . و توجد مظاهر التشابه هذه فى خزف ألميريا (أنظر دودا .د .، المصدر سالف الذكر (١٩٧٠) أشكال (٥ ، ٦) صورة ١ ، ٤ ، ٦) و القطع التى عُثِرَ عليها فى سبته (سوتيلو .إى .، المصدر المذكور أنفًا (١٩٧٨) شكل ٦) فى مايوركا (روسيو .ج. ، المصدر سالف الذكر ١٩٧٨ الأشكال ٦٠ ، ٦٧ ، ٦٨) فى فالينثيا (أنظر باثانا .أ ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٣) الشكل (٣٢) و فى قلعة بنى حمود (انظر مارثايس .ج. ، (١٩١٣) صورة (١٦ ، ٢٢) .

(١٦٩) مدينة الزهراء (انظر بابون . ب . ، المصدر الذى سبق ذكره (١٩٧٨) شكل (٩ ، ١١ ، ١٢)) انظر أيضًا هذا الموضوع بين نماذج مايوركا (روسيو .ج. ، المصدر سالف الذكر ١٩٧٨ الأشكال ٥٦ ، ٥٩ والواردة من قلعة بنى حمود (انظر مارثايس ، المصدر الذى تقدم ذكره ، (١٩١٣) صورة ١٦ ، ٢٢) .

(١٧٠) انظر بابون . ب . ، المصدر الذى سبق ذكره (١٩٧٢) الجدول (٦) ص ٤٥ ، ٤٧ و قد ظهر نفس الموضوع فى قلعة بنى حمود (انظر مارثايس ، المصدر الذى تقدم ذكره ، (١٩١٣) صورة ١٩) . كما وجدنا عناصر مشابهة بين قطع بوماسترو (انظر ميرخيلينات. دى . ، المصدر المذكور آنفًا ، (١٩٢٧) شكلى (٣٣، ٣٤) .

(١٧١) هذه العناصر المبسطة المكوّنة من خطوط متعرجة يخرج منها أفرع وأغصان صغيرة وأوراق صغيرة وقد وجدنا هذا النوع من الزّخرفة شائعًا فى الزّخرفة المعمارية وفى خزف عصر الخلافة .

(١٧٢) بيلانكيث . بوسكو .ر. ، المصدر سالف الذّكر (١٩١٢) ، شكل (٤٥).

(١٧٣) فى المؤلفات ذات الموضوع الواحد عن مدينة إلبيرا و كذلك الكتيبات التى ظهرت فيها قطع من هذا المستودع حيث أعيد إنتاج الطبق أو الصينية المرسوم عليه حصانًاوكذلك شكل صائد الصقور أو القارورة الشهيرة التى عليها أرانب برية . و قد طُبِعَت الرسوم الأولى بواسطة مانويل جوميث مورينو (المصدر سالف الذّكر ، ١٩٨٨) كما أنّ نجله قد أسهم بالصور الأولى للجزء الخاص بالفن الإسلامى للزّخرفة " مجلة لابور " . كامبوس كاثورلا (المصدر المذكور ١٩٤٣) خواكين إيجواراس (المصدر الذى تقدم ذكره ١٩٤٥) وكذلك مانويل جوميث مورينو نفسه (المصدر سالف الذّكر ١٩٥١ و ل . م . يوبيا المصدر المتقدم ذكره ١٩٧٣ أعيد طبع بعض الرسومات أو الصور للقطع المذكورة .

(١٧٤) جوميث مورينو. م . ، المصدر المذكور سلفًا (١٩٥١) شكل (٣٧٤).

(١٧٥) انظر بويرتاس ، ر. المصدر السالف الذّكر (١٩٨٥) شكل (٦).

(١٧٦) بابون مالدونا دو. ، المصدر المذكور سلفًا (١٩٧٢) ص ٢١٥ و التاليات لها ، درس هذه الموضوعات التى ظهرت فى عمل أو مؤلف بيلانكيث بوسكو المصدر سالف الذّكر ١٩١٢ .كاستيخون المصدر المتقدم ذكره ، ١٩٤٥ ، صامويل دى لوس سانتوس المصدر الذى ذكر آنفًا ١٩٤٨ ، كامبوس كاثورلا المصدر سالف الذّكر ، جوميث مورينو المصدر سالف الذّكر ١٩٥١ إلخ ..... .

(١٧٧) جمعها بابون مالدونادو (العمل سالف الذّكر ١٩٧٢ شكل ٢٥ ، ٢٦) و قد عُرِفَ بكونه كظباء صغيرة و إن كانت أجسادهم تشبه إلى حد كبير أرانبنا البرية .

(١٧٨) جوميث مورينو. م . ، المصدر المذكور سلفًا (١٩٥١) شكل (٣٧٨).

(١٧٩) روسيو . ج . ، المصدر المتقدم ذكره ، ١٩٧٨ شكل ٤٨ .

(١٨٠) لقد أعيد إنتاجه جيدًا فى مؤلف ثوثايا .خ . المصدر سالف الذّكر ١٩٨١ ص ٤٥ على سبيل المثال .

(١٨١) انظر أجوادو .خ ، المصدر السالف الذّكر (١٩٨٣) صورة (١٨) .

(١٨٢) انظر بويرتاس ، ر. المصدر السالف الذّكر (١٩٨٥) صورة (١).

(١٨٣) باثانا .م. ، المصدر الذى تقدم ذكره (١٩٨٣) شكلى ٣٥ ، ٣٦ .

(١٨٤) انظر مارثايس ، المصدر المذكور آنفًا ١٩١٣ صورة ١٧ ، ١٨ .

(١٨٥) بابون . ب . ، المصدر الذى سبق ذكره (١٩٧٢) ص ٢١٥ و التاليات لها .

(١٨٦) انظر على سبيل المثال الصورة الكائنة بكتاب سكابيزى المصدر المذكور آنفًا (١٩٦٦) .

(١٨٧) أفضل تركيبة عن موضوعات نفسية أو كتابية بقرطبة تم تنفيذها بواسطة بابون مالدونادو (المصدر الذى تقدم ذكره ١٩٧٢ ص ١٩٦ و التاليات لها و أيضًا فى بلاتكيث بوسكو المصدر المتقدم الذُكر ١٩١٢ ص ٧٠ ، ٧١ صورة (٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٣) ، كاستيخون ، المصدر السابق الذُكر ١٩٤٥ صورة ١٧ جوميث مورينو المصدر السابق الذُكر ١٩٥١ شكل ٣٨٠ فى مدينة الزَّهراء ويتم التحقق من موضوع الملك (الإمبراطورية) دون أن يكون له مقابل فى مدينة إلبيرا . لقد وجدنا بعض أوجه الشبه بين بعض الأطباق أوالصوانى فى كلا المستودعين التى يبرز فيها وجود حليات عريضة مسطوحة بداخلها التى تجول بداخل هذه القطع ولنبدأ بقطعنا أو بأجزائنا رقم (١٢٨١ ، ٢٣١٧) بالرسومات الكائنة فى شكل ٦ أو بالعمل المذكور آنفًا لباسيليو بابون .

(١٨٨) ظهرت أيضًا أجزاء لزخرفة نقشية أو كتابية فى مدينة سالم (أنظر ميليدا خ . ل . ، المصدر سالف الذُكر ، ١٩٢٦ صورة ٦ ، ٧ ، ٨) و أوتشتورينا م. ، المصدر المذكور سلفًا ، ١٩٥٣ ص ٣٣١ ، مايوركا (روسيو . ج . ، المصدر المتقدم ذكره ، ١٩٧٨ شكل ٤٢) ميساس دى أستا (أنظر استير جيرييرو ، المصدر سابق الذُكر ، ١٩٦٠) بيشينا (انظر أجوادو .خ ، المصدر السالف الذُكر (١٩٨٣) صورة (١٥أ) مورثيا (انظر نابارو .خ ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٦) رقم ٣١٤ ، ٣٢٣) ، مالقة (انظر بويرتاس ، ر. المصدر السالف الذُكر (١٩٨٥) صورة (٣). فالينثيا (انظر باثانا .م. ، المصدر الذى تقدَّم ذكره (١٩٨٣) شكلى ٣٣ ، ٣٤ و للخزف بشمال أفريقيا فى الموضوعات المتشابهة انظر ماثايس ، المصدر المذكور آنفًا ١٩١٣ صورة ١٥ ولم يظهر فى أيَّة حالة من الأحوال السَّابقة برنامج زخرفى معقد مثل تلك البرامج بعاصمة الخلافة .

(١٨٩) بابون مالدونادو .ب. ، المصدر سالف الذُكر ، صفحة ١٩٦ والتاليات لها . و نعتقد أنَّ هذا التَّصنيف قد أُعد بشكل متسرع ودون تنظيم على الرُّغم من المساعدة القيمة التى قدَّمها للدراسات اللاحقة له .

(١٩٠) روسيو . ج . ، المصدر المتقدم ذكره ، ١٩٧٨ صفحة ١٠٠ والتاليات لها .

(١٩١) بابون . ب . ، المصدر الذى سبق ذكره (١٩٧٨) ص ١٩٦ والتاليات لها .

الفصل الثّانى عشر

القصائد والحياة فى القرن الثّالث
وفقًا للتّمثيل الأيقونى
الملابس وأطقم الجوهرات والتّزين والتّبرج

إعداد : جونثال ومينديث بيدال ، وكارمن بيرنيس

الأقمشــة :

كان الغزل والنسج خلال القرن الثالث عشر الميلادى من الأعمال المنزلية ؛ فقد كان الغزل عملاً مقصوراً على النساء فقط ، وكان يتم بشكل فردى [١] أو فى جماعة، وبما أنه لا وجود للرجال فى المغازل فإنّ القوانين كانت تسمح بشهادة النِّساء .

أمّا النّسيج حتى عندما كان يتم فى المنازل كان من الشّائع تكليف رجال محترفين بعمله ، فالنّسّاجون الذين كانت لديهم ورش كان من الشّائع أن يقوم العملاء بتقديم الخيوط إلى النّسّاجين ، وكان النّسّاجون ينسجون وفقًا للقوانين الفنية المنصوص عليها فى هذا الشأن ، وكان النّسّاجون يسلّمون القماش مصبوغًا ومُلبّدًا ومُمَشّطًا ومَقْصُوصًا [٢] ، وكان تشطيب القماش أو النّسيج يتم فى طواحين خاصة بالأقمشة حيث كانت العجلات الهيدروليكية (المائية) تقوم بالعمل الذى كان يقوم به العبيد والموالى منذ القِدَمْ [٣] ، ولكن الملبدين وكذلك القصّاصين كانوا خاضعين للنُّساج الذى كان بدوره مسئولاً أمام صاحب القماش مسئولية تامة .

كان القماش لا يُسلَّم فقط مصبوغًا ومُلَبَّدًا ومقصوصًا بل جافًا أيضًا كما جاء بالنصوص ؛ لأن وزنه إلى جانب سقط الخياطة أو الحياكة والقصاصة يجب أن يكون مساويًا لوزن الخيط المُسلَّم آنفًا (٤) ، وكان يُشترط ألا يتم استخدام مشطٍ من الحديد لتسريح أو لفرد وتمشيط الصوف (٥).

ويتحدث التشريع أيضًا عن أقمشة تنسج فى المنزل(٦) ويجب أن نضع فى الاعتبار أن مثل هذه الأقمشة كانت بسيطة مثل الكتان أو القنب أو القطن إلخ... ، حيث كان النَّسَّاج يأتى إلى المنزل ودائمًا كانت لا تحتاج إلى معالجات إضافية أو لاحقة ، ولكن كانت مصانع النسيج كثيرة ومتعددة حتى إن التشريع تدخل لحماية الأهالى والجيران من ضوضاء النَّسَّاجين (٧).

وفيما يبدو ويتضح مما تقدم أنَّ الغزل كان يتم بالمنازل وكان بعض نسج القطن أو الكتان أو القنب يتم أيضًا بالمنازل بينما كانت الأقمشة بأنواعها وأشكالها المختلفة كانت تُصنع وتلبَّد وتُقص وتُمشَّط أو تُفرد فى ورش خاصة ، ومن بين أقمشة الصوف الشائعة نجد " البيكوتى "، وهو قماش خشن غليظ من وبر الماعز .وهناك أنواع أُخرى من الأقمشة كانت تأخذ تسميتها من مكان تصنيعها ولكن فى كثير من الأحيان هذه التسمية كانت تشير فقط إلى النوعية الفنية وهكذا كانت هناك الأقمشة المصنوعة فى شيقوبيا نفسها(٨) ، أمَّا الرجال والسيدات الذين يرغبون فى ارتداء الملابس الفاخرة كانوا يشترون أقمشة أُخرى ، فيقال عن ماريا المصرية أنها لم ترتد قط ملابس صوفية إبَّان سنوات إنهماكها فى الخلاعة والملذات (٩) .

وبعد هذه المنوَّعات النسيجية الشائعة نصل إلى الفاخر منها غالية الثمن القادمة من الأراضى القاصية والتى يهتم بها جباة الضرائب .

فالأقمشة الصغيرة أو المصغرة التى تنتمى إلى القرن الثالث عشر توضح لنا أنَّ العمال والرعاة إلخ ... كانوا يرتدون الملابس غير المصبوغة (١٠) ، أمَّا التجار ورجال الدين والفرسان فكانوا يرتدون الملابس ذات الألوان المتنوعة وكان بعض هؤلاء إلى جانب الملوك يرتدون الملابس المزركشة بالذهب والفضة ، كما كانت بعض الملابس تُطرز ومنها على سبيل المثال : القمصان وكذلك وسادات السراير كانت مطرزة أيضًا (١١) ،

وكانت أقمشة الستائر فخمة [١٢] مزينة فى أغلب الأحيان بزخارف وكتابات أو نقوش إسلامية [١٣] ، ويمكننا الحديث بنفس الصورة عن مفارش السراير المطرزة أيضًا والمزينة بالنقوش العربية [١٤].

وجدير بالذكر أنَّ الملابس الملكية كانت مزركشة بصورة رائعة[١٥] ، أما الأقمشة الهائلة والرائعة فكانت تُخصص للمحراب [١٦] عليها صور حيوانات شرقية فى حالة مواجهة بينها وكذلك رسوم ونقوشات عربية [١٧] ، وكان من الشائع أن تقدم مثل هذه الأقمشة الفاخرة كقربان أو عطايا أو هبات من جانب المتعبدين [١٨] .

ومما تجدر الإشارة إليه هنا هو أن الأقمشة الفاخرة كانت مستوردة أو من غنائم الحرب [١٩] ؛ حيث إن أكبر مركز لتجارة الأقمشة فى شبه الجزيرة الأيبيرية كان فى أيدى المسلمين : فمن الميريا كانت ترد الأقمشة الجميلة مثل السقلاطون (نوع من القماش قديمًا كان يستخدم للحلة أو الرداء) والسِّتائر[٢٠] ، وكذلك الأقمشة المزخرفة بمربعات تشبه مستطيل الشَّطرنج [٢١] .

الخيَّاطون :

إنَّ الحُلَلَ والملابس كانت تُشْتَرى جاهزة من السوق أو المولد [٢٢] ، أو كان يتم تكليف الخياطين بتفصيلها [٢٣] ، حيث كانت تُسَلَّمُ إليهم الأقمشة أو الجلود والبطانات لإعداد الملابس المطلوبة منهم [٢٤] .

وكان على الخياطين إعداد الثياب أى تفصيلها ورد ما تبقى من القماش أو الجلود إلى أصحابها وكانوا مسئولين مسئولية كاملة إذا اتلفوا القماش أو الجلود أو حتى إذا كان الثوب المُفَصَّل غير مريح أو به عيب .

أمَّا التطريز وحتى حياكة بعض الملابس ففيما يبدو كان من اختصاص السيدات ، فموجز تاريخ طروادة كان يصور لنا هرقل وهو يحكى بطولاته وملاحمه أمام يولانتى بينما كانت هى تقوم بتطريز الثياب مع وصيفاتها [٢٥] ، وفى القصائد الرعائية نجد أن السيدات كن يقمن بقص أو حياكة بلوتطريز القمصان [٢٦] .

الحُلّة المسيحية :

إنَّ النماذج المُصغرة لألفونسو العاشر تجاوزت الألف نموذج وتقدم لنا مادة فريدة للتعرف على الحُلّة القشتالية فى القرن الثالث عشر ، وهى تشهد على تنوعها وأصالتها وتوضح لنا طريقة الملبس لمختلف الفئات التى كان يتألف منها المجتمع آنذاك ، كما أنها تجعلنا نتعرف بصورة عملية على كافة الملابس المستخدمة فى ذلك الوقت .

فى ذلك القرن كان لأوروبا زيًا مشتركًا وخاصة فى غربها وقبل أن تظهر الحُلل القومية فى أوروبا بمائتى عام نجد أن قشتالة ألفونسو العاشر كان بها عدة أنواع وخواص عديدة ومتنوعة (وخاصة فى ملابس السيدات) لم توجد فى أية دولة أوروبية أخرى كيف يمكننا شرح هذه الملامح الأصلية ؟ بعضها كان استمرارًا لموضات سابقة ترجع إلى القرن العاشر وبعضها الآخر كان يرجع إلى العالم الإسلامى ، ففتح الأندلس والإقامة الطويلة والممتدة فى أشبيلية قد تركا أثرًا واضحًا فى المجتمع المسيحى وهناك البعض الذى كان من أصل قشتالى يرجع إلى القرن الثالث عشر .

فالفارق الإجتماعى بين الأفراد كان يتضح بطريقتين : إمَّا لنوع أو لشكل الملابس أو لنوعية الأقمشة والألوان والزخارف المستخدمة فيها .

التَّميز الاجتماعى بسبَّب الألوان والأقمشة والجلود والزَّركشات :

لقد كانت صناعة الأقمشة صناعة راقية كما أنَّ استخدام الحُلل ذات الألوان الزاهية كان من أهم سبل التميز ، وكانت قوانين الكساء قد حاولت دون جدوى تقليص استخدام الألوان ، ففى عام ١٢٢٨و١٢٦٧ كانت الملابس البيضاء المشربة بالحمرة والخضراء مُحرمة على رجال الدين (٢٧) .وفى عام ١٢٥٨ وافق بلاط الوليد على منع أى حامل للدروع أن يرتدى الملابس ذات اللون القرمزى ولا الأخضر ولا البنفسجى ولا البرتقالى ولا الوردى ولا الدموى ولا أى ثوب أو قماش مصبوغ (٢٨) ، وفى عام

١٢٣٨ حرَّم بلاط ابورجوس استخدام القماش المصبوغ الأحمر فى الثياب والعباءات على الرجال العاديين (العوام) (٢٩) ، وعلى العكس من ذلك تحتم على الفرسان الجدد ارتداء الملابس ذات الألوان الزاهية مثل البيضاء المشربة بحمرة والصفراء والخضراء والزرقاء الرصاصية لكى تضفى عليهم مزيداً من البهجة (٣٠) وتشهد قصيدة اليكساندرى على هذه الثياب ذات الألوان الزاهية :

وكــان النَّــاس طيِّبــين والأســعار باهظــة

وكانوا يرتدون جميعهم الثِّياب ذات الألوان الزَّاهية (٣١)

وقد كان اللون القرمزى يحظى بأكبر تقدير نظراً لصعوبة صباغته ، ففى عام ١٢٣٤ أصدر خايمى الأول دى أراجون مرسوماً يحرم على أبناء الفوارس ارتداء الجوارب الطويلة أو السراويل الحمراء إلا إذا كان قائداً لمجموعة من القوات (٣٢) ، وكان بلاط بلد الوليد قد حرَّم فى عام ١٢٥٨ الجوارب الطويلة أو السراويل القرمزية اللون على كل من الكتَّاب أو الكتبة والقوَّاسين والحُجَّاب وصائدى الصقور والبوابين وحاملى الدروع وقد نص بلاط بلد الوليد على السماح للملك فقط بارتداء عباءة قرمزية اللون لوقايته من المطر (٣٣) .

وقد كان هناك تجديد فى الموضة الأوروبية خلال القرن الثالث عشر سبقتها الموضة الإسبانية فى عهد ألفونسو العاشر وهى الحُلل من لونين مناصفة (حُلَلٌ رجالى) (٣٤) وتشير إليها النصوص بأسماء الأقمشة أو الحُلل (٣٥) ، وقد سمح بها ألفونسو العاشر عام ١٢٥٢ (٣٦) ، ولكنها كانت محرمة على رجال الدين فى عام ١٢٢٨وفى ١٢٦٧(٣٧) .

وبصفة عامة فإنَّ استخدام الجلود لتبطين الملابس مثل جلود الخراف والأرانب البرية (٣٨) ، وفى الملابس الفاخرة كانت تستخدم جلود السمُّور والسنسار وثعلب الماء وسمُّور سيبريا والفاقم (٣٩) ، وقد سمح بلاط أشبيلية فى عام ١٢٥٢ للنساء بارتداء فرو أو جلد سمُّور سيبريا والقاقم فى الأجناب فقط أمَّا جلود السمور فكان يسمح بها للعرسان فقط .

وقد كان للزركشات دور هام ، وجدير بالذكر أن ملابس الأثرياء كانت تتميز بوضع زركشة عند فتحة الثوب العليا (عند الرقبة) وكذلك عند الأكمام أمَّا إذا كانت الحُلل مفتوحة من الجانب فقد كانت تُزين الفتحات الجانبية ، وإلى هذا الحُلل المزركشة بهذا الشكل يشير بيرثيو :

عنـــد طـرف النافـورة كـــان هنـــاك رجــــلان

وقد زركشت صدور حلتيهما والأكمام والرأس (٤٠)

وتشير النصوص إلى هذه الزخارف والزركشات طبقًا لخامتها من الذهب أو الفضة أو المادة المختلطة مثل ذهب يحتوى حديدًا (٤١) ، صحيفة النحاس الأصفر (٤٢) ، أو الفضة المحتوية حديدًا (٤٣) ، أو الحديد المحتوى فضة(٤٤) ، وقد كانت جميعها مُحرمة على كل النَّاس بإستثناء الملك ولكن مصغَّراتها تؤكد أنَّ هذا التحريم لم تكن له فاعلية .

كما أنَّ الزراير كانت عنصرًا هامًا للموضة الإسبانية فى القرن الثالث عشر . وكانت توضع عمومًا فى الجزء الأمامى من الثياب والحُلل ، وأحيانًا فى الجانبين ، وفى بعض الأحيان عند فتحات الأكمام (٤٥) .

و لم تفلح قوانين الملابس فى وقف استخدام الزراير ولا الذهب ولا الجلود الفاخرة ولا الملابس أو الأقمشة المصبوغة ، وعلى الرغم من العقوبات المفروضة (فى بلاط أشبيلية كان الخياط أو الخياطة يعاقب بقطع إبهام يده اليمنى إذا تمت إدانته) (٤٦) ، لقد أصبحت القوانين المناهضة للرفاهية بلا فاعلية فى القرن الثالث عشر كما كانت بالفعل فى كافة العصور السابقة .

حُلَلُ الرِّجال :

وتنقسم حُلل الرِّجال إلى ستة أصناف أو درجات كما تدل على ذلك مصغراتها . ففى الصنف الأوَّل تُدْرج كافة الملابس الداخلية ، أمَّا الصنف الثانى فكان يختص بالحُلل التى تُلبس مباشرة فوق هذه الملابس الداخلية وقد أُطلق عليها فى قشتالة اسم

سايا أى الثوب الطويل وتنُّورة فى مملكة أراجون ، أمَّا الملابس المُدرجة فى الصنف الثالث فكانت تُرْتَدى فوق ملابس الصنف الثانى وكانت أطول منها وأى شخص كان يرتدى الصنفين كان يطلق عليه لقب " جيد الملبس "ومثال لذلك القصيدة ١٨٥ ، ويحكى النص عندما كان قاضى شينكويا يخرج لملاقاة القاضى المسلم لبيليث فإنَّ رجاله كانوا لا يجسرون على مرافقته خوفًا من الخدعة ويحذرونه أنه كان مجرداً من السِّلاح ، وقد دلت مصغرات هذه الملابس على أنَّ القاضى المسيحى كان مرتديًا لحلة من الدرجة الثالثة فوق أُخرى كان لا يُرى منها سوى فتحة الأكمام .والاسم الوحيد الذى يمكن أن يكون له علاقة بهذه الحُلل كما ورد فى النصوص هو " بيوتى " .

أمَّا الصنف الرابع فكان يتكون من الحُلل الطويلة ذات الأكمام الواسعة ، وكان استخدامها محدود بين المسيحيين وكما كانت ثياب الصنف الثانى تسمح بأن تُرتدى فوق حُلل أُخرى فإنها كانت تسمح أى الصنف الرابع بارتداء ملابس تحتها .

وجدير بالذكر أنَّ الصفة العامة أو المشتركة التى تُمَيِّزُ بين ثياب الصنف الخامس والثالث أنها لم تكن ملابس تُرتدى على الجسد مباشرة ولكنها كانت ثيابًا كالمعاطف . وهى كالصنف الثالث تسمح بارتداء حلَّة واحدة فقط أمَّا الصنف الخامس فإنه يُسمح بارتدائه فوق حلَّتين ، وفى النصوص نجد اسمين يشيران إلى هذا الصنف " جارنتشو " بدلة القضاة والمحامين و" تابردو " وهى بدلة خدم الملوك .

وفى النهاية الصنف السادس وهو يتعلق بالمعاطف والعباءات والأغطية وهى تختلف عن القسم الخامس ؛ حيث إنَّها كانت تتكون من قطعة واحدة من القماش المقصوص على شكل مستطيل أو شبه دائرى أو دائرى بفتحات أو بدونها للرَّأس والذراعين وفى بعض الأحيان كانت تضم غطاءً للرأس ، وكان يُمثل جزءًا من العباءة ، ويندرج تحت هذا الصنف أيضًا المعطف المستدير .

وفى مصغرات هذه الأصناف تبدو هناك علاقة واضحة بين عدد من الأثواب التى يمكن أن يرتديها شخص ما وبين وسطه الاجتماعى ؛ فالملوك على سبيل المثال كانوا يرتدون جميع الأصناف الفخمة ، أمَّا الفرسان فإنَّهم فى منازلهم يرتدون العباءة فوق اثنين وحتى فوق ثلاثة ثياب ، وفى مخطوط التَّاريخ حيث يسهل التَّعرف على الوضع

الاجتماعي للأشخاص أكثر مما في مخطوطات ألفونسو العاشر حيث كان الناس يرتدون ثوباً واحداً فوق القميص من الطبقات الدنيا من الفنانين اليدويين (الحرفيين) والعمال والخدم وبعض حاملي السلاح .

وكثير من الثياب التي تميزت بها موضة ذلك القرن كانت ذات الاستخدام العام ، وكانت تختلف من أشخاص إلى آخرين طبقاً لفخامة القماش والزركشات ، وكان هناك مع ذلك بعض الثياب الخاصة لبعض الطبقات الاجتماعية المعينة ، فعلى سبيل المثال كان الملوك والأمراء والفرسان والرجال الأثرياء يرتدون بصفة عامة ثياباً مزركشة كما يتضح ذلك من مصغرات هذه الملابس وكان غطاء الرأس المميز هو الطويل على شكل أسطواني ، وقد كان الوحيدون الذين يشبهون الفرسان في زيهم هم الرواة أو المداحون ، وعلى الطرف الآخر من الوسط الاجتماعي نجد أن العمال والفلاحين والرعاة كانوا يرتدون بطريقة خاصة تميزهم عن غيرهم من أبناء الطبقات الأخرى حيث كانوا يرتدون عباءات من الصنف السادس .

الهوامش

(١) القصائد الرعائية ٦٨، ١٥٣، ٢٤٧ .

(٢) قانون كوينكا طبعة رفائيل دى أورينيا ، مدريد ، ١٩٣٥ ، ص ٨٠٣ ، قانون ترويل طبعة ماكس جوردتش ، استكهولم ، ١٩٥٠ ، ٧٥٩ ، قانون زوريتا ، طبعة رفائيل دى أورينيا ، مدريد ، ١٩١١ ، ٨٢٢ .

(٣) قانون ترويل ، ٣٥٣ .

(٤) قانون كوينكا ، ص ٨٠٣ ، قانون هيزناتوراف ، طبعة رفائيل دى أورينيا ، ص ٧٨١ ، المنشور مع قانون لوينكا .

(٥) قانون ترويل ، ٣٥٣ .

(٦) قانون ترويل ، ٣٥٣ ، قانون هيزناتوراف ، ص ٧٨١ .

(٧) قانون ترويل ، ٢٨٩ .

(٨) قانون خيريث ، ١٢٦٨ ، وليون وقشتالة ، الجزء الأول ، مدريد ، ١٨٦١ ، ص ٦٦ .

(٩) حياة القديسة ماريًا المصرية ، طبعة هـ . كنولت هايلى – ١٨٩٠ – ٢٣٥ .

(١٠) القصيدة رقم ١ – ١٤٧ ، ١٧٨ ، ٢٨٩ .

(١١) القصيدة رقم ١٧– ٤٢ ، ٢١٣ ، ٢٢٤ ، ٣١٢ .

(١٢) القصيدة رقم ٦٧ – ٨٠ ، ٨٤ ، ١٣٥ ، ٣١٢ .

(١٣) القصيدة رقم ٢٥ – هـ .

(١٤) القصيدة رقم ١١٩ ف .

(١٥) القصيدة رقم ١٠ ف ، ٢١ ث ، ٥٢ د ، ١٧٠ ف .

(١٦) القصيدة رقم ١٦٣ أى ، ف ، ٢٧٨ ب .

(١٧) القصيدة رقم ٦٩ أ .

(١٨) القصيدة رقم ٩٧ أ .

(١٩) القصيدة رقم ١٧٢ د .

(٢٠) القصيدة رقم ٤٦ ث .

(٢١) الحميرى (ابن عبد المنعم - كتاب الرثود ، طبعة ليفى بروفينسال - ليدين - ١٩٣٨ ، ص ٢٢٠ - ٢٢٣ .

(٢٢) قانون كوينكا ، ص ٢٧٩ .

(٢٣) قانون زوريتا ٨٢١ ، قانون ترويل ٧٥٨ .

(٢٤) قانون كوينكا ، ص ٨١٠ ، قانون زوريتا ، ٨٢١

(٢٥) ليو مارتى " موجز لتاريخ طروادة " طبعة رى ، مدريد ١٩٣٢ ص ١٤٤ .

(٢٦) القيدتان رقم ١١٧ بو١٤٨ ث .

(٢٧) مجمع بلد الوليد لعام ١٢٢٨ فى إسبانيا المقدسة ، الجزء السادس والثلاثين ، مدريد ١٧٨٧ ص ٢١٩ ومجمع ليخيون (العسكرى) لعام ١٢٦٧ فى إسبانيا المقدسة ، الجزء السادس والثلاثين ، ص ٢٢٩ .

(٢٨) بلاط بلد الوليد ١٢٥٨وفى بلاط قشتالة وليون ، الجزء الأول ، مدريد ، ١٨٦١ - ص ٥٩٠ .

(٢٩) بلاط بورجوس عام ١٣٣٨ ، وفى بلاط الممالك القديمة فى قشتالة وليون ، الجزء الأول - ص ٤٥٥ .

(٣٠) الجزء الثانى ، القانون الخامس (ألفونسو العاشر الأجزاء الثمانية طبعة الأكاديمية الملكية للتاريخ ١٨٠٧) .

(٣١) كتاب اليكساندرى - طبعة رايموندس ، ويليس خر برينستون - باريس ، ١٩٣٤ ، ١٣٣٨ (١٤٨٠) .

(٣٢) ماركة إسبانية ٥١٣ ، مذكورة بواسطة كلونارد " خطبة تاريخية عن الحُل الإسبانية " مذكرات أكاديمية التاريخ الملكية ، الجزء التاسع ، مدريد ١٨٧٩ ص ٩٦ .

(٣٣) بلاط بلد الوليد ١٢٥٨ ص ٥٧ ، ٥٩ .

(٣٤) أطقم ، ٦١ ر ، ٨٥ فى .

(٣٥) فى القرن الثالث عشر كان اسم القماش يطلق على الأنسجة أو المنسوجات متنوعة الأصناف وكذلك على الملابس التى تم تفصيلها .

(٣٦) بلاط أشبيلية عام ١٢٥٢ ص ١٢٥ .

(٣٧) مجمع بلد الوليد ١٢٢٨ ص ٢٢٠ والمجمع العسكرى ١٢٦٧ ص ٢٢٩ .

(٣٨) بلاط اشبيلية عام ١٢٥٢ ص ١٢٥ - ١٢٦ .

(٣٩) أمر خايمى الأول عام ١٢٣٤ المذكور فى كلوراند ، خطبة تاريخية ص ٨٦ ، بلاط بلد الوليد ١٢٥٨ ، ص ٥٧ .

(٤٠) بيرثيو " حياة القديس دومينجو دى سيلوس " طبعة فراى ألفونسو أندريس ، مدريد ١٩٥٨ .

(٤١) بلاط أشبيلية ١٢٢٥ ص ٦٨ ، الفونسو العاشر " تاريخ إسبانيا العام " طبعة رامون مينينديث بيدال ، مدريد ١٩٥٥ ، ٦٨٧ .

(٤٢) بلاط بلد الوليد ١٢٥٨ ص ٥٧,

(٤٣) التاريخ العام ٦٨٧ .

(٤٤) بلاط بلد الوليد ١٢٥٨ ص ٥٧,

(٤٥) لابيداريو ، الورقة ١ ، ١٦ ، الصفحة ١ القصيدة ٦٥ أ .

(٤٦) بلاط أشبيلية ١٢٥٢ ص ١٢٥ .

الفصل الثّالث عشر

المياه وتعمير الحمراء بغرناطة

إعداد : أنطونيو مالبيكاكويو

تُمَثِّلُ المياه الأهمية القصوى فى مدينة قصرية كالحمراء فى غرناطة ، واللغة الفنية التى تم التعبير بها أدت إلى إجراء فحص أثرى للمجموعة فى المقام الأوَّل وذلك بتقسيم المكان إلى وحدات للتعرف عليها ليس دائمًا على أساس وظيفتها أو مهمتها ، والدراسات الميدانية التى أُجريت فى هذا المجال لم تتجاوز مضمار قصر الحمراء أو على أقصى تقدير المنطقة التى تربط بين قصرين من تلك القصور كما يقول (بيرموديث باريخا ، ١٩٧٣) ·وفى العصور الأخيرة فقط بدأ يتبلور شرحٌ أو تفسير أخذ فى الاعتبار الواقع الطبيعى للأرض حيث بدأ بالإشارة إلى أنَّ المكان له مركز مدنى عامر بالحياة وفقًا لما يراه (بيرموديث لوبيث ، ١٩٨٧) ·وإن كان المفهوم السائد يتعلق بأثر هام تم تقسيمه ، كما فُهِمَ أيضًا أنَّهُ خلال السنوات الأخيرة كان من الضرورى إدراك ومعرفة النواحى الجمالية والرَّمزية التى انطوى عليها القصر أو مجموعة القصور وفقًا لما أرادته السلطة آنذاك وإيضاح ذلك فى مفهومه الشامل استناداً إلى ما يراه (بويرتا ، ١٩٨٧) .

واستناداً إلى النَّظرية السَّائدة حتى وقتنا الحاضر كان من العسير أن يتعدى مفهوم المياه كونها عنصراً منظماً وأساسياً للمكان ، أمَّا طبيعته أو خاصيته الإنتاجية لم تظهر واضحة كما أنَّ تقنيات توصيل المياه إلى المكان وتوزيعها بمختلف أرجائه

لم يتم الإفصاح عنها أو بمعنى أدق لم يتم التعرف عليها ، وتلاحظ المياه وكأنها أمر مصطنع فى كلِّ أنحاء الحمراء له دور جوهرى فى هندسته المعمارية الْفَذَّة ، ولكنه لم يُعْرَف شئ عن هذا العنصر الحيوى (المياه) سوى أنها قادمة من نهر الدَّارُّو بواسطة ناعورة الملك أو السلطان .

وقد كان محمد الأوَّل أول عاهل من الأسرة النَّصرية الملكية هو الذى قام بتوصيل المياه من نهر الدَّارُّو إلى المدينة الجديدة التى كان قد شرع فى إنشائها وتأسيسها ، ولم تدع النصوص مجالاً للشك فى هذا الشأن ؛ ففى أحد هذه النصوص لمؤلف مجهول الهوية يُقْرَأ ما يلى : " صعد فى هذا العام عبد الله بن الأحمر من مدينة غرناطة إلى المكان المُسَمَّى بالحمراء وقام بفحصه بتؤدة ورويِّة ، وقد حدد أساسات القلعة ثم أولى بالمهمة إلى من يقوم بالإشراف على تنفيذها ، ولم ينقضِ ذلك العام إلا وقد انتهى تشييد أسوارها ، وبعد ذلك قام بتوصيل المياه إليها من نهر الدَّارُّو ، وأقام ناعورة خاصة لهذا الغرض طبقًا لما أورده (هويسى ، ١٩١٧ : ١٧٣) " .

وفى نص آخر لابن إدارى فى " بيان الموحدين " جاء فيه ما يلى : " انتقل عبد الله بن الأحمر من غرناطة إلى المكان الذى يطلق عليه اسم الحمراء حيث قام بفحصه كله وحدَّد أساسات القلعة ، وقد عيَّن من يقوم بالإشراف على حفر هذه الأساسات ولم ينته ذلك العام إلا وقد ارتفعت التحصينات الدفاعية بالمنطقة ، وقد قام عبد الله بتوصيل المياه إلى القلعة من نهر الدَّارُّو حيث أنشأ خزَّانًا وحفر ساقية خاصة لهذا الغرض (هويسى ، ١٩٥٤ : ١٢٥) .

وهناك نصٌ ثالثٌ ذكره ابن خلدون إلا أنَّه لم يضف شيئًا جديداً إلى النَّصين سالفى الذكر طبقًا لما أورده (جاود فيردى – ديموميينيس ، ١٨٩٨ : ٣١٩ ، ٣٢٢ – ٣٢٣) .

ومن هذه النُّصوص نخرج ببعض الاستنتاجات ، ونبرز على وجه الخصوص أنَّ العاهل النَّصرى أراد تأسيس أو إقامة مدينة تضم العديد من القصور ، ولذلك فقد قام بإنشاء الأسوار حول موقعها ، وهى بالتالى منذ الوهلة الأولى مدينة دفاعية نظراً لاستحكاماتها وحصونها المنيعة ، كما أنَّ الملك النَّصرى قام بنقل المياه من نهر الدَّارُّو

إلى المدينة التى شُيِّدت بالتَّل الأحمر وذلك من خلال خزان بالقرب من النهر الأمر الذى يخفف من فكرة كون المدينة دفاعية من الدرجة الأولى ، ويبدو أنَّ الهدف الرئيسى للعاهل النَّصرى هو إنشاء مدينة حديثة فى كل شئ ، وهناك صورتان واضحتان تكمنان فى رغبة السلطة السياسية فى تأسيس مدن جديدة وذلك من خلال تحويل منطقة طبيعية إلى منطقة متحضرة عامرة بالحياة المستقرة .

وتجدر الإشارة هنا إلى أنَّ السلطة السياسية تُقيم المدن لكى تبرز هذه السلطة (أسبين ، ١٩٨٧) ، وإبَّان العصر الإسلامى الأوَّل كان التأسيس يتم بعيداً عن المراكز العمرانية الموجودة آنذاك ولكن اعتباراً من القرن الحادى عشر ساد الاتجاه بإنشاء هذه المدن الجديدة إلى جوار القديمة فى كل من الأندلس والمغرب ، كما يجب أن نبرز أيضًا أنَّ عملية إقامة المدن تعنى تغيير أو تعديل الطبيعة وغزوها من جانب المدينة ، ولهذا السبب نفسه نجد أنَّ المدن التى تأسست فى واقع الأمر تمثل المجموعة الجغرافية لمنطقة أكثر اتساعًا ، وذلك بتعايش العناصر العمرانية الراقية مع العناصر الطبيعية فى حالة أو وضع شبه وحشى أو متوحش .

وبالنِّسبة للحمراء فإنَّ هذه المزايا والخصائص موجودة برُمَّتها وبجلاء تام خاصة إذا فحصنا – وهذا هو مقصدنا – موضوع تزويدها بالمياه وكيفية استخدامه فى هذه المدينة القصرية ، وبهذا يمكننا أن نأخذ فكرة تامة لما نريد قوله أو لما نعنيه .

والمصادر المكتوبة وإنْ كانت غير مستمرة ويصعب التجانس والتنسيق بينها فيما يتعلق بقيمتها يمكن أن تكون نقطة بداية كما رأينا فى النصوص السالفة الذكر حول التأسيس الأوَّل لمدينة الحمراء ، وقد أوضحت لنا أن المكان لم يكن خاليًا ولكن كانت له مهام واستخدامات تختلف عما سيكون عليه بعد ذلك فى عصر النَّصريين . وأوَّل إشغال للمكان وعلى وجه التَّحديد للتل الأحمر تعلق بما فعله سوَّار بن حمدون خلال القرن التاسع الميلادى حيث حصَّن للعرب الحمراء ووادى أشمونتيشا وبسطا ولاكورا فى جيان ، وهذا النص الذى يشير إلى ذلك مأخوذ من الإحاطة ويقول ما يلى : لقد كان سوَّار بن حمدون هو أوَّل من حصَّن مدينة الحمراء لعرب الفحص (ابن الخطيب ، ١٩٥٥ – ١٩٧٨ ، الجزء الرابع ، ص ٢٧٠) .

وفى أثناء التمرد الذى حدث فى ذلك التاريخ ضد الدولة الإسلامية المترامية الأطراف والتى تزايد نفوذها قام عربى من مدينة إلبيرا المجاورة المذكور سوَّر بتشييد بنية دفاعية وليست مدينة ، وكان هذا التحصين الدفاعى منطقى ؛ لأن المكان كان يقع فى أعلى مروج غرناطة (الفحص) وبالتالى يتمتع بإمكانية الإشراف والتحكم فى الأراضى المجاورة له وهو أفضل بكثير فى هذا الشأن من مدينة إلبيرا ، ويمكن إدراك أن الأشغال التى أُقيمت كانت بكل بساطة تشييد حصن أو استحكام ، ومع ذلك فإنَّ النص قد أخبرنا عن هذا الواقع ؛ حيث إنه حتى عصرنا الحاضر فإن العمليات والتحليلات الأثرية التى أُجريت فى الحمراء وعلى الأقل التى علمنا بها لم تسمح بالتعرف على عناصر أُخرى فى تواريخ سابقة على العالم النَّصرى .

وعمومًا فمن الواضح أنه يجب أن يتركز الحصن الدفاعى فى الجزء القريب جداً؛ حيث توجد القلعة .وقد وُجد هذا الحصن فى القرن الحادى عشر الميلادى استناداً إلى ما جاء فى نص آخر يرجع إلى هذا التاريخ ، وهناك إشارات متنوعة حيث يُقرأ فى إحداها " لقد كانت الهوة تتسع بين اليهودى وبقية الشعب ولقد كان الاضطراب فى تزايد مستمر ، وبعد أن تملك الخوف اليهودى بالمنطقة انتقل بسرعة إلى القلعة انتظاراً لتنفيذ مشروعاته ولكن الناس استاءت من ذلك ومن الذى شيد قلعة الحمراء أيضاً حيث اعتاد اليهودى أن يتحصن هناك هو وأسرته وخاصة عندما دخل المدينة ابن صمادح وذلك حتى تستقر الأمور وتهدأ الأحوال ويعود الأمن والأمان (ليفى بروفينسال وايميليو جارثيا جوميث ، ١٩٨٠ ، ١٣١ - ١٣٢) .و فى إشارة أُخرى تقول : عندما أمرت بتشييد السور المجاور للحمراء نظراً للأحداث البارزة أسعدنا الحظ عندما عثر البنَّاؤن على إناء من الفخار مملوء بالذهب وهم يحفرون الأساسات ، وقد تم إبلاغى بهذا النبأ فوجدت فى الإناء ثلاثة آلاف مثقال جعفرى الأمر الذى زادنى غبطة و سروراً وملأ قلبى فرحة وكان بمثابة فأل حسن مكننى من تنفيذ مشروعاتى (هكذا سَخِرَ العالم منَّا كما سَخِرَ من أجدادنا وأسلافنا من قبل) . وقلت فى نفسى : " لقد خرج من حفر الأساسات ما يعين على التشييد والبناء " ، وبما أن بيت اليهودى كان قد أقيم فى زمن سالف فوق هذه الأساسات ، والذى كان يدعى أبو ربيع أمين خزانة

جدى (رحمة الله) فقد أدركت أن هذه الثروة كان قد دفنها اليهودى (ليفى بروفينسال وجارثيا جوميث ١٩٨٠ ، ١٢٩ - ١٣٠).

ومن البديهى أن يقال شيئان : أولهما : إن الحمراء ستكون قلعة حيث لن تتوقف أعمال التشييد والبناء والتحصينات طوال العهد الزيرى طوال القرن الحادى عشر الميلادى .وثانيهما : يتعلق ببناء قصر للوزير اليهودى المدعو ابن نجريلة .ولكن ليس من السهل توثيق أى من الأمرين .وفيما يخص الأمر الأوَّل يتوافر لدينا الكثير من العناصر القائمة على أساس التحليل المعمارى من وجهة نظر تاريخ الفن أكثر من الوجهة الأثرية (مانويل جوميث مورينو ، ١٩٦٦ ، بابون مالدونادو ، ١٩٧١) وبالطبع دون إجراء فحص مكانى للمجموعة الصغيرة للقلعة ومنطقيًا دون القيام بتوصيف أو ترصيف طبقات الأسوار أو الجدران ؛ حيث إن هذه التقنية حديثة للغاية .

ولا توجد حتى هذا التاريخ بنية مائية واضحة لهذه المنطقة الواسعة المكثفة ، ويبدو فقط أنَّ ثمَّة نظام خاص للتشييد له أهمية ما . إنه الجُبُ الكبير الموجود داخل الحمراء والذى لا يزال يغذى القلعة بالماء وعلى الرغم من أنه خلال وقت ما فى عصر النَّصريين كان الجُبُ يملأ بواسطة الساقية الملكية كما سنرى ذلك فى وقت لاحق وهو النقطة الأخيرة فى مجمع يصعب الحفاظ على تغذيته يوميًا بالمياه خاصة لكثرة عدد سكانه فى ذلك الوقت .

وعلى الرغم من التعديلات التى أدخلت على الجُبُ فى العصر الحديث إلا أنه لا يزال يفهم من تشييده أنه شُيِّدَ فى وقت سابق يوائم وقت بناء القلعة نفسها . والجُبُ عبارة عن قسمين كبيرين يفصلهما أعمدة عرضية وبه مناور وتوصيلات أو قنوات للمياه يجرى فيها الماء حتى الحمام المجاور أو القريب ، كما أن قرب الجُبُ من برج الأسلحة الذى كان بمثابة باب أو بوابة يؤدى إلى القلعة العسكرية وإلى مدينة الحمراء فى العصر النَّصرى يطرح علينا مشكلة مهمة جدًا ، والباب المذكور آنفًا أدى إلى تغيير البنية الموجودة سابقًا ؛ وذلك لأن المعروف أنَّ المدخل الرئيسى أو الأوَّل كان عند الباب الكائن بالقرب من الجزء الأسفل لبرج الشمعة ، وعلاوة على ذلك توجد آثار من خط السور الذى كان موجودًا بهذا المكان للنزول إلى نهر الدَّارُّو ، وهذا هو الوصف الذى

قدمه لنا بيرموديث (بيرموديث باريخان ، ١٩٦٦ : ١٤٠) من خلال الكلمات التالية :
" يمكن الإشارة إلى هذه الأجزاء من خلال قطع السور من الخرسانة الرمادية القوية مثلما كان عليه حال الخراسانات إبَّان القرن الحادى عشر الميلادى ، وتوجد حتى الآن هذه القطع متباينة بعضها عن البعض الآخر وجميعها من مادة تختلف عن التراب الأحمر الذى بُنِىَ به جزء من السور الذى تم استعادته ، الأمر الذى كان تتميز به الأسوار فى عصر النَّصريين " .

ويبدو أنه لا يوجد شك بشأن استخدام هذا السور ؛ حيث كان يستخدم للحصول على المياه من نهر الدَّارُّو ؛ ولهذا فقد اسْتُخْدِمَتْ فى نقطة قريبة منه بنية معقدة للغاية ، ويتعلق الأمر بما يُسمَّى بشكل خاطئ بجسر القاضى ؛ لأن تورِّيس بالباس حذر من إمكانية استخدامه عنصراً للرقابة والتحكم فى منسوب مياه النهر " ففى الأرض الطينية يمكننا الشك بأنَّ قناطر أو أهوسة كانت تستخدم لتهدئة تيار المياه بالنهر المذكور وهذا ما يفسره وجود أرصفة أو سدود قوية ومرتفعة من الملاط أو المونة فضلاً عن وجود مياه فوق الباب .ويمكن أن تصور أيضًا بُغية خدمة عملية التعمير أو العمران وكذلك لخدمة الظروف الصحية السيئة فى ذلك الوقت أنه كان يتم نزع أو رفع الأهوسة أو القناطر لتنظيف وتطهير مجرى النهر عند مروره بالمدينة ، (تورِّيس بالباس ، ١٩٤٩ : ٤٢٤) ، وقد أشار مانويل جوميث مورينو أيضًا وبشكل واضح " أنه أسفل الشبكات وبين الفتحات أو الثقوب الكائنة بهذه الشبابيك كان يوجد باب له عتبة عُليا كان يتم النزول إليه عبر سُلَّمَين متجاورين من أعلى البرج وهذا يؤكد استخدامه فى استخراج المياه باليد لتغذية الحمراء به حيث لم يوجد تيار مائى حتى القرن الثالث عشر الميلادى (جوميث مورينو ، ١٩٥١ : ٢٦٢) .

ومع ذلك فإنَّ مثل هذه التَّأكيدات قد أدلوا بها دون معرفتهم لنص الزهرى مؤلف من القرن الثانى عشر الميلادى الذى يصف لنا الأهوسة أو القناطر التى كانت موجودة هناك لتهدئة تيار مياه النهر والذى جاء فيه ما يلى : "ونهر الدَّارُّو هذا يدخل غرناطة من الشَّمال ويجتازها من الجنوب من بين القلعتين بجوار قنطرة محصنة مرتفعة البناء وقد علق فى هذا الهويس أو القنطرة مصراعان مصفحان لهما صفيحتان من الحديد

وقد تم تشييد أسوار من القلعة الصغرى إلى القلعة الكبرى ، وفى القنطرة المذكورة فتح بابان صغيران للتزود بالمياه فى زمن الحرب (وهذه القنطرة أو الهويس لا نظير لها فى كافة أرجاء الأندلس) (وفقًا لما أورده برامون ١٩٩١ : ١٧٠) .

ومن البديهى أنَّ التأكيدات التى أوردناها سلفًا توضح التقارب بين البنية المعروفة على الصعيد الشعبى بجسر القاضى وإن كانت فى الواقع تُسمَّى بباب الضفاف أو باب القناطر أو الأهوسة كما أن السور الذى ينزل من الحمراء وينضم إلى القلعة ، كان الهدف منه تغذية المدينة بالمياه ، ومجرد وصف ذلك يسمح لنا بالتعمق فى الفكرة ، فقد كان هناك قوس كبير من الحديد ولكن لم يبق منه سوى الجزء الأيسر ، وهو مصنوع أو مُشيد من الحجر الرملى ، وكان يستند على برج سداسى الشكل ، وبداخله سُلَّمان متشابهان كانا يهبطان إلى باب مُسطَّح يسمح بالوصول إلى الماء الراكد خلف القناطر أو الأهوسة ، كما يرى ذلك من الفتحات أو الثقوب الذى كان مثبتًا فيها ، وكان أحد السُلمان يستخدم للنزول لأخذ الماء من مجرى النهر والآخر للصعود به وذلك فى قرَب لتزويد الحمراء بالمياه .

والطريقة يصفها باسيليو بابون (بابون ١٩٨٦) : إنَّ باب الضِّفاف كانت له مهام معقدة . كان بابًا يمنع المرور بنهر الدَّارُو ، كما أنَّهُ كان بمثابة جراب يسمح بأخذ المياه من النهر لتغذية القلعتين الزِّيريتين القديمة ، والجديدة ، ومع ذلك يساوره الشك حول وجود خشبتين كبيرتين لتهدئة تيار المياه بالنهر كما يقول تورِّيس بالباس (تورِّيس بالباس ، ١٩٤٩) ، وكما اتضح ذلك من نص الزهرى المذكور آنفًا .

وهذا هو النظام الأوَّل الذى استخدم فى الحمراء للحصول على المياه ويوضح لنا أنَّها كانت دفاعية فقط ؛ لأنه كان يستحيل بمثل هذه الطريقة التى ذكرناها تغذية شعب كثير التعداد أو إنشاء مزيد من المبانى هناك .

وجدير بالذِّكر أنَّ قرار تشييد المدينة القصرية (الحمراء) أدَّى بشكل واضح إلى تغيير البيئة التى أقيمت عليها ، فالتل الأحمر عبارة عن منطقة مرتفعة تكونت من تجمعات صخرية فى العصر الجيولوجى الرَّابع الأمر الذى لا يسمح عادة بوجود طبقات من المياه الجوفية ، وكان من المحتم الحصول على المياه من نهر الدَّارُو الذى

كان يغذى مدينة غرناطة ، وقد كان يصل إليها بواسطة ناعورة أو ساقية تُسمَّى لوس أعشاريس من الجانب الأيمن ولكنها فى نقطة ما عند عبورها للنهر كانت تنقسم لتُكَوِّن الجانب الأيسر المسماة باسم الرُّمَيلة ، ووجود ساقية أو ناعورة ثالثة وإن كانت لتشييد مدينة السلطان أدى هذا إلى السماح لوصول الماء إلى الجزء العلوى بتل الحمراء والهبوط منه للانضمام إلى المياه القادمة من الساقية الكبيرة ، وخلاصة الأمر أن الضفة اليمنى لنهر الدَّارُّو فى اتجاه حينيل كانت مخصصة للضيعات ، والبساتين أكثر منها لتشييد المساكن .

وبهذا الشكل نجد أنَّ عهد السلطة السياسية الجديدة يتضح اعتباراً من إنشاء بنية معمارية وعمرانية وسط بيئة عدائية متوحشة ، إلا أنَّهُ بعد التشييد تغيرت هذه البيئة ، وأصبحت ملائمة لحياة الإنسان ، ولهذا كله فمن الضرورى فهم النظام الهيدروليكى (المائى) الذى أقيم فى الحمراء كنقطة انطلاق لمرحلة جديدة ستعنى التحول من قلعة دفاعية إلى مدينة قصور ، وفى النهاية إلى مدينة ، الأمر الذى يعنى مزيداً من التعقيدات فى شغل المساحة وتنظيم أرضها ، فمن ناحية كان يجب مراعاة عدة أمور عند تأسيس المدينة الجديدة وتخصيص مساحات وفقًا للمهام والاستخدامات المنوطة بكل منها على حدة وارتباط هذه المساحات ببعضها البعض الآخر ومن ناحية أُخرى مراعاة علاقة المدينة الجديدة بمدينة غرناطة ، وقد ظهر بوضوح فى كليهما أن المشكلة الرئيسية هى المياه ، فالحمراء محدود امتدادها ومساحتها حيث لا يمكن أن تتسع صوب غرناطة وإن كان هذا الاتساع مهمًا ومع ذلك فإن إنشاء هذا يعنى قربها وتجاورها المباشر لمدينة غرناطة ؛ ولهذا فإنَّ أى اتساع كان سيؤثر على غرناطة والعكس صحيح ، وهذا يعنى أنَّهُ بالرغم من كون الحمراء مدينة السلطان ، فإنَّه لا يمكن نسيان أن إنشاءها تم فوق جزء من مدينة غرناطة القديمة .

والشَّهادات الأثرية لم تدع مجالاً للشَّك بشأن استخدام وتشغيل بنية النِّظام الهيدروليكى (المائى) بالحمراء وإن كان قد عانى من التعديلات والتغييرات ، ولكن لحسن الحظ يمكن توثيق ذلك فى مجمله العملى ، ففى بعض الأماكن ، وبعد إهمال الساقية الملكية عقب إنشاء مجمع أو مستودع للماء فقدت هذه الناعورة وتلفت ، ولكن

ليس من الصعب إعادة رسم تصميمها كما فعلنا ذلك فى موضع آخر (مالبيكا ، ١٩٩١) ؛ فالملامح الكبيرة التى يُحَتِّمها ما نحن بصدده يمكننا القول بإنَّ جانبًا من خزان مركب خيسوس دى باير موجود بمجرى نهر الدَّارُّو ، والسد الموجود حاليًا هو عمل حديث من الخرسانة بينما كان القديم مصنوع من الطين والخشب وكان يتم إصلاحه سنويًا فى الوقت الملائم ، وكان يسكب مياهه فى قناة مفتوحة على الجانب الأيمن للنهر ، وبعد أن يغذى الطاحونة المُسمَّاة بطاحونة موكب مسيح الوادى فإن القناة تنتقل إلى الجانب الأيسر لنهر الدَّارُّو لكى تغذى المياه الساقية الكائنة فى أحد جوانب التل الأحمر متبعة انحدار يقدر تقريبًا ٣ فى الألف وفقًا للتقديرات الأولية التى تم إعدادها ، وأمام المُسمَّاة كارمن ديل بارتيدور يُلاحظ وجود موزع ثنائى للمياه بعد أن كان هناك مجرى واحد فقط ، جزء علوى حتى يصل إلى المنطقة المعروفة باسم لوس البير كوسويستمر فى طريقه بهذا الشكل أمَّا الجزء السفلى فإنه يقطع معظم مسافته مارًا بأنفاق محفورة فى الصخور وبالتالى فهو محمى تمامًا يدخل الحمراء من المناطق المجاورة لجنة العريف حتى يصل إلى بهوها الفسيح بهو الساقية أو الناعورة ، وكل هذا يشير إلى أن المزرعة الملكية الشهيرة لها صلة وشيجة ومباشرة بعملية جلب المياه إلى مجمع الحمراء ، ولهذا فإن تنظيمها المكانى وفقًا لـ (بيرموديث باريخا ١٩٦٥) يدل على أن المياه هى العنصر الرئيسى والخط الفاصل وكانت منطقة زراعية تنحصر فى ثلاثة بساتين وهى بستان لاكولوراد فى الجزء الأسفل من جنة العريف والبستان الكبير وبستان لافوينتى بينيا ؛ ولهذا فإنَّ الحياة الزراعية كانت منتظمة أسفل الأبنية السكنية وذلك بالإستفادة من الأراضى التى كان يمكن ريُّها، .وبهذا أمكن وجود ضيعة زراعية لها مواصفات العادات والتقاليد الريفية داخل منطقة معمارية من القصور ، وهذا ما حدث أيضًا فى مدينة الزهراء حيث توجد كثير من الضيعات والمزارع حول مدينة الخلافة ذات نظم رى خاصة .

ولكن السَّاقية تمتد مهمتها بشكل منطقى لكى تقوم بمهمتها الأساسية التى تكمن فى تغذية الحمراء بالماء وكان الماء يدخل إلى الحمراء بما يُسمَّى برج المياه ثم يتوزع على جانبيه ، وكانت هناك بساتين داخل الحمراء وكذلك عدد من الحدائق ، هذا فضلاً عن العناصر الخاصة بالحياة المدنية التى تحتاج فى تغذيتها إلى المياه وخاصة

الحمّامات وكذلك الغدران والبرك والنوافير التى تزين المبانى هذا علاوة على ورش الصناعات اليدوية (مثل الفخّارات والمدابغ إلخ ...) .

وقد قيل آنفًا إن هذه البنية التى تتكرر بدرجة أقل من مختلف مكونات المدن الإسلامية وقد حدث هذا فى مدينة غرناطة ، حيث كان الجزء العمرانى فى المنطقة السفلى بينما ظلّ العالم الطبيعى فى الجزء العلوى ، أما امتدادها واتساعها فقد كانا حتميين ، لأن الأسرة المالكة استمرت فى الحكم طوال عصر المملكة ، وبالتالى لم يكن من الممكن حدوث تقسيمات ، وقد كان التوسع يتم صوب الجزء العلوى للمجموعة الأولى بقصر الحمراء ، وإذا تتبعنا خط الناعورة أو الساقية الملكية فإننا نلاحظ ما ذكرناه بوضوح ، وكما قيل من قبل تمّ تنظيم وتنسيق جنة العريف وكذلك المجموعة الأولى من قصور الحمراء لخدمة هذه المدينة الجميلة التى شيدت على السفح الأحمر .

وجدير بالذكر أنّ النمو العمرانى أدى إلى تقليص المساحات الزراعية داخل المنطقة المحاطة بالأسوار بالحمراء وذلك لصالح المدينة . لقد كان النمو ضروريًا ، ولكنه لم يتم إلا فى الجزء السفلى .وقد وضعتنا أعمال الحفريات التى تمت بالمنطقة المُسمّاة بلوس البير كونيس (مالبيكا ، ١٩٩١) على مسرح الواقع بها وإن كان قد عُرِفَ أنّ المنطقة العليا بالحمراء كانت مستوطنة فى وقت سابق (تورِّيس بالباس ١٩٤٨) ، وهذا المجمع الهيدروليكى (المائى) كائن بأعلى جنة العريف بينها وبين قلعة سانتا إيلينا (القديسة إيلينا) وهى بنية دُرِسَت بشكل خاطئ حتى الآن ، ولكنها ربما كانت لها مهمة الدفاع عن الجزء المرتفع بالحمراء .ويُحَدَّد ذلك انطلاقًا من عنصرين أساسيين وإن كان النظـــام معقد فى مجمله ، فمنطقة بركة السيدات والبرج كانت نواصيهما مشطوفة ، فالمنطقة الأولى كانت عبارة عن بركة كبيرة للمياه ومقاسها كالآتى : من الجانب الغربى = ١٩,٣٠ مترًا والجانب الشرقى = ١٩,٥٠ مترًا والجانب الجنوبى = ١٤,٢٠ مترًا والجانب الشمالى = ١٤,٢٥ مترًا وبجوار البركة الكبيرة وبتغيير حركة المياه توجد بركة أُخرى فى اتجاه الجنوب قام بتشييدها تورِّيس بالباس ، ولذلك فمن المنطقى أن يهيئ البركة القديمة لكى تنساب المياه منها إلى البركة الجديدة ، وأسفل البركة الجديدة قام بربيتو مورينو ببناء بركة أُخرى لكى يتمكن من الحصول على مزيد من المياه للحمراء .

و هو مستودع كبير للماء مساحته الأفقية ٢٨١,٣ مترًا مربعًا ومتوسط عمقه ١,٣٩ مترًا وحجم أقصى يبلغ يبلغ ٤٠١,٣ مترًا مكعبًا ويستخدم لتخزين المياه لاستخدامها بالتأكيد فى رى المساحات الزراعية .

وقد كانت لبركة السِّيدات خاصية أُخرى إلى جانب استخدامها فى رى الأراضى الزِّراعية ألا وهى أثريتها ، وعلى الرَّغم من معرفتنا لبنيات مشابهة فإنها فقدت خاصيتها الأثرية الأمر يلحظ بوضوح فى بركة السيدات ؛ فهى محاطة بأرصفة من الأحجار المرصوصة بجوار بعضها مكونة سنبلة ، وفى الجانب الغربى نجد حوضًا لسكب المياه متوسط عمقه ١٧ سم كان يملأ كما نتصور بواسطة قناة قادمة من البرج المذكور آنفًا ، وجدير بالذكر أنَّ مجمع البرك كان محاطًا بأسوار قوية ومتينة ، بناء من الحجر غير المصقول (الدبش) يحتوى على عناصر زخرفية . إنها عبارة عن ثلاثة أسوار ارتفاعها العلوى يبلغ ٢٠ مترًا وفى الأسوار الكائنة بالشمال والجنوب يتم التنبية على أنها تنساب بانحدار لتفادى الخلل الموجود وتستخدم كأرصفة للوصول إلى القمة أو المنصة .ويتم التنبية على أنَّ الطرف الجنوبى كان يستخدم لتفريغ المياه ، بينما الجزء الشمالى كان يستخدم فقط لرفعها إلى أعلى ، وهى بلا شك طريقة للحماية إذا وضعنا فى الاعتبار المنحنى الكبير الموجود بالفعل فإنَّ البركة الكبيرة كائنة فى جزء بارز من الأرض ، أمَّا السُّور أو الجدار الشرقى ؛ فهو أهم الجدران أو الأسوار قاطبة وبالقرب من اتصاله بالجدار أو السور الجنوبى يوجد مدخل مكون من قوس يؤدى إلى بعض السلالم من الطوب اللبن تتكون من ست عشرة درجة سلَّم وتُشكل زاوية قائمة للصعود إلى الشرفة ، ويخلو السلم من الحاجز حاليًا وإن كانت هناك آثار واضحة تدلُّ على وجوده فى الماضى وتعتبر الشرفة كمرقب يطل على البركة الكبيرة .

وإنشاء هذه الجدران أو الأسوار بالشكل الذى هى عليه حيث تبرز الشرفة العلوية مما يوضح لنا بجلاء أننا أمام مكان أُعِدَّ للاستراحة ، كما أنَّ قربها من جنة العريف ووجودها فى منتصف الطريق بين هذا القصر والقصور الملكية الأُخرى الكائنة بأعلى منطقة بالتَّل أو الجبل يؤكد لنا هذا الأمر، وإذا أضفنا إلى هذا وذاك وقوعها بين منطقة مروية كثيرة الخضرة المزروعة يمكن التفكير فى أن هذه المنطقة كانت تستخدم

للتنزه والاستراحة وفى نفس الوقت للإنتاج ، وتبرز ذلك تحليلات البساتين الموجودة بكل جلاء ووضوح ٠

وتجدر الإشارة هنا إلى أنَّ البركة الكبيرة على الرغم من استخدامها للرَّى فإنها كانت تستخدم لأغراض أُخرى ، ولكن عصب كل هذه الأغراض كان الماء دائمًا ، ونعرف جيداً أن الماء فى النهاية كان يأتى من الفرع العلوى أو من ساقية الترثيو ، كما أن وجود درج كبير قريب ووجود قناة صغيرة تخرج منه صوب هذه البركة الكبيرة أمر أساسى وجوهرى لفهم المشكلة ، والوصف الخاص لهذا العنصر يلقى بمزيد من الأضواء على هذا الأمر ٠

إنَّ الذى أسميناه البرج الكبير لم يكن برجًا القطع ، ويوجد فى الجزء الشمالى الغربى للمجموعة ، والتطهير الذى تم فى هذه البنية أوضح أنه عبارة عن منصة متعددة الزوايا المشطوفة فى جانبها الغربى وكان بداخلها بئر عميق مستطيل ، ومن هذا البرج خرجت قناة مائية إلى ما يُسمَّى بحوض صفق السوائل حتى تصل فيما بعد إلى البركة الكبيرة نفسها . وفى الجهة الغربية للبئر كان هناك فراغان لتركيب ناعورة أو ساقية ، وقد أكد وجودها آثار مرور الحيوانات التى كانت تجر هذه الساقية أو الناعورة ، ولمزيد من التدليل على ذلك كانت هناك كميات كبيرة من القواديس عثرنا عليها فى الأعمال والأشغال الأثرية التى قمنا بها ٠

إنَّ تركيز الأعمال والأشغال فى هذه المجموعة التى أدت إلى تطهير وتنظيف البئر نتج عنها ظهور معلومات فى غاية الأهمية ٠ ففى عمق البئر الذى بلغ ١٥,٨٠ متراً ظهرت بداية لممر فى الجدار الغربى ومع ذلك فعلى عمق ١٩,٣٥ متراً وُجدت أرض مبنية من الطوب اللبن أو الآجر كانت تستخدم كعازل يمنع من تسرب المياه ٠وبمعنى أصح فإن الماء لم يكن يتدفق من باطن الأرض وبل كان يأتى إلى هناك عبر هذا الممر السالف الذكر٠وإذا تتبعنا ذلك سنتوافر لنا معلومات قيِّمة ، وبالفعل فإنَّ الحفريات التى قمنا بها قد أبرزت أنَّ الأمر يتعلق بمجرى مائى من نوع خاص جداً ، ويبلغ الطول الحقيقى لمجراه ٥١,٩٨ متراً وإن اختلفت أجزاؤه ، وقد كان للمجرى ثلاثة أجزاء مختلفة الأول هو الذى كان يبدأ عند بئر الساقية وينتهى عند الجزء الثانى وطوله

٢٠,٢ متراً أما الجزء الثانى فكان بئر الرقابة أو التفتيش لمعرفة منسوب المياه وتدفقها وللحفاظ على هذا النظام كان عمقه يصل إلى ١٠,٦٨ متراً ومن هذا الجزء الثانى إلى الثالث الذى بلغ طوله ٥,٥٥ متراً من جزئه السفلى و٦,٤٥ من جزئه العلوى حتى العمق بلغ ٩,٥٣ متراً ، وفى النهاية وبعد ١٨,٤ متراً ظهرت فوهة الممر المذكور آنفًا الأمر الذى أجبرنا على إجراء بحث دقيق للتأكد من مصدر التغذية بالمياه وقد تأكدنا من وجود قناة صغيرة كانت تحمل المياه من الجزء السفلى للساقية أو الناعورة الملكية حتى بئر الساقية وقد تأكد ذلك من المنحدر الموجود ، وبهذا الشكل كان يمكن حمل الماء وتوصيله عبر هذا الممر ، وبالتالى وجدت منطقة زراعية أُخرى كانت تستخدم الرى فالحل معقد ولكنه جاء ردًا على مشكلة خطيرة : توسيع الرقعة الزراعية عن طريق الرى ، وما حدث بالفعل هو صعوبة التفكير فى أنْ يكون هذا هو السبيل الوحيد والنهائى . فبداية نمو وتطوير المدينة صوب الجزء المرتفع من الحمراء كان أمرًا واقعيًا والنتائج كانت تكمن فى زيادة الرقعة الزراعية صوب المنطقة المرتفعة ، وإن كان الأمر لا يتعلق بأرض عمرانية تمامًا ومع ذلك كانت تحتاج إلى كميات هائلة من الماء .

والنِّظام الهيدروليكى (المائى) بالحمراء الذى كانت مهمته تغذية الحقول والمدينة بالمياه لم يقض على الأنظمة السَّابقة التى كانت موجودة من قبل بل إلى حدٍ كبير تم الاستعانة بتلك الأنظمة وإدراجها فى النظام الحديث ، وبهذا الشكل يلاحظ كيف أنَّ جُبَّ القلعة أو الحصن ظل يُستخدم حتى عصور لاحقة خلال عصر النَّصريين بكل تأكيد (جارثيا جرانادرسوتربيو ١٩٩٠) وقد كان لها أهمية قصوى عند استرداد الملوك الكاثوليك للحمراء الذين قاموا بتطوير وتحديث الطابع العسكرى والدفاعى لحصن الحمراء (مالبيكا وبيرموديث) وهذا ما حدث أيضًا مع الأنظمة الصغيرة فى بركة النِّساء ، وقد استمر هذا النِّظام سارى المفعول على الرغم من أنَّ الممر المائى الذى كان يحمل الماء من الجزء السُّفلى للسَّاقية أو النَّاعورة الملكية قد أصيب بالعطب والأعطال .

فوجود جزء علوى بالسَّاقية أو النَّاعورة الملكية يجعلنا نفكر أنَّهُ تم استخدامه لنفس الغرض ، وعمومًا فإنَّ قنوات توزيع المياه كانت لها أهمية بالغة ويمكننا التأكيد على أنَّ الجزء العلوى هذا كان يُسمَّى بساقية أو ناعورة الترثيو .

فالجزء العلوى من الساقية الملكية أو من الترثيو كان يغذى البركة الكبيرة ؛ فالساقية كانت تمر بمنصة أو بقاعدة الناعورة التى تعطلت جزئيًا ، والطريق الذى تمر به القناة هو فى غاية الدقة ؛ لأنَّهُ أُعِدَّ من مسافة بعيدة لكى يتم تنفيذه ولكى يظل مستخدمًا .

وبالإضافة إلى الفرع أو الجزء العلوى الذى كان يغذى بالماء قبل وصوله إلى البركة الكبيرة بئرًا كبيرًا وعميقًا كان قد وصف فى القرن الماضى بواسطة (جوميث مورينو ، ١٨٩٢ : ص ١٧٤ - ١٧٥) ، وفى الوقت الحالى لم نستطع التعرف إلا على جزئه الأوَّل فقط ، لأنَّه يصعب تتبع مجراه الكلى الذى يبلغ عمقه ٥٩ مترًا ، وربما يكون قد استخدم لرى المنطقة المرتفعة بالحمراء أى منطقة دار العروسة وكل منطقة ثيرُّو ديل السول (مرتفع الشمس) ، وهناك توجد نظم هيدروليكية (مائية) أخرى قليلة الأهمية مثل المُسمَّى بجب الأمطار الذى كان يرتبط باستخدام الماشية فيما يُسمَّى بمرعى أو مرج جنة العريف ، وكان يقوم بتغذية المنطقة عبر قنوات مائية ضحلة ، وهذا لا يعنى أنه لم يتم نقل الماء هناك من البركة الكبيرة الكائنة بالقرب من البئر العميق ثيرُّو ديل السول (مرتفع الشمس) ، ولكن هذه علاقة طارئة ، كما أنه لا يعرف أيضًا نظام تغذية بركة الأسود التى كانت تقوم بتوصيل المياه إلى المروج .

وكل هذه العناصر لا تعرف هل كانت ترتبط بنظام خارجى أم كانت مرتبطة بالنظام الرئيسى ؛ لأنَّ هذه الأمور لم تدرس حتى الآن حيث تتوافر لدينا فقط أوصاف شكلية لا استخدامية (بيلشيت ١٩٨٣ - ١٩٨٦) .

وعلى أيَّة حال فإنَّهُ بات من الواضح أنَّ ساقية التيرثيو كانت تستقبل ثلث المياه المأخوذة من السد ومن المحتمل أن سعتها لاستقبال الماء لم تشهد أى تغيير حيث إنَّ سعات السواقى الكائنة بالمدينة ظلت على ما هى علية أيضًا .وعبر ساقية الترثيو تم تشغيل المنطقة المرتفعة وتم توسيع المنطقة الناجمة عن إنشاء بركة السيدات ، ولكن الأبحاث الحديثة التى لم تنته بعد سمحت بمعرفة أن الفرع العلوى أكثر تعقيدًا عمَّا كان يسود الاعتقاد بشأنه ، وفى الوقت الذى قمنا بكتابة هذه الصفحات تمَّ اكتشاف ممر كان قد حفر أسفل المنطقة العلوية لموقف سيارات جنة العريف حيث يتم إعداد

مداخـل جـديدة للمجموعة الأثـرية بالحمراء ، وهذا المر فى جـزئه الأول بلـغ طـوله ٢٠٠ متـراًويطلـق عليه بالتـأكيـد مـاء سـاقـية التـرثيو المتفـرعة ربمـا مـن قـناة (CARMEN DE LOS MÁRTIRES) للتوزيع كانت تستخدم أيضًا لتوصيل المياه إلى منطقة مرتفعة كانت تفصل هذه المنطقة على وجه التحديد من منطقة الشهداء التى يرجع إنشاؤها إلى القرن السادس عشر الميلادى وإن كانت هناك بقايا سابقة على هذا التاريخ ، ويبدو من جهة أُخرى أنها تمتد إلى أبعد من هذه المنطقة ، كما أنَّ ساقية الترثيو نفسها تشق مجراها بعيداً عن المنطقة القريبة من جنة العريف حتى برج بيرميخاس ، ومن المحتمل أن تكون القناة الجوفية قد استمرت بمنطقة أنتكيرويلا وانتهت فى حقل الأمير .

وسيكون اقـتـراباً كبـيراً من الواقع إنشـاء هذا الجزء العلوى . ففى مناسبة ما (ماليكا) قدمنا الافتراض القائل بإمكانية استخدامه فى تغذية الحمراء المرتفعة إلى جانب بعض الأحياء العمرانية من المدينة منها على سبيل المثال حى أنتكيرويلا الذى بدأ تشييده فى مطلع القرن الخامس عشر الميلادى ، واستمرار البحث فى هذا الجزء وممراته الفرعية سيجعلنا نلقى بكل تأكيد بمزيد من الأضواء على هذا الدرب .

إنَّ نظام الحـمـراء الهيـدروليكى (المائى) مـثـال جيـد على تقنيـة الميـاه واستخدامها وتنظيمها لتغذية المنطقة المجاورة لها ، كما أنه عنصراً للتحليل من الدرجة الأولى لتقديم تواريخ وأزمنة وعصور تقريبية وإذا عرفنا أنَّ الحمراء قد بدأ تشييدها اعتباراً من جلب المياه من نهر الدَّارُّو فى بداية عصر النَّصريين وعلى وجه الخصوص فى عهد محمد الأوَّل وأنَّ الجزء العلوى من الساقية أو الناعورة الملكية قد شُيِّدَ وفقًا لكافة المؤشرات فى أوائل القرن الخامس عشر الميلادى فليس من المبالغ فيه التفكير بأنَّ البركة الكبيرة والناعورة والمجرى أو المر المائى قد أُنْشِئا فيما بين التاريخين المذكورين ، وتتعلق ربما بالأعمال التى قام بها إسماعيل الأوَّل فى جنة العريف أو خلال فترة الإنشاء الكبرى فى مدينة القصور فى عهد خلفائه اللاحقين يوسف الأوَّل ومحمد الخامس .

وعمومًا فإنَّ دراسة المياه تبرز نمط مكان تشييد مدينة غرناطة نفسها التى تنتمى إليها قصور الحمراء .

المراجع

(١) أسيين ألمانسا ، مانويل (١٩٨٧) " مدينة الزهراء فى العمران الإسلامى " دفاتر مدينة الزهراء ، الجزء الأول ، ص ١١ - ٢٦ .

(٢) بيرموديث لويث ، خيسوس (١٩٨٧) " ملاحظات على التصميم العمرانى للحمراء وشوارعها الرئيسية " وقائع المؤتمر العالمى الثانى للآثار الإسبانية ، مدريد ، الجزء الثانى ، ص ٤٤٣ - ٤٥٠ .

(٣) بيرموديث باريخا ، خيسوس (١٩٦٥) " جزء من سور غرناطة " دفاتر الحمراء ، الجزء الأول ، ص ١٣٩ - ١٤٠ .

(٤) بيرموديث باريخا ، خيسوس (١٩٧٣) " التعرف على قصرى كوماريس والأسود بالحمراء " وقائع المؤتمر الدولى الثالث والعشرين لتاريخ الفن ، غرناطة ، المجلد الثانى ، ص ٥٥ - ٥٦ .

(٥) برامون دولورس (١٩٩١) " العالم فى القرن الثانى عشر الميلادى " دراسة للرؤية الإسبانية وللأصل العربى لجغرافية العالم ، رسالة الزيرى ، برشلونة .

(٦) جارثيا جرانادوس ، خوان أنطونيو وتريلو سان خوسيه كارمن (١٩٩٠) " أعمال الملوك الكاثوليك فى غرناطة " (١٤٩٢ - ١٤٩٥) ، دفاتر الحمراء ، العدد ٢٦ ص ١٤٥ - ١٦٨ .

(٧) جاود فيردى ديمومبينيس . م . (١٨٩٨) " ابن خلدون ، تاريخ بنو الأحمر ملوك غرناطة " الجورنال الأسبوعى ، العدد ٢٠ ، ص ٣١٩ - ٣٢٣ .

(٨) جوميث مورينو مانويل (١٨٩٢) " دليل غرناطة " غرناطة .

(٩) جوميث مورينو مانويل (١٩٥١) " الفن العربى الإسبانى حتى عصر الموحدين " المجلد الثالث ، الفن الإسبانى ، مدريد .

(١٠) جوميث مورينو مانويل (١٩٦٦) " غرناطة فى القرن الثالث عشر " دفاتر الحمراء ، المجلد الثانى ، ص ٣ - ٤٥ .

(١١) هويتس ميراندا أمبروسيو (١٩١٧) " مجهول مدريد " كوبنهاجن ، مدريد .

(١٢) هويتس ميراندا أمبروسيو (١٩٥٤) ابن إدارى المراكشى " البيان المقرب فى اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب " طيطوان .

(١٣) ابن الخطيب (١٩٥٥ - ١٩٧٨) " الإحاطة فى أخبار غرناطة " طبعة محمد عنان ، القاهرة فى أربعة أجزاء .

(١٤) ليفى بروفينسال وجارثيا جوميث إيميليو (١٩٨٠) " القرن الحادى عشر الميلادى ، مذكرات عبد الله " مدريد ١٩٨٠ .

(١٥) مالبيكا كويو أنطونيو (١٩٩١) " المجمع الهيدروليكى (المائى) للبرك الكبيرة " دفاتر الحمراء ، العدد ٢٧ ، ص ٦٥ - ١٠١ .

(١٦) مالبيكا كويو أنطونيو ، " نظام هيدروليكى فى العصر الإسبانى الإسلامى " الحمراء ، جونثاليث الكانتو وخوسية أنطونيو وملبيكا كويو أنطونيو " المياه ، الأساطير ، الشعائر والواقع " برشلونة .

(١٧) مالبيكا كويو أنطونيو وبيرموديث لوبيث خيسوس " تعديلات مسيحية فى الحمراء " المؤتمر الإسبانى الإيطالى للآثار فى العصور الوسطى ، سيينا .

(١٨) بابون مالدونادو باسيليو (١٩٧١) " قلعة الحمراء " دفاتر الحمراء ، العدد السابع ، ص ٣ - ٣٤ .

(١٩) بابون مالدونادو باسيليو (١٩٨٦) " سواقى إسبانية إسلامية " القنطرة ، الجزء السابع ، ص ٣٣١ - ٣٨١ .

(٢٠) بويرتا بيلتشيت ج . م . (١٩٨٧) حمراء غرناطة " السلطة والفن والخيال أو الوهم " دفاتر الحمراء ، العدد الثالث والعشرون ، ص ٦٧ - ٨٥ .

(٢١) توريِّس بالباس ليوبولدو (١٩٤٨) " دار العروسة وأطلال القصور والبرك الغرناطية الواقعة فى أعلى جنة العريف " الأندلس ، ص ٦٧ - ٨٥ .

(٢٢) توريِّس بالبـاس ليـوبولدو (١٩٤٩) " باب الخـبـازين وجـسـور غـرناطة الإسلامية " الأندلس ، العدد الرابع عشر ، ص ٤١٩ - ٤٢٠ .

(٢٣) بيلتشيت بيلتشيت كارلوس (١٩٨٣ - ١٩٨٦) " الآثار الباقية من قصر الحلاجين " الأندلس الإسلامية ، العدد الرابع والخامس ، ص ٣١٧ - ٣٤٠ .

الفصل الرَّابع عشر

حكومة غرناطة عقب الاسترداد :
الأوامر الصَّادرة عن قصر الحمراء عام ١٤٩٢

إعداد : أحوان أنطونيو جريما تيرفانتس

بدأت منذ أكثر من ثلاث سنوات البحث حول شخصية يحيى النَّجار الذى عُرِفَ عقب ارتداده عن الإسلام باسم السَّيد /بيدرو دى غرناطة ، والذى من المحتمل أن يكون أحد الأعضاء القلائل من أفراد النُّبلاء الملكيين فى العصر النّصرى الذى استطاع الإفادة من الحرب إلى أقصى درجة والتكيف - ولكن بصعوبات جمَّة وأوقات حرجة وعصيبة - مع المجتمع القشتالى المسيحى الذى سيُسيطر على غرناطة عقب الاسترداد المسيحى لها[١] .

وإبَّان هذا البحث عن مصادر غير مطبوعة لإنهاء الدِّراسة المذكورة قمت بالاتصال مع بعض الورثة المباشرين مع عريس العرش النَّصرى ، والذى كان من بينهم ماركيسة كوربيرا وزوجها ، وبفضل هذه العلاقة وصلت إلى حوزتى بعض أوراق أرشيفية ، ومن بينها صورة للأوامر التى أصدرها الملوك الكاثوليك عام ١٤٩٢ ، والتى جاء فيها تقسيم المدينة إلى دائرتين مختلفتين إحداها الحمراء الخاضعة لناظر عموم تنديا والثانية دائرة المدينة والقرى والبلدان التَّابعة لها تحت إدارة القاضى أو المأمور القضائى، والذى تولاَّها آنذاك الخريج أندريس كالديرون .

ووفقًا لعرف أو تقاليد أسرة جرانادا - بينيجاس فإنَّ الوثيقة المُشار إليها والخاصة بالأوامر سلُّمَتْ بواسطة الملوك الكاثوليك إلى السيد / بيدرو دى غرناطة لكى يكون ماسكًا لدفاترهما أو مُحاسبًا لهما على أنهما قاما باستخراج صورة منها إلى ناظر عموم تندياو القاضى أو المأمور القضائى ، وفى هذا الصدد لم يشر النص إلى شيء من ذلك .و مما هو صحيح أيضًا فإنَّ هذه الوثيقة كانت ضمن الأرشيف الأسرى مثل بعض الوثائق الأُخرى ذات الأهمية الحيوية بالنسبة لتاريخ غرناطة (٢).

١ - الأوامر الصَّادرة عن الملوك الكاثوليك عام ١٤٩٢ فى مَظْهَرها الشَّكلى .

إنَّ تعليمات أو أوامر حكومة الحمراء كانت مكتوبة على ورق وكان مضمونها موجزًا ومقتضبًا ، وفى واقع الأمر كانت التعليمات أو الأوامر تتكون من عشر تعليمات أو عشرة أوامر ، وقد كُتِبَت بخط جميل كما كان شائعًا فى ذلك العصر ، وتتكون الوثيقة من ورقتين وورقة ثالثة كغلاف عليه تصنيفه لهذه الوثيقة ضمن أوراق ووثائق الأرشيف الخاص بأسرة غرناطة بينيجاس ، وعلى الوثيقة توقيعان : الأول فيما يبدو يرجع لأوائل القرن الخامس عشر استنادًا إلى شكل ونمط الخط المكتوبة به ، ويقول : الجزء ب من حزمة الأوراق الثانية ، أمَّا التوقيع الثانى فكان فى تاريخ أحدث يرجع إلى نهاية القرن السابع عشر أو مطلع القرن الثامن عشر ومكتوب عليه الحزمة رقم ٥ .

ومن جهة أُخرى فإنَّ الأوامر أو التَّعليمات موقعة من جانب الملوك الكاثوليك ومن قِبَل الأمين الملكى للشئون الغرناطية فرناندو دى ثيرا . أما مكان صدور هذه الأوامر أو التعليمات فكان سانتا فيه وتاريخها الخامس و العشرون من مايو عام ١٤٩٢ . وهذا القرار الحيوى الهام بالنسبة للمدينة نعنى غرناطة يبدو أن الملوك الكاثوليك قد تركوها فى الأيام الأخيرة فى أثناء إقامتهم بالعاصمة النصرية ؛ لأننا نعلم جيدًا أنهما كانا بقرطبة فى الرابع من يونيو عام ١٤٩٢ . (٣)

أمَّا الوثيقة الأخيرة فيها أمر ملحق أو إضافى يبدو أنه كان الأمر الحادى عشر ، ويبدو أنَّه كان يتعلق بنسيان غير متعمد ، الأمر الذى ظلَّ دون تخصيص فى النص الأصلى بالنسبة لأبواب وقلاع ومداخل للمدينة الأخرى التى كانت من اختصاص إشراف ورقابة ناظر العموم أو القاضى أو المأمور القضائى ، وهذا اللبث الصغير أدى إلى ضرورة ختم الوثيقة من جديد ووُقِّعَت مرة أُخرى من جانب الملوك الكاثوليك لتصحيحها .

٢ - مدينة غرناطة وقصر الحمراء إبَّان الشُّهور الأولى للسَّيطرة القشتالية .

إنَّ تحرير وثيقة الأوامر أو التعليمات من قِبَل الملوك الكاثوليك كان متوائمًا مع اللحظات الحاسمة التى عاشتها غرناطة خلال السنوات الأولى لاحتلالها بواسطة الجيش القشتالى، وفى هذا الصدد يهمنا إبراز ما حدث مع قصر الحمراء فى أثناء عام ١٤٩٢ .

ومن الواضح أن مقر الإقامة الرسمى للأسرة النصرية سيلعب دورًا هامًا من الدرجة الأولى فى المعارضات التى سيجريها وسطاء الأمير عبد اللهو الملوك الكاثوليك لكى يتم تسليم عاصمة المملكة كما يتضح ذلك من الشروط النهائية الموقعة فى الخامس والعشرين من نوفمبر عام ١٤٩١[٤] ، وجدير بالذكر أنَّهُ تم فيها الاتفاق على تسليم المدينة خلال ستين يومًا ، وذلك يعنى تسليم قلاع وحصون الحمراء والحسان والبوابات والأبراج وكافة حصون وقلاع المدينة ، ومما تجدر الإشارة إليه أيضًا هو أن هذا الموعد النهائى قد تقدَّم ؛ لأن الموقف الداخلى بغرناطة قد أفلت زمامه من أيدى الأمير عبد الله وكذلك باقى السلطات الإسلامية بالمدينة [٥] ، وأدى هذا إلى اتخاذ كلِّ التدابير الأمنية لضمان تسليم المدينة ؛ ولهذا فإنه ضمن الشروط نفسها تم إدراج شرط تعهد الغرناطيين التسليم للملوك الكاثوليك خمسمائة شخص مع الحاجب يوسف بن كوميشا وكذلك أبناء أو أشقاء هذه المدينة بما فيها حى البائسين وكذلك ضواحيها لكى تكون رهائن لدى أصحاب السمو فى غضون عشرة أيام على حين تُسلَّم الحصون

والقلاع الكائنة بالحمراء والحسان ويتم تعزيز تحصيناتها وقلاعها وإمدادها بالمؤن والمواد الغذائية .

وعلى وجه التحديد فإنَّ تسليم الخمسمائة رهينة يجب أن يتم قبل تسليم المدينة بيوم كامل ، ومع ذلك فإنَّ هذا الاحتلال لم يتم بفتح بوابات غرناطة لكى تدخل القوات القشتالية المدينة وذلك لكونه إهانة للمسلمين ، كما نصت الشروط أيضًا على أنَّ قوات الاحتلال يتدخل المدينة بشكل مُتخفى باستخدام بوابتين : باب الأعشار وباب النجدة وكذلك من الحقل المجاور لهذه المدينة ، كما أنه لا يجب على الأفراد الذين سيقومون باستقبال أصحاب السمو دخول المدينة فى الوقت الذى يتم التسليم فيه تفاديًا لحدوث تجمعات .

وفى النهاية وكما نعرف جميعًا احتلَّت غرناطة فى الثانى من يناير ١٤٩٢، وفى أثناء دخول المدينة قام الملوك الكاثوليك بتسليم نجل الملك إليه ، والذى كان رهينة بأيدى الملوك القشتاليين منذ مايو عام ١٤٨٦[٦] .

وكما كان من المعتقد فإنَّ أوَّل مبنى تم تسليمه كان مبنى القلعة نعنى قلعة قصر الحمراء والذى تسلمه رئيس دير مدينة ليون السيد / جوتيرى دى كارديناس على رأس كتيبة قوامها ٥٠٠ جندى من الفرسان و ٣٠٠٠ جندى من المشاة ، وحتى باب الإيخاريس خرج بعض الجنود المسلمين لاستقبال الجنود القشتاليين عند مدخل قصر الحمراء وقاموا بتسليم المسيحيين مفاتيح المدينة والقصر ثم غادروا المكان عقب ذلك ، ولم يبق بالقصر أى شخص مسلم حيث إن الأمير عبد الله كان قد رحل قبل ذلك ببضعة أيام إلى مقر إقامته القديم بالبائسين [٦ مكرر] ، هذا وقد قام رئيس الدِّير بتوزيع رجاله على النقاط والمراكز الاستراتيجية بقصر الحمراء وحصونه وقلاعه وقام بعملية استطلاع واسعة النطاق ، وعلى الفور أُقيم قُدَّاس بمسجد قصر الحمراء وبعد مباركة الصليب تم رفعه وكذلك الرايات والأعلام على أعلى برج بالقصر وهو على الأرجح برج الشمعة أو المركب الشَّراعى ، وفى الأيام التالية على ذلك تم الاستيلاء تدريجيًا على جميع أرجاء المدينة ، وبالتَّالى تم إدخال عدد آخر من القوات والجنود وكميات كبيرة من الدَّقيق والأسلحة والذَّخائر وكثير من السِّلع الضَّرورية ، أمَّا ناظر

عموم الحمراء الجديد فهو السيد / إنيجو لوبيث دى ميندوثا كونت تنديا الذى اختير لهذا المنصب فى الثالث من الشهر نفسه حيث دخل قصر الحمراء على رأس قوة قوامها ١٠٠٠ جندى من المشاة وفقًا لما رواه بيرناردو دى روبو مجهول الرواية الفرنسية [٧] ، وعلى العكس من ذلك فإنَّ الملوك الكاثوليك لم يدخلوا المدينة رسميًا حتى تستتب الأمور الأمنية بها . و قد اختير يوم السادس من يناير لدخول الملوك الكاثوليكو كان ذلك فى حضرة النبلاء وكبار الشخصيات إلى جانب ١٠,٠٠٠ فارسو ٥٠,٠٠٠ من المشاة ، ويُعتقد بأنَّ هذا أكبر جيش شهدته إسبانيا فى ذلك الوقت ، وقد طافت هذه القوات بشوارع المدينة واتجهت إلى قصر الحمراء ؛ حيث تم استقبالها بولائم لا مثيل لها ومشروبات لا تضارعها مشروبات فى تنديا [٨] .

وخلال الشهور التى تلت ذلك وحتى رحيل الملوك الكاثوليك تجاه برشلونة (لإيجاد حل لكثير من الموضوعات والمسائل المعلقة مع فرنسا بشأن ملكية روسيونو سردينيا) وقد وضع الأساس لتكوين ولتشكيل حكومة جديدة وذلك فى ظل احترام شروط ونصوص المعاهدة الموقعة مع المسلمين وكذلك إنشاء البنية الأساسية للدفاع عن المدينة للتصدى لأية محاولة تمرد أو عصيان من جانب المسلمين .

ولم يكن الملوك الكاثوليك وحدهم المنوط بهم تنفيذ هذه المهمة بل كان برفقتهم أربع شخصيات مهمة ستظل فى غرناطة فيما بعد لحل المشاكل الحيوية والمهمة ، وهؤلاء الأشخاص كانوا يمثلون السياسة والدبلوماسية والدين والجيش والآداب ، وهم فرناندو ثفرا الأمين الملكى [٩] وفراى إيرناندو دى تالابيرا القمص الأول لغرناطة [١٠] والسيد / إنيجو لوبيث دى ميندوثا كونت تندياو الماركيس دى مونديخار قائد عام قوات المملكة وناظر عام قصر الحمراء [١١] والخريج أندريس كالديرون أو قاضى أو مأمور قضائى لغرناطة والأراضى الواقعة فى دائرة اختصاصها [١٢] .

٣ – مضمون وأهمية الأوامر أو التَّعليمات الملكية الخاصة بقصر الحمراء ١٤٩٢ .

فى الواقع يمكن القول بأنَّ وثائق قليلة جداً وأصلية ومهمة قد عُثِرَ عليها لإعادة تكوين التاريخ السياسى للفترة التى نقوم بتحليلها منذ أن قام جاسبار ريميروو جيريدو أثينثا عام ١٩١٠ بتقديم آخر إسهاماته (١٣) ؛ لهذا السبب يمكن التأكيد على أنَّ حرب غرناطة وما تلاها من السيطرة القشتالية على المدينة تم دراستها بشكل موثق فعلاً ؛ ولهذا فلم يبق سوى تفسير ملائم وتحليل عميق للمظاهر أو الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، وفى هذا الصدد نجد أن الأوامر أو التعليمات الصادرة فى ١٤٩٢ جاءت لتسد الثغرات الصغيرة التى وافقت تاريخ هذه الفترة؛ لأنها على الرغم من كونها وثيقة مقتضبة وموجزة فإنَّه لا يستطيع أحد أن ينكر أو يجحد أهميتها وفضلها .

ففى الخامس و العشرين من مايو ١٤٩٢ بالفعل ترك الملوك الكاثوليك تخطيطًا أو خطة سياسية قضائية لإدارة دفة الأمور بغرناطة ، ولذلك فإنَّ الرسائل والشهادات التى صدرت فى هذا اليوم لم تتعلق فقط بالسلطات المسيحية بل أيضًا المسلمة ، فقد تم تعيين المفتيين والمعلمين والعرفاء لمدينة غرناطة . إنَّ الإدارة الحسنة لعدالة المسلمين (ليس فقط من أبناء المدينة) وفقًا لما يمكن قراءته من النصوص الموجودة فى أرشيف بلدية غرناطة ، وفى هذه الوثائق تحديد لوظيفة واختصاص القاضى بنفس الحقوق والصلاحيات التى كان يتمتع بها من قبل وقد تم تعيين كل من محمد البكينى ، فرج البسطى والفقيه محمد بن الفار كرجال فتوى كما تم اختيار من قِبَل الملوك الكاثوليك فى نفس اليوم الخامس والعشرين من مايو ١٤٩٢ خمسًا وعشرين أمينًا يمثلون كافة الحرف والمهن (صناعة الحرير وتجار التوابل والبهارات وتجار الأحذية ونسَّاجى الخيوط والقص والحدادين وتجار الفضة و الزيوت والدباغين والنجارين وصانعى الحلل والأوانى والخبازين والفرَّانين والصَّباغين وزارعى البساتين وصانعى القفف والمقاطف والقصابين (الجزارين) وحدَّادى الجياد والحمير وتجَّار السَّمك والدجاج ، وفيما يتعلق بالعرفاء أو المعلمين فقد تم اختيار أربعة : للبنائين والحمالين والمنادين والفرانين (١٤) .

وفى ذلك اليوم أو يوم آخر من تلك الأيام طبقًا للوثيقة المنشورة بواسطة دوران لبيرشندى – وإن كان بعض المؤلفين الآخرين يعتبرون ذلك متأخرًا – أنه تم اختيار مجلس بلدى للمسلمين يتألف من ٢١ من المسلمين الأندلسيين الذين تم اختيارهم من بين القضاة والفقهاء والأئمة والوعاظ من بينهم محمد البكينى والجواد يكسى بن سليمة إلخ ... وكان هذا المجلس الإسلامى يعقد اجتماعاته وجلساته فى منزل عبد البر و ذلك مرتين على الأقل أسبوعيًا أيَّام الثَّلاثاء والسَّبت [١٥] .

وفى الخامس والعشرين من شهر مايو عام ألف وأربعمائة واثنين وتسعين تم اختيار العمال لكى تبدأ هذه البلدية أو هذا المجلس البلدى الإسلامى مزاولة المهام المنوط به ، وعلى وجه التحديد فإنَّ هذه المناصب كانت تنحصر فى شاهد أو كاتب عدل أو موثق عقود أو حارس للاختام وثلاثة كُتَّاب (أحدهما مسيحى والآخران مسلمان) وستة بوابين ومترجم ومندوبون عن المدينة (أحدهما مسيحى لم يُذكر اسمه وآخر مسلم (ووقع الاختيار على محمد البكينى السالف الذكر) ووكيلان مسلمان (محمد أبو الدين [١٦] ومحمد بن العسكر) وناظر أسواق لتحصيل ضرائب البلدية من السوق ومفتشان للنظافة (نظافة الشوارع) وقد أرجئ اختيار كبير خدم المجلس وكذلك بعض المحاسبين الذين سيخضع أمر تعيينهم للمجلس البلدى الجديد فى أثناء اجتماعه الأول [١٧] .

ويبدو أن الملوك الكاثوليك كانوا حريصين على السماح بتطبيق نفس أسلوب الحياة البلدية فى غرناطة الذين أقروه فى بلدان أُخرى بها كثرة من المسلمين كان قد تم الاستيلاء عليها قبل غرناطة ، وكان هذا النظام يكمن فى تشكيل سلطتين متوازيتين أحداهما عسكرية المتمثلة فى الناظر العام الذى اعتاد العيش بالمدن التى بها قلاع على أن يكون قائد الجنود بها أما الثانية فهى المتركزة فى أيدى المجلس البلدى الإسلامى الذى كان يفصل فى القضايا والشئون الإسلامية ، والذى كان مكونًا كما نصت الوثائق من القاضى العام ، والحاجب والفقهاء والرجال المسنين الطيبين .وكعدالة سامية وعليا وعقوبية فى البلدان والقرى الأميرية كان يوجد بها قاضٍ أو مأمور قضائى كان لكل منهم نائبٌ أو مساعدٌ . أمَّا فى البلدان الأُخرى ذات السيادة فإن السلطة القضائية العليا ستتركز بجلاء فى أيدى صاحب السيادة

أكبر الملاك ثروة أو صاحب الإقطاعية الكبرى أو حاكم يقوم هذا بتعيينه للعمل نيابة عنه [١٨] .

وهذا النظام كما قلت يبدو أن الملوك الكاثوليك أرادوا تطبيقه فى غرناطة أيضًا أو يمكن استنتاج ذلك من التعيينات التى رأيناها آنفًا ، وهذه التعيينات كان من شأنها تحسين المعاملة التى كان يتلقاها المسلمون الأندلسيون بغرناطة .

١- سيحاكم المسلمون على أيدى قضاة مسلمين ووفقًا لأحكام شريعتهم الإسلامية دون المساس بعاداتهم وتقاليدهم .

٢- سيحصل المسلمون على كافة حقوقهم ومستحقاتهم دون نقص ، وسيكونون محل اعتبار من جانب الملوك الكاثوليك ، كما أنَّ عاداتهم وتقاليدهم لن يمسها تبديل أو تغيير وستظل كما هى .

٣- إذا نشب خلاف بين المسلمين فإنهم سيحاكمون وفقًا لما تنص عليه شريعتهم الإسلامية .

٤- إذا نشب خلاف أو نزاع بين مسلم ومسيحى أو مسلمة ومسيحية أو مسلم ومسيحية أو مسيحى ومسلمة فإن هذا النزاع سيُحل فى حضور قاضٍ مسلم وآخر مسيحى حتى لا يحتج أى منهما بالحكم الصادر فى هذا الشأن [١٩] .

ومن الواضح أنَّ البلدية الإسلامية أو المجلس البلدى الإسلامى ستكون له صلاحيات فض المنازعات بين المسلمين الأندلسيين وحكومة هذه الجالية . ففيما يتعلق بالشئون القضائية ستطرح المصالح الإسلامية والمسيحية للدفاع عنها وفقًا لقاضيين مسلم ومسيحى [٢٠] ، وفى تلك الأيام أيضًا فإنَّ يحيى النجَّار المعروف بالسيد / بيدرو دى غرناطة عقب ارتداده عن الإسلام كان المأمور القضائى الكبير فى غرناطة وقد ظهر هذا المنصب فى رسالة بعث بها إليه الملوك الكاثوليك من برشلونة فى السابع عشر من نوفمبر ١٤٩٢[٢١] ، وقد انتهك هذا التعيين شروط الاتفاقية الخاصة بتسليم المدينة (غرناطة). والتى حرَّمت تحريمًا باتًا على معاونى الملوك تولى أى منصب عام بالمدينة [٢٢] .

وكانت للمأمور القضائى صلاحيات النظر فى جرائم المسيحيين والمسلمين باستثناء دائرة اختصاص قصر الحمراء التى لن تخضع لسلطانه ، وربما يكون هذا الاختيار للسيد بيدرو فى هذا المنصب لكونه مسيحيًا ؛ حيث كان قد عُمِّدَ عام ١٤٨٩ ، وهذا الأمر يُخفف إلى حدٍ كبير من انتهاك شروط معاهدة تسليم المدينة ، هذا بالإضافة إلى توافر عدة ظروف أدَّت إلى هذا التعيين ؛ ففى المقام الأوَّل : كان الملوك مضطرين لمكافأة السيد بيدرو دى غرناطة على الخدمات الجليلة التى كان قد قام بها لجلالتهم . ثانيًا : كان الدم الملكى يجرى فى عروق السيد / بيدرو دى غرناطة - فقد كان حفيداً ليوسف الرابع -و قد منحه هذا صيتًا وشهرة كبيرين بين مسلمى غرناطة وخاصة الذين ألقوا بالمسئولية على أبى عبد الله فى هزيمة غرناطة من جرَّاء طموحاته الشخصية . ثالثًا : كان معروفًا فى غرناطة اليخارِّس فهو بالإضافة إلى كونه معاونًا للملوك الكاثوليك يمكن أن يكون الوسيط الجيد لإيجاد حل للمشاكل الناجمة بين السلطات المسيحية والمسلمين من أهل غرناطة .

وفى هذا التفسير الذى سقناه حتى الآن عن هذا التمويه أو الغموض الخاص بالحكومة البلدية الإسلامية يتفق كل المؤرخين الحاليين الذين تطرقوا لهذا الموضوع ، ومع ذلك فإنَّ لى رأيًا شخصيًا (يقوم على أساس أسباب يطول سردها وشرحها وحصرها ، وستخرج عن موضوع الدراسة الحالية) أعتقد أنَّ الملوك الكاثوليك لم يكن لديهم أدنى استعداد للوفاء أو للالتزام بشروط المعاهدة أو حتى مجرد منح أى امتياز أو مزايا للشعب النصرى .

وبإيجاز فإنَّ الملوك الكاثوليك وجدوا أنفسهم مضطرين ولو من الناحية الأخلاقية لمكافأة بعض الزعماء المسلمين الذين مدوا يد العون أو سهَّلوا المفاوضات وتسليم المدينة ، وهذا هو فيواقع الأمر سبب الإمتيازات التى نُصَّ عليها فى شروط التسليم والتى أشرنا إليها آنفًا .وأحيانًا كانت هذه الامتيازات عبارة عن دخل مادى مدى الحياة أو هدايا قيمة من الممتلكات أو التعيين فى وظائف ومناصب مهمة ذات حيوية بالغة لهؤلاء الذين ساعدوا المسيحيين سرًا وعلنًا (٢٣) ، وسيكون هؤلاء المعاونين الزعماء الوحيدين الذين ظلوا فى مملكة غرناطة إبَّان العهد الجديد ؛ لأنَّ معظم النبلاء والمفكرين

المسلمين إمّا أن يكونوا قد لقوا حتفهم فى أثناء الحرب أو أنهم هاجروا فى أثناء القتال أو عقب الهجوم النهائى على العاصمة الغرناطية ، وحقيقة الأمر أنّ الملوك القشتاليين كانوا فى حاجة إلى مساعدات المتعاونين لإنهاء الفترة الانتقالية من العصر الإسلامى إلى العهد المسيحى على المدى القريب والبعيد ، وقد أثبت التاريخ اللاحق أنَّهُ كان من المستحيل استئصال أو انتزاع هذا الشعب من معتقداته ، وأقصى شئ توصل إليه بفضل مساعدة المتعاونين هو إنشاء هياكل وأنظمة للحكم القشتالى فى غرناطة دون التسبب فى إثارة ظنون أو ارتياب الشعب .

ومما تقدم يسهل التوصل إلى استنتاج نهائى ، وهو أن الملوك الكاثوليك لم يكن فى قرارة أنفسهم أى عزم أو نية لكى يزدهر المسلمون فى إسبانيا أو حتى مجرد إمكانية التعايش – أو على الأقل المعايشة – للثقافات والحضارات الثلاث لشعوب العصور الوسطى ؛ فطرد اليهود عام ألف وأربعمائة واثنين وتسعين من بلادنا يؤيد ويعضد تبريراتنا ورأينا علمًا بأن هذا الإجراء نفسه جاء انتهاكًا لشروط ونصوص معاهدة تسليم غرناطة نفسها .

" لقد تم الاتفاق على أنّ اليهود من أهالى هذه المدينة (غرناطة) البائسين وضواحيها أو القادمين إليها من أماكن أُخرى سيتمتعون بكافة الحقوق ومن بينها العيش فى أمان دون التعرض لهم لا فى معتقداتهم ولا فى ممتلكاتهم " .

ولكن هناك أسباب عديدة للبرهنة على عزم الملوك الكاثوليك فى القضاء على الإسلام فى مملكة غرناطة .و من بين هذه الأسباب الجمّة يمكننا إبراز بعض الأسباب التى حدثت عقب انتهاء الحرب مباشرة مثل الضغوط التى مارسها الملوك ضد أبى عبد الله لكى يغادر الدولة (٢٤) وإلغاء جميع الامتيازات التى منحت طوال الحرب للقادة المتعاونين (٢٥) أو إنشاء هذه البلدية الإسلامية – التى كانت مجرد سراب يحسبه الظمآن ماءً فلم يكن لها أية سلطات فعلية أو حقيقية ، والتى أُلغيت عند أول تغيير عام ١٤٩٧ ، وذلك بعد أن تم تغيير اجتماعاتها وجلساتها من أيام السبت والثلاثاء إلى يوم الجمعة علمًا بأن المسلمين الأندلسيين لم يحضروا الجلسات والاجتماعات ؛ لأنّ يوم الجمعة هو يوم عطلتهم الأسبوعية (٢٦) .

وفى هذا الإطار يجب أن نرى الوجه الآخر للعملة نعنى الهيئات التابعة للحكومة القشتالية أو المسيحية التى ستنشأ فى غرناطة بينما يظل الملوك الكاثوليك فى غرناطة وسانتا فيه (يناير - مايو) فإنهما سيكونان الممثلين الوحيدين للعدالة ، ومع ذلك ففى الخامس والعشرين من مايو ١٤٩٢و فى الوقت الذى تم فيه إنشاء أو تشكيل البلدية الإسلامية قاموا بتعيين من سيكون لهم الأمر والنهى بالمدينة .

وفى واقع الأمر لم يكن هناك سلطات حقيقية أو فعلية إلا تلك التى كانت لدى المأمور القضائى أندريس كالديرونو الناظر العام انيجو لوبيث دى ميندوثا طبقًا لما نصت عليه الأوامر أو التعليمات الصادرة عن الملوك الكاثوليك بقصر الحمراء التى سنتحدث عنها بمزيد من التعمق والتفصيل ، ولكن كما قلنا فى موضع آخر فإنَّ المناصب الأربعة المهمة من بينها الأمين العام إيرناندو دى ثفرا والأسقف إيرناندو دى تالابيرا .

وقد تميز ثفرا إبَّان عشر سنوات استغرقتها الحرب بأنه مفاوض مكابر وعنيد وخبير بالموضوعات الإسلامية .

أمَّا تالابيرا فهو إلى جانب كونه محل ثقة الملوك الكاثوليك وقسيس اعترافاتهم كان أحد شخصيات الكنيسة القلائل الذين أعِدُّوا إعدادًا جيدًا لكى يتولى عملية التبشير المسيحى بين المسلمين الأندلسيين عن طريق الإقناع والقداسة المسيحية والاقتداء الحسن .

وسواء هذا أو ذاك فإنهما سيستمران فى مراسلة الملوك الكاثوليك ، كما أنَّهم سيشرفون على تجارات الدولة ذات الأهمية الحيوية ، ويمكن القول بأنهما كانا بمثابة وزيرين مفوضين خبيرين فى مواد محددة بحكم خبرتهما الطويلة وسيكلفان بمهام صعبة وشاقة ، ومن بين المهام التى تولاها ثفرا خلال السنوات الأولى : إقناع أبو عبد الله لكى يبيع ممتلكاته ويذهب إلى المنفى أو تلك التى لا تقل تعقيدًا عن سابقتها ، وهى إعداد العُدة لغزو شمال أفريقيا انطلاقًا من تأسيس بنية أساسية من الاتصالات والجواسيس الذين كانوا على أتم الاستعداد للعمل لصالح إسبانيا (٢٧) .

ولم يكن تالابيرا أقل أهمية من الأمين العام ؛ فإذا فشل فى إقناع مسلمى الأندلس بالارتداد عن الإسلام وعتناق النصرانية الكاثوليكية على وجه السرعة فإنَّهُ كانت تُسند إليه مهام فى غاية الحيوية لخدمة الملكية . وأذكر الآن الصفقات الهائلة للمسلمين الأندلسيين المستعبدين فى فينيانا وأبروثينا عام ١٤٩٨ أو تدخله الإيجابى لإقناع العبادلة زعماء المسلمين الأندلسيين بمنطقة بيليث للموافقة على أن تخضع أراضيهم تحت سيادة الكونت دى ليرين على الرغم من أنَّ نصوص المعاهدة عام ١٤٨٨ نصَّت صراحة على أنْ تستمر هذه الأراضى دائمًا أميرية أو حكومية [٢٨] .

والآن حسنًا فإنَّ حكام غرناطة الحقيقيين إذا وضعنا فى الاعتبار الوثائق والمستندات هم المأمور القضائى والناظر العام فى تنديا وكلاهما له اختصاصات محددة ومعروفة ، فالمأمور القضائى سيتولى الإشراف على غرناطة والقرى التابعة لها ، أمًّا الناظر العام فى تنديا فستكون اختصاصاته قصر الحمراء وملحقاته ولكنه مع ذلك سيتمتع بصلاحيات القائد العام ، أو سلطة منصب القائد العام (التى تقع على كاهلة) فى بقية مملكة غرناطة حيث سيتولى القيادة العسكرية والقضاء بالدولة لجميع الأفراد العاملين بالقلاع والحصون مما سيجعله المسئول عن الدفاع بالساحل وكذلك لمنع أى تمرد أو عصيان من جانب مسلمى الأندلس [٢٩] .

وفى هذا الإطار لا يمكننا نسيان فى أى لحظة أنه عام ١٤٩٢ كانت غرناطة مدينة بها ما يربو على ١٠٠,٠٠٠ مسلم [٣٠] ، وأنَّ الشىء الوحيد الذى كان يخول السلطة للقشتاليين أو المسيحيين هو جيش الاحتلال ؛ ولهذا نصَّت شروط التسليم على أن يُقَدِّم أبو عبد الله ٥٠٠ من الرهائن المسلمين على أن يُسلم هؤلاء عقب تسليم غرناطة بعشرة أيام ، فقد كان قصر الحمراء بحاجة ماسة إلى تعزيز حصونه وقلاعه و كما قال مستشارو الملوك الكاثوليك إنَّ هذا كان بمثابة مفتاح المدينة ولهذا - كما قال الأستاذ ليديرو - طلب الملوك عمالاً من جميع المدن الأندلسية للقيام بأعمال الإصلاحات والترميمات والتحصينات [٣١] ، وتجدر الإشارة هنا إلى أنَّ خوان ريخون قام بتسليم المشرف على أشغال الحمراء راميرو لوبيث ٨ مليون عملة مرابطية وذلك لسداد تكاليف هذه الأشغال نفسها طبقًا للحسابات التفصيلية التى مازال محتفظًا بها فى أرشيف سيمانكس [٣٢] .

و هذا التعزيز يُفهم تمامًا إذا ما اعتقدنا فيما قاله مؤرخ القصور الملكية الذى أشار بأنّ الملوك الكاثوليك لم يستطيعوا مغادرة غرناطة عام ١٤٩٢ لحدوث الكثير من أحداث الشغب والتمرد بالمدينة قام بها المسلمون الذين كانت لديهم مناجم مليئة بالأسلحة وقد اختار الملك الكثير من رجال العدالة والنُظّار العموميين لكبح تمردات المسلمين بالمدينة . لقد قام المسلمون بقتل الكثيرين وتمزيق آخرين انتقامًا من المسيحيين وكان رد الملوك الكاثوليك وضع المسلمين تحت نير الخوف والإرهاب والبطش للقضاء على تمردهم نهائيًا (٣٣) .

ويستشهد الرحّالة خيرونيمو منذر الذى زار غرناطة عام ١٤٩٤ ، أى بعد الاستسلام بعامين بتمرد من هذه التمردات التى تزعمها المسلمون الأندلسيون والذى وقع فى يونية من هذا العام .

" لقد مرت أربعة شهور فقط منذ شهر يونية حيث تزعّم أربعون ألفًا من المسلمين مؤامرة سرّية رغبة منهم فى قتل المسيحيين عن بكرة أبيهم الذين لم يتجاوز عددهم عشرة آلاف رجل ، وقد اكتُشفت هذه المؤامرة بفضل أسر أحد المسلمين من جرّاء تهديداته المستمرة لأحد المسيحيين ، وقد عُثِرَ فى بيت المسلم على أسلحة تكفى لأربعين رجلاً . وقد تمّ القضاء على هذه المؤامرة وعلى الرغم من أنّ لدى المسلمين تصريحًا لكى يعيشوا فى حرية تامة ويمارسون عبادتهم خلال ثلاث سنوات إلا أنّ مقاومتهم كانت تضعُف رويدًا رويدًا ؛ لأنّه تمّ انتزاع جميع الموانى البحرية التى كانت بحوزتهم وكذلك أكبر المدن المحيطة بها والتى يقطنها الآن مسيحيون مما سيجعل من الصعب عليهم القيام بالتمرد أو العصيان مرّة أُخرى (٣٤) .

ونظرًا لهذه التمردات أو الاضطرابات – والتى نعرفها من المؤرخين فقط – ولقد اضطرَ الملوك الكاثوليك إلى فرض عقوبات صارمة على المسلمين كما حرّموا عليهم امتلاك أسلحة وذلك بعد شهر من الاستيلاء على غرناطة أى فى السادس من فبراير ١٤٩٢و إلى حدٍ ما تمّ الاستفادة من المتعاونين فى أنْ يقوم هؤلاء بإقناع أهل غرناطة لكى يسلموا أسلحتهم مقابل ٨٠٠٠ قدح من القمح ستوزع بين الذين سلّموا أسلحتهم ؛ فالمسلمون كانوا قد عانوا الأمرين من الجوع إبّان الحرب فقبلوا هذا

القمح الفاسد كما يقول الأستاذ لاديرو ، ومع ذلك فإنَّ هذا الاتفاق جاء ليكون انتهاكًا آخر لشروط التسليم .

فالنص يقول : لن يؤخذ من المسلمين أسلحتهم ، ولن يرسل مبعوثون لجمع الأسلحة أو الجياد لا فى الوقت الراهن ولا فى المستقبل (٣٥) .

ويبدو أن الملوك الكاثوليك كانوا يخشون قيام المسلمين بانقلاب عسكرى والإجراءات التى اتخذت فى هذا الصدد كانت تشير بوضوح إلى ذلك. لقد اتخذت كافة التدابير لتفادى حدوث الانقلاب . لقد رأينا كيف أنه تم ترميم القلاع والحصون والمنشآت العسكرية لكى يكون الأمن شاملاً أو قيام القشتاليين بتجريد المسلمين الأندلسيين من الأسلحة وكإجراء نفسى قام الملوك الكاثوليك بفرض جيش مسيحى للاحتلال سيعسكر فى قصر الحمراء ، و قد بلغ عدد القوات طوال ١٤٩٢ حوالى ١٠٠٠ جندى بين فرسان ومشاة ، وفى العام التالى بعد أن استتب الأمن تم تخفيض هذا الجيش إلى ٤٥٠ رجلاً ، وفى عام ١٥٠٠ تم تقليص هذا العدد إلى ٣٠٠ جندى (٣٦) .

وبعد إيضاح كافة المدلولات السابقة يسهل الآن فهم كنه ومضمون أوامر أو تعليمات الحمراء فى عام ١٤٩٢ .

وبالفعل فإنَّ قضية الدِّفاع عن مدينة غرناطة التى لا يزال يقطنها كثير من المسلمين كانت تحتاج إلى قيادة عسكرية موحدة ، وقد كُلِّفَ بهذه المهمة الكونت تنديا ذو الخبرة الطَّويلة الذى كان يعرف تمامًا مدى كرم وبؤس المسلمين .وكما يشير الأمر الأول استطاع أن يبرهن منذ وخلال اليومين اللذين زار فيهما قصر الحمراء على أن السيِّد إينييجو لوبيث دى ميندوثا سيتولى وحده الإشراف على قيادة قصر الحمراء من الدَّاخل على أنْ يخضع جميع الأفراد لقيادته وفى إطار اختصاصه المدنى والعقوبى (٣٧) ، وهذه السلطة المهيمنة على كل شئ دى تنديا فى غرناطة ستستمر حتى عام ١٧٣٤ وإن كان ثقل المسلمين قد ضعف رويدًا رويدًا منذ عهد فيليب الثالث (٣٨) .

وفى مقابل ذلك فإنَّ الملوك الكاثوليك تركوا حكومة غرناطة فى أيدى الخريج أندريس كالديرون الذى كان يتولى إلى جانب ذلك منصب المأمور القضائى أو القاضى

العام أو موظف حكومى كان يمارس سلطاته بالنيابة عن التاج ، وجدير بالذكر أن المهام التى كان يزاولها منصوص عليها فى رسالة كتوكيل سلمها له الملوك الكاثوليك ويبدو أنَّ هذه الرسالة لم يتم الاحتفاظ بها وسيكون فى غاية الأهمية معرفة كيف كان هذا الرجل يزاول مهام منصبه واختصاصاته فى غرناطة دون أن تتعارض مع اختصاصاته فى ثفرا وتالابيرا وإنْ كانت الاختصاصات الأخيرة مستقلة وانحصرت فى إبلاغ الملوك بما يحدث وتنفيذ الأوامر والمراسيم الصادرة عن هؤلاء والمشكلة الوحيدة التى يمكن أن تنجم بين الكونت دى تنديا والمأمور القضائى هى تعارض الاختصاصات ، ومع ذلك فإنَّ البند الثَّامن والتَّاسع نظما هذه الأمور فى حالة حدوث صدام بين اختصاصات هذا وذاك ؛ وعلى ذلك فأى جندى يرتكب جناية فى مدينة غرناطة أو أراضيها سيكون اختصاص نظر هذه القضية من شأن المأمور القضائى العام ؛ لأنَّ الأمر يتعلق بأراضٍ تقع تحت دائرة اختصاصه علمًا بأن الكونت دى تنديا فى هذه الحالة مضطر لتسليم الجانى .و إذا لجأ هذا الجانى إلى الحمراء فإنَّهُ يتعين على الكونت المساعدة للقبض عليه وكذلك السماح لمحضرى المأمور القضائى العام بالدخول إلى الحمراء لإخراج الجانى بعد إلقاء القبض عليه .و يحدث العكس تمامًا إذا ارتكب أى شخص جناية فى قصر الحمراء وأراد اللجوء إلى المدينة لتفادى العدالة أى الهروب منها يجب على المأمور القضائى حينئذ إلقاء القبض على الجانى وتسليمه إلى الكونت تنديا لكى يحاكمه هذا ، وإذا تعذَّر على المأمور القضائى إلقاء القبض على الجانى يتحتم عليه أنْ يترك مُحضرى الكونت يبحثون عنه فى المدينة وأراضيها دون إعاقة هذه المهمة بأية حال من الأحوال .

وجانب آخر من التى ستنظم التَّعليمات أو الأوامر الإضافية التى تخصُّ حراسة ورقابة الأبواب الموجودة بالمدينة ، فبعضها كان ينتمى لاختصاص الكونت تنديا والبعض الآخر للمأمور القضائى على أنَّهُ يتحتم على كليهما تكليف عدد كاف من الأشخاص للتعرف على الأشخاص الذين يدخلون ويخرجون من المدينة . وفى هذا التوزيع للبوابات الذى أجراه الملوك الكاثوليك فإنَّ تنديا كان مُكلَّفًا بحراسة الأبواب المؤدية إلى قصر الحمراء والتى كان من بينها باب التوابين وباب جوميرس وإيخاريس وواحدة يُحرَّم تحريمًا قاطعًا وباتًّا على النقباء والقادة والجنود ورجال

الحراسة مغادرة قصر الحمراء وملحقاته إلى مدينة غرناطة حاملين أسلحتهم ومن يُضبط بالمدينة أو خارج القصر وملحقاته حاملاً سلاحه سيُصادر منه هذا السلاح باستثناء الكونت دى تندياو أفراد حمايته أو حراسته .

يُحَرَّم تحريمًا قاطعًا وباتًا على النقباء والفرسان والقادة والجنود إخراج جيادهم إلى مدينة غرناطة أو إحدى ضواحيها أو الأراضى التابعة لها أو لكى تقوم الجياد برعى العشب فى المروج الكائنة بالمدينة أو بأراضيها ، ومن يُضبط متلبسًا بهذه المخالفة سيُصادر حصانه أو جواده لصالح العدالة أو لصالح الشخص الذى ضبطه متلبسًا .

تحريم ألعاب الحظ والقمار والميسر تنفيذًا لقوانين مملكتنا وعلى من يُضبط مُتَلَبِّسًا ُطبق عليه العقوبة المنصوص عليها فى هذه اللوائح والقوانين المعمول بها فى مملكتنا .

يُحَرَّم على المسيحيين تحريمًا مطلقًا بيع أسلحة أو جياد للمسلمين ، وستكون عقوبة المخالف النفى من أراضى مملكتنا مدى الحياة ومصادرة أملاكه .

إذا قام أى نقيب أو حارس أو جندى بارتكاب مخالفة أو جناية أو جريمة بمدينة غرناطة خارج أبواب قصر الحمراء سيكون من اختصاص الخرِّيج كالديرون النظر فى هذه القضية ، وفى حالة هروب أو لجوء الشخص المخالف داخل قصر الحمراء وملحقاته فإنه يتعين على الكونت دى تنديا بذل مساعيه لإلقاء القبض على الجانى وإذا تَعذَّر عليه يجب أن يسمح لمحضرى الخرِّيج كالديرون بالدخول إلى الحمراء لإلقاء القبض على المتهم .

أمَّا إذا قام أى شخص عسكرى أو مدنى بارتكاب جناية أو جريمة أو مخالفة داخل الحمراء وقام بالهروب إلى مدينة غرناطة فإنَّهُ يتحتم على الخرِّيج كالديرون تتبع المتهم وإلقاء القبض عليه وإذا تعذَّر عليه ذلك يجب عليه السماح لمحضرى ورجال الكونت دى تنديا بتتبع المتهم الفار حتى يتمكنوا من إلقاء القبض عليه بالبائسين المطلة على قصر الحمراء ، أمَّا المأمور القضائى فمن جانبه سيقوم بحراسة باب البيرا والبوابات الأخرى الكائنة بمداخل المدينة .

أمَّا باقى الأوامر أو التعليمات الموجهة إلى الكونت دى تنديا لكى يطبقها جنوده .
وهذه الأوامر هى بمثابة لائحة عسكرية ، ومضمونها فى غاية القسوة ، وستبين هذه اللائحة كثيراً من السلوكيات التى تبدو عادية وطبيعية والعقوبات لا تفرق بين قادة وفرسان وجنود ، وتتراوح هذه العقوبات ما بين خصم عدة أيام من الراتب الشهرى حتى عقوبة التغريب والنفى .

ويشير البند الثالث من هذه اللائحة إلى تحريم خروج أى شخص موظف عسكرى من مبنى قصر الحمراء وملحقاته وحصونه وقلاعه إلا بتصريح مسبق من الكونت دى تنديا والعقوبات المطبقة نتيجة انتهاك هذا البند أو مخالفته تتراوح ما بين ثلاثة أيام بدون مرتب فى المرة الأولى للخروج حتى الفصل من العمل دون هوادة فى حالة الخروج ثلاث مرأت .

أمَّا البند الرابع فإنه يجبر جميع الجنود بقصر الحمراء الخروج عزلاً من السلاح فى حالة ذهابهم إلى المدينة مع الحرمان من السلاح فى حالة ضبطه أو مشاهدته بسلاحه خارج القصر وملحقاته ، وكان لهذا البند استثناء السماح للكونت دى تنديا والقادة وأفراد حراسته بحمل السلاح .

وفيما يتعلق بالبند الخامس فإنَّهُ يحرم على العسكريين بقصر الحمراء إخراج جيادهم إلى المدينة أو أخذهم لرعى العشب بالحقول المجاورة للمدينة ، وكان يُسمح لهم فقط بإخراج جيادهم داخل قلاع قصر الحمراء وفى حالة رؤيتهم خارج الحمراء مع جيادهم تُصادر منهم هذه الجياد .

أمَّا البند السادس فكان يتعلق بألعاب الحظ ، وكان التحريم قاطعًا وباتًا وحاسمًا استنادًا إلى تحريمها فى القوانين العامة بقشتالة .

وفيما يختص بالبند السَّابع فإنَّه مرتبط بالبنود السابقة التى أسلفناها وعلقنا عليها ، والتَّحريم القاطع على المسلمين امتلاك أسلحة ؛ ولهذا فإنه كان يُحكم على المسيحى الذى يبيع سلاحًا أو حصانًا للمسلمين بالنَّفى وفقدان ممتلكاته .

وبالنسبة للبند العاشر والأخير كان يدين الجنود بقصر الحمراء الذين يتم ضبطهم نائمين بالمدينة دون تصريح مسبق من الكونت دى تندياو كانت العقوبات أو الجزاءات فى هذا الصدد شديدة وصارمة ، فنوم ليلة أو قضاء ليلة بالمدينة دون تصريح مسبق كان يتسبب فى خصم ٣٠ يوم من الراتب ، وإذا تكرر الأمر كانت العقوبة الفصل النهائى من العمل دون هوادة .

وخلاصة الأمر فإنَّهُ إلى جانب أهمية الأوامر والتعليمات ونظراً لوجود اختصاصات مختلفة ومتشابكة أحيانًا (الحمراء / غرناطة وأراضيها) كانت هذه الأوامر بمثابة الهوية الذاتية للحياة الغرناطية خلال فترة طويلة من الزَّمن ، أمَّا بقية الأوامر أو التعليمات فكانت أشبه بلائحة عسكرية تضم قائمة لا حصر لها من الأوامر العسكرية ، وكان تفسير كل هذا فى طبيعة الظروف التى أحاطت باسترداد غرناطة ، لقد كانت غرناطة فى تلك الأثناء غير آمنة وكان عدد المسلمين يفوق بكثير تعداد جيش الاحتلال ، ولم يكن هناك بدٌ من فرض لائحة قاسية وأوامر صارمة لحفظ الأمن واستتباب النِّظام ومنع تحمس الجنود الغزاة و لتفادى الإباحية والبطش من قِبَل هؤلاء الذين كانوا بصدد استرداد مدينة غرناطة نفسها من أيدى غزاتها وفاتحيها المسلمين .

ملحق وثائقى

الخامس والعشرون من مايو ١٤٩٢

سانتافيه ، غرناطة .

أوامر وتعليمات وجهها الملوك الكاثوليك
إلى الكونت دى تنديا والخريج كالديرون
وهى بمثابة لائحة تحدد اختصاصات ومهام
حكومة الأول بقصر الحمراء وملحقاته
والثانى بمدينة غرناطة والأراضى التابعة لاختصاصها .
أرشيف دوقة باسترانا ،
وثيقة مراسيم أو أوامر أو تعليمات الملوك الكاثوليك التى
يجب أن يُحتفظ بها فى قصر الحمراء (الملك والملكة)
(إيزابيل وفرناندو)

الأوامر التى أمرنا بتنفيذها فى قصر الحمراء بمدينة غرناطة وكذلك بالمدينة المذكورة وذلك لنشر العدالة بين ربوعها تتلخص فى الآتى :

أولاً : سيكون من اختصاص الكونت دى تنديا الحكم بالعدل فى الأحوال المدنية والإجرامية والجنائية التى تحدث داخل قصر الحمراء وقلاعه وحصونه وملحقاته .

ثانيًا : سيكون من اختصاص الخرِّيج كالديرون الحكم بالعدل فى الأحوال المدنية والإجرامية التى تحدث فى مدينة غرناطة وضواحيها و القرى التابعة لها باستثناء قصر الحمراء وقلاعه وحصونه وملحقاته ، وذلك استنادًا إلى التوكيل الذى يوجد بحوزته والصادر عنا نحن الملوك الكاثوليك .

ثالثًا : يجب على القادة والفرسان والجنود والموظفين بقصر الحمراء البقاء فى هو عدم مغادرته أو حصونه أو قلاعه إلا بتصريح مسبق من الكونت دى تنديا وإذا حدث ذلك فإنَّ مرتكب المخالفة يُخصم له أجر ٣ أيام من راتبه لأول مرة وعشرة أيام فى المرة الثانية وشهر كامل من راتبه فى المرة الثالثة والفصل النهائى من العمل والشطب من سجلاتنا ، ويتحتم على الكونت دى تنديا أنْ يُعلن ذلك على الملأ بقصر الحمراء وذلك لكى يتحقق الجميع من عدالة الحكم دون ظلم أو إجحاف للمخالف ، كما يتحتم تعيين أفراد حراسة عند بوابات قصر الحمراء وذلك للتعرف على الداخلين والخارجين من المبنى .

كما يُحرَّم مطلقًا على أى نقيب أو قائد أو جندى المبيت خارج الحمراء بمدينة غرناطة دون تصريح مسبق موقع من الكونت دى تنديا فإذا كان المخالف نقيبًا يُخصم له شهر من راتبه أمَّا إذا كان جنديًا سيُخصم له من راتبه عشرون يومًا وإذا تكررت المخالفة تتضاعف العقوبة وتصل أحيانًا إلى الفصل النهائى من الوظيفة أو العمل وكذلك الشطب من السجلات وستوزع قيمة الخصم بين الذين اكتشفوا المخالفة أو المخالف أو بين الذين قاموا بتنفيذ الحكم .

هذا وقد أصدرنا هذه الأوامر أو التعليمات لكى يقوم بالامتثال لها وتنفيذها كل من الكونت دى تنديا والخرِّيج كالديرون دون تسويف أو مماطلة على أن تُعلق الأحكام على الملأ لكى يتحقق الجميع من إحقاق الحق ونشر العدل بين رعايانا .

صدرت هذه التعليمات أو الأوامر فى الخامس والعشرين من شهر مايو ١٤٩٢ بمدينة سانتا فيه ، غرناطة .

أنا الملك أوَقِّع الوثيقة   أنا الملكة أبرم الوثيقة

ونحصُّ بالقلاع والبوَّابات ما يلى :

- قلعة وبوابة التوَّابين من اختصاص الكونت دى تنديا
- بوابة جوميريس من اختصاص الكونت دى تنديا
- بوابة إيخاريس من اختصاص الكونت دى تنديا
- بوابة البيَّازين (صائدو الصقُّور) المؤدية إلى الحمراء من اختصاص الكونت دى تنديا
- بوابة إلبيرا من اختصاص المأمور القضائى .

(التوقيعات الملكية)

بأمر الملك فرناندوو الملكة إيزابيل أُبرم هذه الوثيقة (فرناندو دى ثفرا)

وفى هامش الوثيقة كُتِبَ يجب أنْ يقوم الكونت دى تنديا والنَّاظر العام أو المأمور القضائى بحفظ هذه الوثيقة .

٢

الهوامش والمصادر والمراجع

(١) وكثمرة لهذه الأبحاث قُمت بنشر العديد منها بالتعاون مع ايسبينار مورينو . م . " شخصية من الميريا فى التواريخ الإسلاميةو المسيحية ، الأمير ثيد يحيى النجار (١٤٣٥ - ١٥٠٦) دوره فى حرب غرناطة " صحيفة معهد الدراسات الأميرية ، العدد السابع (١٩٨٧) الصفحات ٥٧ - ٨٤ نفس المصدر السابق وصية ووفاة السيد / بيدرو دى جراناداو تكريم البارون سانتا ماريا مايوركا ٢٢ (بالما دى مايوركا ١٩٨٩) الجزء الأوًل الصفحات من ٢٣٩ - ٢٥٤ السيرة الذاتية الكاملة لا زالت تحت الطبع .

(٢) إحدى هذه الوثائق الهامة لمعاهدة تسليم غرناطة الأصلية وُهبَت من الماركيز دى كورييرا إلى بلدية غرناطة فى مطلع هذا القرن ، انظر التعليقات التى أعدَّها فى هذا الصدد جاريدو أتيينثا عن هذه الهبة فى كتابه مُعاهدة تسليم غرناطة ١٩١٠ .

(٣) ماريانو جاسبار أى ريميرو يشير فى دراسته " غرناطة فى حوزة الملوك الكاثوليك ، السنوات الأولى من السيطرة على غرناطة " مجلة مركز الدراسات التاريخية لغرناطة ومملكتها ، الجزء الأول رقم ٤ (١٩١١) ص ٢١٣واقعة معروفة جيداً وهى تسليم غرناطة لقوات الملوك الكاثوليك وقد ظل هؤلاء بها وكان لهم قصراً فى سانتا فيه حتى الأيام الأولى من شهر يونيو عام ١٤٩٢ . وفى هذا الصدد يقدم الأستاذ لاديرو كيسادا رسالة من الملوك الكاثوليك مؤرخة فى الرابع من يونيو ١٤٩٢ بقرطبة مما يؤكد أن الملوك قاموا قبل ذلك بأيام بمغادرة غرناطة (أنظر غرناطة بعد الفتح السكان الجدد والمسلمون الأندلسيون ، غرناطة ١٩٨٨ ص ٣٨٩ - ٣٩١).

(٤) المصدر السَّالف الذكر ص (٣٦٦ - ٣٨١) .

(٥) جاسبار أى رميرو . م . " دخول الملوك الكاثوليك غرناطة فى وقت التسليم " RCEHGR الجزء الأول رقم ١ (١٩١١) ص ٧ - ١١ الاتفاق وقبول الشروط الخاصة بتسليم غرناطة من جانب حكامها وشعبها يقول المؤلفون المحدثون لم تكن هناك حاجة لانتظار اليوم المحدد للتسليم وفقًا لنصوص المعاهدة لكى يستولى الملوك الكاثوليك على المدينة ، ونظرًا لخوف أبو عبد الله من تمرد الشعب على شروط المعاهدة فقد قام بدعوة الملوك الكاثوليك بتعجيل قدومهما لغرناطة ، وحقيقة فإن الطريقة غير الصحيحة التى تمت بها المفاوضات من قِبَل الأصدقاء الحميمين لعبد اللهو انعدام الثقة الملحوظ بين مختلف طبقات الشعب الغرناطى فى أثناء الحرب كانت أكبر مبرر على تخوف أبى عبد الله .

(٦) جاريدو أتينثا (المصدر السالف الذكر ص ١٦٦) يشرح كيف أن هذا الأمير وصل إلى حوزة الملوك الكاثوليك كرهينة لكى يمتثل والده عبد الله لنصوص الاتفاقية ويقوم بتسليم غرناطة للقشتاليين عندما تنتهى الحرب .

(٦ مكرر) جاسبار إى رميرو . م . " دخول الملوك الكاثوليك غرناطة فيوقت التسليم " ص ١٣ ، ١٦ ، ١٧ .

(٧) معلومات دى ب دى روى فى تاريخ الاستيلاء على غرناطة بواسطة الملوك الكاثوليك وفقًا لوجهة نظر بيرناردو دى روى ترجمة خوان ف دى ريانيو ، مجلة الحمراء رقم ١٥ (غرناطة يناير ١٨٩٨) وفيما يتعلق بالخطاب الفرنسى المجهول الهوية فقد ترجمه إيجيلاث يانجواس . ل . ، والذى نُشِرَ فى محامى غرناطة رقم ٣١٧ فى الثانى من يناير ١٨٨٣ .

(٨) وفى هذا الموجز للهوامش عن الاستيلاء على غرناطة فقد تتبعنا الاستنتاجات التى توصل إليها جاسبار إى رميرو . م . " دخول الملوك الكاثوليك غرناطة فيوقت التسليم " المصدر السالف الذكر سابقًا الصفحات من ١٣ - ٢٤ .

(٩) على الرَّغم من الأهمية التى تمتع بها هذا الشَّخص فى الموضوعات الغرناطية يجب الاعتراف بأنَّ المعلومات عنه قليلة ونادرة ، وأنا أعرف فقط . ، وجامير أ . ، المذكور سلفًا ص ١٥ وهما يعتقدان بأنَّ هذه البلدية الإسلامية قد تم تشكيلها فيما بعد وفى تاريخ لاحق .

(١٠) عن فراى إيرناندو دى تالابيرا الأمر يختلف تماماً ؛ لأنّ الأعمال التى تبحث عن كنه شخصيته وحياته وفيرة وكثيرة وكعينة لذلك نختار الأعمال التالية مدريد . خ . عن الحياة المقدسة لسانت إيرونيمو أسقف غرناطة - مدريد ١٨٦٦ ، فرنانديث دى مدريد . أ . ، حياة فراى إيرناندو دى تالابيرا أول أسقف لغرناطة مدريد ١٩٣١ .

(١١) الشخصية السيادية للسيد إينيجو لوبيث دى ميندوثا كأحد دارسى الروحانيات فى إسبانيا الأمر الذى أدى إلى دراسة شخصيته مراراً وتكراراً ، فهناك الكثير من الأعمال الكلاسيكية التى تناولت شخصية هذا الرجل وآخرين من الأفراد البارزين بأسرته من بينهم إيبانيث دى سيجوبيا . ج . ، (ماركيس دى مونديخار) تاريخ بيت مونديخار ، المكتبة الوطنية مخطوط رقم ٣٣١٥ لينا سيًرنوف ، تاريخوادى الحجارة وأهل ميندوثا إبًان القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، مدريد ١٩٤٦ ، مجلدان وأبحاث مدعومة بوثائق جديدة مثل مؤلف ثبيدا أدان . خ . تنديا العظيم رجل العصور الوسطى وعصر النهضة ، دفاتر التاريخ ، الجزء الأول (١٩٦٧) الصفحات من (١٥٩ - ١٦٨) ولنفس المؤلف الكونت دى تنديا أوًل ناظر عموم لقصر الحمراء ، دفاتر الحمراء ، العدد ٦ (١٩٧٠) الصفحات ٢١ - ٥٠ ، مينيسيس جارثيا إى غرناطة والكونت الثانى دى تنديا ، مجلة إسبانيا (١٩٧٢) الصفحات من ٥٥٠ - ٥٦٢ ، ولنفس المؤلف مراسلات الكونت دى تنديا (١٥٠٨ - ١٥١٣) سيرة ذاتية ، دراسة ونسخ (١٩٧٣ - ١٩٧٤) مجلدان وأخيراً السيرة الذاتية الحديثة جداً من أعمال الأمريكية الشمالية هيلين نادر أفراد أسرة ميندوثا والنهضة الإسبانية ، وادى الحجارة ، ١٩٨٦ ترجمة إلى الإسبانية لرسالتها للدكتوراة للمؤلفة نفسها ، نبيل قشتالة فى القرن السادس عشر وقضية ماركيز مونديخار ، ١٤٨٠ - ١٥٨٠ فى مراجعة التاريخ الاقتصادى ، السلسلة الثانية العدد ٣٠ الجزء الثالث (١٩٧٧) الصفحات ٤١١ - ٤٢٨ وأيضًا الأستاذ سيمولكا كلاريس له بحثان فى الصحافة عن شخصيتنا .

(١٢) شخصية المأمور القضائى أندريس كالديرون غير معروفة تماماً وتحتاج إلى من يتجرأ لدراستها بدقة وتمحيص و الإشارة الوحيدة التى أعرفها عن سيرته الذاتية

هى التى أعدّها دوران لير شندى . خ . ، المصدر السالف الذكر الجزء الثانى ص ٥٤١ أمّا ما عدا ذلك فهى فقيرة ونادرة المعلومات وتنحصر فى جملتين كتبهما مارمول كاربخال عن أندريس كالديرون .

(١٣) انظر جاسبار إى رميرو . م . ، إلى جانب الأعمال المذكورة الاتفاق الأخير ومراسلات الملوك الكاثوليك مع أبى عبد الله بشأن تسليم غرناطة ، محاضرة فى جامعة غرناطة فى الافتتاح المهيب للسنة الجامعية أو الدراسية ١٩١٠ - ١٩١١ ، غرناطة عام ١٩١٠ ووثائق عربية من البلاط النصرى فى غرناطة ، الاتفاقيات الأوليو المراسلات الحميمة بين أبى عبد اللهو الملوك الكاثوليك بشأن تسليم غرناطة ، مجلة الأرشيفات والمكتبات والمتاحف ، العدد ٢٢ (١٩١٠) ٤ ملازم ، دى جاريدى أتينثا مؤلفه نصوص معاهدة تسليم غرناطة ، غرناطة ١٩١٠ .

(١٤) أرشيف بلدية غرناطة كتاب الإمدادات والوثائق الملكية الأوراق ٥٢ و ٤٦٩ ، تفسير وشرح لهذه الوثائق فى عمل جاييجو بورين . م . و جامير ساندوبال . أ . مسلم والأندلس فى مملكة غرناطة عام ١٥٥٤ ، غرناطة ١٩٦٨ ، ص ١٤ - ١٦ .

(١٥) ورأيى الشخصى أنّ هذا المجلس الإسلامى تم تعيينه يوم الخامس والعشرين من مايو عام ١٤٩٢و بهذا أتفق مع جاسبار ريميرو . م . " غرناطة تحت سلطة الملوك الكاثوليك ... " المصدر المذكور آنفًا ص ٢١٨ - ٢١٩ومن ناحية أُخرى دورات لير شندى . خ . ، المصدر سابق الذكر الجزء الأول ص ١٢٢ - ١٣٧ الذى أشار إلى أن المجلس الإسلامى قد تم تشكيله فى مطلع عام ١٤٩٢ ، وأخيراً جاييجو أ . ، وجامير أ . ، المذكور سلفًا ص ١٥و هما يعتقدان بأنّ هذه البلدية الإسلامية قد تم تشكليها فيما بعد وفى تاريخ لاحق .

(١٦) وبالنِّسبة لهذه الشَّخصية الذى ينتمى إلى ألميريا من لوس بيليت توجد مطبوعات تعكس حياته ، تابيا جاريدو . خ . أ . ، عبد الله الأخير ، مجلة بيليثانا ، العدد ٥ (١٩٨٦) ص ٤١ - ٤٥ ، جريما ثير باتيس . خ . ، الشروط المتفق عليها فى ١٤٨٨ وفى ١٥٠١ بين الملوك الكاثوليك والمسلمين الأندلسيين ، دى بيليث بلانكو وبيليث روبيو ، مجلة بيليثانا ، العدد ٦ (١٩٨٧) ص ٧٥ - ٨٦ .

(١٧) جاسبارو ريميرو . م . ، المصدر سالف الذكر ص ٢١٨ .

(١٨) هذا المخطط يبدو أكثر تطوراًو بأمثلة فى جريما ثير بانتيس . خ . تصحيح بيرا باثا قبل عام ١٥٠٠ ، المجلة الملكية ٧ - ٨ (١٩٨٦ - ١٩٨٧) ص ٥٥ - ٨٧ .

(١٩) لاديرو كيسادا . م . أ . " غرناطة بعد الفتح " ص ٣٦٦ - ٣٨١ .

(٢٠) وعلى الرغم من أنَّ هذا هو خط الوثيقة فالواقع أن مرأت قليلة اجتمع فيها القاضى المسيحى والقاضى المسلم للنظر فى قضية طرفاها مسلم ومسيحى . وأكثر من ذلك إذا صدقنا كلمات إيرناند وثفرا الموجهة إلى الملوك الكاثوليك يجب أن نستنتج بأن المامورين القضائيين كانوا دائماً ينتهكون نصوص المعاهدة وكانوا دائمى التدخل فى القضايا التى طرفاها مسلمان ٠ فى المنازعات بين مسلم ومسلم لا تتم محاكمتهم وفقًا للمعاهدة بل طبقًا لقوانين جلالتكم وفى الحالات الإجرامية والجنائية سيخضعون أيضًا لقوانين المملكة وإن كان هذا الأمر قد سبب الكثير من شكاوى الفقهاء . سيكون رهن إشارتكمو طوع أوامر جلالتكم (كودوين ، الجزء الحادى عشر ص ٥٠٤) .

(٢١) أكاديمية التاريخ الملكية ، مجموعة سالاثار ، مخطوط رقم ١٩٥/٩ (مجهول الأصل) تاريخ قصر غرناطة ، الورقة ٣٧و ٣٨ .

(٢٢) لاديرو كيسادا . م . أ . المصدر المذكور أنفًا ص ٣٨٠ .

(٢٣) أمثلة كل هذه النعمو الفضائل والجوائز يمكن الاطلاع عليها فى لاديرو كيسادا م . أ . " مسلمو قشتالة فى عهد إيزابيل الأولى " بلد الوليد ١٩٦٩ .

(٢٤) انظر فى هذا الصدد جاسبار إى ريميرو . م . " رحيل عبد الله مع أسرته وخدمه الرئيسيين (حاشيته) " R.C.E.H.G.R. الجزء الثانى ، رقم ٢ (١٩١٢) ص ٥٧ - ١١١ .

(٢٥) هذا الموضوع لم يتم التَّصدى له حتى الآن منوجهة النظر هذه . نعرف جيداً أنَّ الملوك الكاثوليك قد أجبروا حكام غرناطة على التَّخلى عن أملاكهم وممتلكاتهم فى كاستياخر وكورتيسو يوثا كورديلا وتيخولا إلى محمد حسن دى سيرون ويحيى النجَّار

إلى طه مارشينا إلخ ... حتى لم يبق أى شئ منها فى أيدى أناس يعتنقون الديانة الإسلامية أو لمن ينتسبون إلى هذه الديانة و هناك دراسة تدور حول هذا الموضوع لخالا . ب . سانشيث . أ . " السلطة المسيحية وتعاون المسلمين الأندلسيين فى مملكة غرناطة " (١٤٨٥ - ١٥٠١) فى دراسات عن مالقة ومملكة غرناطة فى الذكرى المئوية الخامسة لذكرى فتح غرناطة ، مالقة عام ١٩٨٨ ص ٢٧١ - ٢٨٩ .

(٢٦) أرشيف بلدية غرناطة ، كتاب المجالس الحكومية والدينية لعام ١٤٩٧ حتى عام ١٥٠٢ الورقة ٢١ ف .

(٢٧) فيما يتعلق بتدخله لإقناع أبى عبد الله لمغادرة إسبانيا فإنَّ إيرناندو دى ثفرا يحكيه لنا فى مذكرات خدماته عندما أكَّد عقب انتهاء الفتح لقد غادر الملوك الكاثوليك غرناطة وتركونى هناك . وقد تفاهمت مستخدمًا كافة سبل الدهاء والإقناع والدبلوماسية لإقناع الملك المسلم بمغادرة إسبانيا و لقد كلفنى ذلك - لكى يؤتى ثماره المرجوة - كمية من النقود وبغال أعطيتها للملك المسلم و أشياء أُخرى (جاريدو أتينثا . م . المصدر المذكور سلفًا ص ٣٢٦ - ٣٢٩) .

(٢٨) وفيما يخص العبيد فى أكاديمية التَّاريخ الملكية ، مجموعة سالا ، المخطوط ٩/١٩٥ المجهول الهوية ، تاريخ قصر غرناطة الورقة (٧٣ ق) و (٧٤ ق) . وفيما يتعلق بأفراد بيليث فإن الأمر يتعلق برسالة مؤرخة فى الرابع من ديسمبر ١٤٩٣ موجهة من الملكة إيزابيل إلى تالا بيرا دى تتعلَّق بكثير من أمور الدولة الهامة بين الأمين العام والأسقف رئيس الأساقفة سنقوم بنسخ جزء منها "وبما أننا سنستفيد جيدًا من أفراد بيليث ؛ لأن الأمر أمرنا ولم يكن بوسعنا اعطائهم إياه ؛ لأنَّهُ قد اقسمنا على ذلك لهذا نرى أنَّ إيرناند وثفرا يجب عليه أنْ يتفاهم بالشكل الذى يراه مع المحضر من أجل الحصول على موافقة هؤلاء الأمر الذى يبعد عنا أى شبهة وأرجو التفاهم بوسيلة أو بأخُرى وبالشكل الذى يحلو لكم دون أنَّ يدرى أحد بالموضوع لما تركه المسلمون عند رحيلهم " (مذكرات أكاديمية التاريخ الملكية ، الجزء السَّادس ، مدريد ١٨٢١ ص ٣٧٢ - ٣٧٣) .

(٢٩) هذا المنصب كقائد عام لملكة غرناطة إلى جانب الاختصاصات القضائية فى المجال العسكرى ستصطدم على وجه السرعة مع العدالة العادية التى سيتم تشكيلها اعتباراً من عام ١٥٠٥ والتوترات بين العدالتين المدنية والعسكرية سيكون من بين الأسباب التى سيستشهد بها المؤرخون الكلاسيكيون كالشرر اللازم لإشعال حرب البخاراس عام ١٥٦٨ وخاصة على أساسوصول السيد / بيدرو دى ديثا إلى رئاسة العدالة المدنية (انظر هذا الموضوع بتوسع فى أورتادو دى ميندوثا . د . " حرب غرناطة " طبعة بلانكو جونثاليث ، مدريد ١٩٧٠ ص ١٠٣ - ١١٣ .

(٣٠) منذر . خ . ح . " رحلة فى إسبانيا والبرتغال " مملكة غرناطة ، غرناطة ١٩٨٧ ، ص ٤٨ فى أرض المسيحيين منزل كبير يشغل مساحة أكثر من خمسة منازل إسلامية .... ومن هنا فمن الملائم القول بأنه كان يوجد فى غرناطة ١٠٠ ألف منزل كما أعتقد أنا . وكذلك بيثينتى . ب . ، نظرة دو روبامى دى غرناطة للمسافرين أو الرحالة الأجانب خلال القرنين الخامسو السادس عشر ، التاريخ الجديد ، العدد ١٥ (١٩٨٦ - ١٩٨٧) ص ٣٠٩ يشيرون فى هذا الصدد (نعنى شعب مدينة غرناطة) حوالى ١٠٠,٠٠٠ نسمة منهم ١٤,٠٠٠ بتل البانسين وقد تم طرد ٢٠,٠٠٠ عام ١٤٩٢ ويقول بيدرو دى ميدينا إنَّ تعداد شعب غرناطة بلغ ٤٠٠,٠٠٠ نسمة .

(٣١) لاديرو كيسادا م . أ . ، المصدر سالف الذكر ص ٢١٤ انظر أيضاً أرشيف بلدية أشبيلية ، جزء الملوك الكاثوليك ، الثالث ، الورقة ٢٧٠ - ٤٧٦ فى ١٢ فبراير و ٦ مارس ١٤٩٢ حيث طُلِبَ عمال للقيام بأعمال الترميمات والإصلاحات والتحصينات ٢,٤٠٠,٠٠٠ طلبية من أشبيلية .

(٣٢) الأرشيف العام تسيمانكاس " الحسابات الكبرى " دفتر ١٤ .

(٣٣) بيرنانديث . أ . " تاريخ الملوك الكاثوليك " BAE الجزء ٧٠ ص ٦٦٤ .

(٣٤) منذر . خ . ، المصدر سالف الذكر ص ٤٩ .

(٣٥) لاديرو كيسادا م . أ . ، المصدر المذكور سلفًا ص ٢١٤ ، منذر . خ . ، المصدر المذكور آنفًا ص ٣٩ ، ٥٩ .

(٣٦) منذر . فى المصدر سالف الذكر ، ص ٦٠ .

(٣٧) إقامة منذر بالحمراء ورأيه الهائل أو الأسطورى عن الكونت دى تنديا لا يترك مجالاً للشك بالنسبة للتعليق الذى سردناه .

(٣٨) مورينو أوليدو م . أ . "وثيقة من أرشيف الحمراء عن أفراد ميندوثا بغرناطة " دفاتر الحمراء العدد الرابع (١٩٦٨) ص ٨٩ – ٩٨ .

الفصل الخامس عشر

اقتراح لِمُتْحَف قصر الحمراء

إعداد : ماتيو ريبيا أوثيدا

بعد فترة من انفصال المتحف الإسباني الإسلامي عن مجموعة قصر الحمراء بإدارة مستقلة يعود مرة أُخرى للانضمام إليه ، ورغبة الانضمام مرَّة ثانية تمَّت الموافقة عليها في الجلسة التي عقدتها هيئة المتاحف في السادس والعشرين من نوفمبر عام ١٩٩٣ ووزارة الثقافة في أمرها الوزاري الصادر في الثامن عشر من مايو ١٩٩٤ لإعادة تنسيق وتنظيم المتاحف التابعة للدولة الخاضعة لإشراف الوزارة والكائنة في إقليم الأندلس المستقل ذاتيًّا قد غير اسم المُتْحَف إلى مُتْحَف الحمراء ، وبعيداً عن الشكليات المحضة فإنها محاولة للتَّعرف على اتصاله وارتباطه بالأثر الخالد .

وبالفعل فإنَّ أصله وتاريخه وتطوره ترتبط ارتباطًا وثيقًا بتاريخ المجموعة النصرية الذي أُعْلِنَ عن كونه أثرًا وطنيًا عام ١٨٧٠ وذلك من خلال الأمر الحكومي الجمهوري (الصادر في العشرين من مارس ١٨٧٣) التي اختار قصر الحكام الكائن فوق المشوار والحجرة الذهبية ليكون مقرًا للمُتْحَف .

وفي بداية الأمر كان يحتوي على القطع التي تم تجميعها من نفس الحمراء ، وقد تم توصيفها وتصنيفها منذ منتصف القرن التَّاسع عشر بواسطة محافظه رفائيل كونتريراس .وبعض هذه القطع كان دائمًا موجوداً هنا مثل إبريق أو جرَّة الغزلان وهو

أكبر شاهد على عظمة الأثاث المفقود وأشياء أُخرى مثل أسود مارستان تمَّ إحضارها من خارج الحمراء أمَّا الباقى فقد عُثِرَ عليه فى الحفريات التى تمت فى مبنى الحمراء وملحقاته وقلاعه وحصونه وذلك منذ القرن الماضى والتى ستستمر بشكل منظم ومنهجى فى القرن الحالى .

ولتطويره كان فى غاية الأهمية المستودع لأسباب تتعلق بحفظ القطع الفنية المعمارية الواردة من القصور النصرية مثل مشربيات قاعة الشقيقتين أو الحمَّامات وتيجان الأعمدة وقطع قماش من الجص والزليج .

كما أنَّ الإدارة ستتنازل عن كثير من القطع لإثبات أصالة الواردة من هذا الأثر ، قطع أندلسية ومغربية ومصرية وتركية أو فارسية لا تعنى فقط عملية إثراء للمتحف ذاته من جراًء القيمة الخاصة والمستقلة لهذه القطع بل لعلاقتها وارتباطها بالحمراء مصنفين إيَّاها فى إطار الفن الإسبانى الإسلامى والحضارة الإسلامية والعناصر الزخرفية (التخطيطات الهندسية واستخدام النباتات والزهور) وتقنيات (الحجر المُذَهَّب على سبيل المثال) توجد على قدم المساواة على الرغم من اختلاف بيئاتها وأزمانها ولكن يجمع بينها الفكر والذوق الرفيع المتقاربين .

وتستحق على انفراد بعض الهبات والهدايا الخاصة ، ومن بينها تبرز تلك التى قام بها السيد / مانويل جوميث مورينو الذى قدَّم بعض القطع ذات الأهمية الحيوية والبارزة والكائنة حاليًا : كرسى الأفخاذ أو علبة الحُلِىِّ والمجوهرات من العاج أو ذات الأهمية للغاية ، وهى عبارة عن جزء من القرآن الكريم التى تُعرض لأول مرة وتُدْرَس . إنَّ تصرف السيد / مانويل جوميث مورينو هو مسلك رائع ونموذجى بيننا . ونظرًا لارتباطه بعمليات وأعمال قصر الحمراء وملحقاته فى العديد من اللجان المتتابعة والإدارات المتتالية لم يسهم فقط بمعلوماته وعلمه بل ترك بالوصية العديد من القطع التى تُثرى المتحف اليوم ماديًا .

وعملية انتقال أو نقل المُتحف كانت مشكلة بالغة الأهمية منذ بدايتها ، واليوم نود حلَّها واضعين فى اعتبارنا آراء وخبرات المختصين والمتخصصين من خلال هذا القرن الطويل لحياة هذا المُتحف .

و كما أشرنا فى البداية فبعد اعتبار الحمراء وملحقاتها وقلاعها وحصونها تراثًا وطنيًا بثلاث سنوات فإنَّ أمرًا حكوميًا خصص القاعة الكائنة بأعلى المشوار والحجرة المذهبة لتكون مقرًا للمتحف ، وقد أقيم بالفعل هناك وبمرور الزمن اتسع المُتحف وتطور وامتد ليشمل غرف الإمبراطور كارلوس الخامس وقاعة الملوك الكاثوليك وأماكن أُخرى مجاورة ، وفى صورة قديمة يمكننا رؤية حوض الغزلان والأسود فى ركن من القصور يشعُ نسيمًا غريبًا بالبيئة الكائنة بها ، هذا الانتقال الرومانسى (الإبداعى) الذى ينأى تمامًا عن المطالب المتحفية وللوضعية العلمية السائدة فى نهاية القرن التاسع عشر لا يمكن أن تُرضى أو تَسُرَّ علماء الآثار والمحافظين ، وإلى جانب المسائل التَّقنية كان من المستحيل أن يكون هناك تتابع منظم ومُنَسَّق لهذه القطع (المبعثرة فى صالات عديدة والبعيد بعضها عن البعض الآخر) لاختلافات زمنية ونمطية أو إسلوبية طرازية متماسكة متآلفة وكذلك نظرتها أو رؤيتها المقبولة ؛ ولذلك ففى عام ١٨٨٥ نجد أن السيد مانويل جوميث مورينو جونثاليث اقترح أن يكون القصر المتهدم للإمبراطور كارلوس الخامس لكى يكون مقرًا ملائمًا يليق بالمتحف العربى الإسبانى مستندًا إلى ضرورة استمرار الإدارة العلمية للأثر دون التعارض مع النشاط المُتْحَفى الخاص بالآثار .

" إنه لمن دواعى احتياجات أيامنا هذه إنشاء أو إقامة مكتبة ومُتحف وطنى عربى إسبانى حيث يُمكن دراسة القطع الأثرية وكل ما يتعلق بتاريخ هذا العصر الخاص بالسيطرة العربية على إسبانيا حيث سنُعِدُّ ماكيتًا ونماذج للمبانى التى كانت موجودة إبَّان هذا العصر من تاريخنا سواء فى ذلك المبانى الوطنية أو غيرها وذلك لإعداد دراسة مقارنة لفنون هذا الشعب وتاريخه وعلومه وآدابه . وغرناطة التى تضم بين جنباتها وحضنها أجمل وأغرب الآثار العربية يمكن جعلها أكثر شهرة بين بلدان العالم ، هى المكان الملائم جدًا لإنشاء هيئة من هذا النوع ولن يتوفر بأى مكان آخر الظروف الأمنية والعزلة والقرب من القصر الخاص بالملوك المسلمين وكذلك أهم الآثار العربية مثل قصر الإمبراطور كارلوس الخامس فى الحمراء " (مانويل جوميث مورينو جونثاليث ، قصر الإمبراطور كارلوس الخامس فى الحمراء ، مدريد ١٨٨٥ . وأستشهدعلى ذلك بالنُّسخة المكتوبة على الطَّابعة والمحفوظة فى مكتبة الحمراء وجنَّة العريف ص ٣٤) .

ومنذ هذا الاقتراح حتى حقبة الأربعينات من القرن الحالى بدأ العمل لتنفيذ هذه الفكرة ، وتتعالى بعض الأصوات المعارضة مثل العالم الضليع بيادار لفكرة إقامة متحف الحمراء مُحتجًا بعدم وجود آثار كافية لإقامة هذا المُتحف وينادى بضم المُتحف إلى متاحف أُخرى وجعله مُتحفًا للفنون الجميلة ولكنه لم يعترض على الإطلاق على فكرة استخدام القصر الذى ينتمى إلى عصر النهضة كمقر للمُتحف . ومن الإنصاف الاعتراف بالوعى التاريخى لهذا العالم الغرناطى الجليل الذى اقترح بكل شجاعة أن يُغطَّى القصر بأسقف زجاجية ؛ لأن هذا سيساعد على إضائته الطبيعية - الملائمة للمُتحف - لن يغير على الإطلاق من طبيعة المبنى الناقص المهجور منذ بضعة قرون مع السماح للقراءة بالتدخل الحديث (خيسوس بيرموديث لوبيث " مُتحف الحمراء قرنٌ من الزمان لتنفيذ الفكرة " فى AAVV قصر كارلوس الخامس ، قرن من الزمان لاسترداد أثر من الآثار ، غرناطة عام ١٩٩٥) .

و بمقتضى مرسوم ملكى مُوَقَّع من جانب الملكة الوصية على العرش ماريًا كريستينا والمنشور فى مجلة مدريد فى الرابع عشر من يوليو ١٨٨٩ والذى خصص الجزء الشرقى من قصر الإمبراطور كارلوس الخامس لمتاحف الفنون الجميلة والآثار وقد ضُمَّ إلى متحف الآثار القطع التى كانت موجودة بالمُتحف الصغير بالقصر العربى ، وبهذا القرار تم حل مشكلة تواجد القطع التى تنتمى للفنون الجميلة والقطع الأثرية لمُتحف غرناطة وكذلك منحه مهمة تليق بالمبنى لضمان الحفاظ عليه .

ويجب التنويه هنا بالرُّوح المتقدِّمة والحسَّاسة للدِّقة الأثرية البالغة التى تنبثق عن هذا البند الذى يشير بوضوح وجلاء تام إلى إنَّهُ لتكييف قصر المُتْحَفِ يجب فقط القيام بالأعمال الضَّرورية والمُلحة مع احترام الظُّروف المعمارية للمبنى النَّاقص ؛ " لكى يمكنْ تخصيص الصالونات والمبنى المستدير الذى يقع فيه هذا الجزء من المبنى المخصص لمُتحف الفنون الجميلة والآثار تطبيقًا للمرسوم الحالى ، وسيتم الشروع فى عمل الأدوار وتسقيفها وفقًا لرسومات وتخطيطات المبنى القديم وكذلك فيما يتعلق بالنوافذ والأبواب ."

و في عام ١٩٢٠ قدَّم بيلاثكيث بوسكو رسمًا عامًا لما سيكون عليه تشطيب قصر الإمبراطور كارلوس الخامس والذى يطالب فيه بضرورة استخدامه مقرًا للمتحف ، وهذا ما سيتم تنفيذه بعد بضع سنوات على أيدى توريس بالباس ولكن لزم تدخل كبير وحُرٍ بما فيه الكفاية وقد تمَّ تبرير ذلك بأنَّ المبنى لم يكن ذا أهمية أثرية (كارلوس بيلشيث ، الحمراء ليوبولدو توريس بالباس ، غرناطة ، ١٩٨٨ ، ص ٧٥) .

وفى عام ١٩٢٨ بدأ تركيب المُتْحَف . وفى عام ١٩٣٦ كانت هناك قاعتان مفتوحتان ، ولكن فكرة تحويل القصر إلى مُتحف بدأت فى غاية البطء ومُحفوفة بكثير من الصُعوبات ولكنها مع ذلك بدأت فى التَّبلور رويدًا رويدًا . وفى عام ١٩٤٢ تمَّ استقطاع القاعات ونقل ما بها إلى الأجزاء العليا للمشوار والحجرة المذهبة وعاد الوضع إلى ما كان عليه فى عام ١٨٧٢ . وجدير بالذِّكر أنَّ رصيد المتحف بدأ فى التزايد نتيجة القيام بعمليات حفريات جديدة إلى جانب المقتنيات . وبعد مرور عشرين عامًا عادت من جديد مشكلة نقل المتحف وأصبحت أكثر إلحاحًا عن ذى قبل كما فى مطلع القرن الحالى .

وفى عام ١٩٦٣ فإنَّ إدارة قصر الحمراء وجنَّة العريف بدأت فى البحث عن مكان لإقامة المتحف على أنَّ يضم دورًا جديدًا ، وقد اقْتُرِحَ حلَّان أو احتمالان الأوَّل : الأرض الرملية داخل جدران الحمراء وبستان دى فوينتبينيا بجوار جنة العريف . وفى عام ١٩٧٢ وفى المكان الثانى بدأت أعمال هذا المشروع الطموح لمتاحف المدينة الثلاثة – الآثار الإقليمى – الفنون الجميلة – ومتحف قصر الحمراء نفسه – وليس الوقت ملائمًا لسرد الصِّعاب والمصائب التى رافقت هذا المشروع . والحقيقة أنَّ هذه المبانى بعد الانتهاء من إنشائها لم تستخدم كمتاحف نظرًا للمشاكل الفنية وكذلك التَّنظيم غير الملائم للمساحات والفراغات وصعوبة الصِّيانة .

و اليوم نعود إلى وضع ١٩٤٢ : استخدام قصر الإمبراطور كارلوس الخامس كمقر لمتحف الحمراء والآن ودون أن نستبعد احتمالات أُخرى التى تتضمنها الصالات أو القاعات العلوية للمشوار والحجرة المذهبة وقصر كوماريس وضرورة منحه استخدامًا عمليًا للأجنحة أو السرايات المشيدة خارج جدران قصر الحمراء خلال السبعينات .

ولكن لفهم هذا الاختيار الذى ننفذه اليوم فمن الضرورى شرح المشروع الخاص بالمتحف الذى نقترحه ، كما أنَّ رصيد المتحف تجاوز ١٠,٠٠٠ قطعة تم جردها ومعظم هذه القطع هى بقايا مقسمة أو مجزأة عُثِرَ عليها فى الحفريات وكذلك عناصر معمارية وزخرفية واردة من ترميمات متتابعة للأثر ، وقد جُمِعَت هذه العناصر سواء المعمارية أو الزخرفية أو التقنية وتم حفظها بعناية فائقة لكى يتم التعرف على هذه العناصر ودراستها نعنى الهندسية والمعمارية والزخرفية فى العصر النصرى ، وكذلك تم الاحتفاظ بعدد كبير من القطع الخزفية المنزلية وكذلك الكثير من الأغراض والأشياء الأخرى ذات الاستخدام المتعدد والمتنوع الواردة من أماكن أُخرى ٠و جدير بالذكر أنَّ بعض هذه القطع تمثل المعرض الدائم التى نقدمها اليوم بعد إجراء بعض الإصلاحات والترميمات للقطع المعارة التى نقدمها اليوم ٠

أمَّا باقى هذه الأرصدة فسيتم إعادة تنظيمه فى احتياطى يمكن زيارته ومستودع يكفى لاحتواء مئات الأجزاء التى تم توصيفها وتصنيفها وفقًا لمادتها وبالشكل الممكن وفقًا لنمطها وطرازها وخاصة تلك الواردة من المجموعة النصرية ، وهذا الاحتياطى الذى يمكن زيارته وكذلك المستودع سيوضعان تحت تصرف الباحثين أمَّا باقى المعرض فسيعرض لقطاع كبير من الجمهور ٠

و فى النهاية ، لدينا منطقة للعرض المؤقت : كنتيجة للتَّصنُّيف والدَّراسة والتَّرميم التى استهدفت أرصدة المتحف غير المعروضة إلا من حين لآخر ، ويمكن إعداد عينات ذات موضوع واحد بالشَّكل الذى يجعل هذه الأرصدة تُعرض بالتَّناوب ٠

وكمقر للمعرض الدائم تم تكييف وتهيئة قاعات قصر الإمبراطور كارلوس الخامس ، وبالنِّسبة للمعارض المؤقتة تم تجهيز المصلى والمناطق المتاخمة له ٠ وبالنِّسبة للاحتياطى الذى يمكن زيارته سيتم استغلال المساحات الجاهزة والمخصصة حاليًا للمتحف وذلك فى أجزاء من قصر الأسود وقصر كوماريس والحجرة المذهبة والمشوار وكذلك المبانى المجاورة لجنَّة العريف حيث يمكن استغلالهما كمستودع بعد إدخال بعض التَّعديلات عليها ٠

إنَّ مشروع الاستعانة بقصر الإمبراطور كارلوس الخامس لجعله مقراً لمتحف الحمراء لا يتضمن الصالات العليا التى يشغلها فى الوقت الحالى متحف الفنون الجميلة ، وعلى أيَّة حال ظلَّ الاحتمال المستقبلى المزدوج لهذه المنطقة قائمًا : إمَّا لاستمرار متحف الفنون الجميلة بها أو لاستخدامها على المدى الطويل لتوسيع متحف الحمراء والمكتبة وأرشيف هيئة إدارة الحمراء .

واليوم يمكننا تقديم المكانين الأولين لمتحف الحمراء ونحن راضين تمامًا وذلك للمعارض الدَّائمة والمؤقتة أو الموسمية ، وقد كان معيار التدخل هو الاستفادة من المساحات الداخلية لهندسة معمارية ناقصة وذلك بتنظيف وإلغاء العناصر الزخرفية القديمة وتعديل أو تصحيح التغييرات المساحية (بين الأدوار وتقسيم الصالات والقاعات تقسيمًا فرعيًا والممرات الموصلة إليها) التى تم تنفيذها خلال هذا القرن كى نُظهر بقدر الإمكان الشكل الأصلى لقصر الإمبراطور كارلوس الخامس .

كما أنَّ عمليات التقوية والتدعيم والتجهيز وإعداد الفراغات بشكل مثالى قد تمت بشكل يمكن معه قراءة واضحة : القديم والجديد يتعايشان مع الحفاظ على الفارق بينهما ، إلا أنَّه قد تمَّ تنسيقهما وتنظيمهما بتجانس هائل من خلال الوضوح الجلىّ للأول والصرامة المضمونية والتقشف الشكلى للثانى .

كما أنَّ تتابع القاعات يسمح بوضع القطع بشكل منطقى وبسيط ، كما أنَّ الإضاءة الطبيعية الرائعة ومن خلال النظرية الخاصة للفراغات تُوجِدُ مُناخًا من الشفافية الهادئة وذلك بتوارد أو باقتران الإضاءة مع النظرية التاريخية ومعرفتها وذلك بإبعادنا عن فكرة ما لمتحف أثرى كمحل لبيع الفخار أو مظلم وغامض .

إنَّ ارتفاع الفراغ المزدوج الذى تم استرداده يُوجِدُ مساحة واسعة ليست مفرطة أو مبالغًا فيها لعرض القطع ومعظمها صغير نسبيًا ، أمَّا الأحجار العارية أو المجنومة للجدران بدرجة لونها الساخن الأمغر كما كانت مهجورة طوال سنوات كثيرة فإنها ضمت القطع المعروضة بين جنباتها فى مناخ يجعلنا نسترجع صورة الزمن وتأثيره .

إنَّ التَّنقيب عن الآثار قد أدى إلى العثور على جزء من الشَّارع الملكى والسَّاقية التى كانت تغذى القلعة الإسلامية بالمياه ، كما أنَّ الاستفادة الطَّبيعية من المساحة

لإقامة القصر الذى يرجع لعصر النهضة والذى تُرك مكشوفًا وقد ضُمَّ أيضًا ليكون جزءًا إضافيًا من المتحف ٠

كما أنَّ القصر الذى أُعدَّ لكى يكون مقرًا لإقامة الإمبراطور كارلوس الخامس يلائم تمامًا إقامة المتحف عليه مع احترام المساحات بدقة بالغة كما كان مصممًا لغرضه الأساسى وكأن القصر قد أُنشئ فى بداية الأمر لكى يكون متحفًا ، لقد أُقيم القصر لكى يتم الاحتفال به بانتصار المسيحية على الإسلام وقد فقد القصر اليوم الاستعارة المعمارية وأصبح فقط شكلاً فنيًا وجماليًا رائعًا وفى داخل القصر حضرنا الاحتفال الوحيد بذكرى الماضى والجمال البرَّاق للفن ٠

إنَّ اختيار ٢٥٥ قطعة فنية وأثرية كأساس للمتحف الذى نقدمه اليوم يأتى من الأرصدة الخاصة التى أُثريت بـ ٣٠ قطعة من متحف آثار غرناطة من بينها حوض الحكم الثانى ومصباح إلبيرا ونتيجة هامة ذات نمط معمارى فذ من إلبيرا أيضًا والطبق أو الصينية المرسوم عليه الحصان وفخ أو شرك صيد الطيور الذى ينتمى للعصر النصرى ووسامين فضلاً عن العديد من تيجان الأعمدة ، وبهذا لم نُرد استكمال ولو بشكل مؤقت مجموعة متحف الحمراء فقط بل الإشارة والإشادة بثراء الفن الإسلامى الذى يمتلكه المتحف الغرناطى الآخر والتى ينبغى أن تكون زيارته إجبارية للمهتمين بشئون الفن ٠

وهناك قطع أُخرى فريدة واردة من خارج الحمراء : مثل مصباح المسجد الكبير بالحمراء وهى قطعة أساسية من الفن النصرى والتى أعارها المتحف الوطنى للآثار وبعض الأبواب الخاصة بالخزانات من متحف الفنون الزخرفية والتى جاءت لتنضم إلى باب التطعيم (باب من الخشب المُطَعَّم) من القرن الرابع عشر الميلادى والتى أتت من أطلال قصر أمراء سيدتى مريم ٠ وفى النهاية ، دينار من متحف المصنع الوطنى لسك العملة والتمغة ، ونسيج من الكتان والحرير من النوع الشعبى إلى جانب نسيج آخر مطرز من الحمراء الذى مُنِحَ تَكَرُّمًا لكى يُعْرَض بالمتحف ، ومعظم الأشياء المعروضة والتى كانت بالأجزاء العليا بالمشوار والحجرة المذهبة وإن كانت ظروف حفظها ومشاهدتها مختلفة تمامًا ٠و لم نعتن فقط بالجوانب التقنية فى الحفظ (الإضاءة

وتكييف المناخ) بل أيضاً بعملية الإدراك والفهم حتى لا يتم تقييم الاهتمام الأثرى فقط بل البعد الجمالى أيضاً .

ولم نقتصر فقط فى العودة إلى عرض القطع التى كانت معروضة من قبل بل أيضاً لجأنا إلى اختيار قطع أُخرى من المخازن تمت دراستها وعرضها للجمهور لأوّل مرة ، وأهم شئ فى هذا الصدد هو عرض ٢٩ قطعة من العملات وإبراز مختلف طرق السك بالذهب (دينار) وبالفضة (درهم) وبالنحاس (فلوس) منذ العصر الأميرى (جسم صلب ذو مميزات أو نقوش لاتينية) حتى العصر النصرى (دينار مسكوك فى مراكش) وكذلك جزء من القرآن يتكون من ٤٤ ورقة (يشبه إلى حدٍ كبير قرآن من ٦٠ مجلداً والتى أجزاؤه الثمانية المعروفة موزعة بين العديد من المكتبات مثل المكتبة البريطانية ومكتبة معهد دون خوان فى فالينثيا) من عصر الموحدين (نهاية القرن الثانى عشر ومطلع القرن الثالث عشر) ذو كتابة بحروف كبيرة وفى غاية الأناقة والتنسيق .

وكما تمّ عرض ولأول مرة قطع من النّسيج : سجادتان تركية وقوقازية من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أو قطعة من الحرير يرجع تاريخها إلى القرن الخامس عشر أو السادس عشر ذات الذوق النصرى الواضح ومزخرفة بعناصر زخرفية حيوانية حيث يوجد أسدان يتشاجران على ثمرة أناناس على شكل شجرة الحياة .

لقد أردنا تقديم نظرة عابرة عن الأرصدة غير المعروضة والحث منذ البداية على القيام بعملية ينبغى أن تكون أساسية فى المستقبل ألا وهى : دراستها وعرضها دورياً .

وفيما يخص العرض فقد انتهجنا الترميم لبعض المواد التى ستعرض وكانت أهم قطعة تم ترميمها - بلا شك - هى إبريق أو الجرّة الغزلان . وفضلاً عن انكسارها فقد تم التأكد من متانة العجينة الفخارية مما جعل أمر التدخل لترميمها يقتصر فقط على التنظيف الميكانيكى بفرشاة ومشرط أو مبضع وخيط من الزجاج . وأكبر أدلة على ذلك طبقة القذارة التى أثّرت على درجة اللون الرائع للخزف .

ومجموعة الخزفيات والجِّصيات (إبريق فورتونى - سيمونيتى ، جويتى ، هيريش ، نافورة دار العروسة ، هذا إلى جانب العديد من القطع من الخزف المذهب وبعض

الأنسـجـة) وقـد رُمِّـمَت على النحـو التـالى : إزالة المعـادن ، تنظيف القطـع ، إزالة الكربونات ، تثبيتها وتقويتها سواء بالمعجون أو بطلاء زجاجى وطبقة للحماية النهائية ٠

مـجموعـة خزفيـات تتكون من ٢٩ قطعـة من مـادة حـجرية وقـد تم تنظيـفهـا من الكربونات وإلغـاء الأسـمنت والعناصـر الضـارة والمسامـير القلاووظ وإزالة الأمـلاح منها كما تم تقويتـهـا وطلائها بطبقة عازلة للحماية ، أمَّا فيما يخص مـجموعة الخشبيات وتتألف من باب الشقيقتين وباب الصوان أو الخزانة لسيدتى مريم وكذلك بعض أعمال النجارة المعمارية تم ترميمها على الشكل الآتى : تطهيرها من آكلات الأخشاب ، تقوية بنيـتـهـا ، مـعـالجة مـعـادنها ، تنظيف الأخـشـاب وألوانـهـا وتثبيت هـذه الألوان ، إعادة الحوامل إليها ، تغذيتها وطلائها بطبقة حماية نهائية ٠

وأخيرًا تمَّت أعمال الترميم فوق عمليات ترميم سـابقة كما حدث فى نافورة دار العروسـة وذلك بإزالة بعض المحـاليل غير الملائمـة ومراجعـة تكاملها من حـيث الحـجم والتناغم ، وتم حـذف البراويز الخشـبية التى كانت بالبسـط الجصيـة والتى كانت تقربها من مفهوم اللوحة إلى حدٍ كبير وذلك لتثبيت طابعها الشكلى كأجزاء معمارية ٠

كمـا تمَّ احـترام ترمـيمـات قـديـمـة قـد أُجريت بشكل أكثـر راديكالية مـثل حـوض الغسيل الكبيـر من الحـجر الأزرق والمذهب والذى زُخرف بشـجـرة سـواء لكون القطعـة فريدة من نوعها وكذلك للقيمة الفنية بالنسبة لتاريخ ثقافة الترميم ٠

و قد قمنا بنقل العديد مـن القطـع من قـصـر الحـمـراء إلى المتـحف مثل الوسـامين الخاصين بالممر أو البهو العلوى لممر لاريخـا المزخرف بتيجان أعمـدة غاية فى الجمـال والروعة من المقرنصـات وبقايا من الألوان الكثـيرة الأصلية وكتابات فى غـاية الأناقـة ، وصـحن نافـورة ليندارِيخـا القطعـة الفريدة بسـبب القصـيدة الشـعرية المنقوشـة عليـهـا ، وأسـود البـارتال الواردة من مـارستان وبـاب الشـقيـقتين النمـوذج الفريد نظرًا لنجـارته الرائعة ولم يتم ترميمها قبل ذلك وإن كان شكلها فى حالة تردى ٠

وبـدايةً نحــن من أنصـار حـفظ القطع على الطَّبـيـعـة فى مكانها ولكن فى هذه الأحـوال فإنَّ أسبابًا قهـرية نصحت بتحـريكها باستثـنـاء باب الشَّـقيقتين ٠ أمَّا بقية القــطـع فلم تبق أىٌ منــهـا فى مكــانها الأصلى ، فـالوسـامـان الموجودان ببهو لاريخا

قد أُعيد استخدامهما ونقلهما في القرن السابع عشر وكذلك صحن نافورة لينداريخا والأسود قد تم نقلهما بالقرب من جُبِّ البارتال في خلال العشرينات من القرن الحالي .

و نظراً لكون هذه القطع فريدة ولتردى حالتها بسرعة كبيرة - تلف الشغل ، اختفاء الألوان أو تشقق الأحجار - قد اضطررنا إلى نقلها لحفظها بشكل أجود يسمح بدراستها وتأملها بدقة .

هذا وقد تم ترتيب القطع وفقًا لتطورها الزّمنى والطُّرازى والجمالى ولكن ليس بشكل جامد وذلك لإيجاد توازن بين الأشياء والقطع من جانب والمواد المصنوعة منها من جانب آخر بمختلف الصالات ، ولهذا فعلى سبيل المثال فإنَّ تيجان الأعمدة فى البداية كانت مرتبة فى تتابع جمالى وزمنى مع بعض الاستثناءات كما فى القاعة رقم ٤ (الدهليز الجنوبى) وذلك للتمكن من إعداد مقارنة بين بعضها والبعض الآخر .

وعلى وجه التَّحديد فإنَّ تاج العمود يشغل مساحة هامة نظراً لأهميته المعمارية والزُّخرفية ، وهو يمثل العنصر المتكامل الذى يشير بكل جلاء ووضوح إلى المزايا المميزة للهندسة المعمارية الإسلامية خلال مختلف العصور فضلاً عن كونه المجال المتميز للتَّعبير التشكيلى منذ البدايات الطبيعية ذات الاشتقاق الكلاسيكى حتى الصِّيغ الإسلامية المميزة حيث الاهتمام بالمظهر الجمالى والتجريد للأشكال نجد دائمًا الأصل القديم ، كما أن السلسلة أو المجموعة الثرية التى يحتفظ بها المتحف والتى تم توسيعها بقدوم الكثير من القطع من متحف غرناطة للآثار والتى تمتد من العصر الأميرى حتى العهدين الموحدى والنَّصرى ، وجدير بالذكر أن كثيراً من تيجان الأعمدة هذه تم نقلها وأعيد استخدامها فى عصور مختلفة وبعد تجريدها الآن من مهمتها التركيبية أو البنائية فإنها توجد موزعة بمختلف القاعات كقطع نحتية ذات قيمة مستقلة فى مواجهة بقية القطع ونفس الهندسة المعمارية للقصر .

و كذلك فإنَّ العناصر اللجنيتية مثل واجهة دير ثفرا وكذلك السقف المطعم بخيوط الذهب وهو عمل إسلامى أندلسى موجود فى القاعة الثالثة بجوار القطع

التى تنتمى لعصر الخلافة الموحدية والنصرية وذلك بإحداث تناوب زمنى من شأنه البحث عن التوازن الذى تحدثنا عنه والهادف إلى تقوية المزايا الجمالية للقطع الفنية والأثرية .

وتبتعد القاعة الأولى عن مخطط التطوير العام للمعرض أو المتحف واعتباراً من قطعة تنتمى إلى القرن الحادى عشر والتى استخدمت كزخرفة معمارية فى كنيسة سانتا أنَّا (القديسة أنَّا) ، وقرآن يرجع إلى القرنين الثَّانى والثَّالث عشر ومجموعة من العملات وبرواز وكرة زرقاء اللون . وآثرنا أن تتضمن المقدمة ما استرجعته ذاكرتنا من أمور فكرية وعملية تنبثق عن الفن الإسلامى : القلق الدينى ، الحياة المادية ومعرفة المكان والزَّمان .

وفى الدَّهليز الجنوبى (القاعة الرَّابعة) بجوار أسود الماريستان توجد قطع نصرية فريدة حيث تنبض بالكثير من التأثيرات الشرقية والتى تضمنت العديد من النقوش على هيئة شاهد تذكارى للقبور .

و هناك نقشان باللغة اللاتينية موجودان بالحمراء بجوار شاهد قبر ثيبريانو الذى عُثِرَ عليه فى إلبيرا والموجود حاليًا فى متحف الآثار بغرناطة . وهذه هى أفضل الأدلة على الوجود الرُّومانى السَّابق والقوطى الغربى والتَّعايش بين ما هو لاتينى ومسيحى وإسلامى .

وجدير بالذِّكر أنَّ دينتيل دىً بيرسوس الذى يرجع تاريخه إلى القرن الثَّانى الميلادى يطرح تخمينًا حيث عُثِرَ عليه فى لاتورى ديل أجوا (برج أو صهريج المياه) ويمكن أن يكون هذا بمدينة إلبيرا ثم تم نقله إلى الحمراء فى وقت مبكر لاحتمال وجود قرية بها قبل ذلك . أمَّا نقوش الكنائس الثلاث للقرن السادس الميلادى والتى وجدت فى سانتا ماريا بالحمراء يذكر اسم ناتيبولا يمكن أن يكون الحمراء نفسها وهذا يؤكد أيضًا استمرار استخدام المكان كدار للعبادة منذ العصر القوطى الغربى وقد ظل كنيسة حتى تم تحويله إلى مسجد ثم بعد ذلك إلى كنيسة مرَّة أُخرى كما حدث فى مسجد قرطبة .

وأمام هذه النقوش اللاتينية ذات القيمة الهائلة من الناحية الوثائقية كما تم وضع النقوش التذكارية النصرية للماريستان والمدرسة (من القرن الرابع عشر) وكليهما بالخط النسخ وقد كتب بعناية فائقة .

ويمكن تقسيم الأشياء المعروضة بصفة عامة إلى نمطين كبيرين : معمارى وأثاثى . فالأول منهما يضم العناصر النَّباتية والزَّخرفية التى ترجع للعصر النَّصرى والتى تساعد على فهم الهندسة المعمارية فى ذلك العهد . كذلك فهم معمار قصر الحمراء بصفة خاصة البوابات والمشربيات والأنسجة أو البسط الجصية والنافورات إلخ ... ومن بينها نُبرز نموذجين فريدين وثمينين لفهم النجارة المعمارية : المشربية وباب الشَّقيقتين وقد تم تنظيف هذا الباب ويبرز الرُّسومات الهندسية على الباب وتطعيمه بالذهب وبقايا ألوان برَّاقة .

أمَّا النَّوافير فإنها تُشكِّلُ مجموعة أُخرى من المجموعات الهامة من هذه السِّلسلة حيث توجد أنماط متنوعة (مستطيلة وذات فصوص متعددة ومستديرة إلخ ...) ومهام (شعائرية وزخرفية إلخ...) ويجب أن نبرز منها حوض الخليفة ذا الغزلان والأسود من القرن العاشر والوارد من قصر المنصور حيث يمثل إلى جانب الإبريق المزخرف بالغزلان أهم القطع بالمتحف .

و من قطع الأثاث على وجه التحديد يجب الإشارة فى المقام الأول إلى إبريق الغزلان وهو أحد أنماط الحمراء وقد اشتد الإعجاب به فى القرن الثامن عشر وقد تحمس له كل من ريجنالت وفورتونى . إنه يمثل أحد العلامات التاريخية البارزة فى التاريخ العالمى للخزف لأمرين : أولهما شكله القوى المتين ومحيطه الجميل وثانيهما العجينة الزُّجاجية الجميلة المصنوع منها . أمَّا العيوب الكائنة به فإنَّها تضفى على الإبريق جمالاً مرتجلاً لا يقارن كما كان ريجنالت محقًّا عندما رآه واقترح على والده مدير ثيبريس أنْ يصنع تقليداً له دون إصلاح عيوب الإبريق الأصلى . ماريا برى مارينيو " رحلة إلى إسبانيا " للرَّسام هنرى ريجنالت ، مدريد ، ١٩٦٤) .

إنّ إبريق الغزلان قد استكمل بآخر امتلكه فورتونى حيث تم تنظيفه وعرضه بالشكل اللائق به مما جعل لونه الأبيض يُشعُ بريقًا ولمعانًا ويتميز هذا الإبريق بتوازن شكله وحجمه .

وفضلاً عن القطع التى تنتمى للبلاط الملكى مثل كرسى الأرداف وشواهد القبور الملكية والخزف المزجج فإنه يجب علينا إبراز قطع أُخرى أكثر تواضعًا وشيوعًا من الأباريق والنوافير والبايب لتدخين القنب الهندى أو هذه اللعبات أو الدمى الفخارية .

وعرض بالقاعة الأخيرة سجادة تركية وأُخرى قوقازية فضلاً عن مجموعة من القطع الخزفية الفاطمية والتى إلى جانب الكرة الزرقاء اللون ذات الأصل الفارسى من القاعة الأولى فإنها تؤلف مجموعة متنوعة من القطع الشرقية والتى أدرجناها هنا لسببين أولهما : جمالها البرّاق وثانيهما : تنفيذًا لرغبة المتحف فى أن يكون مفتوحًا وشاملاً فى المستقبل للمظاهر الفنية التشكيلية بالعالم الإسلامى حيث يُعدُ متحف الحمراء أحد مراكزها البارزة الهامة .

وجملة الأمر أننا أردنا - من خلال الحديث عن القطع الأخيرة والعناصر الهندسية المعمارية وقطع الأثاث وانطلاقًا من التقشف الأثرى للقصر والعرض المتحفى المحدود والنادر- أردنا الإشادة بالقيمة المزدوجة لشاهد حضارة وفن يتضمنان : تقوية الجودة الشكلية دون أنْ نغفل المغزى الأثرى وربط المعرفة التّاريخية بالوظيفة الجمالية.

الفصل السَّادس عشر

مجموعة مُتحف الحمراء

إعداد : بورفيكاثيون مارتينيتو سانشيث

استناداً إلى قول السَّيد / ليوبولدو تورِّيس بالباس " سيكون هناك متاحف أثرية قليلة فى إسبانيا قد تكوَّنت بشكل طبيعى مثل مُتحف الحمراء " .

رويداً رويداً تمَّ تجميع مجموعة هامة حتى منتصف القرن التاسع عشر: أوَّلاً : القطع التى أُعيدَ استخدامها فى عهد النصريين بالحمراء مثل حوض الظباء والأسود وهو من عصر الخلافة وقد أُحضِرَ الحوض إلى القلعة فى عصر محمد الثالث عام ١٣٠٥ . ثانيًا : الاحتفاظ بعناصر زخرفية قد أُهملت فى العهد الإسلامى مثل إبريق الغزلان الكبير والمعروف وضعه ومكانه منذ القرن السابع عشر حيث كان يوجد فى حديقة أداربيس . ثالثًا : الحفاظ على قطع تم اكتشافها فى الحفريات مثل الخزفيات والجصيات وكأمثلة هامة شواهد القبور الرخامية التى أُخذت من بقايا الروضة والتى تم اكتشافها عام ١٥٧٤ . رابعًا : القطع التى بدأت تختفى أو التى تلفت فى مكانها وقد اعتبر حفظها هو أفضل سبيل لصيانتها مثل الباب المُغطَّى بالرقائق البرونزية فى واجهة كوماريس وحلقات واجهة قصر كارلوس الخامس التى تم انتزاعها بعد منتصف القرن التاسع عشر وفى كلتا الحالتين تم إعادتهما إلى مكانهما الأصلى إلى جانب مواد أُخرى وذلك للتأكد من حفظها والحفاظ عليها .

وبدأت هذه المجموعة خلال هذا القرن التاسع عشر تأخذ طابعًا مُتخفيًا مصنفًا ومُبَوَّبًا ومجموعًا فى قطاعات الحمراء لعرضها للجمهور . وفى الثلاثين من أكتوبر عام ١٨٧٠ أُعْلِنَ على الملأ تعيين لجنة لإعداد تصنيف لأرصدة المُتحف وذلك بتكليف السيد / كونتريراس (توريس بالباس . ل . ١٩٤٤ ص ٢٣٦) لوضع المجموعة فى مكان مناسب . أولاً : ما يجرى التفكير فى أن تكون قاعة الفواكه والقاعات المجاورة وفقًا لمحضر لجنة الآثار فى ١٥ - ١ - ٧١ وفيما بعد فى منزل المحافظين كما جاء فى محضر لجنة الآثار فى ١٨٧١/٦/٢٥ وفى النهاية فى أواخر نفس العام فى الغرف الكائنة بالجانب الشمالى لبهو الأسود وكوماريس (محضر بتاريخ ١٨٧١/١٢/١٠) (بيرمودثا باريخا . خ . ١٩٤٣ - ١٩٤٩) وفى اليوم الثانى عشر من مارس ١٨٧٣ عندما قدم السيد رفائيل كونتريراس قائمة بالأشياء التى أُودعت مُتحف الآثار بالحمراء ، وقد عُثِرَ عليها فى الغرفة الخاصة بها بين بهو الأسود وقاعة الشُّقيقتين ، وقد تم الاستغناء عن الصالتين فى الجرد العام من المخازن المادية لتكوين مجموعة من الأثريات واردة من آثار الحمراء ، ومن العجيب أنَّه تم إبراز القطع الخشبية مثل المشربيات والإفريزات والأسقف والأغطية ، ومن الأحجار شواهد القبور ومن الخزف يبرز إبريق الغزلان ضمن مجموعة واحدة ٤٥٢ تضم قطعة من الخزف مختلفة الأشكال والصنع (أرشيف الحمراء . ل . ٣١١ كى يصل عدد المجموعة إلى ٦٥٢ قطعة على الرغم من القائمة التى أعدَّها فى بحثه عن الحمراء والذى خصص فصلاً عن المُتحف وأعدَّ قائمة منفصلة عن أرصدته من القطع الأثرية وتحقق من أربعين قطعة فى سجل واحد) (رفائيل كونتريراس سجل ١٨٧٣: ٢٨٨ - ٢٩٤) .

وفى عام ١٨٧٢ عُرِفَ موضع إبريق الغزلان بأحد أركان قاعة الشُّقيقتين ، وفيما بعد تم نقله إلى قاعة الملوك فى إحدى الفترينتين وحوض الخلافة وأحجار أو شواهد القبور تم وضعها فى جدران قاعة الملوك مع تخصيص الغرف المسيحية للإمبراطور كارلوس الخامس لكى تضم السُّقوف والأبواب والأجزاء الخشبية وتم إسنادها إلى الجدران ، أمَّا بقية قطع المجموعة فإنها محفوظة فى غرف المحافظين فوق المشوار ، وأُضيفت لهذه المجموعة الأولى قطع كثيرة أخرى تم العثور عليها فى

عمليات الحفر والأشغال وهى ذات أهمية حيوية مثل المشربيات ، سقوف وأغطية وأطراف دعامات السقف الخشبية وتيجان الأعمدة وأجزاء خزفية ومن الجص ٠

وقد ارتفعت قيمة مجموعة القطع وفقًا للسيد / ألماجرو كارديناس فى عام ١٨٨٦ جيث عنوَّن أحد مؤلفاته " مُتحف غرناطة للآثار العربية " حيث قدَّم فى هذا العمل مجموعة من تيجان الأعمدة فى بهو القصر وقد نُقِلَ منها العديد إلى مُتحف الآثار بغرناطة وبعد مرور بضع سنوات وعلى وجه التحديد فى ١٨٩٠ أصرَّ السيد بايادار على أنْ تكون هذه المجموعة أساس مُتحف الآثار بالحمراء الذى كان يجب أن يُقام منذ سنوات طويلة ، وقد تزايد نشاط المُتحف بشكل ملحوظ وقد تزايدت أرصدته رويدًا رويدًا وذلك بفضل تحمس اللجنة الخاصة التى شُكِّلت بمقتضى المرسوم الملكى الصادر فى التاسع عشر من مايو عام ١٩٠٥ واللاحقة له فى الرابع عشر من مايو ١٩١٣ والصادر فى السادس والعشرين من يناير عام ١٩١٤ حيث تم تشكيل أو إنشاء هيئة الحمراء وتمَّ تكليفها وفقًا للبند الخامس بإنشاء مُتحف للفن العربى فى العاصمة وتتأكد أهمية المُتحف فى المقالات الصحفية فى السنوات الأولى من القرن العشرين ٠ وقد أشار كل من السيدين / جوميث مورينو وجوميث تورتوسا فى بيان أصدراه بعنوان " الحمراء " ونشرته " صحيفة محامى غرناطة " فى التاسع والعشرين من يوليو ١٩٠٦ حيث تحدثا فيه عن " تنظيم وتصنيف قطع مُتحف الحمراء " وفى مقال آخر نشرته صحيفة غرناطية تُسمَّى " الحمراء " ضجَّت فيه الشكوى من السيد / ماريانو كونتريراس لإعاقته تشكيل أرشيف ومُتحف الحمراء ٠ وفى السادس من أغسطس عام ١٩٠٧ فى صحيفة " محامى غرناطة " يشير السيد / مانويل ثبالا إلى أعمال الصيانة والترميم والحفظ " ظهرت بين الأنقاض أجزاء كثيرة زخرفية تنتمى إلى عصور مختلفة وقد تم أخذ هذه الأجزاء بعناية فائقة حيث أثرت مجموعات مُتحف الحمراء ويتم تصنيفها وترتيبها حاليًا تحت إشراف رئيس اللجنة الخاصة السَّيد / جوميث مورينو ٠ ويستمر التمسك بالموضوع من جانب عضو الأكاديمية السَّيد / تيثيليو رودا فى مقال نشرته صحيفة النوتيثيرو الغرناطية وفى مجلة إيبوكا بعنوان " الحمراء رأى نو ثقل " فى أواخر عام ١٩٠٧ ذكر فيه : " تمَّ مؤخرًا تصنيف القطع الأثرية العربية الموجودة والتى تمَّ اكتشافها حديثًا نتيجة الحفريات وقطع

القيشاني القديمة التي تظهر بصفة مستمرة في تلك الأشغال وقد تم وضعها بالمُتحف في القاعة الكبيرة بمنزل المحافظين بحجرات القصر المُسمَّاة بحجرات الإمبراطور " .

ولا تعتبر المجموعة في ظروف جيدة من العرض لأنَّها تبدو وكأنها مُخَزَّنة بدون اهتمام أو حذر ويجري التَّفكير لنقلها إلى بيت المحافظين ولكن الأمر لم ينفذ على الرغم من إلحاح السيد / أوسما . وهناك محاولة أُخرى قام بها السيد / كونت دي رومانونيس بصفته وزيراً للتعليم العام وذلك في يونيو ١٩١٠ الذي يحاول تقوية وتعضيد تشطيب أعمال قصر كارلوس الخامس ليكون مقراً لمُتحف الفن الإسلامي الإسباني مع التفكير في إقامة معرض في ١٩١٣ على غرار مُتحف ميونيخ حيث قدَّم مشروعاً لذلك يضم قاعات العرض ويبلغ عددها ثماني قاعات .

أمَّا السيد / لويس سيكودي لوثينا فقد تحدَّث في مقال له نُشِرَ في مجلة تريبونا (في شهر أبريل عام ١٩١٤ بمدريد) عن المُتحف وقد تعمَّق في ذلك إلى حدٍ كبير حيث وسَّع قائمة أرصدة المُتحف ، وقد ضمَّ كثيراً من القطع التي لم يُشَر إليها آنفاً مثل قطع القيشاني ذات الانعكاسات المعدنية والبايب من الفخار وجلود لنعال الأحذية وأجزاء من أباريق كبيرة وتيجان أعمدة وقطع مُطعَّمة أو مُرصَّعة وفراغات مثلثية الشكل بين المربعات والدوائر . وقد بدأ المقال بتقييم القطع الأثرية التي لم تكن لها قيمة حتى الآن وإن كانت لم يتم تسجيلها إلا أنَّه تم تخزينها في زنابيل (قفف) الشغل في أماكن متعددة بالحمراء (توريس بالباس . ل - ١٩٤٤ - ٢٣٨) ولا يمكن أنْ ننسى كيف أنَّ السيِّد / رفائيل كونتيريراس في أول تصنيف أو قائمة أعدَّها للقطع قال إنَّهُ أخرجها من " مخازن المواد " مما يوضح أنَّهُ ربما كان يختار القطع الفنية البارزة في نظره لعرض مجموعة بالغة الأهمية .

ولا يزال مكان المجموعة كما هو . وقد حظيت المجموعة بدفعة جديدة عندما وصل الحمراء السيِّد / ليوبولدو توريِّس بالباس كمهندس - مشرف حيث وجد مخازن المُتحف مبعثرة في سراديب قصر الإمبراطور كارلوس الخامس لتزين منزل المهندس - المدير أو المشرف إلخ ... وقد ازدادت المجموعات نتيجة الحفريات وأعمال أُخرى قام

بها السيد / توريس بالباس فى الفترة من ١٩٢٣ - ١٩٣١ كما أنه فى نفس الوقت قام بشراء كثير من القطع من تجار العاديات .

وقد بدأ مشروع المُتحف فى الهواء الطَّلق وذلك بتركيب باب دى لاس أوريخاس منذ التَّخزين الذى حدث بالمُتحف الأثرى فى غابة الحمراء ومعرض القطع فى السيكانو كما يمكن رؤية القطع الكلاسيكية الآن .

و فى عام ١٩٢٣ عنَّت لأنطونيو جايجو بورين فكرة إنشاء معمل للفن العربى فى غرناطة وقد عرضـها على مجلس الهيئة التنفيذية للأرشيفات والمكتبات والمُتحف الأثرية .

وقد استفاد السَّيد / ليوبولدو توريِّس بالباس من أعمال التَّرميم فى حجرات الإمبراطور كارلوس الخامس حيث قام بفك القطع الفنية من الجدران وأعدَّ معرضًا بفترينات واختار المواد المعروضة وبدأ ترميم القطع وقد استكملها من الجص بإعادة تنظيم الأرصدة الموجودة .

إنَّ أعمال ترميم وتشطيب وتسقيف قصر الإمبراطور كارلوس الخامس فى أثناء حكم اللواء بريمو دى ريبيرا وبدافع من الكونت دى لاس إنفانتاس الذى أيَّد فكرة توسيع القاعات التى سيقام عليها المعرض للقطع الأكثر أهمية وعلى الرغم من أنَّ هذا لم يكن بمثابة مُتحف مفتوح للجمهور ، إلا أنه كان فرصة ذهبية لكى يتعرف الأشخاص الذين يهمهم الأمر على المجموعة .

و فى عام ١٩٢٨ خُصِّصَ مبلغ ١٥٠,٠٠٠ بيزيتة فى الميزانية العامة للدَّولة للمُتحف العربى فى غرناطة وبعد ذلك بعام عندما أُقيم معرض برشلونة الدولى تمَّ اختيار القطع والأعمال الفنية التى سترسل إلى المعرض وقد مثَّلت المُتحف فى هذا المعرض ٤٩ قطعة فنية رائعة من بين مجموعاته ، هذا وقد كافح السَّيد / مانويل جوميث مورينو من أجل إنشاء والدفاع عن مُتحف للفن العربى الإسلامى الإسبانى من المجموعة الموجودة ، بالإضافة إلى قطع مُتحف الآثار الإقليمى وفقا للسيد/ ليوبولدو توريِّس بالباس .

وبمُقتضى المرسوم الملكى الصادر فى التاسع من مارس ١٩٤٠ (الصحيفة الرسمية للدولة فى الثامن عشر من أبريل ١٩٤٠) تمَّ تشكيل هيئة للمُتحف بقصر الإمبراطور كارلوس الخامس فى غرناطة مع الإشارة فى البند الثانى إلى مُهلة قدرها ثلاثة أشهر لإنشاء المشروع ٠ وقد اتسع نطاق الهيئة على الحمراء فى المرسوم الصادر فى الثَّالث عشر من أغسطس ١٩٤٠ (والمنشور بالجريدة الرَّسمية للدَّولة فى الرابع من سبتمبر ١٩٤٠) حيث تدخلت هذه الهيئة وبشكل مباشر جداً بفضل تحمس الأستاذ / مانويل جوميث مورينو حيث اقترح إدراج ذلك فى المجموعات الخاصة بالدولة (المجموعات الحكومية) الهيئة التنفيذية للأرشيفات والمكتبات والآثار) الجريدة الرسمية للدولة رقم ٢٤٩ – فى التاسع والعشرين من أغسطس ١٩٤٢) مثل مُتحف الآثار بغرناطة ٠

وفى الأيَّام الأولى من عام ١٩٤٣ تم تعيين السيد / خيسوس بيرموديث باريخا الموظف بهيئة موظفى الأرشيف وأمناء المكتبات وعلماء الآثار مديراً للمُتحف حيث أكمل العمل الذى كان قد بدأ على الصعيد الرسمى ٠ وقد خصص السنوات الأولى للبحث عن مقر للمُتحف ٠

هذا وقد كانت أرصدة المُتحف فى أثناء عام ١٩٤٣ معروضة بصورة مبعثرة ٠ وقد كان للمُتحف ثلاث قاعات للعرض بقصر الإمبراطور كارلوس الخامس ٠ هذا وقد كُلِّف السيد / فرانثيسكو بربيتو مورينو المهندس المشرف على الحمراء بإعداد مشروع لتركيب وتصنيف المُتحف ٠ هذا وقد تمَّ تخصيص الطابق العلوى للمُتحف من قصر لوس كوماريس والأسود الخاليين من الزخرفة المعمارية وليست لهما أهمية أثرية لزيارتهما ٠ وقد أُعدَّ لهما مدخل عن طريق سلَّم يؤدى إلى المشوار٠و على الرغم من ذلك فقد ظلَّت المخازن مبعثرة حتى عام ١٩٧٩ – ١٩٨٤ حيث بدأت أعمال التصنيف وتجميع الأرصدة فى مخازن القصر الإسلامى والمتاحف الجديدة ٠

و بين ١٩٤٤ وأوائل ١٩٤٦ تم فتح المُتحف للجمهور وقد نُفِّذَت أعمال التركيبات مع الإبقاء على معرض بقصر الإمبراطور كارلوس الخامس ٠

وفى عام ١٩٥١ استقل المُتحف فى زيارته عن الحمراء عندما تم تغيير مدخله من الباب الشمالى لقصر كارلوس الخامس إلى مدخل عبر بهو قصر كارلوس الخامس إلى الطابق الأول لبهو الريَّانين .

و مع أوَّل مدير للمُتحف بدأت أعمال جديدة للتصنيف الخاصة بأرصدته الفنية مع احترام قواعد ولوائح السجل الرسمى . وطوال هذه المرحلة استمرت روح العمل على زيادة أرصدته الواردة من الحمراء وذلك من خلال أعمال الحفريات بالبرك أو بمستودعات المياه أو بقطع كان يتهددها خطر الاختفاء والتلف مثل متطفلات الغرفة المذهَّبة وكذلك بشراء قطع من أصل إسبانى إسلامى أو إسلامى شرقى أكملت ثغرات هذا الفن مثل مجموعة خزف مانيسيس فضلاً عن قبول الهبات الخاصة مثل الانضمام الدائم للمجموعة الخاصة بالسيد مانويل جوميث مورينو . وهذا النشاط الدائم أدى إلى تقديم مجموعة أكثر تكاملاً أدى عام ١٩٦٢ بمقتضى المرسوم الملكى رقم ١٩٦٢/٣٣٩٠ الصادر فى الثالث عشر من ديسمبر ١٩٦٢ (والمنشور فى الجريدة الرسمية للدولة فى التاسع والعشرين من الشهر نفسه) إلى اعتبار المُتحف من بين المتاحف الوطنية باسم المُتحف الوطنى للفن الإسبانى الإسلامى الذى تكون من أرصدة مُتحف الحمراء والمُتحف الإقليمى للآثار بغرناطة ، وبهذا القصد تم إخلاء المخزن الكائن بالدور السفلى للقاعة من قصر الإمبراطور كارلوس الخامس وتمَّ ترميمها وإعداد مدخل جديد لاحتواء القطع الإسلامية والإسلامية الأندلسية لمُتحف الآثار الأمر الذى لم يتم بعد أن أُعِدَّت الماكيتات الخاصة بالفترينات المعدنية للتركيب الجديد وإعداد ٢٠٠ صندوق خشبى لنقلها .

وفى أواخر الشُّهور الثَّلاثة الأولى من عام ١٩٦٦ تم فتح الزِّيارة المستمرة للأعمال الكائنة بالغرفة المذهَّبة وذلك عندما تمَّ فك القوس الإسلامى الأندلسى واستراحة كائنة بالطَّابق العلوى كانت تطل على الغابة مما أدى إلى تخفيض مساحة المعرض .

ومن خلال مذكرات المُتحف الأثرى الإقليمى بدأ المدير خطًا أو نهجًا من الأبحاث والدِّراسات لمجموعات المُتحف حيث نشر خلال عدة سنوات أبحاثًا عن أرصدة المُتحف (١٩٥٣ - ١٩٥٤).

وفى عام ١٩٧٤ تمَّ تعيين السيد / أنطونيو فرنانديث بويرتاس نائبًا للمدير والذى شغل منصب المدير عام ١٩٧٩ بعد الاشتراك فى مسابقة لهذا الغرض عقب بلوغ المدير السابق سن المعاش ، وقد واصل المدير الجديد عمل سلفه فى المنصب . وقد استمرت أعمال التصنيف والتبويب بحماس منقطع النظير لأرصدة المُتحف بعد أن تمَّ تجميعها من مخازنها المبعثرة فى الحمراء فى الطَّابق العلوى لقصرى كوماريس والأسود وكذلك بالمبنى الجديد بجنَّة العريف بعد أن تمَّ تصنيف المخازن على أساس علمى صارم للعصر أو الزمن وكذلك التاريخ ، كما تم إعداد العديد من الأبحاث الهامة كثمرة لهذا التَّصنيف ضمت رسائل ماجستير ودكتوراه مثل دراسة المجموعات الخزفية الزَّرقاء والمذهَّبة والخضراء والمانيسيس والزجاجية والحجرية إلخ ... وإلى جانب هذا النشاط الدؤوب كان هناك عمل هام لتسجيل هذه القطع .

ووفقًا لكلمات السَّيد / خيسوس بيرموديث باريخا (١٩٦٨) ولكى لا تفشل هذه الأبحاث والدِّراسات وخطط نشرها ولكى يتم تحسين الإمكانيات الهائلة المتاحة للمُتحف الوطنى للفن الإسلامى الإسبانى فإنَّ هيئة الحمراء قد وافقت فى الثَّلاثين من يونيو عام ١٩٦٧ على تخصيص خدمات ومنشآت للمُتحف تضم منطقة واسعة من بستان فوينتى بينيا بجوار جنَّة العريف ومداخل كرسى المسلم الأندلسى والطَّريق الدَّائرى فى المستقبل وتركيب المُتحف الجديد يعيد إلى الأذهان فكرة تجميع المجموعات الإسلامية لمُتحف الآثار الذى يتحدد بالتَّرميم والتَّركيب عام ١٩٨٥ لحوالى خمسين قوسًا من الجص النصرى والمسلمين الأندلسيين التى تم انقاذ الكثير منها من المنازل والقصور المتهدمة عند افتتاح الطَّريق الكبير بغرناطة ومن قصور أخرى قد اختفت وكذلك بفضل المقتنيات من خارج غرناطة ، كما تمَّ أيضًا تنفيذ أعمال تركيب وترميم ودراسة للمجموعة الخشبية الإسبانية الإسلامية (نويرى . إى . ١٩٨٢ ، ١٩٨٩ ، ١٩٩٠) التى تستطيع أن تقدم لأول مرة مجموعة متكاملة مقترنة بالتقنيات والزَّخرفة الطُّليطلية والغرناطية من عصر الموحدين وتطورها الزَّخرفى طوال العصر النصرى وذلك بإبراز الثراء الزخرفى لهذه الفترة الأخيرة فضلًا عن نظرة شاملة واسعة للأسقف الخشبية المستوية ، والمائية والمزخرفة ذات الأشكال والأحجام المتنوعة والتى تنتمى لعصور مختلفة فى إسبانيا الإسلامية وعلى وجه الخصوص النصرية

والإسلامية الأندلسية وكذلك عمليات الزَّخرفة الخاصة بالطُّراز وعصر الملوك الكاثوليك فى سقوف نصرية .

وكذلك تمَّ تنفيذ أعمال تصنيف وترميم كانت قد بدأها عام ١٩٢٣ السَّيد / مانويل أوكانيا والآن هى فى حوزة السيدة / ناتيبيداد جوميث مورينو والسَّيد / دافيد كاستيخو حيث تمَّ إعداد تصنيف متخصص مع دراسة مختلف المدارس الزخرفية . وترميم ذلك على أيدى السَّيدة / ناتيبيداد جوميث مورينو سمح بتأمل مجموعة خزفية نصرية زرقاء ومذهَّبة لم تكن معروفة حتى الآن وكذلك ترميم الخزف الشرقى ذى العاكس المعدنى (خزف فاطمى) مما يجعله يقبل المقارنة مع مجموعات خزفية شرقية رائعة بمُتحف القاهرة وبيناكى .

وبفضل هذه الأعمال والأبحاث الخاصة بالتصنيف والتبويب والترميم فإنَّ المدير الجديد أعدَّ تركيبًا جديدًا للمُتحف أكثر حداثة وعناية متكيفًا بشكل مؤقت مع المساحة المتاحة وذلك بترتيب القطع زمنيًا وماديًا كاختيار دقيق للقطع مقترنة بلوحات إيضاحية فى المساحة المتاحة بقصر كوماريس .

ودون أنْ ننسى عملاً دءوبًا من الدراسات للأرصدة الفنية من قِبَل السَّيد / مدير المُتحف وعلى سبيل المثال دراسة القطع التى نُقِشَت بالخط الكوفى مثل القناديل البرونزية والأفاريز الزخرفية لحمل السَّقف والعملات (١٩٧١ ، ١٩٧٢ ، ١٩٧٣ ، ١٩٧٤ ، ١٩٧٥ ، ١٩٧٦) والقطع الحجرية مثل دفَّايات عصر الخلافة (١٩٧٢) ودراسات للجص (١٩٧٣ - ١٩٧٧ - ١٩٨٤ - ١٩٨٥) والقطع الخزفية (١٩٩٢) والخشبية (١٩٨٧ - ١٩٩٢) وحفريات بقصر الحمراء مثل :

- حفريات بحجرة المشوار (خلال شهرى سبتمبر وأكتوبر ١٩٧٧) .
- حفريات بقصر بنى سرَّاج خلال شهرى أكتوبر ونوفمبر ١٩٧٨ ومارس وأبريل ١٩٧٩ .
- البحث عن الآثار فى باطن أرض قاعة ابنثيراخيس بقصر الأسود .

وحاليًا يمكن التّأكيد بأنّ هذا المُتحف الذى عاد من جديد إلى تغيير اسمه وأصبح يُسَمَّى مُتحف الحمراء (الأمر الصادر فى الثّامن عشر من مايو ١٩٩٤ بالجريدة الرسمية للدولة عدد ١٢١ والمنشور فى الحادى والعشرين من مايو ١٩٩٤) وقد ضُمَّ إلى الهيئة المشرفة على الحمراء وجنَّة العريف ويضم بين جنباته أعظم مجموعة من الفن الإسبـــانى الإسلامى التى تكمل النَّظرة والدِّراسة للبقايا والآثار المعمارية التى ما زالت موجودة فى المنطقة الفنية من شمال شبه الجزيرة الأيبيرية إلى شمال أفريقيا وتكتمل بمجموعة من القطع الفنية الشرقية تساعد على فهم تنوع الأسلوب المعاصر فى مختلف المناطق الإسلامية بهمزة وصل تصلٍ بينها تتمثل فى البحر المتوسط ٠

المصادر والمراجع

- بيرموديث باريخا .. خ . مُتحف الآثار بالحمراء . مذكرات المتاحف الأثرية بالأقاليم ، ١٩٤٢ ، وزارة التعليم الوطنية ، مدريد ، ١٩٤٣ .
- مُتحف الآثار بالحمراء (غرناطـة) مذكرات متاحف الآثار ١٩٤٣ (مستخرجات) الجزء الرابع ، وزارة التعليم الوطنية ، مدريد ، ١٩٤٤
- مُتحف الحمراء ، مايو ١٩٤٥ ، أرشيف المُتحف .
- تغييرات مكان مُتحف الآثار بالحمراء ، أرشيف المُتحف .
- مُتحف الآثار بالحمراء (غرناطة) مذكرات متاحف الآثار الإقليمية ، ١٩٥١ ، الجزء الثانى عشر .
- مذكرة أنشطة مُتحف الآثار بالحمراء والمُتحف الوطنى للفن الإسلامى أثناء ١٩٦٦ ، أرشيف المُتحف .
- المُتحف الوطنى للفن الإسبانى الإسلامى ، دفاتر الحمراء ، العدد الرّابع ، هيئة الحمراء ، غرناطة ١٩٦٨ .
- " مباخر الحمراء " مذكرات المتاحف الإقليمية الأثرية ، مدريد ,١٩٥٣
- آثار من العصور الوسطى بمُتحف الحمراء ، مذكّرات متاحف الآثار الإقليمية ، مدريد ١٩٥٤ .
- كبانياس رودريجيث . د . وفرنانديث بويرتاس . أ . " نقوش شعرية ببوابة وواجهة قصر كوماريس " دفاتر الحمراء ، ١٠ - ١١ ، ١٩٧٤ / ١٩٧٥ .

- كونتريراس . ر . الحمراء ، القلعة والمسجد الكبير بالغرب ، طباعة ونقش حجرى لأنطونيو روديرو ، مدريد ١٩٧٨ .
- مرسوم التاسع من مارس عام ١٩٤٠ (وزارة التعليم الوطنية) الخاص بإنشاء بيوت لإقامة موظفى المُتحف واتخاذ قصر الإمبراطور كارلوس الخامس مقراً للمُتحف بغرناطة (الجريدة الرسمية للدولة فى الثامن عشر من إبريل ١٩٤٠) .
- مرسوم الثّالث عشر من أغسطس عام ١٩٤٠ (وزارة التّعليم الوطنية) الذى يوسع سلطات الهيئة على الحمراء والمكلفة بإنشاء بيوت للإقامة والإشراف على جعل قصر الإمبراطور كارلوس الخامس مقراً للمُتحف فى غرناطة (الصّحيفة الرّسمية فى الرابع من إبريل ١٩٤٠) .
- المرسوم رقم ٣٣٩٠ / ١٩٦٢ الصّادر فى الثّالث عشر من ديسمبر (وزارة التعليم الوطنية) إنشاء المُتحف الوطنى للفن الإسبانى الإسلامى (الجرّيدة الرسمية للّدولة فى التاسع والعشرين من ديسمبر ١٩٦٢).
- هيئة الحمراء ، صحيفة محامى غرناطة ، ٢٠ يناير ١٩١٤ .
- فرنانديث بويرتاس . أ . " جدول النّقوش الكتابية ، عصر المرابطين أو بدايات الموحدين " مزيج من الدّراسات العربية والعبرية - ١٩٧١ .
- لوح نقوش الموحدين - مزيج من الدّراسات العربية والعبرية ، العدد الحادى والعشرين ١٩٧٢ .
- دفّايات إسبانية إسلامية ، دفاتر الحمراء ، العدد الثامن ١٩٧٢ .
- تجصيص زخرفى لبرج السّيدات ، دفاتر الحمراء ، العدد ٩ - ١٩٧٣ .
- جداول النقوش الكتابية لعصر المرابطين والموحدين ، مزيج من الدّراسات العربية والعبرية ، العدد الثالث والعشرين ، ١٩٧٤ .
- مصابيح وقناديل منقوشة بالكتابة منذ أواخر القرن الحادى عشر أو بدايات القرن الثّانى عشر ، مزيج من الدّراسات العربية والعبرية ، العدد الرّابع والعشرين ، ١٩٧٥ .

- مبخرة من عصر المرابطين ، مزيج من الدراسات العربية والعبرية ، العدد الخامس والعشرين ، ١٩٧٦ .
- قصر البوابة ، التكوين الزخرفي ذو المهام الثلاث المختلفة ، دفاتر الحمراء ، العدد الثامن ١٩٧٢ ، ص ٧٧ - ٨٦ .
- دفّايات إسبانية إسلامية ، دفاتر الحمراء .
- مذكرات بالأبحاث التي أجريت في القطاع الشمالي من المشوار بقصر كوماريس ، دفاتر الحمراء ، العدد الثامن عشر ، ١٩٨٢ .
- زخرفة الجص الأندلسي الإسلامي في الفن الأندلسي الإسلامي ، معرض قدمته اللجنة الوطنية في الاحتفال بالذكرى المئوية الخامسة لاكتشاف أمريكا ، بلدية غرناطة ، غرناطة ١٩٨٤ .
- ظاهرة الإسلام الأندلسي في زخرفة الجص لمبانيهم MEAH، العدد الثالث والثلاثين ١٩٨٤ - ١٩٨٥ .
- كمرتان من عصر الخلافة بالمُتحف الوطني للفن الإسباني الإسلامي ، تكريم للأستاذ داريو كيانياس رودريجيث بمناسبة ذكراه السبعين ، جامعة غرناطة ، ١٩٨٧ .
- نزهة أو جولة بالمُتحف الوطني للفن الإسباني الإسلامي ، مزيج من الدراسات العربية والعبرية ، جامعة غرناطة ١٩٨٨ .
- كرسي الركوب في الفن والثقافة عام ١٤٩٢ ، المعرض الدولي بأشبيلية ، ١٩٩٢ .
- مشربية في الفن والثقافة عام ١٤٩٢، المعرض الدولي بأشبيلية ، ١٩٩٢ .
- لوحة من المقرنصات المغطاة بالزليج القرن الخامس عشر والسادس عشر في الفن والثقافة عام ١٤٩٢، المعرض الدولي بأشبيلية ، ١٩٩٢ .
- قيشاني من القرن الخامس عشر في الفن والثقافة عام ١٤٩٢، المعرض الدولي بأشبيلية ، ١٩٩٢ .

- فلوريس ايسكوبوسا . إي . دراسة وتصنيف للخزف المذهّب دى مانيسيس من أرصدة المُتحف الوطنى للفن الإسبانى الإسلامى ، غرناطة ١٩٨٢ (رسالة ماجستير) .
- " مجموعة الخزف المذهّب دى مانيسيس " دراسات مخصصة عن السيد / خيسوس بيرموديث باريخا ، غرناطة ، ١٩٨٨ .
- بعض الاعتبارات عن الخزف المذهّب ، حوليات المدرسة الجامعية فى ألميريا ، مجلة الآداب ، العدد الخامس ، ألميريا ١٩٨٣ - ١٩٨٥ .
- دراسة تمهيدية عن الخزف الأزرق والمذهّب النصرى ، الحمراء ، دفاتر الفن وعلم الآثار ، العدد الرابع ، المعهد الإسبانى العربى للثقافة ، مدريد ١٩٨٨ .
- بعض الأنماط للخزف الأزرق والمذهّب الذى عُثِرَ عليه فى الحمراء ، أعمال المؤتمر الثانى للآثار الإسبانية فى العصور الوسطى ، الجزء الثانى ، مدريد ١٩٨٧ .
- جارِّيدو جارِّيدو . م . " الخزف المذهّب المصرى " مجموعة المُتحف الوطنى للفن الإسبانى الإسلامى ، غرناطة ، ١٩٨٢ (بحث ليسانس) .
- مشاهد من البلاط الملكى على الصينى الفاطمى المذهّب بالمُتحف الوطنى للفن الإسبانى الإسلامى ، دراسات مخصصة عن السيد / خيسوس بيرموديث باريخا ، غرناطة ، ١٩٨٨ .
- جوميث مورينو مانويل ، دليل غرناطة ، طبعة إنداليثيو بينتورا ، غرناطة ١٩٨٢ .
- بيان : الحمراء ، صحيفة " محامى غرناطة " ٢٩ يوليو ١٩٠٦ .
- الحفاظ على الحمراء ، صحيفة " محامى غرناطة " ٦ أغسطس ١٩٠٧ .
- الحفاظ على الحمراء ، صحيفة بوبليثيداد أو النُّوتيثيرو الغرناطى ، ٢٠ يناير ١٩١٤ .
- مارينيوت تشيت . ب . " تيجان الأعمدة من عصر الخلافة " بالمُتحف الوطنى للفن الإسبانى الإسلامى ، دفاتر الفن ، العدد الثامن عشر ، غرناطة ١٩٨٧ .
- قطع من العاج من ورشة كوينكا ، مزيج من الدِّراسات العربية والعبرية ، الجزء السَّادس والثَّلاثين ، الملزمة الأولى ، جامعة غرناطة ١٩٨٧ .

- دليل تربوى وتعليمى للمُتحف الوطنى للفن الإسبانى الإسلامى ، غرناطة ١٩٨٧ .
- المياه فى العالم الإسبانى الإسلامى ، حوضان من عصر الخلافة لم ينشر عنهما شىء (الآثار الإسبانية فى العصر الوسيط) أعمال المؤتمر الثانى للإتصالات ، مدريد ١٩٨٧ .
- دراسة وتصنيف لمجموعة من بايب التَّدخين ، تكريم للأستاذ خاثينتو بوش بيلا ، الجزء الثانى ، جامعة غرناطة ، قسم الدِّراسات السَّامية ، غرناطة ١٩٩١ .
- ميليرو رودريجيث . م . ث . " العطور فى حوض البحر المتوسط من خلال الأدب " الزجاج الإسلامى بالمُتحف الوطنى للفن الإسبانى الإسلامى ، غرناطة ، ١٩٨٢ (بحث تخرج) .
- تحليل نمطى للزُّجاج النَّصرى ، دراسات عن السَّيد / خيسوس بيرموديث باريخا ، غرناطة ، ١٩٨٨ .
- نويرى ماتاوكو . إى . " ترميم الأعمال الخشبية الأندلسية الإسلامية " باتباع قواعد النِّجارة التى أملاها السَّيد / لوبيث دى أريناس ، ندوة دولية عن الفن الأندلسى الإسلامى ، الفن ، أعمال ترويل ، ١٩٨٢ .
- النجارة الإسبانية ، وزارة الثقافة ، مدريد ١٩٨٩ ، نجارة الوصل أو الربط .
- المُتحف الإسبانى الإسلامى فى مداخلات فى التُّراث المعمارى (١٩٨٠ - ١٩٨٥) وزارة الثقافة ، مدريد ١٩٩٠ .
- أوليفير أورتادو . خ . وم " غرناطة وآثارها العربية " طبعة مانويل أوليبير نابارُّو ١٩٧٥ ، مالقة .
- أمر ضم الهيئة التَّنفيذية للأرشيفات وأمناء المكتبات وعلماء الآثار لخدمات مُتحف الحمراء (الجريدة الرَّسمية للدَّولة رقم ٢٤١ الصَّادرة فى ٢٩ أغسطس ١٩٤٢) .

- باولا بايادار . ف . " دليل غرناطة ، تاريخ وأوصاف ، فنون وعادات وتقاليد وأبحاث اثرية " باولينو بينتورا ترابيسيت ، غرناطة ، ١٩٠٦ .
- ريباس إيرنانديث . م . أ . بقايا نصرية وديرية مسيحية للقديس فرانثيسكو بالحمراء ، غرناطة ، ١٩٨٢ (بحث تخرج) .
- بقايا قصور نصرية وديرية مسيحية للقديس فرانثيسكو بالحمراء ، دراسات عن السيِّد / خيسوس بيرموديث باريخا ، غرناطة ، ١٩٨٨ .
- رودا . ث . الحمراء " رأى نو ثقل " ، صحيفة النوتيثيرو الغرناطى ، غرناطة ١٩٠٧ .
- الحمراء " رأى نو ثقل " ، إيبوكا ، مدريد ١٩٠٧ .
- رويث جارثيا . أ . الخزف المنزلى النَّصرى المطلى بالزَّجاج الأخضر بالمُتحف الوطنى للفن الإسبانى الإسلامى ، غرناطة ، ١٩٨٠ ، (بحث تخرج) .
- سيكو دى لوثينا . ل . الآثار الوطنية فى الحمراء تمَّ انقاذها ، أبحاث أثرية ، لاتريبونا ، إبريل ١٩١٤ .
- الحمراء كيف كانت وكيف تكون الآن ، غرناطة ١٩٣٥ .
- سيرّانو جارثيا . ث . حلوق ومقابض الأباريق النَّصرية ، غرناطة ، ١٩٨٢ (بحث تخرج) .
- الأباريق بالحمراء ، دراسات عن السيِّد / خيسوس بيرموديث باريخا ، غرناطة ، ١٩٨٨ .
- تِّوريس بالباس . ل . مُتحف الآثار بالحمراء ، مجلة الأندلس ، الجزء التَّاسع ، مدريد ، غرناطة ١٩٤٤ ، مجلة مدارس الدِّراسات العربية لمدريد وغرناطة .

المترجم فى سطور

- ولد الدكتور / صبرى محمدي التُّهامى زيدان فى ١٩٥١/٤/٢٠ م بقرية بهنيا - ديرب نجم
- محافظة الشرقية .

- ليسانس لغات وترجمة ، قسم اللغة الإسبانية وآدابها ، مايو ١٩٧٥ بتقدير عام ممتاز (أول الدفعة) .

- دبلوم دراسات عليا بالقاهرة ومدريد بتقدير عام امتياز .

- دكتوراه فى اللغة الإسبانية وآدابها فى ١٦ فبراير ١٩٩٥ بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف .

- قضى فى إسبانيا خمسة عشر عامًا ونصف العام زاول خلالها أعمال الترجمة فى المكتب الصحفى بسفارة مصر وبوكالة الأنباء الليبية وفى السفارة الكويتية التتبعية والتحريرية والفورية السياسية والعسكرية والاقتصادية والعلمية والتجارية والقانونية ... إلخ .

- مترجم فورى منذ عام ١٩٨٥ زاول أعمال الترجمة الفورية فى كثير من المؤتمرات الدولية وخاصة مؤتمر السلام بمدريد ومؤتمرات الأديان وكذلك النَّدوات واللقاءات الثَّقافية العربية الإسبانية .

- صدرت له بالاشتراك مع أثنين من الزملاء بقسم اللغة الإسبانية وآدابها ترجمة لتفسير القرآن الكريم فى ٢٠٠١ م - ١٤٢١ هـ .

- صدرت له ترجمة لمسرحيتى " ورود الخريف " و عُش الغريب " للكاتب الإسبانى الأشهر خاثينتو بينابينتى الفائز بجائزة نوبل فى الأدب عام ١٩٢٢ وذلك بالمجلس الأعلى للثقافة عام ٢٠٠٢

- صدرت له عدة كتب منها " رحلة إلى الجذور " للكاتب الكولومبى جارثيا ماركيت و " جوارات مع خوان رامون خيمينيث " و " السَّيدة بيرفكتا " لرائد الواقعية الإسبانية بينيتو بيريث جالدوس و " السيد سيجوندو سومبرا " للقصاص الأرجنتينى ريكاردو جوير الديس .

- له تحت الطَّبع " روائع أندلسية إسلامية " و " وفورتوناتا وخاثينتا " .

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنبًا إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١-	اللغة العليا	جون كوين	أحمد درويش
٢-	الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣-	التراث المسروق	جورج جيمس	شوقى جلال
٤-	كيف تتم كتابة السيناريو	إنجا كاريتنيكوفا	أحمد الحضرى
٥-	ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
٦-	اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧-	العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	يوسف الأنطكى
٨-	مشعلو الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
٩-	التغيرات البيئية	أندرو. س. جودى	محمود محمد عاشور
١٠-	خطاب الحكاية	جيرار جينيت	محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١-	مختارات شعرية	فيسوافا شيمبوريسكا	هناء عبد الفتاح
١٢-	طريق الحرير	ديفيد براونيستون وأيرين فرانك	أحمد محمود
١٣-	ديانة الساميين	روبرتسن سميث	عبد الوهاب علوب
١٤-	التحليل النفسى للأدب	جان بيلمان نويل	حسن المودن
١٥-	الحركات الفنية منذ ١٩٤٥	إدوارد لوسى سميث	أشرف رفيق عفيفى
١٦-	أثينة السوداء (جـ١)	مارتن برنال	بإشراف أحمد عتمان
١٧-	مختارات شعرية	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوى
١٨-	الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
١٩-	الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	نعيم عطية
٢٠-	قصة العلم	ج. ج. كراوثر	يمنى طريف الخولى و بدوى عبد الفتاح
٢١-	خوخة وألف خوخة وقصص أخرى	صمد بهرنجى	ماجدة العنانى
٢٢-	مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	سيد أحمد على الناصرى
٢٣-	تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	سعيد توفيق
٢٤-	ظلال المستقبل	باتريك بارندر	بكر عباس
٢٥-	مثنوى (٦ أجزاء)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦-	دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
٢٧-	التنوع البشرى الخلاق	مجموعة من المؤلفين	بإشراف: جابر عصفور
٢٨-	رسالة فى التسامح	جون لوك	منى أبو سنة
٢٩-	الموت والوجود	جيمس ب. كارس	بدر الديب
٣٠-	الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣١-	مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	عبد الستار الحلوجى وعبد الوهاب علوب
٣٢-	الانقراض	ديفيد روب	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣-	التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	أحمد فؤاد بلبع
٣٤-	الرواية العربية	روجر ألن	حصة إبراهيم المنيف
٣٥-	الأسطورة والحداثة	بول ب . ديكسون	خليل كلفت
٣٦-	نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	حياة جاسم محمد

٣٧-	واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	جمال عبد الرحيم
٣٨-	نقد الحداثة	آلن تورين	أنور مغيث
٣٩-	الحسد والإغريق	بيتر والكوت	منيرة كروان
٤٠-	قصائد حب	آن سكستون	محمد عيد إبراهيم
٤١-	ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	عاطف أحمد وإبراهيم فتحي ومحمود ماجد
٤٢-	عالم ماك	بنچامين باربر	أحمد محمود
٤٣-	اللهب المزدوج	أوكتافيو پاث	المهدى أخريف
٤٤-	بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	مارلين تادرس
٤٥-	التراث المغدور	روبرت دينا وچون فاين	أحمد محمود
٤٦-	عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	محمود السيد على
٤٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ١)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨-	حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ماهر جويجاتي
٤٩-	الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	عبد الوهاب علوب
٥٠-	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	محمد برادة وعثماني الميلود ويوسف الأنطكى
٥١-	مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م. بينياليستى	محمد أبو العطا
٥٢-	العلاج النفسى التدعيمى	ب. نوفاليس وس . روجسيفيتز وروجر بيل	لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣-	الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	مرسى سعد الدين
٥٤-	المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	محسن مصيلحى
٥٥-	ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	على يوسف على
٥٦-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ١)	فديريكو غرسية لوركا	محمود على مكى
٥٧-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ٢)	فديريكو غرسية لوركا	محمود السيد و ماهر البطوطى
٥٨-	مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	محمد أبو العطا
٥٩-	المحبرة (مسرحية)	كارلوس مونييث	السيد السيد سهيم
٦٠-	التصميم والشكل	چوهانز إيتين	صبرى محمد عبد الغنى
٦١-	موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	بإشراف : محمد الجوهرى
٦٢-	لذّة النّص	رولان بارت	محمد خير البقاعى
٦٣-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤-	برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	رمسيس عوض
٦٥-	فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	رمسيس عوض
٦٦-	خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧-	مختارات شعرية	فرناندو بيسوا	المهدى أخريف
٦٨-	نتاشا العجوز وقصص أخرى	ڤالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
٦٩-	العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠-	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١-	السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	حسين محمود
٧٢-	السياسى العجوز	ت . س . إليوت	فؤاد مجلى
٧٣-	نقد استجابة القارئ	چين ب . تومبكنز	حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤-	صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	حسن بيومى

٧٥-	فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	أحمد درويش
٧٦-	چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من المؤلفين	عبد المقصود عبد الكريم
٧٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨-	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
٧٩-	شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠-	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	مكارم الغمرى
٨١-	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	محمد طارق الشرقاوى
٨٢-	مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	محمود السيد على
٨٣-	مختارات شعرية	غوتفريد بن	خالد المعالى
٨٤-	موسوعة الأدب والنقد (جـ١)	مجموعة من المؤلفين	عبد الحميد شيحة
٨٥-	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	عبد الرازق بركات
٨٦-	طول الليل (رواية)	جمال مير صادقى	أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧-	نون والقلم (رواية)	جلال آل أحمد	ماجدة العنانى
٨٨-	الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩-	الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠-	وسم السيف وقصص أخرى	بورخيس وآخرون	محمد إبراهيم مبروك
٩١-	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربرا لاسوتسكا - بشونباك	محمد هناء عبد الفتاح
٩٢-	أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجيل	نادية جمال الدين
٩٣-	محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	عبد الوهاب علوب
٩٤-	مسرحيتا الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	فوزية العشماوى
٩٥-	مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	سرى محمد عبد اللطيف
٩٦-	ثلاث زنبقات ووردة وقصص أخرى	نخبة	إدوار الخراط
٩٧-	هوية فرنسا (مج١)	فرنان برودل	بشير السباعى
٩٨-	الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٩٩-	تاريخ السينما العالمية (١٨٩٥-١٩٨٠)	ديفيد روبنسون	إبراهيم قنديل
١٠٠-	مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	إبراهيم فتحى
١٠١-	النص الروائى: تقنيات ومناهج	بيرنار فاليط	رشيد بنحدو
١٠٢-	السياسة والتسامح	عبد الكبير الخطيبى	عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣-	قبر ابن عربى يليه آياء (شعر)	عبد الوهاب المؤدب	محمد بنيس
١٠٤-	أوبرا ماهوجنى (مسرحية)	برتولت بريشت	عبد الغفار مكاوى
١٠٥-	مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	عبد العزيز شبيل
١٠٦-	الأدب الأندلسى	ماريا خيسوس روبييرامتى	أشرف على دعدور
١٠٧-	صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى اللاتينى المعاصر	نخبـة من الشعـراء	محمد عبد الله الجعيدى
١٠٨-	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من المؤلفين	محمود على مكى
١٠٩-	حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	هاشم أحمد محمد
١١٠-	النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	منى قطان
١١١-	المرأة والجريمة	فرانسس هيدسون	ريهام حسين إبراهيم
١١٢-	الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	إكرام يوسف

١١٣- راية التمرد — سادى بلانت — أحمد حسان
١١٤- مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع — وول شوينكا — نسيم مجلى
١١٥- غرفة تخص المرء وحده — فرجينيا وولف — سمية رمضان
١١٦- امرأة مختلفة (درية شفيق) — سينثيا نلسون — نهاد أحمد سالم
١١٧- المرأة والجنوسة فى الإسلام — ليلى أحمد — منى إبراهيم وهالة كمال
١١٨- النهضة النسائية فى مصر — بث بارون — لميس النقاش
١١٩- النساء والأسرة وقوانين الطلاق فى التاريخ الإسلامى — أميرة الأزهرى سنبل — بإشراف: رءوف عباس
١٢٠- الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط — ليلى أبو لغد — مجموعة من المترجمين
١٢١- الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية — فاطمة موسى — محمد الجندى وإيزابيل كمال
١٢٢- نظام العبودية القديم والنموذج المثالى للإنسان — چوزيف فوجت — منيرة كروان
١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية — أنينل ألكسندرو فنادولينا — أنور محمد إبراهيم
١٢٤- الفجر الكاذب: أوهام الرأسمالية العالمية — چون جراى — أحمد فؤاد بلبع
١٢٥- التحليل الموسيقى — سيدرك ثورپ ديڤى — سمحة الخولى
١٢٦- فعل القراءة — ڤولڤانج إيسر — عبد الوهاب علوب
١٢٧- إرهاب (مسرحية) — صفاء فتحى — بشير السباعى
١٢٨- الأدب المقارن — سوزان باسنيت — أميرة حسن نويرة
١٢٩- الرواية الإسبانية المعاصرة — ماريا دولورس أسيس جاروته — محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠- الشرق يصعد ثانية — أندريه جوندر فرانك — شوقى جلال
١٣١- مصر القديمة: التاريخ الاجتماعى — مجموعة من المؤلفين — لويس بقطر
١٣٢- ثقافة العولمة — مايك فيذرستون — عبد الوهاب علوب
١٣٣- الخوف من المرايا (رواية) — طارق على — طلعت الشايب
١٣٤- تشريح حضارة — بارى ج. كيمب — أحمد محمود
١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت — ت. س. إليوت — ماهر شفيق فريد
١٣٦- فلاحو الباشا — كينيث كونو — سحر توفيق
١٣٧- مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية على مصر — چوزيف مارى مواريه — كاميليا صبحى
١٣٨- عالم التليفزيون بين الجمال والعنف — أندريه جلوكسمان — وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩- پارسيڤال (مسرحية) — ريتشارد ڤاچنر — مصطفى ماهر
١٤٠- حيث تلتقى الأنهار — هربرت ميسن — أمل الجبورى
١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية — مجموعة من المؤلفين — نعيم عطية
١٤٢- الإسكندرية : تاريخ ودليل — أ. م. فورستر — حسن بيومى
١٤٣- قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى — ديرك لايدر — عدلى السمرى
١٤٤- صاحبة اللوكاندة (مسرحية) — كارلو جولدونى — سلامة محمد سليمان
١٤٥- موت أرتيميو كروث (رواية) — كارلوس فوينتس — أحمد حسان
١٤٦- الورقة الحمراء (رواية) — ميجيل دى ليبس — على عبدالرءوف البمبى
١٤٧- مسرحيتان — تانكريد دورست — عبدالغفار مكاوى
١٤٨- القصة القصيرة: النظرية والتقنية — إنريكى أندرسون إمبرت — على إبراهيم منوفى
١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس — عاطف فضول — أسامة إسبر
١٥٠- التجربة الإغريقية — روبرت ج. ليتمان — منيرة كروان

١٥١-	هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ١)	فرنان بروديل	بشير السباعى
١٥٢-	عدالة الهنود وقصص أخرى	مجموعة من المؤلفين	محمد محمد الخطابى
١٥٣-	غرام الفراعنة	فيولين فانويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤-	مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت
١٥٥-	الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسى
١٥٦-	المدارس الجمالية الكبرى	چى أنبال وآلان وأوديت ڤيرمو	مى التلمسانى
١٥٧-	خسرو وشيرين	النظامى الكنجوى	عبدالعزيز بقوش
١٥٨-	هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ٢)	فرنان بروديل	بشير السباعى
١٥٩-	الأيديولوچية	ديڤيد هوكس	إبراهيم فتحى
١٦٠-	آلة الطبيعة	بول إيرليش	حسين بيومى
١٦١-	مسرحيتان من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢-	تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوى	صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣-	موسوعة علم الاجتماع (جـ ١)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
١٦٤-	شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	نبيل سعد
١٦٥-	حكايات الثعلب (قصص أطفال)	أ. ن. أفاناسيفا	سهير المصادفة
١٦٦-	العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليڤمان	محمد محمود أبوغدير
١٦٧-	فى عالم طاغور	رابندرنات طاغور	شكرى محمد عياد
١٦٨-	دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٦٩-	إبداعات أدبية	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٧٠-	الطريق (رواية)	ميجيل دليبيس	بسام ياسين رشيد
١٧١-	وضع حد (رواية)	فرانك بيجو	هدى حسين
١٧٢-	حجر الشمس (شعر)	نخبة	محمد محمد الخطابى
١٧٣-	معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤-	صناعة الثقافة السوداء	إيليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥-	التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦-	نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	جلال البنا
١٧٧-	أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	حصة إبراهيم المنيف
١٧٨-	مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدى إبراهيم
١٧٩-	حكايات أيسوب (قصص أطفال)	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠-	قصة جاويد (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١-	النقد الأدبى الأمريكى من الثلاثينيات إلى الثمانينيات	ڤنسنت ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢-	العنف والنبوءة (شعر)	و.ب. ييتس	ياسين طه حافظ
١٨٣-	چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	فتحى العشرى
١٨٤-	القاهرة: حالمة لا تنام	هانز إيندورفر	دسوقى سعيد
١٨٥-	أسفار العهد القديم فى التاريخ	توماس تومسن	عبد الوهاب علوب
١٨٦-	معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنوود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧-	الأرضة (رواية)	بُزرج علوى	محمد علاء الدين منصور
١٨٨-	موت الأدب	ألڤين كرنان	بدر الديب

١٨٩- العمى والبصيرة: مقالات فى بلاغة النقد المعاصر	بول دى مان	سعيد الغانمى
١٩٠- محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	محسن سيد فرجانى
١٩١- الكلام رأسمال وقصص أخرى	الحاج أبو بكر إمام وآخرون	مصطفى حجازى السيد
١٩٢- سياحت نامه إبراهيم بك (جـ١)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
١٩٣- عامل المنجم (رواية)	بيتر أبراهامز	محمد عبد الواحد محمد
١٩٤- مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى الحديث	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
١٩٥- شتاء ٨٤ (رواية)	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
١٩٦- المهلة الأخيرة (رواية)	ڤالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
١٩٧- سيرة الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	جلال السعيد الحفناوى
١٩٨- الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩- تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداو	جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠- ضحايا التنمية: المقاومة والبدائل	چيرمى سيبروك	فخرى لبيب
٢٠١- الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٢٠٢- تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٤)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣- الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤- تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	أحمد هويدى
٢٠٥- الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى- سفورزا	أحمد مستجير
٢٠٦- الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	على يوسف على
٢٠٧- ليل أفريقى (رواية)	رامون خوتاسندير	محمد أبو العطا
٢٠٨- شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	محمد أحمد صالح
٢٠٩- السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٠- مثنويات حكيم سنائى (شعر)	سنائى الغزنوى	يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١- فرديناند دوسوسير	جوناثان كلر	محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢- قصص الأمير مرزبان على لسان الحيوان	مرزبان بن رستم بن شروين	يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣- مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	سيد أحمد على الناصرى
٢١٤- قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	محمد محيى الدين
٢١٥- سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
٢١٦- جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٧- مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت وهارولد بينتر	نادية البنهاوى
٢١٨- لعبة الحجلة (رواية)	خوليو كورتاثار	على إبراهيم منوفى
٢١٩- بقايا اليوم (رواية)	كازو إيشجورو	طلعت الشايب
٢٢٠- الهيولية فى الكون	بارى باركر	على يوسف على
٢٢١- شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	رفعت سلام
٢٢٢- فرانز كافكا	رونالد جراى	نسيم مجلى
٢٢٣- العلم فى مجتمع حر	باول فيرابند	السيد محمد نفادى
٢٢٤- دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	منى عبدالظاهر إبراهيم
٢٢٥- حكاية غريق (رواية)	جابرييل جارثيا ماركيث	السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦- أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	طاهر محمد على البربرى

٢٢٧-	المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	خوسيه ماريا ديث بوركى	السيد عبدالظاهر عبدالله
٢٢٨-	علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
٢٢٩-	مأزق البطل الوحيد	نورمان كيجان	أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠-	عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١-	الدرافيل أو الجيل الجديد (مسرحية)	خايمى سالوم بيدال	جمال عبدالرحمن
٢٣٢-	ما بعد المعلومات	توم ستونير	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣-	فكرة الاضمحلال فى التاريخ الغربى	أرثر هيرمان	طلعت الشايب
٢٣٤-	الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	فؤاد محمد عكود
٢٣٥-	ديوان شمس تبريزى (جـ١)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦-	الولاية	ميشيل شودكيفيتش	أحمد الطيب
٢٣٧-	مصر أرض الوادى	روبين فيدين	عنايات حسين طلعت
٢٣٨-	العولمة والتحرير	تقرير لمنظمة الأنكتاد	ياسر محمد جادالله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩-	العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلا رامراز - رايوخ	نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠-	الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كاى حافظ	صلاح محجوب إدريس
٢٤١-	فى انتظار البرابرة (رواية)	ج . م. كوتزى	ابتسام عبدالله
٢٤٢-	سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	صبرى محمد حسن
٢٤٣-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	ليفى بروفنسال	بإشراف: صلاح فضل
٢٤٤-	الغليان (رواية)	لاورا إسكيبيل	نادية جمال الدين محمد
٢٤٥-	نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس وآخرون	توفيق على منصور
٢٤٦-	مختارات قصصية	جابرييل جارثيا ماركيث	على إبراهيم منوفى
٢٤٧-	الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	والتر أرمبرست	محمد طارق الشرقاوى
٢٤٨-	حقول عدن الخضراء (مسرحية)	أنطونيو جالا	عبداللطيف عبدالحليم
٢٤٩-	لغة التمزق (شعر)	دراجو شتامبوك	رفعت سلام
٢٥٠-	علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ماجدة محسن أباظة
٢٥١-	موسوعة علم الاجتماع (جـ٢)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٥٢-	رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	على بدران
٢٥٣-	تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	حسن بيومى
٢٥٤-	أقدم لك: الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥-	أقدم لك: أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٦-	أقدم لك: ديكارت	ديف روبنسون وكريس جارات	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧-	تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	محمود سيد أحمد
٢٥٨-	الغجر	سير أنجوس فريزر	عُبادة كُحيلة
٢٥٩-	مختارات من الشعر الأرمنى عبر العصور	نخبة	فاروجان كازانجيان
٢٦٠-	موسوعة علم الاجتماع (جـ٣)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٦١-	رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢-	مدينة المعجزات (رواية)	إدواردو مندوثا	محمد أبو العطا
٢٦٣-	الكشف عن حافة الزمن	چون جريبن	على يوسف على
٢٦٤-	إبداعات شعرية مترجمة	هوراس وشلى	لويس عوض

٢٦٥-	روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	لويس عوض
٢٦٦-	مدير المدرسة (رواية)	جلال آل أحمد	عادل عبدالمنعم على
٢٦٧-	فن الرواية	ميلان كونديرا	بدر الدين عرودكى
٢٦٨-	ديوان شمس تبريزى (جـ٢)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩-	وسط الجزيرة العربية وشرقها (جـ١)	وليم جيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧٠-	وسط الجزير العربية وشرقها (جـ٢)	وليم جيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧١-	الحضارة الغربية: الفكرة والتاريخ	توماس سى. باترسون	شوقى جلال
٢٧٢-	الأديرة الأثرية فى مصر	سى. سى. والترز	إبراهيم سلامة إبراهيم
٢٧٣-	الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابى فى مصر	چوان كول	عنان الشهاوى
٢٧٤-	السيدة باربارا (رواية)	روميلو جاييجوس	محمود على مكى
٢٧٥-	ت. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
٢٧٦-	فنون السينما	مجموعة من المؤلفين	عبدالقادر التلمسانى
٢٧٧-	الچينات والصراع من أجل الحياة	براين فورد	أحمد فوزى
٢٧٨-	البدايات	إسحاق عظيموف	ظريف عبدالله
٢٧٩-	الحرب الباردة الثقافية	ف.س. سوندرز	طلعت الشايب
٢٨٠-	الأم والنصيب وقصص أخرى	بريم شند وآخرون	سمير عبدالحميد إبراهيم
٢٨١-	الفردوس الأعلى (رواية)	عبد الحليم شرر	جلال الحفناوى
٢٨٢-	طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس وولبرت	سمير حنا صادق
٢٨٣-	السهل يحترق وقصص أخرى	خوان رولفو	على عبد الرءوف البمبى
٢٨٤-	هرقل مجنوناً (مسرحية)	يوريبيديس	أحمد عتمان
٢٨٥-	رحلة خواجة حسن نظامى الدهلوى	حسن نظامى الدهلوى	سمير عبد الحميد إبراهيم
٢٨٦-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٣)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
٢٨٧-	الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كنج	محمد يحيى وآخرون
٢٨٨-	الفن الروائى	ديڤيد لودج	ماهر البطوطى
٢٨٩-	ديوان منوچهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	محمد نور الدين عبدالمنعم
٢٩٠-	علم اللغة والترجمة	چورج مونان	أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١-	تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ١)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٢-	تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ٢)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٣-	مقدمة للأدب العربى	روچر آلن	مجدى توفيق وآخرون
٢٩٤-	فن الشعر	بوالو	رجاء ياقوت
٢٩٥-	سلطان الأسطورة	چوزيف كامبل وبيل مورير	بدر الديب
٢٩٦-	مكبث (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٢٩٧-	فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوازى	ماجدة محمد أنور
٢٩٨-	مأساة العبيد وقصص أخرى	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٢٩٩-	ثورة فى التكنولوجيا الحيوية	چين ماركس	هاشم أحمد محمد
٣٠٠-	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج١)	لويس عوض	جمال الجزيرى وبهاء چاهين وإيزابيل كمال
٣٠١-	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج٢)	لويس عوض	جمال الجزيرى و محمد الجندى
٣٠٢-	أقدم لك: فنجنشتين	چون هيتون وچودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام

٣٠٣- أقدم لك: بوذا	جين هوب وبورن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤- أقدم لك: ماركس	ريوس	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥- الجلد (رواية)	كروزيو مالابارته	صلاح عبد الصبور
٣٠٦- الحماسة: النقد الكانطى للتاريخ	جان فرانسوا ليوتار	نبيل سعد
٣٠٧- أقدم لك: الشعور	ديفيد بابينو وهوارد سلينا	محمود مكى
٣٠٨- أقدم لك: علم الوراثة	ستيف جونز وبورين فان لو	ممدوح عبد المنعم
٣٠٩- أقدم لك: الذهن والمخ	أنجوس جيلاتي وأوسكار زاريت	جمال الجزيرى
٣١٠- أقدم لك: يونج	ماجى هايد ومايكل ماكجنس	محيى الدين مزيد
٣١١- مقال فى المنهج الفلسفى	ر.ج كولنجوود	فاطمة إسماعيل
٣١٢- روح الشعب الأسود	وليم ديبويس	أسعد حليم
٣١٣- أمثال فلسطينية (شعر)	خايير بيان	محمد عبدالله الجعيدى
٣١٤- مارسيل دوشامب: الفن كعدم	جانيس مينيك	هويدا السباعى
٣١٥- جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو والطاهر لبيب	كاميليا صبحى
٣١٦- محاكمة سقراط	أى. ف. ستون	نسيم مجلى
٣١٧- بلا غد	س. شير لايموفا- س. زنيكين	أشرف الصباغ
٣١٨- الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٣١٩- صور دريدا	جايترى سبيفاك وكرستوفر نوريس	حسام نايل
٣٢٠- لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	محمد علاء الدين منصور
٣٢١- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ١)	ليفى برو فنسال	بإشراف: صلاح فضل
٣٢٢- وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى	دبليو بوجين كلينباور	خالد مفلح حمزة
٣٢٣- فن الساتورا	تراث يونانى قديم	هانم محمد فوزى
٣٢٤- اللعب بالنار (رواية)	أشرف أسدى	محمود علاوى
٣٢٥- عالم الآثار (رواية)	فيليب بوسان	كرستين يوسف
٣٢٦- المعرفة والمصلحة	يورجين هابرماس	حسن صقر
٣٢٧- مختارات شعرية مترجمة (جـ١)	نخبة	توفيق على منصور
٣٢٨- يوسف وزليخا (شعر)	نور الدين عبد الرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٣٢٩- رسائل عيد الميلاد (شعر)	تد هيوز	محمد عيد إبراهيم
٣٣٠- كل شىء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	سامى صلاح
٣٣١- عندما جاء السردين وقصص أخرى	ستيفن جراى	سامية دياب
٣٣٢- شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	على إبراهيم منوفى
٣٣٣- الإسلام فى بريطانيا من ١٥٥٨-١٦٨٥	نبيل مطر	بكر عباس
٣٣٤- لقطات من المستقبل	آرثر كلارك	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣٥- عصر الشك: دراسات عن الرواية	ناتالى ساروت	فتحى العشرى
٣٣٦- متون الأهرام	نصوص مصرية قديمة	حسن صابر
٣٣٧- فلسفة الولاء	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٣٣٨- نظرات حائرة وقصص أخرى	نخبة	جلال الحفناوى
٣٣٩- تاريخ الأدب فى إيران (جـ٣)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٣٤٠- اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربروجلو	فخرى لبيب

٢٤١- قصائد من رلكه (شعر)	راينر ماريا ريلكه	حسن حلمى
٢٤٢- سلامان وأبسال (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٢٤٣- العالم البرجوازى الزائل (رواية)	نادين جورديمر	سمير عبد ربه
٢٤٤- الموت فى الشمس (رواية)	بيتر بالانجيو	سمير عبد ربه
٢٤٥- الركض خلف الزمان (شعر)	يونه ندائى	يوسف عبد الفتاح فرج
٢٤٦- سحر مصر	رشاد رشدى	جمال الجزيرى
٢٤٧- الصبية الطائشون (رواية)	چان كوكتو	بكر الحلو
٢٤٨- المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ١)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٢٤٩- دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والدهورن وآخرون	أحمد عمر شاهين
٢٥٠- بانوراما الحياة السياحية	مجموعة من المؤلفين	عطية شحاتة
٢٥١- مبادئ المنطق	چوزايا رويس	أحمد الانصارى
٢٥٢- قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	نعيم عطية
٢٥٣- الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة الهندسية	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٢٥٤- الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة النباتية	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٢٥٥- التيارات السياسية فى إيران المعاصرة	حجت مرتجى	محمود علاوى
٢٥٦- الميراث المر	بول سالم	بدر الرفاعى
٢٥٧- متون هرمس	تيموثى فريك وبيتر غاندى	عمر الفاروق عمر
٢٥٨- أمثال الهوسا العامية	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٢٥٩- محاورة بارمنيدس	أفلاطون	حبيب الشارونى
٢٦٠- أنثروبولوچيا اللغة	أندريه چاكوب ونويلا باركان	ليلى الشربينى
٢٦١- التصحر: التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	عاطف معتمد وآمال شاور
٢٦٢- تلميذ بابنبرج (رواية)	هاينرش شبورل	سيد أحمد فتح الله
٢٦٣- حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد چيبسون	صبرى محمد حسن
٢٦٤- حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	نجلاء أبو عجاج
٢٦٥- سأم باريس (شعر)	شارل بودلير	محمد أحمد حمد
٢٦٦- نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	مصطفى محمود محمد
٢٦٧- القلم الجرىء	مجموعة من المؤلفين	البرّاق عبدالهادى رضا
٢٦٨- المصطلح السردى: معجم مصطلحات	چيرالد برنس	عابد خزندار
٢٦٩- المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	فوزية العشماوى
٢٧٠- الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	فاطمة عبدالله محمود
٢٧١- المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ٢)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٢٧٢- عاش الشباب (رواية)	وانغ مينغ	وحيد السعيد عبدالحميد
٢٧٣- كيف تعد رسالة دكتوراه	أومبرتو إيكو	على إبراهيم منوفى
٢٧٤- اليوم السادس (رواية)	أندريه شديد	حمادة إبراهيم
٢٧٥- الخلود (رواية)	ميلان كونديرا	خالد أبو اليزيد
٢٧٦- الغضب وأحلام السنين (مسرحيات)	چان أنوى وآخرون	إدوار الخراط
٢٧٧- تاريخ الأدب فى إيران (جـ٤)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٢٧٨- المسافر (شعر)	محمد إقبال	يوسف عبدالفتاح فرج

٣٧٩- ملك فى الحديقة (رواية)	سنيل باث	جمال عبدالرحمن
٣٨٠- حديث عن الخسارة	جونتر جراس	شيرين عبدالسلام
٣٨١- أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢- تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد اسفنديار	أحمد محمد نادى
٣٨٣- هدية الحجاز (شعر)	محمد إقبال	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٨٤- القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	إيزابيل كمال
٣٨٥- مشترى العشق (رواية)	محمد على بهزادراد	يوسف عبدالفتاح فرج
٣٨٦- دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ريهام حسين إبراهيم
٣٨٧- أغنيات وسوناتات (شعر)	چون دن	بهاء چاهين
٣٨٨- مواعظ سعدى الشيرازى (شعر)	سعدى الشيرازى	محمد علاء الدين منصور
٣٨٩- تفاهم وقصص أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٩٠- الأرشيفات والمدن الكبرى	إم. فى. روبرتس	عثمان مصطفى عثمان
٣٩١- الحافلة الليلكية (رواية)	مايف بينشى	منى الدروبى
٣٩٢- مقامات ورسائل أندلسية	فرناندو دى لاجرانجا	عبداللطيف عبدالحليم
٣٩٣- فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	زينب محمود الخضيرى
٣٩٤- القوى الأربع الأساسية فى الكون	پول ديڤيز	هاشم أحمد محمد
٣٩٥- آلام سياوش (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
٣٩٦- السافاك	تقى نجارى راد	محمود علاوى
٣٩٧- أقدم لك: نيتشه	لورانس جين وكيتى شين	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٨- أقدم لك: سارتر	فيليپ تودى وهوارد ريد	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٩- أقدم لك: كامى	ديڤيد ميروفتش وآلن كوركس	إمام عبدالفتاح إمام
٤٠٠- مومو (رواية)	ميشائيل إنده	باهر الجوهرى
٤٠١- أقدم لك: علم الرياضيات	زياودن ساردر وآخرون	ممدوح عبد المنعم
٤٠٢- أقدم لك: ستيفن هوكنج	ج. ب. ماك إيفوى وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٠٣- ربة المطر والملابس تصنع الناس (روايتان)	تودور شتورم وجوتفرد كولر	عماد حسن بكر
٤٠٤- تعويذة الحسى	ديڤيد إبرام	ظبية خميس
٤٠٥- إيزابيل (رواية)	أندريه جيد	حمادة إبراهيم
٤٠٦- المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	جمال عبد الرحمن
٤٠٧- الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه	مجموعة من المؤلفين	طلعت شاهين
٤٠٨- معجم تاريخ مصر	چوان فوتشركنج	عنان الشهاوى
٤٠٩- انتصار السعادة	برتراند راسل	إلهامى عمارة
٤١٠- خلاصة القرن	كارل بوپر	الزواوى بغورة
٤١١- همس من الماضى	چينيفر أكرمان	أحمد مستجير
٤١٢- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ٢)	ليڤى بروڤنسال	بإشراف: صلاح فضل
٤١٣- أغنيات المنفى (شعر)	ناظم حكمت	محمد البخارى
٤١٤- الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوڤا	أمل الصبان
٤١٥- صورة كوكب (مسرحية)	فريدريش دورينمات	أحمد كامل عبدالرحيم
٤١٦- مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	محمد مصطفى بدوى

٤١٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٥)	رينيه ويليك	مجاهد عبدالمنعم مجاهد
٤١٨-	سياسات الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية	چين هاثواى	عبد الرحمن الشيخ
٤١٩-	العصر الذهبى للإسكندرية	چون مارلو	نسيم مجلى
٤٢٠-	مكرو ميجاس (قصة فلسفية)	ڤولتير	الطيب بن رجب
٤٢١-	الولاء والقيادة فى المجتمع الإسلامى الأول	روى متحدة	أشرف كيلانى
٤٢٢-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ١)	ثلاثة من الرحالة	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣-	إسراءات الرجل الطيف	نخبة	وحيد النقاش
٤٢٤-	لوائح الحق ولوامع العشق (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامى	محمد علاء الدين منصور
٤٢٥-	من طاووس إلى فرح	محمود طلوعى	محمود علاوى
٤٢٦-	الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧-	بانديراس الطاغية (رواية)	باى إنكلان	ثريا شلبى
٤٢٨-	الخزانة الخفية	محمد هوتك بن داود خان	محمد أمان صافى
٤٢٩-	أقدم لك: هيجل	ليود سپنسر وأندزجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠-	أقدم لك: كانط	كرستوفر وانت وأندزجى كليموفسكى	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١-	أقدم لك: فوكو	كريس هوروكس وزوران جفتيك	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢-	أقدم لك: ماكياڤللى	پاتريك كيرى وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣-	أقدم لك: جويس	ديڤيد نوريس وكارل فلنت	حمدى الجابرى
٤٣٤-	أقدم لك: الرومانسية	دونكان هيث وچودى بورهام	عصام حجازى
٤٣٥-	توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ناجى رشوان
٤٣٦-	تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧-	رحالة هندى فى بلاد الشرق العربى	شبلى النعمانى	جلال الحفناوى
٤٣٨-	بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	عايدة سيف الدولة
٤٣٩-	موت المرابى (رواية)	صدر الدين عينى	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠-	قواعد اللهجات العربية الحديثة	كرستن بروستاد	محمد طارق الشرقاوى
٤٤١-	رب الأشياء الصغيرة (رواية)	أروونداتى روى	فخرى لبيب
٤٤٢-	حتشبسوت: المرأة الفرعونية	فوزية أسعد	ماهر جويجاتى
٤٤٣-	اللغة العربية: تاريخها ومستوياتها وتأثيرها	كيس فرستيغ	محمد طارق الشرقاوى
٤٤٤-	أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	صالح علمانى
٤٤٥-	حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلرى	محمد محمد يونس
٤٤٦-	التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير	أحمد محمود
٤٤٧-	ملحمة السِّيد	تراث شعبى إسبانى	الطاهر أحمد مكى
٤٤٨-	الفلاحون (ميراث الترجمة)	الأب عيروط	محى الدين اللبان ووليم داوود مرقس
٤٤٩-	أقدم لك: الحركة النسوية	نخبة	جمال الجزيرى
٤٥٠-	أقدم لك: ما بعد الحركة النسوية	صوفيا فوكا وريبيكا رايت	جمال الجزيرى
٤٥١-	أقدم لك: الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن وبورن ڤان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢-	أقدم لك: لينين والثورة الروسية	ريتشارد إبجينانزى وأوسكار زاريت	محيى الدين مزيد
٤٥٣-	القاهرة: إقامة مدينة حديثة	چان لوك أرنو	حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤-	خمسون عامًا من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	سوزان خليل

٤٥٥-	تاريخ الفلسفة الحديثة (مج٥)	فردريك كوبلستون	محمود سيد أحمد
٤٥٦-	لا تنسنى (رواية)	مريم جعفرى	هويدا عزت محمد
٤٥٧-	النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان موللر أوكين	إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨-	الموريسكيون الأندلسيون	مرثيديس غارثيا أرينال	جمال عبد الرحمن
٤٥٩-	نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	جلال البنا
٤٦٠-	أقدم لك: الفاشية والنازية	ستوارت هود وليتزا جانستز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١-	أقدم لك: لكان	داريان ليدر وجودى جروفز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢-	طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبدالرشيد الصادق محمودى	عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣-	الدولة المارقة	ويليام بلوم	كمال السيد
٤٦٤-	ديمقراطية للقلة	مايكل بارنتى	حصة إبراهيم المنيف
٤٦٥-	قصص اليهود	لويس جنزبيرج	جمال الرفاعى
٤٦٦-	حكايات حب وبطولات فرعونية	فيولين فانويك	فاطمة عبد الله
٤٦٧-	التفكير السياسى والنظرة السياسية	ستيفين ديلو	ربيع وهبة
٤٦٨-	روح الفلسفة الحديثة	چوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٤٦٩-	جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	مجدى عبدالرازق
٤٧٠-	الأراضى والجودة البيئية	جارى م. بيرزنسكى وآخرون	محمد السيد النتة
٤٧١-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ٢)	ثلاثة من الرحالة	عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٧٢-	دون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٣-	دون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٤-	الأدب والنسوية	بام موريس	سهام عبدالسلام
٤٧٥-	صوت مصر: أم كلثوم	ڤرچينيا دانيلسون	عادل هلال عنانى
٤٧٦-	أرض الحبايب بعيدة: بيرم التونسى	ماريلين بوث	سحر توفيق
٤٧٧-	تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين	هيلدا هوخام	أشرف كيلانى
٤٧٨-	الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج و لى شى دونج	عبد العزيز حمدى
٤٧٩-	المقهـــى (مسرحية)	لاو شه	عبد العزيز حمدى
٤٨٠-	تساى ون جى (مسرحية)	كو مو روا	عبد العزيز حمدى
٤٨١-	بردة النبى	روى متحدة	رضوان السيد
٤٨٢-	موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	فاطمة عبد الله
٤٨٣-	النسوية وما بعد النسوية	سارة چامبل	أحمد الشامى
٤٨٤-	جمالية التلقى	هانسن روبيرت ياوس	رشيد بنحدو
٤٨٥-	التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦-	الذاكرة الحضارية	يان أسمن	عبدالحليم عبدالغنى رجب
٤٨٧-	الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد آبادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨-	الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩-	هُسرل: الفلسفة علمًا دقيقًا	إدموند هُسرل	محمود رجب
٤٩٠-	أسمار الببغاء	محمد قادرى	عبد الوهاب علوب
٤٩١-	نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى	نخبة	سمير عبد ربه
٤٩٢-	محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى فارچيت	محمد رفعت عواد

٤٩٣-	خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	محمد صالح الضالع
٤٩٤-	كتاب الموتى: الخروج فى النهار	نصوص مصرية قديمة	شريف الصيفى
٤٩٥-	اللوبى	إدوارد تيفان	حسن عبد ربه المصرى
٤٩٦-	الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ١)	إكوادو بانولى	مجموعة من المترجمين
٤٩٧-	العلمانية والنوع والدولة فى الشرق الأوسط	نادية العلى	مصطفى رياض
٤٩٨-	النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريودز	أحمد على بدوى
٤٩٩-	تقاطعات: الأمة والمجتمع والنوع	مجموعة من المؤلفين	فيصل بن خضراء
٥٠٠-	فى طفولتى: دراسة فى السيرة الذاتية العربية	تيتز رووكى	طلعت الشايب
٥٠١-	تاريخ النساء فى الغرب (جـ١)	أرثر جولد هامر	سحر فراج
٥٠٢-	أصوات بديلة	مجموعة من المؤلفين	هالة كمال
٥٠٣-	مختارات من الشعر الفارسى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد نور الدين عبدالمنعم
٥٠٤-	كتابات أساسية (جـ١)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٥-	كتابات أساسية (جـ٢)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٦-	ربما كان قديساً (رواية)	آن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥٠٧-	سيدة الماضى الجميل (مسرحية)	بيتر شيفر	شوقى فهيم
٥٠٨-	المولوية بعد جلال الدين الرومى	عبدالباقى جلبنارلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٥٠٩-	الفقر والإحسان فى عصر سلاطين المماليك	آدم صبرة	قاسم عبده قاسم
٥١٠-	الأرملة الماكرة (مسرحية)	كارلو جولدونى	عبدالرازق عيد
٥١١-	كوكب مرقَّع (رواية)	آن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥١٢-	كتابة النقد السينمائى	تيموثى كوريجان	جمال عبد الناصر
٥١٣-	العلم الجسور	تيد أنتون	مصطفى إبراهيم فهمى
٥١٤-	مدخل إلى النظرية الأدبية	جونثان كولر	مصطفى بيومى عبد السلام
٥١٥-	من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطى دوجلاس	فدوى مالطى دوجلاس
٥١٦-	إرادة الإنسان فى علاج الإدمان	أرنولد واشنطون ودونا باوندى	صبرى محمد حسن
٥١٧-	نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨-	استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	هاشم أحمد محمد
٥١٩-	محاضرات فى المثالية الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٥٢٠-	الولع الفرنسى بمصر من الحلم إلى المشروع	أحمد يوسف	أمل الصبان
٥٢١-	قاموس تراجم مصر الحديثة	أرثر جولد سميث	عبدالوهاب بكر
٥٢٢-	إسبانيا فى تاريخها	أميركو كاسترو	على إبراهيم منوفى
٥٢٣-	الفن الطليطلى الإسلامى والمدجن	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٥٢٤-	الملك لير (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٥٢٥-	موسم صيد فى بيروت وقصص أخرى	دنيس جونسون	نادية رفعت
٥٢٦-	أقدم لك: السياسة البيئية	ستيفن كرول ووليم رانكين	محيى الدين مزيد
٥٢٧-	أقدم لك: كافكا	ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب	جمال الجزيرى
٥٢٨-	أقدم لك: تروتسكى والماركسية	طارق على وفلْ إيفانز	جمال الجزيرى
٥٢٩-	بدائع العلامة إقبال فى شعره الأردى	محمد إقبال	حازم محفوظ
٥٣٠-	مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر

الرقم	العنوان	المؤلف	المترجم
٥٣١-	ما الذى حَدَثَ فى «حَدَث» ١١ سبتمبر؟	جاك دريدا	صفاء فتحى
٥٣٢-	المغامرُ والمستشرق	هنرى لورنس	بشير السباعى
٥٣٣-	تعلُّم اللغة الثانية	سوزان جاس	محمد طارق الشرقاوى
٥٣٤-	الإسلاميون الجزائريون	سيڤرين لابا	حمادة إبراهيم
٥٣٥-	مخزن الأسرار (شعر)	نظامى الكنجوى	عبدالعزيز بقوش
٥٣٦-	الثقافات وقيم التقدم	صمويل هنتنجتون ولورانس هاريزون	شوقى جلال
٥٣٧-	للحب والحرية (شعر)	نخبة	عبدالغفار مكاوى
٥٣٨-	النفس والآخر فى قصص يوسف الشارونى	كيت دانيلر	محمد الحديدى
٥٣٩-	خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	محسن مصيلحى
٥٤٠-	توجهات بريطانية - شرقية	السير رونالد ستورس	رءوف عباس
٥٤١-	هى تتخيل وهلاوس أخرى	خوان خوسيه مياس	مروة رزق
٥٤٢-	قصص مختارة من الأدب اليونانى الحديث	نخبة	نعيم عطية
٥٤٣-	أقدم لك: السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	وفاء عبدالقادر
٥٤٤-	أقدم لك: ميلانى كلاين	روبرت هنشل وآخرون	حمدى الجابرى
٥٤٥-	يا له من سباق محموم	فرانسيس كريك	عزت عامر
٥٤٦-	ريموس	ت. ب. وايزمان	توفيق على منصور
٥٤٧-	أقدم لك: بارت	فيليب تودى وآن كورس	جمال الجزيرى
٥٤٨-	أقدم لك: علم الاجتماع	ريتشارد أوزبرن وبورن فان لون	حمدى الجابرى
٥٤٩-	أقدم لك: علم العلامات	بول كوبلى وليتاجانز	جمال الجزيرى
٥٥٠-	أقدم لك: شكسبير	نيك جروم وبيرو	حمدى الجابرى
٥٥١-	الموسيقى والعولمة	سايمون ماندى	سمحة الخولى
٥٥٢-	قصص مثالية	ميجيل دى ثربانتس	على عبد الرءوف البمبى
٥٥٣-	مدخل للشعر الفرنسى الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	رجاء ياقوت
٥٥٤-	مصر فى عهد محمد على	عفاف لطفى السيد مارسوه	عبدالسميع عمر زين الدين
٥٥٥-	الإستراتيجية الأمريكية للقرن الحادى والعشرين	أناتولى أوتكين	أنور محمد إبراهيم ومحمد نصرالدين الجبالى
٥٥٦-	أقدم لك: چان بودريار	كريس هوروكس وزوران جيفتك	حمدى الجابرى
٥٥٧-	أقدم لك: الماركيز دى ساد	ستوارت هود وجراهام كرولى	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٨-	أقدم لك: الدراسات الثقافية	زيودين ساردارويورين فان لون	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٩-	الماس الزائف (رواية)	تشا تشاجى	عبدالحى أحمد سالم
٥٦٠-	صلصلة الجرس (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦١-	جناح جبريل (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦٢-	بلايين وبلايين	كارل ساجان	عزت عامر
٥٦٣-	ورود الخريف (مسرحية)	خاثينتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٤-	عُش الغريب (مسرحية)	خاثينتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٥-	الشرق الأوسط المعاصر	ديبورا ج. جيرنر	أحمد عبدالحميد أحمد
٥٦٦-	تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى	موريس بيشوب	على السيد على
٥٦٧-	الوطن المغتصب	مايكل رايس	إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٦٨-	الأصولى فى الرواية	عبد السلام حيدر	عبد السلام حيدر

٥٦٩- موقع الثقافة	هومى بابا	ثائر ديب
٥٧٠- دول الخليج الفارسى	سير رويرت هاى	يوسف الشارونى
٥٧١- تاريخ النقد الإسبانى المعاصر	إيميليا دى ثوليتا	السيد عبد الظاهر
٥٧٢- الطب فى زمن الفراعنة	برونو أليوا	كمال السيد
٥٧٣- أقدم لك: فرويد	ريتشارد ابيجنانس وأسكار زارتى	جمال الجزيرى
٥٧٤- مصر القديمة فى عيون الإيرانيين	حسن بيرنيا	علاء الدين السباعى
٥٧٥- الاقتصاد السياسى للعولمة	نجير وودز	أحمد محمود
٥٧٦- فكر ثربانتس	أمريكو كاسترو	ناهد العشرى محمد
٥٧٧- مغامرات بينوكيو	كارلو كولودى	محمد قدرى عمارة
٥٧٨- الجماليات عند كيتس وهنت	أيومى ميزوكوشى	محمد إبراهيم وعصام عبد الروف
٥٧٩- أقدم لك: تشومسكى	چون ماهر وچودى جرونز	محيى الدين مزيد
٥٨٠- دائرة المعارف الدولية (مج١)	چون فيزر وپول سيترجز	بإشراف: محمد فتحى عبدالهادى
٥٨١- الحمقى يموتون (رواية)	ماريو بوزو	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٢- مرايا على الذات (رواية)	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣- الجيران (رواية)	أحمد محمود	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٤- سفر (رواية)	محمود دولت آبادى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥- الأمير احتجاب (رواية)	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦- السينما العربية والأفريقية	ليزبيث مالكموس وروى آرمز	سهام عبد السلام
٥٨٧- تاريخ تطور الفكر الصينى	مجموعة من المؤلفين	عبدالعزيز حمدى
٥٨٨- أمنحوتپ الثالث	أنييس كابرول	ماهر جويجاتى
٥٨٩- تمبكت العجيبة	فيلكس ديبوا	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠- أساطير من الموروثات الشعبية الفنلندية	نخبة	محمود مهدى عبدالله
٥٩١- الشاعر والمفكر	هوراتيوس	على عبدالتواب على وصلاح رمضان السيد
٥٩٢- الثورة المصرية (جـ١)	محمد صبرى السوربونى	مجدى عبدالحافظ وعلى كورخان
٥٩٣- قصائد ساحرة	پول ڤاليرى	بكر الحلو
٥٩٤- القلب السمين (قصة أطفال)	سوزانا تامارو	أمانى فوزى
٥٩٥- الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ٢)	إكواڤو باتولى	مجموعة من المترجمين
٥٩٦- الصحة العقلية فى العالم	رويرت ديجارليه وآخرون	إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧- مسلمو غرناطة	خوليو كاروباروخا	جمال عبدالرحمن
٥٩٨- مصر وكنعان وإسرائيل	دونالد ريدفورد	بيومى على قنديل
٥٩٩- فلسفة الشرق	هرداد مهرين	محمود علاوى
٦٠٠- الإسلام فى التاريخ	برنارد لويس	مدحت طه
٦٠١- النسوية والمواطنة	ريان ڤوت	أيمن بكر وسمر الشيشكلى
٦٠٢- ليوتار:نحو فلسفة ما بعد حداثية	چيمس وليامز	إيمان عبدالعزيز
٦٠٣- النقد الثقافى	آرثر أيزابرجر	وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسى
٦٠٤- الكوارث الطبيعية (مج١)	پاتريك ل. أبوت	توفيق على منصور
٦٠٥- مخاطر كوكبنا المضطرب	إرنست زيبروسكى (الصغير)	مصطفى إبراهيم فهمى
٦٠٦- قصة البردى اليونانى فى مصر	ريتشارد هاريس	محمود إبراهيم السعدنى

٦٠٧-	قلب الجزيرة العربية (جـ١)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٨-	قلب الجزيرة العربية (جـ٢)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٩-	الانتخاب الثقافى	أجنر فوج	شوقى جلال
٦١٠-	العمارة المدجنة	رفائيل لويث جوثمان	على إبراهيم منوفى
٦١١-	النقد والأيديولوجية	تيرى إيجلتون	فخرى صالح
٦١٢-	رسالة النفسية	فضل الله بن حامد الحسينى	محمد محمد يونس
٦١٣-	السياحة والسياسة	كولن مايكل هول	محمد فريد حجاب
٦١٤-	بيت الأقصر الكبير(رواية)	فوزية أسعد	منى قطان
٦١٥-	عرض الأحداث التى وقعت فى بغداد من ١٩٩٧ إلى ١٩٩٩	أليس بسيرينى	محمد رفعت عواد
٦١٦-	أساطير بيضاء	روبرت يانج	أحمد محمود
٦١٧-	الفولكلور والبحر	هوراس بيك	أحمد محمود
٦١٨-	نحو مفهوم لاقتصاديات الصحة	تشارلز فيلبس	جلال البنا
٦١٩-	مفاتيح أورشليم القدس	ريمون استانبولى	عايدة الباجورى
٦٢٠-	السلام الصليبى	توماش ماستناك	بشير السباعى
٦٢١-	رباعيات الخيام (ميراث الترجمة)	عمر الخيام	محمد السباعى
٦٢٢-	أشعار من عالم اسمه الصين	أى تشينغ	أمير نبيه وعبدالرحمن حجازى
٦٢٣-	نوادر جحا الإيرانى	سعيد قانعى	يوسف عبدالفتاح
٦٢٤-	شعر المرأة الأفريقية	نخبة	غادة الحلوانى
٦٢٥-	الجرح السرى	چان چينيه	محمد برادة
٦٢٦-	مختارات شعرية مترجمة (جـ٢)	نخبة	توفيق على منصور
٦٢٧-	حكايات إيرانية	نخبة	عبدالوهاب علوب
٦٢٨-	أصل الأنواع	تشارلس داروين	مجدى محمود المليجى
٦٢٩-	قرن آخر من الهيمنة الأمريكية	نيقولاس جويات	عزة الخميسى
٦٣٠-	سيرتى الذاتية	أحمد بللو	صبرى محمد حسن
٦٣١-	مختارات من الشعر الأفريقى المعاصر	نخبة	بإشراف: حسن طلب
٦٣٢-	المسلمون واليهود فى مملكة فالنسيا	دولورس برامون	رانيا محمد
٦٣٣-	الحب وفنونه (شعر)	نخبة	حمادة إبراهيم
٦٣٤-	مكتبة الإسكندرية	روى ماكلويد وإسماعيل سراج الدين	مصطفى البهنساوى
٦٣٥-	التثبيت والتكيف فى مصر	جودة عبد الخالق	سمير كريم
٦٣٦-	حج يولندة	جناب شهاب الدين	سامية محمد جلال
٦٣٧-	مصر الخديوية	ف. روبرت هنتر	بدر الرفاعى
٦٣٨-	الديمقراطية والشعر	روبرت بن وارين	فؤاد عبد المطلب
٦٣٩-	فندق الأرق (شعر)	تشارلز سيميك	أحمد شافعى
٦٤٠-	ألكسياد	الأميرة أنَّاكومنينا	حسن حبشى
٦٤١-	برتراند رسل (مختارات)	برتراند رسل	محمد قدرى عمارة
٦٤٢-	أقدم لك: داروين والتطور	چوناثان ميلر ويورين ڤان لون	ممدوح عبد المنعم
٦٤٣-	سفرنامه حجاز (شعر)	عبد الماجد الدريابادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٦٤٤-	العلوم عند المسلمين	هوارد د.تيرنر	فتح الله الشيخ

٦٤٥- السياسة الخارجية الأمريكية ومصادرها الداخلية	تشارلز كجلى ويوجين ويتكوف	عبد الوهاب علوب
٦٤٦- قصة الثورة الإيرانية	سيهر نبيح	عبد الوهاب علوب
٦٤٧- رسائل من مصر	چون نينيه	فتحى العشرى
٦٤٨- بورخيس	بياتريث سارلو	خليل كلفت
٦٤٩- الخوف وقصص خرافية أخرى	چى دى موپاسان	سحر يوسف
٦٥٠- الدولة والسلطة والسياسة فى الشرق الأوسط	روچر أوين	عبد الوهاب علوب
٦٥١- ديليسبس الذى لا نعرفه	وثائق قديمة	أمل الصبان
٦٥٢- ألهة مصر القديمة	كلود ترونكر	حسن نصر الدين
٦٥٣- مدرسة الطغاة (مسرحية)	إيريش كستنر	سمير جريس
٦٥٤- أساطير شعبية من أوزبكستان (جـ١)	نصوص قديمة	عبد الرحمن الخميسى
٦٥٥- أساطير وآلهة	إيزابيل فرانكو	حليم طوسون ومحمود ماهر طه
٦٥٦- خبز الشعب والأرض الحمراء (مسرحيتان)	ألفونسو ساسترى	ممدوح البستاوى
٦٥٧- محاكم التفتيش والموريسكيون	مرثيديس غارثيا أرينال	خالد عباس
٦٥٨- حوارات مع خوان رامون خيمينيث	خوان رامون خيمينيث	صبرى التهامى
٦٥٩- قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية	نخبة	عبداللطيف عبدالحليم
٦٦٠- نافذة على أحدث العلوم	ريتشارد فايفيلد	هاشم أحمد محمد
٦٦١- روائع أندلسية إسلامية	نخبة	صبرى التهامى

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٤٥٧٠ / ٢٠٠٤